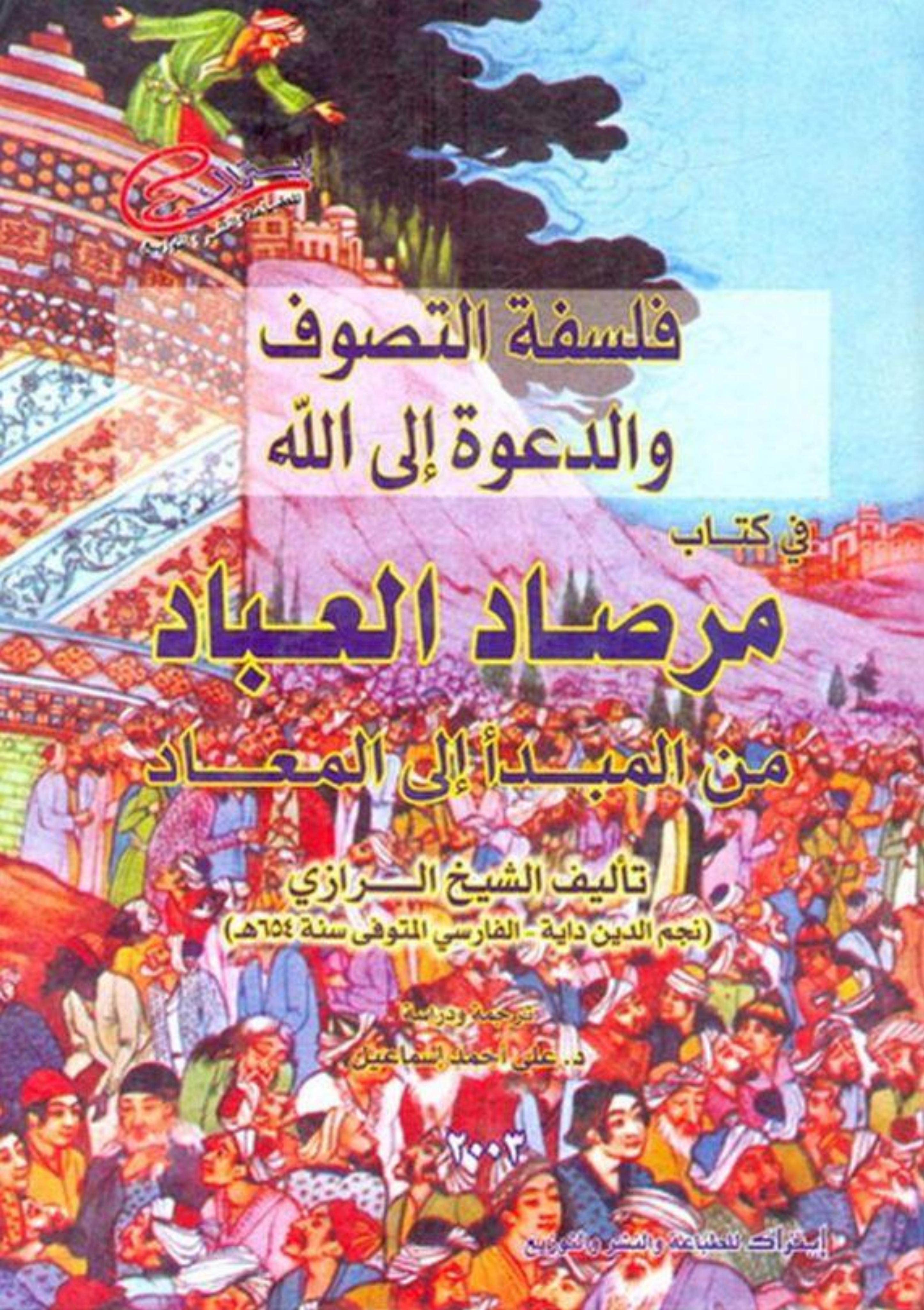


فلسفة التصوف والدعوة إلى الله

في كتاب

مرصاد العباد

من المبدأ إلى المعاد

تأليف الشيخ الرازي

(نجم الدين داية - الفارسي المتوفى سنة ٦٥٤هـ)

ترجمة ودراسة

د. علي أحمد إسماعيل

٢٠٠٣

إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع

فلسفة التصوف والدعوة إلى الله

في كتاب

مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد

تأليف الشيخ

نجم الدين الرازي

ترجمة ودراسة

د. على أحمد إسماعيل

القاهرة

١٤٢٢ هـ ــ ٢٠٠٢ م

رقم الإيداع

٢٠٠٢/٩١٢٥

الترقيم الدولى I.S.B.N.

977-5723-68-X

ايتراك للنشر والتوزيع

طريق غرب مطار ألماظة عمارة (١٢) شقة (٢) ص.ب : ٥٦٦٢

هليوبوليس غرب – مصر الجديدة

القاهرة ت : ٤١٧٢٧٤٩ فاكس : ٤١٧٢٧٤٩

بسم الله الرحمن الرحيم

قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون

صدق الله العظيم

إهداء

إلى روح والدي، رحمه الله تعالى، ربيب الأزهر وجامعته، الذي علمني الحروف الأولى من مبادئ لغة الضاد.. لغة القرآن الكريم، والذي أفاض عليّ من علمه وأدبه وأخلاقه، حيث أراد أن استقي منهج الحياة الصحيحة السليمة، حتى أسير على دربه كي أصل إلى غاية الحقيقة التي ينشدها كل من أراد السعادة في الدارين، أثابه الله وجعل الجنة مأواه.

إلى روح والدتي رحمها الله تعالى وأثابها عن أولادها وذريتها وعن أبينا خير الثواب والجزاء، داعين الحق تعالى أن يجعل مثواهما الفردوس الأعلى، إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير.

إلى أسرتي الصغيرة وربتها وبراعمها الزاهرة (أسماء ومحمد وإيمان وأحمد) بارك الله لهم وفيهم، وهداهم إلى الطريق القويم المستقيم.

إلى أشقائي الأعزاء وأهل عشيرتي، عفا الله عنهم وسدد خطاهم.

... إليهم جميعاً:-

أهدى هذا السفْر المتواضع الذي أقدمه خطوة على طريق الحياة، حياة العلم والمعرفة التي تدعو إلى رحاب الإيمان واليقين، حتى نرتوي منه ما نشاء حيث: "يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات".

صدق الله العظيم

علي أحمد إسماعيل

جامعة الأزهر

ذكرى وإهداء

إلى روح العالم الجليل..

إلى فضيلة شيخ الإسلام وشيخ الأزهر الأسبق وشيخ أسرتنا الأحمدية: الإمام الأكبر الدكتور/ عبد الحليم محمود الذي كان وما زال مناراً يجذبنا بنهجه وعلمه إلى تعلم ثوابت العلم ومكارم الأخلاق قدر الإمكان؛ مما حفّزني ودفعني لإنجاز هذا العمل المتواضع راجياً به وجه الحق تعالى. فندعو الله تعالى أن يجزيه عنا وعن المسلمين خير الثواب والجزاء وبارك الله في نسله وآله، كما نسأله تعالى الرحمة والدرجات العلا له ولنا أجمعين، ونفعنا الحق بعلمه ومكارم أخلاقه.. آمين يا رب العالمين.

وكذلك أبث شكري الوافر وأقدم امتناني الكبير وإهدائي للشيخ الجليل الأستاذ الدكتور/ حسن عباس زكي، الرجل العالم والوزير الأسبق الملقب بالاقتصادي الصوفي، العاشق للعلم الرباني، والذي أخذ يحثني دائماً وأبداً على ضرورة الاهتمام بهذا الكتاب وضرورة ظهوره في الأوساط العلمية نظراً لأهميته الدينية والصوفية والتاريخية، أثابه الله وجزاه خيراً عن الجميع.

آل أحمد وبنوه

عرفان وتقدير

لأستاذي العالم الجليل الأستاذ الدكتور/ عبد النعيم محمد حسنين ــ الأستاذ السابق بجامعتي عين شمس والأزهر، رحمه الله، الذي كان سبباً في دراستي لهذا الموضوع وأضاء لي مصابيح النور في دياجير الظلام حتى استضيء بنورها وأسير على هديها حتى يكتمل هذا العمل وينبثق فجره باسماً. فجعل الله الجنة مأواه.

إلى أخي الأكبر المرحوم العالم الأستاذ الدكتور/ إبراهيم الدسوقي شتا، الأستاذ السابق بجامعة القاهرة، الذي تكرم عليّ مشكوراً بوقته وجهده وأفاض عليّ بتوجيهاته العديدة ونصائحه السديدة حين ترجمة هذا الكتاب حتى يخرج إلى النور وينتفع به من أراد النفع والفائدة. طيب الله ثراه.

وإلى أساتذتي الأجلاء وزملائي وتلاميذي في كل مكان.

وإلى كل المحبين لله وفي الله والعاشقين لمحبته ونوره.

إليهم جميعاً:

أزجي عرفاني وتقديري، جزاهم الله عني وعن الجميع خير الجزاء والثواب، وأبتهل إليه تعالى بقوله:

"ربنا لا تُزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب".

صدق الله العظيم

أبو محمد

مقدمة المترجم

حين أردت ترجمة هذا الكتاب "**مرصاد العباد**" لمؤلفه الشيخ/ نجم الدين داية، من الفارسية إلى العربية، وجدتني أمام خضم هائل يضم الكثير من الجوانب التي تحتاج إلى الغوص ـ بالصبر والأناة ـ في خضمه العميق والبحث على شواطئه حتى نصل إلى غاية كل دارس وباحث.

وبعد تأمل وجدت أن ترجمة الكتاب وحدها لا تكفي ولا تفي بالغرض المنشود كي نفهم شخصية المؤلف وحياته وفكره ومعتقداته التي نرى ضرورة إيضاحها.

وكان أول عمل فكرت فيه هو ترجمة كتاب مرصاد العباد إلى العربية حتى يكون نبراساً نسير على هداه في هذا العمل الذي نقوم به؛ فكم لاقيت من المشاق، لسنوات عديدة خلت، في ترجمة الأربعين فصلاً التي يتضمنها الكتاب ويربو عدد صفحاتها على الثلاثمائة وخمس عشرة صفحة تقريباً في الأصل الفارسي، وكم عانيت من الجهد في ترجمة وشرح أساليب الكتاب المختلفة وموضوعاته العديدة التي تشملها أبوابه الخمسة المتفرقة المعاني والأفكار في شتى مناحي الحياة والمعرفة الروحية والمادية.

ومما يلفت النظر في الترجمة نفسها هو أسلوبها السهل الممتنع حسبما تتضمن من المعاني المختلفة الأفكار والآراء والمباحث العديدة المتنوعة من قبيل الخلق والموجودات والنفس والروح والإنسان وغيرها من الموضوعات التي جعلتني أتيه فيها بمواصلة العمل ليل نهار، بلا كلل أو ملل، كي نصل إلى غايتنا

المنشودة، وآمل من الله تعالى أن أكون قد وفقت في هذا قدر الإمكان وأن يغفر لي الذلل والخطأ إنه نعم المولى ونعم النصير.

ومن خلال ترجمتي لهذا الكتاب القيم النفيس، وجدت العديد من الأمور كان لزاماً عليّ أن أقوم بها وأثبتها هنا أيضاً:

فكان أول شيء هو استخراج الآيات القرآنية التي جاهدت لاستخراجها وتحقيقها وتصحيح كل ما يدور حول السور القرآنية وآياتها التي وجدت فيها الكثير من المغالطات فأوضحتها ضمن متن الترجمة قدر المستطاع.

أما بقية الموضوعات والأفكار التي تحتاج إلى تعليق أو إيضاح، وكذلك شروح الأشعار الفارسية والعربية، فقد قمت بها وأثبتها في موضعها اللازم لها، سواء من خلال الدراسة أو خلال الترجمة العربية للكتاب والتي أوضحت في هوامشها كثيراً من الشروح والتعليقات والإيضاحات قدر الإمكان.

ومما هو جدير بالذكر أيضاً بالنسبة للترجمة، فلابد أن أثبت هنا أن هنالك الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة والأمثلة العربية التي كان المؤلف نفسه (الشيخ داية) قد ترجم معانيها إلى الفارسية بجانب صيغها العربية الأصيلة، فوجدت أنه من الأفضل الاستغناء عن الترجمة الفارسية والاكتفاء بذكر النص العربي كما أثبته المؤلف ضمن كتابة المرصاد.

ولا أنسى أن أشير إلى شيء آخر هنا، هو أنني بعد ترجمة الكتاب الذي يتضمن الأربعين فصلاً متباينة الموضوعات والأفكار والمباحث الفلسفية والصوفية والدينية بشتى مناهجها ومناحيها الإرشادية والدعوية، وجدتني أقف حائراً أمام عنوان الكتاب من خلال مباحثه وموضوعاته الشاملة لأنواع ثلاثة من

المعرفة عن المبدأ والمعاش والمعاد وكلها توجيه ودعوة إلى طريق الحق والرشاد، فرأيت أنه لابد من الإشارة إلى ذلك بأن أضيف هذا المفهوم لعنوانه بما لا يبعد ولا يحيد عن عنوان الكتاب الأصلي ومفهومه العلمي نظراً لشمول الكتاب علىموضوعات ومباحث عن هذا المرصاد الرباني من بداية الخلق إلى معادهم يوم النشور: (من المبدأ إلى المعاد) طبقاً لقول الحق تعالى في سورة يونس: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ (آية ٤) وغيرها العديد من السور القرآنية التي تتجلى فيها قدرة الله وعظمته في مبدأ الخلق ومعاده، كما ذكرها لنا في كتابه الكريم في سُوَره العظيمة مثل: الأعراف ــ آية ٢٩ ، الأنبياء ــ آية ١٠٤ ، يونس ــ أية ٤ + ٣٤ ، النمل ــ آية ٦٤ ، الروم ــ آية ١١ + ٢٧ ، العنكبوت ــ آية ١٩ ثم سورة البروج ــ آية ١٣. وهذا سر قدرته ورمز سرمديته وعظمته جل وعلا.

أما عن موضوعات الكتاب الذي قمت بترجمته إلى العربية، فبالإضافة إلى مقدمة ناشره حسين الحسيني نعمة الله الملقب بشمس العرفاء[1]، وبعدها مقدمة المؤلف نفسه الشيخ داية، فالكتاب يتضمن خمسة أبواب ثابتة نوجزها فيما يلي:

الباب الأول : في مقدمة الكتاب ويشتمل على ثلاثة فصول.

الباب الثاني : في مبدأ الموجودات ويحتوي على خمسة فصول.

الباب الثالث : في معاش الخلق ويتكون من عشرين فصلاً.

---

(١) نُشر هذا الكتاب في طهران عام ١٣٧٧هـ (الموافق ١٣٣٦ ش)، وقد اعتمدت في الترجمة على هذه النسخة المطبوعة، ثم صدرت بعد ذلك طبعة أخرى للكتاب نفسه محققة ومدروسة للدكتور/ محمد أمين الرياحي حيث اعتمدت في دراستي للكتاب على بعض المباحث والموضوعات المتنوعة التي قام بها المحقق الدكتور/ محمد أمين الرياحي ــ رحمه الله.

الباب الرابع : في معاد نفوس السعداء والأشقياء ويتضمن أربعة فصول.
الباب الخامس : في بيان سلوك الطوائف المختلفة ويتكون من ثمانية فصول.

وعلى هذا فقد قصرت الجزء الثاني من الدراسة على ترجمة الكتاب بعدما قمت بعمل بعض التحقيقات والشروح المختلفة على فصول الترجمة كما أوضحنا سابقاً.

وبعد الترجمة كانت الدراسة للجزء الأول من الكتاب والذي قدمت به الترجمة، وقد سطرتها في عدة مباحث هي..

المبحث الأول : الشيخ نجم داية وحياته.
المبحث الثاني : مؤلفات نجم الدين الرازي وآثاره.
المبحث الثالث : فكر الشيخ داية ومعتقداته.

أما عن أهمية كتاب المرصاد فلنا عليه عدة ملاحظات هي:

فبالإضافة إلى تنوع مطالبه في كثير من الموضوعات الدينية والصوفية والاجتماعية والتاريخية والأدبية، فإن المؤلف يؤكد لنا أنه كان رجلاً عالماً وبصيراً وعارفاً بعلوم معاصريه وسابقيه.

ويحتوي المرصاد على العديد من الموضوعات، فهو مرصع بالكثير من الآيات القرآنية الشريفة التي تأتي حسب مذاق الصوفية وأذواقهم، مما يعطينا مفهوماً خاصاً عن أهمية هذا الكتاب من ناحية التفسير لآيات القرآن الكريم وخاصة أن المؤلف كاتب للتفسير القرآني في كتابه: " بحر الحقائق والمعاني في التفسير القرآني ".

وأيضاً فقد استشهد المؤلف في كتابه بقدر كبير من الأحاديث النبوية سواء في افتتاحيات الفصول أو في ثنايا النص؛ والكتاب مليء بالأحاديث التي يبلغ قدرها حوالي المائتين والتسعين حديثاً، غير الأحاديث المكررة.

وعلى هذا نستطيع أن نفهم أن طريقة داية تقوم على أساس إيراد الأحاديث والآيات التي جعلت عمله رائعاً، فهو يستخدم الآية في صدر كل فصل في افتتاحية فصوله الأربعين، ويورد بعدها الحديث تبركاً بقول الحق تعالى والرسول عليه السلام، وغالباً ما يقوم على أساسها الفصل في الشرح والبيان.

وكذلك فالمؤلف يستشهد في كل كتابه بالآيات والأحاديث لإثبات كلامه وتأكيد معانيه، التي يذكرها، بصورة أوضح وأشمل. وإننا نعرف أنه قبل المرصاد قد ألفت ــ باللغة الفارسية والعربية الكثير من الكتب مثل كشف المحجوب للهجويري وأسرار التوحيد لابن المنور والرسالة القشيرية للقشيري وإحياء علوم الدين للغزالي وغيرها الكثير، ثم جاء بعدها مرصاد العباد الذي يعتبر من أشهر آثار الصوفية، وصار موضع الاهتمام نظراً لأهميته الصوفية وشموله على الموضوعات الهامة من أصول وعقائد التصوف وإيضاحه لطريق أهل التصوف سيراً على نهج الصراط المستقيم.

كما يمتاز المرصاد بكثرة المصطلحات والتعبيرات الصوفية التي يتجلى بها الكتاب، ويحتوي أيضاً على الحديث عن العديد من العارفين والشيوخ السابقين والمعاصرين للمؤلف وأحوالهم وأفكارهم التي استفاد ببعضها في الكثير من موضوعات كتاباته. وهذا يوضح لنا ثقافة داية المختلفة المشارب والروافد العلمية التي أثرت عليه وعلى فكره والتي نوجزها هنا لنقوم بنشرها في دراسة خاصة عن ثقافة الشيخ الفكرية والعلمية وشيوخه الكثيرين وتلاميذه ومريديه.

فبالإضافة إلى تربية داية ونشأته الدينية والعلمية والثقافات المختلفة خلال سياحاته وحياته، والتي وضحت في شتى كتاباته، فهناك أيضاً العديد من الشيوخ الذين أثروا عليه وعلى فكره ودراساته مثل الشيخ نجم الدين الكبرى، الشيخ مجد الدين البغدادي، الشيخ شهاب الدين السهرودي، الشاعر سنائي الغزنوى، سعيد بن أبي الخير، الأنوري الخاوراني، الفخر الرازي، صدر الدين القونيوي، عمو الخيام، الهجويري الغزنوي، أحمد الغزالي الطوسي (الأخ الأصغر لمحمد الغزالي)، أبي طالب المكي، الرودكي، الفردوسي، أديب صابر الترمذي وحجة الإسلام الشيخ محمد الغزالي، وغيرهم من الشيوخ الذين ورد ذكرهم في المرصاد كسابقيهم أمثال الشيخ أحمد جام، الشيخ محمد الكوفي، الشيخ علي المؤذن، الشيخ علي البونياقي، الشيخ أبو بكر الجامي، الشيخ يوسف الهمداني، الشيخ أبو علي الدقاق النيسابوري، الحسين بن منصور الحلاج، أبو عثمان الحيري، الجنيد البغدادي، أبو إسحق الخواص، أبو يزيد البسطامي، أبو تراب النخشبى، يوسف الرازي (شيخ الري والجبال)، شقيق البلخي، أبو الحسن الخرقاني، الشيخ عبد الله الأنصاري، أبو بكر شانيان القزويني، وهم الشيوخ والعلماء الذين فعلوا فعلهم وأثروا بنماذج أعمالهم في آراء وأفكار الشيخ داية.

ومن الشيوخ الذين نهلوا واستدانوا من مؤلفات وعلوم الشيخ داية نذكر المصلح الاجتماعي سعدي الشيرازي والشيخ جلال الدين الرومي القونيوي المولوي، وغيرهم الكثير من تلاميذه الذين استقوا فكره وعلمه.

وإضافة لما سبق فالكتاب يقدم لنا المعارف القيمة عن وضع وسلوك الطبقات المختلفة للشعب وآدابه ورسومه في ذلك العصر، مثلما يحكي لنا الاضطراب العام من سيل المغول وهجومهم المروع على الشعوب الآمنة. وكذلك يتحدث الكاتب عن فساد الناس وأجهزة الحكومة والخدمة والبرطلة

والرشاوي وأثرها في أخلاق وشعوب مجتمعات ذلك العصر. ويبين الكاتب كذلك رأيه في سلوك علماء الفتوى وطبقات الفقهاء والقضاة ويشرح أحوالهم، كما يشرح أحوال وسلوك أرباب النعم وأصحاب الأموال، والرؤساء والدهاقين والزراع، وغيرهم من أهل التجارة وأصحاب الحرف والصناعات.

وهناك موضوعات أخرى توضح لنا صورة العصر الذي عاشه المؤلف ومنها رسم الصوفية ونظامهم وعلاقة المريد بالمراد، كما يتحدث عن بيان الاحتياج للذكر ونظامه وشروطه، ثم يبين لنا الخلوة وشروطها وآدابها. ويتحدث المؤلف كذلك عن السماع وأحواله وآدابه وعُرس الصوفية عند وفاة عزيز لديهم.

وإذا نظرنا إلى الجانب الأدبي، فإننا نجد أن المرصاد يُعد نموذجاً رائعاً للنثر الفارسي، وتذكاراً أدبياً للغة الفارسية، في عصر حملة المغول. فموضوعاته تُعد من أفضل المراجع الفارسية نظراً لأهميتها العلمية كحملة كفار التتار على البلاد وبعدها قصة خلق الإنسان والكون والسماء والأرض، وكذلك موضوعاته الصوفية التي هي أساس دراسته، والتي تعطيه كلها أهمية وقيمة خاصة لمؤلفه.

والكتاب كذلك، يشتمل على الكلمات والتراكيب والتعبيرات والأمثلة والموضوعات المختلفة والتي جعلته كبحر لجي من المعاني والألفاظ.

ولا ننسى الأشعار الفارسية الجميلة التي يزخر بها المرصاد ومنها جزء كبير لنفس الشاعر (داية) والباقي لشعراء مشهورين ممن أوضحنا بعضاً منهم من السابقين عليه أو المعاصرين له والذين استقى منهم وعنهم.

وقد أضاف نجم داية إلى شعره الفارسي جمالاً آخر بالاستفادة من الشعر العربي خاصة في موضوعات الحق والقلب والعشق والجمال، فجاءت صورتها شاملة للأعمال الرائعة التي أضفت روعة لأهمية المرصاد وموضوعاته.

وبهذا فإن هذه النماذج التي تحدث عنها المؤلف يمكن أن تُعد وثائق تاريخية هامة للحضارة الإيرانية وشعوبها، كما تُعد مرجعاً هاماً يمكن الاعتماد عليه والإفادة منه في كل مناحي الحياة والحضارة والحكمة العلمية والعملية.

وبعد هذا، وقبل أن أنسى، فلابد أن أسدي الجميل لصاحبه وأعني به المرحوم الأستاذ الدكتور/ محمد أمين الرياحي (الإيراني الأصل) حيث أنني قد أفدت في دراستي هذه بالعديد من الإيضاحات والتعليقات والشروح التي أوردها رحمه الله في ثنايا كتاب المرصاد الذي أصدره بعد التحقيق والدراسة في طهران عام ١٩٧٣م (١٣٥٢ش)؛ ومع أنني لم أرجع إلى النص الفارسي المحقق حين ترجمة الكتاب، لكني وجدت أنه من الأمانة والواجب أن أشير إلى هذا مُسدياً شكري وامتناني العميق لهذا العالم، طيب الله ثراه، لما أفادنا من علمه وفكره عن الشيخ داية.

وأقدم شكري الجليل لأستاذي الأستاذ الدكتور/ بديع محمد جمعة الأستاذ بكلية الآداب جامعة عين شمس الذي عاونني وأرشدني بآرائه الكثيرة في موضوعي هذا، مما أعانني على الاسترشاد بها في كتابي هذا.

ولا أنسى أن أكرر شكري ودعواتي لأخي الشيخ الأستاذ/ محمد محمود عبد المجيد (الأستاذ بجامعة الأزهر) الذي ظل يدفعني مشجعاً ومحفزاً لإخراج هذا الكتاب الديني الصوفي إلى النور ليفيد منه الجميع، فاسأل الله التوفيق له ولنا وللجميع، وأذكر بالشكر والدعاء له أخي الدكتور/ محمد النجار بكلية اللغات والترجمة الذي له الفضل في مراجعة الكثير من صفحات هذا الكتاب جزاه الله وعفا عنه وعنا جميعًا.

وكذلك لابد أن نعطي لكل ذي حق حقه، فأكـــــرر تقديـري واحـترامي وشكري لأخي وزميلي الدكتور/ سمير عباس زهران بجامعة عين شمس، والذي قدره الله سبباً مقدوراً للقاء صاحب دار النشر (إيتراك) الذي وعد بأن يكون هـذا العمل تقرباً وقربة إلى الله، والذي آمل كذلك في أن يلقى هذا الكتاب حقه وقـدره على يديه، وأعني به الأخ الأستاذ الحاج/ سيد شحاته، الذي صار إليه مآل نشـو هذا الكتاب رغم الوسائل والسبل العديدة التي تهيأت لي من قبل لنشره، لكـن الله غالب على أمره، الذي يقدره بأمره تعالى ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ ، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾.

وختامــاً اسأل الله تعالى أن أكون قد وفقت بعض الشيء فيما ينفع الله بـه من أراد النفع إنه على كل شيء قدير، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وفي النهاية أدعوه تعالى بقوله الكريم: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَــا ذُنُوبَنَــا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾ صدق الله العظيم.

الهرم في عام ١٤٢٢هـ — علي أحمد إسماعيل علي

يناير ٢٠٠٢م — كلية اللغات والترجمة - جامعة الأزهر

الجزء الأول

الشيخ نجم الدين داية ومؤلفاته وفكره

ويتضمن ثلاثة مباحث هي:

المبحث الأول: الشيخ نجم الدين داية وحياته

المبحث الثاني: مؤلفات الشيخ الرازي وآثاره

المبحث الثالث: فكر الشيخ داية ومعتقداته

المبحث الأول

الشيخ نجم الدين داية وحياته

منزل الشيخ وطفولته

إذا كان الشيخ داية قد عاش عصره وسط ما لاقاه من الظروف العامة، وما عاصره من الأحداث الجمة، فهذه لم تكن شافية ولا كافية -إلا بالقدر اليسير- لفهم واقعه وبيئته. وعلاج هذا الأمر هو العودة إلى الواقع لدراسته دراسة الصابر لكي نتيح الفرصة لما فيه من نواح جديدة أن تفعل فعلها في عقولنا، وترسخ فيها، لعلها تفرخ فيها نتاجًا من نوعها (١).

وشيخنا داية قد شب وترعرع كغيره في منطقة الري في إيران، والتي كانت منسوبة منذ القدم إلى زرادشت، كبير الزرادشتية، كما كانت عاصمتهم أيضاً، وقد لقبه الأعراب وأسموه "مصمغان"، وهي مركبة من مقطعين: "مس" بمعنى كبير، و"مغان" جمع مغ ومعناها "كبير المغان"، ويقال إنه كان من أولاد أرمائيل الذي كان وزيراً للضحاك وخلص جمعاً كثيراً من القتل.

والري في الأصل كانت تسمى "رز" وما ينسب إليها كان يسمى "رزي" والتي صارت فيما بعد "الرازي". وأصل اسم الري، بناء على قول هذا الفقيه الذي فصلها في قصته "المصمغان" (ص٢٦٨-٢٧٦ طبع ليدن)، كانت بور أنجير، وسماها الشعب بهرير، وهي بلا شك خرافة ولا أساس لها (٢).

---

(١) جورج سانتيانا : الإحساس بالجمال : ص ١٧٧ (الترجمة العربية)

(٢) محمد تقى بهار : سبك شناسى : جلد سوم : ص ٧٤-٧٥.

والري من البلاد القديمة العظيمة في عراق العجم، وقد أُختلف في تأسيسها، فبعضهم يعتبر أن مؤسسها هوشنگ (هو شنج) والبعض يقول إنه النبي شيث، وهناك الكثير من الأحاديث والكتابات عن عمران الري في أنها ليست خالية من الغرائب، وقد خربت الولاية المذكورة مرات عديدة بالقتل العلم والاضطرابات كما حدث في فتنة جنگيزخان، ولم تقم لها قائمة العمران بعد خرابها في عصر التيموريين. والري، بسبب الانغلاق الواقع والمتصفة به ووجود الجداول والأنهار الموبؤة في الصيف وفصل الخريف، كان ينتشر فيها الوباء وكثرت القنوات، التي ما زال بعضها جارياً حتى الآن، ونضب نهر الكرج الكبير الذي يجري في جميع تيارات مجاريه منذ الخوالي، وقلّت المحصولات الوفيرة والفواكه الجيدة في ذلك الربع، كما افتقرت مزارع الفواكه والمراعي في إيران.[1]

وإذا جاز لنا القول -بناء على ما تقدم- بأن نستخدم الظروف الطبيعية للبحث عن حقيقة حياة نجم الدين داية، فإننا نجد خير منهج يعبر عنها، طبقاً لأسلوب الدراسة الأدبية، هو استقراء ضوء حياته من خلال كتاباته أو ما يعبر عنها، إذ التعبير عنها يكون باللغة باعتبارها أداة الكاتب و الباحث للوصول إلى الحقيقة.

وبمحاولة كشف النقاب عنه لتنقشع ظلمات حياته، يمكن القول إن مولده ومنشأه -بإجماع جميع المؤرخين والكتاب- كان في مدينة الري. وكتاباته هو نفسه مؤيدة لذلك، فيقول ضمن رباعية شعرية ما ترجمته:

---

(١) لطف على بك : آتشكده آذر : ص ١٩٩-٢٠٠ ، (ونلاحظ أن هذه الكلمات كانت حتى زمن المؤلف نفسه فقط ، وليست مرتبطة بما بعده) (المترجم)

ومن تلك الناحية الأخرى من العدم قطعت كثيراً (مــن الطــرق)
فكنـــت رازيـــاً والآن أصبحـــت السَـــر كلـــه [١] .

وعند حديثه عن قتل المغول، الذين عاصر أحداثهم يقول: "هذه الحادثـــة هي في الحقيقة ما رآه الرسول عليه السلام بنور النبوة منذ نيف وستمائة عـــام، فأنى للقتل أن يكون أكثر من هذا؟، وقد قتلوا وخربوا الكثير من المدن والولايات من حدود التركستان إلى حدود الشام والروم، لدرجة أنه من مدينة الري وحدهـا -على سبيل المثال- وهي مولد هذا الضعيف ومنشؤه، قتل وأســر أكــثر مــن سبعمائة ألف نسمة على الأقل من المدينة والولاية [٢] .

مولد داية:

هناك مصدر[٣] يقول إنه ولد بخوارزم، ولا نعرف من أين جاء كاتبه بهذا القول؟! ولكن أحد المصادر الأخرى[٤] (رياض العارفين) قد ذكر رأياً عجبـاً، إذ يقول صاحبه إن مسقط رأس داية في طهران، ومن المحتمل أن يذكر هذا علـى أساس أن الري، كما رأينا عند بهار، كانت عاصمة ومقراً لحكومة الزرادشـتيين قديماً، أما اليوم فقد أصبحت - كما ذكر آذر[٥] - مدينة طهران هي عاصمة تلك

(١) نجم الدين داية : مرصاد العباد : ص ١٩، وكلمة رازى هنا هى لقب الشاعر داية ومعناها لغويا السَـو ونلاحظ أن الشيخ قد استخدم الأسلوب الاستعارى في الربط بين اللقب (الرازي) وبيــن كلمــة (راز) الفارسية والتي تعني بالعربية (السر) البلاغي. (المترجم)

(٢) المصدر السابق: ص ٩ .

(٣) عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين : جـ ٦ : ص ١٢٢ .

(٤) رضا قلي خان هدايت : رياض العارفين : ص ٢٤٨ .

(٥) لطف على بك : آتشكده آذر : ص ١٩٩ .

الديار وهي التي كانت قرية في أول الأمر. وإذا كان صاحب رياض العارفين يعني غير هذا، فهو غير مقبول.

وإذا أردنا تحديد مولد هذا الشيخ، فطبيعي أننا سنعود إلى ما ذكرته المصادر المختلفة، وعلى قمتها الكتابات والمؤلفات الخاصة به، لتؤكد لنا جميعها كيفية إمكان تحديد تاريخ مولده؟.

فأحد المصادر[١] يقول إنه ولد عام ٥٦٤هـ (١١٦٨م) ويذكر غيره نقلاً عن كتاب مجمل فصيحي للخوافي (جـ ٢: ص ٢٦٢) أنه ولد عام ٥٧٣هـ[٢]. وسنحاول هنا معرفة التاريخ الصحيح من بين سطور الشيخ نفسه عندما يقول: "وقد طاف هذا الضعيف ببلاد الإسلام، شرقاً وغرباً، قرابة الثلاثين عاماً"[٣]. وكان تأليفه لكتابه المرصاد عام ٦٢٠هـ كما ذكر هو نفسه[٤] في كتابه المرصاد.

ولو افترضنا -بناء على ذلك- أنه بدأ رحلته وهو في غضون العشرين عاماً من عمره، فإنها تكون قد بدأت منذ عام ٥٩٠هـ تقريباً. ولا يمكن الحدس أن مرصاد العباد قد ألف قبل بلوغه الخامسة والأربعين عاماً، ولا يعقل أنه ألف بعد هذا السن، لأنها السن التي يمكن القيام فيها بمقام الإرشاد والتربية، والتي حظي بها داية، كما يصرح بذلك: "ذات مرة كان هذا الضعيف في خراسان مجالساً لجمع من الدراويش في خلوة، وكان هناك درويش قائم على خدمتهم،

---

(١) عمر رضا كحالة : مرجع سابق : جـ ٦ : ص ١٢٢ .
(٢) منوچهر محسني : تحقيق در أحوال وآثار نجم الدين كبري : ص ١٣٣
(٣) نجم الدين داية : مرصاد العباد : ص ٢٨٦
(٤) المصدر السابق: ص ٣١٠ ، ونسخة الدكتور محمد أمين الرياحي : ص ١٧-١٨.

نكان يرى في بعض المكاشفات أن إمداد فيض اللطف كان ينزل من الحضرة الإلهية إلى كل أصحاب الخلوة، ويأتي لذلك الخادم نصيبه الخاص من كل خلوة"[١] .

ويشرح داية ذلك مؤكداً بقوله: "ومنذ فترة وعدد من الطالبين المحققين والمريدين الصادقين يلتمسون من هذا الضعيف -رغم قلة بضاعته وعدم استطاعته - كتاباً كاملاً بالفارسية[٢] ". وبعد هذا يشرح سبيله إلى ذلك في قوله: "....وفي أثناء هذه الحالة أخذ بعناني حديث جماعة من الطلاب الأعزاء الذين كانوا يطلبون دائماً مثل هذا الكتاب، فاغتنمت هذه الفرصة لخلو البال والألفة[٣]". وكذلك نجده يصرح بأنه ألف مرصاد العباد قبل كتابه الأخير "منارات السائرين" بنيف وثلاثين سنة[٤] ، أي في أواخر عمره، وفي الغالب في حدود سنة ٦٥٤هـ[٥] (سنة وفاته).

ولو جمعنا هذه التواريخ مع بعضها، فنجده أنه عاش من العمر ما لا يقل عن الثمانين عاماً، وبذلك نستبعد أنه ولد في عام ٥٦٤هـ، ونرجح التاريخ الآخر الذي ذكر عن منوچهر محسني -أي ٥٧٣هـ- وهذا أقرب إلى الصحة والصواب.

---

(١) المصدر السابق : ص ٣٠٦.
(٢) المصدر السابق : ص ٨ .
(٣) المصدر السابق : ص ١٥ .
(٤) نجم الدين داية : منارات السائرين إلى الله ومقامات الطائرين بالله : ص ٢أ (النسخة الخطية) وقد طبع هذا الكتاب في دار سعاد الصباح بتحقيق الأستاذ سعيد عبد الفتاح.
(٥) جلال الدين الرومي : فيه ما فيه : تحقيق وتعليق بديع الزمان فروز انفر ص ٢٩٠.

وبهذا نجد أن داية قد عاش من العمر إحدى وثمانين عاماً[١] ، وانتهى من تأليف مرصاده في سن السابعة والأربعين من حياته.

نسب نجم الدين داية:

غالباً ما تعودنا عند التنقيب عن أي شخصية فكرية أن نجد اختلافاً في الكثير من الأمور التي تتعلق بها. وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على أن الكثير من الباحثين والمفكرين لا يصلون -عمداً أو سهواً- إلى حقيقة هذه الشخصية، رغم أن ذلك من أدق الأمور، وهو ما نراه منسحباً على شيخنا هذا، إذ اختلفت الآراء في تسميته، وكثرت التسميات والمسميات.

ونلاحظ أن داية عاش في فترة توتر للنشاط العقلي والفني؛ وهو إن كان يعتبر من الشخصيات الثانوية، لكنه ربما يكون من البارزين الذي يملكون زمام الأمور في عصر آخر[٢].

وسنعرض لأقوال الكتاب عنه، فيقول صاحب شذرات الذهب: هو الحافظ ابن شاهاور عبد الله بن محمد بن شاهاور بن أنوشروان بن أبي النجيب الرازي[٣].

وإن كان صاحب الشذرات قد أخطأ في نسبه، فهو أيضاً قد أخطأ في كتابة اسمه لُغوياً. ويُعَرفه غيره [٤] بأنه نجم الدين عبد الله بن محمد بن شاهوار

(١) منوچهر محسنى : تحقيق در أحوال وآثار نجم الدين كبرى أويسي : ص ١٣٤.
(٢) Arberry : Classical persian literature : p. 242
(٣) ابن العماد : شذرات الذهب : جـ٥ : ص ٢٦٥، ومرصاد العباد : نسخة الرياحي : ص ١٤.
(٤) منوچهر محسنى : مصدر سابق : ص ١٣٣.

الأسدي الرازي، ويذكر عمر رضا كحالة [١] أنه عبد الله محمد بن شاهاور الرازي الأسدي (نجم الدين). ويسميه "هيرمان إيتيه [٢] في إحدى صفحات كتالوجه، باسم نجم الدين أبي بكر عبد الله داية الرازي، وفي صفحة أخرى هو عبد الله بن محمد بن شاهاور (أو شاهور أو شاهادر أو شامر) الأسدي الرازي (الشيخ) أبو بكر. ويقول صاحب ريحانة الأدب[٣] : هو نجم الدين الرازي، عبد الله بن محمد بن شاهاور الأسدي الرازي، أو أبو بكر عبد الله بن محمد، ويكنيه صاحب الريحانة بأبي بكر متعارضاً في ذلك - طبقاً لقوله- مع كتاب كشف الظنون. ويقول عنه عباس إقبال ورضا زاده شفق[٤] : إنه نجم الدين أبو بكر عبد الله بن محمد الرازي.

ولكن يتفق بعض كتاب التذاكر مثل محمد تقي بهار، ولطف علي بك (آذري)، وذبيح الله صفا[٥]، على أنه نجم الدين أبو بكر عبد الله بن محمد بن شاهاور الأسدي الرازي.

وعلى هذا كله، فلا نستطيع أن نجزم برأي حتى نعرف ما ذكره هو في كتاباته. فهو يذكر اسمه في خاتمة كتابه "مرصاد العباد"[٦] ويقول: أبو... عبد

---

(١) عمر رضا كحالة : مرجع سابق : ص جـ ٦ : ص ١٢٢.

(٢) Herman Ethee : Catalgue of persian Manuscripts in the liberary of the Indian office : V. II p. 654, 865

(٣) ميرزا محمد على مدرسي : ريحانة الأدب : جلد ششم : ص ١٣٨.

(٤) عباس إقبال : تاريخ مغول : ص ٤٤٩ ، ورضا زاده شفق : تاريخ الأدب الفارسي : ص ١٩٧ (الترجمة العربية).

(٥) محمد تقى بهار : سبك شناسى : جلد دوم : ص ٢٠ ، لطف على بك : آتشكده آذر : بكوشش حسن سادات ناصرى : بخش سوم : هامش ص ١١٣٣، وذبيح الله صفا : تاريخ ادبيات در ايران : جلد سوم : بخش دوم : ص ١١٨٩.

(٦) نجم الدين داية : مرصاد العباد : ٣١٠

الله بن محمد بن شاهاور الأسدي الـــرازي، وفـــي مقدمـــة كتابـــه: "منـــارات السائرين"[١]، أيضاً يقول: أبو بكر عبد الله بن محمد بن شاهاور الأسدي، ويذكر اسمه حاجي خليفة[٢] مع بعض الاختلاف في شاهاور والشاهانوري فيقول مـــا يذكره في عدة مواضع: إنه نجم الدين أبو بكر عبد الله بن محمد بـــن شـــاهاور الأسدي الرازي، ويذكره شمس العرفاء[٣] بهذا الاسم الأخير أيضاً.

وبعد الإطلاع على المصادر - بأنواعها المختلفة - المتعلقة باسم الشـــيخ ونسبه، نستطيع أن نقول إن اسمه: "نجم الدين أبو بكر عبد الله بن شاهاور بـــن أبو شروان بن أبي النجيب الأسدي الرازي". وتتفق المصادر السالفة على أنـــه كان من مشاهير صوفية إيران، وكان فاضلاً، غزير العلـــم صـــاحب مقامـــات وآثار، وكان من أصحاب وتلاميذ الشيخ نجم الديـــن كـــبرى (شـــيخ الطريقـــة الكبروية الأويسية)[٤]، والذي أحاله إلى عهدة أحد أفضل تلاميذه ومريديه، وهـــو الشيخ مجد الدين البغدادي، وفي النهاية صار (داية) من خلفاء الشيخ الكبرى.

لقب داية:

تجمع معظم أقوال المصادر التي ذكرناها عند الحديث عن نسبه وتسميته، وغيرها من المصادر[٥]، على أن شيخنا معروف باسم نجم الدين الرازي، ولكن

(١) نجم الدين داية : منارات السائرين إلى الله ومقامات الطائرين بالله : ص ٢أ من المقدمة .

(٢) حاجى خليفة : كشف الظنون : ط. ليبزج (لندن) : جـ ٢ : ص ١٧ ، جـ ٥ : ص ٤٩٥، جـــ ٦ : ص ١٢٠.

(٣) شمس العرفاء : مقدمته لكتاب مرصاد العباد : نجم الدين داية : ص ب من المقدمة.

(٤) قمنا بدراسة علمية عن هذا الشيخ الصوفى وطريقته ننشرها قريبا إن شاء الله.

(٥) قاسم غنى : تاريخ تصوف در إسلام : ص ٥٤٧ ، نظامي عروضي السمرقندى : چـــهار مقالـــه ص ١٥٥ (الترجمة العربية)، طاش كبرى زاده : مفتاح السعادة: جـ ٢ : ص ١٢٣، وضـــا قلـــى خـــان

شهرته نجم الدين داية، ولم تذكر علة لذلك، إلا أن أحدها يقول: "يسمى نجم الدين الرازي بلقب نجم الدين داية للتفريق بينه وبين نجم الدين كبرى أستاذه، حيث كان نجم الدين داية من أتباع نجم الدين كبرى"[1]. وربما تكون هذه التسمية المعللة عند براون مقبولة، ولكن حتى نجانب الصواب الحق فإننا سنبحث عنه في ثنايا كتابه المرصاد نفسه، وسنشير هنا إلى بعض المواضع التي ذكرت هذه العبارة، مع ملاحظة أنه ذكر كلمة داية أحياناً بمعنى الإرشاد وأحياناً بمعنى قابلة، وغيرها من الإشارات التي توضح مفهومه لكلمة داية أولاً، وأيضاً يتجلى لنا سبب تلقيبه بداية ثانياً، كما سنرى خلال سطور كلماته حيث يقول شيخنا في كتابه مرصاد العباد ما نصه: "وهكذا طفل الروح حين يرتبط كلية بمهد القالب، فيجب أن تقيد أيدي تصرفاته وأرجلها برباط أوامر الشرع ونواهيه، حتى لا يفعل حركاته بمقتضى طبع الحيوانية لأنها تهلكه، وحتى لا تتعوج أيدي صفاته الروحانية وأرجلها، أي تتبدل بالصفات النفسانية وهو كان يغذي بلبن التصفية والتحلية من ثدي الشريعة والطريقة، لأنه أيضاً من غذائه من ذلك العالم الذي كان مقيماً فيه عدة آلاف سنة وتربى بذلك الغذاء، حتى أن قلبه -والذي هو بمثابة المعدة- يقوي طفل الروح بتلك الأغذية، ويستعد لتناول ما يكون في عالم الشهادة من الأغذية المتنوعة لقوله تعالى: "**وجعلكم خلائف الأرض**"[2]، ليمكنه أن يتحمل بها قوة أعباء حمل الأمانة، ولا تضره، بل تقويه وتغذيه.

هدايت : رياض العارفين : ص ٢٤٨ ، حمد الله مستوفى القزويني : تاريخ گزيده : ص ٧٩١ ، محمد دارا شكوه : سفينة الأولياء : ص ١٠٦ ، وعبد الرحمن الجامي : نفحات الأنس : ص ٤٣٥.

(١) ادوارد براون : تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدى : جـ ٢ : ص ٦٣١ (الترجمة العربية).

(٢) سورة الأنعام : آية ١٦٥ .

وكما أن الطفل يتجرع اللبن من ثدي الأم أو ثدي القابلة (المرضعة)، ويُربى بواسطتهما، وإلا هلك، فإن طفل الروح يستطيع تناول اللبن من ثدي شريعة أبوة النبوة، ومن ثدي طريقة داية (مرضعة أو مرشد) الولاية، ويستطيع أن يجد التربية عن النبي أو الولي أو الشيخ القائم مقام الولي، وإلا هلك(١)، ويعود داية للقول بمعنى آخر: "وإذا وصل صاحب السعادة على الفور إلى يد داية النبوة، فإنه يقيد يديه ورجليه بالأوامر والنواهي في مهد الشريعة ويتربى بثدي الطريقة والشريعة"(٢).

وعلى نفس الصفحة من المصدر السابق يستطرد الشيخ داية قائلاً: "وهنا يتربى طفل الروح بوالديه: فمن ناحية يشرب اللبن من ثدي الشريعة لقطع تعلق مألوفات الطبع، ومن ناحية أخرى يشرب اللبن من ثدي الطريقة لظهور الواردات الغيبية ولوامح أنوار الحضرة ولوامعها، ويصير "بين روضة وغديو" وحتى تتحرر الروح من قيد المتعلقات الجسمانية بتأثير واردات وتجليات الأنوار الروحانية، وتتخلص من قيد الصفات البشرية وتبلغ قمة الفطرة الأولى وتستحق استماع خطاب قوله تعالى: "ألست بربكم"، وترد الجواب: "بلى".

ونلتقي بداية في موضع آخر من نفس الكتاب يقول فيه: "...وحين تحقق هذا المعنى، فيجب ألا يغتر شخص قط بغرور الشيطان وهوى النفس، ولا يعتمد على نفسه وعلمه، وحين تأصلت بذرة الإرادة في قرار القلب يعتبر ذلك غنماً كبيراً، ويكرم ذاك الضعيف الغيبي ويهبه الغذاء المناسب لحوصلته. ولن يجد ذلك الغذاء، في الحقيقة إلا في ثدي ولاية المشايخ العرفاء، لأن بذرة الإرادة

---

(١) نجم الدين داية : مرصاد العباد :ص ١٢٠ ، وداية الولاية هنا بمعنى الإرشاد والهداية.
(٢) المصدر السابق : ص ١٢١.

مثال طفل وليد الغيب، ويمكنه أن يحصل على غذائه أيضاً من ثدي أهل الغيب"(١) .

وينتقل بنا نجم الدين إلى كلمة أخرى من قوله عن كشف الرؤيا الصالح والوقائع المعنوية فيقول: "الفائدة الثانية: تلك هي الوقائع القلبية والروحية والملكية التي تطيب مع ذوق السالك، ويبدو منها المشرب والقوة والذوق والشوق، إذ أنها بذلك الذوق والمشرب تقطع الأنس بالخلق ومألوفات الطبع وملذات الشهادة والشهوات الجسمانية، وتتآنس مع غيبيات عالم الروحانية واللطائف والمعاني والأسرار والحقائق، وتتجه بالكلية إلى عالم الطلب، ويصير مشربه عالم الغيب (حيث قوله تعالى): **"قد علم كل أناس مشربهم"(٢)**، وفي الحقيقة فإنه لا يمكن تربية أطفال الطريقة في البداية إلا بلبن الوقائع الغيبية(٣) .

ويعاود نجم الدين حديثه مرة أخرى بالشعر ضمن رباعية من خلال حديثه عن الملامة في بداية خلق قالب الإنسان فيقول ناظماً ما ترجمته:

كل ما رأيته منا فهو ظلنا
فاخرج من الكونين لأنه رأسمالنا
أنت بدوننا ونحن لب أمورنا
فنحن مرشدون للآخرين وهو مرشد لنا

---

(١) المصدر السابق : ص ١٤٢.
(٢) سورة البقرة : آية ٦٠ ، وسورة الأعراف : آية ١٦٠.
(٣) نجم الدين داية : مرصاد العباد : ص ١٦٤.

وأول ملامة في الدنيا كانت لآدم، ولو تريد الحقيقة فإن أول ملامة كانت لحضرة الجليل لأنهم (الملائكة) اعترضوا في البداية على الحضرة لقوله تعالى: "أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء"(١) وعندئذ قالوا إنها لإشارة عجيبة إذ أقيم صرح العشق على الملامة"(٢) .

وننتقل إلى موضع آخر لنعرف مدى أهمية الإرشاد والهداية عنده، لنعرف الفرق عنده بين خادم الدنيا وخادم الآخرة، ونعرف أيضاً سبب تسميته بداية، ومدى أهمية التصاقها به فيقول: "...وقد خصص الشيخ خادماً لهاتين الطائفتين حتى يزاول كل منهم عمله في مقامه، ويقدم لهم المدد والعون، ويقدم لهم الدليل والهداية والإرشاد، حتى يقوم العمال والخدم بخدمة الطلاب والسالكين، وحتى يشتغل الطلاب والسالكون، في هدوء خاطر وسكينة، بالطاعة والعبودية، لأنه إذا كان جميع من في الخانقاه (٣) كلهم من الطلاب والسالكين، أو كانوا جميعاً من العمال والخدم لاختلفت الأوضاع وفسدت الأمور، وما استقر لها قرار. ومن ثم يجب أن تتفرغ كل طائفة لعملها لقوله تعالى: "فإذا فرغت فانصب"(٤) وتقوم كل طائفة بالعمل(٥) لقوله تعالى: "ليس للإنسان إلا ما سعى"(٦).

---

(١) سورة البقرة : آية ٣٠ .

(٢) نجم الدين داية : مصدر سابق : ص ٤٧-٤٨.

(٣) هذه الكلمة فسرها البعض تفسيرا مقبولا، ولكنه به بعض خطأ لغوى ، فننقله هنا بعد تصحيحه، فنقول: "إن الخوانق (جمع خانقاه) وأصلها فى الفارسية مركبة من كلمتين، هما : خوان ومصدرها خواندن ومعناها القراءة والذكر، والكلمة الثانية هى گاه ومعناها المكان ، وعلى هذا فمعنى كلمة خانقاه بالعربية : مكان الذكر وهى فى تعبير المصريين تسمى الزاوية": على صافى حسين : الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى : ص ٢٩، ولكننا نلاحظ أن الخانقاه مستعملة فى العربية بحروفها الفارسية ، وسيأتى حديثنا عنها فيما بعد.

(٤) سورة الشرح: آية ٧.

(٥) نجم الدين داية : مصدر سابق : ص ٣٠٥.

(٦) سورة النجم : آية ٣٩.

ويرشدنا نجم الدين داية في سطور أخرى تالية إلى معنى وأهمية الهداية والإرشاد في نظره بقوله: "وحين يقوم أرباب الصناعة - الذين في هذه الخانقاد وخرابات الدنيا- بتلك الخدمة، ويؤدون ما يفعلونه وفقاً لأمر الشيخ الذي هو حضرة الجليل، وبدلالة وإرشاد الخادم الحقيقي والسيد الواقعي "محمد رسول الله"، ويراعون الشفقة والأمانة، فسيكونون ثابتي القدم على جادة الشريعة في كل الأحوال، ويحفظون كسبهم من المال الحرام والشبهة، فلا يأخذون الزيادة ولا ينقصون"[١] .

وبعد الحديث عن نجم الدين داية، نرى هذه الكلمة (داية) شائعة متداولة في عصره. فنجدها على سبيل المثال، عند الشاعر سنائي الغزنوي: عندما يتحدث عن الرسول صلى الله عليه وسلم في ذكر تفضيله، فيقول في حديقة الحقيقة:

تولى الإرشاد لدين الله
حتى يُربّي نور الإيمان[٢] .

وعن أبي بكر الصديق يتكلم عن قربته وحق صحبته مع الرسول فيقول:

إن مرشد الدين بلا يجوز ويجوز
لم يكن يشبع من لبنه مطلقاً[٣] .

---

(١) نجم الدين داية : مرصاد العباد : ص ٣٠٧، ونسخة الدكتور محمد الرياحي : ص ١٥-١٧.
(٢) سنائي الغزنوي : حديقة الحقيقة: ص ٢٠٢.
(٣) المصدر السابق: ص ٢٣٠.

ثم يمدح، السنائي، ببرامشاه الغزنوي في بداية ملكه قائلاً:

إن خُلقـــــه أســـــاس الظرفـــــاء
وعدلـــــه مرشـــــد الضعفـــــاء[1] .

وفي بيت آخر يمدح أقضى القضاة جمال الدين أبي القاسم محمـــود بـــن محمد الأثيري فيقول:

إنـــه كـــان للبحـــر فضـــلاً وللعـــز منجمـــاً
وكـــان للشـــرع مرشـــداً وللديـــن روحـــاً[2] .

وأيضاً نجد كاتب طرائق الحقائق[3] يقول إنه لم يعد يُعرف شـــيء عـــن سبب شهرته "بداية" أو "ابن داية الحال"، إلا ما يذكر في القاموس "ابـــن دايـــة الغراب". ويذكر صاحب الطرائق أنه ذكر هذا اللقب بمعنى الرفعة والله أعلم[4].

وبعد هذه السطور عن لقب داية، نرى أن هذا اللقب لم يرتبط به دونمـــا سبب أو تعلة. ويمكن الترجيح أيضاً – فوق ما ذكرنا– أن الشيخ نجـــم الديـــن كبرى قد لقبه بهذا اللقب، والله أعلم .

(١) المصدر السابق: ص ٥١٤.
(٢) المصدر السابق: ص ٦٢٢.
(٣) معصوم على شاه الشيرازى : طرائق الحقائق : جلد دوم : ص ١٥٣.
(٤) مرصاد العباد : باهتمام دكتور محمد الرياحي : ص ١٥ والهامش.

تخلص نجم:

لم تذكر المصادر، على اختلافها، في قليل أو كثير عن تخلصه بنجم، اللهم إلا بضعة أبيات قد ذكرت فيها هذه الكلمة. فإذا نظرنا إلى مرصاده نجده يقول ضمن شعره:

لو لم يكن لنجم الرازي سرٌ من هذا الذي ذُكر
لجمعوا له كل ما في العالمين من غم[1] .

وفي تقديم شمس العرفاء لكتاب مرصاد العباد نفسه نجده يذكر هذا التخلص في رباعية شعرية تقول ما ترجمته:

لو أنك تطوف بلاد المشرق والمغرب
ولو أنك تبذل روحك وقلبك في سبيل الطلب
فإنه لمن النافع لك لو تحصل ذات يوم
على مرصاد العباد لنجم الدين الرازي[2] .

وكذلك وجدنا أحد كتاب التذاكر، وهو ذبيح الله صفا، يقول إن نجم الدين داية يتخلص في شعره باسم "نجم"، وينقل "صفا" أبياتاً مختلفة من الشعر عن "رسالة العشق والعقل" لنجم الدين داية نفسه ويذكر بينها هذا البيت الذي يشير فيه نجم الدين داية إلى تخلصه في شعره ما ترجمته:

(١) مرصاد العباد : باهتمام شمس العرفاء: ص ١٨٦.
(٢) شمس العرفاء: مقدمته على كتاب : نجم الدين داية : مرصاد العباد : ص أ .

يا نجم إن حديث وصاله ميثاق حتى لا تنفرد بـه
لأن ذلك الحق لن يدركه، ولـن يصمت عنـه[1] .

وهكذا استطعنا، بعون الله، بعد أن عرفنا اسم نجم الدين داية ولقبــه، أن نصل إلى تخلصه نجم الذي عرف به من خلال الأشعار التي ذكرت في المصادر بأنواعها، كما أوضحنا.

عائلة نجم الدين داية:

لم توفنا المصادر المختلفة[2] بما يشفي الغليل من الأنباء عن عائلة دايـة، بل كلها إعادة لما ذكره هو في مرصاده عن أتباعه وأهلـه، فجـاءت جميعها تكراراً نازقاً فاتراً لبعض من حاله وأمره. ولكن نعود إلى النص الذي ذكره داية ذاته لنحاول أن نفهم منه شيئاً، فيقول: "إنه ظل صابراً في العراق، يتحمل كل أنواع الشدائد والمحن حتى لا يجبر على الرحيل عن الأطفال والعـورات، ولا يضطر لمفارقة الأصدقاء والمحبين وهجر الموطن والمسكن. وكان يود حمل الأهالي خارج الديار حتى لا يتعرضون للهلاك والدمار. ولكن حين وصل البلاء الغاية والمحنة النهاية، استوجب ترك الأهل والأعزاء للبلاء طبقاً للشرع والسنة: "الفرار مما لا يطاق من سنن المرسلين". ثم خرج هذا الضعيف -كما يصرح

(١) ذبيح الله صفا: تاريخ ادبيات در إيران : جلد سوم : بخش دوم: ص ١١٩٠ ، ١١٩٣. والبيت الشعري المذكورة ترجمته منقول من كتاب عشق وعقل كما ذكر لنا الدكتور الرياحي في نسخته المرصادية ص ١٤ - ١٥ والهامش.

(٢) محمد تقي بهار: سبك شناسي : جلد دوم: ص ٢٠ ، عباس اقبال، تاريخ مغول : هامش ص ٤٤٩ ، لطف على بك: آتشكده آذر : ص ١١١٣ ، وذبيح الله صفا: تاريخ ادبيات در إيران: جلد سوم: بخش دوم: ص ١١٩١، Arberry : Classical persian literature : p. 249

المؤلف بذلك عن نفسه- ليلاً من همدان[1] التي كانت موطناً له، وخرج منبئا في غضون شهور عام ٦١٨هـ، مع جمع من الأعزاء والدراويش متجهين إلى أردبيل، وهناك علم أن كفار التتار دخلوا همدان وحاصروها -رغم مجاهدة أهلها الباسلة- وسيطروا عليها وقتلوا الكثير من أهلها، وأسروا العديد من النساء والأطفال، وقتلوا معظم أهل هذا الضعيف الذين كانوا في مدينة الري[2] .

ونحن نعتبر هذه السطور هامة لأنها ستطلعنا على الكثير من مكونات حياة المؤلف الغامضة، وهنا يتبادر إلى الذهن عدة استفسارات:

- لماذا عاد نجم الدين إلى همدان كما فهمنا من النص؟
- هل التقى بأهله في همدان أم لم يحدث هذا؟
- هل استُشهد أهله حقيقة أم غير ذلك؟.
- وإذا كان استشهاد أهله حقيقة بينة، فهل كانت المعركة في همدان أم في الري؟ أم كانوا في همدان ثم عادوا إلى الري؟!

إن تلك السطور توضح لنا عدة أشياء نحاول فهمها والإجابة على تلك الاستفسارات أيضاً:

أولاً- أنه لم يلتق بأهله بعد خروجه من الري حين حدوث فتنة المغول.

ثانياً- إن عائلته كانت في الري حين معركة المغول، والتي تركها فاراً منها طبقاً للسنة: "ومن نجا برأسه فقد ربح".

---

(١) يفهم من هذا النص أنه بعد إقامته قرابة العام في العراق عاد إلى همدان مرة ثانية لمحاولة حمل أهله - كما يصرح - إلى خارج الديار.(المترجم)

(٢) نجم الدين داية : مرصاد العباد :ص ١٠ - ١١ بتصرف.

ثالثاً- يؤكد لنا وجود أهله في الري حينذاك، بيت الشعر الذي يذكره، ويعتبر قرينة وحجة لذلك:

تساقطت الثلوج على بساتيننا
فلم تبق ورقة واحدة من شجيرة وردنا[1] .

رابعاً- إن أهله لم يقتلوا، نظراً لأنه لم يتأكد لنا ذلك لا بالدليل القاطع من قوله، ولا بقرينة عودته إلى وطنه وأهله، إذ انقطع أمله عنهم كما أوضح ذلك بنفسه على صفحات كتابه[2] .

خامساً- لم يلتق داية بأهله لا في همدان حين عودته إليها لمحاولة إخراجهم من الفتن والبلاء، ولا في الري حيث لم يتمكن من عودته إليها مرة أخرى. وكيف يعود إليها وقد تركها هرباً من التتار وشرورهم؟!. ويؤكد هذا كله، ما ذكره داية نفسه فيما بعد عن أهله إذ يقول: "وكل شيء يتخلى عن المريد الصادق ويحطمه في هذا الطريق، فإن الحق تعالى يعوض أضراره بالآلاف الكثيرة من الجزاء في الدنيا والآخرة طبقاً للسنة: "**ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون**"[3] ، ولذلك الجمع من الأهل والأقارب الذين تركهم وجرحت قلوبهم بمفارقته، فيكرم الحق تعالى كل شخص بالدرجة والمنزلة والثواب حتى يعوض خسارتهم"[4] .

---

(١) المصدر السابق: ص ١١
(٢) المصدر السابق: نفس الصفحة.
(٣) سورة النحل: آية ٩٧.
(٤) نجم الدين داية: مصدر سابق : ص ١٤٣.

وكلمات النص السابق –على ما اعتقد– توضح لنا أنهم لم يقتلوا أو على الأقل تفسر لنا أن داية لم يعرف عنهم شيئاً بعد مفارقتهم.

ونتيقن من هذا المعنى في سطور أخرى يقول داية فيها: "بترك الولد والأزواج" "**فإنهم عدو لي إلا رب العالمين**"[1]، لأنهم قيد يجب الإعراض عنهم، وتطهير القلوب من دنس تعلقاتهم، والفناء عن المال الدنيوي واتباع قوله تعالى: "**إني ذاهب إلى ربي سيهدين**"[2] ، وكذلك يجب التجرد من لباس الكسوة البشرية، والتقيد بإحرام العبودية"[3] .

وهذه السطور تفسر لنا بعضاً عن أخلاقه التي سنتحدث عنها فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وفاة داية ومثواه:

لم تتفق المصادر جميعها، كما تعودنا، على تاريخ وفاة داية وإن كان معظمها أقرب إلى الحقيقة والصواب. ونجد بعضها، بل معظمها، يذكر أنه توفي عام ٦٥٤هـ (١٢٥٦م) مثل: كتاب قاسم غني وآذر (لطف علي بك) وذبيح الله صفا ومنوچهر محسني وعمر رضا كحالة وابن العماد وميرزا محمد علي مدرسي ورضا قلي خان هدايت وعبد الرحمن الجامي ومحمد دارا شكوه

---

(١) سورة الشعراء: آية ٧٧.
(٢) سورة الصافات: آية ٩٩.
(٣) نجم الدين داية : مصدر سابق : ص ٩٦–٩٧ بتصرف.

وعباس إقبال وهيرمان ايتيه وإدوارد براون ومقدمة شمس العرفـــــاء لمرصـــــاد العباد[1] .

وتأتينا بعض المصادر الأخرى بتاريخ آخر لوفاته، فتذكر أنها قد وقعــت في عام ٦٤٥هــ، ومنها كتاب رضا زاده شفق ومحمد تقي بهار وحسين فريور وعباس إقبال[2] .

ولكن قبل أن نقرر التاريخ الصحيح، لنا هنا ملحوظتان:

الأولى- التناقض الذي ذكره عباس إقبال في تاريخ المغول ، حيث ذكر تاريخين لوفاة داية كما لاحظنا.

الثانية- الاختلاف والتناقض عند سبك شناسي لبهار، بين التاريخين الميـــــلادي والهجري، فيذكر أنه توفي عام ٦٤٥هــ (١٢٥٦م)، وبلا ريــــب فعــام

(١) قاسم غني : تاريخ تصوف در إسلام: ص ٥٢٢، لطف علي بـــك: آتشـــكده آذر: هـــامش ص ١١٤، ذبيح الله صفا: تاريخ ادبيات در إيران: جلد سوم: بخش دوم: ص ١١٩٢، منوچهر محسني: مصـــدر سابق ص ١٣٣، عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين: جــ ٦: ص ١٢٢، ابن العماد: شذرات الذهـــب: جــ ٥ : ص٢٦٥، ميرزا محمد علي مدرسي: ريحانة الأدب: جلد ششم: ص ١٣٨ ، رضا قلي خـــان هدايت: رياض العارفين: ص ٢٤٩، عبدالرحمن الجامي : نفحـــات الأنـــس: ص ٤٣٥، محمـــد دارا شكوه: سفينة الأولياء: ص ١٠٦، عباس إقبال: تاريخ مغول: ص ٤٨٤،

Herman : Catalogue of persian Manuscripts in the liberary of the Indian office : V. II p. 651

إدوارد براون : تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى الســــعدي: جــــ ٢ : ص ٦٣١(الترجمـــة العربية)، شمس العرفاء: مقدمته لكتاب مرصاد العباد : نجم الدين داية : ص ج.

(٢) رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسي: ص ١٩٧ (الترجمة العربية) محمد تقي بهار : سبك شناســـي: جلد دوم: ص ٢٠، حسين فريور: تاريخ ادبيات در إيران، ص ٣٠٥، عباس إقبال: تاريخ مغـول: ص ٤٤٩-٥٠٠.

١٢٥٦م يطابقه عام ٦٥٤هـ، وليس عام ٦٤٥هـ، ومن المحتمل أن يكون هذا الخطأ في الطباعة لكنه لم يُتدارك.

ومن ثم، فنستطيع أن نؤكد أن وفاته حدثت عام ٦٥٤هـ، وخاصة أنه يقول في كتابه "منارات السائرين" - كما ذكرنا في مولده - إنه ألفه بعد المرصاد - والذي بدأ تأليفه عام ٦١٨هـ بنيف وثلاثين سنة، أي في أواخر عمره، وكان هذا في الغالب- كما ذكرنا نقلاً عن كتاب فيه ما فيه للرومي في حدود عام ٦٥٤هـ.

أما عن مثوى داية، فقد تضاربت الآراء حوله أيضاً، فبعضهم يقول[1] إنه توفي في بلاد الروم حين فر أمام سلاطين السلاجقة، ومصادر أخرى[2] تذكر أنه رحل بعد فترة من بلاد الروم إلى بغداد حيث لاقته المنية وفاضت روحه ودفن في شونيزية ببغداد. أما مزاره فهو في نفس المحلة خارج مقبرة الشيخ سري السقطي والشيخ جنيد البغدادي، والله أعلم.

والقول الذي يمكن الاعتماد عليه في هذا هو الرأي الثاني الذي أكدته أكثرية المصادر.

---

(١) حمد الله مستوفي القزويني: تاريخ گزيده : ص ٧٩١ ، وعباس إقبال: تاريخ مغول: ص ٤٨٤، ٥٠٠.

(٢) منوچهر محسني: تحقيق درا أحوال وآثار نجم الدين كبرى أويسي: ص ١٣٣، عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين: جـ ٦: ص ١٢٢، محمد تقى بهار: سبك شناسي : جلد دوم: ص ٢٠، ميرزا محمد على مدرسي: ريحانة الأدب: جلد ششم : ص ١٣٨، رضا قلي خان هدايت: رياض العارفين: ص ٢٤٩، محمد داره شكوه: سفينة الأولياء : ص ١٠٦، عبد الرحمن الجامي: نفحات الأنس: ص ٤٣٥، لطف على بك: آتشكده آذر: ص ١١١٥، ذبيح الله صفا: تاريخ ادبيات در إيران: جلد سوم: بخش دوم: ص ١١٩٢، مرصاد العباد : باهتمام محمد أمين الرياحي: ص ٣١ والهامش.

رحلات داية:

لقد أوضحنا أن داية عاش فيما بين نهاية القرن السادس ومنتصف القرن السابع الهجريين، فعاصر أحداثاً جمة، حيث اتبع السلاجقة السياسة المذهبية، وتعصب معظم السلاطين والوزراء السلجوقيين لمذهب السنة، فكان يشتد الانتماء لأتباع المذاهب الأخرى، كما وقعت اضطرابات الإسماعيلية في داخل إيران، والحروب الصليبية التي كانت في كثير من الممالك الإسلامية بسبب نفور المسلمين. ومن ثم ازداد الانتماء للمذاهب بصورة أكبر لدرجة أن الفرق المختلفة من السنة والشيعة قاتلت بعضها البعض. وفتح شيوخ كل فرقة المدارس لمذهبهم، وأقاموا مجالس التدريس، وأثنى أتباع كل من مذاهب المدارس المنقرضة على دعاتها.

وحين استوزر عميد الملك أعطى أمراً بلعن الشيعة، أما الخواجة نظام الملك، الذي كان شافعياً، فجعل شرط الالتحاق بالمدارس النظامية مبنياً على إعلاء المذهب الشافعي، وسبب هذا الأمر أن سلاطين السلاجقة كانوا أحنافاً، وكانوا يعتبرون المذهب الحنفي هو الدين الرسمي. وقال الخواجة نظام الملك، الذي كان شافعياً، بتفضيل الشافعية، فظهرت الخلافات بالتدريج بين أهل السنة والجماعة(١) .

وبالإضافة إلى فتن المغول التي حدثت في غضون عام ٦١٧هـ، حيث استولى جيش كفار التتار المخذولين -خذلهم الله ودمرهم- على تلك الديار(٢)، فكل هذه الأحداث جعلت رحلات داية تتوالى بسرعة، مما يشعر القارئ أنه أمام

(١) حسين فريور: تاريخ ادبيات در إيران: ص ١٤٥-١٤٦.
(٢) نجم الدين داية: مرصاد العباد: ص ٨ .

رجل يائس امتلأ قلبه بالحزن وتقاسمته الهموم، فنغصت عليه حياته التي عاشها والبيئة التي أحاطته، بل إن ظروف حياته نفسها هي التي سببت آلامه التي أحزنته.

ولهذا نجد داية دائماً كثير التجوال والترحال، كما يذكر هو نفسه وكما تطالعنا به كتاباته. وسنحاول أن نستخلص رحلاته -بصورة عامة سريعة- من خلال كتاباته، ومن بين سطور المصادر المختلفة.

فنراه قد رحل في شبابه من الري إلى خراسان ثم خوارزم، وتلقى الرياضة والمجاهدة، وتدرب على الحياة الروحية في خدمة مجد الدين البغدادي (المقتول عكام ٦٠٧هـ) العارف المشهور، وتتلمذ على يد الشيخ نجم الدين الكبرى قبل أن يقتل الأخير عام ٦١٨هـ (١٢٢١م) في مقاومة المغول في مذبحة خوارزم[١] .

ويقال إنه عندما وصل خبر المغول إلى الشيخ الكبرى أذن لمريديه، ومن بينهم نجم الدين الرازي (داية) أن يرحلوا إلى مدن بعيدة، فرحل هو وجماعة من تلاميذه ومريديه إلى همدان[٢]، ويقول البعض إنه رحل من خوارزم عائداً إلى خراسان ثم رحل إلى العراق[٣] . ونعتقد أن الرأي الثاني هو الأوضح والأدق لأن داية نفسه يقول: "ولكن طالما كان هذا الضعيف حيناً في السفر وحيناً في

(١) Arberry : Classical persian literature : p. 248

(٢) منوچهر محسني: تحقيق در أحوال وآثار نجم الدين كبرى أويسي: ص ١٣٤، محمد تقي بهار: سبك شناسي : جلد دوم: ص ٢٠ ، ولطف على بك: آتشكده آذر: ص١١١٣.

(٣) ذبيح الله صفا: تاريخ ادبيات در إيران: جلد سوم: بخش دوم: ص ١١٩٠.

الحضر في بلاد العراق وخراسان، فلمْ يكن ليجد خلو البال والفرصة، بسبب المشاكل وآفات الفتن المتنوعة ليقدم على إنجاز هذا الكتاب[1]".

ويقول داية عن العراق قبل عودته إلى همدان: "والخلاصة أنه حين ظهرت غلبة أولئك الملاعين وقهرهم، ظل هذا الضعيف يقيم صابراً في بلاد العراق قرابة العام على أمل أن يتنفس صبح العافية عن الليل الديجوري (الشديد الظلمة) لهذه الفتنة وهذا البلاء، وتشرق شمس السعادة"[2] .

ويروي داية، كما ذكرنا من قبل عن مولده: "أنه نزل في خراسان لتربية الدراويش ورياضتهم على الخلوة، ويقول أيضاً إنه قد رأى سالكاً في خوارزم يقال له الشيخ أبو بكر وكان من خراسان من ولاية جام، وكان من جملة المنجذبين للحق"[3] .

وقد ولى داية وجهه بعد ذلك -راحلاً عن العراق- ناحية همدان التي فضل الإقامة بها حتى عام ٦١٨هـ مع جمع من الأعزاء والدراويش، ولكنهم عاشوا تحت خطر داهم، فاتجه على الفور إلى أردبيل ليلاً، مع صحابته من الأعزاء والدراويش، ووصل إليه الخبر أن الكفار، دمرهم الله، قد بلغوا مدينة همدان وحاصروها، ولكنه رأى أنه من الأفضل أن يتخذ وطنه في ديار تسودها السنة والجماعة، وكانت هي بلاد الروم في آسيا الصغرى. فكان له السعادة والتوفيق حين وصل بعد جهد جهيد -بصحبة جمع عزيز- إلى مدينة القيصرية

(١) نجم الدين داية: مرصاد العباد : ص ٨.
(٢) المصدر السابق: ص ١٠، وللمزيد راجع نسخة الدكتور الرياحي: ص ١٩-٣١.
(٣) المصدر السابق: ص ١٣٠-١٣١.

بالروم، وفي طريقه التقى بالشيخ شهاب الدين السهروردي في ملاطية، والذي شجعه على النزول ببلاط سلاجقة الروم[1] .

وقد بدأ داية في تأليف كتابه مرصاد العباد ليقدمه هدية لعلاء الدين كيقباد، وقد أتمه في سيواس في أول رجب من عام عشرين وستمائة من الهجرة[2] .

وقد حج نجم داية بيت الله الحرام كما قال في المرصاد: "وقد رأيت خلوة منزل الرسول عليه الصلاة والسلام، وزرتها في جبل حراء بمكة، وهو غار جاذب للروح على ذاك الجبل"[3] .

كما قد نزل داية أيضاً ببلاد الشام عندما يقول: "وحين كان هذا الضعيف في الشام عام ستمائة هجرية، سمعت أن الملك صلاح الدين اعتاد، حين كان يستولي على أي مدينة أن يقيم فيها الأبنية الخيرية"[4] .

وإننا لا نشك في أنه كان قد زار مصر في تلك الأثناء، كما نحتمل أنه حج بيت الله الحرام في تلك الآونة أيضاً حينما زار مكة كما ذكر في مرصاده. ويشير داية إلى أنه نزل بنيسابور كذلك، حين يقص رواية الشيخ محمد الكوفي مع الشيخ علي المؤذن عن معراجه إلى السموات[5] .

---

(١) المصدر السابق: ١٠-١٣.
(٢) المصدر السابق: ص ٣١٠.
(٣) المصدر السابق: ص ١٥٦.
(٤) المصدر السابق: ص ٢٦٣.
(٥) المصدر السابق: ص ٦٢.

وتضميناً لهذا كله، فإنه يقول إنه طاف ببلاد الإسلام، شرقاً وغرباً، قرابة الثلاثين عاماً[1] . وتذكر معظم المصادر قصة لقائه بالشيخ صدر الدين القونيوي، والشيخ جلال الدين الرومي في قونية نقلاً عن كتاب نفحات الأنس للجامي.

ولا شك أن هذه الرحلات كان لها الأثر العميق على داية من النواحي المعنوية والفكرية والعرفانية كما يتضح ذلك في كتاباته.

(١) المصدر السابق: ص ٢٨٦.

المبحث الثاني

مؤلفات الشيخ الرازي وآثاره

مؤلفات الشيخ الرازي وآثاره

عصر المرصاد:

لعلنا أدركنا كيف كان نجم داية عالماً من علماء عصره، يحيط علماً بما حوله ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، كما كان مُلماً بالآراء الفلسفية والمسائل الدينية والاجتماعية التي كانت تملأ الأقطار الإسلامية في عصره.

ونلاحظ أن الأحوال الخاصة بأوضاع العلوم وكيفية البحث والتحقيق ونمط تفكير المشتغلين بالفلسفة وذيوع المناظرة والجدل والانهماك في المجادلات المذهبية -كما ذكرت في القرنين الخامس والسادس الهجريين- لتصدق على ما قيل في أوائل القرن السابع، ولكن الحادثة العظيمة لهجوم المغول كادت تقطع ذلك التيار في البدء في خراسان وشرق إيران وبالتدريج في سائر الولايات[1] .

والري أيضاً على سبيل المثال، وهي موطن نجم داية، كانت تعج بالعصبيات والاختلافات المذهبية الشديدة، وكانت ساحة لتيارات الخلاف بين الشيعة والسنة. وكذلك خراسان، محل تربيته العرفانية الصوفية، كانت ساحة للخلافات بين الفلاسفة والصوفية نظراً لحب علاء الدين خوارزمشاه للفيلسوف فخر الرازي وما كان من جراء ذلك.

كل هذه الإرهاصات وغيرها، بشتى ضروبها السياسية والاجتماعية أثرت تأثيراً عميقاً في أفكار وعقائد نجم داية وفي روحه، فكان نتاج ذلك أن عالج

(١) قاسم غني: تاريخ تصوف در اسلام: ٤٩٧.

شيخنا الكثير من الموضوعات التي نلمس فيها الإحساس الصادق والعاطفة الجياشة والعقل الراجح والنفس الصافية.

وعلى هذا فقد شرح نجم داية كل آرائه في المسائل الفلسفية والصوفية والدينية والأخلاقية والاجتماعية، من خلال كتابه المرصاد، في أكثر من ثلاثمائة صفحة، مما يتعذر على الباحث أن يجمل آراءه ولو في المسائل الكبرى، فإن مسألة واحدة منها تحتاج إلى الكثير.

وإن عملنا الفني الذي نهتم به هنا هو مؤلفات نجم الدين داية الذي كان له تبحر خاص في العرفان، ويعد من الأشخاص البارزين في عصره، وقد بقي له في هذا العالم آثار قيمة[١] .

وأهم وأشهر أثر له هو كتابه القيم النفيس "مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد" وهو موضوع دراستنا في الصفحات التالية. ويوجد للشيخ داية آثار أخرى كثيرة موجودة، ولكن يحتمل أن كان له آثار أخرى اندثرت بسبب فتن عصره، كسائر عظماء ذلك العصر، ولا نعلم عنها شيئاً ولكن هناك بعض آثار الشيخ الأخرى التي استطعنا الوصول إليها وسنتحدث عنها فيما يلي:

---

(١) منوچهر محسني: تحقيق در آحوال وآثار نجم الدين كبرى أويسي: ص ١٣٦.

منارات السائرين إلى الله ومقامات الطائرين بالله [1]:

وهو من تأليف نجم الدين داية عام ٦٥٤هـ، وتوجد نسخة خطية منه بالمكتبة الملية الشاهنشاهية (بإيران) مكتوبة في عام ١٠٢٠هـ؛ وهذا الكتاب يشتمل على ثلاثمائة صفحة من القطع المتوسط. وتوجد أيضاً في مكتبة الجامع الأزهر بالقاهرة، نسخة في مجلد بقلم نسخ بخط إمام الدين بن نعمة الله بن محمد لاهور، كما توجد نسخة أخرى في مكتبة دار الكتب المصرية (بالقاهرة أيضاً) وقد طبع هذا الكتاب منذ فترة كما ذكرنا سابقاً.

وهذا الكتاب في شرح مقامات العارفين وكراماتهم، وقد أشار فيه إلى كتاب مرصاد العباد عند ذكر سبب تأليف المنارات: (وإن كنت قد صنفت قبل هذا بنيف وثلاثين سنة كتاب "مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد" وهو مستجمع أكثر شرائط الملتمس، ولأرباب السلوك أكبر المقتبس، ولكنه مؤلف بالعجمية، وقد حرم من فوائده أهل العربية؛ فأردت أن يكون هذا الكتاب مؤلفاً بالعربية الفصيحة، بدلاً من العجمية المليحة، ليكون على موائد فوائد العلماء المتبحرين والفضلاء المعتبرين، فاستخرت الله، وأسعفت ملتمسه، وعرفت مقتبسه بقدر الإمكان بعد الإمعان، ومستعيناً بالله في إلمامه، مستهدياً منه في إتمامه، مستنبطاً معانيه من إشارات القرآن، وتلويحات الأخبار، ورموز المشايخ الكبار، مؤسساً

(١) لطف على بك: آتشكده" آذر: هامش ص ١١١٤، وهامش ص ١١١٨وهذا المؤلف يذكر – مؤيدا شمس العرفاء – اسم الكتاب في هامش ص ١١١٤ باسم (منارات السائرين إلى حضرة الله ومقامات الطائرين بالله)، وهذا خطأ بلا ريب حيث أن المصادر وكتب التذاكر لم تتفق على هذا الاسم، ذبيح الله صفا: تاريخ ادبيات در إيران، جلد سوم : بخش دوم: ص ١١٩٥، حاجي خليفة، كشف الظنون جـ٦: ص ١٢٠-١٢١، جلال الدين الرومي: فيه ما فيه: تعليق بديع الزمان فروزانفر: ص ٢٩٠، منوچهر محسني :تحقيق در آحوال آثار نجم الدين كبرى أويسي: ص ١٣٦، نجم الدين داية: منارات السائرين إلى الله ومقامات الطائرين بالله: ص ٢أ النسخة الخطية، شمس العرفاء: مقدمته لكتاب نجم الدين داية : مرصاد العباد: ص ج، وعمر رضا كحالة: معجم المؤلفين: جـ٦، ص ١٢٢.

مبانيه على مشاهدات الأنوار، ومكاشفات الأسرار من غرائب المواهب وعجائب المراتب، سالكاً فيه طريقة لم أُسبق إلى سلوكها، وإن صنفوا في هذا الباب كتباً كثيرة من أرباب الحقائق وملوكها، ورحم الله عبداً إذا عرف اعترف، وإذا استنصف أنصف حين أوضح معالم الدين، بحيث يحصل للطالب الراغب منه برد اليقين، فيكون مناراً للسائرين إلى الله، ومطاراً للطائرين بالله بتوفيق الله الموفق والمعين إن شاء الله رب العالمين؛ وسميت الكتاب بهذا الاسم: "منارات السائرين إلى الله ومقامات الطائرين بالله" ولعمري إنه لحري بهذا الاسم، وقوي بهذا الوسم. فإن السائر يسير بأنوار مناره، والطائر يطير بأطوار مطاره، وجعلت للكتاب فاتحة وخاتمة، ووضعت للمقامات عشرة أبواب تبركاً بقوله تعالى: "**تلك عشرة كاملة**"[1]، ويشتمل كل باب منها على عدة فصول...)[2]، ومجموع فصوله كما أحصيناها ستة وأربعين فصلاً[3] .

ولو كان الأمر كذلك فلا بد أن تأليف كتاب المنارات جاء فعلاً في عام وفاة نجم داية كما ذكرنا، أي أنه أنجزه في عام ٦٥٤هـ (عام وفاته) في بغداد، وكان هذا أخر آثر له.

---

(١) سورة البقرة: آية ١٩٦.

(٢) نجم الدين داية: منارات السائرين إلى الله : ص ٢أ (النسخة الخطية) (وفي هذا النص المنقول كانت به بعض الأخطاء اللغوية قمت بتصحيحها قبل نقلها عن النسخة الخطية المذكورة، والنسخة المطبوعة بالقاهرة : ص ٢٨-٢٩ .

(٣) المصدر الأخير : ط القاهرة : تحقيق سعيد عبد الفتاح ص ٢٩-٣٤.

بحر الحقائق والمعاني في تفسير السبع المثاني[1]:

هذا الكتاب من تصانيف الشيخ داية أيضاً، وهو مشحون بدرر الدقائق، وليس له ثان في بيان الإشارات ورموز القرآن، وليس هناك شاهد غيره على كمال حضرة الشيخ. ويعد بحر الحقائق من الأبحاث الجارية بين الفضلاء قديماً وحديثاً.

ويختلف المؤلفون وأصحاب المصادر في ذكر اسم هذا الكتاب، ولكننا فضلنا العنوان المذكور بأعلى -والذي ذكره حاجي خليفة- لشموله ووضوحه.

ويقول براون عن هذا الكتاب: "أما مؤلفاته الأخرى، فأهمها كتاب "بحر الحقائق" وقد كتبه في عام ٦٢٠هـ (١٢٢٣م) في مدينة سيواس من بلاد آسيا الصغرى عندما اضطر إلى الاحتماء بها فراراً من غارات المغول. ولا ندري من أين جاء براون بهذه المعلومات، وليس لنا إلا إن نسلم بها لعدم وجود مصادر كثيرة تؤكد أو تنفي ذلك.

---

(١) حاجي خليفة: كشف الظنون: جـ ٢: ص ١٧،١٠ ، وأيضا جـ٤ ص ٢٨٢، شمس العرفاء: مقدمته لكتاب نجم الدين داية : مرصاد العباد : ص ج ، منوچهر محسني: تحقيق در آحوال وآثار نجم الدين كبرى أويسي : ص ١٣٦، ذبيح الله صفا: تاريخ ادبيات در إيران: جلد سوم: چاپ سوم: ص ١٦٣، لطف علي بك: آتشكده' آذر: ص ١١١٤، رضا قلي خان هدايت: رياض العارفين: ص ٢٤٩، ميرزا محمد علي مدرسي: ريحانة الأدب: جلد ششم : چاپ دوم: ص ١٣٩، محمد دارا شكوه: سفينة الأولياء : ص ١٠٦ ، إدوارد براون: تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي: جـ ٢ : ص ٦٣١(الترجمة العربية).
Herman : Catalogue of Persian Manuscripts in the liberary of The Indian office : V. II p.865.
وللعلم فقد قام الأستاذ الدكتور سيد عبد التواب عبد الهادي العميد السابق لكلية أصول الدين - جامعة الأزهر بالقاهرة بتحقيق ودراسة هذا الكتاب وأصدر عنه كتابا باسم الرمزية الصوفية في القرآن الكريم : ط . دار المعارف : القاهرة عام ١٩٧٩.

وجاء في كشف الظنون (جـ٤) تفسير آخر باسم "عين الحياة" لنجم الدين الرازي (داية)، وليس لدينا تأكيد، هل هو نفس هذا الكتاب "بحر الحقائق"، أم أنه تفسير آخر غيره.

وكتاب "بحر الحقائق" تفسير للقرآن الكريم، ويحتمل أنه في تفسير الفاتحة فقط، لأنها هي التي يطلق عليها السبع المثاني، وهذا الكتاب بالعربية.

ومن خلال السطور السابقة نفهم أن داية ألف كتابه "بحر الحقائق" في البلدة التي ألف فيها كتابه "مرصاد العباد"، ولكن هذا يفسر لنا بالحدس أن داية قد ألف كتابه "بحر الحقائق" بعد "المرصاد"، وأنه بدأ فيه عام ٦٢٠هـ، بعد الانتهاء من المرصاد الذي بدأه في عام ٦١٨هـ.

رسالة العشق والعقل [(١)]:

إن المطلب الهام الذي نلحظه حين مطالعة آثار نجم الدين داية، هو اهتمامه الخاص بناء على سنة كثير من الصوفية من علماء عصره، بتأليف الكتب بالفارسية للناطقين بها.

(١) ذبيح الله صفا: تاريخ ادبيات در إيران: جلد سوم: بخش دوم: ص ١١٥٣، ص١١٩٤-١١٩٥، شمس العرفاء: مقدمته لكتاب: نجم الدين داية: مرصاد العباد، ص ج : وأيضا ص ٨ من المرصاد نفسه، منوچهر محسني: مصدر سابق: ص ١٣٦، لطف على بك: آتشكده آذر: هامش ص ١١١٤ وهامش ص ١١١٨، حاجى خليفة: كشف الظنون: جـ ٥ ص ٦٤١، قاسم غنى: تاريخ تصوف در اسلام: هامش ص ٥٤٨، ومرصاد العباد: باهتمام الدكتور الرياحي: ص ٥٢-٥٣.

ومن أهم هذه المؤلفات عند داية هذه الرسالة في العشق والعقل، والتي تعد إحدى مجموعة الكتب التي ألفها داية قبل كتابه المرصاد كما أشار إلى ذلك في المرصاد، وليس عندنا دليل غير ذلك.

ويوجد من هذه الرسالة نسخة خطية في مكتبة مجلس الشورى الوطني (بإيران) مكتوبة عام ٧٠٤هـ، ومحفوظة ضمن مجموعة برقم ٥٩٨، واسم كاتبها هو أبو الفتح جلال الجمالي الذي أتمها في مدرسة علائية سبنزوار[١] .

وهذه الرسالة -كما يقول ذبيح الله صفا- هي رسالة "معيار الصدق في مصداق العشق" والمعروفة برسالة "العشق والعقل"، وقد كتبها نجم الدين كجواب لأحد الأصدقاء، وكان هذا هو السؤال: ما هو شرح كمال العشق وشرح كمال العقل؟ وهل هناك اختلاف وتضاد بينهما أم لا يوجد؟.

وقد كان السائل يستمع لهذه الطرافة: إن كل مكان يكون مزداناً ومشرقاً بالعقل، فالعشق أقوى وأكمل منه، وكان يقول أيضاً إن العقل ليس قسماً ولا نوعاً من الموجودات، ولكنه "جملة الموجودات"، ويمكن بوجوده الإحاطة بجميع أقسام الوجود بالعقل ولا يمكن لأي قسم من أقسام الموجودات الإحاطة بالعقل.

وقد كتب نجم الدين رسالته لجواب هذا السؤال بنثر سهل وأكثر ملاءمة لطريقة العلماء. وتأليفه لهذه الرسالة يعد أكثر تكاملاً وسلاسة من تأليف مرصاد العباد، وقد ضمن الكاتب هذه الرسالة أشعاراً كثيرة كان يتغنى بها، من قبيل القصيدة والغزل والمثنوي.

---

(١) طبع هذه الرسالة الأستاذ تقي تفضلي في طهران عام ١٣٤٥ ش باسم (رسالة العشق والعقل).

ويقال إن نجم الدين لم يطلق اسماً على هذه الرسالة، ولهذا السبب فقد كتبت أحياناً باسم: "كمال العشق وكمال العقل"، وأحياناً باسم: "العقل والعشق"، وتارة باسم "العشق والعقل"، وحيناً آخر باسم "معيار الصدق في مصداق العشق". وقد فضلنا العنوان المذكور عالياً: "رسالة العشق والعقل" نظراً لتداوله بين كتب المصادر والتذاكر، ولأنه طبع أيضاً بنفس الاسم، مما يدل على ملاءمة الاسم للرسالة ومضامينها.

مرموزات الأسدي:[1]

هذا الكتاب أحد مؤلفات نجم الدين داية واسمه بالكامل "المرموزات الأسدية في المرموزات الداودية"، وقد ألفه بالفارسية باسم علاء الدين داود شاه (الثاني) بن بهرام شاه ملك آرزنجان. ويتضمن الكتاب أبواباً في: المعرفة، السلوك، سلوك الملوك، قانون الملك، نصيحة ومواعظ الملوك، تواريخ الملوك منذ عهد آدم، وعيد الظالم، كلمات الحكماء وعلامات القيامة.

ويقول نجم الدين في مقدمة كتابه هذا إنه رحل من ديار بكر إلى بلاد الروم في عام ٦١٨هـ، وأقام مدة ثلاث سنوات حتى وقت تأليف الكتاب تقريباً، وكان في أرزنجان في تلك الآونة. وكان تأليف المرموزات الأسدية في عام ٦٢١هـ، أي بعد عام فقط من تأليفه مرصاد العباد. ولا ندري هل هذا العام هو بداية تأليف الكتاب أم الانتهاء منه؟ ولكن نحتمل أنه بدأ تأليفه في هذا العام، ويرجح أن مقدمة هذا الكتاب والنصف الأول منه مشابه لكتاب مرصاد العباد،

(١) ذبيح الله صفا: تاريخ ادبيات در إيران: جلد سوم : بخش دوم : ص ١١٥٣، ١١٩٥.

ولكن نهاية الرسالة في تواريخ الملوك وكلمات الحكماء وليست خالية من الفوائد[١] .

رسالة الطير:[٢]

قد ألف الصوفي الكبير نجم الدين داية كتباً في التصوف والعرفان من بينها رسالة الطير[٣]، وهي مصنوعة في تأليفها. وعلى أية حالة فيجب القول إنه بالإضافة إلى مقامه السامي العرفاني الذي ناله الكاتب، فأحياناً -وخاصة في رسالة الطير وكثير من مواضع مرصاد العباد- هو كاتب عياري كامل يتحرر من مسئولية إيراد الكلام الأدبي، ومزجه بالزينات والصناعات المؤلفة.

وحيث أنه ليس لدينا قرائن أو مصادر عن تأليف هذه الرسالة، فنحتمل أنها ألفت في الري، قبل أن يغادرها نجم الدين هرباً من الفتن والأحداث.

تفسير بشير: [٤]

من التفاسير الواقعة على لسان أهل الذوق من الصوفية تفسير بشير لنجم الدين داية، وتقريباً كان الصوفية العظام في هذا العصر يوضحون كتاباتهم

(١) مرصاد العباد : باهتمام الدكتور الرياحي: ص ٥٢.
(٢) ذبيح الله صفا : تاريخ ادبيات در إيران : جلد سوم: بخش دوم: ص ١١٥٣، ١١٩٥-١١٩٦.
(٣) بشأن هذه الرسالة راجع للأستاذ مجتبى مينوى - الأستاذ بالجامعة - الشرح المكتوب فى مقدمة رسالة العشق والعقل (تهران ١٣٤٥ش) وقد أشار لكل من تلك النسخ (مؤلفات داية) من الرسائل والكتب المذكورة بشروح علمية . (المرجع السابق: هامش ص ١١٩٥).
(٤) طاش كبرى زاده: مفتاح السعادة ومصباح السيادة: جـ٢ : ص ١٢٣، وذبيح الله صفا: تاريخ ادبيات در إيران: جلد سوم : بخش سوم: قسمت أول: ص ٢١٣.

بالكثير من الكلمات والألفاظ والموضوعات، وكان يظهر من بينها تفسيرات ذوقية، فسواء أنهم يدونون كتاباً في التفسير أم لا يدونون، حتى أن معظم أقوالهم كانت تذكر في المجالس، وأيضاً كانت تكتب الرسائل في تأويل وتوضيح كلام الله، وكان من بينها هذا التفسير الذي ذكرناه آنفاً.

سراج القلوب: (١)

يبدو أنها رسالة صغيرة أيضاً كتبت بالفارسية على طريقة السؤال والجواب، ومشتملة على ثلاثة وثلاثين سؤالاً فقهيًا وجوابها. ويوجد منها نسخة ضمن مجموعة برقم ١٩٦٢ بمكتبة وين (ورقة ٩٦-١٠٨)، وقد كتبت هذه الرسالة في أواسط ربيع الأول عام ٩٤٩هـ بيد كاتب يسمى فندرسكي في بلاد خراسان، وبدايتها "الحمد لله العلي العظيم الجواد الكريم...الخ" ولا ندري أين أصلها.

تحفة الحبيب وحسرة الملوك: (٢)

توجد مختارات من هاتين الرسالتين أيضاً ضمن مجموعة برقم ١٩٦٢ (ورقة ٨٩-٩٤) في مكتبة وين أيضاً، وقد نسخت في مكة بتاريخ ٩٥٨هـ وبدايتها: "كتاب حسرة الملوك، وتحفة الحبيب" للشيخ نجم الدين داية، وقد ذكرت مختارات من كلا الرسالتين. ويقال أيضاً إن كتاب تحفة الملوك من مصنفات

(١) حاجى خليفة : كشف الظنون : جـ٥ : ص ٢٥٣، مرصاد العباد: باهتمام الدكتور الرياحي: ص ٥٤.

(٢) عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين : جـ ٦ ص ١٢٢، وحاجى خليفة: كشف الظنون: جـ ٥ ص ٤٥٣.

شيخ الإسلام والمسلمين الشيخ نجم الدين الرازي (داية) وهو مذكور في مرصاد العباد[1].

ويمكن التخمين أن هذا الكتاب الأخير هو جزء من مرصاد العباد ونقل باسم تحفة الملوك، والله أعلم.

مؤلفات أخرى:

يوجد لداية -غير الآثار التي ذكرناها- مؤلفات أخرى وجدناها في صفحات المصادر، ولكن لا يمكننا الجزم بصدق نسبها إليه أو صحتها أو وجودها، وذلك نظراً لندرة المصادر التي تُوفينا بالمعلومات الوفيرة الغزيرة عن مثل هذا الإنتاج.

ومن بين هذه الكتب "سلوك أرباب النعم"[2]، وكذلك "رسالة العاشق إلى المعشوق" وهي في شرح مقال الشيخ أبي الحسن الخرقاني: "الصوفي غير مخلوق"[3]، ونعتقد أنها أيضاً رد على مقالة الشيخ الخرقاني.

وقد ذكر أحد المصادر[4] كتاباً آخر باسم: "كشف الحقائق وشرح الدقائق"، ولكن لا نستطيع القطع بصحته أو صدقه، ونحتمل أن هذا الكتاب هو نفسه كتاب: "بحر الحقائق والمعاني في تفسير السبع المثاني" والذي ذكره نفس

(١) مرصاد العباد: باهتمام الدكتور الرياحي: ص ٥٤.
(٢) عمر رضا كحالة: مرجع سابق: جـ ٦ ص ١٢٢.
(٣) ذبيح الله صفا: تاريخ ادبيات در إيران: جلد سوم: بخش دوم: ص ١١٩٥.
(٤) ميرزا محمد علي مدرسي: ريحانة الأدب: جلد ششم: ص ١٣٩.

المؤلف باسم "كشف الحقائق والمعاني في تفسير السبع المثاني"، وقد سبق لنا الحديث عنه في صفحات سابقة.

شاعرية داية:

من ناحية شعر هذا الشيخ، فبالإضافة إلى ما حوته كتبه من أشعار، يجب القول إن كتب التذاكر والمصادر قد ذكرت أشعاراً كثيرة باسمه، وقد نسب بعضها إلى الآخرين، ولا يمكن التسليم بصحتها كلها له أو نسبتها إليه، ولكن ما تكرر في كتب التذاكر يمكن أن نسلم -مؤقتاً- بأنها له، ومعظم الأشعار من نوع الرباعي[١] .

وهناك العديد من الكتب والمصادر والتذاكر التي كتبت عن شعر الشيخ داية، ومن بينها تاريخ أدبيات دز إيران، نفحات الأنس، آتشكده آذر، رياض العارفين، ريحانة الأدب، وتاريخ تصوف در إسلام[٢]، وغيرها.

أما من ناحية شاعرية داية، فكان يكتب شعراً فارسياً متوسطاً، وقد ذكر قدراً من أشعاره في رسالاته، وصرح بانتساب بعض منها لنفسه، كما فعل في المرصاد، وكلها بلا شك تتميز بلحن عرفاني وعظي.

(١) منوچهر محسني: تحقيق در أحوال وآثار نجم الدين كبرى أويسي: ص ١٣٦-١٣٧.

(٢) ذبيح الله صفا: تاريخ ادبيات در إيران: جلد سوم: بخش دوم: ص ١١٩٢-١١٩٣، عبد الرحمن الجامي: نفحات الأنس: ص ٤٥٣، لطف على بك: آتشكده آذر: ص ١١١٥-١١١٩،رضا قلي خان هدايت: رياض العارفين: ص ٢٤٩، ميرزا محمد على مدرسي: ريحانة الأدب: جلد ششم: چاپ دوم: ص ١٣٩٥، وقاسم غني: تاريخ تصوف در إسلام: ص ٦١١-٦١٦.

أما مقام الشيخ في الشعر، فهو دون مرتبته في النثر، سواء لأن كتابته تأتي في غاية السلاسة والقوة ومتفقة مع اختيار الكلمة الجزلة والفصيحة، وسواء من ناحية إيراد الكلمات العربية بكثرة، أو أنه لا يكف عن إيراد الصناعات والأسجاع في بعض المواضع. ولكن على أية حال، فإن كلامه بسيط وسلس، وأحياناً مطبوع ومزدان وجميل ومقبول.

ولا شك أن استشهاده بالآيات والأحاديث ضمن طبيعة عمله، وإيراد الأشعار الفارسية والعربية على سبيل الإيضاح، هو طبيعة السنة الجارية للصوفية، رغم أنه ليس متصنعاً ولا مزيناً للكلام، ولكن بسبب مهارته في الإنشاء، وبسبب اطلاعه واتباعه لطريقة الذوق السليم في كلامه، فأحياناً يكون مجملاً ومزيناً بأنواع الزينات، وأحياناً أخرى يكون سليماً ومقصوراً على بيان المقصود. وعلى هذا فقد عرف عند المتفحص لكلامه كنموذج رائع في إنشاء النحو الفارسي[1].

أما أغراض الشعر عند داية، فمنها القصائد والغزليات والرباعيات والمثنويات والقطعات حسب ما ذكرته الكتب والمصادر السالفة الذكر، ولكننا نتوقف عن الخوض فيها الآن خشية الإطالة لأنها ليست موضوع بحثنا، وحتى لا نكون مجانبين الصواب، فلا نتجنى بالحكم السريع عليه وعلى شعره نظراً لكثرته في كتب التراجم. وأيضاً فالاختلاف في نسبتها له ولكثيرين غيره تجعلنا نقف أمامها عاجزين عن أي حكم خاطف دون التقصي والبحث.

(١) ذبيح الله صفا: تاريخ ادبيات در إيران: جلد سوم: بخش دوم: ص ١١٩٢-١١٩٤، وللمزيد راجع مرصاد العباد: باهتمام الدكتور الرياحي: ص ٥٤-٥٧، ص ٨٦-٨٩.

مرصاد العباد:

إن تأليف كتاب في مسائل التصوف العرفاني، كان بلا شك أمراً طبيعياً في القرنين السابع والثامن الهجريين -وهما من الأدوار الهامة لرواج هذا الفكر- وكان موضع اهتمام. وفي القرن السابع ألف أحد المتصوفة من أتباع نجم الدين كبرى ويسمى نجم الدين داية كتباً في التصوف والعرفان مثل: "مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد"، وقد حظي هذا الكتاب بشهرة كبيرة من بين مؤلفات هذا الشيخ[1] .

وموضوع هذا الكتاب كما ذكر المؤلف نفسه هو بيان سلوك الدين والوصول إلى عالم اليقين وتربيه النفس الإنسانية ومعرفة الصفات الربانية[2] .

ويقال إن هذا الكتاب قد طُبع حتى الآن عدة مرات[3]، ولكن لم يصلنا منها غير نسخة واحدة هي التي قمنا بترجمتها إلى العربية، وهي المطبوعة في طهران عام ١٣٧٧هـ (مطابقة لعام ١٣٣٦ش.) بسعي واهتمام العارف الرباني المرحوم الأستاذ سيد حسين شمس العرفاء الگرگاني (الجرجاني) الذي يقول في مقدمة الكتاب: إنه قائد هادٍ لجميع الطبقات وأصناف الناس ومشكاة مضيئة لهم، لذا اعتبرت نفسي مكلفاً بأداء هذه الخدمة، فقمت بهذه الرفعة بعمل مقارنة باهتمام جدي لبعض من الكتب القديمة الخطية، وسعيت قدر الطائفة في سبيل تصحيح العبارات والكلمات. وقد تحققت الدقة اللازمة لصحة طبعه مع تحمل المتاعب والمشاق التي لا تحصى، وذلك بعون ومساعدة صاحب العزة مدار

---

(١) ذبيح الله صفا: تاريخ ادبيات در إيران : جلد سوم: بخش دوم: ص ١١٥٢-١١٥٣.
(٢) نجم الدين داية : مرصاد العباد: ص ٣.
(٣) منوچهر محسني: مصدر سابق: ص ١٣٦.

منبع السعادات وسراج السعادات السيد الأمين الأديب الجواد الكريم الجليل الأستاذ سيد عبد الحميد خان بن نقيب المشايخ دامت شوكته العالية[١] .

ويذكر المؤلف داية اسم الكتاب ضمن سطوره بقوله إنه قد وضع اسم الكتاب أيضاً على منوال أحوال الكتاب: "مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد"، تحفة للسلطان كيقباد، جعله الله من خواص العباد، وسلكه سبيل الرشاد، وأهلك أعداءه إهلاك ثمود وعاد[٢] .

أما كلمة المرصاد نفسها فقد ورد ذكرها في القرآن الكريم بقول الحق تعالى: **"إن ربك لبالمرصاد"[٣]، وأيضاً في قوله تعالى "إن جهنم كانت مرصادا"[٤].**

ويتحدث داية عما يعنيه من فائدة هذا الكتاب، هو أن يعود الإنسان إلى جادة الصراط المستقيم مرصاد الدين القويم، لأن قطاع الطرق، من الشياطين والجن والإنس، كثيرون في هذا الطريق[٥] .

ويقول أيضاً عن تعلة تسميته للكتاب: إنه يجب على مدعي طريق الطريقة وأرباب السلوك والمعرفة، أن يكونوا متفائلين ومؤمنين بأن لهم قدماً على جادة الحق ويتبعون الصراط المستقيم. وإذا لم يجدوا في أنفسهم شيئاً من هذا المعنى، فلا يشرون الغرور الشيطاني والشهوة النفسية ويخرجون أفكار الغرور من

---

(١) شمس العرفاء: مقدمته لكتاب: نجم الدين داية: مرصاد العباد: ص أ – ص ب.
(٢) نجم الدين داية: مرصاد العباد : ص ١٧.
(٣) سورة الفجر : آية ١٤.
(٤) سورة النبأ : آية ٢١.
(٥) نجم الدين داية: مرصاد العباد: ص ٧.

رؤوسهم، ويسيرون في طريق الطلب على جادة الصواب ، ولا يغترون بالخرق المبترئة. وقد وضع اسم الكتاب أيضاً على منوال أحوال الكتاب[1] .

إذن فمرصاد العباد كما فهمنا هو كتاب هام في عقائد التصوف الربـــاني ومعانيه، وهو يتحدث عن المبدأ والمعاش والمعاد، ويتضمـــن خمســة أبــواب وأربعين فصلاً كما سنرى بعد.

مضامين المرصاد ومنهج تأليفه:

تضمن مرصاد العباد خمسة أبواب وأربعين فصلاً، وقد ذكرت جميعـــها بالتفصيل في فهرس الفصول في مقدمة الكتاب نفسه[2]، وسنتحدث عنها ببعـض الشرح مع الرجوع إلى كتاب المرصاد نفسه[3] خلال تفصيلنا لذلك.

فهذا الكتاب مبني على ثلاثة أصول هي المبدأ والمعاش والمعـــاد، وقـد وضع لكل أصل باب يشتمل على عدة فصول، توضح كل منها بعضاً من أحوال الإنسان الملائمة لها.

فالباب الأول: في ديباجة الكتاب ويشتمل على ثلاثة فصول.

والباب الثاني: في مبدأ الموجودات: وهو بداية فطرة الأرواح والأشباح والملـك والملكوت منذ خلق آدم: وهو في خمسة فصول.

(١) المصدر السابق: ص ١٧.
(٢) المصدر السابق: ص ٣-٥.
(٣) المصدر السابق: ص ١٦-١٧، نسخة الدكتور الرياحي: ص ٥٧-٥٨.

والباب الثالث: في معاش الخلق: وهو في تربية الإنسان وسيره وسلوكه في أطوار البشرية والأنوار الروحانية وتبديل أخلاقه وتغيير صفاته وأحواله المختلفة أثناء السلوك والاحتياج لأسباب التربية والسمو، ويشتمل هذا الباب على عشرين فصلاً، أي قرابة نصف الكتاب.

والباب الرابع: في معاد نفوس السعداء والأشقياء: وهو في مراجعة ومعاودة نفوس السعداء والأشقياء، ومرجع ومعاد كل صنف سيراً على نهج سلوك الأنبياء والأولياء. وهذا الباب يتضمن أربعة فصول.

والباب الخامس: في بيان سلوك الطوائف المختلفة من الملوك والوزراء والعلماء والفقهاء وأرباب النعم وأصحاب الحرف المختلفة من المزارعين والتجار وأصحاب الصناعات. وهذا الباب هام من ناحية الوظائف الدينية والأخلاقية لكل الطبقات في ذلك العصر الذي عاشه المؤلف. ويعد هذا الباب أيضاً من المؤلفات الهامة في ذلك العصر لأنه يدلنا على الوضع الاجتماعي لتلك الطبقات التي يذكرها خلال فصوله الثمانية.

وبهذا نجد الكتاب قد بُني على خمسة أبواب وأربعين فصلاً، تبركاً وتيمناً بذلك البناء الإسلامي الذي أقيم على خمسة أركان: "بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا. وهذا حديث صحيح برواية عبد الله بن عمر.

وعدد فصول الكتاب أربعون تبركاً بما يختص به العدد أربعون في تربية الإنسان كما قال تعالى: "وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر، فتم ميقات ربه أربعين ليلة"(١). ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام "من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه" وقد ورد في أول كل فصل آية من القرآن المجيد وحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم، مناسب لذلك الفصل تمسكاً بالكتاب والسنة. ويعد أيضاً كل فصل مستقلاً بذاته عما قبله وما بعده، إذ يشرح قضية مستقلة عن غيرها، وتكمل غيرها من الموضوعات التي يتضمنها ثنايا الكتاب، وينتهي كل فصل غالباً بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وأصحابه.

ويذكر داية أيضاً أنه قد ألف الباب الخامس(٢) من هذا الكتاب لبيان سلوك كل طائفة لأنه ليس هناك واحدة منها إلا ولها من حرفتها وصناعتها طريق إلى الجنة أو إلى النار، ولها طريق إلى الحق، ولكن تحت قدم كل شخص تظهر هذه الطرق الثلاث. ولكن الصراط المستقيم هو ذاك الطريق الذي يتجه إلى الحق. فطريق الجنة في الجانب الأيمن وطريق جهنم في الجانب الأيسر كما يقول تعالى: **"كنتم أزواجاً ثلاثة، فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة، والسابقون السابقون، أولئك المقربون، في جنات النعيم"**(٣) وقال المشايخ: "الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق" والمراد من أنفاس الخلق هو مواضع أقدامهم وصناعاتهم وحرفهم. وهذا ما تحدث عنه داية في ثنانيا الفصول الثمانية للباب الخامس.

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٤٢.
(٢) نجم الدين داية : مرصاد العباد : ص ١٩-٢٠.
(٣) سورة الواقعة: آية ٧-١٢.

لماذا ألف المرصاد؟

هناك أسباب عدة وعلل كثيرة لتأليف المرصاد، نذكر منها ما ذكره داية نفسه في خلال سطوره المرصادية عندما يقول إنه بالرغم مما ألف في الطريقة من كثير من الكتب المطولة والمختصرة، وذكر فيها الكثير من المعاني والحقائق، إلا أن معظمها بالعربية، وليس لها فائدة كبيرة للناطقين بالفارسية.

ويقول داية: إنه منذ فترة وعدد من الطالبين المحققين والمريدين الصادقين يلتمسون من هذا الضعيف رغم قلة بضاعته وعدم استطاعته كتاباً كاملاً بالفارسية. وبالرغم من أنه قد ألفت عدة كتب من قبل حسب استعداد كل طائفة واحتياجها، إلا أنهم كانوا يريدون كتاباً قليل الحجم كثير المعنى يتحدث عن بداية الخليقة ونهايتها، وبداية السلوك ونهاية السير ومقصد العاشق والمعشوق ومقصودهما، بحيث يكون الكأس التي تظهر العالم من ناحية، والمرآة التي تجلو الجمال من ناحية أخرى، كما تكمل الفائدة للمبتدئ الناقص، ومن جانب آخر تجعل إفادة المنتهي كاملة[1] .

ومن معللات تأليف هذا الكتاب أيضاً، يذكر داية أنه حين اتجه إلى بلاد الروم حظي بلقاء الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي في مدينة ملاطية، وقد شجعه السهروردي على النزول في أحضان ملك الروم السعيد الطالع، الأصيل الصفة، راعي الدين، المحب لأرباب العلوم وأصحاب القلوب. وكان السهروردي مُحضاً ومشجعاً له ألا يحرم نفسه والخلق من فوائد ومنافع تلك الحضرة، وكتب له بضع كلمات لنواب تلك الحضرة. ورأى داية أن هاتف

---

(١) نجم الدين داية: مرصاد العباد: ص ٧-٨.

السعادة كان يبشر بمائة ألف بشرى، ويعلن بأن يمن الالتحاق بحضرة السلطان جابر لكل خلل، وكان ينادي أيضاً أن القادمين لحضرة السلاطين والملوك لا مندوحة لهم من التحفة اللائقة بحالهم والمناسبة لهمة الملوك، ويقول أيضاً عن نفسه إنه كان مفلساً خاوي الوفاض ومعدماً، وتلك الحضرة حضرة رفيعة الدرجة.

ولما كان اللطف الإلهي يعرف علو همة هذا الشيخ، فقد أسبغ عليه الآلاف من لطفه وكرمه وقال له إن لنا من العلم كهيئة المكنون لا يعلمها إلا العلماء بالله، وإن لنا من خزائن الكرم من الجواهر المكنونة ما لم يمسسها بشر، ولم تنل منها يد أي جوهر، فاحمل أحمالاً كثيرة من هذه الجواهر الثمينة أو بعضاً من هذه الحسان الحور العين كهدية إلى حضرة عبدنا المختار وسلطاننا المبجل علاء الدنيا والدين أبي الفتح كيقباد كيخسرو بن قلج أرسلان (٦١٦-٦٣٤هـ). وفي أثناء هذه الحالة أخذ بعناني حديث جماعة من الطلاب الأعزاء الذين كانوا يطلبون دائماً مثل هذا الكتاب، فاغتنمت هذه الفرصة لخلو البال والألفة، فاسترسل عنان القلم بعون ويد القدرة الغيبية في سلك العبارة، لينزل على أطباق الورق، فيجعل هذه الأوراق تحفة للطالبين المحقين والعاشقين الصادقين، ويقدمه هدية بسيطة لتلك الحضرة. ثم زين الشيخ هذه العروس الغيبية وجملها بزينة الألقاب الهمايونية المباركة لذلك الملك راعي الدين والسلطان ناشر العدل سماوي المظلمة، منجنيقي النجوم، فخر سلالة آل سلجوق(١) .

(١) المصدر السابق: ص ١٣-١٥، والهمايونية بمعنى السعيدة المباركة الميمونة.

وفي نهاية الكتاب[1]، يؤكد الشيخ داية أنه ألف المرصاد ليقدمه تحفة للسلطان علاء الدين كيقباد، ويكون له شرف النظر من تلك الحضرة ولا يكون نصيبه الهجر، وليكون أيضاً -هذا الكتاب- حلاً لبعض المشكلات من الرموز والإشارات للغة الطيور[2] لتصير كسليمان في عصره.

محل تأليف الكتاب وسنة تأليفه:

هناك عدة مواضع نستطيع أن نستنبط منها مكان تاليف المرصاد وزمنه. ونستوضح ذلك من قول المؤلف: (ولكن طالما كان هذا الضعيف حيناً في السفر وحيناً في الحضر في بلاد العراق وخراسان، فلم يكن ليجد خلو البال والفرصة بسبب المشاكل وآفات الفتن المتنوعة ليقدم على إنجاز هذا الكتاب، إذ كانت تظهر كل يوم فتنة من نوع آخر، موجبة ومسببة لشتات القلب وشغل البال، كأنما تستوطن الفتنة تلك الديار)[3].

ومن القول السابق نفهم أن الشيخ نجم داية كان قد قرر تأليف كتابه في الغالب في أواخر عهد السلطان محمد خورازمشاه، وذلك قبل حملة المغول بناء على رغبة الطلاب والمريدين، ولكن أسفاره العديدة وأحداث الفتن قد أرجأت ذلك إلى حين حقق الله أمراً كان مفعولاً.

---

(١) المصدر السابق: ص ٣١٠-٣١١.

(٢) للمزيد من الإيضاح عن لغة الطيور ومنطقهم يرجع إلى كتاب الدكتور بديع محمد جمعة : منطق الطير، فريد الدين العطار النيسابوري : مراجعة وتقديم الدكتور عبد النعيم محمد حسنين: ط . مصر : عام ١٩٧٥.

(٣) نجم الدين داية : المصدر الأسبق: ص ٨.

وبعد هذا نجد متناً آخر لداية يوضح لنا هذا الأمر بصورة أكثر وضوحاً عندما يقول إنه نتيجة لكرامة هذه الحالة، وفتح وفتوح هذه المقالة، فقد حدث في الشهر المبارك رمضان سنة ثمان عشر وستمائة (أكتوبر ١٢٢١م) في مدينة قيصرية (القيسارية) حينما فتحت فيه أبواب خزائن الرحمة، وبسطت خوانات (موائد) الكرم، وانتشرت الدعوة: "هل من سائل، هل من داع"، وفي هذه المناسبة المباركة كانت العزلة قد اختيرت من (جانبي).[١]

ويشرح داية معنى هذا القول صراحة في نص آخر يقول إنه قد أكمل هذا الكتاب في يوم الاثنين غرة الشهر المبارك رجب، أعظم الله قدره وبارك علينا هلاله، في عام عشرين وستمائة من الهجرة (٣١ يوليو ١٢٢٣م) في سيواس المحروسة حفظها الله[٢] .

وبهذا يمكن أن نؤكد، كما قال المؤلف، أن كتاب المرصاد قد خرج إلى النور عام ٦٢٠هـ في سيواس ببلاد الروم حين ذهب إليها الشيخ فاراً أمام فتنة المغول عام ٦١٨هـ.

منتخب مرصاد العباد:

ظهر لمرصاد العباد ملخص باسم "منتحب مرصاد العباد" وطبع في طهران عام ١٣٠١هـ.ق[٣]. وقد وجدنا في مكتبة الجامع الأزهر بالقاهرة نسخة

---

(١) المصدر السابق: ص ١٥.

(٢) المصدر السابق: ص ٣١٠، وللمزيد يرجع إلى كتاب مرصاد العباد : باهتمام الدكتور الرياحي: ص ٥٨-٥٩.

(٣) لطف على بك: آتشكده آذر: هامش ص ١١١٨، وقاسم غني: تاريخ تصوف در اسلام: ص ٥٤٨.

من هذا المنتخب ضمن مجموعة في مجلد برقم ٧٢٩ مجاميع، ٣٤٧٧٦حليم، وهي بقلم نسخ بخط محمد شريف سليم سنة ١٣٠٠هـ، ومجدولة بالمداد الأحمر ومسطرتها ثلاثة وعشرون سطراً (وهي ضمن المجموعة من ورقة ٣٠-٨٩).

وقد وجدنا أيضاً أن صفحات فهرس مكتبة الجامع الأزهر[١] تقول إن اسمه "منتخب المرصاد في سلوك العباد"، انتخبه الإمام أبو حامد محمد بن محمد ابن محمد أحمد الغزالي الطوسي الملقب بحجة الإسلام المتوفى عام ٥٠٥هـ، من كتاب "مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد" للإمام أبي بكر بن عبد الله الأسدي الرازي المعروف بابن الداية، رتبه على مقدمة وثلاثة فصول وأربعة وعشرين باباً: أوله: الحمد لله الذي خلق الأرضين والسموات، وجعل النور والظلمات...الخ.

واستناداً على ما يقول المنتخب وصاحب الفهرس، وبناء على ما قررناه من قبل عن حياة داية، يمكننا أن نقول إن حجة الإسلام الغزالي ليس مؤلف هذا المنتخب، ولا يمكن أن يدخل هذا الكلام في الاعتبار الصحيح لعدة أسباب:

أولاً: أن الغزالي كان يعيش في عصر سابق للعصر الذي عاش فيه شيخنا نجم داية، وهذا بدليل -كما جاء في مناقب الغزالي[٢] والفهرس- أنه توفي عام ٥٠٥هـ على أرجح الأقوال.

(١) فهرس مكتبة الجامع الأزهر: جـ ٣ (تصوف) : ص ٦٣٧.
(٢) مناقب الغزالي: لبعض الفضلاء: (بدون مؤلف): ورقة ص ٩ب، (ضمن مجموعة برقم ٧٢٩ مجاميع/ ٣٤٧٧٦ حليم بمكتبة الجامع الأزهر - الدراسة القاهرة).

ثانياً: إن نجم داية عاش -كما قلنا- في الفترة ما بين عام ٥٧٣هـ إلى عام ٦٥٤هـ، أي أنه عاش في فترة لاحقة لحجة الإسلام الغزالي.

ثالثاً: وتأكيد آخر، هو أن كتاب مرصاد العباد نفسه مؤلف عام ٦٢٠هـ كما ذكر صاحبه الشيخ نجم داية.

فكيف إذن يمكن التقرير بهذا الذي قيل عن الغزالي والمنتخب، والأحرى أن كاتب هذه السطور لا يعرف شيئاً عن كتاب المرصاد ولا عن صاحبه، وأنه لم يحاول حتى الرجوع إلى النسخة الأصلية نفسها، ولكنه ربما يكون قد كتب هذه الكلمات، نقلاً عن مصدر آخر، جعلته يستند عليه، أو ربما يكون قد علمها بالرواية. ولكن الأصح أن هذا المنتخب مؤلفه مجهول. والله أعلم.

الترجمة التركية للمرصاد:

بعد فترة تبلغ القرنين تقريباً من تأليف مرصاد العباد، قام قاسم بن محمود القرة حصاري بترجمة المرصاد إلى التركية في عصر السلطان مراد بن محمد الثاني، وسماه "إرشاد المريدين إلى المراد في ترجمة مرصاد العباد"(1)، ويبدو أنه قدمه هدية للسلطان مراد.

وبالبحث وجدنا نسخة مخطوطة من هذا الكتاب في قاعة الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة تحت رقم ٢٣٥٨، وتشمل نسخة الكتاب على ٢٢٣ ورقة، وكلها في نفس صورة مرصاد العباد الفارسي الأصل، ولا تختلف عنه

(١) حاجي خليفة: كشف الظنون: جـ٥ : ص ٤٩٥، ومرصاد العباد: باهتمام الدكتور الرياحي: ص ١٢٩.

في شيء سوى الفصل الثالث من الباب الأول من الكتاب، إذ يذكر فيه الكاتب لماذا ألف بالتركية؟، وهذا مقابل لما ذكره نجم داية في نفس الفصل في كتابه الفارسي لماذا ألف بالفارسية؟.

أما عن مضامين موضوعات النسخة التركية فهي نفس مضامين النسخة الفارسية، ولكن الاختلاف بينهما في اللغة فقط.

وهذا، إن دل على شيء، فإنما يدل على أهمية مرصاد العباد وشهرته الواسعة وموضوعاته المفصلة.

المبحث الثالث

فكر الشيخ داية ومعتقداته

لقد تعددت وتنوعت آراء وأفكار الشيخ نجم داية وكثرت مباحثه المتنوعة من أخلاقية وفلسفية وغيرها من المناهج والمباحث العديدة لفكره الغزير المتنوع، والتي صنفنيا في مسارات عديدة من الموضوعات العلمية والدينية والصوفية والتي سنذكر بعض منيا إجمالاً لا تفصيلاً:

نظرة داية للكون والموجودات والإنسان:

يسرد لنا داية في الباب الثاني من كتابه "المرصاد" بعضاً من آرائه في خلق الدنيا والإنسان، ولم يشر فيها لأي نوع من المجهول والمبهم الذي يحار فيه فكر العقلاء والحكماء. بل إنه يسير في نهجه بأسلوب سياحي ، فيذكر خصائص مدينة ويعدد ما فيها من الأبنية والمزايا والخلق والموجودات[1]، ويصفها بأسلوبه الخاص.

وحتى لا تمل النفس فسنذكر بعضاً من هذه الموضوعات:

((أولاً))- خلق السموات والأرض:

(في رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما: لما أراد الله أن يخلق العالم، خلق جوهراً فنظر بنظر الهيبة، فأذابه، فصار نصفين من هيبة الرحمن: نصفه نار ونصفه ماء، فأجرى النار على الماء فصعد منه دخان فخلق من ذلك الدخان السموات وخلق من زبده الأرض)[2] .

(١) علي دشتي: دمي باخيام: ص ٢٤٨.
(٢) نجم الدين داية: مرصاد العباد: ص ٣٣.

((ثانياً))- خلق الموجودات:

وبعد ذلك يتجه داية لخلق الموجودات ويخص الإنسان بالحديث حيث يظهر لنا فكره الناضج واطلاعه الواسع. ولكن علي دشتي يقول: "إن مثل هذه التصورات غير جديرة بالبحث والجواب، وجوابها فيما لا أساس له من تلك التصورات الخفية نفسها، والتي لا تقوم على عقل قط. وحتى أنها أحياناً، وبصورة مباشرة، تكون على خلاف الأصول القوية ومبادئ الدين الحكيمة. وهي في بادئ الأمر مثيرة لكل شخص مالك مشاعره، فيصاب بخيبة أمل في مقام إيضاح متناقضات قول الشيخ، إذ كيف يصير الوهم أساس حل المُعمى لأساس وهم آخر وتصورات صبيانية، فجعله بجهله وسيلة اعتراض على علم آخر فيلوثه بجهله. ولكن التطرق يطيل الحديث عن سخف مثل هذه التصورات الواضحة التي في قول داية[1]: لا يمكن مطلقاً أن استخرجت قطارة سوداء حالكة من قند أبيض صاف[2] .

ولكن حين أراد دشتي الرد على داية بمثل هذه الأوصاف - التي قالها- من الجهل والسخافة والتصورات الصبيانية، فإننا نستطيع القول إن ما يقوله دشتي ليس تناقضاً ولا اعتراضاً، بل إن داية يشرح قضية علمية وحقيقة كونية طبقاً لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "نحن الآخرون السابقون"، ويشبه مراتب الخلق بالقناد، ودرجاته حين يوضع في بوتقة للانصهار والتحلل[3] .

---

(١) على دشتى: مرجع سابق: ص ٢٤٩-٢٥١.

(٢) نجم الدين داية : مرصاد العباد: ص ٢٢ (والنص المذكور عند دشتى به بعض التحريف وقد راجعناه على الأصل وذكرناه حسب النسخة الخاصة بنا من المرصاد).

(٣) المصدر السابق: ص ٢٢-٢٣.

ونعتقد أن ما يقوله دشتي(١) ما هو إلا نوع من ضروب الفلسفة التي يتشدق بها؛ لأن المؤلف لم يذكر هذه الألفاظ والمعاني بهذ الفهم القاصر، مما يدل على أن دشتي لم يفهم ما يقرأ، أو لم يدرك ما يعنيه داية من شرحه المستفيض، وإننا نسوق أمثلة ذكرها دشتي نفسه في كتابه:

(١) (قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله خلق الأرواح قبل الأجساد بأربعة آلاف سنة"، وفي رواية بالفي سنة).

(٢) (ففي البدء خلق (الله) الأرواح ثم الأجساد ثم الأجسام).

(٣) (إن مبدأ الموجودات والمخلوقات والأرواح هو النور المحمدي الطاهر، فخلقه على مثال الشجرة، والرسول ثمرة تلك الشجرة. والشجرة – في الحقيقة ــ بذرة الثمرة).

(٤) (نظر الحق تعالى بنظر المحبة لذلك النور المحمدي فغلب عليه الحياء، فتقطرت قطرات العرق. فخلق أراوح الأنبياء من تلك القطرات. ثم خلق أرواح الأولياء من أرواح الأنبياء وخلق أرواح المؤمنين من أرواح الأولياء وأرواح العصاة من أرواح المؤمنين، وأرواح الكافرين والمنافقين من أرواح العصاة).

(٥) (ثم خلق (الله) الأرواح الملائكية من خلقة الأرواح الإنسانية، وخلق أرواح الجن من الأرواح الملائكية وخلق أرواح الشياطين والمردة والأبالسة من أرواح الجن).

---

(١) علي دشتي: دمي باخيام: ص ٢٤٩.

(٦) (وخلق أرواح الحيوانات المختلفة بعد أرواح الإنسان).

(٧) (وبعد ذلك خلق عالم الملكوت وأنواع الملكوتيات والأجساد ونفوس النباتات والمعادن والجمادات من المفردات والمركبات والعناصر).

(٨) (ثم خلق لها مراتب عالم الملك والأجسام)[١] .

وأمام هذا أقدم مثالاً آخر ذكره دشتي نفسه بأوصاف أخرى ما كنا نتوقعها، فيقول:

إن الشيخ نجم داية لا يحتاج لأي دليل وقرينة، لبيان سر الخلق، متى تكون دلائل استحسانية. وفي رواية أن هذه القضايا في منزلة الحقائق الأولية. ولكنه يضرب مثالاً عن قناد عصره لإقناع الخلق الشاكين مثل الخيام، ولا يخلو نقله من العبرة[٢] التي في قول داية: (إن القناد يخرج النبات الأبيض من القند الأبيض عندما يغليه أولاً، فيستخلص النبات الأبيض، ويغلي مرة ثانية، فيستخلص السكر الأبيض، ويغليه مرة ثالثة فيستخلص السكر الأحمر، ويغليه للمرة الرابعة فيخرج التبرزد. وفي المرة الخامسة يغليه فينتج سكر القوالب، ثم يغليه مرة سادسة فتتبقى الرواسب التي تسمى القطارة وهي قاتمة حالكة. ومن أول مرتبة القندية حتى هذه القطارة يقل الصفاء والبياض حتى يبقى السواد والظلمة.

---

(١) نجم الدين داية: مرصاد العباد : ص ٢١.

(٢) علي دشتي: دمي بالخيام: ص ٢٥٠.

وذلك الشخص الذي لا يقف على صناعة القناد، ولا يعرف أن قناد هذه الأجناس المختلفة المتنوعة المتعددة تأتي من قند راحد، فينكر ويقول إنه لا يمكن مطلقاً أن استخرجت قطارة سوداء حالكة من قند أبيض صاف. ولا يعرف أن هذه السواد والظلمة كانت موجودة في أجزاء وجود القند الأبيض الصافي[1] .

((ثالثاً))- خلق الإنسان:

يعود دشتي مرة أخرى ليقدم لنا دليلاً على فكره غيره الواضح فيجعانا نقف حيرى أمامه. إذ يقول بأن المثير للعجب، أكثر من هذا، هو الشرح الذي يقدمه (داية) عن خلق الإنسان، فيتخذ نفس المعنى الظاهري للآية الكريمة "خلق الإنسان من طين"، ويتصور أن الله خلق شكل الجسم من طين، ونفخ فيه من روحه، وتلك هي مطالبه بصورة مختصرة[2] :

(١) (خلق الإنسان من عنصرين متضادين: فقالبه من أسفل سافلين وروحه من أعلى عليين. وسبب ذلك أنه حين يتحمل مسئولية أمانة المعرفة فيجب أن يكون لديه قوة كلا العالمين).

(٢) (خمر الله آدم "بيده" في مدة أربعين يومًا لأنه في رواية أن كل يوم بألف سنة).

(٣) (حين خلق الله تعالى أصناف الموجودات من الدنيا والآخرة والجنة والنار جعل في كل مقام وساطات مختلفة. وحين وصل الأمر إلى خلق آدم، أبعد الوساطات وقال: "إني سأخلق منزل قالب آدم").

(١) نجم الدين داية: مرصاد العباد: ص ٢١-٢٢.
(٢) على دشتى: دمي باخيام: ص ٢٥١.

(٤) (حين يأمر الملوك بعمارة، فيشيدها العمال، ويستنكفون أن يعملوا في الطين بأنفسهم. لكن حين يصل العمل لذلك الموضع الذي سيضعون فيه الكنز، فيبتدر الخدم والحشم، ويعملون بأنفسهم في الطين، ويعدون هذا الموضع على قدر الكنز وحجمه، ويضعون ذلك الكنز بذاتهم كما يضعون طلسماً عليه حتى يظل محفوظاً من تصرفات الأغيار).

(٥) (اشتبه على الجمع فسألوا: "ألست أنت الذي خلقت السموات والأرض بأمر "كن"[١]، فقال الحق: "هذا اختصاص آخر. وإني أعمل في هذا بنفسي دون وساطة لأني سأضع فيه كنز المعرفة".

(٦) (ثم أمر جبريل أن إنزل وخذ قبضة من تراب سطح الأرض وآت بها. فذهب جبريل وأراد أن يأخذ قبضة التراب، فقال التراب: ماذا تفعل يا جبريل؟ فقال: إني أحملك إلى حضرة الحق لأنه سيخلق منك خليفة، فأقسم عليه التراب: "ألا تحملني إليه لأنه ليس لي طاقة القرب، فإني قد قبلت نهاية البعد مختاراً حتى أسلم من سطوات قهر الألوهية).

(٧) (وحين سمع جبريل القسم عاد خاوي الوفاض، فأمر الله ميكائيل وإسرافيل الواحد تلو الآخر (ووصل كل منهما لنفس النتيجة التي وصل إليها جبريل)، وحينئذ أرسل عزرائيل قائلاً: إذا لم يأت طوعاً ورغبة فخذه وآت به قهراً. فجاء عزرائيل وأخذ قبضة تراب من علي وجه الأرض بالقهر. ويرد في رواية أنه أخذ من على سطح الأرض مقدار أربعين ذراعاً من التراب).

(٨) (وسكب ذلك التراب بين مكة والطائف).

---

(١) لم يكن يعمل بأمر "كن" فى خلق السماوات والأرض حسب العقيدة التى كان يبرزها الشيخ نجم الدين نفسه، ولكنه أوجد الأسباب والأدوات والعلل والمعلولات حيث : "كان يعمل بالوساطات المختلفة". (على دشتى : دمي باخيام: هامش: ٢٥٢).

(٩) (وتحير جميع الملائكة عاضين أصابعهم بأسنانهم متعجبين: لماذا يدعو الرب الجليل التراب الذليل بكل هذا الإعزاز؟، والتراب يتدلل ويتعزز كثيراً - مع كمال مذلته وضعفه- مع حضرة العزة والكبرياء؟. وحينئذ قال لهم الحق: "إني أعلم ما لا تعلمون [١]" فلتصبروا عدة أيام حتى أظهر لكم صنيع يد القدرة على قبضة التراب هذه، وحتى أصقل صدأ الطاعة عن وجه مرآة فطرته).

(١٠) (وهكذا فقد ظل قالب آدم واقعاً بين مكة والطائف طيلة أربعين ألف سنة، وكل لحظة كان يوضع في باطنه جوهر لطيف وجوهر شريف من خزائن مكنون الغيب، حتى أنه دفن كل ما كان من نفائس خزائن الغيب في قالب آدم. وحين حلت النوبة بالقلب أخذ طين قلب آدم من ملاط الجنة وخُمر بماء الحياة الأبدية ورُبي في الشمس بثلاثمائة وستين نظرة).

(١١) (استمع لتلك اللطيفة: فمن أين كان عدد ثلاثمائة وستين؟. كان من هناك حيث الأربعين ألف عام حتى كان ذلك الطين في التخمير، وأربعون ألف عام تصبح ثلاثمائة وستين ألف أربعين. فكان كل ألف أربعين يستحق نظرة واحدة)[٢] .

نظرة داية للفكر الفلسفي:

بمعالجة داية لكثير من الموضوعات والألوان الوجدانية المختلفة فهو محلق دائماً في آفاق العالم الروحي، حتى لا يكاد يحس الحياة المادية إلا ليبين

(١) سورة البقرة : آية ٣٠.

(٢) نجم الدين داية : مرصاد العباد: ص ٣٩-٤٤.

تفاهتها واتضاعها إذا قيست بحياة الروح وما تنضوي عليه من المناهج، وما تضمره للإنسان من سعادة أبدية قوامها الكمال والخلود.

والحياة تمكننا - دائماً- من رؤية نفوس الغير من خلال الأحداث لا الأحداث من خلال نفوس الغير[1]. وهذا واضح في منهج داية العام في كتابه، إذ لا يعترف بالفلاسفة ولا معتقداتهم، مثله في ذلك الغزالي في كتابه "المنقذ من الضلال" يقول: "الفلاسفة على اختلاف فرقهم ومذاهبهم كلهم كفرة"، وكما أوضح ذلك أيضاً في كتابه: "تهافت الفلاسفة" وكتاب "مقاصد الفلاسفة". وقد عبر آرنست رينان في كتابه "ابن رشد وفلسفته" بقوله: "إن الذين يكونون فلاسفة في البداية ثم يتمسكون بذيول العرفان والتصوف بسبب الحيرة واليأس يصبحون من ألد أعداء الفلاسفة". وهذا كان مذهب نجم داية ومنهجه في آرائه التي وضعها لنا في كتابه "مرصاد العباد"، وكان كغيره من أساتذته ومعاصريه من الصوفية العظام بعد الغزالي ممن يسخرون من الفلاسفة كالسنائي (الغزنوي) في كتابه "حديقة الحقيقة" وفريد الدين العطار في كتابه "أسرار نامه" و "منطق الطير" وجلال الدين الرومي في "ديوان المثنوي"[2] فكلهم يرون أن الفلسفة هي الطريق إلى الضلال ويسخرون من عقول الفلاسفة ومنطقهم.

(١) جورج سانتيانا: الإحساس بالجمال: ص ١٩٧(الترجمة العربية).
(٢) قاسم غني: تاريخ التصوف في الإسلام: ص ١٧-١٨(الترجمة العربية)، ومرصاد العباد : باهتمام الدكتور الرياحي: ص ٣٣.

وعلى كل فإن الهجمات التي تشنها المدارس المتباينة، بعضها على بعضها الآخر، قد تكون دليلاً على الضلال والانحراف في ميدان الفلسفة، ولكنها عادة، علامة على القوة والنشاط في مجال الفنون[1] .

فالعداء بين الفلاسفة يعتبر إذن وسيلة لإدراك الحقائق. ودابة يعد الفلاسفة من الكفار والضالين لأنه يقول: (حتى يقعوا في الشبهات التي بها ينفون الصانع، أو يثبتون الصانع ناقصاً، لأنهم يقولون إنه ليس مختاراً، وهو ليس في جزئيات العالم، وخالق العالم ليس مبدعاً وموجداً، ولكنه موجب ومؤثر والدنيا أثره. وتقدم الأثر على المؤثر ليس تقدماً زمنيا. وهم يريدون بهذا أن العالم قديم ولا يقبل البقاء والفناء، كما يقولون إن الحق تعالى غير قادر على إفنائه وعاجز عن خلق عالم آخر: "تعالى الله عما يقول الظالمون علواً"[2] .

وبعد ذلك يرميهم بالزندقة والفلسفة فيقول: "ومن ثم فإن الطائفة التي جالت في المعرفة النظرية بنظر العقل، ولا علم لها بمرئيات القلب ومراتبه، وفي الحقيقة ليس لديهم القلب نفسه، وأرادوا بالنظر العقلي أن يجيلوا العقل، ذا العقال، بالسير في عوالم القلب والسر والروح والخفي والأخفى. ولا جرم أن ألقوا العقل في عقيلة الفلسفة والزندقة والكفر والإلحاد والحلول والاتحاد والتناسخ والتشابه)[3] .

وعنهم يقول داية أيضاً: (وعلى هذا فقد أخطأ الفلاسفة إذ اعتقدوا أنه يمكن أن تمحى صفة الهوى والغضب والشهوة والشره، والصفات الأخرى الذميمة

---

(١) جورج سانتيانا: الإحساس بالجمال: ص ٦٩(الترجمة العربية).
(٢) نجم الدين داية : مرصاد العباد: ص ٢٢٢.
(٣) المصدر السابق: ص ٦٦.

كلية، فتحملوا المشاق سنوات طوال ولم يمكنهم محق ذلك بالكلية، ولكن ظهر النقصان، وظهرت صفات أخرى ذميمة من ذلك النقصان، كما يظهر من نفي الهوى الأنوثة والخنوثة والمذلة ودناءة الهمة، ويظهر من نقصان الغضب قلة النخوة والضعف في الدين)[1] .

ويقول داية عن الفلاسفة والعقل "الذي يعتبره ناقصاً وعاجزاً: (وهنا وقع الفلاسفة في الخطأ إذ صرفوا عمرهم في معالجة هذه الصفات ولم يتبعوا الأنبياء، واعتقدوا أنه من الممكن أن تتم هذه المعالجة بمجرد النظر العقلي، ولم يعرفوا ما هي الآلة الأخرى التي كانت للقلب خارج العقل كما ذكرنا، فاعتقدوا أن كل الذات هي العقل، وآفة العقل من هذه الصفات الحيوانية والذميمة. وحين تتغير فإنها تصل بالكمال إلى صفات حميدة ملكية، وأرادوا التبديل بطريق العقل الذي يعملون به، وقالوا إن لنا العلم والعقل، فما حاجتنا إلى اتباع الأنبياء؟ والشخص محتاج لأنه جاهل وناقص العقل. ولم يعرفوا أن وراء العقل آلات أخرى للإنسان أشرف ألف مرة من العقل، كالقلب والسر والروح والخفي والإخفاء، ولا يمكن إدراك هذه المراتب أو تربيتها بالعقل لأن العقل منذ البداية عاجز عن إدراك ذاته، ومعلول ومريض في ذاته، وقيل "رأي العليل عليل" وكما يقال: "طبيب يداوي والطبيب مريض". وهذا بالجملة محتاج للطبيب الشارع المشرع حتى يأمر بمعالجة كل شخص على صواب بقانون الشريعة)[2] .

ويتعصب داية للدين خوفاً عليه من آفات التلوث والفساد التي عمت العالم الإسلامي في تلك الفترة فيقول: (وانتشرت هذه الآفة واشتدت كثيراً جداً خلال

(١) المصدر السابق: ص ١٠٢.
(٢) المصدر السابق: ص ١١٢-١١٣.

العشرين سنة الحالية، وإلا لما كان شخص من هذه الطائفة في عهد السلف يجرؤ أن يُفشي هذا المعنى، إذ كانوا يخفون كفرهم؛ لأن الدين كان فيه الكثير من الأئمة المتقين، وكان الملوك الراعون للدين يحفظونه من هذه الآفات.

وفي هذا العهد قل الأئمة المتقون الذين يحزنون للدين ويعرضون مثل هذه الآفات في حضرة الملوك حتى يعملوا على جبرها وإصلاحها. ولا جرم فالخوف أن يغرب الدين بسبب هذا القيل والقال الذي لاكته بعض الأفواه ويعم العالم الكفر بالقيل والقال، وتختفي حقيقة الإسلام في القلوب إلى ما شاء الله ويختفي أيضاً ذكرها على اللسان لأن الحق تعالى أرسل قهره وغضبه بشؤم مثل هذه الأحوال في صورة كفار التتار (المغول) حتى تختفي هذه الصورة السيئة التي ظهرت في الإسلام الحقيقي)[1].

ومن هذا النص يمكننا أن نستنتج الحقائق التالية:

أولاً- غيرة داية الشديدة على دينه وتعصبه له خوفاً من الفتنة والفساد.

ثانياً- ربما أراد أن يشير لنا "بالقيل والقال" في حضرة الملوك، إلى ما حدث لشيخه مجد الدين البغدادي وقصة مقتله بسبب وشاية الفيلسوف فخر الدين الرازي الذي دس له لدى السلطان.

ثالثاً- نعتقد أنه أراد أن يشير بعبارة "الأئمة المتقين في عصره" إلى الشيخ شهاب الدين السهروردي الذي لقيه ببلاد الروم.

رابعاً- رغم حزنه الشديد على أهله ولعنته لكفار التتار، إلا أنه يأمل أن تكون هذه الحملة سبباً لصحوة المسلمين من غفوتهم ومعصيتهم للإسلام.

---

(١) المصدر السابق: ص ٢٢٣-٢٢٤.

ويذكر داية ضمن كتابه نصًا آخر يواجه به الفلاسفة، ونعتقد أنه ينوه به عن فلاسفة عصره، ويخص منهم الفخر الرازي الذي كان سبب الضيق له في شيخه مجد الدين. وقد طعن داية أيضاً الفيلسوف عمر الخيام صراحة. وقد ذكرنا هذا كله من قبل، وقلنا إن أحد الموثوق بهم لمصادر رباعيات الخيام هو كتاب "مرصاد العباد"، وفي هذا الكتاب نقلت رباعيتان عن الخيام بصورة عرضية، وقد كتب الشيخ نجم داية رفضه لهاتين الرباعيتين. ويؤكد قراءة هذا الرفض، معرفة كيفية البحث وطريقة فكر رجل يقول إن الخيام العالم المفكر: "حائر غافل"، و "ضال عاطل"[1] .

وكما كان داية يرفض الفلاسفة وفكرهم، كان يذكر الفرق المردودة المرفوضة في الإسلام فيقول: (في هذا الطريق الكثير من مزالق الآفات والشبهات والعقبات العديدة. والفلاسفة وحدهم وقعوا في ورطة هائلة من الشبهات وأهلكوا دينهم وإيمانهم. وكذلك فإن الدهريين والطبيعيين والبراهمة وأهل التشبيه (المشبهة) والمعطلة (المعتزلة) والإباحية والحلولية والتناسخية وأهل الهوى والبدع، جميع أولئك شرعوا في سلوك هذا الطريق دون شيخ ومرشد، ولم يستطيعوا قهر عقبات المزالق، فانحرفوا جميعاً عن الطريق في وادي آفة وشبهة أخرى منها وهلكوا)[2] .

ثم يقول في موضع آخر: (أما النفاق في الكفر، فهو ما ينهجه الفلاسفة والدهريون والطبيعيون والتناسخيون والحلوليون والإباحيون والإسماعيلية، فحيث يكونون بين أهل الإسلام يقولون إننا مسلمون، واعتقادهم هو ذلك الكفر

(١) على دشتي: دمي باخيام: ص ٢٦٥-٢٦٦، ومرصاد العباد: باهتمام الدكتور الرياحي: ص ٣٤.
(٢) نجم الدين داية: مرصاد العباد: ص ١٢٨.

والشبهات التي ظهرت، وحين يلتقون بأبناء جنسهم يفصحون عن اعتقادهم ويقولون إننا نستهزئ بهؤلاء المقلدين، ويقول الحق تعالى عن أحوالهم: "وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون، الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون"[١] .

وكل كافر يخفي الكفر ويدعي الإسلام باللسان هو من هؤلاء جميعاً، ومرجع ومعاد الكفار هو ما قاله عنهم (الحق)[٢] : "إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد له نصيراً"[٣] .

وبعد أن اعترض داية على الفلاسفة والفرق الإسلامية على اختلافها نراه يشرح لنا وجهة نظره عن الأديان الأخرى محاولاً الوصول بها إلى الكمال والمثل العليا. ولكن رجل الدين في هذا العالم الروحاني -الذي يتصوره- يحيا حين يتصور عالماً أمثل وأكمل من عالمه الواقع، وكذلك يحيا رجل الفن حين يبدع صوراً تفتن نفسه دون أن يستمدها من هذا العالم الواقع، كما يحيا معهما رجل الأخلاق حين يتصور خيراً أسمى وأعظم مما يعرفه الواقع من خيرات وطيبات[٤] .

ويمكن القول إن المثل الأعلى للكمال يتفاوت، ولكنه لا يتفاوت إلا بتفاوت طبيعتنا لأن هذه الطبيعة تقابله وليست إلا تحقيقاً له أو تحويلاً من عالم القوة إلى عالم الفعل[٥] .

---

(١) سورة البقرة : آية ١٤-١٥.
(٢) نجم الدين داية : مرصاد العباد: ص ٢٢٥.
(٣) سورة النساء: آية ١٤٥.
(٤) جورج سانتيانا: الإحساس بالجمال:ص ١٥ (الترجمة العربية).
(٥) المصدر السابق: ص ٢٧٨.

وعلى هذا يقول داية عن نظرته للمعرفة العقلية والأديان: (أما المعرفة العقلية: فهي لعامة الخلق، ويشترك فيها الكافر والمسلم واليهودي والمسيحي والمجوسي والملحد والفلسفي والطبيعي والدهري، لأنهم جميعاً شركاء في العقل، ويتفق جميعهم على الوجود الإلهي، والخلاف قائم بينهم في الصفات الإلهية لا في الذات. وهناك خلاف أيضاً بين أهل الإسلام في الصفات، ولكنهم جميعاً متفقون في الذات الإلهية، كما يقول الحق: **"ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله"**[١] . وأولئك الذين كانوا يعبدون الأصنام كما يقولون: **"ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى"**[٢] .

وهذا النوع من المعرفة لا يوجب النجاة لأنها تدرك المعرفة العقلية بمدركات الحواس الظاهرة والقوى الباطنية العقلية، ونرى الحواس الظاهرة بعالم المحسوسات وتستخدم العقل للقوى الباطنية.

وكل شخص يورد الدليل العقلي، فلا جدل أنه قانع بدليله. وحين تتعارض الأدلة، فلا يفصلها عن بعضها إلا بالترجيح، ولو ترجح كفة أحد الأطراف ويظهر الحق، فلن يكون ذلك أكثر من إثبات الصانع، وهذا هو إثبات الصانع بالدليل العقلي الذي أوجد بنفسه. والعقل والأدلة العقلية كلاهما موجود، ولا يمكنها الوصول إلى الموجد وإدراك كنهه مطلقاً)[٣] .

ويعود داية مرة أخرى ليوضح رأيه في الأديان والإيمان: (...وأيضاً حصل لنا تصديق القلب نتيجة نور الإيمان لأننا نؤمن بجميع الأنبياء وكتبهم،

---

(١) سورة الزمر: آية ٣٨.
(٢) سورة الزمر: آية ٣.
(٣) نجم الدين داية : مرصاد العباد: ص ٦٥.

ولسنا كاليهود الذين يؤمنون بموسى ولا يؤمنون بعيسى ومحمد عليهما السلام، ولا كالمسيحيين الذين يؤمنون بعيسى ولا يؤمنون بغيره من الأنبياء، ويقولون إن عيسى بن الله -عز وجل- ثالث ثلاثة، وقائل بالأقانيم الثلاثة: "تعالى الله عما يقول الظالمون علواً". وعلى هذا فكما عرف اليهود والمسيحيون نبوة موسى وعيسى ومعجزاتهما بالتواتر، فبالتالي ترون أن محمداً عرف أيضاً بالتواتر ومعجزة القرآن. وكما أنهم يؤمنون بهما، فكان يجب أن يؤمنوا به، ولكن إيمانهم بأنبيائهم تقليد عن الأب وليس نتيجة نظر العقل ونور الإيمان كما قال تعالى: "**إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون**"(١). وقال الرسول عليه السلام: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه". والدين الذي يؤخذ بالتقليد عن الوالدين، بدون نور الإيمان ونظر العقل، فلا اعتبار له وهو كفر)(٢).

ولا شك أنه متى ما تحدد الإيمان وتميز الإله الخاص وسط القوى الطبيعية المهيمنة بما فيها من ظلام ورعب، فإن الإيمان بوجوده الحقيقي يساعدنا على تركيز انتباهنا على طبيعته، ومن ثم على تطوير تصورنا له وزيادته غنى. فالإيمان بوجود مثل أعلى، يدفع إلى زيادة الصفات المثالية لهذا المثل)(٣) .

---

(١) سورة الزخرف: آية ٢٢.

(٢) نجم الدين داية : مرصاد العباد: ص٧٩-٨٠.

(٣) جورج سانتيانا: الإحساس بالجمال : ص ٢٠٧(الترجمة العربية).

ومن هذه الأمثلة العديدة التي ذكرناها ندرك كيف كان داية قوي البيـــان، فياض الخيال، بارع التصوير، يوضح المعنى في صور مختلفة، ويسوق المثــل إثر المثل، فتأتيه المعاني إرسالاً، وتواتيه الألفاظ انثيالاً.

المذهب السني في رأي نجم الدين:

من المعروف أن نجم الدين الداية في معظم مؤلفاتـــه -عـــدا التفســير- كالمنارات والمرصاد يقرن دائماً كل فكرة من الأفكار بنص صريح من الكتـاب والسنة دون أن يعرج على نص محوج إلى التفسير الرمزي في أخــذ الفكـرة منه[1] .

وهكذا يتضح لنا من آثار داية أن فلسفته وأدبه كانت منطلقة كلـــها مــن وحي القرآن والسنة النبوية الشريفة حيث كان يرى أنه لا يوجد دين يتمشى مـع الجنس البشري سوى الإسلام الذي فيه النجاة والخلاص والفلاح لكل أمم العـالم، والولوج إلى ملكوت السماوات.

وإننا نلاحظ أن القرنين الخامس والسادس الهجريين كانا عصري تعصـب وخرافات عدائية بين أهل العلم، ونزاع بين الفرق الإسلامية المختلفة[2]. وكمـــا نجد أن الطبيعة المذهبية في القرن السادس، والتي كانت شائعة في القرن الـــذي سبقه، والتي دامت طوال القـــرن الســادس أيضـــاً، والحــرب والمنازعـــات والمجادلات التي كانت تدور بين الفرق المختلفة من الشيعة والسنة والإسماعيلية

(١) سيد عبد التواب عبد الهادي (دكتور): الرمزية الصوفية فى القرآن الكريـم: سلسـلة كتـابك: العـدد ١٢٢: ص٩.

(٢) حسين فريور: تاريخ ادبيات ايران: ص ١٤٥.

والأشاعرة والمعتزلة وأمثالهم واشتعال نيران الحروب الصليبية التي بدأت منذ أواخر القرن الخامس واستمرت حتى أواخر القرن السادس، وأدت إلى ضجر الناس وتذمرهم، كل ذلك صار سبباً لاتجاه العلماء والمثقفين وأهل الدراية والمفكرين إلى الأخذ بمبادئ الإسلام وفكرة توحيد المذاهب والسلام العام لمقاومة الخلافات المذهبية[١] .

ويظهر لنا هذا جلياً -كما يقول الدكتور الرياحي- عند الشيخ داية المتعصب لأهل السنة والجماعة المتبرئ من أهل البدعة والهوى، كما تتضمنه ثنايا كتاباته، لأنه لا شك أن أدب كل مرحلة من مراحل التطور الإنساني لا بد -إذا كان صادقاً- من أن يعبر عنها، فيعطي صورة حقيقية لها، متحدثاً عما تهتم به وتنزع إليه[٢] .

فبعد دخول المغول الري وانتهاء أسرته -كما يقول- وموت عائلته، كان التعصب المذهبي هو أهم أسباب رحيله إلى الروم في قوله: (وحين انقطع الأمل عن الوطن المألوف، ورأى من صلاح الدين والدنيا في أن يتخذ وطناً في ديار يكون فيها أهل السنة والجماعة المنزهين عن آفات البدعة والهوى والتعصب، متحلياً بالأمن والعدل، ومتميزاً برخص الأسعار وخصب المعيشة)[٣] .

والدليل على تمسكه الشديد بالسنة والجماعة قوله في حصر صفات الشيخ: (الثانية: العقيدة: فيجب أن يكون على عقيدة أهل السنة والجماعة، ولا يتلوث

(١) قاسم غني: تاريخ التصوف في الإسلام: ص ٦٨٨ (الترجمة العربية).
(٢) عبد المحسن طه بدر : حول الأديب والواقع: ص ٢٥.
(٣) نجم الدين داية: مرصاد العباد : ص ١١، ونسخة الدكتور الرياحي: ص ٣٢.

بالبدعة والهوى حتى لا يقع المريد فيها، فلا ينجو، لأن معاملة أهل البدعة ليست منجية)[١] .

والدليل على تعصبه الشديد، حين يكرر قوله بشأن المريد: (الرابعة العقيدة: يجب أن يعتقد (المريد) في أهل السنة والجماعة، ويتجنب البدع، وينتهج مذاهب أئمة السلف، ويبرئ نفسه من التشبيه والتعطيل والحلول والاتحاد ولا يتلوث بالتعصب، ولا يكفر أي طائفة من أهل القبلة ولا يلعن أحداً)[٢] .

وعن المفتي يقول داية: (وعليه أن يتجنب البدع، ويكون ثابت القدم على جادة السنة والمتابعة، وينتهج السيرة والاعتقاد وسنة السلف الصالح، ويتخذ مذهب أهل السنة والجماعة)[٣] .

وكما رأينا نجم داية – في مواضع مختلفة من كتابه- يرفض الأديان غير الإسلامية في مضامين كتابه المرصاد، فهو أيضاً يرفض فرق الإسماعيلية (الملاحدة- الحشاشون) والإباحية والاتحادية وأهل التشبيه وأهل البدع والهوى والمعطلة والدهرية والتناسخية[٤] وغيرها من الفرق.

الفكر الصوفي للشيخ داية:

لا شك أن داية كما نلاحظ في منهج كتاباته، كان يهدف إلى الورع والتقوى والزهد وترك الدنيا والعزلة والتسليم لإرادة الله في كل الأمور

(١) مرصاد العباد: باهتمام شمس العرفاء: ص ١٣٧.
(٢) المصدر السابق: ص ١٤٤.
(٣) المصدر السابق: ص ٢٧٩.
(٤) مرصاد العباد: باهتمام الدكتور الرياحي: ص ٣٢.

والأعمال الدنيوية والأخروية، وأن تصوفه أيضاً يجمع بين تلك الطريقة وحب العشق والعبادة. فهو من ناحية يرتبط بأحكام الشرع، ومن ناحية أخرى يعتبر العشق غاية للمعرفة والسلوك[١] .

وهو كغيره من معاصريه يرتبط بالواقع الذي يعيشه بعلاقة إيجابية وديناميةٍ يتبادل فيها طرفي العلاقة: التأثر والتأثير[٢] .

ونجد أن للتصوف في كل قوم صبغة خاصة بمقتضى الأوضاع الجغرافية والاختلاط مع سائر الأقوام المجاورة وبتأثير الأسلوب الخاص للحكم المحلي والآداب والعادات لأولئك القوم، وكذلك العوامل السياسية والاقتصادية والعنصرية والصفات الاجتماعية الأخرى، أي أن التصوف طبع في كل بلد بطابع خاص، فهناك فرق شاسع في أساليب التفكير في قرن معين بين المجتمعات الإسلامية في الأندلس والمغرب الأقصى، أي شمال إفريقيا ومصر وسوريا والشام وبغداد وإيران. ولكل فرقة مفهوم خاص في الدين والمذهب والفلسفة والعرفان نتيجة للعوامل والأسباب المذكورة[٣] .

وقد بدأ التصوف تحت تأثير عوامل شتى واستقي بالتدريج من منابع مختلفة متعددة وحدثت له تحولات. والواضح أن تلك التحولات والتغييرات لم تكن تابعة للزمن ولم ترتبط بشهر أو سنة أو قرن.

---

(١) المصدر السابق: ص ٣٤.
(٢) عبد المحسن طه بدر: حول الأديب والواقع: ص ٥.
(٣) قاسم غني : تاريخ التصوف فى الإسلام: ص ٦٥٣-٦٥٤(الترجمة العربية).

وتصوف القرن السابع امتداد لتصوف القرن الخامس والسادس، الذي بلغ أوج النضج والكمال بظهور بعض من كبار العرفاء خاصة محيي الدين بن العربي وجلال الدين الرومي[١] .

والطرافة الهامة أن التصوف في القرن السابع لم يُستحب فقط بطريقة "الوجد والحال" بل اتجه في الطريق العلمي وأسلوب التعليل والتوجيه، وإننا نرى هذا الأمر أحياناً عند الصوفية العظام قبل القرن السابع خاصة في آثار عين القضاة أبي المعالي عبد الله بن محمد بن علي الهمداني، والذي وضع -في الحقيقة- "أساس الأسلوب العلمي" بين الصوفية، وقد انتشر هذا العمل بكثرة في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع[٢] الهجريين.

وأيضاً فقد ساعد وجود المذهب السني ، وميل الأهالي إلى التمسك بالدين، ووجود طبقات متعددة كالزراع والصناع والعمال والتجار على تهيئة تربية صالحة لتعاليم الصوفية، فانتشر شيوخ الصوفية بين الناس فقاموا بإرشادهم وهدايتهم عن طريق تعليمهم أصول دينهم[٣] .

إذن، فإننا نجد أنه في القرن السابع نضج التصوف والعرفان، واتخذ طابع العلوم والمباحث الفلسفية، وظهر في العلوم المدرسية بمظهر آخر، أي أن التصوف الذي يمكن تسميته فيما بعد بـ "علم العرفان" أو "التصوف الفلسفي"،

---

(١) قاسم غني : تاريخ تصوف در إسلام: ص ٤٩٧.
(٢) ذبيح الله صفا: تاريخ أدبيات در إيران : جلد سوم: قسمت اول: ص ١٦٢-١٦٣.
(٣) عبد النعيم حسنين: نظامي الگنجوى: ص ٨١.

دخل في حوزة العلوم الرسمية في مصاف سائر علوم ذلك العصر مثل الفلسفة وعلم الكلام وعلم التوحيد أو العلم الإلهي، رأحرز لنفسه مكانة بينها[1] .

ونجد صدى هذا كله عند داية، فهو يحاول أن يوفق بين التصوف والإسلام، أي بين الشريعة والطريقة فيقول عن الزهد عند المريد: (يجب أن يعرض عن الدنيا كلية، فلا يترك قليلاً ولا كثيراً. ولو كان له أهل وأقارب، يقسم ماله جميعه عليهم حسب فرائض الله، وإذا لم يكن له أقارب فيترك كل المال لأجل الشيخ لينفقه على مصالح المريدين، ويقتنع من القوت واللباس بهذا القدر الذي يعطيه الشيخ إياه)[2] .

ويقول عن السالك: (اعلم أنه حين يبدأ السالك في المجاهدة ورياضة النفس وتصفية القلب، يتجلى له العبور بين الملك والملكوت. وحينذاك تلوح له، من الغيب، الوقائع المناسبة له، ويرى هذه الوقائع والمشاهدات أحياناً في النوم وأحياناً في الواقع)[3] .

ويقول أيضاً عن الموحدين والسالكين: (وأما الواقعة المعنوية: فهي ما يراه الموحدون في مرآة الآفاق والأنفس من جمال الآيات البينات وجلالها لقوله تعالى: "سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق"[4] ويظهر للموحدين سبب ظهور الحق، ويصل بالإلهام الرباني إلى معرفة الفجور والتقوى التي في قلب السالك. والحواس مغلوبة على أمرها بنظر القلب، وتطلع الروح

(١) قاسم غني: تاريخ تصوف در إسلام: ص ٤٤٩.
(٢) نجم الدين داية: مرصاد العباد: ص ١٤٣-١٤٤.
(٣) المصدر السابق: ص ١٦٠.
(٤) سورة فصلت: آية ٥٣.

بتلك الإلهامات - دون واسطة تأثير الخيال- على حقيقة تلك الإلهامات والوقائع، ويطلع السالك كلية على صلاح النفس وفسادها وترقيها وانحطاطها كما قال تعالى:(١) "ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها"(٢) .

وفي موضع آخر يقول: (اعلم أن منشأ الأنوار متنوع حسب روحانية السالك، مثل روحانية السالك وولاية الشيخ ونبوة الرسول عليه السلام وأرواح الأولياء والأنبياء والمشايخ العرفاء وحضرة العزة وذكر "لا إله إلا الله" والأذكار المختلفة والقرآن والإسلام والإيمان والإحسان وأنواع العبادات والطاعات، فلكل منها نور غير الآخر)(٣) .

ويكشف لنا داية عن منهج السالك في عبارة أخرى تقول: (وعندما يتجه السالك الصادق بجذبة الإرادة من أسفل سافلين الطبيعة إلى أعلى عليين الشريعة، ويسلك بقدم الصدق جادة الطريق على قانون المجاهدة والرياضة في أحضان هداية متابعة الولي والشيخ. وفي كل حجاب يبلغه من تلك السبعين ألف حجاب، ينكشف له نظر مناسب لذلك المقام، وتصير أحوال ذلك الحجاب منظور نظره)(٤) .

وبعد ذلك يقرر داية الفرق بين السالكين والمجذوبين حيث يقول: (والسائرون في هذا الطريق قسمان: السالكون والمجذوبون، فالمجذوبون هم الذين يلتزمون بقوة الجذبة، ويعبرون في عجلة على هذه المقامات بغلبات

---

(١) نجم الدين داية: مرصاد العباد: ص ١٦٢.
(٢) سورة الشمس : آية ٧-٨.
(٣) نجم الدين داية: مرصاد العباد: ص ١٦٦.
(٤) المصدر السابق: ص ١٧٢.

الشرق، ولا يطلعون كثيراً على أحوال الطريق ومعرفة المقامات وكشف الآفات ولا يعرفون تماماً بما يكون في الطريق من خير وشر ونفع وضرر لأنه لا يصلح للمشيخة ولا الإمامة.

والسالك: مع أنه شخص يؤخذ بقبضة الجذبة إلا أنه يؤخذ بالسكينة والهدوء. وفي كل مقام يعرض عليه أحوال خير الطريق وشره وصلاحه وفساده. فأحياناً يدفع في الطريق السليم وأحياناً في الطريق المعوج حتى يقف تماماً على كلا الطريقين ويدركهما، ومن ثم يصلح دليلاً مرشداً لجماعة أخرى)[1] .

ومن هذا نستطيع أن نخرج بنتيجة، هي أن داية قد نهج في سلوكه الحد الوسط بين الزاهدين والمجذوبين، فهو من أهل الشريعة والطريقة: إذ يقول بفريضة الصلاة والصوم والحج والزكاة، ويتبع الأذكار والأوراد والخلوة، ويقول أيضاً بالاعتقاد في الكرامة والكشف والتجلي والوجد والشوق والتوله والحال. وقد توسل إلى ذلك كله بالاستشهادات والأدلة التي يستقيها من القرآن والحديث النبوي والتفاسير والأدلة المختلفة، وهي كلها تدعو إلى التفكر والتدبر[2] .

وفوق هذا فهو يستفيد من أقوال وأحوال المشايخ والأئمة السابقين والمعاصرين له، حيث يتجلى ذلك كله في ثنايا مرصاده.

---

(١) المصدر السابق: ص ٢١٢-٢١٣.

(٢) المصدر السابق: باهتمام الدكتور الرياحي: ص ٣٥ بتصرف. وهكذا نلاحظ أن الحفاظ على الشريعة ليس نزعة فردية عند النجم، وإنما هو اتجاه عام عند جميع الصوفية كما تؤكد النصوص والأخبار ذلك، دكتور سيد عبد التواب: الرمزية الصوفية فى القرآن الكريم: ص ٩-١٠.

وقبل أن ننتقل إلى الحديث عن بعض الأفكار العرفانية الصوفية لداية، نقول إن كل المعتقدات الصوفية، يكون لكل منها ميزة خاصة بها تنشأ تحت تأثير الظروف والأحوال التي مرت بها وترعرعت فيها، ولكنها تصل في النهاية إلى نقطة واحدة تتجلى فيها بصور مختلفة لا حصر لها.

الشيخ والخرقة:

لقد استطاع داية بقراءاته المستفيضة للكتب العربية والفارسية على اختلافها، والثقافات المتنوعة، أن يأخذ بحظ وافر من الحياة العقلية المختلفة، ويشارك في الحياة الأدبية، مستعيناً في ذلك بأسلوبه الذي تميز به فاستطاع أن يكتب في جوانب عدة من موضوعات مختلفة.

ومن هذه الموضوعات التي سردها لنا، حديثه عن الشيخ والمريد والولاية، وما يتعلق بهذه الموضوعات من جوانب متعددة. والشيخ باصطلاح المتأخرين من الصوفية هو من كملت صفاته في مراحل الطريقة ويستطيع إرشاد المريدين وإعانتهم، ويسمى الشيخ "قطبًا" بعد ما يبلغ درجات الكمال العالية ويحصل له الاستغناء التام بالكمال[١] .

وفي كتاب المرصاد يتحدث داية عن ذلك فيقول إن المراتب الخمس التي تقوم عليها أهلية المشيخة والولاية والإمامة، ويجب على الشيخ والولي أن يتصف بها هي:

الأولى: اختصاص العبدية للحضرة : "من عبادنا".

---

(١) قاسم غنى: تاريخ التصوف في الإسلام: هامش ص ٣١٧(الترجمة العربية).

الثانية: أحقية قبول الحقائق الواردة من الحضرة بلا واسطة: "آتيناه رحمة".
الثالثة: الاختصاص بالرحمة الخاصة من مقام العندية (كقوله): "رحمة من عندنا".
الرابعة: شرف تعلم العلم من الحضرة لقوله: "وعلمناه".
الخامسة: السعادة بتحصيل العلوم اللدنية بلا واسطة[1] : "من لدنا علماً".

وهذه المراتب الخمس تفسير لقضة موسى مع الخضر عليهما السلام كما ذكرها القرآن لقوله تعالى: **"فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً"**[2] .

وبعد ذلك يشرح داية هذه المراتب الخمس لبيان مقام الشيخ وحقوقه ووظائفه حتى يسلم بنا في النهاية إلى الشروط الواجبة على الشيخ تجاه ولايته ومريديه، فيذكرها لنا في عشرين صفة نوجزها فيما يلي: العلم، العقيدة، العقل، السخاء، الشجاعة، العفة، علو الهمة، الشفقة، الحلم، العفو، حسن الخلق، الإيثار، الكرم، التوكل، التسليم، الرضاء بالقضاء، الوقار، السكينة، الثبات، والهيبة. وتفصيلها في مرصاده في الفصل العاشر من الباب الثالث[3] .

وينتقل بنا المؤلف إلى المريد ليبين لنا أيضاً وظائفه وحقوقه وواجباته، ويحدثنا عن الإرادة فيقول: (اعلم أن الإرادة سعادة عظيمة، وهي بذرة كل السعادات. والإرادة ليست من صفات الإنسانية، ولكنها من فيض أنوار صفة مريدية الحق، كما يقول الشيخ أبو الحسن الخرقاني: (أراده من أرادنا).

---

(١) نجم الدين داية: مرصاد العباد: ص ١٣٢.
(٢) سورة الكهف: آية ٦٥.
(٣) نجم الدين داية: مرصاد العباد: ص ١٣٧-١٣٩.

والمريدية صفة ذات الحق. وما لم يتجل الحق تعالى بهذه الصفة على روح العبد، فلن تظهر صورة نور الإرادة على قلب العبد، ولن يصير مريداً. وحين رسخت بذرة السعادة هذه بالموهبة الإلهية في أرض القالب، فيجب ألا يتركها للضياع، لأن ذلك النور يكون في البداية مثل شرر النار التي تحرق، وإذا لم تمد بالأعشاب الجافة فتخمد مرة أخرى وترحل إلى مكمن الغيب[١] .

ويتابع بعد ذلك كلامه عن المريد من حيث وجوب اتباعه لكل حال وفعل وقول عن الشيخ ولا يعترض عليه حتى يستطيع بلوغ الإرادة، ولا يتخلى عنه إلا بعذر لوفاة الشيخ أو رحيله.

ويذكر لنا داية صفات المريد التي يجب أن يتصف ويتحلى بها حتى ينال أحقية صحبة الشيخ فيبلغه الكمال بسلوك هذا الطريق، ونذكرها باختصار أيضاً لعدم الإطالة: مقام التوبة، الزهد، التجريد، العقيدة، التقوى، الصبر، المجاهدة، الشجاعة، البذل، الفتوة، الصدق، العلم ، الضراعة، العيارية، الملامة، العقل، الأدب، حسن الخلق، التسليم، وآخرها التفويض[٢] .

ويختتم داية هذه الصفات بقوله (وحين يقوم المريد الصادق بهذه الشروط، ويتصف بها الشيخ، حيث قيل إن ذلك هو المقصود والمراد الحقيقي، فإنه ينزل من حجب الدلال بسرعة فائقة وتكشف حجب العزة عن الجمال، وينال القاصد المقصود والطالب المطلوب والعاشق المعشوق: (ألا من طلبني وجدني)[٣] .

---

(١) المصدر السابق: ص ١٣٩-١٤٠.
(٢) المصدر السابق: ص ١٤٣-١٤٨، ونسخة الدكتور الرياحي: ص ٣٨ .
(٣) المصدر السابق: باهتمام شمس العرفاء: ص ١٤٨.

وأما انتساب المريد للمشايخ فيكون بثلاث طرق:

- الأولى: بالخرقة.
- الثانية: بالتلقين.
- والثالثة: بالصحبة والخدمة والتأدب لها[1] .

ونظراً لأهمية الإسناد والخرقة بالنسبة لإرادة الشيخ فإننا سنفصل عنها بعض الشيء: فمن خصائص الطرق المختلفة للصوفية موضوع "الإسناد": ومعنى ذلك أن أتباع كل فرقة يوصلون سلسلة مرشديهم، بعدة وسائط، إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، وكما أن أصحاب الحديث يذكرون سلسلة الرواة ويرفعون الحديث في النهاية إلى النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، كذلك يعتقد رؤساء الطريقة أن تعاليمهم مستمدة من صاحب الرسالة مباشرة[2] .

وإسناد الخرقة نوعان: خرقة الإرادة، وهي لا يجوز الحصول عليها إلا من شيخ. والثانية خرقة التبرك: وهي تجوز من مشايخ كثيرين على سبيل التبرك[3] .

أما إسناد خرقة الإرادة وهي موضوعنا فقد ذكر الشيخ مجد الدين البغدادي -طيب الله ثراه- في كتاب "تحفة البررة" أن نسب الخرق متصل بالرسول صلى الله عليه وسلم في حديث متصل معنعن، وقال إن المصطفى صلى الله عليه وسلم ألبس الخرقة لأمير المؤمنين علي رضي الله عنه، وهو

(١) عبد الرحمن الجامي: نفحات الأنس: ص ٥٦٠.
(٢) قاسم غني: تاريخ التصوف في الإسلام: ص ٦٥١(الترجمة العربية).
(٣) عبد الرحمن الجامي: نفحات الأنس: ص ٥٦٠.

للحسن البصري (م ١١٠هـ)[1] ، وهو لكميل بني زياد، وكميل لأبي عبد الله عبد الواحد بن زيد، وهو لأبي يعقوب نهر جوري (م ١٣٣هـ)[2] ، وهو لعمرو ابن عثمان المكي (م ٢٩٦هـ)[3] ، وهو لأبي يعقوب الطبري، وهو لأبي القاسم ابن رمضان، وهو لأبي العباس بن إدريس، وهو لداود الخادم، وهو لمحمد بن مانكيل، وهو لإسماعيل القصري (م ٥٨٩هـ)[4]، وهو للشيخ نجم الدين الكبرى، وهو لهذا الفقير (أي مجد الدين البغدادي). وعلى هذا فنسبة الخرقة تتصل بالمصطفى صلى الله عليه وآله وسلم. والله أعلم[5] .

ولكننا نقول إن هناك اختلافات كثيرة بين المشايخ وكتاب التذاكر في نسب الخرق [6] .

أما عن نسبة تلقين الذكر، فيذكرها شمس العرفاء -ناشر مرصاد العباد- في تقديمه للكتاب نفسه فيقول: (إعلم أن الشيخ نجم الدين أبا بكر عبد الله بن محمد بن محمد بن شاهاور الأسدي الرازي المعروف "بداية"، كان مريداً في الطريقة للشيخ مجد الدين البغدادي الذي كان مريداً للشيخ نجم الدين كبرى الذي تنسب إليه سلسلة الكبروية، وهو قد ارتدى الخرقة عن الشيخ عمار بن ياسر

---

(١) فريد الدين العطار: تذكرة الأولياء: جـ١: ص٣٤-٤٨. خامسة.
(٢) المصدر السابق: جـ٢: ص٦٧-٦٩، وعبد الرحمن الجامي: نفحات الأنس: ص ١٣٠.
(٣) فريد الدين العطار: تذكرة الأولياء: جـ٢: ص ٣١-٣٤- ط . خامسة، وعبد الرحمن الجامي: نفحات الأنس: ص ٨٤.
(٤) وهو من أصحاب الشيخ أبي النجيب السهروردي، وقد صحبه الشيخ نجم الدين الكبرى: (عبد الرحمن الجامي: نفحات الأنس: ص ٤١٨).
(٥) المصدر السابق: ص ٥٦٠-٥٦١.
(٦) المصدر السابق: ص ٤١٨-٤١٩، محمد دارا شكوه: سفينة الأولياء: ص ١٠٤، منوچهر محسني: تحقيق در آحوال آثار نجم الدين كبرى أويسي: ص٥٣-٧٢، ومرصاد العباد : باهتمام الدكتور الرياحي: ص ٣٦.

البدليسي، الذي كان مريداً لأبي النجيب السهروردي، الذي كان مريداً للشيخ أحمد الغزالي الطوسي. والشيخ أحمد كان خليفة للشيخ أبي بكر النساج، الذي كان مريداً للشيخ أبي القاسم الجورجاني، وهو خليفة الشيخ أبي عمران المغربي وهو مريد للشيخ أبي علي الكاتب، وهو مريد للشيخ أبي علي الروذباري، وهو خليفة الشيخ جنيد البغدادي، وهو خليفة الشيخ سري القطي، وهو مريد معروف الكرخي، وهو مريد السلطان المرتضي علي بن موسى الرضا صلوات الله عليه والمأذون منه والقائم ببابه[1] .

ومن هذا يمكن أن نخلص إلى ضرورة التصوف لحياة الدين والتدين في الفرد وفي الجماعة، وأن التخلي عن هذا الاتجاه أو عدم وجوده أو ركوده، إنما ينقص ذلك حتى إيجاد وتحقيق نوازع الدين في وجودنا أفراداً وجماعات.

ولذا فقد كانت حياة الرسول صلى الله عليه وسلم هي المحراب والقبلة التي يتجه إليه الصوفي ليتأسى بها لقوله تعالى: "لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً". فالرسول هو القائد الأول للطريق، والقرآن الكريم هو المورد العذب للقاصدين، وأصحاب محمد نجوم يهتدى بهم ويقتدى بفكرهم.

(١) نجم الدين داية : مرصاد العباد: مقدمة شمس العرفاء: ص: ب ، ونسخة الدكتور الرياحي ص ٣٦-٣٧.

الخانقاه والذكر:

إذا أردنا أن نعرف أحداث وظروف كل عصر، فلا ريب من الإطلاع على تطور التاريخ وعيوده وأحداثه في كل عصر، والمؤثرات الداخلية والخارجية التي أثرت فيه.

فإذا نظرنا إلى الممالك الإسلامية في عصر داية، نجد أنه قد اشتد النزاع بين الفرق في القرن السادس، وأذكت نيرانه الحروب الصليبية، وضعف مركز الخلافة الإسلامية، وتشكيل حكومات شبه مستقلة، ونزاع أمراء الإيالات المختلفة بعضهم مع البعض الآخر، مما أدى إلى خراب الممالك الإسلامية في النهاية، وانقراض الخلافة على يد المغول في القرن السابع الهجري.وقد أدى كل هذا إلى انعدام المثل الأخلاقية[(١)] .

وهذه التيارات على اختلافها، وما كان من نتائجها الطبيعية من قتل الفضيلة وفساد الأخلاق، لا بد أن يظهر نقيضها، وما هو محبب إلى النفوس، كي تسكن إلى الروح حتى تطمئن.

وكان من آثار هذا أن انتشرت العلوم الدينية وسادت الأفكار العرفانية، فكان التصوف الذي يعتبر ظاهرة إنسانية عرفتها الجماعات البشرية المختلفة والحضارات المتتابعة، وهي تزدهر في ظروف خاصة، وتنحسر في ظروف أخرى[(٢)] .

---

(١) عبد النعيم حسنين: نظامى الگنجوى: ص ٦٦.
(٢) على صافى حسين: الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى: ص٥.

ثم دخل التصوف في شكل حزب وفرقة خاصة و أدير كل حزب تحت قيادة وإرشاد شيخ أو مرشد، وكان الشيخ الكامل أو المرشد مهيمناً على مريديه، فجعل أعمالهم تحت المراقبة، كما سارت فرق الصوفية المختلفة في السير والسلوك، في طرق متعددة طبقاً لفهميا وسليقتها، وكانت كل فرقة تعرف السبيل لأقرب الطرق للوصول فتسلكه[1] .

وكان للشيخ داية طريقه وسلوكه الذي جمع بين الزهد والجذب ، فالتزم بالعناية الأبدية لحضرة العزة والعمل بأركان الشريعة والقيام برسوم السلوك. وكانت وسيلته إلى ذلك ، ما حدثنا عنه عن أهمية الحاجة للشيخ والذكر والخانقاه والخلوة. وعن الحاجة للشيخ وضرورته يقول لنا داية: (اعلم أنه لسلوك طريق الدين والوصول إلى عالم اليقين، فلا مناص من شيخ كامل مرشد عارف بالطريق، وصاحب ولاية وصاحب سطوة[2] .

ويقول داية أيضاً في نفس الصفحة: (إنه لمفتون ومغرور هذا السالك للطريق الذي يعتقد أنه من الممكن أن يقطع البادية الشاسعة لكعبة الوصال بالقدم البشري بلا دليل ومرشد: "**هيهات هيهات لما توعدون**")[3] .

وبعد ذلك يعدد لنا داية في الفصل التاسع من الباب الثالث أسباب احتياج المريد للشيخ في عشرة مناح نبسطها فيما يلي:

---

(١) حسين فريور: تاريخ ادبيات ايران وتاريخ شعرا: ص ١٥٠.
(٢) نجم الدين داية: مرصاد العباد: ص ١٢٧.
(٣) سورة المؤمنون: آية ٣٦.

أولاً: لا يمكن سلوك الطريق الظاهر إلى الكعبة الصورية دون دليل يراقب سالك الطريق.

ثانياً: كما أنه في طريق الصورة لصوصاً وقطاع طرق كثيرين، فلا يمكن السير دون مرشد.

ثالثاً: في هذا الطريق الكثير من مزلات الآفات والشبهات والعقبات العديدة التي وقع فيها الفلاسفة وغيرهم من الفرق.

رابعاً: يعترض السالكين في هذا الطريق الكثير من الابتلاءات والامتحانات المشحونة بالمزلات والعثرات.

خامساً: يظهر في باطن السالك لهذا الطريق العلل والأمراض، وتتغلب عليه بعض المفسدات وانحراف المزاج.

سادساً: يأخذ السالك الغرور والعجب حين يصل بعض المقامات الروحانية، وربما لا يدركه نظر العقل والفهم والخيال.

سابعاً: يظهر للسالك بعض مظاهر الغيب والوقائع التي لا يدركها ولا يعرفها وحده.

ثامناً: سالك الطريق يسير بقدرته الذاتية إلى المقامات في أعوام طوال، على العكس مما لو كان تحت تربية ومراقبة شيخ ومرشد.

تاسعاً: الذكر الذي يقوله المريد من نفسه لا يكون مفيداً ما لم يتلقنه عن شيخ كامل.

عاشراً: لا بد للسالك من الخدمة اللائقة للحضرة، وهذه لا تأتي إلا بالشيخ[1] .

---

(١) نجم الدين داية : مرصاد العباد: ص ١٢٦-١٣٢ بإيجاز.

وننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الذكر والخانقاه التي تحدث عنها داية في مواضع عدة من كتابه، ونعتقد أنها كانت سبيله لأداء الذكر الصوفي، فكل قوم عرفوا التصوف بما يزيد عن الحصر ويتأبى على العد، وكل متصوف عرفه من خلال تجربته الروحية وحاله السلوكي، لأن ظاهرة التصوف ليست وقفاً على الجانب الروحي من الحياة الإنسانية التي تتأثرها، ذلك لأنها ترتبط بسلوك المرء وإرادته وفكره إلى جانب موقفه من الله والكون نفسه[1]. ويمكن القول إن الجامع لهذا التعدد في التعاريف الصوفية يعتمد على صدق التوجيه ودوام التصفية.

ومن خصائص القرن السابع نفوذ الخانقاهات[2] وأهميتها حيث بدأت في القرن الماضي بصورة مبسطة لاجتماع الصوفية وقد بلغت أوج العظمة والأهمية في هذا القرن حتى أصبح منصب "شيخ الشيوخ" يحسب في عداد المناصب الرسمية للدولة، وكانت الخانقاه تعد من المراكز الاجتماعية الهامة.

وبالإضافة إلى ما كانت عليه الخانقاه من مركز هام ومؤثر اجتماعي، كان يؤدى فيها عدة أعمال أخرى من قبيل تربية وتكملة المريد وإعداد المرشد للنجدة وهداية الطلاب وإرشاد المبتدئين[3]. وقد أورد داية ذكر الخانقاه في كثير من المواضع في ثنايا مرصاده[4]، نذكر منها هذا الحديث: (حين كان هذا الضعيف - يعني داية نفسه - في الشام عام ستمائة هجرية، سمعت أن الملك

(١) على صافى حسين: الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى: ص ٥.

(٢) "فى القرن الخامس كانت الخانقاه محلا لاستراحة المسافرين من الصوفية، وهى تشبه أديرة المسيحيين حيث كان يستقبل فيها المسافرون" : (قاسم غني: تاريخ تصوف در اسلام: هامش ص ٥٠٠).

(٣) المصدر السابق: ص ٥٠٠.

(٤) نجم الدين داية: مرصاد العباد: ص ١١، ١٦٤، ٢٦١، ٢٦٣، ٢٨٥، ٣٠٥-٣٠٨.

صلاح الدين اعتاد، حين كان يستولي على أي مدينة، أن يقيم فيها الأبنية الخيرية. وحين استولى على ديار مصر، قال للقاضي الفاضل الذي كان وزيراً: إني أريد أن أقيم الخانقاهات[1] في مصر، فقال القاضي: وأنا أريد أن يقيم ملك الإسلام الآلاف من بقاع الخير في ديار مصر[2] .

ويتجلى رأي نجم داية بصورة أوضح عن الخانقاه عندما يقول عن أصحاب الحرف وأرباب الصناعة: (ويعلمون حقيقة أن الدنيا على مثال الخانقاه، وحضرة الإلوهية بمثابة الشيخ، والرسول عليه السلام هو الخادم، وعلى هذا قال (عليه السلام): "سيد القوم خادمهم". والخلائق على نوعين: إما خادمون أو مخدومون، وكل من في الخانقاه لن يخرج عن هذين النوعين: فإما أن يكونوا عمالاً وخدماً للخانقاه حيث ينصب الشيخ كلا منهم في خدمة، ويعهد إليه بذلك العمل أمانة في عنقه، وإما أن يكونوا جميعاً من الطلاب والمخدومين الذين لا يقومون بأي عمل أو كسب بسبب غلبات الشوق ودواعي المحبة وألم الطلب، فأعرضوا عن هوى النفس والخلق، وولوا وجوههم ناحية جدار الرياضة والمجاهدة[3] .

ونكتفي بما ذكرنا هنا عن الخانقاه ومدى أهميتها في تلك الآونة لننتقل إلى الذكر عند داية وكيف كان؟:

---

(١) (الخانقاه هو مسكن ومحل لاجتماع الصوفية فى مصر وسائر بلاد شمال إفريقيا ويسمى "الزاوية" وتسمى فى بعض البلاد الرباط، وأحيانا "الصومعة" على نحو المجاز) (قاسم غني: تاريخ تصوف در اسلام: هامش ص ٤٤٠).

(٢) نجم الدين داية : مرصاد العباد: ص ٢٦٣.

(٣) المصدر السابق: ص ٣٠٥.

يوضح الشيخ أن حجب السالك تكون نتيجة النسيان الذي يثبت الإثنينية بينه وبين الحضرة، وتعلق الروح بالقالب يخلف منهما وليدان كالنفس والقلب. وكان سبب النسيان هو المرض: "في قلوبهم مرض"[1] ، ولا جرم أن يأمر بهذا الشراب من صيدلية القرآن في مقام المعالجة لقوله تعالى: "واذكروا الله ذكراً كثيراً"[2]، والتخصيص بذكر "لا إله إلا الله" هو أفضل الذكر لسلوك الطريق، حتى يحصل الخلاص من الشرك المعنوي[3] .

وينتقل داية إلى ماهية الذكر في الفصل الثالث عشر، ولكن قبل هذا نوضح ما قاله عن أهمية الشيخ بالنسبة للمريد عند تلقين الذكر: (اعلم أن الذكر التقليدي أمر، والذكر التحقيقي أمر آخر. فالذكر التقليدي هو ما يخرج عن طريق الفم إلى باب السمع، ولو أنه لا يؤثر كثيراً مثلما تلقى بذرة غير ناضجة في الأرض فلا تنبت. والذكر التحقيقي هو ما يقع لقلب المريد بتصرف وتلقين صاحب الولاية على أرض الاستعداد[4]، ويقول أيضاً في نفس الصفحة السابقة: (وحينئذ يتأكد أن تحصل له الفائدة الكلية، ما دام يتلقى الذكر عن شيخ كامل صاحب تصرف لأن السهم يحميه كل وقت حيث يؤخذ من كنانة السلطان، ولن يحميه السهم الذي يؤخذ من دكان صانع السهام، ولكنه يصلح (فقط) لدفع الخصوم.

ويحدثنا آريري كذلك عن الذكر في مرصاد نجم داية فيقول: (ومن الجائز أن قيمته العظيمة تكمن في البيان المفصل عن الذكر الصوفي والمساجلات

(١) سورة البقرة: آية ١٠.
(٢) سورة الأحزاب: آية ٤١.
(٣) نجم الدين داية : مرصاد العباد: ص ١٤٨-١٥٠.
(٤) المصدر السابق: ص ١٥٢.

المختلفة لأشكال النور الذي يرى أثناء نشوة التجليات الروحية. وهذا ملخص عن وصف يستحق التأمل...)[١] .

ويحدد داية شروط الذكر وآدابه في عدة نقاط هي الاغتسال كلما أمكن أو التوضؤ وضوءاً تاماً، وارتداء الثوب الطاهر، والخلوة في منزل مظلم ونظيف، وإحراق بعض الطيب الجيد، والتربع في اتجاه القبلة، ووضع اليدين على الفخذين، وإحضار القلب، وإغماض العينين، والبدء في الذكر "بلا إله إلا الله" بقوة تضرع كاملة دون الجهر بالصوت مع إحضار معنى الذكر ونفي الخاطر قدر الإمكان حتى يزيل العلائق والعوائق والأغيار ويظهر تجلي الحق بالجمال للإبصار[٢] .

ويتحول داية ناحية أخرى ليعدد لنا شروط الذكر وخصائصه فيقرر أن يصوم المريد ثلاثة أيام مداوماً على الوضوء، ذاكراً على الدوام، ويقلل الاختلاط بالناس ويتحدث بقدر الضرورة، ولا يأكل كثيراً وقت الإفطار، ويقوم الليالي للذكر، وبعد اليوم الثالث يغتسل بأمر الشيخ بنية غسل الإسلام كأي شخص يريد الدخول في الدين. ثم يتجه إلى الشيخ بعد صلاة العشاء، فيجلسه الشيخ تجاه القبلة، ويجلس أمامه مولياً ظهره للقبلة، والمريد جالس على ركبتيه في خدمة الشيخ، واضعاً يديه فوق بعضها مستحضراً قلبه، ويوصيه الشيخ بالوصية، ويلقن المريد بضع كلمات من أسرار التلقين وخواص الذكر، وموافقة لفهم ونظر المريد حتى يستجمع المريد قواه ويخلي قلبه ويتجه به إلى الشيخ ويراقبه في ضراعة تامة عندما يقول: "لا إله إلا الله" بصوت قوي عال، ويكرر المريد مع

---

(١) Arberry : Classical persian Literature p. 251-525.

(٢) نجم الدين داية: مرصاد العباد: ص ١٥٠-١٥٢.

الشيخ ثلاث مرات، ثم يدعو الشيخ في النهاية ويفعل مثله المريد ويختتم بالدعاء بالقول "آمين"، وبعدها يتجه المريد إلى الخلوة متجهاً إلى القلب ويشغل نفسه بالذكر حتى يصل إلى ثمرة التوحيد وينال الثمرة الحقيقية للكمال إن شاء الله[1] .

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن خلوة داية، فيمكن القول إن نشأته الدينية جعلته يحب الخلوة ويؤثر الاعتكاف للتفكر والعبادة، سبيله في ذلك الأخذ بالعزائم، والسير على الصراط المستقيم، والاقتداء بالرسول الكريم، وبذل الجهد في جماح النفس ورياضة القلب وأداء الفرائض على طهارة الباطن بعد إحكام طهارة الظاهر والتقرب إلى الله بالنوافل بعد تأدية الفرائض في نقاء وصفاء. وهذه أمارات الأخذ في السلوك إلى الله، وهي بداية التوجه الصادق، ومن سار على الدرب وصل.

ويقول داية عن الخلوة: (اعلم أنه أقيم بناء سلوك الدين والوصول إلى مقام اليقين، على الخلوة والانقطاع عن الخلق. وجميع الأنبياء والأولياء اتبعوا الخلوة في بداية حالهم حتى بلغوا المقصود)[2] .

وجعل المؤلف للعدد أربعين أهمية خاصة ليست لغيره كما في كثير من الأشياء، ويقول إن للخلوة الأربعينية شروطاً وآداباً كثيرة، ولكن أهمها للحصول ثمانية، ولو اختل شرط من هذه الشروط لصعب الحصول على المقصود الكلي، ويتناول داية شرحها بالتفصيل، ونختصرها فيما يلي:

---

(١) المصدر السابق: ص ١٥٢-١٥٥.

(٢) المصدر السابق: ص ١٥٦، ونسخة الدكتور الرياحي: ص ٣٦-٣٨.

الأول: الجلوس منفرداً متربعاً في حجرة مظلمة خالية، ومتجهاً إلى القبلة، واضعاً الأيدي على الفخذ، مغتسلاً بنّية غسل الميت، معتبراً الخلوة لحده، ولا يخرج منها إلا للوضوء والحاجة، ونفي الخاطر بتأثير الذكر.

الثاني: دوام الوضوء.

الثالث: مداومة الذكر بكلمة "لا إله إلا الله".

الرابع: الالتزام بنفي الخاطر بكلمة "لا إله إلا الله".

الخامس: دوام الصوم.

السادس: دوام الصمت ولا يحرك لسانه بغير الذكر.

السابع: مراقبة قلب الشيخ متعلقاً به طالباً المدد منه.

الثامن: ترك الاعتراض سواء على الله أو على الشيخ.

وغير هذه الشروط هناك آداب أخرى للخلوة منها:

الأولى: الإقلال من الطعام: فيأكل من مائة إلى مائة وخمسين درهمًا من الطعام حسب قوة مزاجه وشهوته، واتباع النظام في الأكل مع الذكر ليلاً ونهاراً حتى لا تغلبه شهوته، ويتعفف عن اللحم الكثير ويكفي مرة أو اثنتين كل أسبوع في كل منها خمسين درهماً.

الثانية: الإقلال من النوم ويتبع النظام فيه أيضاً حتى يزيل الملالة من طبعه والكلالة من حواسه، ويفيق.

وأيضاً يشغل قلبه ولسانه بالذكر، ولا يرتاع من أي خيال مخيف أو دوي هائل يسمعه أو يراه، ويقوي قلبه ويتجه إلى الشيخ دائماً. وكلما يخرج للوضوء

أو للصلاة في جماعة أو جمعة. فلا يلتفت قط ريشغل قلبه ولسانه بالذكر لئلا يتفرق ويتشتت[١] .

تلك كانت بعض أفكار داية وانفعالاته التي كانت -على ما يبدو- وليدة الظروف والأجواء المحيطة به في كل مكان، ومن ثم طرأت فيها هذه الانفعالات، فكانت وليدتها المشاعر التي يمكن استنتاجها والتعرف عليها من خلال التعبير الخارجي عنها، وقد أوضحنا قدراً منها.

معتقدات داية:

إذا جاز لنا الكلام عن معتقدات الشيخ، فإن القضية تطول، ولكننا نوجزها بذكر بعض من أمثلته التي تسلم بنا إلى ماهيتها العقيدية والفكرية.

فبمعايشة الباحث الطويلة للشيخ وأفكاره التي يقودنا إليها -للتعرف عليها- من خلال موضوعاته، ولنتعرف على مشاعره من خلال التعبير الخارجي عنها، نستطيع أن نقول حقاً إن التفكير النظري جزء من الحياة إلا أنه آخر أجزائها، وتتلخص قيمته الخاصة في إشباع حب الاستطلاع وفي تفسير ما غمض من الأشياء وفي تذليل صعابها. ومع ذلك فأكبر لذة حقيقية نجدها في التفكير النظري مصدرها التجربة ذاتها التي هي موضوع ذلك التفكير[٢] .

ومن خلال تجربة داية ومعتقداته لذلك العصر، نستطيع أن نعرف مدى إيمانه واعتقاده بثبوت عجزه عن معرفة الكون وأسراره إذ يقول (اعلم أنه ما

---

(١) المصدر السابق: ص ١٥٥-١٦٠، بتصرف : باهتمام شمس العرفاء.

(٢) جورج سانتيانا: الإحساس بالجمال: ص ٣٨ (الترجمة العربية).

أكثر الأنواع والأصناف والخلق في العوالم الأخرى من الإنسان والحيوانات البرية والبحرية، ومن أصناف الجن والشياطين والأبالسة والمردة والغيلان والنسانيس وأهل جابلقا وجابلسا ويأجوج ومأجوج، وغيرها من الأجناس المتعددة التي تكثر في القصص والأخبار، وليست معلومة لنا على وجه الحقيقة. ومن أنواع الحور ووصيفات الجنة، ومن أصناف ملائكة جهنم والعذاب، ومن أجناس أنواع النباتات والجمادات والمعادن والأجسام الكثيفة واللطيفة والمركبة والمفردة والعناصر، وأشكال النور والظلمة والجواهر والأعراض والألوان والطبائع والخواص والصفات والنتائج والأشكال والهيئات والصور والمعاني والأسرار والحقائق واللطائف والحواس الظاهرة كالسمع والبصر والشم والذوق واللمس، والحواس الباطنة كالقوة المتخيلة والمتوهمة والمتفكرة والمتذكرة والمتدبرة، وسائر القوى البشرية كالحس المشترك والحافظة والعقل وسائر الأشياء الظاهرة والباطنة، وما على السماء من العرش والكرسي واللوح والقلم والبروج والأفلاك والكواكب والسيارات والثوابت والمنازل والبيت المعمور وسدرة المنتهى وقاب قوسين واللامكان واللازمان، وغيرها من أصناف الموجودات وأنواع المخلوقات. فكيف يمكن شرحها إذ لا يقف على دقائقها سوى حضرته جل وعز؟. وفي الحقيقة: **"وما يعلم جنود ربك إلا هو"**[(١)] .

ولكن عدد العوالم -كما ورد في بعض الروايات- ثمانية عشر ألف عالم، وفي رواية سبعين ألف عالم، وفي رواية ثلاثمائة وستين ألف عالم، ولكنها كلها مدرجة في عالمي الخلق والأمر الذي هو الملك والملكوت كما مر ذكره وكلها

---

(١) سورة المدثر: آية ٣١.

في خلقيا قد أثنت على حضرة الألوهية[1] بقوله تعالى "ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين"[2] .

ونرى أن داية كان يعتقد في قول الأشاعرة الذين كانوا ضمن الفرق الإسلامية في ذلك العصر. ويؤكد لنا هذا الاعتقاد ذمّه للفرق الإسلامية على اختلافها ومن بينها فرقة المعتزلة، والتي يعبر عنها بالمعطلة. ويؤكد هذا أيضاً ذمه للفلاسفة ومدحه لأهل الإيمان، وكذلك قوله بالسنة والشرع والعمل بالقرآن والحديث، ويتجلى ذلك في سطور الفصل الرابع من الباب الرابع بقوله عن أهل الإيمان: (وفي بعض الأوقات يحصل سعادة إقرار اللسان وتصديق الجنان، وإذا لم يحقق معاملة عمل الأركان فإنه يسير إلى جهنم بوعيد الحق لقوله تعالى: **"فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق، خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك"**[3]، ولكن كلمة "لا إله إلا الله" وشفاعة: محمد رسول الله: لن تتركه في ذلك المكان. وفي النهاية تخلصه من جهنم بهذا الاستثناء الذي قال الحق فيه: "إلا ما شاء ربك"، ويكون معاده الأصلي في الجنة[4] .

ثم ينتقل إلى بيان القول عن غير أهل الإيمان بقوله: (ولكل طائفة من أهل الفسق والعصيان والكفر والخذلان مقام ومرجع ومعاد مناسب لسلوكهم في جهنم ودركاتها حسب اختلافها...وقد قال الحق تعالى في حق المنافقين "إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار"[5]. ويختلف الكفر عن الكفر والنفاق عن النفاق، ولكل

---

(١) نجم الدين داية: مرصاد العباد: ص ٣١-٣٢.
(٢) سورة الأعراف: آية ٥٤.
(٣) سورة هود: آية ١٠٦-١٠٧.
(٤) نجم الدين داية : مرصاد العباد: ص ٢٢٠-٢٢١،ونسخة الدكتور الرياحي: ص٣٣.
(٥) سورة النساء: آية ١٤٥.

منها طريق معين ومعاد واضح. فهناك الكافرون المحققون، وغيرهم الكافرون بالتقليد)[1] .

وينتقل داية فيما بعد إلى الحديث عن الكفر بالتحقيق: (والكفر بالتحقيق هو ما أدركوه عن الوالدين فلم يقتنعوا به وتعبوا منه وشقوا به، فيطلبون الدليل ويقضون عمرهم في تحصيل علوم الكفر ويقرأون الكتب للتفكر في الأدلة والبراهين العقلية، حتى يقعوا في الشبهات التي بها ينفون الصانع أو يثبتون الصانع ناقصاً، لأنهم يقولون إنه ليس مختاراً وهو ليس في جزئيات العالم، وخالق العالم ليس مبدعاً وموجداً، ولكنه موجب ومؤثر، والدنيا أثره، وتقدم المؤثر على الأثر ليس تقدماً زمنياً. ويريدون بهذا أن العالم قديم ولا يقبل البقاء والفناء، كما يقولون إن الحق تعالى غير قادر على إفنائه وعاجز عن خلق عالم آخر "تعالى الله عما يقول الظالمون"[2] .

ويذهب المؤلف بعد ذلك إلى القول بأن هناك خمس حالات ضرورية للإنسان حتى يصل بكماله لمعرفة الذات والصفات الإلهية لتظهر الحكمة الإلهية التي تحصل في خلق الموجودات: "كنت كنزاً مخفياً فأجبت أن أعرف فخلقت الخلق". ويحدد لنا هذه الحالات الخمس بحالة العدم وحالة الوجود في عالم الأرواح وحالة تعلق الروح بالقالب، وحالة مفارقة الروح عن القالب، وحالة إعادة الروح إلى القالب، ويذكر بعدها أنه حين يقف القلب على جزئيات وكليات

(١) نجم الدين داية : مرصاد العباد: ص ٢٢١.
(٢) المصدر السابق: ص ٢٢٢.

الغيب والشهادة فيمكنه في هذه الحالة أن يعرف الحق بصفة الرزاق والرحمن والرحيم والغفار والستار والمنعم والمحيي والوهاب والتواب[١] .

وفضلاً عن ذلك فإن سلوك داية في التصوف ليس الخلوة والرياضة المحضة والإعراض عن الدنيا، بل إنه مثل سعدي الشيرازي من المعتقدين بأن خدمة الخلق عبادة، ويخصص بابه الخامس في المرصاد في بيان سلوك كل طائفة لأنه ليس هناك طائفة إلا ولها من حرفتها وصناعتها طريق إلى الجنة أو إلى النار، ولها طريق إلى الحق، ولكن تحت قدم كل شخص تظهر هذه الطرق الثلاث. ولكن الصراط المستقيم هو ذاك الطريق الذي يسير إلى الحق، وطريق الجنة في الناحية اليمنى وطريق جهنم في الجانب الأيسر كما يقول تعالى: "وكنتم أزواجاً ثلاثة، فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة[٢]..الخ، وقال المشايخ "الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق". والمراد من أنفاس الخلق هو مواضع أقدامهم وصناعاتهم وحرفهم. ومثال هذا مثل طريق الكعبة الذي يكون كل موضع وجانب وجهة فيه -حيث يكون الخلق- طريقاً من جميع الجهات إلى الكعبة لقوله تعالى:[٣] "ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام"[٤] .

ودليلنا على التربية والسلوك العملي لدى داية، هذه الرواية التي يقدمها للحكمة والنصيحة والتدبر والتفكر: (وهكذا كان يحكي الشيخ محمد الكوفي، رحمه الله، في نيسابور أنه التقى بالشيخ علي المؤذن الذي قال إن لي ذكرى

---

(١) المصدر السابق: ص ٢٢٨-٢٣٠ بتصرف.
(٢) سورة الواقعة : آية ٧-١١.
(٣) نجم الدين داية : مرصاد العباد: ص ٢٠ ونسخة الدكتور الرياحي: ص ٤٠.
(٤) سورة البقرة: آية ١٤٩-١٥٠.

حين كنت أنزل من عالم قرب الحق إلى هذا العالم، وكان يعرج بروحي إلى السموات. ففي كل سماء وصلت إليها بكت علي أهل تلك السماء وقالوا: يرسل المسكين من مقام القرب إلى عالم البعد، وينزل من أعلى إلى أسفل ، ويبعث من رحاب حظائر القدس إلى مضايق الدار الدنيا، وكانوا يتأسفون على ذلك ويشفقون علي، فنزل إليهم خطاب العزة: لا تعتقدوا أن إرساله لذلك العالم من أجل إذلاله. فبعزة ألوهيتنا إنه لو يقف على حافة بئر ليصب ولو مرة واحدة – طوال حياته في تلك الدنيا– دلْو ماء في إبريق امرأة عجوز، فإن هذا أفضل له من انشغالكم بالتسبيح والتقديس مائة ألف سنة في الحظائر القدسية. فلتضعوا رؤوسكم تحت بساط قولي: "**كل حزب بما لديهم فرحون**"(١) ، واتركوا أمر ألوهيتنا لنا حيث(٢) : "**إني أعلم ما لا تعلمون**"(٣) .

ويحق لنا بعد هذا أن نقول إن داية في منهجه هذا، كغيره من الكثيرين مثل سعدي الشيرازي، يمثل بوجه عام الشخصية الفارسية المتزنة التي تعني بالدين والدنيا حيث كان التصوف في هذا الوقت قد راج رواجاً كبيراً في إيران، وأصبحت تعابير الصوفية ومصطلحاتهم جزءاً من الحديث العادي بين كافة الناس، فبقيت آثار منها ظاهرة وكثيرة في كتابات "السعدي"(٤)، مثلما تتجلى كذلك في آثار الشيخ داية.

---

(١) سورة المؤمنون: آية ٥٣.
(٢) نجم الدين داية: مرصاد العباد: ص ٦٢، نسخة شمس العرفاء.
(٣) سورة البقرة: آية ٣٠.
(٤) إدوارد براون: تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي: جـ٢ : ص ٦٦٧(الترجمة العربية).

وبعد هذا العرض السريع والموجز المقتضب لأفكار داية ومعتقداته فيمكن القول إنه لو استطعنا أن نستعرض الكون بأسره لأمكننا أن نضفي على كل نوع من الأنواع مكانة خلقية تتفق وما فيه من خير عام وغنى باطني، ولكـن هـذا المعيار المطلق ليس في متناولنا -هذا إن كان موجوداً على الإطـلاق. ولذلـك فنحن مضطرون إلى الحكم عما في طبيعة كل شيء من كمال بالنسبة لمعاييرنـا الإنسانية[1] .

ويمكن القول إن داية قد وفرت له تلك الثقافة المتعددة الجوانب عنصـر الثراء اللغوي، فجاء كتابه الأربعيني ثرياً وضخماً، وأسـلوبه مفعمـاً وغاصـاً بالكثير من الإشارات منها الدينية والأدبية والاجتماعية ، مستلهماً أحداث التاريخ الإسلامي وسيره، متمثلاً القرآن الكريم نصه وقصصه، والحديث النبوي نصـه ومعناه، مضمناً ذلك كله مرصاده ، وكاسياً إياه – فوق ذلك كلـه- ثوبـاً مـن المصطلحات الصوفية الرامزة الوافرة.

أخلاقيات الشيخ داية:[2]

إن نهاية القرن السادس وبداية القرن السابع الهجريين هي فترة المنازعات بين المذاهب والفرق الإسلامية المختلفة، ومع ذلك فكـان المذهـب الرسـمي، وأكثرية شعب إيران، على طريـق السـنة والجماعـة، وقـامت المنازعـات والمجادلات الجدية بين الشافعية والحنفية، ولم تملك الفرق الإسلامية الأخـرى، من الشيعة والمعتزلة، حرية البيان والعقيدة. وقد لزمت وراجت تحصيل العلـوم

(١) جورج سانتيانا: الإحساس بالجمال: ص ٢٣٥-٢٣٦(الترجمة العربية).

(٢) للإيضاح راجع كتاب مرصاد العباد: باهتمام الدكتور الرياحي: ص ٤٠-٤٤.

الدينية لتأمين المعاش. وبمعرفة علوم القرآن والفقه والحديث كان الشخص يصل إلى مقام القضاء وإمامة الجماعة والخطابة والتدريس، وكان ينال القرب من الملوك والأمراء، ويصير موضع احترام العامة والخاصة، لدرجة أن العلماء والفلاسفة كانوا يعيشون في الفقر والعوز؛ وفي الغالبية كان الفقهاء يكفرونهم، وكانوا يلاقون كثيراً من المهانة والضيق.

وإن حملة وهجوم المغول - وكانوا قوماً عابدين للأصنام وكفرة ومخالفين لدين الإسلام- أقلقت سكينة وهدوء خاطر وحياة الفقهاء وعلماء الدين، وصار القتل والغارة والقلق، بالإضافة إلى اضطراب الأوضاع والأحوال الاجتماعية الموجهة لزلزلة روح شعب إيران ، وساقتهم إلى فساد الأخلاق والكفر وانحطاط الفضائل الإنسانية[1] .

كل هذه نجدها قد أثرت على شخصية داية وخلقه، وظهرت نماذجها في كتاباته خاصة في الباب الخامس من مرصاد العباد، وهو الباب المخصص في سلوك مختلف طبقات الناس، ويعد كتاباً أخلاقياً مفيداً، وموجباً لاعتبار الناس وموعظتهم، ولكنه أيضاً يجسم ويفصل أخلاق شخصية المؤلف نفسه وما لاقته من إعصارات وأحداث مختلفة. فقد أدى فساد الحياة السياسية في عصر السلاجقة إلى فساد عقائد الناس وأخلاقهم، مما ساعد على ضعف البلاد الإسلامية، وساعد انقراض الخلافة العباسية، على يد المغول في القرن السابع الهجري، على ازدياد هذه الأشياء، فضعفت عزائم المسلمين وانتشر بينهم

(١) حسين فريور: تاريخ ادبيات در إيران وتاريخ شعرا: ص ٢٣٣-٢٣٤.

التواكل، وبدءوا مرحلة سبات عميق ظلوا يغطون فيه قروناً عديدة قبل أن توقظهم حركات النهضة والتحرر الحديثة[1] .

ونجد داية قد تأثر بفاجعة تتار المغول على البلاد، وهي الأحداث التي بدأ بها كتابه المرصاد. فمنذ أول لحظة، يطالع القارئ بعباراته الآثرة في حديثه عن حملة المغول، وتلك الفتنة وذاك القتل والفساد والأسر والهدم والحرق الذي ظهر من أولئك الملاعين، ولم ير شخص مثله في أي عصر قط في بلاد الكفر والإسلام، ولم يرد في أي تاريخ.

وأيضًا فقد أثار غضب داية ونفرته، ما رآه من ضعف وجبن السلطان علاء الدين خوارزمشاه وفراره أمام المغول، وقد تحدث عن ذلك حين يذكر ملوك العصر في موقفهم أمام مثل ذاك السيل الجارف فيقول: (وإذا لم تتحرك - والعياذ بالله- غيرة وحمية الإسلام والمسلمين في كيان الملوك والسلاطين الذين في ذمتهم عهدة رعاية الإسلام والمسلمين مصداقاً للحديث: "الأمير راع على رعيته وهو مسئول عنهم"، وتتعلق رجولية الدين بتلابيب أرواحهم حتى يجتمعوا على اتفاق ويمنطقوا أرواحهم بالانقياد لأمره تعالى: "انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله"[2]، وإذا لم يقدموا النفس والمال والملك فداء لدفع هذه الفتنة، فإن رائحتها تنتشر بحيث يطرد الإسلام دفعة واحدة. ورغم أن أكثر بلاد الإسلام قد سقطت، إلا أنهم بذلك يلقون بالبقية الباقية ويعم الكفر العالم، رباعية ترجمتها:

---

(١) عبد النعيم حسنين: سلاجقة ايران والعراق: ص ١٨٤.
(٢) سورة التوبة : آية ٤١.

أسـرعوا يـا ملـــوك العـــالم أجمعيـــن
عســاكم أن تدركـوا بقيـة مـــن الديـــن
ضـاع الإسـلام ضياعــاً وأنتـم غـــافلون
وعـمّ الكفـــر العـــالم وأنتــم نـــائمون

والخوف والخطر هو أن يضيع ذلك القدر الأسمى الذي بقي من الإسلام نتيجة لشؤم وتبادل الدعاوى الباطلة التي نمارسها، فلا يبقى منه اسم ولا رسم، ويتوجه نحو حجب الغربة مصداقاً للقول: "بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً")(1).

ثم يعود داية فيكرر الإشارة لذلك في مرصاده أيضاً فيقول: (ومن ثم فإن ذئاب قطيع الإسلام هم الكفار الملاعين الذين استشروا جداً في هذا العهد، وواجب على الملوك والأمراء والجند أن يفدوا بأرواحهم دفعاً لشرورهم، حتى يحل لهم الخبز والماء عندما يقاتلون الكفار، ويدفعون شرهم عن المسلمين. وإذا تعرض الكفار للمسلمين بالأذى، فواجب على الملك محاربتهم، وفتح ديار الكفار ونشر الإسلام، والاجتهاد لإعلاء كلمة الدين: "لتكون كلمة الله هي العليا")(2).

وننتقل بعد ذلك إلى موضع آخر لنعرف شيئاً جديداً عن أخلاق داية حين يقرر ترك الزوجة والولد في قبضة العدو، ويفضل الفرار والهروب مبرراً عمله بالآية والحديث(3)، وفي ذلك يقول: (والخلاصة أنه حين ظهرت غلبة أولئك الملاعين وقهرهم، ظل هذا الضعيف يقيم صابراً في بلاد العراق قرابة العام

---

(1) نجم الدين داية: مرصاد العباد: ص ٩-١٠ من نسخة شمس العرفاء.
(2) المصدر السابق: ص ٢٤٨.
(3) المصدر السابق: باهتمام الدكتور الرياحي: ص ٤١.

على أمل أن يتنفس صبح العافية عن الليل الديجوري (الشديد الظلمة) لهذه الفتنة وهذا البلاء، وتشرق شمس السعادة. وكان يتحمل كل الأنواع المختلفة من الشدائد والمحن حتى لا يجبر على الرحيل عن الأطفال والنساء، ولا يضطر لمفارقة الأصدقاء والمحبين وهجر الموطن والمسكن. فلا يجب القول بأنه لم يكن هناك سبيل لحمل جميع الأهل خارج تلك الديار، ولا كان القلب يرضى بأن يترك الجميع عرضة للهلاك والدمار.

وفي النهاية عندما وصل البلاء الغاية والمحنة النهاية، وبلغت الروح الحلقوم، ووصلت السكين إلى العظم، ووجب الالتزام بالقول: "الضرورات تبيح المحظورات" والامتثال للأمر: **"يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم"**[1] . ووجب ترك جميع الأهل اتباعاً للقول: "ومن نجا برأسه فقد ربح"، والسير على نهج السنة: "الفرار مما لا يطاق من سنن المرسلين"، وترك الأعزاء للبلاء: شعر ترجمته:

دللتها ما لم يكن هناك بلاء
فلما رأت البلاء استودعتها (الله)
حتى تعلم أنه عندما يكون وقت الكرب
لا يكون لأحد شأن بك قط [2]

(١) سورة المائدة: آية ١٠٥.
(٢) نجم الدين داية : مرصاد العباد : ص ١٠ باهتمام شمس العرفاء.

وكرر داية نفس الإشارة في موضع آخر بقوله: (يا أيها المستقر في مدينة الإنسانية، والمقيم في الطبيعة الحيوانية والغافل عن كعبة وصالنا، إلى متى تقيم في هذا المنزل البهيمي، وتظل قيد: "إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكـــم"[١]، فتحرك وحطم هذه القيود مجتمعة، واترك الولد والأزواج، واقرأ على الجميـــع: "فإنهم عدو لي إلا رب العالمين"[٢]، وأعرض عن الجميع، واسلك السبيل بصـــدق (قوله تعالى): "وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض"[٣]، وافن عن المـال الدنيوي، واتل قوله تعالى: "إني ذاهب إلي ربي سيهدين"[٤]، وطهر القلب - الـذي هو موضع نظرة خاصة- من دنس تعلقاتهم، وارحل عن هذه المنازل والمراحل الدنيوية")[٥] .

ويؤكد داية ذلك بقول آخر يذكره عند حديثه عن شروط وصفات المريـد فيقول عنه: (التجريد: يجب أن يكون مجرداً، ويقطع جميع التعلقـــات السـببية والنسبية مع حسان الوجوه حتى لا يتعلق بها خاطره[٦] لقوله تعـــالى: "إن مــن أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فأحذروهم"[٧] .

وإن هذا المسلك الذي سلكه داية بوجوب ترك الأهل والولد، مخالف تماماً لما فعله شيخه نجم الدين الكبرى عندما قرر البقاء في خوارزم لمجابهة حـــرب المغول، ولم يغادر موطنه ولا أهله وعشيرته، وقرر الاشـــتراك فـــي مجابهـــة

(١) سورة التغابن: آية ١٤.
(٢) سورة الشعراء: آية ٧٧.
(٣) سورة الأنعام: آية ٧٩.
(٤) سورة الصافات: آية ٩٩.
(٥) نجم الدين داية: المصدر السابق : ص ٩٦-٩٧.
(٦) المصدر السابق : ص ١٤٤.
(٧) سورة التغابن: آية ١٤.

المغول هو ومن تبنى من مريديه حتى قتل شهيداً وهو قابض على ضفيرة المغولي، وهذه القصة نفصلها كلها عند نجم الدين شيخ الكبروية صانع الأولياء[1] والذي سننشر دراستنا عنه قريباً.

ويظهر خلق داية بعد هذا في موقفه من الصوفية أنفسهم، فنراه يتجه إلى بلاد الروم لدى ملوك السلاجقة حيث تلك الخيرات والمبرات التي كانت في العهد الميمون المبارك لأولئك الملوك المتدينين الراعين للدين - أنار الله براهينهم- من الغزوات والفتوحات لديار الكفر، والاستيلاء على قلاع الملاحدة وحصونهم، وبناء المدارس والخانقاهات (التكايا) والمساجد والمنابر والجسور والأربطة والمستشفيات وغيرها من أعمال الخير، وتوقير العلماء ورعايتهم، وإسعاد العباد والزهاد وإعزازهم، والشفقة والرحمة بالرعايا وأنواع التقربات إلى حضرة العزة مما لم يكن مثلها في أي عهد قط[2] .

وهذا الاتجاه السابق الذي ذكرناه ربما يوضح لنا عدم رضاه عن صوفية بلاده، لسبب من الأسباب، واتجاهه إلى بلاد الروم نظراً لاضطراب الأفكار والعقائد، وعدم اتفاق الصوفية بعضهم مع بعض، نظراً لكثرة مدارس التصوف في تلك الفترة.

فهذه كلها، وغيرها، ربما تكون عاملاً دافعاً لنفور داية وذهابه إلى بلاط الروم، ويذكر داية قولاً أخر، ربما يكون مُجلياً لهذا المعنى بصورة أوضح في بيان تجلي الذات والصفات والأفعال الإلهية فيقول: (وبالرغم من أن مشايخنا

---

(١) عبد الرحمن الجامي: نفحات الأنس: ص ٤٢٢-٤٢٤، منوچهر محسني: تحقيق در آحوال آثار نجم الدين كبرى أويس: ص ١٩-٢٣.

(٢) نجم الدين داية: مرصاد العباد: ص١١.

السابقين – قدس الله أرواحهم– قللوا من كشف هذه الحقائق، فدثروها بالحجاب – قدر ما استطاعوا– بعيداً عن نظر الأغيار. ولكن حين نظر هذا الضعيف في هذا الزمان، وجد أنه ظهر كثير من المدعين، دون معنى، في هذه الطائفة، فاغتروا بغرور الشيطان ومكر النفس، وتحدثوا بكلام كثير مهترئ ظانين أنهم قد وصلوا إلى كمال مقصد هذا الطريق ومقصوده ، ووجدوا ذوق مشارب الرجال، واعتقدوا أن لهم جواز التصرف في المملكة ووقعوا في الإباحة والزندقة والحلول والتناسخ والاتحاد كما يقول العزيزي في شعر ترجمته:

إن الكثير من هؤلاء السذج يلبسون المرقعات
دون أن يسيروا بضع خطوات في طريق الصدق والصفاء
أخذوا كثيراً من ألف ولام الطامات(١)
فأساءوا إلى عدد من الأخيار(٢).

فأراد أن يبين نتفة من مقامات السلوك وأحواله لتكون محك اختبار لهؤلاء المدعين، حتى يمتحن كل شخص نفسه على هذا المحك. وإذا لم يروا في أنفسهم شيئاً من هذه الأحوال، فإنهم يخرجون من جوال غرور الشيطان ومكمن مكر النفس، ويسيرون على الصراط المستقيم الذي هو جادة المتابعة. ولو كان فيهم ألم الطلب، لأمسكوا بتلابيب صاحب السعادة ليصلوا إلى مقصدهم ومقصودهم على أهداب سعادته(٣)، كما يقول تعالى: **"وأتوا البيوت من أبوابها"(٤)** .

---

(١) يعنى أنهم ثرثروا كثيرا عن الشطحات.
(٢) سنائي الغزنوي: ديوان السنائي: ص ١٣٠.
(٣) نجم الدين داية: مصدر سابق: ص ١٧٥-١٧٦.
(٤) سورة البقرة: آية ١٨٩.

وتتجلى أيضاً أخلاق داية خلال رأيه في الخلوة والعزلة، تلك التي كانت رسم الصوفية قبل المغول، ولكن بعد حملة المغول – رغم ضراوتها– كانت الظروف جميعها تساعد على رواج سوق التصوف، فأصبح الصوفية موضع احترام الناس والأمراء والسلاطين لبعدهم عن المجادلات المذهبية – رغم اضطراب أفكارهم وكثرة مدارسهم نتيجة لأحداث العصر – مما أدى إلى انتشار التصوف، وبروز طبقة المتصوفة، وكثرة المتمسحين بها، ووجد شيوخ الصوفية في هذا فرصة مواتية لنشر تعاليمهم بين الناس، وخصوصاً بين طبقات العمال والصناع والفقراء، فضموا الكثيرين من هؤلاء إلى صفوفهم، وعظم تأثيرهم في حياة الناس[1] .

وهذا الاحترام من العامة للصوفية، والمناعة والعزة من العارفين والصوفية أنفسهم، نجده عند أبي سعيد بن أبي الخير عندما يقول: (وقيل إن والد شيخنا كان يحب السلطان "محمود" حباً جماً، فبنى في ميهنة قصراً – يعرف الآن بقصر الشيخ– ونقش على جدرانه اسم السلطان وذكر خدمه وحشمه وأفياله ومراكبه، وكان الشيخ صغيراً في ذلك الوقت فقال لوالده: ابن لي مكاناً وشيده في هذا القصر يكون خاصاً بي. فبنى له والده حجرة فوق القصر – وهو صومعة الشيخ– ولما تم بناؤها وطليت جدرانها، أمر الشيخ بأن يكتبوا على جدرانها وسقفها كلمة "الله، الله، الله" فقال له والده: ما هذا يا بني؟. فأجاب الشيخ: كل شخص يكتب على جدران منزله اسم أميره. فسر والده وأصدر أمره بإزالة كل ما كان قد كتب على جدران القصور (١٧) ومنذ تلك الساعة أخذ ينظر إلى ولده نظرة أخرى، ويهتم بأمره)[2]، وكذلك نجد الشاعر سنائي

(١) عبد النعيم حسنين: سلاجقة ايران والعراق: ص ١٨١.

(٢) محمد بن المنور: أسرار التوحيد فى مقامات الشيخ أبي سعيد: ص ٣٢-٣٣ (الترجمة العربية).

الغزنوي يرفض الأمير الغزنوي ويرفض الزواج بأخته، وذلك حين يتحدث عن منعته وعدم أنانيته وطمعه، كما جاء في ديوانه حديقة الحقيقة[1] .

وهناك الكثير من الشواهد والأمثلة على هذا، ولكن نقول إن كل كتب المتصوفة اكتست رداء التصنيف، لتكون لائقة لتقديمها للحكام والأمراء. ونلاحظ هذا عند داية الذي يبدو أن طريقته في تقديم مرصاد العباد مغايرة لطريقة السابقين عندما طلب منه المريدون والسالكون ذلك.

ورغم أنه كان يفضل العزلة والخلوة -تلك التي كانت محببة إليه في هذه الآونة- إلا أنه هرب فاراً إلى بلاد الروم، نظراً لظروف عصره، وألف كتابه مرصاد العباد ليقدمه للحاكم السلجوقي على بلاد الروم. وذكر أيضاً أنه في طريقه التقى بشيخ الإسلام والمسلمين شهاب الدين عمر السهروردي الذي شجعه على الإقامة في بلاد الروم[2] .

وتتضح أهم نقطة في أخلاق داية عند شخصيته السلوكية، إذ كانت حياته مشوبة بالدلال والتنعم والغرور، فكان يتحدث عن الكشف والكرامات بالكناية والاستعارة، فنراه يقول في مرصاده: (وليس للحائر الضال علم بقوله تعالى: "**فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**"[3] لأن للحق عبيداً قد سموا على كل الكائنات، بمتابعة سيد الأولين والآخرين، وجاوزوا "قاب قوسين"، وأفنوا كل وجودهم في سر "أو أدنى"[4]، وتكحلت عين البصيرة بكحل،

(١) سنائي الغزنوي: حديقة الحقيقة وشريعة الطريقة: ص ٧٣٦.
(٢) نجم الدين داية: مصدر سابق: ص١٢-١٦ بإيجاز.
(٣) سورة الحج: آية ٤٦.
(٤) آية : "فكان قاب قوسين أو أدنى" : من سورة النجم : آية ٩.

"ما زاغ البصر وما طغى"[1] ، وفي مطالعة (قوله تعالى): "لقد رأى من آيات ربه الكبرى"[2]، استفادوا نوراً من أنوار قوله تعالى: "يهدي الله لنوره من يشاء"[3]، حتى أنهم شاهدوا بذلك النور في مقام "بي يبصر" بداية عالم الأمر الذي هو مبدأ الأرواح، ثم أدركوا كيف يأتي كل شيء من مضيق العدم إلى صحراء الوجود، وما سيأتي حتى نهاية العالم، وعرفوا سر وجود كل إنسان، ونفذوا ببصرهم من نافذة الأزل إلى الأبد، وعرفوا نهاية كل صنف من الموجودات، وأدركوا مرجع كل طائفة ومعادها، ورسموا بفرجار الصفة دائرة الأزل والأبد، وتكرر وجودها من مرتبة الوجود إلى العدم، ومن العدم إلى الوجود، فتارة كان الموجود معدوماً، وتارة كان المعدوم موجوداً، وأحياناً لا كان موجوداً ولا معدوماً. وتحت هذا الستار أسرار كثيرة للفقراء والدراويش، وهذا المعنى لا يتناسب مع كل عقل ملوث بالهوى، "ومعظم الخلق يعتبرونها طامات من قبيل الشطح"، وكل شخص سر كبير من أسرار مكنون الغيب لا يدركه سوى بصيرة أهل الغيب، لأن لغة البكم تعرفها أم البكم)[4].

ونعتقد أن داية، رغم هذا، كان طالباً للجاه والشهرة والمال التي اضطرته لترك أولاده وبلاده والتجوال في الممالك والبلاد، ثم ينزل بلاد الروم ويقول: (يا إلهي: لو أحمل نعم الدنيا، فإنها بلا حصر لدى تلك الحضرة، وهي بلا اعتبار في نظر همة صاحب تلك الدولة.

---

(1) سورة النجم : آية ١٧.
(2) سورة النجم: آية ١٨.
(3) سورة النور: آية ٣٥.
(4) نجم الدين داية: مصدر سابق: ص ١٨-١٩.

ويقول أيضاً عند تأليفه كتاب المرصاد إنه استرسل عنان القلم بقدرة التأثير الغيبي بعد الاستخارة واستمداد فيض الفضل الرباني، حتى ينزل كل جوهر ثمين من مواهب الغيب إلى مكن القلب، ويسترسل القلم في سلك العبارة، وينزل على أطباق الورق، فيجعل هذه الأوراق تحفة للطالبين المحقِّين والعاشقين الصادقين، ويقدمه هدية لتلك الحضرة - يعني ملك سلاجقة الروم(١)- ويقول: "يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة"(٢) .

ونستوضح كل هذه المعاني والإشارات مما ذكره داية بقوله بعد إتمام كتابه مرصاد العباد، مؤملاً في حضرة الجليل أن يكرمه بهذا التوسل والتقرب، وينال هذا الكتاب شرف النظر في حضرة السلطنة، ولا يُهجر لأنه مليء بكنوز الحقائق والأسرار والمعاني الغيبية المبرهنة بالأدلة، والتي تعد حلاً لبعض مشكلات الرموز والإشارات كسليمان والطيور(٣)، ويعتبر داية هذا الكتاب تعبيراً عن مُعمّى كلامه الذي لا يفهمه كل قلب.

ويقول داية إن ملتمسه هذا ليس المال ولا الجاه، مستنداً إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "الفقر فخري"، وقول الشاعر:

الله يعلم والأيام تعرفنا ... أنا كرام ولكنا مفاليس

ولكنه أمله هو فتح خزانة بيت الأسرار الإلهية حتى تصل زكاتها إلى عامل الأعمال حتى تنفق مصاريف أصناف الزكاة والصدقة على المستحقين من

---

(١) المصدر السابق: ص ١٤-١٦.
(٢) سورة يوسف : آية ٨٨.
(٣) أشرنا إلى هذا عن كتاب الدكتور بديع محمد جمعة: منطق الطير: (الترجمة العربية).

الروحانيين والجسمانيين الماديين، حتى يخط هذا المسكين بقلمه ما يحققه السلطان ناشر الدين وباسط العدل في العالمين؛ وحتى تصل فوائدها وخيراتها إلى جميع العالم والعالمين، وهذا المعنى مدعاة للفخر والعجب[١] .

وهكذا استطعنا أن نخرج بعضاً من الإشارات الصريحة والمرموزة عن أخلاق داية، مما يجعلنا نستوضح شيئاً من البيئة السلوكية لشخصية هذا الشيخ، وتأثير عناصر البيئة فيه وتأثره بها، مما جعلنا نفهم الأمور التي تحدثنا عنها ونفهم حياة الشيخ داية قدر الإمكان مما استوضحناه من مرصاده ومؤلفاته.

---

(١) نجم الدين داية : مرصاد العباد: ص ٣١٠-٣١٢.

الجزء الثاني

ترجمة كتاب

مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد

بسم الله الرحمن الرحيم

هو الله العلي العالي المتعالي الأعلى.[١]

لو أنك تطـــــوف بلاد المشــرق والمغــرب،
ولو أنك تبذل روحك وقلبك في سبيل الطلـــب،
فإنه لمن النافع لك لو تحصـــــــل ذات يــوم،
على مرصاد العباد لنجم الديــن الــــــرازي.

هكــذا يقول هذا الفقير المعدم، وهذا المفلس البعيد عن البصيرة، والبعيــد عن العلم والمعرفة، والمحروم من الحق والحقيقة، والمــهجور مــن الشــريعة والطريقة والمفتون بالهوى والطبيعة، والمبتلي بالأمراض الظــاهرة والباطنـــة، والمتخلف عن الرفاق من ذوي الرأفة والشفقة، المبتلي بسوء المـــزاج خاصــة نمرض العصبي، الذي أعجزه ضيق الزمان والمكان، المُبعد عن مقام الإنسانية، السالك إلى سبيل الله الفقير حسين الحسيني النعمة اللهي الملقب بلقب الطريقـــة: "شمس العرفاء" من قبل شيخنا الأجل طيب الله ثراه، وفقني الله بحسن توفيقـــه، وأيدني الله بتأييداته.

وهكذا تحقق في أوان الخير هذا، اقتران مصاحبة جمـــع مـــن العلمـــاء ومرافقتهم وموافقتهم مع بعض سالكي الطريقة من الرجال والنساء الذين قال الله تعالى في حقهم: "إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصّلاة وأنفقوا مما رزقناهم

(١) هذه مقدمة شمس العرفاء، ناشر الكتاب.

سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور، ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور"[1].

وشاهدت بعين اليقين قليلاً من النساء سالكات مسلك طريق الله موقنات على جادة شريعة المصطفى صلى الله عليه وسلم، متحققات بنهج المرتضى، وخاصة أن بعضاً من تلك الطائفة العالية القدر اللائي لهن سمة الأخوة مع الفقير قد رغبن وتمنين أن يعاد طبع هذا الكتاب "**مرصاد العباد**" مرة ثانية نتيجة لقلة نسخة والحواشي غير المقروءة، حتى يستفيد منه الخاصة والعامة.

والحق أنه قائد هادٍ لجميع الطبقات وأصناف الناس ومشكاة مضيئة لهم، لذا اعتبرت نفسي مكلفاً بأداء هذه الخدمة، فقمت بهذه الرفعة بعمل مقارنة، باهتمام جدي لبعض من الكتب القديمة الخطية، وسعيت قدر الطاقة في سبيل تصحيح العبارات والكلمات. وقد تحققت الدقة اللازمة لصحة طبعه مع تحمل المتاعب والمشقات التي لا تحصى، وذلك بمعاونة ومساعدة صاحب العزة مدار منبع السعادات وسراج السادات السيد الأمين الأديب الجواد الكريم الجليل الأستاذ/ سيد عبد الحميد خان بن نقيب المشايخ دامت شوكته العالية. والأمل في أن يتغاضى القراء والمطلعون عما به من هفوات وأن يذكروني بالغفران والرحمة لقول القائل "**إن الله رحم من استرحم وغفر لمن استغفر من الكفار**".

إعلم أن الشيخ نجم الدين أبا بكر عبد الله بن محمد بن شاهاور الأسدي الرازي المعروف بداية، كان مريداً في الطريقة للشيخ/ مجد الدين البغدادي الذي كان مريداً للشيخ/ نجم الدين كُبري الذي تُنسب إليه سلسلة

---

(١) سورة فاطر: آية ٢٩-٣٠.

الكبروية، وهو قد ارتدى الخرقة عن الشيخ/ عمار بن ياسر البدليسي، الذي كان مريداً لأبي النجيب السهروردي، الذي كان مريداً للشيخ/ أحمد الغزالي الطوسي. والشيخ/ أحمد كان خليفة للشيخ/ أبي بكر النساج، الذي كان مريداً للشيخ/ أبي القاسم الجورجاني، وهو خليفة للشيخ/ أبى عمران المغربي، وهو مريد للشيخ/ أبي علي الكاتب، وهو مريد للشيخ/ أبي علي الرودباري، وهو خليفة الشيخ/ الجنيد البغدادي، وهو خليفة الشيخ/ السري السقطي، وهو مريد معروف الكرخي، وهو مريد السلطان المرتضى علي بن موسى الرضا صلوات الله عليه والمأذون منه والقائم ببابه.

ووفقاً لما هو مسطور في تذاكر العرفاء، فإن الشيخ/ نجم الدين الكبري قد عهد بالشيخ الرازي إلى الشيخ/ أبي سعيد مجد الدين شرف بن المؤيد بن أبي الفتح بن أبي الغالب البغدادي، وهو أحد الخلفاء الإثنى عشر للشيخ/ كبري. وكان محل إقامته (داية) في همدان،ولما حل به الخوف أثناء غارات المغول، فر من هناك واستقر في أردبيل عام ٦١٨هـ، وكان يفكر دائماً في البحث عن موضع آخر يكون بعيداً عن الفتنة والفساد، فراغاً وراحة لباله وذهنه، ولهذا السبب فقد اختار آسيا الصغرى (**رومية الصغرى**) وسافر إليها.

وهذا الجزء نفسه هو ما يذكره في كتابه "**مرصاد العباد**" والذي كان قد تأخر في تأليفه حتى أتمه في سيواس عام ٦٢٠هـ نتيجة لما كان يحس به من أمن.

وعلاوة على كتاب "**مرصاد العباد**" ، فللشيخ/ نجم الدين مؤلفات أخرى باسم..:

- بحر الحقائق والمعاني في تفسير القرآن.
- منارات السائرين إلى حضرة الله ومقامات الطائرين بالله.
- رسالة العشق والعقل.

وقد حظي نجم الدين في سفره إلى آسيا الصغرى بصحبة الشيخ/ صدر الدين القونيوي ومولانا/ جلال الدين الرومي، وكانت وفاته عام ٦٥٤هـ. وبناء على الشرح الذي كتبه جامي، فإنه قد دُفن في الشونيزيه ببغداد خارج مقبرة الشيخ/ السري السقطي والشيخ/ الجنيد **(راجع نفحات الأنس لجامي ومجالس العشاق تأليف السلطان حسين بايقرا وهفت إقليم لأمين أحمد الرازي وكتاب جواهر الأسرار لعلي بن حمزة الإسفراييني والمعروف بآذري وفهرست النسخ الخطية في مكتبة التحف البريطاني ومكتبة برلين).**

هذا وفي عام ١٣٠١ طبع في طهران مختصر لهذا الكتاب باسم "**منتخب مرصاد العباد**" وقد نسب تأليف الكتاب الأصلي ــ خطأ من ناشره ــ إلى الشيخ/ نجم الدين كبري.

وصلى الله على محمد، وآله أجمعين، ، ،

الفقير/ حسين الحسيني النعمة اللهي

-/-/*-/*-/*

بسم الله الرحمن الرحيم[١]

الحمد لله رب العالمين وصلواته على نبيه وحبيبه محمد وآله وعترته الطيبين الطاهرين وخلفائه الراشدين وأصحابه وأزواجه أجمعين وسلم تسليماً كثيراً.

الحمد الكثير والثناء الجزيل للمليك الذي يكون وجود كل موجود مظهراً ومجلياً لوجوده، ووجود كل ذي جود حمداً وشكراً لجوده مصداقاً لقوله.. "**وإن من شيء إلا يسبح بحمده**"[٢]. ذلك الإله الذي ثبت نقش النفوس ــ ببديع فطرته وصنيع حكمته ــ بقلم كرمه على صفحة الوجود من صحيفة العدم، وبث ماء حياة المعرفة في ظلمات الخلقة البشرية: "**وفي أنفسكم أفلا تبصرون**"[٣]، والذي يسر للهائمين الظمأى في بادية الطلب سلوك طريق ظلمات الصفات البشرية بقدر الصدق كالاسكندر، والذي أوصل بعنايته ــ المُبرأة من كل علة ــ كل من على شاكلة الخضر من ذوي الأكباد المحترقة بنار المحبة إلى نبع ماء حياة المعرفة مصداقاً لقوله تعالى.. "**أومن كان ميتاً فأحْييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس**"[٤].

والسلام الكثير والشكر الجزيل للأرواح المقدسة والأشباح (الهياكل) غير المدنسة التي يبلغ مقدارها نيفاً وعشرين ومائة ألف مركز نبوة وعنصر فتوة،

---

(١) هذه مقدمة المؤلف/ نجم الدين داية، صاحب كتاب "مرصاد العباد".

(٢) سورة الإسراء: آية ٤٤.

(٣) سورة الذاريات: آية ٢١.

(٤) سورة الأنعام: آية ١٢٢.

والذين كانوا من سالكي مسالك الحقيقة والمقتدين لممالك الشريعة لقوله تعالى.. "أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة"[١]، وأخص بالسلام رأس الأنبياء وقائد قوافل الأولياء وسيد كافة الأصفياء وسندهم محمد المصطفى صلوات الله عليه وعلى آله.

أعلموا إخواني في التقى وأعواني على الهدى ــ وفقنا الله وإياكم للترقي من حضيض البشرية إلى ذروة العبودية ورزقنا وإياكم التخلي عن صفات الناسوتية والتحلي بصفات اللاهوتية ــ إن المقصود من جملة الخليقة وخلاصتها هو وجود الإنسان، وكل شيء موجود في العالمين تابع لوجود الإنسان، الذي لو ينظر نظرة فاحصة لأدرك أن الإنسان ذاته هو كل الوجود: (شعر فارسي ترجمته)

أنت للعالم رفعته وضعته

لست أدري من تكون، فأنت كل ما هو موجود[٢]

والمقصود من وجود الإنسان هو معرفة ذات الحضرة وصفاتها كما سأل داود عليه السلام:..

"يا رب لماذا خلقت الخلق؟ قال: كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرف، فخلقت الخلق لأُعرف".

(١) سورة الأنعام: آية ٨٩.

(٢) هذا البيت لأبي القاسم الفردوسي من الشاهنامه: إدوارد براون، تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، جـ٢، ص١٦٥ (الترجمة العربية)، وحامد عبد القادر: قصة الأدب الفارسي، جـ١، ص٢٢٦.

والمعرفة الحقيقية لا تتأتى إلا من الإنسان الكامل. فبالرغم من أن الملائكة والجن يشاركون الإنسان في العبادة، فإن الإنسان قد تميز عن جملة الكائنات بتحمل أعباء حمل أمانة المعرفة، (لقوله تعالى).. "**إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض..إلخ**"[١]. والمراد بالسماء هنا هو أهل السموات أي الملائكة، كما أن المراد بالأرض هو أهل الأرض، أي الحيوانات والجن والشياطين، والمراد بالجبال كذلك سكان الجبال أي الوحوش والطيور، لكن لم يقدّر على أي منها حمل أمانة المعرفة إلا على الإنسان، لأن نفس الإنسان كانت من جملة الخلق التي أراد لها الله أن تكون مرآة لجمال الحضرة الإلهية، ومظهرة لجلالها ومظهراً لجميع صفاته. والإشارة القائلة..: "خلق آدم على صورته" دليل على هذا المعنى، والقلب هو خلاصة النفس الإنسانية، والقلب مرآة، وكلا العالمين غلاف لتلك المرآة، وظهور جميع صفات الجمال والجلال الإلهي إنما يكون عن طريق هذه المرآة حيث يقول في هذا المعنى..: "**سنُريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم**"[٢] رباعية (فارسية مترجمة):

إن المقصود من وجود الإنسان والجان هو المرآة،
والغرض من التبصر والنظر في كلا العالمين هو المرآة،
إن القلب هو مرآة الجمال الإلهية،
وإن هذين العالمين هما غلاف تلك المرآة.

---

(١) الآية هي.. "إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منا وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً". (سورة الأحزاب: آية ٧٢).

(٢) سورة فصلت: آية ٥٣.

وحين تنال النفس الإنسانية ـ المهيأة لأن تكون مرآة ـ الرعاية والتربية[1]، وتبلغ كمالها، فإنها تشهد ظهور جميع صفات الحق في ذاتها فتدرك النفس ذاتها، أي لماذا خُلقت؟ عندئذ تتجلى حقيقة: **"من عرف نفسه فقد عرف ربه"** فتعرف أيضاً ما هي؟ ولأي سر كُرمت، وفُضلت؟ كما يقول..: رباعية ترجمتها:

يا من أنت نسخة من الرسالة الإلهية
ويا من أنت مرآة الجمال الملكية
ليس خارجاً عنك كل ما هو في العالم
فأطلب من نفسك كل ما تريد، فإنما أنت هو كل ما تريد[2]

ولكن على نفس الإنسان ـ لكي تصل إلى كمال مرتبة الصفاء الذي يشبه صفاء المرآة أن تجتاز مسالك ومهالك كثيرة، وهذا لا يتأتى إلا بسلوك جادة الشريعة وطريق الحقيقة حتى تصل بالتدريج. فكما يُستخرج الحديد من المنجم في البداية، ويُعالج بلطائف الحيل على طرق مختلفة، ويمر بيد العديد من الأساتذة حتى يصبح مرآة مجلوة، ولما كان الإنسان في البداية هو منجم حديد هذه المرآة (مصداقاً للقول)..: **"الناس معادن كمعادن الذهب والفضة"**، فكان ينبغي استخراج ذلك الحديد بحسن التدبير من منجم وجود الإنسان، والبلوغ به ـ بالتدريج والتدرج ـ بالتربية إلى مرتبة المرآة:

---

(١) التربية هنا يعني بها تربية روحية للنفس باتباع منهج سلوكي روحاني. (المترجم).

(٢) هذه الرباعية لنجم الدين الرازي نفسه: (جلال الدين الرومي: فيه ما فيه ص٧٦ ، ٢٩٠).

إن القناة التي شـــاهدت رفعتـــها   تنمـــو وتُنبـــت أنبوبـــاً فأنبوبـــاً

ومن ثم، فهذا الكتاب، قد بُني على خمسة أبواب وأربعين فصلاً في بيـــان سلوك الدين والوصول إلى عالمَ اليقين وتربية النفس الإنسانية ومعرفة الصفـــات الربانية، كما سيأتي شرح ذلك في الديباجة إن شاء الله تعالى وحده.

-/-/*-/*-/*

فهرس الأبواب والفصول

الفصل السابع: في بيان تصفية القلب على قانون الطريقة ومعرفة ذلك.
الفصل الثامن: في بيان تحلية الروح وفق قانون الحقيقة ومعرفتها.
الفصل التاسع: في بيان الاحتياج للشيخ في تربية الإنسان وسلوك الطريق.
الفصل العاشر: في بيان مقام المشيخة وشروطها وصفاتها.
الفصل الحادي عشر: في بيان شروط وصفات المريدية وآدابها.
الفصل الثاني عشر: في بيان الاحتياج للذكر والاختصاص بذكر لا إله إلا الله.
الفصل الثالث عشر: في بيان كيفية الذكر وشروطه وآدابه.
الفصل الرابع عشر: في بيان احتياج المريد لتلقين الذكر عن الشيخ وخاصيته.
الفصل الخامس عشر: في بيان الاحتياج إلى الخلوة وشروطها.
الفصل السادس عشر: في بيان بعض الوقائع الغيبية والفرق بين الرؤية والواقعة.
الفصل السابع عشر: في بيان مشاهدات الأنوار ومراتبها.
الفصل الثامن عشر: في بيان المكاشفات وأنواعها.
الفصل التاسع عشر: في بيان تجلي الذات والصفات الإلهية.
الفصل العشرون: في بيان الوصول إلى حضرة الواحد الأحد بلا اتصال وانفصال، رزقنا الله إياه.

الباب الرابع

في معاد نفوس السعداء والأشقياء

ويشتمل على أربعة فصول لقول الله تعالى: "فمنهم ظالم نفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات"[1] وقال أيضاً: "لا يصليها إلا الأشقى، الذي كذب وتولى"[2]:

(١) سورة فاطر: آية ٣٢.
(٢) سورة الليل: آية ١٥-١٦.

الفصل الأول: في معاد النفس الظالمة وهي النفس اللوامة.

الفصل الثاني:في معاد النفس المقتصدة وهي النفس الملهمة.

الفصل الثالث: في معاد النفس السابقة وهي النفس المطمئنة.

الفصل الرابع: في معاد النفس الشقية وهي النفس الأمارة.

الباب الخامس

في بيان سلوك الطوائف المختلفة

ويشتمل على ثمانية فصول:

الفصل الأول: في بيان سلوك الملوك وأولي الأمر.

الفصل الثاني: في بيان أحوال الملوك وسيرتهم مع طوائف الرعايا والإشفاق على أحوالهم.

الفصل الثالث: في بيان سلوك الوزراء والكتاب والولاة.

الفصل الرابع: في بيان سلوك العلماء من أهل الفتوى والوعاظ والقضاة.

الفصل الخامس: في بيان سلوك أرباب النعم وأصحاب الأموال.

الفصل السادس: في بيان سلوك الدهاقين والرؤساء والمزارعين.

الفصل السابع: في بيان سلوك أهل التجارة.

الفصل الثامن: في بيان سلوك أصحاب الحرف والصناعات.

الباب الأول

في ديباجة الكتاب

ويشتمل على ثلاثة فصـــول، تبركاً بقوله تعالى..

"وكنتم أزواجاً ثلاثة"[1]

---

(1) سورة الواقعة، آية ٧.

الفصل الأول

في بيان فائدة تأليف هذا الكتاب
في كلمات أرباب الطريقة
وبيان ماهية السلوك

الفصل الأول

في بيان فائدة تأليف هذا الكتاب في كلمات أرباب الطريقة وبيان ماهية السلوك

قال الله تعالى.. ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾[1] وقال النبي عليه السلام.. "كلمة الحكمة ضالة كل حكيم".

اعلم أن الحديث عن الحقيقة وبيان سلوك درب الطريقة، يقدح دواعي الشوق وبواعث الطلب في باطن ذوي الاستعداد من الطلاب، ويشعل أوار نار المحبة في قلوب الصديقين، خاصة حينما تصدر من منشأ نظر العشاق الصادقين والكاملين المحققين. رباعية (مترجمة):

إن من يتأجج قلبه بنار العشق
فكل حديث يقوله يكون آسرًا للقلب
ولكنك قليلاً ما تسمع أحاديث العشاق
استمع، استمع. فإن أحاديثهم شيقة.

وأيضاً، فإن للغافلين تنبهاً من قوة هذا الحديث، إذ لا يمكن المعرفة بأي مفتاح يفتح به قفل هذه السعادة.. مصراع:

"والأذن تعشق قبل العين أحياناً"[2]

---

(١) سورة مريم: آية ٩٧.

(٢) هذا مصراع من بيت شعري لبشار بن برد يقول:
يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحياناً. (المترجم)

وقد بلغ تأثير هذا الحديث إلى هؤلاء القوم في البداية عن طريق السمع لأنهم قالوا.. ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾(١).

وبالرغم من أن بذرة العشق قد أُلقيت في أرض القلوب في البداية بغراس خطاب: "ألست بربكم"(٢)، لكن أي مقبل قد أُعطى التوفيق في تربية تلك البذرة لأن مملكة خلود العشق لا تمنح لكل مليك. رباعية (مترجمة):

لا يعطي ملك طلبه لكل سليمان
ولا يتنزل منشور عشقه على كل قلب وروح
وطالبو دواء الألم محرومون منه
لأن هذا الداء لا يعطى لطالب الدواء.

وذات مرة قال هذا الضعيف هذه الرباعية (المترجمة) في معنى العشق:

العشق هو باكورة بستان رياض الشباب
ورأسمال العمر الخالد هو العشق
فإذا كنت تطلب ماء الحياة كالخضر
فإن نبع ماء الحياة هو العشق.

وبالرغم من أن رأساً لا تخلو قط من هوس تمنى هذا الحديث. رباعية (مترجمة):

(١) سورة آل عمران: آية ١٩٣.

(٢) سورة الأعراف: آية ١٧٢.

لا يخلو محتضر قط مـــن الألـــم مـــن أجلـــك
ولا يخلـــو غـــافل قـــط مـــن لطفـــك
ومهما أنظـــر فـــي خـــلق العـــالم
فلا توجد رأس قط تخلـــو مـــن الـــهيام بـــك.

ولكن كيف تصل يد طلب كل متمني إلى أطراف كبرياء هـــذه الســـعادة "ليس الدين بالتمني"؛ كما يقول هذا الضعيف. رباعية:

منـــذ أن تولـــه القلب من فتنة وجه الحبيـــب
وأنا أكثر نحولاً من أدق شعـــرة للحبيـــب
وقـــد ســـألني الحبيب.. أي شخـــص أنـــت؟!
أنا لســـت بشخص قط، فأنا تراب محلة الحبيـــب

والهدف الآخر من بيان السلوك هو إثبات الحجة على أهل الباطل وعبـــاد الهوى والمتصفين بالبهيمية الذين أوقفوا كل هممـــهم علـــى اســـتيفاء اللـــذات والشهوات البهيمية والحيوانية والوحشية، والذين قنعوا كالأنعام بعطاء الســـاعة، وحُرموا من ذوق مشارب الرجال وشرف مقامات المقربيـــن، واقتنعـــوا مـــن كمالات الدين ودرجات أهل اليقين بصورة الصلاة والصوم كالغافلين الملوثيـــن بآفات لا نهاية لها، كيلا يقولون غداً كسائر المتحسرين: لو كنـــا غـــافلين عـــن سعادة هذا الحديث، ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[1].

---

(١) سورة الملك: آية ١٠.

وسُئل الجنيد قدس الله روحه العزيزة: أي **فائدة تعود على المريد من كلمات المشايخ وحكاياتهم**؟، فقال..: تقوية القلب وثبات القدم في المجاهدة وتجديد العهد في الطلب، فقيل له.. **ألديك سند لهذا من القرآن**؟ فقال نعم..﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[1]. وقيل.. "**كلمات المشايخ جنود الله في أرضه**"، أي أن كلمات المشايخ عون للمريدين.

وإذا لم يكن لمسكين شيخ كامل وأراد الشيطان أن يقطع طريق طلبه بشبهة أو بدعة تتراءى له أثناء طلبه وقيامه بالرياضة، فعليه أن يتمسك بكلمات المشايخ، ويعرض حاضر واقعه على محك بيانهم الشافي، حتى ينجو من سيطرة الوساوس الشيطانية والهواجس النفسانية ويعود إلى جادة الصراط المستقيم ومرصاد الدين القويم لأن قطاع الطرق من شياطين الجن والإنس كثيرون في هذا الطريق، فإذا سلكه السائر بغير دليل وحارس، فإنهم يلقون به على الفور في وادي الهلاك.

وقد قال الشيخ/ أبو سعيد بن أبي الخير رحمه الله إنه يجب على المريد أن يتلو كل يوم مقدار جزء من القرآن، ويقرأ أو يسمع مقداره من الحديث الشريف. وقد قيل.. "**من أحب شيئاً أكثر ذكره**".

وبحكم هذه المقدمات، فإن بعض السائرين في طريق الطريقة والسالكين لعالم الحقيقة الذين كانوا أصحاب قدر كبير من هذا المجال، والذين التزموا جادة الصواب في هذا الطريق التزاماً بمبدأ.. "**إن لكل شيء زكاة**" وبمقتضى الأمر؛

(١) سورة هود: آية ١٢٠.

"**وأد لكل ذي حق حقه**"، اعتبروا واجباً في ذمة كرمهم، هـــو إيصـــال الحـــق للمستحقين، وتقديم جرعة من نبع ماء حياة المعرفة لظمأى بادية الطلب حتـــى يزداد الألم على الألم والشوق على الشوق والعطش على العطش، بيت (شـــعر ترجمته):

إني كـــالرمال أتجرع بلاء حُبـــك كالمـــاء
كلما أكثرت الشرب منه، كلما اشتد بي الظمـــأ

وصلى الله على سيدنا محمد، وآله أجمعين

الفصل الثاني

في بيان سبب تأليف هذا الكتاب خاصة بالفارسية

الفصل الثاني

في بيان سبب تأليف هذا الكتاب خاصة بالفارسية

قال الله تعالى.. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[1].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم.. "كلموا الناس على قدر عقولهم"

اعلم أنه بالرغم مما ألف في الطريقة من كثير من الكتب المطولة والمختصرة، وذكر فيها الكثير من المعاني والحقائق، إلا أن معظمها بالعربية، وليس لها فائدة كبيرة للناطقين بالفارسية. رباعية (مترجمة):

ينبغي بث الحزن[2] (العشق) القديم إلى المحبوب الجديد
كما ينبغي أن يكون الحديث معه بلسانه (لُغته)
إن كلمتَيْ.. "لا تفعل وافعل" لا تفيدان كثيراً
لأنه يجب أن تقول للأعجمي.. "كن ومكن"[3]

ومنذ فترة وعدد من الطالبين المحققين والمريدين الصادقين يلتمسون من هذا الضعيف ــ رغم قلة بضاعته وعدم استطاعته ــ كتاباً كاملاً بالفارسية. وبالرغم من أنه قد أُلفت عدة كتب من قبل حسب استعداد كل طائفة واحتياجها، إلا أنهم كانوا يريدون كتاباً قليل الحجم كثير المعنى يتحدث عن بداية الخليقة

(١) سورة إبراهيم: آية ٤.
(٢) معنى الكلمة أصلاً الحزن أو الغم، وهي تترجم وتفسر عند معظم الصوفية بمعنى العشق. (المترجم).
(٣) كن ومكن: لفظان فارسيان بمعنى إفعل ولا تفعل. (المترجم)

ونهايتها، وبداية السلوك ونهاية السير ومقصد العاشق والمعشوق ومقصودهما، بحيث يكون الكأس التي تبدى العالم من ناحية والمرآة التي تجلو الجمال من ناحية أخرى، وتكمل الفائدة للمبتدئ الناقص، ومن جانب آخر تجعل إفادة المنتهى كاملة.

ولكن طالما كان هذا الضعيف حيناً في السفر وحيناً في الحضر في بلاد العراق وخراسان، فلم يكن ليجد خلو البال والفرصة بسبب المشاكل وآفات الفتن المتنوعة ليقدم على إنجاز هذا الكتاب، إذ كانت تظهر كل يوم فتنة من نوع آخر موجبة لتفرقة القلب وشغل البال، كأنما تستوطن الفتنة تلك الديار، وقد قال الرسول عليه السلام مرة.. "**الفتنة من هاهنا**"، وأشار إلى الشرق، ومع هذا فلم نكن نرضى بتلك الفتن، ولم نسلم الرقاب للقضاء السماوي والتقدير الرباني، ولم نركن للصبر والتسليم؛ كما لم نوف شكر نعمة الدين والإسلام، ولم نقرأ: "**وبعض الشر أهون من بعض**"، وكفرنا بنعمة الإسلام، فلا غرو أن حلت فجأة بتلك الديار وأهل تلك البلاد مصائب عقوبة: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾(١). وحل الدمار بتلك الديار وأهلها بشؤم فسق الفساق وظلم الظلمة بمقتضى السنة: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾(٢) فدمروا الديار وأهل الديار. رباعية (مترجمة):

الخلاصة أن كل ما أنزله الفلك من جفاء
يجب قول الحق بأن هذا كان حقاً علينا
لم أكن أشكر نعمته إطلاقاً
فلا غرو أن ألقى بي في التعب والعناء

---

(١) سورة إبراهيم: آية ٧.
(٢) سورة الإسراء: آية ١٦.

وفي غضون عام ٦١٧هـ استولى جيش كفار التتار المخذولين ــ خذلهم الله ودمرهم ــ على تلك الديار؛ ولم ير شخص قط في بلاد الكفر والإسلام، وفي أي عصر، مثل تلك الفتنة وذاك القتل والفساد والأسر والهدم الذي ظهر من أولئك الملاعين، ولم يرد في أي تاريخ، اللهم إلا ما أخبر به الرسول عليه السلام عن فتن آخر الزمان.. "**لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك وهو قوم صغار الأعين حُمر الوجوه ذلف الأنوف كأن وجوههم المجان المطرقة**"، ثم قال.. "**ويكثر الهرج**"، قيل يا رسول الله: وما الهرج.. قال:"**القتل، القتل**" أيِ القتل الكثير.

هذه الحادثة هي في الحقيقة ما رآه الرسول عليه السلام بنور النبوة منذ نيف وستمائة عام، فأنى للقتل أن يكون أكثر من هذا؟ وقد قتلوا وخربوا الكثير من المدن والولايات من حدود التركستان إلى حدود الشام لدرجة أنه من مدينة الري وحدها ــ على سبيل المثال ــ وهي مولد هذا الضعيف ومنشؤه[1] ــ قتل وأسر أكثر من سبعمائة ألف نسمة على الأقل من المدينة والولاية، وكانت فتنة أولئك الملاعين المخذولين وفسادهم على كل الإسلام والمسلمين أكثر من أن تحتويها عبارة. وكانت هذه الواقعة أكثر شيوعاً في العالم بحيث شُرحت بما فيه الكفاية.

وإذا لم تتحرك ــ والعياذ بالله ــ غيرة وحمية الإسلام والمسلمين في كيان الملوك والسلاطين الذين في ذمتهم عهدة رعاية الإسلام والمسلمين مصداقاً للحديث.. "**الأمير راعٍ على رعيته وهو مسئول عنهم**"، وتتعلق رجولية الدين

---

(١) يكنى هنا المؤلف عن نفسه بكلمة "هذا الضعيف"، وهي مستخدمة في العديد من مواضع الكتاب. (المترجم)

بتلابيب أرواحهم حتى يجتمعوا على اتفاق وينطقوا أرواحهم بالانقياد لأمره تعالى.. ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[1]. وإذا لم يقدموا النفس والمال والملك فداء لدفع هذه الفتنة، فإن رائحتها تنتشر بحيث يُطرد الإسلام دفعة واحدة. ورغم أن أكثر بلاد الإسلام قد سقطت، إلا أنهم بذلك يلقون بالبقية الباقية أيضاً، ويعم الكفر العالم، رباعية (مترجمة):

أسرعوا يا ملوك العالم أجمعين

عساكم أن تدركوا بقية من الدين

ضاع الإسلام ضياعاً وأنتم غافلون

وعم الكفر العالم وأنتم نائمون

والخوف والخطر هو أن يضيع ذلك القدر الإسمي الذي بقى من الإسلام نتيجة لشؤم وتبادل الدعاوي الباطلة التي نمارسها، فلا يبقى منه اسم ولا رسم، ويتوجه نحو حجب الغربة مصداقاً للقول.. "**بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً**". اللهم نبهنا من نومة الغافلين. ربنا لا تؤاخذنا بسوء أعمالنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا: ﴿رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[2].

والخلاصة أنه حين ظهرت غلبة أولئك الملاعين وقهرهم، ظل هذا الضعيف يقيم صابراً في بلاد العراق قرابة العام على أمل أن يتنفس صبح

---

(١) سورة التوبة: آية ٤١.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٨٦.

العافية عن الليل الديجوري (الشديد الظلمة) لهذه الفتنة وهذا البلاء وتشرق شمس السعادة. وكان يتحمل كل الأنـــواع المختلفة من الشدائد والمحـــن حتـــى لا يُجبر على الرحيل عن الأطفال والنســـاء، ولا يضطـــر لمفارقـــة الأصدقـــاء والمحبين، وهجر الموطن والمسكن. فلا يجب القول بأنه لم يكن هنـــاك ســـبيل لحمل جميع الأهل خارج تلك الديار، ولا كان القلب يرضى بأن يترك الجميـــع عرضة للهلاك والدمار.

وفي النهاية عندما وصل البلاء الغاية والمحنة النهاية، وبلغـــت الـــروح الحلقوم، ووصلت السكين إلى العظم وجب الالتزام بالقول: "**الضـــرورات تبيـــح المحظورات**"، والامتثال للأمر: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾ (١)، ووجب ترك جميع الأهل اتباعاً للقول: "**ومن نجا برأســـه فقد ربح**" والسير على نهج السنة: "**الفرار مما لا يطاق من ســـنن المرســـلين**"، وترك الأعزاء للبلاد، شعر (ترجمته):

دللـــهُ مـــا لـــم يكـــن هنـــاك بـــلاء
فلمـــا رأى البـــلاء اســـتودعه (الله)
حتى تعلم أنه عندمـــا يكـــون وقـــت الكـــرب
لا يكـــون لأحـــد شـــأن بـــك قـــط(٢)

(١) سورة المائدة: آية ١٠٥.
(٢) أي لا يكون لك سند ولا عون ولا حبيب (المترجم).

خرج هذا الضعيف ليلاً من مدينة همدان ـ التي كانت موطناً له ـ مع جمع من الأعزاء والدراويش تحت خطر داهم، وذلك في غضون شهور عام ٦١٨هـ، واتجه إلى أردبيل. وعلى الفور، وصل الخبر لهذا الضعيف أن الكفار ـ دمرهم الله ـ قد وصلوا إلى مدينة همدان وحاصروها فجاهد أهل تلك المدينة قدر وسعهم واستشهد الكثيرون منهم. وفي النهاية سيطر الكفار عليها وحاصروها وقتلوا الكثير من أهلها، وأسروا العديد من النساء والأطفال وقتلوا معظم أهل هذا الضعيف الذين كانوا في مدينة الري. شعر (ترجمته):

تساقطت الثلوج على بستاننا
فلم تبق ورقة واحدة من شجيرة وردنا

"إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ"[1] وحين انقطع الأمل عن الوطن المألوف، فقد رأى من صلاح الدين والدنيا أن يتخذ وطناً في ديار يكون فيها أهل السنة والجماعة المنزهين عن آفات البدعة والهوى والتعصب، ومتحلياً بالأمن والعدل، ومتميزاً برخص الأسعار وخصب المعيشة. ويكون في تلك الديار ملك متدين عالم عادل منصف متميز يعرف قدر أهل الدين ويدرك حق أهل الفضل.

وكلما سأل أرباب النظر وأصحاب التجارب الواقفين على أحوال البلاد وأقاليم الدنيا، أجمعوا على أن الديار التي بهذه الصفات، في هذا الوقت، هي بلاد الروم المتحلية من جهة بمذهب أهل السنة والجماعة والمزدانة من جهة أخرى بالعدل والأمن والإنصاف.

(١) سورة البقرة: آية ١٥٦.

وبحمد الله، فإن ملك تلك الديار، من سلالة آل سلجوق وذكرى تلك الأسرة المباركة، لأن كل ذلك الاستقرار والراحة والأمن وهدوء الخاطر التي وجدها أهل الإسلام، إنما وجدوها في ظل المظلة المباركة لأهل تلك الأسرة.

وتلك الخيرات والمبرات التي كانت في العهد الميمون لأولئك الملوك المتدينين الراعين للدين ـ أنار الله براهينهم ـ من الغزوات والفتوحات لديار الكفر والاستيلاء على قلاع الملاحدة وحصونهم وبناء المدارس والخانقاهات (التكايا) والمساجد والمنابر والجسور والأربطة والمستشفيات وغيرها من أعمال الخير وتوقير العلماء ورعايتهم وإسعاد العباد والزهاد وإعزازهم والشفقة والرحمة بالرعايا وأنواع التقربات إلى حضرة العزة ما لم يكن مثلها في أي عهد قط. وهذا المعنى أكثر ذيوعاً وشهرة من أن يحتاج إلى إطناب لأن مآثرهم الطيبة ظاهرة على العباد والرعايا في جميع ديار العرب والعجم والتركستان وفرغانة وما وراء النهر وخوارزم وخراسان والغور وغرجستان (قيرغيزستان) وغزنين (غزنة) والهند وكابل وزابل وسجستان وكرمان وخوزستان والعراقين وديار بكر والشام وساحل مصر والروم[1] والأرمن وغيرها.

وإن ألسنة أهل الإسلام لتلهج بالأدعية الصالحة والثناء العاطر لتلك الأسرة المباركة المجيدة، جعل الله تعالى عاطفتهم ومرحمتهم وشفقتهم ورأفتهم وسيلة لنيل الدرجات وموجبة للقربات، وأبقى بمنّه وكرمه بركاتهم في نشر العدل ورعاية الدين في ظل أسرتهم المباركة إلى يوم الساعة.

(١) نعتقد أنه يعني به سواحل البحر الأحمر وبحر الروم.

وحين تحقق هذا المعنى لهذا الضعيف علم أن أسباب الأمن والاطمئنان ورعاية الدين ونشر العلم ودعوة الخلق إلى الحق ورعاية حقوق أصحاب الخلوة وخدمة الدراويش والأعزاء لن تتهيأ ولن تهنأ إلا في تلك الديار، خاصة في حماية هذه الأسرة المباركة، لأن الدعاء لها قد ورثه هذا الضعيف عن آبائه وأجداده، وحقوق نعمهم في ذمته وعلى سائر أهل الإسلام، فاستوجب التوجه إلى تلك البقعة المباركة على الفور والإقامة في حرمة هذه الممالك، جعلها الله كل يوم في ازدياد، وأبقاها محفوظة ومصونة من شر الكفار وكيدهم، والانشغال بالدعوة الصالحة والدعاء للدولة القاهرة ثبتها الله. فلما حالفته السعادة ورافقه التوفيق وصل بعد جهد جهيد ـ بصحبة جمع عزيز ـ إلى حدود هذه الديار المباركة إلى مدينة قيصرية (القيسارية).

ومن المصادفات الحسنة أنه حظي في مدينة ملاطية[1] بذخائر السعادة واليمن في صورة القدوم المبارك لشيخ الشيوخ علامة العالم قطب الوقت سلالة المشايخ شهاب الملة والدين شيخ الإسلام والمسلمين عمر السهروردي، متع الله الإسلام والمسلمين بطول بقائه ولا حرمنا بركة أنفاسه ولقائه. فاعتبر هذا سعادة كبيرة وحظاً عظيماً، وتفاءل بها خيراً.

ولما تشرف بشرف خدمته، وجد لسان ذلك العظيم يلهج بشكر الأيادي والمكرمات والتوفيقات التي كانت في حق ملك الإسلام وسلطان السلاطين خلد الله سلطانه وأعلى قدره وشأنه، وكان يشرح للخاصة والعامة بعضاً من فضائل وشمائل ذاك العرق (النَّسل)المطَهَّر والروح المصور.

---

(١) ملاطية: من بلاد الأناطول والشام. (الناشر).

وفي أثناء هذه الحالة رمعرض تلك المقالة أشار إلى هذا الضعيف وقال إنه حين أكرهت على البعد ــ رغما عنك ــ عن الوطن القديم المعروف والمسكن المحبوب، وضحيت مضطراً بالوقت والاستقرار، ثم تلا قوله تعالى.. ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ (١)، فأقبل إلى هذه الديار المباركة، واستقر في حرم هذه الممالك تمثلاً بالقول.. "**وإذا عشيت فانزل**". ولو أن الدنيا لا تصلح للإقامة ولا يدوم العمر الغادر كثيراً، ولكن اقضِ بقية هذا العمر في أحضان دولة هذا الملك المقبل، الأصيل الصفة، والسلطان راعي الدين المتبع للسيرة، وردد القول: "**وإذا أصبت فالزم**".

ومهما تكن سنة هذه الطائفة هي العزلة والانقطاع عن الخلق، والخلوة، واجتناب صحبة الملوك والسلاطين وترك المخالطة، ولكن لا يجب الانقطاع كلية عن مثل هذا الملك الموفق الذي له من العلم نصيب تام من ناحية، وله من ناحية أخرى نصاب كامل من ثمرات الرياضيات والمجاهدات والمحبة لأرباب العلوم وأصحاب القلوب، فلا تحرم نفسك والخلق من فوائد تلك الحضرة ومنافعها، ثم قال بضع كلمات من هذا النمط واستخار على هذه النية وخط بقلمه في هذا المعنى بضع كلمات بخطه الشريف لنواب الحضرة، وقال إنه بعد الاستخارة والمشاورة مع الحضرة الإلهية جاء الفأل مؤيداً لهذه القضية. فاعتبر هذا الضعيف أن إشارة ذلك العظيم إشارة حق، ولم يستطع أن يحيد عن أمره.

وفي الحال تجلى ذلك العظيم كالشمس وتحرك كالريح، وولى هذا الترابي الذليل وجهه إلى حضرة السماء ذات الرفعة بعين دامعة وقلب ملتهب بالنار، ثقيل كالسحاب العائد من ساحل البحر، سواء من ثقل دُرر وفوائد ذلك البحر، أو

(١) سورة البقرة: آية ٢١٦.

من ثقل مشقة البحر. ولكن هاتف السعادة كان يبشر بمائة ألف بشرى، ويعلن بأن يُمن الالتحاق بحضرة السلطان جابر لكل خلل. وكان هذا الضعيف ينادي في الخفاء ـ أن القادمين إلى حضرة السلاطين والملوك لا مندوحة لهم من التحفة اللائقة بحالهم، والمناسبة لهمة الملوك، وأنت مفلس خاوي الوفاض ومعدم، وتلك الحضرة حضرة رفيعة الدرجة. وقال هذا الضعيف إذا كان قد قيل. نظم (ترجمته):

رغم أن سند عشاق هذا الطريق في المسكنة والعجز
لكنني أسعى كثيراً رغم كل هذا العجز

* * * * *

جاءت سليمان يوم العرض قبرة تهدي برجل جراد كان في فيها
ترنمت بفصيح القول واعتذرت أن الهدايا على قدر مهديها

ومهما تكن تلك الحضرة عالية الهمة، فليس مقامها أسمى وأرفع من مقام سليمان، ومهما يكن هذا الضعيف معدماً، فلا يمكن أن يكون أقل من نملة. ولكي يصل هذا الضعيف إلى مرتبة الحضرة السليمانية فلابد له من تحفة لها صفة تحفة النملة، وليمهد بهذين البيتين عذراً عن عجزه فيقول. نظم:

أيها الملـك: إن حمـل مائـة روح هديـة إليـك
لـهو عندك أقل قيمة من حمل الكمون إلى كرمـان[1]
لكنـك تعلـم أن رسـم النمـل وقانونـه
هـو حمـل قـدم جـرادة إلـى سـليمان
فها هو سـليمان وأنـا بجانبـه نملـة حقـيرة
فعذري مقبـول لـو أحمـل لـه هديـة تافهـة.

لـذا، فمهما كان هذا الضعيف يطوف حول ميدان الفكر ويغوص في بحر القريحة، راغباً في طلب تلك التحفة، ويطوف حول متاع الدنيا وذخيرة الآخـرة، فلم يستطع الإمساك بخيط رفيع حتى يجد الشفاعة في تلـك الحضـرة. نظـم (ترجمته):

طفـت حـول متـاعي كلـه
فلـم تعـثر قدمـي بقطعـة مـن الفخـار.

فلما عجز عن كل شيء تلا آية: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِـي إلا رَبَّ الْعَـالَمِينَ﴾[2] ومن بالغ العجز والحيرة والمسكنة والذلة، ولّى وجهه إلى حضرة الكريم المطلق والمعبود بحق، وأمسك زنبيل الحاجة بيد الهمة. وكعادة كل يوم قصد بابه سائلاً؛

(١) هذا يذكرنا بالمثل العربي الذي يقول: كحامل التمر اللي هجر. (المترجم)

(٢) سورة الشعراء: آية ٧٧.

وفي الحال فتح حضرة الوهاب - طبقاً لسنة كرمه: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [1] - أبواب خزائن الفضل، ومنح هذا الضعيف من كل أنواع النعمة، وقال: إحمل ما تشاء من دفائن هذه الخزائن، ولا تُكبل القلب بهذا القيد أكثر من ذلك. فقال هذا الضعيف: يا الهي لو أحمل نعم الدنيا، فإنها بلا حصر لدى تلك الحضرة، وهي بلا اعتبار في نظر صاحب تلك الدولة. ولو أني أحمل من المعاملات الدينية، فهناك ــ بحمد الله ــ خزائن تعلوها خزائن، وسفينة همته محملة بحمل ثقيل من الطاعة. ولو أني أحمل إليه من العلوم المختلفة، فإن العلم والعلماء كثيرون في تلك الحضرة. وهناك من أنواع العلوم أحمال فوق أحمال، وقوافل تتبعها قوافل.

ولما كان اللطف الإلهي يعرف علو همة هذا الضعيف، فقد أسبغ عليه الآلاف من لطفه وكرمه، وقال: يا إياز حضرة محموديتنا[2]، ويا مخلصاً لعبودية أعتاب عبوديتنا، ويا فراشة محترقة بشمع جلالنا، ويا عاشقاً مولها بنور جمالنا: "**إن لنا من العلم كهيئة المكنون لا يعلمها إلا العلماء بالله**" وإن لنا في خزائن الكرم من الجواهر المكنونة ما لم يمسسها بشر، ولم تنل منها يد أي جوهر، وهي مخفية خلف حُجب الغيب كأبكار لم يصل زوج قط إلى أذيال عصمتهن:

---

(1) سورة فاطر: آية ٦٠.

(2) إياز حضرة محموديتنا: إشارة إلى إياز غلام السلطان محمود الغزنوى ومعشوقه، وقد ولد السلطان محمود الغزنوى في العاشر من المحرم عام ٣٥٠هـ (١٣ نوفمبر ٩٧٠م) ومات في ٤٢١هـ (١٠٣٠م) وله من العمر ستين سنة ميلادية، وكان أقرب المقربين إليه غلامه "إياز". وقد روى كتاب الفرس كثيراً من الحكايات عن إياز، ولاشك أنه شخصية تاريخية وحقيقية، لأن ابن الأثير سجل تاريخ وفاته في سنة ٤٤٩هـ (١٠٥٧م) وذكر اسمه الكامل على هذا النحو: "إياز بن إيماق أبو النجم". ومن بين القصص المروية عن السلطان "محمود الغزنوى" عندما أمر ــ وهو سكران ــ بقطع طرة غلامه ومعشوقه "إياز"، فلما أصبح الصباح أحس بالندم على فعلته واستولى عليه خمار الشراب حتى ساءت حالته فلم يستطع أحد أن يدنو منه.

(ادوارد براون: تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، جـ٢ ص ١٣٨،٥٢-١٣٩ (الترجمة العربية).

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ﴾ (١)، فأحمل أحمالاً كثيرة من هذه الجواهر الثمينة، أو بعضاً من هذه الحسان الحور العين كهدية إلى حضرة عبدنا المختار وسلطاننا المبجل. فهو يوسف جاه حضرة عزتنا، وهو أيوب الصابر المنوط ببلاء لطفنا، وهو ظل اسم ذاتنا، وأيضاً مظهر معاني صفاتنا، وذاك ناصر أوليائنا، وقاهر أعدائنا: علاء الدنيا والدين غياث الإسلام والمسلمين، فخر وسلالة آل سلجوق "أبو الفتح كيقباد بن كيخسرو بن قلج أرسلان" أعلى الله سلطانه، وأصلح في الدين والدنيا شأنه، وأعز جنوده وأعوانه، وقوى حجته وبرهانه، لأنه لن يرجع للبحر أي متاع يشبه تلك العقد، وفي سلكها لا تبلغ قط تحفة من تحف أرباب السيرة والسريرة قدرها.

ونتيجة لكرامة هذه الحالة، وفتح وفتوح هذه المقالة، فقد حدث في الشهر المبارك رمضان سنة ثمان عشر وستمائة في مدينة قيصرية (القيسارية)، في وقت فتحت فيه أبواب خزائن الرحمة، وبسطت خوانات (موائد) الكرم، وانتشرت الدعوة: "**هل من سائل هل من داع**"، وفي هذا الموسم العزيز كانت العزلة قد أُختيرت (من جانبي).

وفي أثناء هذه الحالة، أخذ بعناني حديث جماعة من الطلاب الأعزاء الذين كانوا يطلبون دائماً مثل هذا الكتاب، فاغتنمت هذه الفرصة لخلو البال والألفة، واسترسل عنان القلم بيد السيطرة والقدرة الغيبية بعد الاستخارة واستمداد فيض الفضل الرباني، حتى ينزل كل جوهر ثمين من مواهب الغيب إلى مكمن القلب، ويسترسل القلم في سلك العبارة، وينزل على أطباق الورق، فيجعل هذه الأوراق تحفة للطالبين المحقين والعاشقين الصادقين، ويقدمه هدية لتلك الحضرة ويقول ﴿يَاأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾ (٢).

---

(١) سورة الرحمن: آية ٥٦.

(٢) سورة يوسف: آية ٨٨.

وبعد، فإن هذا الضعيف، بعد الاستخارة والاستعانة بحضرة العزة، زيّن هذه العروس الغيبية[1] وجمّلها بزينة الألقاب الهمايونية لذلك الملك راعي الدين والسلطان ناشر العدل، مَنْ تصل مظلته إلى عنان السماء ويلمس طرف صاري رايته أوج الكواكب، فخر سلالة آل سلجوق، ضاعف الله جلاله ومد في الخافقين ظلاله. رباعي (ترجمته):

شكراً جزيلاً لمليك العالم
الذي أودع الجوهر للعارف به
ويعلم ذلك الحبيب عندما يمعن النظر فيه
كم قاسيت من الجهد فيه حتى يربى الروح

والرجاء في العناية السرمدية والكرم الأبدي للمليك تعالى وتقدس، أن يحفظ بيان هذا الضعيف وبنانه من السهو والزلل والخطأ والخلل، وأن يفتح باب خزائن مكنونات الغيب على قلب هذا الضعيف ولسانه، وأن يجعل هذا الهدف موصولاً بالحصول سيراً على نهج سيد الأولين والآخرين محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وجادة متابعته، وأن يجعله شفيعاً للقراء ونافعاً لهم في الدارين، وأن يجعله مقبولاً للقلوب ومنظوراً للأنظار إن شاء الله العزيز، وهو حسبنا وعليه توكلنا. ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾[2].

وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين.

(1) هنا يشبه المؤلف كتابه بالعروس الغيبية ــ وهي الروح ــ لما يهدف به من السمو بالمعاني الروحية. (المترجم)

(2) سورة آل عمران: آية ٨.

الفصل الثالث

في بيان على أي نهج ونسق ألّفَ الكتاب

الفصل الثالث

في بيان على أي نهج ونسق ألّفَ الكتاب

قال الله تعالى.. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ (١)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم..: "**يموت الناس على ما عاشوا فيه، ويحشرون على ما ماتوا عليه**".

اعلم أن للإنسان بحكم الآية والحديث ثلاث حالات ثابتة هي:

- **الحالة الأولى:** بداية الفطرة وتمسى المبدأ.
- **الحالة الثانية:** مدة الحياة وتسمى المعاش
- **الحالة الثالثة:** قطع تعلق الروح من القالب بالاضطرار، أو من صفات القالب بالاختيار، وهذا ما نعتبره المعاد.

ومن ثم، فهذا الكتاب مبني على ثلاثة أصول.. المبدأ والمعاش والمعاد. وقد وضع لكل أصل باب مشتمل على عدة فصول حتى أنه سيوضح في كل مقام بعضاً من أحوال الإنسان مناسبة لهذا المختصر إن شاء الله تعالى.

فمثلاً في باب المبدأ سيتم شرح (أحواله) من بداية فطرة الأرواح والأشباح والملك والملكوت. وسيوضح في باب المعاش تربية الإنسان وسيره وسلوكه في أطوار البشرية والأنوار الروحانية وتبديل أخلاقه وتغيير صفاته وأحواله المختلفة خلال السلوك والاحتياج لأسباب التربية والسمو. وسيبين في

(١) سورة الروم: آية ٢٧.

باب المعاد مراجعة نفوس السعداء والأشقياء ومعاودتها، ومرجع ومعاد كل صنف سيراً على نهج سلوك الأنبياء والأولياء. وملحق به باب في سلوك الطوائف المختلفة، حتى تنتفع كل طائفة وتستفيد من فوائد هذا الكتاب؛ كما قد ألف باب في ديباجة الكتاب؛ فبني الكتاب بأجمعه على خمسة أبواب وأربعين فصلاً كما شرح ذلك في الفهرس، تبركاً وتيمناً بذلك البناء الإسلامي الذي أُقيم على خمسة أركان: "**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا**" وهذا حديث صحيح برواية عبد الله بن عمر.

والفصول عددها أربعون تبركاً بما يختص به العدد أربعون في تربية الإنسان كما قال تعالى.. ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾[1]. ويقول الرسول عليه السلام.. "**من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه**" وقد ورد في أول كل فصل آية من القرآن المجيد وحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم مناسب لذلك الفصل تمسكاً بالكتاب والسنة.

وحين أُورد من البداية والنهاية، شرح كمال الإنسان ونقصانه وتربيته وسلوكه في كل حالة من الحالات ومقام من المقامات، فمن المعروف أن مدعي الطريقة، وأرباب السلوك والمعرفة، والذين يجعلونه محكاً لأوقاتهم، فلو يجدوا في أنفسهم شيئاً من إمارات إحدى هذه المقامات وعلاماتها، فيجب أن يكونوا متفائلين ومؤملين بأن لهم قدماً على جادة الحق فيتبعون الصراط المستقيم. وإذا لم يجدوا في أنفسهم شيئاً من هذا المعنى فلا يشرون الغرور الشيطاني والشهوة

---

(١) سورة الأعراف، آية ١٤٢.

النفسية ويخرجون أفكار الغرور من رؤوسهم، ويسيرون في طريق الطلب على جادة الصواب، ولا يغترون بالخرق المهترئة شعر (ترجمته):

أخـرج الـهوس الأجـوف مــن الــرأس
وقلـلَ مــن الكـبر، وزدِ مــن الضراعـــة
وحين تصل هناك، فإن أسـتاذك هــو العشــق
وهو نفسه بلسان الحال يقول لك: افعــل كــذا.

وقد وُضع اسم الكتاب أيضاً على منوال أحوال الكتاب: "**مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد**"، تحفة للسلطان كيقباد جعله الله من خواص العباد وأسلكه سبيل الرشاد وأهلك أعداءه إهلاك ثمود وعاد.

وحين يقرأ المريد الصادق والطالب العاشق بالصدق الحقيقـي والتـأني، وليس بالهوى والتمني، ويقف على أصول هذه الفصول ليدرك من هو؟ ومن أين أتى؟ وكيف أتى؟ ولأي سبب جاء؟ وإلى أين سيرحل؟ وكيف سيرحل؟ وما هـو مقصده ومقصوده؟ شعر (ترجمته):

أيها الحبيب: إن قلوب عشـــاق العـالم جريحـة
مــن هـذا المـنزل الـذي هــو أمـام الجميـع
فقطعـت بسـيف الأجـل فـي طسـت الفنــاء
بسبب هذا العشق، أكثر من مائة ألف رأس ذكـي

ومن المعروف، أنه ما هي الحكمة في أن الروح الطاهرة العلوية النورانية تجذب في صورة القالب الطيني السفلي الظلماني؟ ولماذا تكون المفارقة وقطع تعلق الروح عن خراب الصورة؟ وما هو سبب نشر القالب يوم الحشر وكسوة الروح له ثانية؟. وعندئذ يخرج من زمرة: ﴿أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾(١)، ويصل إلى المرتبة الإنسانية، ويتخلص من حجاب غفلة (قوله تعالى): ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾(٢)،ويسير بالذوق والشوق في طريق السلوك حتى أن ما يراه النظر، يسير فيه القدم لأن الإيمان ثمرة النظر، والعرفان ثمرة القدم.

وإن الفلاسفة والدهريين والطبيعيين محرومون من هذين المقامين وضائعون وحائرون، حتى أن فاضلاً مشهوراً ومعروفاً عند أهل الضلالة بالفضل والحكمة والكياسة ــ ذلك هو عمر الخيام ــ يقول هذه الأبيات وهو في غاية الحيرة والضلالة، رباعية (ترجمتها):

في الدائرة التي فيها مجيئنا وذهابنا
لا تبدو لها بداية أو نهاية
ولا يتحدث شخص الحق في هذا العالم
فمن أين مجيئنا، وإلى أين الرحيل؟

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٧٩.
(٢) سورة الروم: آية ٧.

رباعية ترجمتها:

أي تزيين للمليك عند تركيب الطبائع
ولماذا أوقعها بعد في الإقلال والنقصان
فعيب من: إذا كانت هذه الصور قبيحة
وإذا كانت جميلة، فلماذا أراد لها الدمار؟

وليس للحائر الضال علم بقوله تعالي: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[1]، لأن للحق عبيداً قد سموا على كل الكائنات بمتابعة سيد الأولين والآخرين، وجاوزوا: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾[2]، وأفنوا كل وجودهم في سر: "أو أدنى" ، وتكحلت عين البصيرة بكحل: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾[3]، وفي مطالعة آية: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾[4]، استفادوا نوراً من أنوار: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[5]، حتى أنهم شاهدوا بذلك النور في مقام "بي يبصر"[6] بداية عالم الأمر الذي هو مبدأ الأرواح، ثم أدركوا كيف يأتي كل شيء من مضيق العدم إلى صحراء الوجود، وما سيأتي حتى نهاية العالم، وعرفوا سر وجود كل إنسان، ونفذوا ببصرهم من نافذة الأزل إلى الأبد، وعرفوا نهاية كل

---

(١) سورة الحج: آية ٤٦.
(٢) آية: "فكان قاب قوسين أو أدنى" من سورة النجم: آية ٩.
(٣) سورة النجم:آية ١٧.
(٤) سورة النجم: آية ١٨.
(٥) سورة النور: آية ٣٥.
(٦) هذا إشارة إلى الحديث القدسي: "لا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت رجله التي يمشي بها ويده التي يبطش بها وعينه التي يرى بها وأذنه التي يسمع بها، فبي يسعى وبي يبطش وبي يبصر وبي يسمع؛ وإذا استعان بي أعنته وإن سألني أعطيته". صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

صنف من الموجودات، وأدركوا مرجع كل طائفة ومعادها، ورسموا بفرجار الصفة دائرة الأزل والأبد، وتكرر وجودها من مرتبة الوجود إلى العدم، ومن العدم إلى الوجود، فتارة كان الموجود معدوماً وتارة كان المعدوم موجوداً، وأحياناً لا كان موجوداً ولا معدوماً. وتحت هذا الستار أسرار كثيرة للفقراء، وهذا المعنى لا يتناسب مع كل عقل ملوث بالهوى، **"ومعظم الخلق يعتبرونها طامات"**[1] من قبل الشطح، وكل شخص سر كبير من أسرار مكنون الغيب لا يدركه سوى بصيرة أهل الغيب لأن لغة البكم تعرفها أم البكم. شعر (ترجمته):

منذ أن صرت قريناً في الصوت مع حزن عشقك
فإنني قد عدت أكثر من مائة مرة إلى العدم
ومن تلك الناحية من العدم قطعت كثيراً (من الطرق)
فكنت رازياً[2] والآن أصبحت السر كله

وهناك حيث تحير أهل الضلال، فما دام أنه قد بقي فيهم ألم (عشق) طلب المعرفة، فإنه بعون ومدد الطريقة قد أُزيلت بينهم في فترة وجيزة ــ بالتأييد الرباني ــ سبل الأنانية عن عين الحقيقة حتى تخلصوا من ضلال كفر: ﴿صُمٌّ

(١) الطامات: أقوال بلا أصل (الناشر)، وهي تعتبر من قبيل الشطح عند الصوفية. (المترجم).
(٢) رازيا: يتلاعب المؤلف هنا بكلمة "رازي" فمعناها في الفارسية "المتصف بالسر" كما أنها لقبه في نفس الوقت. (المترجم)

بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ (١)، وبعد ذلك قال الجميع: "لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً"(٢).

وحين يكون الأمل هكذا، حيث يجلس الخاصة والعامة على مائدة فائدة هذا الكتاب، ولا يبقى أي طائفة من أجناس الخلق وأنواعهم وأصنافهم على اختلاف طبقاتهم دون نصيب من مقامات المقربين، ولا يكونون بلا مذاق من مشارب أولياء الحق، فلا يخرجون هكذا عن صنعتهم وحرفتهم وزيهم وكسوتهم، فتهمل الأعمال وتفسد حاجات الخلق الضرورية.

ويورد الباب الخامس من هذا الكتاب بيان سلوك كل طائفة، لأنه ليس هناك طائفة إلا ولها من حرفتها وصناعتها طريق إلى الجنة أو إلى النار، ولها طريق إلى الحق؛ ولكن تحت قدم كل شخص تظهر هذه الطرق الثلاثة، ولكن الصراط المستقيم هو ذاك الطريق الذين يسير إلى الحق، وطريق الجنة في الناحية اليمنى وطريق جهنم في الناحية اليسرى كما يقول تعالى.. ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۞ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ....﴾(٣)، وقال المشايخ: "الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق" والمراد من أنفاس الخلق هو مواضع أقدامهم وصناعاتهم وحرفهم.

---

(١) سورة البقرة: آية ١٧١.

(٢) هذه حكمة من أقوال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: جلال الدين الرومي، فيه ما فيه، تقديم وتعليق بديع الزمان فروزانفر: هامش رقم ١، ص٢٩.

(٣) الآيات "وكنتم أزواجاً ثلاثة، فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة، والسابقون السابقون، أولئك المقربون: من سورة الواقعة، آيات ٧-١١.

ومثـال هذا مثل طريق الكعبة الذي يكون كل موضع وجـانب وجهة فيه ـ حيث يكون الخلق ـ طريقاً من جميع الجهات إلى الكعبة (لقولـه تعـالى).. "وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ...."[(١)].

أما الشرط الأول: فهو الخروج من باب النفس، وهذا شرط جلل.

والشرط الثاني: يجب التوجه نحو الكعبة دون الاتجـاه إلـى الطرفيـن (الناحيتين) حتى تكون الصلاة صحيحة.

والشرط الثالث: واجب، وذلك برؤية ومشاهدة شطر وجهة الكعبـة. وإذا تحققت هذه الشروط الثلاثة يسهل أمر الحج. وهكذا يجب على كل طائفة:

أولاً: أن تتخلى عن حظ النفس ونصيبها في صنائعها وحرفها.

ثانياً: يجب اتباع جانب الصدق والميل إلى الحق في مباشـرة الحـرف والصناعات.

ثالثاً: هو أن يرى وينظر حرفه وأعماله حتى يصل إلى كعبـة الوصـال وينال مقصوده: "فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ"[(٢)] شعر (ترجمته):

لا تخل إلى نفسـك فرفيقـك آنـذاك هـو قـاطع طريقـك

وتخلـص مـن نفسـك لأن آفتـك هـي جسـدك

قُلـتَ: إن بينـي وبينـه مسـافة شاسـعة

أيها الصديق: إن المسافة بينك وبينه هي التي بيني وبينـك

---

(١) سورة البقرة: آية ١٤٩.

(٢) سورة البقرة: آية ١١٥.

وسيأتي شرح حق معاملة كل طائفة في مقامها على سبيل الإيجاز والاختصار إن شاء الله، وسيتجنب العبارات المغلقة والألفاظ الغريبة، حتى يكون مفيداً للمبتدئ والمنتهي، وموافقاً للخاصة والعامة: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۝ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ۝ يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾[1].

وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين.

(١) سورة طه: آيات ٢٥-٢٨.

الباب الثاني

فى مبدأ الموجودات

ويشتمل على خمسة فصول، تبركاً بما قيل:

"بني الإسلام على خمس"

الفصل الأول

في بيان فطرة الأرواح ومراتبها ومعرفتها

الفصل الأول

في بيان فطرة الأرواح ومراتبها ومعرفتها

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۞ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾[1]، ومعناه خلقنا الأرواح الإنسانية ثم رددناها أسفل سافلين، أي إلى القالب الإنساني، وسنبينه في موضعه إن شاء الله تعالى.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "**إن الله خلق الأرواح قبل الأجساد بأربعة آلاف سنة**"، وفي رواية بألفي سنة. وهذا الحديث مفسر للآية بمعنى أنه في البدء خلق الأرواح الإنسانية ثم الأجساد ثم الأجسام.

اعلم أن مبدأ الموجودات والمخلوقات والأرواح الإنسانية هو الروح الطاهرة المحمدية عليه الصلاة والسلام كما قال المصطفى: "**أول ما خلق الله نوري**" وفي رواية أخرى "**روحي**". ولما كان الرسول عليه السلام زبدة الموجودات وخلاصتها، وثمرة شجرة الكائنات لقوله: "**لولاك ما خلقت الأفلاك**"، وفي رواية "**الكون**"، كان هو أيضاً مبدأ الموجودات، فلا يجوز سوى ما يكون لأن الخلق مثال الشجرة، والرسول عليه الصلاة والسلام ثمرة تلك الشجرة، والشجرة ـ في الحقيقة ـ من بذرة الثمرة.

وبعد ذلك، فحين أراد الحق تعالي أن يخلق الموجودات خلق أولاً نور الروح المحمدية من فيض نور الأحدية كما يقول الرسول عليه الصلاة والسلام:

---

(١) سورة التين: آية ٤-٥.

"أنا من الله والمؤمنون مني". ويرد في بعض الروايات أن الحق تعالى نظر إلى النور المحمدي بنظر المحبة، فغلب عليه الحياء، فتقطرت قطرات العرق فخلق أرواح الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من تلك القطرات، ثم خلق أرواح الأولياء من أرواح الأنبياء، وخلق أرواح المؤمنين من أرواح الأولياء، وأرواح العصاة من أرواح المؤمنين، وأرواح الكافرين والمنافقين من أرواح العصاة، ثم خلق الأرواح الملائكية من خلقة الأرواح الإنسانية، وخلق أرواح الجن من الأرواح الملائكية، وخلق أرواح الشياطين والمردة والأبالسة على اختلاف أحوالهم من أرواح الجن، وخلق بعد أرواحهم أرواح الحيوانات المختلفة؛ وبعد ذلك خلق عالم الملكوت وأنواع الملوكتيات والأجساد ونفوس النباتات والمعادن والجمادات من المفردات والمركبات والعناصر، ثم خلق لها مراتب عالم الملك والأجسام كما سيرد في الفصلين الثاني والثالث إن شاء الله تعالى.

ومثال هذه المراتب كالقنّاد(١) الذي يخرج النبات الأبيض من القند الأبيض عندما يغليه أولاً فيستخلص النبات الأبيض، ويغليه مرة ثانية، فيستخلص السكر الأبيض، ويغليه مرة ثالثة فيستخلص السكر الأحمر، ويغليه للمرة الرابعة فيخرج التبرزد(٢). وفي المرة الخامسة يغليه فينتج سكر القوالب، ثم يغليه مرة سادسة فتبقى الرواسب التي تسمى القطارة وهي قاتمة حالكة. ومن أول مرتبة القندية حتى هذه القطارة يقل الصفاء والبياض حتى يبقى السواد والظلمة.

---

(١) القنّاد هو صانع السكر، ومنه القند وهو ما يُعمل منه السكر، ويقال هو عسل قصب السكر؛ والسكر من القند كالسمن من الزبد، ويُقال إنه مُعرب وجمعه "قنود". (المترجم)

(٢) التبرزد: ملح ناعم بللوري. (المترجم)

وذلك الشخص الذي لا يقف على صناعة القِناد، ولا يعـــرف أن القنـــاد يستخلص هذه الأجناس المختلفة المتنوعة المتعددة من قند واحد، فينكر ويقـــول إنه لا يمكن مطلقـــاً أن اُستخرجت قطارة سوداء حالكة من قند أبيض صـــاف، ولا يعرف أن هذا السواد والظلمة كانت موجودة في أجزاء وجود القند الأبيـض الصافي. بيت (ترجمته):

شربت من تلك الخمر التي شرب منها حبيبـــي
فتـــورّد وجهـــه واصفـــرت وجوهنـــا

وفي الحقيقة، فإنه يلزم أن تكون تلك الكدورة والظلمة في أجزاء وجـــود القند، حتى ينال القند نصيبه منها في مقام القندية. وحين يصل إلى المقام النباتي، ينال النبات نصيبه منه. وهكذا فإن كل واحد ينال حظه في مقـــامه ــ حســـب استعداده ــ من البياض والصفاء والظلمة والكدورة الموجودة في أجزاء القنـــد ويترك الباقي. وفي النهاية يبقى في القطارة قليل من البياض والصفاء ويصـــير الباقي كله ظلمة وكدورة.

وهكذا لا يمكن أن يرى تلك الظلمة والكدورة التي فـــي القنـــد بـــالنظر الحسي، ولكن يجوز، ولا يمكن أن يرى البياض والصفاء التي فـــي القطـــارة، ولكن ربما جاز.

وهذا الاختلاف وهذه المراتب الموجودة بين الصفاء والكدورة والبيـــاض والسواد، يجب أن يكون كل من هذه الأجناس في القند والنبات والسكر وغيرها، وكل واحد ينال درجة الكمال في مقامه حسبما يظهر ذلك الكمال. وقد وضعـت في كل واحد خاصية، نتيجة ذلك الاختلاف، لا توجد في غيره.

وحيثما يجب شيء منها لأمر ما على وجه الخصوص فلا يصلح لآخر. فإذا جاز أن يكون النبات مفيداً فلن يأمر الطبيب بالسكر، وهناك فحين يلزم السكر فلن يأمر بالنبات، ولا يمكن لأي منها أن يقوم مقام الآخر. ومن ثم فمن المعلوم أن كل واحد ينال الكمال في مقامه الخاص به، لأنه لا يكتمل في غيره كما يقول تعالى.. ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾[١].

وبعد ذلك، ففي هذا المثال، اعلم أن ذلك القند الصافي هو الروح الطاهرة المحمدية لأنها في الحقيقة آدم الأرواح. فكما جاء آدم عليه الصلاة والسلام أبو البشر، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم أبو الأرواح، **"نحن الآخرون السابقون"**.

وإشارة لهذا المعنى، فإذا كانت صورنا في النهاية بعد الصور، فإن روحنا كانت في أول مقدم الأرواح، واستخرجت أرواح الأنبياء عليهم الصلاة والسلام نبات الصفة من قند الروح المحمدية، وكانت أرواح الأولياء بمثابة السكر الأبيض، وأرواح المؤمنين بمثابة السكر الأحمر، وأرواح العصاة بمثابة التبرزد، وأرواح الكفار بمثابة سكر القوالب. واتخذ على هذا المقياس الأرواح الملكية والجنية والشيطانية والحيوانية حسب درجاتها ومراتبها حتى كانت تلك الحثالة التي أسميناها القطارة. وهنا ظهرت لطيفة غيبية، وتلك هي أن الظلمة والكدورة كانت موجودة في جميع الأجناس والأنواع والأصناف والأقسام من الجواهر والأعراض، وموجودة أيضاً في القند. فالظلمة مطية الحرارة، والكدورة مطية الكثافة، والحرارة صفة النار، والنار متصفة بالغرور والعلو والرفعة والعظمة؛

---

(١) سورة السجدة: آية ٧.

ومن هنا قال إبليس: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾[1]، والكثافة صفة التراب، والتراب يتصف بالبرودة والدناءة والخسة والمذلة.

وهكذا لم تصل هاتان الصفتان إلى الغاية في أي مخلوق من المفردات والمركبات والجواهر والأعراض، لكن من المفاد (قوله)..: "**خمرت طينة آدم بيدي أربعين صباحاً**" وبمصداق.. ﴿...**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي**...﴾[2].

فإن أصل الخميرة قد خُلقت من طينة آدم وروحه حتى يكون قابلاً لحمل الأمانة، والظلوم لازمة لنار الرفعة والعلو والسمو، والجهول لازمة لتراب الذلة والكثافة والبرودة والمسكنة كلهم معاً. ومن ثم فسواء باجتماع حمل أمانة المحبة والعلم والمعرفة، وسواء بوسيلة الضعف والعجز والمسكنة، فالظلوم والجهول ـ وكلاهما لفظ مبالغة ـ لا تكون إلا في الإنسان الذي يكون ذا رجولة وعشق وصدق بحيث يمكن جذب حمل أمانة الولاية ذات اللونين في صفة الروح، ولم يقبلها آخر مرة ثانية ولن يقبلها مصداقاً للآية: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً**﴾[3]، إذ لا يمكن تحمل هذه الأمانة إلا بقوة الظلم والجيل، فقد رأى الملائكة بقوة النور الروحاني، ولكن لم يكن لهم القوة والاستعداد الجسمانيين، فلم يستطيعوا أخذها. والحيوانات لديهم الاستعداد الجسماني، وليس لديهم القوة الروحانية، فلم يقبلوا حمل الأمانة، ولما كان الإنسان مجموع كلا

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٢.

(٢) سورة ص: آية ٧٢.

(٣) سورة الأحزاب: آية ٧٢.

العالمين الروحاني والجسماني، فقد كُرم بكرامة تحمل أمانة المعرفة، وكان هذا سر: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[1].

أما معرفة ماهية الروح، فهي أنسب لهذا (المثال): اعلم أنه كما في القند سبع صفات من البياض والسواد والصفاء والكدورة والكثافة والحلاوة واللطافة، فيوجد في الروح كذلك ـ وهي لطيفة ربانية ـ سبع صفات من النورانية والمحبة والعلم والحلم والأنس والبقاء والحياة. وحين تتعلق الروح بالقالب فإنها تنال صفاتاً أخرى من كل الصفات، وسيأتي شرح ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

وكل صفة من صفات الروح تُعد بمثابة صفة من صفات القند. فكما أن النورانية بمثابة البياض، فالمحبة بمثابة السواد ـ وقد تقدم بيان تناسب السواد مع المحبة وسوف يُفسر أكثر فيما بعد ـ والعلم بمثابة الصفاء والحلم بمثابة الكدورة والأنس بمثابة الكثافة والبقاء بمثابة الحلاوة والحياة بمثابة اللطافة. وكل صفة يكون أثرها ظاهراً بصورة أقل في القند، فبنفس القدر يكون أثرها كصفة ظاهرة بصورة أقل من الروح. وإذا أُريد أن تبلغ تلك الصفات إلى كمالها، فيجب أن تُوضع في معدن يكون فيه كمال تلك الصفة.

فمثلاً إذا أُريد أن تصل للقند صفة السواد ـ وهي قليلة الوجود فيه ـ إلى الكمال، فيجب أن تُمزج بالقطارة لأنها معدن أسود، حتى يصير القند أسود نسبياً. وكما في الروح فإذا كانت صفة المحبة قليلة ـ وهي بمثابة السواد في القند ـ وأُريد أن تصل المحبة في الروح إلى الكمال، ارتبطت بالقالب الذي هو

(1) سورة الإسراء: آية ٧٠.

معدن الظلمة حتى تصل تربية صفة المحبة فيه إلى الكمال، وهذا أحد أسرار تعلق الروح بالقالب. ولما لم يكن للملائكة هذا التعلق بالتراب، فإن بذرة محبتهم لم تصل مطلقاً إلى كمال التربية حتى تثمر: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[1].

ولو سأل شخص ما دمت قد قلت أن الظلمة والكدورة والكثافة كانت معبأة في قند نور الروح الطاهرة المحمدية صلى الله عليه وسلم، وقلت أن الأرواح الإنسانية كانت محتاجة لهذه الصفات لأن كل شخص سيطلب وسيلة للمعرفة في موضعها، وقلت أن روحه المحمدية استمدت من شعاع نور الأحدية، فمن ثم: **فهل يمكن القول أن هذه الصفات معبأة في نور الأحدية أم لا؟**. فلو قلت يمكن القول، فينبغي إذن أن تبرهن على قولك، وإذا قلت إنه لا يمكن القول بهذا، **فمن أين جاء إلى الروح المحمدية ذلك الذي ليس في نور الأحدية؟**. استمع إلى الجواب من ثلاثة وجوه:

أولاً: رغم أن قند الروح الطاهرة المحمدية كانت من قصب سكر شعاع نور الأحدية، ولكنها موصومة بوصمة الحدوث. وهذه الصفة لم تكن في نور الأحدية، وكل ما هو محدث مطلقاً فيحصل له ظلمة خلقية. والنور المطلق صفة إلهية خاصة لقوله تعالى.. ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ...﴾[2]، والظلمة المطلقة صفة خلقية خاصة كما قال: "**إن الله خلق الخلق في ظلمة**"، ومن ثم فإنه يلزم هذه الظلمة والكدورة والجهالة والكثافة لأنها من صفة الخلق والحدوث.

---

[1] سورة المائدة: آية ٥٤.

[2] سورة النور: آية ٣٥.

الوجه الثاني: هو أن ذات الأحدية موصوفة بصفات اللطف والقهر، فيجب القول إن كل ما هو من النورانية في الأرواح، يكون من شعاع صفة اللطف، وكل ما هو ظلمة، يكون من شعاع صفة القهر.

الوجه الثالث: حين وضعنا الظلمة في القند على شاكلة نار المحبة في الروح، فلا شك أن بذرة المحبة قد وُضعت في أصل الأرواح أكثر من جميع الصفات كما يقول الشيخ/ الخرقاني (شعر ترجمته):

إننا شربنا سوياً من لبنك وخمرك وعشقك
وإننا تعودنا في الطفولة على عشقك
لا، لا: إني مخطئ، وأي موضع هنا (للخطأ)
لقد تربينا، في الأزل، سوياً على عشقك.

ومن المؤكد أن صفة المحبة للروح تقدمت جميع الصفات، لأنه كان للروح محبة نتيجة تشريف "**يُحبهم**". ولو لم تكن "**يحبهم**" سابقة على "**يحبونه**"، لما تجاسر شخص أن يطرق "**حديث المحبة**" شعر (ترجمته):

إنك صنعت جسارتي بثغرك
وإلا أنا المسكين أنّي أكون رجُلك؟.

وقد فتح باب البسط من: "**يحبهم**"، وهذه صفة القدم، و"**يحبونه**" لها أيضاً هذا الذوق، **فأي صفة تبقى للروح في مقابل هذا؟**. ليس للروح أي صفة إلا صفة المحبة التي لها جذور منذ القدم.

وفي هذا أسرار كثيرة لأن الكتب لن تحتمل تفسيره (لقوله تعالى): ﴿...فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ...﴾[1] ولم يستطع جملة الملأ الأعلى من الكروبيين (حملة العرش) والروحانيين أن يتحدثوا عن المحبة، لأنهم لن يستطيعوا أن يتحملوا أمانة المحبة، لأن المحبة والمحنة من بيت واحد؛ والمحنة والطرب غرباء عن بعضهما.

يقول الشيخ عبد الله الأنصاري ــ رحمة الله عليه ــ دقت المحبة الباب، فأجابت المحنة: يا من أنا غلام لمن سقى ذلك الطائر ــ الذي يرفرف ظمأ ــ من ذلك الجدول. مسكين بن آدم؛ فمن ظلمه وجهله: تعلق بذلك الحمل، الذي هرب منه أهل الدارين، واختار المحنة الخالدة (شعر ترجمته):

العشق هو ذلك الذي يقضي على لذة الشباب
والعشق هو ذلك الذي يقضي على اللهو الخالد
وبالرغم من أن العشق مثل ماء الحياة للقلب
إلا أنه يأخذ (يكتسب) من القلب ماء الحياة.

وصلى الله على سيدنا محمد، وآله أجمعين

---

[1] سورة يوسف: آية ٤٧.

الفصل الثاني

في شرح الملكوتيات ومدارجها

الفصل الثاني

في شرح الملكوتيات ومدارجها

قال الله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(١).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "**أول ما خلق الله تعالى العقل**".

اعلم أنه كما كانت الروح الطاهرة المحمدية مبدأ عالم الأرواح ــ كما مر ذكره في الفصل السابق ــ فإن العقل الكلي كان مبدأ عالم الملكوت، والملكوت هو باطن العالم. ويطلق على ظاهر العالم الملك، والملكوت على باطنه.

وفي الحقيقة، فإن ملكوت أي شئ هو روح ذلك الشيء الذي يقوم به ذلك الشيء، وروح كل الأشياء قائمة بصفة "القيوم"، وهي لله تعالى كما يقول: ﴿بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، ولا شيء قائم بذاته مطلقاً إلا الذات المنزهة لله جل جلاله، وملكوت كل شيء مناسب لذلك الشيء كما يقول: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾(٢). فملكوت السماء مناسب للسماء، وملكوت الأرض مناسب للأرض. وأما الملكوتيات فهي على أنواع، ولكن جميعها تنقسم قسمين: قِسْم من قبل عالم الأرواح: وهو أيضاً على نوعين: علوي وسفلي، علوي مثل أرواح الإنسان والملائكة، وسفلي مثل أرواح الجن والشياطين والحيوان والنبات. ومنشأ هذين القسمين هو روح الرسول عليه الصلاة والسلام كما مضى ذكره.

---

(١) سورة يس: آية ٨٣.

(٢) سورة الأعراف، آية ١٨٥.

والقسم الآخر من قبيل عالم النفوس: وهو أيضاً على نوعين: علوي وسفلي. العلوي مثل النفوس السماوية ونفوس الكواكب ونفوس الأفلاك والبروج، والسفلي مثل نفوس الأجساد والأجسام مفردة ومركبة خاصية وطبيعية.

أما المفردة، فمثل العناصر الأربعة وملكوتها وخواصها وطبائعها. فمثلاً طبيعة النار اليبوسة والحرارة وخاصيتها الإحراق والإضاءة، وطبيعة الهواء الرطوبة والحرارة وخاصيته الترويح، وطبيعة الماء الرطوبة والبرودة وخاصيته دفع العطش، وطبيعة التراب اليبوسة والبرودة وخاصيته الإنبات.

وأما المركب، فكالجماد والمعادن والحيوان والإنسان، فكل منها له خواصه وطبائعه وصورته الملكوتية بالنسبة لعوالمه الخاصة. ومن الممكن أن توجد صفة من صفات الملكوتيات الأخرى في أي نوع من ملكوتيات الأرواح والنفوس العلوية والسفلية كما يوجد في ملكوت الأرواح من صفات ملكوت النفوس، وفي ملكوت النفوس من صفات ملكوت الأرواح. ولكنها حين غلبت على إحداها وخضع لها ما سواها ذكرت بذلك النوع الذي غلبت عليه، وتفسير ذلك يجرنا إلى التطويل.

أما جملة الخليقة فتنقسم إلى نوعين: الملك والملكوت، ويقال لهما الخلق والأمر. وقد جمع الحق تعالى ذكرها جميعاً في آية واحدة حيث قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ حتى قال ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾[1].

---

(١) الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ من سورة الأعراف: آية ٥٤.

وعالم الأمر عبارة عن ضد الأجساد والأجسام وهو غير قابل للمساحة والقسمة والتجزئة، ثم ظهر إلى الوجود على الفور بالأمر "كن". وعالم الخلق عبارة عن الأجساد والأجسام اللطيفة والكثيفة القابلة للمساحة والقسمة والتجزئة. وبالرغم من أنها ظهرت من الإشارة ﴿كُنْ﴾، إلا أن هذا تم بالوسائط وامتداد الأيام لقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾. ولكن الأمر يشمل ملكوت الأرواح وملكوت النفوس أيضاً مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي...﴾[1]، وقال: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾، ولكن الروح الإنسانية مختصة بشرف اختصاص إضافة: ﴿مِنْ رُوحِي﴾، ومن هنا فإنك تستمتع إلى معنى ظاهر الآية: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ...﴾[2]، ولكن معناه الباطن: "**إن للقرآن ظهراً وبطناً**". **فيقول إن ابن آدم** محمول عنايتنا، وقد حملناه في البر والبحر: فالبر هو عالم الأجسام والبحر عالم الملكوت، ولن يستطيع البر والبحر أن يتحمل الإنسان لأنه يحمل مسئولية أمانتنا، تلك المسئولية التي لم يتحملها البر والبحر: ﴿فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ﴾. وحين تحمل الإنسان تلك المسئولية، فكيف يمكن أن يتحمله البر والبحر مع تلك المسئولية؟. وحين يحمل مسئوليتنا مع كل عجزه وضعفه، فمن الأولى بنا أن نحمل مسئوليته بكل قوتنا وقدرتنا وكرمنا لأننا عاشق ومعشوق. ذلك أن ما حدث لنا مع الإنسان وما حدث للإنسان معنا، لم يحدث لنا مع أحد ولا لأحد معنا. شعر (ترجمته):

---

(١) سورة الإسراء: آية ٨٥.

(٢) سورة الإسراء: آية ٧٠.

إذا ربطت القلب بهواه فإنه يغلي
ولو عرضت عليه مائة نصيحة لا يستمع إليها

وما بين العاشق والمعشوق لا يسع أحداً، فتارة يستطيع العاشق أن يتحمل دلال عشق المعشوق، وتارة يستطيع المعشوق أن يتحمل ضراعة عشق العاشق. وكما أنه لا غنى للمعشوق عن العاشق، فلا غني للعاشق عن المعشوق أيضاً. وإن إرادة المعشوق للعاشق سابقة لإرادة العاشق للمعشوق، لأن العاشق لم يكن مريداً للمعشوق قبل وجوده، ولكن المعشوق كان مراد العاشق قبل وجود العاشق كما يقول الخرقاني: "أراد ذاته من أرادنا". شعر (ترجمته)

أنت شمع الأزل وقلبي فراشة لك
وأنت حبيب كل العالم وحبيب لي
فمن وجد وجلبة محبتك الحقة
قد رغب قلبي الوله في الجنون (بمحبتك).

وبالرغم من أنه ليس هناك في الحقيقة انفصال وازدواج بين العاشق والمعشوق، فأنت نحن ونحن أنت، وأنت جيب الرداء ونحن ذيله، ولكن عشق العاشق تكون لُحمته من: "**يحبهم**"، وسداه من "**يحبونه**"، وبداية فتنة هذا الحديث قامت من الإشارة الواردة: "**فأحببت أن أعرف**"، ولكن ليس للشفاه قدرة الحديث. وحقاً فإنه يلزم سطوة وقوة حديث موسى حتى يمكن أن ينطق القول: ﴿...إِنْ هِيَ إِلا فِتْنَتُكَ...﴾(١). وبالرغم من أنه أُدب بضربة: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾(٢)، مع أن

(١) سورة الأعراف: آية ١٥٥.
(٢) سورة الأعراف، آية ١٤٣.

الملائكة تطاولوا عليه بالسخرية على جبل الطور وقالوا له: **"ما للتراب ورب الأرباب"** فلماذا لا تقول له الملائكة: **"ما لرب الأرباب والتراب"**، وإننا كنا راضين بالمقام الترابي، وكنا نطلب الإقالة في البدء، ووضعنا خرقة زاوية إدبار الفواق على أكتافنا، وفي ركن القناعة طوينا أقدامنا في طُرُق رداء التسليم، ورددنا القول **"الحزم سوء الظن"**، وعلمنا أنه بالرغم مما في التقرب من الملوك من فوائد جمة إلا أن مصائبها لا تعد. شعر:

وما السلطان إلا البحر عظما وقرب البحر محذور العواقب

وخفنا أنه ربما يضيع رأسمالنا دون أن يأتينا نفع، ونطلب في النهاية مرتبة الترابية الدنية قائلين..: ﴿...يَالَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾[1]، فأخرجنا من كنز الإدبار بالعناية السرمدية، ومنح أجسادنا كرامة التخمير بيديه، وألقى في كل وجودنا خلعة سعادة: ﴿...مِن رُوحِي...﴾[2]، وأجلسنا على عرش خلافة: ﴿...جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ...﴾[3]، ووضع على مفرقنا تاج **"يحبهم"**، وأسجد جملة الملأ الأعلى أمام عرشنا، ونادى في الملك والملكوت بنداء: **"الذين اصطفينا من عبادنا"**. ولو تحصى الأسباب التي جعلتنا معشوقين، **فمن يطيق سماعها؟**. شعر:

ما أكثر الدلال الذي في رأسي من عشقك
بحيث أخطئ وأظن أنك كنت عاشقاً لي
فإما أن يضرب وصالك خيمة على رأسي
أو تعود رأسي مرة أخرى إلى هذا الخطأ[4]

---

(١) سورة النبأ: آية ٤٠.

(٢) سورة ص: آية ٧٢.

(٣) سورة الأنعام: آية ١٦٥.

(٤) أحمد الغزالي: السوانح في العشق، ص١٣.

ولنعد إلى قوله تعالى: ﴿...وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ...﴾[1]. فالبر هو عالم الملك، والبحر هو عالم الملكوت، وحيثما كان برٌ فعليه بحر، وحيثما كان ملك فله ملكوت. أي أننا حملنا الإنسان على مُلكنا وملكوتنا، بمعنى أنه سواء الملك وسواء الملكوت، فإننا خلقناها من نور الروح والعقل، بحيث أن ذوات الروح تستمد الحياة من شعاع نور روحه من الملك والجن والشياطين والحيوان والنبات والمعادن والجماد. فكل ما يكون من ذوات النفوس من الكواكب والأفلاك والسماء والأرض، فإنها جميعها تستمد رأس مالها (**أصلها**) من حاصل نفسه. وكانت النفس للروح مثل حواء لآدم التي خلقت من ضلعه الأيسر. وفي هذا إشارة لطيفة.

ولما كانت النساء من الضلع الأيسر، فقال الرسول عليه السلام..: "**وشاوروهن وخالفوهن**"؛ فذلك هو الرأي الصائب، لأنهن من عظام الضلع، وهو أعوج، وكل ما يقلنه فإن خلافه هو الصواب، وهنا أيضاً فإن النفس من الضلع الأيسر للروح، فيجب أن تتشاور معها في معرفة الذات والصفات.

ومن ثم فيجب أن يعرف كل ما يدركه العقل ويفهمه ويتحدث به عن الذات والصفات، لأن العقل لا يمكن أن يدرك كنه ذاته وصفاته، والحق منزه عن عقل العقلاء وفهم الحكماء، بل يجب أن تُدرك ذاته به هو أيضاً: "**عرفت ربي بربي ولولا فضل ربي ما عرفت ربي**"، وتظهر لطيفة الحق تلك التي قالها الرسول عليه السلام..: "**أول ما خلق الله القلم وأول ما خلق الله العقل وأول ما خلق الله روحي**". وكل الثلاثة حق، وكل الثلاثة شئ واحد، وكثير من الخلق متحيرون في هذا السر إذ كيف قال؟: "**أول ما خلق الله القلم**"، فذلك القلم ليس قلمنا، إنه قلم الله وقلم الله مناسب لعظمته وجلاله، وتلك هي الروح الطاهرة المحمدية.

---

(١) سورة الإسراء: آية ٧٠.

وفي ذلك الوقت الذي نظر إليها الحق تعالى بنظر المحبة غلب عليها الحياء، فانشقت الروح فجاء العقل شقها الأول، وظهر الحياء من غلبة العقل. ومن هنا فحيثما يكون العقل يكون الحياء، وحين لا يكون عقل فلا حياء. وهكذا جيء بالقلم إحدى شقي الروح، والثاني هو العقل. ورغم أنهم كانوا يبدون ثلاثة، ولكن أحدهما كان القلم، وكان الشقان والقلم بيد القدرة الإلهية، حتى أنه كان يكتب كل ما أراد من الملك والملكوت بواسطة سن القلم، وجعله محل قسَمِه لقوله تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[1]، وأثنى على الحضرة الإلهية على إبداع هذه القدرة كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ...﴾[2].

وصلى الله على سيدنا محمد، وآله أجمعين

---

(1) سورة القلم: آية ١.

(2) سورة يس: آية ٨١.

الفصل الثالث

في ظهور العوالم المختلفة

من الملــك والملكــوت

الفصل الثالث

في ظهور العوالم المختلفة من الملك والملكوت

قال الله تعالى: "إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس"(١).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "**خلق الله تعالى التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة في آخر ساعة من ساعاته فيما بين العصر والليل**".

اعلم أنه منذ مبدأ عالم الأرواح حتى نهاية عالم الأجسام، قد خلق الله تعالى عوالم مختلفة من الدنيا والآخرة والملك والملكوت، وخلق في كل عالم صنفاً من المخلوقات الروحانية والجسمانية، وخلق من كل صنف أنواعاً مختلفة، ووضع في كل واحدة خاصية مختلفة، بحيث أنه من صنف الملائكة الكروبي والروحاني، وحملة العرش نوع، وآخرون ملائكة السماء، وغيرهم السفرة(٢) والبررة(٣)، وغيرهم كرام الكاتبين، وغيرهم ملائكة الهواء الذين تحت حكمهم السحاب والمطر والرعد والبرق والرياح. حتى أنه يرد في رواية، أن هناك ملَكاً موكلاً على كل قطرة مطر، حتى تنزل القطرة في ذلك الموضع بأمر الله تعالى،

---

(١) سورة البقرة: آية ١٦٤.

(٢) السفرة: بالتحريك: هم الملائكة الذين يسفرون بين الله وأنبيائه (الناشر).

(٣) البررة: هم الملائكة المطيعون المطهرون من الذنوب والآثام (الناشر).

والملائكة الموكلون بالبحار آخرون وملائكة الأرض أي الحفظة غيرهم، وأهل النهار صنف وأهل الليل صنف آخر، وملائكة حلقات الذكر والمجالس، والملائكة الموكلون بالأرحام والملائكة الذين يلقون بالهواجس في باطن الآدمي آخرون؛ وأولئك الذين يدفعون الشياطين عن بني آدم غيرهم، والمحافظون على الأطفال غيرهم، ومنكر ونكير غيرهم، وغيرهم البشير والمبشر، وأولئك المعذبون غيرهم، وملائكة المودة وملائكة الحياة، وملائكة نفخ الصور غيرهم، وملائكة الرزق غيرهم، وملائكة تحت الأرض غيرهم، وذاك الملك الذي على كتفه الثور والقمر والدنيا، وملائكة بيدهم عروق الأراضي والجبال وملائكة خزنة الجنة، وملائكة الرضوان، وملائكة خزنة جهنم ، وغيرهم الزبانية ومالكو جهنم، وأولئك الموكلون بأطباق السعير غيرهم، وملائكة خدم الجنة غيرهم. وأنواع الملائكة في السماء والأرض والدنيا والآخرة لا يُعرف كمّها وكيفيتها سوى الله تعالى، وفي كل عالم من العوالم المختلفة ـ التي هي عالم الملك ـ أنواع عديدة من الملائكة التي يختص كل منها بصفة وخاصية متميزة.

اعلم أنه ما أكثر الأنواع والأصناف والخلق في العوالم الأخرى من الإنسان والحيوانات البرية والبحرية، ومن أصناف الجن والشياطين والأبالسة والمردة والغيلان والنسانيس وأهل جابلقا وجابلسا ويأجوج ومأجوج، وغيرها من الأجناس العديدة في القصص والأخبار، وليست معلومة لنا على وجه الحقيقة. ومن أنواع الحور ووصيفات الجنة ومن أصناف ملائكة جهنم والعذاب ومن أجناس مختلف النباتات والجمادات والمعادن والأجسام الكثيفة واللطيفة والبسيطة والمركبة والمفردة والعناصر؛ وأشكال النور والظلمة والجواهر والأعراض والألوان والطبائع والخواص والصفات والنتائج والأشكال والهيئات والصور والمعاني والأسرار والحقائق واللطائف والحواس الظاهرة: كالسمع والبصر والشم والذوق واللمس، والحواس الباطنة كالقوة المتخيلة والمتوهمة والمتفكرة

والمتذكرة والمتدبرة، وسائر القوى البشرية كالحس المشترك والحافظة والعقل وسائر الأشياء الظاهرة والباطنة، وما على السماء من العرش والكرسي واللوح والقلم والبروج والأفلاك والكواكب والسيارات والثوابت والمنازل والبيت المعمور وسدرة المنتهى وقاب قوسين واللا مكان واللا زمان، وغيرها من أصناف الموجودات وأنواع المخلوقات، فكيف يمكن شرحها إذ لا يقف على دقائقها سوى حضرته جل وعز، لأنه في الحقيقة: **"وما يعلم جنود ربك إلا هو"**(١).

ولكن عدد العوالم، كما ورد في بعض الروايات، ثمانية عشر ألف عالم، وفي رواية سبعين ألف عالم، وفي رواية ثلاثمائة وستين ألف عالم، ولكنها مندرجة في عالمي الخلق والأمر، الذي هو الملك والملكوت كما مر ذكره، وكلها في خلقها قد أثنت على حضرة الألوهية: **"ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين"**(٢).

أما مراتب نفوس الملك والملكوت ومدارجها ومراتبها ــ على سبيل الإجمال ــ فإنه بعد نفوس الملك والملكوت والعرش والكرسي، تكون مراتب ملك نفوس الثوابت والسيارات وملكوتها، ومراتب ملك نفوس البروج والأفلاك السماوية وملكوتها، ومراتب ملك مراكز نفوس الأثير والهواء والماء والتراب وملكوتها، ومراتب ملك نفوس الطبائع وخواصها وملكوتها، ومراتب نفوس ملك الجماد والمعادن والنبات والحيوان وملكوتها وغيرها، ومراتب نفوس ملك مفردات الأجساد ومركباتها والأجسام والخواص والطبائع والكيفيات والكميات

---

(١) سورة المدثر: آية ٣١.

(٢) سورة الأعراف: آية ٥٤.

من المبدأ والمنتهى وملكوتها، ومراتب نفوس ملك الإنسان والجن والشياطين وملكوتها وغيرها، والأجناس والأنواع والأقسام والأصناف والأشخاص من الأشكال والصور والمادة والهيئة والقوى والأرواح التي لا يمكن أن يعرفها أو يفهمها غير ذات الحق جل جلاله. وقد أورد هذا القدر، من مراتب نفوس عالم الملك والملكوتيات المختلفة ومدارجها، على سبيل الإيجاز.

وهذا جملة ما ينكشف للسالكين أصحاب البصيرة في مقام الرؤية لقوله تعالى: "**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم**"(١) وإذا حدث ثمة تقديم أو تأخير في المراتب، فلا يكون من سهو عالم الكشف، بل يكون من سهو نظر النفس في إدراك معاني الغيب أو من سهو القوة المتفكرة التي هي سفيرة عالم الغيب والشهادة، لأن ما يصبح مكشوفاً لنظر الروح، لا يكون قابلاً للاختلاف والنقصان في عالم الغيب، خاصة حين يكون نظر الروح مؤيداً بمدد نور الله: "**اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله**"، ولكن ما يكون نصيباً للنفس من معاني الغيب ــ وإن كان تابعاً للروح ــ إلا أن للخيال والوهم والفكر مجالاً للتصرف والتأثير فيه، ومن هنا تحدث الزيادة والنقصان في ذاك السبيل. وأيضاً فإن لكل طائفة من أهل الطريقة وأهل الحكمة، مذاهب مختلفة في المعاني والمراتب التي شرحت بحسب آرائها في هذه المعاني. شعر ترجمته:

إن الناظرين إلى وجهك الحسن
ما داموا ينظرون من الجوانب
فإنه يرون وجوههم في المرآة
ومن هنا يكون اختلاف الدلائل(٢)

(١) سورة فصلت: آية ٥٣.
(٢) أنورى الخاوراني: الديوان، تحقيق سعيد نفيسي، ص٤٨٧.

أما مراتب ظهور عالم الملك فتأتي به رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما: "**لما أراد الله أن يخلق العالم، خلق جوهراً فنظر بنظر الهيبة، فأذابه فصار نصفين من هيبة الرحمن: نصفه نار ونصفه ماء، فأجرى النار على الماء، فصعد منه دخان، فخلق من ذلك الدخان السموات وخلق من زبده الأرض**".

فالسماء والأرض خُلقت على هذه الصورة وبهذا الترتيب، وخُلقت تلك المراتب في الأرض كما روي في الحديث، وذكر أيضاً في أول الفصل، واستمعت إليه من ظاهر النص، فاستمع الآن للحقيقة:

اعلم أن أول ما شُق نور محمد صلى الله عليه وسلم، كان القلم حيث: "**أول ما خلق الله القلم**"، فمن أحدهما كان شق للمراتب الكلية والجزئية لملكوتيات الأرواح حتى أن وصلت إلى نهاية ملكوتيات أرواح العناصر المفردة المسماة بالروح المحمدية لقوله: "**أول ما خلق الله روحي**". ومن الشق الآخر كانت جميع عوالم كليات وجزئيات نفوس ملكوتيات وملك وأجساد وأجسام العناصر المركبة التي أسميناها العقل: "**أول ما خلق الله العقل**". وهاتان هما لطيفتا الروح والعقل اللتان ارتبطتا ببعضهما، كأنهما دائرة الفرجار، في نهاية مرتبة أرواح العناصر المفردة، وآخر مرتبة نفوس ملكوت وملك العناصر المركبة، وقد استخرج كل ما هو صاف من تلك اللطائف لتلك الأنواع التي شرحت في مثال القند، حيث تبقت حثالة القطارة، فخلق ذلك الجوهر من تلك الحثالة كما يقول: "**خلق جوهرة فنظر إليها فأذابها**"، ثم انشطر ذلك الجوهر بتأثير نظر الهيبة، فصار نصفه نار ونصفه ماء، ثم استولت النار على الماء حتى صعد الدخان من الماء، وقصد العلو، وكانت النار مع الدخان في الهواء وولت وجهها إلى العلو من اللطافة، بينما هبط الماء ـ مع زبده الترابي ـ إلى أسفل وذلك من كثافته.

استمع لهذه اللطيفة: حينما نظر الحق تعالى ببصره لذلك الجوهر، فظهر ذلك الجزء الذي كان من شعاع نور الروح المحمدية، فانفصل عن ذلك الجزء الذي ظهر من العقل، ووجد غذاء الشوق من نظر الحق، فقصد العلو مرة أخرى. وذلك الذي ظهر من العقل المتجمد بقي هنا لدنسه. ومن هنا كانت هذه الخاصية بأن للروح المحمدية صفاتاً مختلفة كما مضى شرحها، وكانت المحبة إحدى صفاتها، والمحبة نار محرقة، وكان العقل صفة أخرى، إذ كان ماءاً وزبداً متجمداً، ومن ثم كانت المحبة والعشق لهذه اللطيفة التي سمت من الروح المحمدية على مراتب الأرواح، وكان الشرع والطريقة لتلك الصفة التي ظهر منها العقل وسمت على مراتب النفوس. وبين العقل والمحبة نزاع وخلاف لا يحدث مع غيرهما مطلقاً. وعلى أية حال فحيث تقطن المحبة، فإن العقل يتخذ منزله. وأي مكان يقطنه العقل فالمحبة تهجره. شعر:

جاء العشق وأغار على العقل
فاحمل أيها القلب البشارة إلى الروح
وعجيب على التركي (الجميل الطلعة) أن يعرف العشق
وليس من العجيب أن تكون الغارة من التركي
فقد كان يريد أن يورد في عبارة
وصف وجهه على سبيل الاستعارة
فاشتعل نور وجهه بألسنة النيران
فاحترق العقل واحترقت العبارة.

وهناك المحبة التي كانت قد اخترقت الكثير من الحجب وسمت على مراتب الأرواح الملكوتية فابتعدت عن محبوبها، فوجدت لطيفة عالم العقل في ملكوت نفوس عناصرها، فسمعت منها رحيق المعرفة، لأن الولاية كانت قد

صدرت عنها. ولو كان العشق سلطاناً فالعقل حارس، ولكـــن بحكـم المعرفــة وولاية الشوق إلى: "حب الوطن من الإيمان" التي تتحرك في طبيعته، فإنه قــد صاح بالقول. شعر ترجمته:

تـــهب رائحـــة نــــهر موليـــان
وتــأتي معــها بذكـرى الحبيــب الولـــهان[1]

ومن شدة الشوق إلى محبوبه، أطبقت لطيفة العقل يدها في جيــده وهــي تقول: شعر ترجمته:

على ذكرى شفتيك فأني أقبــل فــص اليــاقوت
وما دامت ليست في متناول يدي، فإني أقبِّل هــذا
ومــا دمــت لا أصــل إلـــى تقبيــل يــدك
فإنني أتحدث وأنـــا أقبــل الأرض بيــن يديــك.

ولكن في هذا المقام الذي وصل ذوق نظر المحبوب الحقيقي إلـــى مَنِيِّ روحه، فأضرمت النار فيه، وأفلتت اليد من جيد العقل، ثم نزلت منه هذه العبارة التي انشطر بها الجوهر نصفين، وذلك الشطر الذي كان من العقل، كان هلوعــاً فخاف وذاب من الخوف فصار ماء وتراباً، وذلك النصف الذي كان من المحبــة ووجد الغذاء من نظر الحق، غلبه الشوق وتأججت نار المحبة، فظهر منه النـــار والهواء. وكما يوجد تضاد بين الماء والنار، فهو قائم أيضاً بين العقل والعشــق،

(١) هذا البيت لأبي جعفر الرودكي: حامد عبد القادر، قصة الأدب، جـ١ ، ص١٣٦.

ومن ثم فلم يتفق العشق مع العقل، فشرش عليه وتخلص منه، واتجه قاصداً محبوبه. شعر ترجمته:

ليس للعقل شأن مع العشق فادفعه سريعاً
وماذا ستفعل لهذا العنكبوت الجبان؟.

وبعد ذلك، فإن الجزء الذي اتجه إلى أعلى، خلق منه العالم العلوي من الأفلاك والأنجم وغيرها، وذلك الجزء الذي بقى في أسفل، فقد خلق منه الأرض والجبال والبحار وغيرها، وخلق غيرها من الأجناس على النحو الذي ذكرناه، ومن ثم فتلك اللطيفة التي قد ظهرت من صفة المحبة المحمدية، طافت في المبدأ حول دائرة ملكوت الأرواح، وعندئذ سموا بها من بوابة جوهرها في صورة وصفة الملك والملكوت حيث لم يبق أي ذرة من ذرات الكائنات من الملك والملكوت، ولم يوضع فيها سر من أسرار المحبة، حتى أنه لم يكن هناك أية ذرة خالية ــ بقدر الإمكان ــ من محبة خالقها، وتشكر حضرة العزة على ذلك بلسان حالها: "**وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم**"[1]. شعر ترجمته:

لو تعرض على عُشاقك
كل ذرة تُعد من الوجود
لاستوى الطاووس والذبابة
عندما يقوم صقر حزنك بالصيد

---

(١) سورة الإسراء: آية ٤٤.

أيها الملائكة: لا تثرثروا هذراً بحديث التسبيح، ولا تظهروا أنفسكم في مقام الوجود القائل: "ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك"[١]، فما ذلك؟ ومَن هو ذلك الذي لا يسبح لحضرتك جلت عظمتك؟: "سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم"[٢]. وحضرتك جلت عظمتك أجلُّ وأعظم من ذلك، لأن كل شخص يستطيع أن يحمد ويثني ذاتنا. وكل تسبيح وتقديس نراه على أهل السماء والأرض ونشاهده على ذرات الكائنات فجميعه من شعاع ثناء ألوهيتنا على حضرتنا لقوله: "سبحان ربك رب العزة عما يصفون"[٣]. ولكن الجميع سبحوا بواسطة مرآة الروح المحمدية التي انعكست على ذرات الكائنات، فاعتقد كل شخص أن ذلك الثناء من خاصية عبوديته، ولم يعرفوا **من أين منشأ هذا الحمد والثناء؟**.

وحين حلت النوبة بخلاصة الموجودات وصارت في التربية والسلوك، طافت حول الملك والملكوت، وظهرت ثمرة الخالق على غصن شجرة الخلق لأن عبارة: "قاب قوسين" صادرة عنه، وتفتحت عين حقيقة بصيرته بتصرف سر "أو أدنى"، ونزل خطاب العزة أن يا محمد أنت لا تُثنى عليّ مثل الموجودات الأخرى والملائكة: "**أثن علي**"، فأدرك الرسول أن كل ما أدركته جملة الكائنات من ثناء الحضرة، فهو عارية، وكانت تلك شريعته: "**العارية مردودة**"، ورُدت تلك الأمانة بناء على قضية: "**إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات**

(١) سورة البقرة: آية ٣٠.

(٢) سورة الحشر: آية ١ ، وسورة الصف: آية ١.

(٣) سورة الصافات: آية ١٨٠.

إلى أهلها"[١]. وحين يصدق حدوث ثناء الذات الأزلية من لسان العقل: "كـــن"، والقول: "**لا أحصي ثناء عليك**"، فإنه يصدق أن يكون ثناء ذاتــك أيضـاً مـن صفاتك: "**أنت كما أثنيت على نفسك**".

ومن هنا فإن الملائكة كانوا أطفال مدرسة آدم لقولــه: "يـا آدم أنبئـهم بأسمائهم"[٢] لأنهم لا يعرفون أسماءهم، ولكن آدم ـ وهو معلمهم ـ يكون، وجميع الأولاد، تحت راية الثناء المحمدية: "**آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر**".

وعلى هذا فمن المعروف أن بذرة الخليقة، كانت الوجود المحمدي، وهــو أيضاً الثمرة، وشجرة الخلق هي في الحقيقة كل الوجود المحمدي. شعر ترجمته:

في الحقيقة إنه لطائر عجيب حلق حول العــالمين
فلـم يفتـح جناحــه ولــم يطـر مــن عشــه.

وتصور أن كل الملكوتيات هي جذور تلك الشجرة، وكل الجسمانيات هــي جذع هذه الشجرة، والأنبياء هم فروع الشــجرة، والملائكــة هــم أوراق تلــك الشجرة، وبيان ثمرة تلك الشجرة لا تدركها العبارة، ولا يمكن أن يكتب القلم ذي السنين (أي المتلون) على الورق ذي الوجهين (أي المرائى). شعر ترجمته:

(١) سورة النساء: آية ٥٨.

(٢) سورة البقرة: آية ٣٣.

كان الخاقاني يكتب القصص الكثيرة
فوصل القلم إلى هنا وتحطم طرفه[1]

وهكذا، فكما أن الشجرة موجودة في الثمرة، فالثمرة موجودة في الشجرة أيضاً، حتى أنه ليس هناك أية ذرة من ثمرة خالية من وجود الشجرة، ولا توجد أي ذرة من شجرة خالية من وجود الثمرة. وكما أن أصل البذرة من شعاع نور الأحدية، فلا توجد أية ذرة من الشجرة والجسم والأغصان والأوراق والثمرة خالية من شعاع نور الأحدية لقوله تعالى: "**ونحن أقرب إليه من حبل الوريد**"[2]. وهنا يُعرف سر: "**وهو معكم أينما كنتم**"[3]، وهنا تظهر خاصيته: "**الله نور السموات والأرض**"[4]، وهنا تتحقق حقيقة: "**وما يعزب عن ربك مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء**"[5].

واعلم أن أي شيء خلقه الله تعالى في عالم المعاني، أوجد له صورة في عالم الصور، ومن ثم فصورة جملة معاني عوالم الملك والملكوت، كان شخص الحقيقة المحمدية، وهو بذرة شجرة نور الأحدية. وصورة هذه الشجرة كلمة التوحيد: "**لا إله إلا الله**"، وتنمية شجرة بذرة التوحيد هذه هي شريعة الأنبياء عليهم السلام. ومن أجل غرس بذرة التوحيد هذه في أرض القلوب، قال الرسول

---

(١) هذا البيت لأفضل الدين إبراهيم الخاقاني المتوفى عام ٥٩٢هـ: جلال الدين الرومي، فيه ما فيه، تحقيق بديع الزمان فروزانفر: ص٣٠٤

(٢) سورة ق: آية ١٦.

(٣) سورة الحديد: آية ٤.

(٤) سورة النور: آية ٣٥.

(٥) سورة يونس: آية ٦١.

صلى الله عليه وسلم: "الدنيا مزرعة الآخرة"، ومن هنا أيضاً قال: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله". وما هذا الأمر؟، إنه بذرة التوحيد التي تبذر في أرض القلوب: "ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون"[1].

وصلى الله على سيدنا محمد، وآله أجمعين

(١) سورة إبراهيم: آية ٢٤-٢٥.

الفصل الرابع

في بداية خلق

قالب (جسد) الإنسان

الفصل الرابع

في بداية خلق قالب (جسد) الإنسان

قال الله تعالى: "إني خالق بشراً من طين"[1].

وقال النبي عليه الصلاة والسلام حكاية عن الله عز وجل: "**خمرت طينة آدم بيدي أربعين صباحاً**".

اعلم أنه حين أريد خلق قالب الإنسان من العناصر الأربعة: التراب والهواء والماء والنار، لم تترك العناصر على هيئة العنصرية والإفراد، وأنزلت إلى درجات أخرى: الأول: إلى مقام التركيب لأن العنصر المفرد أقرب إلى عالم الأرواح ما دام في مقام الإفراد، بناء على تلك القضية التي مضى ذكرها. وحين يُراد الوصول بها إلى مقام التركيب، فيجب ترك مقام الإفراد ليصل إلى التركيب حيث ينزل درجة واحدة بعيداً عن عالم الأرواح. وحين يريد الدخول إلى مقام النباتية فيجب ترك مقام التركيب والجمادية، ومن ثم يبتعد درجة أخرى عن عالم الأرواح. وحين ينتقل من النباتية إلى الحيوانية، فإنه يبتعد درجة أخرى. وحين يصل من الحيوانية إلى المقام الإنساني فإنه ينزل درجة تالية. وليس هناك مقام آخر أقل من الشخص الإنساني. وما هو مذكور في الآية الكريمة: "أسفل سافلين"[2] فهو تعبير عن ذلك.

(١) سورة ص: آية ٧١.

(٢) سورة التين: آية ٥.

وهذا الكلام عن العناصر، يصل – بتغيير الأحوال – إلى هذه الدركات[١] أي البعد عن عالم الأرواح، ولكن إن كنت تنظر إلى التحول من الملكوت الجمادي إلى هذه المراتب الإنسانية، فإن هذا المعنى يعبر عنه بالدرجات[٢] لا بالدركات، ويكون هذا أقرب، في كل مقام، إلى الأرواح وليس بعيداً عنها. ولكن الكلام لا يزال عن العناصر التي هي في الملك وليست في الملكوت. ومن ثم فطبقاً لما أُشير إليه من قبل، فإن القالب الإنساني قد نزل إلى أدنى درجة من مرتبة الخليفة وظهرت في حقيقته أسفل سافلين، طبقاً للآية الكريمة: "**ثم رددناه أسفل سافلين**"[٣]. والمقصود بها تعلق الروح بالجسد الإنساني. ومن هنا يتضح أن المقصود بأعلى عليين هو خلق الروح الإنسانية، والمقصود بأسفل سافلين هو الجسد الإنساني، وعلى هذا يتضح معنى هذا البيت. شعر (ترجمته):

أنت رفعة العالم وأنت ضِعَتُه
لا أدري من تكون، فأنت كل ما هو موجود[٤]

ويقول شيخ هذا الضعيف[٥]، سلطان عصره مجد الدين البغدادي رضي الله عنه في مجموعة من تصانيفه: "**فسبحان من جمع بين أقرب الأقربين وأبعد**

---

(١) الدركات: مُفردها درك، والمعني به النزول إلى المقام السفلي لقوله تعالى: "في الدرك الأسفل من النار". (المترجم).

(٢) الدرجات مفردها درجة والمعني بها الصعود إلى أعلى لقوله تعالى: "أولئك لهم الدرجات العلا". (المترجم).

(٣) سورة التين: آية ٥.

(٤) هذا البيت لأبي القاسم الفردوسي من الشاهنامة: إدوارد براون، تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، جـ٢، ص١٦٥ (الترجمة العربية)، وحامد عبد القادر، قصة الأدب الفارسي، جـ١، ص٢٢٦.

(٥) هذا الضعيف: إشارة إلى المؤلف نفسه (نجم الدين داية)، وهذا اللقب يطلقه كثير من الشيوخ والعلماء على أنفسهم تواضعاً وبُعداً عن الأنا. (المترجم).

الأبدين بقدرته". والحكمة في أن قالب الإنسان من أسفل سافلين وروحه من أعلى عليين، هو أنه ما دام الإنسان سيتحمل أمانة المعرفة، فيجب أن يكون لديه قوة كلا العالمين بكمالهما بحيث لا يوجد في العالم شيء قط في قوته حتى يليق بتحمل الأمانة، وتلك القوة يجب أن تكون عن طريق المعنى لا عن طريق الصورة المادية. ولا جرم أن تلك القوة التي تملكها الروح الإنسانية حين تكون من أعلى عليين، فلن توهب لأي شيء قط في عالم الأرواح من الملائكة والشياطين والجن وغيرها، وتلك القوة التي لجسم الإنسان حين تكون من أسفل سافلين، فلن تكون لأي شيء قط في عالم الأجسام، لا للبهائم ولا للسباع ولا لغيرها.

وتلك العناصر الأربعة التي خلق منها قالب الإنسان، فقد خُلقت أيضاً من صفوة حثالة الأرواح المتصفة بالقطارة[1] كما مضى شرحه في الفصل الأول في مثال القند والقناد. ومن ثم فإنه من كل صفة وُجدت في الأرواح فقد كان ظهورها في العوالم المختلفة لأصناف الموجودات حسب استعدادها للوجود، بحيث لم تبق ذرة وليس فيها مذاق من صفات عالم الأرواح.

وتلك العناصر الأربعة، بالرغم من أنها أبعد الموجودات عن عالم الأرواح، إلا أن بها شيئاً من صفات ذلك العالم الروحي. ومن ثم فمهما كانت جميع الصفات الشيطانية والسبعية والبهيمية والنباتية والجمادية ناتجة عن تخمير طينة آدم، ولكن حين كُرمت باختصاص إضافة "بيديّ"، فإن كل صفة من هذه الصفات الذميمة تتحول وتتغير كما يتغير الحجر الصلد بتأثير الشمس، إلى

(١) أورد المؤلف هذا المثال لأن القطارة يمكن تصفيتها على عدة مراحل ودرجات مختلفة حتى تصل إلى درجة الصفاء والنقاء، وقد ذكر المؤلف هذه الأمثلة في مواضع كثيرة من مصنفاته ومباحثه. (المترجم).

جوهرٍ وعقيقٍ وياقوتٍ وزبرجد وفيروز. فانظر إلى خاصية الحديث القدسي: "خمرت طينة آدم بيدي" في مدة "أربعين صباحاً"، ففي رواية أن كل يوم بألف سنة، فأي جوهر يصير لجسد آدم صدفاً؟ وكان هذا تشريفاً لآدم قبل نفخ الروح فيه بعد، وكانت دولة قصر الخليفة طالبة إياه، حيث كانت تمارس وتستخدم ألوهيتها فيه خلال أربعين ألف سنة، إذ أنها تعلم أية كنوز وضعها فيه؟. والملوك الصوريون عندما يريدون إقامة عمران ما، فإنهم يستخدمون العمال ويستنكفون وضع أيديهم في الطين شخصياً، فيتركون هذا الأمر للآخرين؛ ولكنهم حين يصلون إلى هذا الموضع الذي يريدون أن يضعوا فيه الكنز، يبعدون الخدم والحشم جميعاً، ويعملون بأنفسهم في الطين، فيعدون هذا الموضع على قدر الكنز وحجمه، ويضعون ذلك الكنز بأنفسهم، كما يضعون عليه طلسماً حتى يظل محفوظاً من الأغيار.

وحين كان الحق تعالى يخلق أصناف الموجودات من الدنيا والآخرة والجنة والنار، كان يستعمل وسائط مختلفة في كل مقام. وحين وصل الأمر إلى خلق آدم قال: "إني خالق بشراً من طين"[1]، وأبعد الوساطات بينهما قائلاً إني أنا الذي لأخلق جسد آدم، فاشتبه على الجمع فقال: "خلق السموات والأرض"[2]، ألست أنت الذي خلقت هذا أيضاً؟ فقال: هنا اختصاص آخر لأني إذا كنت خلقتها، فبإشارة "كن"، لقوله تعالى: "إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون"[3]، وإنّي أعمل في هذا ذاته بيد القدرة دون وساطة لأني سأضع فيه كنز

(١) سورة ص: آية ٧١.

(٢) سورة النحل: آية ٣.

(٣) سورة يس: آية ٨٢.

المعرفة، ثم آمر جبريل أن انزل وخذ قبضة من تراب سطح الأرض وآت بها، فذهب جبريل عليه السلام وأراد أن يأخذ قبضة التراب، فقال التراب: ماذا تفعل يا جبريل؟، فقال: إني أحملك إلى حضرة الحق لأنه سيخلق منك خليفة، فأقسم عليه التراب قائلاً: بعزة ذي الجلال الحق لا تحملني إليه لأنه ليس لي طاقة القرب، ولا أحتمل نوره، وإني قد قبلت نهاية البعد مختاراً حتى أسلم من سطوات قهر الألوهية لأن في القرب خطراً عظيماً لقول الرسول "**والمخلصون على خطر عظيم**". شعر (ترجمته):

الحيرة تكون أكثر بالنسبة للمقربين
لأنهم يعرفون السياسة السلطانية[1]

وحين سمع جبريل ذكر القسم عاد إلى الحضرة وقال: يا إلهي إنك أعلم أن تراب الجسد أبى أن يستسلم، فأمر ميكائيل أن اذهب أنت، فذهب ثم عاد أيضاً، فأرسل الحق تعالى عزرائيل عليه السلام وقال له: إذا لم يأت بالطوع والرغبة فخذه وآت به قهراً وإجباراً. فنزل عزرائيل، وأخذ قبضة تراب من على وجه الأرض بالقهر، ويرد في رواية أنه قد أخذ من على سطح الأرض أربعين ذراعاً من التراب، وأحضره وسكبه بين مكة والطائف، فكان العشق يحل به على الفور ويتعلق به: (**رباعية فارسية ترجمتها**):

حينما لم يكن تراب الأرض قد صفى بعد
فكان العشق قد ظهر وتعلق بالشراب
وشربت من هذا الخمر وأنا لم أزل رضيعاً
لا ، لا ، لقد كان اللبن (الذي أرضعه) مخلوطاً بهذه الخمر.

---

(١) محمد بن المنور: أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد، باهتمام ذبيح الله صفا، ص٣١١.

وأول كرامة كانت لتراب آدم، أنه كان يُدعى إلى حضرته برسل كثيرة[1]، فكان يتدلل ويقول: "ليس لنا سر هذا الحديث". شعر (ترجمته):

كان حديثي عن مفاعيل وفـــاعلات
فأين أنا من حديث سر المملكـــة؟.

حقاً، هكذا جرت القاعدة، فكل شخص يكون منكراً للعشق فإنه حين يعشق يصير ذا مقام كبير في العشق، فانظر في تقلب الأمور! شعر (ترجمته):

كنت مُنكراً لعشق الحسان فترة مــن الزمــن
ولكن إنكاري له أوقعني في هذا الذي أنا فيه.

وتحير جميع الملائكة في تلك الحالة وعضوا أناملهم بأسنانهم متعجبين: ما هو السر في هذا حيث يُدعى التراب الذليل إلى حضرة الرب الجليل بكــل هــذا الإعزاز؟ والتراب يتدلل ويتعزز كثيراً ـ مع كمال مذلته وضعفه ـ مع حضـــرة العزة والكبرياء. ومع كل هذا فإن الحضرة ــ مع غناه واستغنائه ــ لم يتركـــه من شدة الغيرة، ولم يطلب غيره بدلاً منه، ولم يبح بهذا الســـر لســـواه. شـــعر (ترجمته):

لقد تجرعت أيضاً أحجار الأرض والسماء حزنـــاً
فلـــم أشبع ولـــم أحـــب أحـــداً آخـــر
إن الغزال، على سبيل المثـــال، يـــألف الخلـــق
وأنـــت لا تألفـــهم، وقمـــت بـــألف حيلـــة[2].

(1) يقال أنه ما حضر هذه الحضرة إلا بأربعين رسول من المقربين. (المترجم)

(2) أحمد الغزالي: السوانح في العشق: ص١٣.

وكان الحق يقول للملائكة بسر ألطاف الألوهية وحكمة الربوبية: "إنِّ أعلم ما لا تعلمون"[1]، فماذا تعلمون عما ينتظر هذه القبضة من التراب من الأزل إلى الأبد؟ شعر (ترجمته):

إن العشق هو الذي كان في رأسي منذ الأزل
وهناك أمرٌ ما في انتظاري حتى الأبد.

وإنكم لمعذورون لأنه لم يكن لكم معاملة مع العشق، وأنتم أيها المتقشفون الزهاد المعتكفون في الحظائر القدسية، ماذا تعرفون عن عشاق خرابات العشق؟ شعر (ترجمته):

إن قدر الورد والشراب يعرفه عباد الكأس
ولا يعرفه ذوو القلوب الضجرة والأيدي الخاوية
إنك لم تشرب الخمر فكيف تعرف قدرها؟
إن السر في هذه الطريقة يعرفه السكارى.

وأي مذاق لمن يؤثرون السلامة من ذوق حالة من يؤثرون الملامة؟ شعر (ترجمته):

إن ألم القلب المتعب يعرفه المتألمون
فلا يعرفه ذوو الطبائع المرحة، والضاحكون بلا سبب
إذا كنت محروماً من سر القلندرية
فالسر في تلك الطريقة يعرفه المعربدون.

---

(1) سورة البقرة: آية ٣٠.

ولتصبروا عدة أيام حتى أظهر صنيع يد القدرة على قبضة التراب هذه، وحتى أصقل صدأ ظلمة الخلقية عن وجه مرآة فطرته حتى تروا تلك النقوش المتعددة الألوان في هذه المرآة. وأول نقش (رسم ودور) هو أنه يجب عليكم جميعاً السجود له، ومن ثم هطلت أمطار المحبة من سحاب الكرم على تراب آدم فتحول التراب طيناً ووضع القلب في الطين بيد القدرة. شعر (ترجمته):

من طَلِّ العشق تحول تراب آدم إلى طين
فقامت في الدنيا مائة فتنة واضطراب
إن مفصد العشق وصل إلى عرق الروح
فتساقطت قطرة صار اسمها القلب[1]

وكان جميع ملائكة الملأ الأعلى، من الكروبيين والروحانيين، ينظرون لتلك الحال كالمتعجبين، لأن حضرة الجليل كان يعمل بألوهيته في طين آدم طيلة أربعين يوماً بلياليها. وحين يريد صانع الخزف أن يصنع كوزاً من الطين فإنه يصقله على جميع الأشكال ويضع فيه الأشياء، فوضع طين آدم في التخمير لقوله تعالى: "**خلق الإنسان من صلصال كالفخار**"[2]، ووضع قلباً في كل ذرة من ذلك الطين. شعر (ترجمته):

خلقوني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي قلباً
حتى يكون مفتوناً بك من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.

---

(١) هذه الرباعية لمجد الدين البغدادي: رضا قلي خان هدايت، رياض العارفين، ص٢١٩، وأيضاً لنفس المؤلف: مجمع الفصحاء، ص٥٤٢.

(٢) سورة الرحمن: آية ١١.

وكان (الجليل) يربيه بنظر العناية وكان يقـــول للملائكة حكمة ذلك: "لا تنظروا إلى الطين وانظروا إلى القلب". شعر (ترجمته):

لـــو أوجّــه نظـــري إلــــى الحجـــر
فإنه يخرج من ذلك الحجـر قلب مولـــه.

وفي بعض الروايات أنه طيلة أربعين ألف عام، ويد القدرة تجـــري فـــي جسد آدم بين مكة والطائف من كمال الحكمة، وكانت تستعمل لداخله وخارجه[١] مرايا مناسبة للصفات الإلهية حتى تكون كل واحدة منها مظهراً لصفة ما مـــن الصفات الإلهية. وكما هو معلوم فقد أُستخدمت القدرة ألف مرآة ومـــرآة لألـــف صفة وصفة. وبالنسبة لصاحب الجمال فمهما كثُرت الأدوات الذهبية والفضيـــة عنده، فليس لها اعتبار عنده كالمرآة، حتى إنه لو يظهر الخلل في الآلات الذهبية أو الفضية، فلا يصلحها صاحب الجمال بنفسه، ولكن إذا لحـــق أدنـــى غبـــار بالمرآة، فإنه في الحال يزيله عن وجهها، بكُم كرمه، برقة بالغة. وإذا كان يملك ألف حمل من الأدوات الذهبية، فإنه يضعها في منزله أو في يده أو فـــي أذنـــه، ولكنه يشيح بوجهه عن الجميع وينظر إلى المرآة. شعر (ترجمته):

---

[١] أي باطنه وظاهره.

إننا مفتونـــون بــك وأنــت مفتــون بــالمرآة
ونحن نتطلع إليك كما تتطلع أنت إلى المـــرآة[1]
فما دامت المرآة ترى جمالك وأنت ترى حسنها
فأنت عاشق لذاتك، والمرآة أكثر عشقاً لك منك
إن عشــقي لوجــهك، هكــذا دفعــة واحـــدة
أبعدني عن الخلق، واقترب بوجــهي نحــوك[2]

وفي كل مرآة كانت تستخدم في أصل الإنسان، كان يوضع فيها ـــ وهـــي التي يتجلى فيها الجمال ـــ عين ناظرة للجمال، بحيث حينما ينظر فـــي المـــرآة يرى ذاته من خلال إحدى وألف كوة (نافذة). (رباعي فارسي ترجمته):

كل لحظة يظهر لـــي فيــها جمـــالك
فإن أحوال قلبي كلها تنشرح ســروراً
فتنظر إليّ فيصير جسدي كلـــه قلبـــاً
وأنظر إليك فيصير كل قلبـــي عينـــاً.

وهنا ينعكس العشق، فإذا أراد المعشوق أن يهرب منه فإنه يتعلق بتلابيبـــه بألف يد. فكيف يكون ذلك إذا كان يهرب منه في البدء؟ وكيف ذا وهو يتعلق به اليوم؟ حقاً.. لقد كنت أهرب منه في ذلك اليوم، ولكن الآن لا يلزم الاختلاط به. شعر (ترجمته):

---

(1) أي أننا لنا اهتمام بك كما يكون لك في المرآة. (المترجم).

(2) ديوان أفضل الدين خاقاني: ص٩٩٣، والمعنى بالبيت أن العشق للمحبوب قد أبعده عن الخلـــق كمـــا قرّب العاشق من المحبوب. (المترجم).

لقد صنعت زمام لجام، ولم أكن أعــرف

إن شدة الجذب تزيد القـــوس قــوة[1].

كنت أهرب في ذلك اليوم الذي كنت فيه طيناً، واليوم أصبحت أتعلق بكـلى قلب. وإذا لم أحب في ذلك اليوم، لكنني اليوم أهيم في عشقه بألف قلب. شـــعر (ترجمته):

أنظر هذه النكتة فليس لي قلب واحد

ومع ذلك فإني أحبك بـــألف قلــب.

وهكذا، فقد ظل قالب آدم واقعاً بين مكة والطائف طيلة أربعين ألف سـنة، وكل لحظة كان يوضع في باطنه جوهر لطيف وجوهر شـــريف مـــن خزائـــن مكنون الغيب، حتى أنه دفن كل ما كان من نفائس خزائن الغيب في قـــالب آدم. وحين حلت النوبة بالقلب أخذ طين قلب آدم من ملاط الجنة، وعُجن بماء الحيـاة الأبدية، وربُى في الشمس بثلاثمائة وستين نظرة. استمع لتلك الطرفة اللطيفـــة: **من أين كان عدد ثلاثمائة وستين؟**. إنه كان من هناك حيث الأربعين ألف عـــام طالما كان ذلك الطين في التخمير. وأربعون ألف عام تصبح ثلاثمائـــة وســـتين ألف أربعين، وكل ما كان يأتي ألف أربعين، فكانت تستحق نظرة واحدة. وحيـن بلغت ثلاثمائة وستين ألف أربعين استحقت ثلاثمائـــــة وســـتين نظـــرة. شـــعر (ترجمته):

---

(1) محمد بن المنور: أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد: باهتمام ذبيح الله صفا، ص٢٠٩.

إن نظرة من الحبيب تعادل مائة ألف سعادة
وإني لمنتظر حتى يأتي موعد تلك النظرة.

وحين بلغ أمر القلب إلى الكمال، كان جوهراً في خزانة الغيب، وكان الجليل قد أخفاه عن الخزنة، وخزنه هو بذاته الإلهية، وقال إنه لا يليق بأي خزانة إلا حضرتنا أو قلب آدم. فماذا كان ذلك؟ إنه كان جوهر المحبة الذي كان قد وُضع في صدف أمانة المعرفة وعرض على الملك والملكوت، فلم يوجد شخص يستحق خزانة ذلك الجوهر وحفظه، وكانت خزانته لائقة لقلب آدم الذي تربى بشمس النظرة، كما كانت روح آدم مناسبة لتخزينه، لأنه كان قد تربى عدة آلاف سنة، من فيض نور صفات جلال وجمال الأحدية. شعر (ترجمته):

إن عشقي وحبيبي قد نزلا في تلك اللحظة
التي كان آدم قد نزل فيها بين الطائف ومكة.

والعجب في ذلك أنه كان ينزل لروح وقلب آدم آلاف كثيرة من لطف العناية الأبدية ومحبتها في **(عالمي)** الغيب والشهادة، ولم يجعلوا أي شخص من الملائكة المقربين مستحقاً لذلك المحرم **(السر)** ولم يعرف أي شخص منهم آدم. وبالتدريج كانوا يمرون على آدم، ويقولون ما هذا النقش العجيب الذي يُنقش، وما هذه الألوان المختلفة التي تأتي من تتق **(حرم)** الغيب، وكان آدم يهمس بهدوء قائلاً: إذا لم تكونوا تعرفونني، فإنني أعرفكم. فعليكم، حتى أُفضي لكم بسر هذا الحلم الجميل، وأحصي لكم أسماءكم واحداً تلو الآخر، لأن من جملة

الجواهر الدفينة في ذاتنا، أن أحدها هو علم جملة الأسماء: "**وعلم آدم الأسماء كلها**"[1].

وكلما كان الملائكة يتفرسون فيه، فلم يكونوا يعرفون ما هذه المجموعة، حتى أن إبليس اللعين ـ والذي كان يطوف حوله ـ كان ينظر إليه بعينه العوراء، فرأى فم آدم مفتوحاً، فقال: عليكم، فقد وجدت الحل لهذا الإشكال المعقد، فسأنزل في هذا المنفذ، وأنظر **ما هذا المكان**؟. وحين حل به وطاف حول خلقة آدم وجد عالماً صغيراً من كل ما كان قد رآه في العالم الكبير، فقد وجد هناك نموذجاً مثله، فوجد الرأس سبع طبقات على مثال السماء. وكما أنه وجد في السبع سموات سبعة نجوم سيارة، فقد وجد كذلك طبقات رأس القوى البشرية سبعة أيضاً مثل الحس المشترك والمتخيلة والمتوهمة والمتفكرة والذاكرة والمدبرة والحافظة. ومثلما يكون الملائكة في السماء، ففي البدن حاسة البصر وحاسة السمع وحاسة الشم وحاسة الذوق وحاسة اللمس. ووجد الجسد على مثال الأرض، فكما تكون الأشجار في الأرض والحشائش والأنهار الجارية والجبال، يكون الشعر في الجسد: بعضه طويل مثل شعر الرأس الذي على شاكلة الأشجار، وبعضه صغير مثل شعر البدن الذي على مثال الحشائش، والعروق على مثال الأنهار الجارية، والعظام على مثال الجبال. وكما كان هناك أربعة فصول في عالم الكبرى هي الربيع والخريف والصيف والشتاء، ففي آدم أربعة طباع هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، ومعبأة في أربعة أشياء هي: الصفراء والسوداء والبلغم والدم. وكما أن في عالم الكبرى أربعة رياح هي: ريح الربيع وريح الصيف وريح الخريف وريح الشتاء، فهكذا في الإنسان

---

[1] سورة البقرة: آية ٣١.

ـ الذي هو عالم الصغرى ـ أربعة قوى: أحدها الجاذبية التي تجذب الطعام وتعطيه الهاضمة حتى تهضمه وتوصله للماسكة حتى تمتص فوائده ثم تعطيه للدافعة حتى تدفعه للخارج. وإذا لم يوجد أحد تلك الرياح الأربعة، فلن يكون قوام العالم في عالم الكبرى. وفي عالم الصغرى إذا لم يكن أحد تلك القوى، فلن يستقيم قوام القالب.

وفي عالم الكبرى أربعة أنواع من الماء: المالح والمر والنتن والحلو، وفي آدم خُلق أيضاً أربعة مياه، وكل واحد منها وُضع في موضعه لحكمة، فوضع الماء المالح في العين لأن العين بها قطعة شحم ويمكن بقاء الشحم مع الملح، ووضع الماء المر في الأذن حتى لا تدخل فيها الحشرات، ووضع الماء النتن في الأنف حتى أن ما يتولد من الدماغ يخرج من الأنف، ووضع الماء الحلو في الفم حتى يتطيب الفم ويحرك اللسان بالكلام ويكون مرشداً للطعام حتى ينزل إلى الحلق. وفي كل واحدة حِكَمٌ كثيرة، لو تحصى فإنها تطول، وهناك أيضاً نماذج أخرى من عالم الكبرى في عالم الصغرى يطول شرحها وبيانها.

ونعود إلى أصل الكلام: فحين طاف إبليس حول قالب آدم، عرف ما هو الأثر لكل شيء رآه منه (القالب)؟، ولكنه حين وصل إلى القلب، وجد القلب كمثال قصر جُعل في مقدمته ميدان من الصدر مثل سراي (قصر) الملوك، وكل من سعى أن يجد طريقاً حتى يدخل القلب، فلم يجد أي طريق. ولهذا السبب، فليس لإبليس سبيل إلى القلب. ولذا قال إبليس لنفسه أن كل ما رأيته كان سهلاً، والأمر الصعب هنا أنه إذا كان من الممكن أن يأتي لنا ضرر من هذا الشخص، فمن الممكن أن يكون من هذا الموضع (القلب)؛ ولو يكون للحق تعالى سرٌّ وشأن مع هذا القالب، أو يضع فيه شيء، فمن الممكن أن يكون في هذا المقام، وخرج إبليس من باب القلب بمائة ألف فكرة يائسة.

وحين لم يُسمح لإبليس بالدخول إلى قلب آدم ولطمته يد الرفض، صار مردود كل العالم. ومن هنا قال مشايخ الطريقة: "إذا رُد شخص من قلب واحد صار مردوداً من جميع القلوب"، ولكن يلزم أن يكون ذلك القلب قلباً لأن معظم الخلق لا يعرفون النفس من القلب. شعر (ترجمة):

ذلك هو القلب الذي في الأوقات الحرجة

لا تجد فيه شيئاً قط سوى الحق.

وحين خرج إبليس خائباً وخاسراً قال للملائكة: لا خوف مطلقاً، فهذا شخص أجوف، وهو في حاجة إلى الغذاء، وصاحب شهوة مثل الحيوانات الأخرى، ويمكن السيطرة عليه بسرعة، ولكني وجدت، في مائة مكان من الصدر، قصراً دون باب وسقف ولم يكن فيه أي طريق[1]، **فلم أعرف حتى ما هو ذلك؟** فقال للملائكة إنه ما زال الإشكال باقياً، ولم نعرف أصل ذلك وحقيقته، فرجعوا إلى حضرة العزة، وقالوا يا إلهنا فلتحل لنا هذه المشكلات وتكسر لنا القيود وتمنحنا العلم، فما أكثر المرات التي تبدع فيها صنع القدرة في قبضة التراب هذه بألوهيتك، وخلقت عالماً آخر من قبضة التراب هذه، ووضعت فيه[2] الخزائن الكثيرة، ولم تطلعنا على أية صورة، ولم تعرّف شخصاً منا سر هذه الواقعة، فقل لنا مرة **ماذا سيكون هذا؟**، فنزل خطاب العزة بقوله تعالى: "**إني جاعل في الأرض خليفة**"[3]،ولكن لم أكمل خلقه حتى الآن، وإن ما ترونه هو

---

(١) أي أنه لم يجد له أي سبيل في هذا الصدر للدخول منه أو الولوج فيه. (المترجم).

(٢) أي في عالم قبضة التراب التي خلق منها الإنسان بواسطة الحق. (المترجم).

(٣) سورة البقرة: آية ٣٠.

بيته ومنزله وعرشه. وحين أكمل هذا كله، وأجلسه على تخت الخلافة فلتسجدوا له جميعاً لقوله تعالى: "فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين"[١]. فقالوا: لقد زاد الأشكال: يأمرنا (الله) بالسجود له (آدم) ويدعوه خليفته، وإننا لم نعرف مطلقاً أي شخص يستحق السجود سواه (الله)، وكنا نعرف أنه سبحانه وتعالى بلا صديق ولا شريك ولا نظير ولا شبيه ولا امرأة ولا ولد، ولم نعرف شخصاً يستحق نيابته وخلافته، ولكننا سنعود مرة أخرى ونطوف حول هذه الكعبة، وننظر أحوال هذا المنزل الطيب. فرجعوا وطافوا حول قالب آدم وأخذ كل منهم ينظر فيه، وقالوا لا نرى هنا سوى الماء والطين ولا يظهر منه جمال الخلافة الذي يستحق سجودنا له، فكانت تنزل، إلى أرواحهم، البشرى من الغيب.
شعر:

لا يمكن أن يرى المعشوق بعين الآخرين
ويجب أن يري أحبائي بعيني أنا.

وقالوا إنه لا يمكن التأكد وزيادة المعرفة بواسطة هذا الشخص إلا إذا كان له هذا الاستحقاق عن طريق الصفات، فلندقق النظر في صفته جيداً. وحين نظروا إليه جيداً، رأوا قالب آدم مكوناً من أربعة عناصر هي التراب والماء والهواء والنار؛ فنظروا في صفاته فوجدوا للتراب صفة السكينة ووجدوا للهواء صفة الحركة ووجدوا التراب ضد الرياح، ورأوا أن الماء سُفلي، كما وجدوا النار علوية وكل منهما ضد الآخر. ثم نظروا مرة أخرى فوجدوا أن للتراب طبع اليبوسة، ووجدوا الرطوبة للهواء، ووجدوا البرودة للماء، ووجدوا الحرارة للنار، وكلها جميعاً متضادة مع بعضها. فقالوا كلما اجتمع ضدان في

---

(١) سورة ص: آية ٧٢.

مكان لن يظهر منهما إلا الفساد والظلم لقوله تعالى: "**لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا**"(١). وإذا كان عالم الكبرى يحل فيه الفساد بالتضاد، فعالم الصغرى أولى بهذا. ثم رجعوا إلى حضرة العزة، وقالوا: "**أتجعل فيها من يفسد فيها ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك**"(٢). وإذا كنا نحن الطاهرين والمسبحين لك، فنحن أحق بالخلافة وأولى بها منه. ويُروى أنهم ما أكملوا هذا الكلام حتى نزلت النار من سرادقات الجلال والعظمة وأحرقت خلقاً منهم. شعر (ترجمته):

إن المصباح الذي يشعله الحق
كل من يريد أن يطفئه فإنه يحرق لحيته(٣)

•••••

كل ما رأيته منا فهو ظلنا
فاخرج من الكونين لأنه رأسمالنا
أنت بدوننا ونحن لب أمورنا
فنحن مرشدون للآخرين وهو مرشد لنا(٤).

وأول ملامة في الدنيا كانت لآدم، ولو تريد الحقيقة ، فإن أول ملامة كانت لحضرة الجليل لأنهم (**الملائكة**) اعترضوا في البدء على الحضرة لقوله تعالى: "**أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء**"(٥)، وعندئذ قالوا إنها لإشارة عجيبة إذ أُقيم صرح العشق على الملامة. شعر (ترجمته):

---

(١) سورة الأنبياء: آية ٢٢.
(٢) سورة البقرة: آية ٣٠.
(٣) محمد بن المنور: أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد: باهتمام ذبيح الله صفا: ص١١٢.
(٤) هذا الشعر للشيخ نجم الدين الرازي (داية) مؤلف الكتاب.
(٥) سورة البقرة: آية ٣٠.

أفضل العشق هو ذلك القائم على الملامة
وهو ذلك الزهد المقترن بالسلامة
وليس العشق الذي يكون حتى يوم القيامة
فيكون غُرماً على العاشق والمعشوق.

وكانت روح آدم تتحدث بلسانِ الحال للحضرة قائلة: إننا قد نظمنا حمل الأمانة في رسن الملامة الذي يثقب درَ الروح، وبعنا السلامة وابتعنا الملامة، ولا خشية لدينا من مثل هذه النسب، ولا ضرر من كل ما يقال. شعر (ترجمته):

تمهل حتى يمزقوا كل ردائي الطاهر
من أجلك أيها الحبيب العيار الماهر
فلتكن وحدياً في العشق، فأي خوف من الخلق
وليكن لك معشوقك، وعلى العالم التراب[1].

ولم يكن هذا التشريف كافياً لآدم لأن الحضرة الإلهية خلقت السموات والأرض وكل ما فيها في ستة أيام بلياليها (لقوله تعالى): "خلق السموات والأرض في ستة أيام"[2]، ولم يكرمها بتشريف: "بيدي"، مع أنها كانت عالم الكبرى. وهنا خلق آدم، الذي كان عالم الصغرى، في أربعين يوماً، وكرمه

---

(١) أحمد الغزالي: السوانح في العشق: ص٧، وهذه الرباعية تذكرنا بقول رابعة العدوية حين تناجي ربها:

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذي فوق التراب تراب (المترجم)

(٢) سورة الحديد: آية ٤.

بتشريف خلعه "بيدي"، حتى يعرف الجهلاء أن لآدم اختصاصاً في حضرة العزة ليس لغيره من الموجودات قط. وشيء آخر هو أنه وضع في خلقة آدم سراً في تخصيص "بيدي" لأن الموجودات كانت تابعة لذلك السر في الخلق، وهذا، لا زال في حد ذاته، تشريف لقالب آدم الذي هو عالم الصغرى بالنسبة لعالم الكبرى.

وهنا اختصاص آخر هو روحه مع الحضرة لقوله تعالى: **"ونفخت فيه من روحي"**[1]، فمع أن الدنيا وما فيها كانت في عالم الصغرى، فانظر إليها بالمقارنة مع عالم الروح الأبدي: فما أكثر التشريفات التي حصلت عليها. وحين يجتمع الاثنان ــ أي الروح والقالب ــ ويبلغان الكمال بالتربية، **فمن الذي يدرك ما هي السعادة والحظ التي تنثر على مفرقهما؟** كما في الحديث القدسي: **"أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر"**.

شعر (ترجمته):

إنك قد خلقت من كلا العالمين
وقد تربيت بوساطات كثيرة
اعتبر الفطرة الأولى هي الفطرة الآخرة
أنت كما تكون، فلا تقامر بنفسك[2].

وصلى الله على سيدنا محمد، وآله أجمعين.

---

(1) سورة ص: آية ٧٢. وسورة الحجر: آية ٢٩.

(2) هذا الشعر من شاهنامة الفردوسي: طبع بروخيم: ص٤.

الفصل الخامس

في بدء تعلق الروح بقالب الإنسان دون شبهة الحلول والاتحاد

الفصل الخامس

في بدء تعلق الروح بقالب الإنسان

دون شبهة الحلول والاتحاد

قال الله تعالى: "فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين"(١).

وروى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليم وسلم: "**إن خلق أحدكم يُجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكاً بأربع كلمات: اكتب رزقه وعمله وأجله وشقياً أم سعيداً، فليكتب ما أُمر به ثم ينفخ فيه الروح**".

اعلم أنه حين وصلت تسوية القالب إلى الكمال، فإن الله تعالى لم يكن يسمح لأي شخص بالتصرف في تخمير طينة آدم ومعرفة سرها وباشر ذلك بألوهيته. وحين تعلقت الروح بالقالب لم يعط السر أيضاً لأي شخص وقام بنفخ الروح بألوهيته. وهنا إشارة لطيفة وبشارة شريفة: هي أنه كان يرسل الروح، في حماية مرشد، بنفخة خاصة، أي أنه كان يرسلها من أعلى مراتب عالم الأرواح إلى أسفل دركات عالم الأجسام، والمسافة بعيدة والأصدقاء والأعداء كثيرون، ويجب ألا تنشغل بالصديق والعدو في هذه المنازل والمراحل وتنساني، فتحرم من الأنس الذي وجدته في الحضرة لأن قطاع الطرق كثيرون في هذا السبيل. شعر (ترجمته):

---

(١) سورة الحجر: آية ٢٩ ، وسورة ص: آية ٧٢.

من الأعداء الحاسدين ومن الأصدقاء الغيورين
ما أكثرهم في طريقك يا من يحسده القمر وتفتن به الحور العين.

وحين يكون فيه أثر نفختنا فلن يترك هكذا حتى يذهب ذوق أُنسنا عن مراد روحه كلية ويرتبط تماماً في أي مقام بالصديق والعدو. وأمر آخر هو أنني سأُعرج الروح بثلاثمائة وستين ألف عالم روحاني وجسماني وملكي وملكوتي. وفي كل عالم أنزلناها فيه وضعنا الكنز من أجلها حتى ذلك اليوم الذي نرسلها إلى أسفل عالم الأجسام للخلافة، فإننا نُمضي ونُسيِّر معها (الكثير) من هذه النزل والكنوز. وإننا لم نطلع شخصاً على تلك الخزائن والدفائن (لقولنا): **"ما أشهدتهم خلق السموات والأرض"**[1]**، وإني أعرف جميع ما وضعتُ أي ماذا وضعت؟ وأين وضعت؟ وكيف وضعت؟ وإني أعرف متى ينبغي أن ينال كل شخص منها؟**

وفي جميع المقامات فإني دليل الروح ومرشدها حتى أظهرها له جميعاً، وأعطيه من الخزائن والدفائن ما سيستخدمه في ذلك العالم، وأمنحه ما يحتاجه في كل مقام حين العودة مرة أخرى، ووضعت الطلسمات في هذا الطريق من أجل نظر الأغيار حتى أرشد إليها كل مُدّعٍ للهذر الذي لا يستطيع أن يصل إلى هذه الحضرة وأعرّفه فتح مغاليقها حتى يسهل عليه الطريق حين العودة وأهديه إلى مصالح ومفاسد الطريق.

---

(١) سورة الكهف: آية ٥١.

وأيضاً فإني حين كنت أرسل الروح للخلافة، وأمنح الولاية بقيت مدة حتى أعلنت على وجه البسيطة قولي: "**إني جاعل في الأرض خليفة**"(١)، وظلّ جملة الأصدقاء والأعداء والأحبة والغرباء منتظرين قدومه، إذ يجب إرساله معززاً مكرماً على الوجه الأكمل. وأمرت المقربين لحضرة الألوهية أنه حين يجلس على عرش الخلافة، فيسجدوا جميعاً أمام عرشه، إذ يجب أن يروا أثر إعزازنا وإكرامنا عليه حتى يأخذوا الأمر في الحسبان.

ومن ثم فإنه كان قد أنزل الروح الطاهرة بعد ذلك بعدة آلاف سنة في خلوة منزل حظيرة قدس الأربعينات، وكانت منظور نظر العناية في مقام "لا واسطة، وتلقت آداب الخلافة وأخلاقها وقوانين النيابة ورسومها من ربه ومنوبه لأنه ما لم يتعلم نائب الملك وخليفته طيلة عمره التربية ورسوم المُلك في حضرة الملك، فلن يجد أهلية النيابة والخلافة، ثم أركبوه على مركب خاص بقوله تعالى: "**ونفخت فيه**"(٢). شعر (ترجمته):

سار العقل أيضاً في ركابه
وزحف العشق إلى أحضانه
فمنزل القمر فلكه الذهبي اللون
والليل طرة شعر ضفيرته السوداء(٣).

---

(١) سورة البقرة: آية ٣٠.

(٢) سورة الحجر: آية ٢٩ ، وسورة ص: آية ٧٢.

(٣) هذا الشعر من ديوان جمال الدين الأصفهاني: تصحيح وحيد دستگردي: ص٢.

ثم عرج به على جميع الممالك الروحانية والجسمانية بخلقة. إضافة ياء: "من روحي"، وفي كل منزل ومرحلة صدّروا في موكبه ذلك الذي كان زبده الدفائن وخلاصتها وذخائر ذلك المقام، وأجلسوه للخلافة على عرش قالب البدن في الممالك الإنسانية.

وفي الحال سجد جميع الملأ الأعلى من الكرّوبي والروحاني أمام عرشه (لقوله تعالى): "فسجد الملائكة كلهم أجمعون"[1]، فمثلاً ولوا جبريل حجابة الباب، ولميكائيل الخزانة، ونصّبوا لكل فرد من جملة الملك عملاً على هذا الباب. وأرادوا أن يمهدوا لقاعدة العقاب ويشنقوا شخصاً ويرجموه باللعنة حتى لا يتحدث شخص آخر في الملك والملكوت بحديث الخلافة ومخالفة هذه الخلافة.

وحين دخل ذلك المغرور اللعين بفضوله إلى قالب آدم، دون إذن، كاللص، ونظر بعين الحقارة إلى ممالك خلافته، وأراد أن ينخر في خزانة قلب آدم، فلم يستطع فقبض عليه بتهمة السرقة وربط في رسن الشقاوة. وعندما جاء وقت السجود، سجد جملة الملائكة ولم يستطع هو ذلك لأنه قُيِّد برسن الشقاوة في ذلك اليوم، إذ أنه قد دخل خزانة الغيب بلا إذن.

ويرد في رواية أنه حين يأتي الخلائق على العرصات يوم القيامة يتجلى نور من أنوار الله تبارك وتعالى، فيريد جميع الخلائق، أن يسجدوا، فيسجد كل شخص قد سجد للحق في الدنيا. أما أولئك الذين لم يفعلوا ذلك واتبعوا سجود الهوى والحسان، فلن يستطيعوا عمل ذلك، لأن رؤوسهم قد تعلقت برسن شقاوة ذلك اليوم حيث لم يتبعوا سجود الحق. ولكن لا يمكن رؤية ذلك الرسن اليوم

---

(١) سورة ص: آية ٧٣ ، وسورة الحجر: آية ٣٠.

بالعين المجردة، بل يراه كل من تفتحت له عين الباطن. ولا جرم أن كل من يتقيد به فيقطعه بمقراض التوبة والاستغفار، وإذا لم يقطعه اليوم، فسيؤتى به غداً إلى عرصات القيامة هكذا مقيداً بالسلاسل والأغلال، وهناك يظهر قوله تعالى: "**إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل**"(1).

ومن ثم، ففي ذلك اليوم علقت رأس إبليس اللعين، لأنه تجاسر من دون الملائكة أجمعين ودخل خزانة الغيب دون إذن وخالف أمر: "**لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم**"(2). ولا جرم أن علقت رأسه في رسن القهر، حيث أنه أبى السجود لآدم (لقوله تعالى): "**فسجد الملائكة كلهم أجمعون، إلا إبليس أبى**"(3).

وهكذا يعتقد الخلق أن "**الإباء والاستكبار**"، كان وقت السجود. بلى إن هيأته كانت بمثابة الثمرة وقت السجود، ولكن حقيقة الإباء والاستكبار، التي هي بمثابة البذرة، نزلت في ذلك اليوم إلى أرض شقاء إبليس لأنه رفض مراعاة الأدب، ودخل إلى خزانة الغيب دون إذن. وحين خرج استكبر وقال: خلق مجوف لا يتمالك، ونظر إلى نفسه بعين العظمة، وإلى خليفة الحق ـ تلك البذرة التي تربت طيلة الزمن ـ بعين الحقارة، فظهرت ثمرة ذلك الإباء والاستكبار، فلا جرم أن قيد بحبل الشقاوة في دار اللعنة، لقوله تعالى: "**وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين**"(4)، وأنزلوا به العقاب في هذه الدار حتى قيام الساعة، ولكنه لن يخرج من هذه الدار إلى أبد الآبدين، حتى لا يتجرأ شخص بعد هذا أن يخطو إلى خليفة

---

(1) سورة غافر: آية 71.
(2) سورة الأحزاب: آية 53.
(3) سورة الحجر: آية 30 31.
(4) سورة ص: آية 78.

دون احترام. وكل من يتبع إبليس في هذه المملكة فإنه يُحمل معه في سلك واحد ويرسل إلى جهنم لقوله تعالى: "لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين"(١).

وقيل إنه حين نزلت الروح في القالب، طافت في الحال حول جملة ممالك البدن، فوجدت منزلاً مظلماً جداً وموحشاً، ومبنياً على أربعة أصول متضادة فعرفت أنه ليس له بقاء، ووجدت منزلاً ضيقاً ومعتماً به الآلاف الكثيرة من الحشرات والمؤذيات من العقارب والحيات والثعابين، وأنواع السباع من الأسد والفهد والنمر والدب والضفدع، ومن أنواع الدواب كالحمار والثور والجواد والبغل والبعير، وكل الحيوانات التي أخذت كل منها تتكاتف مع بعضها وتحرشت على الروح وأخذت تهجم عليها. وكان كل منها يلدغها من ناحية ويؤذيها من ناحية أخرى.

وبدأت النفس الغريبة، كلبية الصفة، في العداوة ووقعت فيها كأنها الذئب. ولكن الروح الطاهرة التي تربت آلاف السنين بمائة ألف دلال بجوار قوب رب العالمين استوحشت جداً من تلك الوحوش، وعرفت قدر أنس حضرة العزة الذي لم تعرفه حتى هذا الوقت، وعرفت نعمة الوصال التي كانت غارقة فيها دائماً، ولم تكن تعرف ذوقها، ولم تدرك حقها، فاضطرمت نار الفراق في الروح، وتأجج دخان الهجر في رأسها وقال: شعر (ترجمته):

بالأمس كنا مع الخمر والحياة الرغدة ووجه الحبيب
واليوم في الغم والغربة وفراق الحبيب
أيتها الأيام الدائرة! إن الاثنين لديكِ سواء
وإني أضع الروح اليوم على رأسي، فأعيدي الأمس(٢).

---

(١) سورة ص: آية ٨٥.

(٢) أنوري الخاوراني: الديوان: تحقيق سعيد نفيسي: ص٦٠٨.

وفي الحال سكنت من تلك الوحشة وأرادت أن تعود ثانية إلى ذلك المقام. شعر (ترجمه):

لقد صدق عزمي في أن أرحل عن هذا المكـــــان
وأي شيء كان المجيء نفسه، حطم الله قدمـــي؟.

وحين أرادت أن تعود طلبت مركب النفحة حتى تصعد عليها لأنها لم تأت مترجلة، وقد أتت راكبة، فلم تجد المركب، فتحطم قلبها الطيب، فقيل لها نحــــن نريد منك هذا القلب المحطم. فاستولى عليها القبض، وتنهدت تنهيدة باردة، فقيل إننا قد أرسلناك من أجل هذه التنهيدة الباردة، فصعد بخار تلك التنهيدة إلى سقف دماغها، فنزلت العطسة في الحال على آدم، وظهرت فيه الحركة، وفتح عينيـــه، فرأى فضاء عالم الصورة، وشاهد ضياء الشمس، فقـــال: "**الحمـــد لله**"، فـــنزل خطاب العزة بقوله: "**يرحمك ربك**"، فوصل ذوق ذلك الخطــــاب إلـــى روحــــه، فظهرت فيه سكونة قليلة، ولكن كانت (**الروح**) تفكر كل وقت في ذوق القـــرب وأنس الحق، وكانت تتذكر سعة فضاء عالم الأرواح والأرزاق التي وجدتها دون واسطة، فأرادت أن تحطم قفص القالب وتمزق لباس الماء والطين (**الجسد**) الذي عليها. شعر (ترجمته):

ذلك البلبل الحبيس الـــذي اســـمه الـــروح
لن تصـــل يـــده إلـــى تحطيـــم القفـــص.

ومثلما يلهو الأطفال بالأشياء الملونـــــة أو بـــأصوات الجلاجـــل والنُقـــل والفاكهة، فكان آدم مشغولاً بتعليم الملائكة وسجودهم والرقي إلــــى الســـموات

والطواف حولها والصعود على المنبر، وبغيرها من هذه القصص المعروفة، حتى يمكن أن يسكن قدراً من غائلة نار اشتياقه لجمال الحضرة، ويتآنس بشيء آخر وتزول عنه تلك الوحشة، وقد كان يقول بلسان الحال: شعر (ترجمته):

أيها الحبيب لن يتحول مطلقاً بإرادتي
حُبك عن القلب، وخيالك عن عيني
ولو تدرك مني مقدار شعيرة واحدة بعد موتي
فإن حبك متمكن من عظامي النخرة.

ونزل الخطاب أن يا آدم ادخل الجنة واهنأ بالاً، ولتأكل وتنام كما تريد، وتآنس مع من تريد: "**يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة**"[1]، وكان يقول كل ما قيل. شعر (ترجمته):

حاشا أن يعرف قلبي أنه انفصل عنك
أو يعلم أنه عرف شخصاً آخر غيرك
ولو ينفصل عن حُبك، فلمن يُكنُّ الحب؟
ولو يترك محلتك، فأين يعرف غيرها؟.

وحين لم تسكن وحشة آدم، ولم يأنس إلى أي شخص، خلق له حواء من نفسه ووضعها بجانبه ليتآنس مع جنسه (لقوله تعالى): "**وجعل منها زوجها**

(١) سورة البقرة: آية ٣٥ ، وسورة الأعراف: آية ١٩.

ليسكن إليها"(١)، فلما نظر آدم جمال حواء شاهد نور جمال الحـق. وبمشـاهدة حواء تجلي القول: "كل جميل من جمال الله"، فأدرك ذوق ذلك الجمـال: شـعر رباعي (ترجمته):

أيها الورد!: إنك تشبه وجـه سـالبة القلـب
أيها الشراب: إنك في مرارة الفراق عن الحبيب
أيها الحظ القاسي: إن أمرك معي كـل لحظـة
كمن هو أكثر غربة لكنك تشبه وجه الحبيـب.

وهناك انشغل المحبوب برائحة ذلك الحديث كما أدرك ذوق تلك المعاملة، فغلبت عليه صفة الشهوة لأنها أكمل صفة حيوانية، ومنها يظهر أعظم حجـاب، وغلبت عليه صفات حيوانية أخرى في شهوة الأكل وشهوة النوم فكثرت الحجب وقلّ أنس الحضرة، لأنه بقدر ما تتذوق النفس الآدمية من اللـذات والشـهوات الحيوانية فإنها تتآنس معها. وبنفس القدر يقل أُنس الحق من القلب، وهذا معنـى الابتلاء الكبير. ونفر قليل من يتخلص منه عدا الشخص الذي ينتقل من الآدميـة إلى العدم.

وحين ظهر لآدم كثير من الأنس بالجنة ولذّاتها عندما نزل عليه ابتـلاء الشجرة (لقوله تعالى): "**ولا تقربا هذه الشجرة**"(٢)،استطاع إبليس أن يُغريه بمُلك الجنة لقوله تعالى: "**هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى**"، حتى أنه فضـل خلود الجنة وملكها على رضاء الحق، وترك أمر الرحمن متبعاً قول الشـيطان

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٨٩.

(٢) سورة الأعراف: آية ١٩ ، وسورة البقرة: آية ٣٥.

الشديد الحرص. وفي الحال ظهرت غيرة الحق بالقول: يا آدم ما خلقتك للمتع النفسانية والمراتع الحيوانية (لقوله تعالى): "أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون"(١)، والخوف أني تركتك في هذه الجنة نصف يوم وأسبلت عليك حجب اللذة، فنسيتني هكذا، وشُغلت بغيري وتآنست معه ووليت بدون أمر، وأكلت من الشجرة، ولو نتركك يوماً كاملاً فإنك تنسانا مرة واحدة، وتبدل الوحدة بالغربة ولن تذكرنا. شعر رباعي (ترجمته):

إن الحبيب الذي يكون دائماً على وفاء لنا
فعمله دائماً هو البحث عن رضانا
وهكذا صار غريباً من لا يعرف حبيباً
والذي كان طيلة عمره عارفاً لنا.

يا آدم اخرج من الجنة ويا حواء ابتعدي عنه: "اهبطوا منها جميعاً"(٢). ويا أيها التاج انزل على رأس آدم، وابتعدي أيتها الحلة عن جسد حواء، ويا حور الجنة اضربن لآدم على الدف ذي الوجهين لقوله تعالى: "وعصى آدم ربه فغوى"(٣).

ما هذا؟ إننا نضرب حجر الملامة على قارورة السلامة، ونصب زيت غرور آدم على أرض مذلة العبودية ونختبر سيف همته على الحجر. شعر غزلي (ترجمته):

---

(١) سورة المؤمنون: آية ١١٥.
(٢) سورة البقرة: آية ٣٨.
(٣) سورة طه: آية ١٢١.

هــذه محلــة الملامــة وميــدان الــــهلاك
هذا طريق المقامرين المخاطرين الطــاهرين
ينبغــي رجــل قلنــدري ممــزق الثيــاب
حتــى يمــر كالعيــار الذكــي الجلــــد[1].

وهكذا أُنزل آدم إلى سراي الدنيا بهذه الوحشة، وعزل عــن المحبــوب. شعر (ترجمته):

لا شـــريك ولا أنيـــس ولا صديـــق
فيا له من ألم مشكل وحزن عجيب وأمر جلل!.

وحين سار مولهاً عدة أيام على هذا المنوال، ولم يجد معيناً، عــاد إلــى المكتب الأول، فنسخ له معلم الغيب صفحة أبجدية العشق. شعر (ترجمته):

كتبــت لوحــة العشـــق مــرة ثانيــة
فــاكتب أيــها الحبيــب لوحــة الضراعــة
حتــى نقــرأ علــى أســتاذ العشــق
بضعة أيام، الدلال والضراعة مرات كثيرة[2].

(١) أحمد الغزالي: السوانح في العشق: ص٧.

(٢) أنوري الخاوراني: الديوان: تحقيق سعيد نفيسي: ص٥٣٨.

فقيل: يا آدم إنك ألقيت كليم الإدبار مرة ثانية وبدأت بقوله تعالى: "ربنا ظلمنا"[1]. شعر (ترجمته):

أقبل إليّ حين تقنط من الجميع
فإني أنا المحبوب في يوم محنتك.

فقال: يا إلهي إنه يلزمني هذا التوله حتى أعرف قدر ألطافك وأعرف حق ألوهيتك، وأنا استحق هذه المذلة وهذا الضعف حتى أدرك مرتبة إعزازك وإكرامك وأعرف ما هي الأفضال التي ولاها لطفك وألوهيتك لقبضة التراب هذه، ونقلها من أي درك إلى أية درجة، ووهبها تشريف: "**خلقتك فرد الفرد**"، ووصلها بالغيرة فقطعها عن الأغيار مصداقاً للحديث: "**كن لي أكن لك**"، ولكن عدت اليوم كالعاجز إلى باب كرمك. ومع أن لسان عذري أبكم فإني أقول: شعر ترجمته:

لو أني صبرت بدونك يوماً أو اثنين أو ثلاثة
فإني قدمت مائة عذر لطيف جذاب
أيها الحبيب: إني قد طأطأت رأسي بسبب عشقك
فأدركني، فقد وضعت القدم في الركاب.

وفي رواية أنه قد ترك آدم في هذا التضرع والعجز مدة أربعمائة سنة مولها دامي العين ومضطرب القلب؛ وكانت العزة والربوبية ــ بكبريائها وعظمتها ــ تقول لروح آدم البائسة وقلبه المحزون: إني خلقتك من قبضة

---

(١) سورة الأعراف: آية ٢٣.

التراب الذليلة، وفضلتك بالعزة على الملائكة المقربين، وأسجدتهم جميعاً لـــك، وأنزلت حضرة الكبرياء في معـرض اعـتراض: "**أتجعـل فيـها**"، وعـاديت عزازيل[1] بسبب حبك ولعنته أمام عرش خلافتك. وبسبب ترك سجدة واحدة لك، فقد جعلت سجداته سبعمائة ألف سنة: "**هباءاً منثورا**"، وأبعدته من جوار رحمتـي بضربة: "**فاخرج منها**"، وأنت لم تعرف شكر هذه النعم، ولم تعطني حقي، ولـم تعرف قدري، وتصادق العدو وتعادي الصديق، وتجعلني أنا وأنت مضغة لأفواه الحبيب والعدو. ولا جرم حين تتسلط سطوة قهرنا بناء على قضية: "**ولئن كفرتم إن عذابي لشديد**"، فيجب أولاً أن تتذرع بالصبر عند الصدمة، ولا تقنط مصداقاً للقول: "**الصبر عند الصدمة أولى**". شعر (ترجمته):

ذلك اليوم الذي يكون فيه الزمان مُعذباً لـك
هو اليوم الـذي ينبغـي أن تصـبر فيـه
وليكـن الشـر كـالخير فـي حسـبانك
لا أن تضع قدمك فـي الركـاب دائمـاً[2].

وترك آدم لحظة الندم، ورفع علم العجز ثانية، وكان يكتب صورة الأعذار على صفحة صحيفة التقصير. وبقلب محترق وعين باكية كان لسـان روحـه يقول: "**نحن جميعاً فانون، والباقي هو أنت**". كلنا عاجزون وأنت المغيث، ونحن جميعاً بلا حبيب، وأنت حبيب كل شخص. إنك تُعز من رفعته، فلا تـذل مـن خلقته، ولا تذل عزيزك ولا تحزن حبيبك، وامنحنا حيـن منعـت، ولا تدعنـا لأنفسنا، واعذرنا على هذا التقصير لأن هذه البذرة أنت صانعها، وهذا الطيـن أنت خالقه. شعر (ترجمته):

---

(١) عزازيل: هو اسم الشيطان.

(٢) وضع القدم في الركاب: كناية عن الهلع والفرار. (المترجم).

لو كان حِملاً من الشوك فهو من زراعتك
وإن كان حريراً، فإنه من نسجك.

وحين زاد تضرع آدم عن الحد ووصل الكلام إلى قمة هذا الحد، فبزغت من هذا المطلع شمس إقبال (قوله تعالى): **"فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه"**[1]، وتنفس الليل الديجوري لإدبار الفراق عن الصبح الصادق للوصال، ونزل الخطاب من ألطاف الربوبية إلى عبودية آدم. شعر (ترجمته):

عُد فأنت أكثر (قدراً) مما كُنتَ
وإذا لم تكن موجوداً حتى الآن فأنت الآن موجود
فانظر الآن، فإنك في وقت صراع الروح والدنيا
فكيف تكون إذن عند المصالحة؟.

وقال: **"مضى ما مضى واستؤنف الود بيننا"**، بدلاً من (قوله تعالى): **"وعصى آدم ربه فغوى"**[2]، نزل إلى العالم قوله تعالى: **"إن الله اصطفى آدم"**[3]، وحل في الملك والملكوت ضجة قوله تعالى: **"ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى"**[4]. شعر (ترجمته):

(١) سورة البقرة: آية ٣٧٠.
(٢) سورة طه: آية ١٢١.
(٣) سورة آل عمران: آية ٣٣.
(٤) سورة طه: آية ١٢٢.

بلغ المعشوق مراده، جعله الله هكذا ما دام موجـودا
وصار كفره كله إيماناً، وليكن هكذا ما دام حيـــا[1].

ماذا كانت هذه التصرفات المختلفة؟. كُنا نربي آدم في الخلافة، وكنا نبلـغ نقطة محبته في هذا الابتلاء إلى الكمال: "**إن البلاء موكـــل بالأنبيـــاء فـــالأمثل فالأمثل**".

وصلى الله على سيدنا محمد، وآله أجمعين.

(١) سنائي الغزنوى: ديوان السنائي: ص٦١٢.

الباب الثالث

في المعـــاش

ويشتمل على عشرين فصلاً، تبركًا بقوله تعالى:

"إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين"[1].

(1) سورة الأنفال: آية ٦٥.

الفصل الأول

في بيان حجب الروح الإنسانية
عن التعلق بالقالب
وآفات ذلك

الفصل الأول

في بيان حجب الروح الإنسانية عن التعلق بالقالب وآفات ذلك

قال الله تعالى: "والعصر، إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات"(١).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: **"إن لله سبعين ألف حجاب من نور وظلمة لو كشفها لاحترقت سبحات وجهه وما انتهى إليه بصره".**

اعلم أنه حين كانت تنزل روح الإنسان من قرب رب العالمين وجواره إلى عالم القالب وظلمة طبقة العناصر ووحشة الدار الدنيا، فإنها عبرت على جميع عوالم اللاهوت والجبروت والملكوت والملك، واصطحبت معها ما كان زبدة تلك العوالم وخلاصتها، وارتبط بها كل ما كان نفعاً أو ضرراً وما كان مرتبطاً ومتعلقاً بها لجذب المنافع ودفعِ المضرات، حيث أن روح الإنسان مجبولة عليها لأنها تجذب المنافع وتدفع المضرات. وبعد عبورها على الآلاف العديدة للعوالم الروحانية والجسمانية المختلفة ــ حتى تعلقت بالقالب ــ كان قد ظهر سبعون ألف حجاب نوراني وظلماني، لأن نظرها كان مطلوباً إلى كل شيء في العوالم بالرغم من أنها ثاني الحال وسبب الكمال، وفي الحال صار كل منها حجاباً حتى أنها حُرمت ــ بسبب تلك الحجب ــ من رؤية جميع عوالم

---

(١) سورة العصر: آيات ١-٣.

الملكوت ومشاهدة جمال الأحدية وذوق مخاطبة الحق وشرف القرب، ونزلت من أعلى عليين القرب إلى أسفل سافلين الطبيعة. شعر:

لقد كنت مستريحًا، لكن الفلك لم يعجبه ذلك
ولم يترك الزمان ارتياحي معك

فبتنا على رغم الحسود وبيننا حديث كطيب المسك شيب به الخمر
فلما أضاء الصبح فرق بيننا وأي نعيم لا يكدره الدهر

وفي هذه الأيام القليلة جدًا حين تعلقت، بهذا القالب، تلك الروح الطاهرة التي وجدت شرف القرب آلاف السنين في خلوة خاصة دون واسطة، ظهر الكثير من الحجب لأنها نسيت تلك الحظوظ كلية (لقوله تعالى): "نسوا الله فنسيهم"[1]، ومهما استغرقت في التفكير لم يتح لها أن تتذكر ذلك العالم، ولو لم تكن في شؤم الحجب، لما نسيت كثيرًا وما تبدل كل ذلك الأنس الذي وجدته إلى هذه الوحشة، وما أفنت الروح الحقيقية. شعر:

لولا مفارقة الأحباب ما وجدت لها المنايا إلى أرواحنا سبلا

واسم الإنسان مشتق من الأنس لأنه أخذ في البداية من الحضرة، فقيل: "**سُمي الإنسان إنساناً لأنه أنيس**". والحق تعالى يخبر الإنسان منذ الزمن الماضي أنه كان يسمى باسم الإنسان لقوله تعالى: "**هل أتى على الإنسان حين من**

(١) سورة التوبة: آية ٦٧.

الدهر لم يكن شيئاً مذكورا"[1]، يعني أنه كان في حظائر القدس ولم يكن مرتبطاً بهذا العالم. وقال أيضاً: "**لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم**"[2]، أي أنه لم يكن ينزل في عالم الأرواح إلى أسفل القالب، وحين نزل إلى هذا العالم، ونسى ذلك الأنس أُطلق عليه اسم آخر مناسب للنسيان. وحين ينزل الخطاب يناديه الغالبية باسمه هذا: "**يا أيها الإنسان**"، أي: "**يا أيها الناس**"، حتى يتذكر أيام أنسه. وقيل: "**سُمي الإنسان إنساناً لأنه ناسٍ**". ومن هنا قيل للرسول عليه الصلاة والسلام: "**وذكّرهم بأيام الله**"[3]، أي أولئك المشغولون بالحياة الدنيا ذكرهم بأيام الله تعالى حين كانوا بجوار الحضرة ومقام القرب، فمن المحتمل أن يتحرك فيهم ثانية ذلك الحب والمحبة، فيقصدون العش الأصلي والوطن الحقيقي مرة أخرى: "**لعلهم يتذكرون**"[4]، و "**لعلهم يرجعون**"[5]. ولو تتحرك في قلوبهم محبة الوطن فهذا هو عين الإيمان: "**حب الوطن من الإيمان**". ولو لم تتحرك تلك المحبة، ولم تطلب العودة ويتعلق القلب بهذه الدنيا فهذا دليل عدم الإيمان لقوله تعالى: "**ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب**"[6]. وكل من يبقى في هذه الحجب، لن يُرفع عنه ألم هذه الحجب ويبقى في الخسران الأبدي لقوله تعالى: "**والعصر، إن الإنسان لفي خسر**"[7]، ويقسم بأن الروح الإنسانية مشغولة أبداً بسبب تعلق

---

(1) سورة الإنسان: آية ١.
(2) سورة التين: آية ٤.
(3) سورة إبراهيم: آية ٥.
(4) سورة إبراهيم: آية ٢٥.
(5) سورة الأعراف: آية ١٧٤ ، وسورة يوسف: آية ٦٢.
(6) سورة الأعراف: آية ١٧٦.
(7) سورة العصر: آية ١-٢.

القالب بآفات الخسران عدا أولئك الأشخاص الذين خلصوا الروح ـ عن طريق الإيمان والعمل الصالح ـ من هذه الآفات وحجب الصفات الجسدية حتى تعود إلى المقر الأصلي.

ومثال تعلق الروح الإنسانية بالقالب وآفاته مثل شخص يمتلك بذرة، فلو زرعها ورباها فإنها تزيد من واحدة إلى عشرة إلى مائة إلى سبعمائة ضعف. ولكن إذا وضع البذرة في الأرض ولم يربها، فإن خاصية التراب تفسد البذرة، ويفسد ذلك الاستعداد الذي فيها. ومن ثم فإن بذرة الروح الإنسانية ـ قبل أن توضع في أرض القالب ـ نالت استعداد الاستماع لكلام الحق حيث أخبر عن عهد: "**ألست بربكم**"(١)، فظهرت أهلية جواب: "**بلى**". ولهذا قاموا بالزراعة حتى تزيد من واحدة إلى سبعمائة ضعف.

ولكن إذا لم يصل ماء الإيمان والعمل الصالح بالتربية إلى بذرة الروح هذه فهذا هو عين النقصان، وقد حرمت من الرؤية والسماع والنطق وتعفنت في أرض البشرية. وحين تمنحها التربية ماء الإيمان والعمل الصالح فتصبح البذرة مثمرة وترقى من حضيض أرض البشرية إلى عالم العبودية وتتقلص من درجات الخسران؛ وبقدر المدد والتربية التي تدركها فإنها تنال درجات النجاة.

ولو يقتنع الذي لا همة له والأبله بأكل الطبيعة وشرابها وبمراتب الجنة والبُعد عن جهنم (كما يقال): "**أكثر أهل الجنة البُلة، وأكثر أهل النار الجهلة**" وقيل النساء، ويصبح صاحب درجة من درجات المعرفة والإيمان، ولكن لم ينل ولم يدرك ولم يتذوق ماء حياة المعرفة والإيمان الصالح الحقيقي الذي هو

---

(١) الآية: "وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى" سورة الأعراف: آية ١٧٢.

الوصول إلى مقام الثمرة التي هي أقصى مرتبة للمعرفة ونصيب جميع أهل الله والخواص. ويمكنه التخلص من هذه الحجب والخسران بواسطة الإيمان والعمل الصالح (لقوله تعالى): "إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات"[1]، وسيأتي شرح ذلك في موضعه إن شاء الله.

وحين يحل الطفل إلى الوجود، ففي البدء لم تستطع أن تستحكم فيه الحجب القوية وتُسيطر عليه مطلقًا. ولحداثة عهد قربه من الحضرة، فإن ذوق أنس الحضرة باق معه. وفي الحال حين ينفصل عن الأم، يبكي من ألم فراق ذلك العالم. وكل ساعة يبكي وينوح ـ كلما يغلبه الشوق ـ ويتضرع قلبه الحزين وروحه المهجورة بلسان الحال إلى الحي ذي الجلال فيقول: شعر ترجمته:

ذلك القلب الذي رأيته ما زال جريحًا
وما زال في بكاء وأنين بسبب عشقك
ونار القلب تلك ما زالت المهيمنة على كل شيء
وذلك الدمع ما زال باقياً في العينين[2].

وكل لحظة فإن ذلك الطفل ينشغل بشيء آخر موافق لإحساسه وملائم لطبعه فيتآنس مع هذا العالم. وحين يتركونه مرة أخرى، فإنه يرى الهند في النوم مثل الفيل الهندي[3]، فيظهر سر البكاء والنواح مرة أخرى. شعر ترجمته:

---

(١) سورة العصر: آية ٣.

(٢) أنوري الخاوراني: الديوان: تحقيق سعيد نفيسي: ص٦١٠.

(٣) تذكر الفيل للهند، ورؤية الفيل للهند في النوم كناية في اللغة الفارسية، عن تحرك الشوق الدفين للمنشأ الأصلي. (المترجم).

جاء الليل وعدت أفكر في الحبيب
وأيضا ببكاء غزير هو طبع لعيني
وأن دم قلبي من كل هدب يتقطر من جفناي
هو سفود على طرفه قطعة من كبد

إن الأم الرؤوم تعطي ثديها لفم الطفل ثانية لينزل ذوق اللبن في حلقه، حتى يتعود على ذلك الأنس الجديد بالتدريج، وينسى الأنس الأصلي. وحتى الوصول إلى سن البلوغ فإن مهمته هو التآنس بالعالم المادي المحسوس ونسيان عالم الغيب. ومن هنا فإن طفل كل شيء يتربى في فترة وجيزة ويقوم بمصالحه ويصل إلى كمال جنسه ويتقوى ويكتمل جسده، ويبلغ الطفل الآدمي كماله في سن الأربعين، ويصل حد البلوغ في سن الخامسة عشر، وينتظر مدة حتى يستطيع القيام بمصالحه. ولهذا السبب فإن للطفل الآدمي أنساً مع عالم آخر، وقد وجد ذوق ذلك المشرب. وهذا هو أمر فراق ذلك العالم **(الآخرة)** على روحه، ولم يستطع التعرف على هذا العالم **(الدنيا)** لأنه لم يستطع التعود عليه إلا في وقت طويل حتى يعيد تعوده من العالم العلوي بالتدريج. ويتعود على العالم السفلي، وينسى ذوق المشرب الغيبي ويدرك ذوق المشارب الحسية، وعندئذ يتجه نحو هذا العالم. وحين ينسى ذلك العالم كلية، فيفكر في كثير من الحيل والمكر لجذب المنافع ودفع الأضرار الدنيوية التي لا يصل إليها أي حيوان أو شيطان.

ولكن الحيوانات، حيث لا تدرك شيئاً عن العالم الآخر، فإن اتجاهها يكون نحو اللذة الحسية، فتحصل على التربية بسرعة وتصل إلى كمالها. شعر ترجمته:

يأكل الغزال النعمة وهو مضطرب الروح
ولذلك فلا أكتاف له ولا إلية.[1]

والغرض من ذلك أنه حين تسمو الروح الإنسانية على الملك والملكوت الروحاني والجسماني وتتعلق بقالب الإنسان، وتستخدم الآلة الجسمانية في الأفعال، فكل نفس وتنفس يخرج منها يكون جميعه سبباً للحجب والبعد والظلمة، وتصير سبب حرمان الروح من عالم الغيب، حتى تصير غافلة عن ذلك العالم كلية. وأحياناً يخبرها ألف مخبر أنه لن يقبل أن كانت وقتاً ما في عالم الآخرة، ولن يتحقق الإيمان بذلك.

ولكن بقى لطائفة ــ وهي المنظورة بنظر العناية ــ أثر ذلك الأنس الذي وجدوه في حضرة العزة. ولو أنهم لا يدركون بذاتهم أنهم كانوا وقتاً ما في عالم آخر، ولكن حين يتحدث مخبر صادق القول، فإن أثر نور صدق ذلك المخبر وأثر ذلك الأنس يلتحم مع بعضه ويُطبق كلاهما يده في جيد الشخص الآخر لأن كلا الاثنين من أصحاب الولاية أيضًا، ويعرف كلاهما الآخر، فيصل أثر تلك الموافقة والمرافقة إلى القلوب فيهدأ الجميع في الحال.

وفي الجملة فأي مكان يبقى فيه شيء من ذلك الأنس فهو بذرة الإيمان، ويمكن أن يصله الإيمان متأخرًا أو متسرعًا. وكل من انقطع عنه ذلك الأنس، وأوصد باب قلبه كلية مع عالم الغيب، فلن يكون لديه إيمان (لقوله تعالى): "وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون"[2]، وقوله تعالى: "ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة"[3].

---

(١) سنائي الغزنوي: حديقة الحقيقة: ص٥٠١.

(٢) سورة يس: آية ١٠.

(٣) سورة البقرة: آية ٧.

وهناك بعض عباد الله الذين يزيل الحق تعالى لهم الحجاب من أمام أنظارهم حتى يروا جميع المقامات الروحانية والجسمانية التي عبروها. وأحياناً فإنه يُصان البعض من النسيان ــ حين تعلقت الروح بالقالب ــ لإظهار القدرة وإثبات الحجة. ومنذ ذلك المقام الأول الذي يرتبط في البداية بكل الموجودات، ومنذ بلوغ صلب الأب والتعلق برحم الأم والمجيء إلى هذا العالم، فتتعلق جميعاً بخاطره ونصب عينيه.

وهكذا كان يحكي الشيخ/ محمد الكوفي، رحمه الله، في نيسابور أنه التقى بالشيخ/ علي المؤذن الذي قال إني أذكر حين كنت أنزل من عالم قرب الحق إلى هذا العالم، وكان يُعرج بروحي إلى السموات، ففي كل سماء وصلت إليها بكى عليّ أهل تلك السماء، وقالوا: يُرسل المسكين في مقام القرب إلى عالم البُعد، وينزل من أعلى إلى أسفل، ويُبعث من رحاب حظائر القدس إلى مضايق الدار الدنيا. وكانوا يتأسفون على ذلك ويشفقون عليّ، فنزل إليهم خطاب العزة لا تعتقدوا أن إرساله لذلك العالم من أجل إذلاله. فبعزة ألوهيتنا إنه لو يقف على حافة بئر ليصب ولو مرة واحدة ــ طوال حياته في تلك الدنيا ــ دلو ماء في إبريق امرأة عجوز، فإن هذا أفضل له من انشغالكم بالتسبيح والتقديس مائة ألف سنة في الحظائر القدسية. فلتضعوا رؤوسكم تحت بساط قولي: "**كل حزب بما لديهم فرحون**"(١)، واتركوا أمر ألوهيتنا لنا إذ: "**أني أعلم ما لا تعلمون**"(٢).

وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين،

(١) سورة المؤمنون: آية ٥٣.

(٢) سورة البقرة: آية ٣٠.

الفصل الثاني

في بيان حكمة تعلق الروح بالقالب وفوائد ذلك

الفصل الثاني

في بيان حكمة تعلق الروح بالقالب وفوائد ذلك

قال الله تعالى: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون"[١]. أي ليعرفون.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: **"الدنيا مزرعة الآخرة"**.

اعلم أنه كما أُعطى لأرض الدنيا الاستعداد لأن يزرع فيها بذرة من أنواع الحبوب والثمار وتُربى، وتجنى الواحدة مائة إلى سبعمائة ضعف (لقوله تعالى): **"كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء"**[٢]، فإنه قد أعطى لحقيقة الدنيا ذلك الاستعداد لتكون مزرعة الآخرة ويوضع فيها بذرة الأعمال الصالحة، وتُحصد الواحدة عشر أمثالها حتى مائة حتى سبعمائة ضعف (كما يقال): **"الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف"**، ومن الممكن أن تنال بلا حصر وبغير حساب لقوله تعالى: **"إنما يُوفى الصابرون أجرهم بغير حساب"**[٣].

وهكذا أعطى نفس الاستعداد لأرض قالب الإنسان، لأنه حين يلقى فيها حبة الروحانية بُمزارعة: **"ونفخت فيه من روحي"**[٤]، وتربى بماء العناية وشمس الشريعة، فيجني منها الكثير من ثمرات القرب والمعرفة التي لن تصل إلى خيال

(١) سورة الذاريات: آية ٥٦.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٦١.

(٣) سورة الزمر: آية ١٠.

(٤) سورة الحجر: آية ٢٩.

أي مخلوق وفهمه وعقله، ولن يصل إلى كنهها بيان أي متحدث إلا بذلك القدر الذي قال: "**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**".

وهكذا فمن أجل زراعة بذرة الدنيا، حتى تصل إلى كمال ثمرتها فإنه يلزم الآلاف الكثيرة من الأسباب والآلات والأدوات المختلفة مثل الأرض التي توضع فيها البذرة، ومن السماء تبزغ الشمس وينزل الماء لتربية البذرة، ويهب الريح، سبب الاعتدال، ما بين رطوبة الأرض وحرارة الشمس. وغيرها من الآلات والأسباب مثل الأشخاص الذي يزرعون البذرة، والثور الذي يستخدم في حراثتها، والحديد والخشب والحبل، التي هي آلات الحرث، والنجار والحداد والفتال الذين ينجزون هذه الآلات والأدوات.

وأمر آخر هو أنه يجب أن يكون لهؤلاء الناس خلق كثير يقومون على أمرهم، حتى يمكنهم أن ينشغلوا بعملهم مثل الخباز والقصاب والبقال والطباخ، والغزالين والنساجين والغسالين والحلاجين والخياطين. ويلزم لهؤلاء أيضاً أناس يقومون على أمرهم حتى يستطيع هؤلاء أن يقوموا بعملهم مثل الطحانين وأمراء الماء[1] والرعاة والنجارين والدواب ومربي الدواب. وعلى هذا فيلزم لكل طائفة صنف آخر من الخلق حتى يقوموا بمصالحهم.

وعندئذ فإنه يلزم ملك عادل ليعدل بين الخلق، ويدفع عن الضعفاء شر الأقوياء وتطاولهم، ويكون حافظاً للرعايا وحامياً لهم حتى يؤدي كل شخص عمله في أمن واطمئنان.

---

(١) المعنى بأمراء الماء: هم مشرفوا الري.

وحين تُمعن النظر فإن كل كائن في الدنيا من الأفلاك والنجوم والسماء والأرض والشمس والقمر والعناصر المفردة والمركبات والنباتات والحيوانات والملك والجن والأنس والصناع والحرفيين والتجار والعلماء والأمناء والملوك والأعوان والأجناد، جميعهم يعملون حتى يزرعوا حبة دنيوية واحدة ويربونها ويجنون ثمرتها.

ومن ثم، فهناك زراعة بذرة الروحانية التي توضع في أرض قالب الإنسانية من مخزن خاص: "**ونفخت فيه من روحي**"، وتُربى تلك البذرة حتى تصل إلى كمال الثمرة ــ وذلك هو مقام المعرفة ــ فانظر ما هي الأسباب والآلات والأدوات التي تُستخدم حتى ينال المقصود بالحصول.

وبعد هذا، فحين نتطلع إلى الحقيقة، فإن الدنيا والآخرة والجنات الثمانية والنيران السبع وكل ما بينها، يجب أن تعمل جميعها في تربية هذه البذرة، حتى تصل ثمرة المعرفة إلى الكمال كما قال تعالى: "**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**"(١). أي ليعرفون.

وعلى هذا، فرغم أن الروح كانت تجد ذوقاً في عالم الأرواح من جوار قرب الحق، ولها معرفة مناسبة لذلك العالم، وكان لها نصيب من مكالمة الحق ومكاشفته ومشاهدته، ولكنها أرادت إدراك كمال هذه المقامات وتمام هذه السعادات بالتعلق بالقالب وتربيته. ولأنه كان يلزم هنا حصول هذه الآلات والأدوات الظاهرة والباطنة التي كانت محتاجة لها في المعرفة بواسطتها مثل النفس والقلب والروح والسر والخفى وغيرها من المدركات الباطنة من القوى

---

(١) سورة الذاريات: آية ٥٦.

البشرية المتخيلة والمتوهمة والمتذكرة والمتصرفة والمتفكرة وغيرها، ومثل الحواس الخمسة الظاهرة من السمع والبصر والشم والذوق واللمس وغيرها.

ولأن الروح لها نور روحاني في عالم الغيب تدرك به نور كليات ذلك العالم، وتتمتع بما يناسب ذلك المقام، ولكن مدركات الغيب والشهادة الأخرى لم تدرك جزئيات كلا العالمين وكلياتهما، كما كان يحدث هنا، ووجدت استحقاق المعرفة الحقيقية بواسطة هذه الآلات والأدوات.

والمعرفة الحقيقية هي معرفة الذات والصفات الإلهية كما قال: "**فأحببت أن أعرف**". والمعرفة ثلاثة أنواع: معرفة عقلية ومعرفة نظرية ومعرفة شهودية.

أما المعرفة العقلية فهي لعامة الخلق ويشترك فيها الكافر والمسلم واليهودي والمسيحي والمجوسي والملحد والمتفلسف والطبيعي والدهري، لأنهم جميعاً شركاء في العقل، ويتفق جمعيهم على الوجود الإلهي، والخلاف قائم بينهم في الصفات الإلهية، لا في الذات. وهناك خلاف أيضاً بين أهل الإسلام في الصفات، ولكنهم جميعًا متفقون في الذات الإلهية كما يقول الحق: "**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله**"(١).

وأولئك الذين كانوا يعبدون الأصنام كانوا يقولون: "**ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى**"(٢). وهذا النوع من المعرفة لا يوجب النجاة لأنها تدرك

---

(١) سورة الزمر: آية ٣٨.

(٢) سورة الزمر: آية ٣.

المعرفة العقلية بمدركات الحواس الظاهرة والقوى الباطنة العقلية، وترى الحواس الظاهرة بعالم المحسوسات، وتستخدم العقل للقوى الباطنية. وكل شخص يورد الدليل العقلي، فلا جدل أنه قانع بدليله. وحين تتعارض الأدلة، فلا يفضلها حتى عن بعضها إلا بالترجيح، ولو ترجح كفة أحد الأطراف ويظهر الحق، فلن يكون ذلك أكثر من إثبات الصانع.

وهذا هو إثبات الصانع بالدليل العقلي الذي أوجده بنفسه، والعقل والأدلة العقلية كلاهما موجود، ولا يمكنها الوصول إلى الموجد وإدراك كنهه مطلقاً. شعر ترجمته:

كل شخص يتدلل بأهله وجاهه
أما هذا الضعيف فليس له أهل سوى حضرتك

<u>أما المعرفة النظرية</u>، فهي لخواص الخلق، وهي أنه حين تكون بذرة الروح في أرض البشرية، وتدرك طريقة التربية بقانون الشريعة، مثلما تصل شجرة الإنسانية إلى مقام الثمرة، وتظهر في الثمرة أضعاف تلك الخاصية التي كانت في البذرة وتظهر فيها الأشياء الأخرى التي لم توجد في البذرة.

وعلى سبيل المثال بذرة المشمش التي تُزرع فينبت منها الخضرة والشجرة والغصن والورقة والبرعم والمشمس الفج ثم المشمس الناضج. وكل بذرة زُرعت فينبت منها ألف من هذا النوع، حيث يكثر فيها جلد المشمش والورقة والغصن وجسم الشجرة والجذع، والتي لم تكن في البذرة منذ البدء. وفي اللب خاصية ليست في القشرة، وكان للفم نصيب من تلك البذرة فقط، أما الآن، فللفم نصيب أيضاً من تلك الثمرة والشجرة أكثر مما كان، وكذلك العين لها

نصيب أيضاً من ذلك (كما يقال): "**الخضرة تزيد في البصر**". وللأنف أيضاً نصيب من برعمتها التي لها رائحة طيبة، كما أن لليد نصيب من ذلك أيضاً حيث تُصنع العصاة من غصنها، وللقدم نصيب حيث يُصنع منه النعال. وفيها خواص وفوائد ومنافع ومصالح أخرى كثيرة لم تكن في البذرة، ولو أنها كانت موجودة فيها بالقوة والقدرة.

وعلى ذلك تنمو شجرة الجسد من بذرة الروح، وتظهر فروع النفس وصفات النفس وتنبت أوراق الحواس الظاهرة، وتتفرع جذور القوى الباطنة، وتنمو برعمة السر وينضج المشمش الفج الخفي، ويظهر مشمش المعرفة الناضج. وبعد ذلك يظهر للروح في مقام الثمرة الآلات والأدوات المتنوعة ــ والتي لم تكن من قبل ــ من المدركات الظاهرة والباطنة التي فيها: أي ظاهرة مثل حاسة البصر والسمع والشم والذوق واللمس التي هي جملة عالم الشهادة ونسميها المُلك الذي يمكن أن يدرك هذه الحواس الخمسة بأعداده وأجناده الكثيرة. وذلك الذي لا تدركه الحواس الخمسة نسميه الملكوت، وهو أيضاً عالم الغيب بمدارجه ومراتبه الكثيرة، لأنه يكون قوة الخيال وقوة الوهم وقوة التصرف وقوة التفكر وقوة التذكر، ويدرك ذلك الملكوت بهذه المدركات الخمس الباطنة. وحين يُعبر عالمي الغيب والشهادة فإنه ينتقل إلى عالم القلب والسر والروح والخفى.

وكما أنه لا يمكن أن تتصرف أي من الحواس الخمسة الظاهرة في المدركات الأخرى: مثل السمع في المبصرات والبصر في المسموعات، فلا يمكن أن تتصرف أي من الحواس الخمسة الباطنية أيضاً في المدركات الأخرى لأنه لا يمكن أن يكون لأي من هذه المدركات الظاهرية والباطنية تصرفات في المدركات الأخرى يعني بتلك الخاصية.

ومن ثم فإن الطائفة التي جالت في المعرفة النظرية بنظر العقل، ولا علم لديها بمرئيات القلب ومراتبه، وفي الحقيقة ليس لديهم القلب نفسه، وأرادوا بالنظر العقلي أن يجيلوا العقل ذا العقال بالسير في عوالم القلب والسر والروح والخفى والأخفى. ولا جرم أن ألقوا العقل في عقيلة الفلسفة والزندقة والكفر والإلحاد والحلول والاتحاد والتناسخ والتشابه.

<u>أما المعرفة الشهودية</u>، فحين تدخل من باب سعادة (قوله تعالى): "**وأتوا البيوت من أبوابها**"(١)، تُمنح حبة الروح التربية على قانون الشريعة وأخلاق الطريقة، ويُرقى بها إلى الكمال، وتدرك بهذه المدركات الظاهرية والباطنية ما هو في الملك والملكوت والجبروت واللاهوت من الثلاثمائة وستين ألف عالم، حتى أنه كما كان عالم كليات الغيب في عالم الغيب، فإنه يصبح الآن عالم كليات وجزئيات الغيب والشهادة، ونرى أن أية ذرة من ذرات هذه العوالم مظهر صفة من صفات الألوهية، وتشهد فيها آية من آيات الحق، وينكشف نقاب الحجاب عن وجه الروح، ويظهر لها جمال آية الحق. شعر:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

هذه هي عتبة عالم الشهود كما قال تعالى: "**وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين**"(٢). وهنا يمكن أن تعرف ذات الحق المنزه بالوحدانية، وتطالع صفات الألوهية بعين اليقين وتشهدها، لأن هذا

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٩.

(٢) سورة الأنعام: آية ٧٥.

هو المقام الذي يقول عنه ذلك (الرسول) العظيم: "**ما نظرت في شيء إلا ورأيت الله فيه**". وهذه المرتبة ــ بسموها الشديد ــ وهذا المقام ــ بشرفه العظيم ــ هما مرتبة الخواص ومقامهم، وأُرسلت الروح لهذا السبب لأجل هذه الشهود وكان سر خلق الكائنات من أجل هذه المعرفة كما قال: "**وخلقت الخلق لأعرف**".

أما هذه المخدرة الغيبية ــ وهي الروح ــ فلم يصرف أحد من مشاطي الأنبياء والأولياء نقاب العزة عن وجهها قبل هذا ، وكانت توارى دائماً في قباب الغيرة ورداء الغبطة حتى لا تقع عين غير الأمناء في كمال جماله وجلاله، ولا يصيبها حسد أي من المقربين وغير المقربين. شعر ترجمته:

أضرم النار في محلته كبرياءاً
حتى لا يسير إليه أي فضولي
واخف ذلك الوجه القمري بشعره
حتى لا ترى عين كل خسيس وجهه[1]

ولذلك ظهر كلف على وجه القمر، وكان سبب ذلك أنه قد صار مشاراً إليه بالبنان من كل من هو أهل له، ومنظوراً من كل من هو ليس بأهلٍ له.

وحين رأت الشمس هذا الأمر، استلت على وجهها رمحًا مضيئًا ينثر النور، بحيث أنه حينما يطمع إنسان عين الساذج، فإنها تغشى نظره بسيف أشعتها، ولا جرم أنه لا يسلم من قذى الرمد، ولكن إذا وصل للقمر آفة من

(١) سنائي الغزنوي: ديوان سنائي: ص٨٢٤.

عين المبصرين، واستلت الشمس السيف في مواجهة المكفوفين والمبصرين: "حيث لا تدرك عين الكفيف سوى الحرارة من الشمس"[١].

وعلى كل، فلهذا السبب، كان الأنبياء والأولياء ومشايخ العرفاء يسدلون بُرقع العزة على حقيقة رونق الغيب، وكانوا لا يتركون حجاب الغيرة في يد البيان حتى لا يظهر جمال العرفان. ولذلك فلم تشاهد رجولية العبودية، ولم تدرك همة الطلب في الطلاب.

كان للحسين بن منصور أخت تدّعي الرجولية في هذا الطريق، وكانت جميلة، وكانت تنزل إلى مدينة بغداد وهي تخفي نصف وجهها بنقابها وتبدي نصفه الآخر. فجاء إليها عظيم، وقال: **لماذا لا تخفين الوجه كله؟** فقالت: "**أظهر أنت الرجولية حتى أخفي وجهي. ففي كل بغداد قد ظهر نصف رجل، وذاك هو الحسين**".

ولكن اليوم الذي يخرج فيه قمر المعرفة من هالة العزة نتيجة لاهتمام أولياء محمد ﷺ، وهو آمن من عين سوء للمشيرين بالبنان، ولو تظهر شمس عنقاء[٢] الوحدة دون سيف أشعة الغيرة من خلف قاف[٣] الغربة، فهي آمنة. ولو

(١) هذه العبارة مصراع لبيت من الشعر جاء عند سنائي يقول في ديوانه:
عجب نبودگی از قرآن نصيبت نيست جز نقش .. كه از خورشيد جزگرمي نيابد چشم نابينا
وليس عجبًا ألا يكون نصيب من القرآن سوى الرسم، لأنه لا تدرك عين الكفيف سوى حرارة الشمس

(٢) العنقاء: اسم طائر وهمي لا وجود له ويسمى أيضاً السيمرغ.

(٣) قاف: اسم لجبل خرافي كان الفرس يعتقدون أنه يقع في طرف العالم، ويعتقد البعض أن في كل طرف من أطراف العالم، في التصور القديم، يوجد جبل بهذا الاسم. ومن ثم يقولون من قاف إلى قاف، ويعنون بذلك العالم بأجمعه. وقاف أيضاً أو ما وراء قاف هو مسكن السيمرغ أو العنقاء. ويقال كذلك أن قاف اسم جبل في جنوب شرق أوروبا، ويطلق عليه اسم جبل القفقاز. (المترجم).

تظهر المخدرات الغيبية كاشفة عن القناع الحقيقي فقد تحــررت مــن ملازمــة الأغيار وذلك لأن الأشراف تنفّجُــوا بأحــاديث الرجوليــة علــى أطـــراف الأعراف[1] وما زالوا يثرثرون (لقوله تعالى): "**وعلى الأعراف رجال**"[1]. شعر:

وكــأن هــؤلاء القــوم عـــارفون للحـــق

لأن منـــــهم يخلـــــد نســـــلهم

وأما حقيقة هذه المعرفة الشهودية، فهي معرفة خاصة الخاصــة، وهــي خلاصة موجودات النشأتين[2]، وزبدة كائنات الكونين وحقيقة وجــود الخــافقين لأنها الدار التي كانت نقطة الأزل والأبد. شعر ترجمته:

تلك اللحظة التي لم يكن فيها وجود، كنت أنا وأنــت

ورأســمال العشــق والفــائدة، كنــت أنــا وأنــت

واليوم وأمس، وكل تأخر وســرعة فــي الوجــود

لم يكن هناك تأخر ولا إسراع، بل كنت أنــا وأنــت

(١) الأعراف: سور بين الجنة والنار، وسمي ذلك لارتفاعه، وكل مرتفع مــن الأرض أعــراف، وأحدُهــا عرف، ومنه سُمي عُرف الديك عُرفاً لارتفاعه، ويستعمل في الشرف والمجد، وأصله فــي البنــاء. (أبي بكر السجستاني) (المتوفى عام ٣٣٠هـــ) نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن، وهو موجــود على هامش المصحف الشريف" طبعة المكتبة السعيدية بالأزهر: ص١٢٨ فــي ســورة الأعــراف: راجع الآيات ٤٦-٤٨ من نفس السورة.

(٢) نشأتين، ونشأتان: هما الدنيا والآخرة.

وحقيقة هذه المعرفة كانت خلاصة فائدة تعلق الروح بالقالب، لأن الأرواح البشرية كانت متمتعة مثل الملائكة بصفات الربوبية، ولكنها كانت واسطة من خلف حجاب العزة مع الآلاف العديدة من الحجب النورانية، لأنه لو رفع حجاب، فإن جملة الأرواح ـ مثل جبريل الذي هو روح القدس ـ كانت تصرخ قائلة: "لو دنوت أنملة لاحترقت"[1] وهذا أيضاً خاصية فيض أنوار الحجاب. وهناك حيث تظهر حقيقة تجلي صفات الألوهية فتكون المعرفة الشهودية نتيجة ذلك الشهود؛ والوجود المجازي للأرواح يتمتع بحقيقة ذلك الشهود (لقوله تعالى): **"وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا"**[2].

ولهذا السبب ذاته، فإن الروح في غاية اللطافة، ولا يمكن أن تقبل عكس تجلي صفات الألوهية، والملائكة كذلك لأنها ليس لديها العقل والقلب والسر والخفى والإخفاء (**الغيبيات واللامرئيات**) التي تدرك بها أنوار تجلي صفات الألوهية. ومن ثم فإن الحكمة الأبدية والقدرة المنزهة قد اقتضت، أنه في وقت تخمير طينة آدم، أن يعمل بيد القدرة في باطن آدم ـ الذي يعد خزانة منزل الغيب ـ قلب زجاجة الصفة ـ وهو لطيف في غاية الصفاء ـ ويضعه داخل مشكاة الجسد الكدر، ويجعل مصباحاً في وسط زجاجة القلب لقوله تعالى: **"المصباح في زجاجة"**[3]، ويقال له السر، ويضع فتيلة الخفى (**الغيب**) في ذلك المصباح.

(١) هذه كلمات سيدنا جبريل عليه السلام لرسولنا محمد ﷺ حين صعودهم السماء في ليلة الإسراء والمعراج واقترابهم من سدة المنتهى. (المترجم)

(٢) سورة الإسراء: آية ٨١.

(٣) سورة النور: آية ٣٥.

ثم صب في زجاجة القلب زيت الروح الذي أُستخرج من الشجرة المباركة "من روحي"، ولم يكن شرقي عالم الملكوت ولا غربي عالم الملك. وهذا دليل على لا مكانية الروح التي ليست في صحراء الملك ولا في فضاء عالم الملكوت، وكان الزيت في غاية الصفاء والنورانية لأنه كان يريد أن يشعل ضوء المصباح، رغم أن النار لم تكن مستمرة فيه على الإطلاق (لقوله تعالى): "**يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار**"(١)، ومن شدة نورانية نور زيت الروح، بلغت زجاجة القلب كمال نورانية "**الزجاجة كأنها كوكب دري**"(٢). فلما ظهر عكس تلك النورانية من الزجاجة في الهواء الذي في داخل المشكاة، فأضاءت، فنزل منها نورانية العقل، وسمي الهواء الذي في باطن المشكاة ــ وهو الذي قَبِل عكس (**صورة**) نورانية الزجاجة ــ بالقوى البشرية. وحين ظهر النور من باطن نوافذ المشكاة، أُطلق عليه الحواس الظاهرة والباطنة.

وما لم تصل أسباب هذه المدركات وآلاتها إلى الكمال على هذه الصورة والنحو، لا يظهر سر القول: "**كنت كنزاً مخفيا**"، أي أنه يلزم لظهور نور الله أن يكون هذا المصباح بهذه الآلة والأسباب. ومع أن هذا المصباح لم يكن موجوداً، رغم أثر التجلي الإلهي الذي أحاط بذرات الكائنات لقوله تعالى: "**ألا إنه بكل شيء محيط**"(٣)، ولكن كان مكنون: "**كنت كنزاً مخفيا**"، فكان يلزم هذا المصباح بهذه الآلة لظهور نور تلك النار.

---

(١) سورة النور: آية ٣٥.

(٢) سورة النور: آية ٣٥.

(٣) سورة فصلت: آية ٥٤.

وبما أن زيت الروحانية المجرد كان في عالم الأرواح، فإنه غير قابل لنورانية النار، لأن الزجاجة والمشكاة كانت في عالم الحيوانية، ولكن هذا المصباح والزيت والفتيلة لم تكن قابلة لنورانية النار فخلق مجموعة من هذين العالمين هي عبارة عن آدم، وخلق لجسده المشكاة ولقلبه الزجاجة، ولسره المصباح، ولغيبه الفتيلة، ولروحه الزيت.

وفي الحقيقة إنه تجلى على ذلك المصباح نار النور الإلهي الذي في تلك المشكاة كما قال الرسول عليه السلام: "**إن الله خلق آدم فتجلى فيه**"، وقالت الحضرة الإلهية في بيان ذلك وشرحه بقوله تعالى: "**الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح**"(١)، حتى أن قال: "**نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء**"(٢)، أي ينير مصباحه الذي يريد بنور الله. وهذا إشارة لذلك المشكاة والمصباح الحاصل لكل شخص، أما نور الله فليس لأي مصباح، وكل مصباح مضاء بنور زيت الروح، وتستنير زجاجة قلب كل شخص من تلك النورانية التي تسمى العقل، وقد أضاءت سورة تلك النورانية الباطنة والظاهرة للمشكاة في القوى البشرية والحواس الباطنة والظاهرة.

حتى أن طائفة المحرومين المولّهين ــ المعتمدين على العقل والمعقولات ــ اعتقدوا أن مصباحهم مضاء بالنور الحقيقي، ولم يعرفوا أن كل نورانية يدركونها في ذاتهم هي صورة نور زيت الروح، وذاك النور مجازى لقوله تعالى: "**يكاد زيتها يضيء**"(٣)، ومعنى "يكاد" أنه أراد أن يضيء ولم يحدث.

---

(١) سورة النور: آية ٣٥.

(٢) سورة النور: آية ٣٥.

(٣) سورة النور: آية ٣٥.

ومصباح تلك الطائفة منطفئ من نار نور الله وهم لا يدركون، لأن هذا الخبر يكون لشخص استتار مصباحه ذات مرة بالنور الحقيقي وأدرك ذوقه حتى أنه حين ينطفئ يكون لديه علم. ويقول الحق تعالى عن هاتين الطائفتين اللتين مصباحهما مضاء بحقيقة نور الله، وتلك الطائفة التي مصباحها محروم من ذلك النور، يقول هذا الخبر "**أَوَمن كان ميْتاً فأحييناه وجعلنا له نُوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها**"(١).

هذا هو شرح المعرفة الشهودية بهذا القدر الذي يتسع له حيز العبارة ومكمن الإشارة: "**عرفها من عرفها وجهلها من جهلها**". شعر ترجمته:

كل من يشم رائحة من تراب بابك
فهو يحوز قصب السبق على الملائكة

وكل من هو حي بذلك النور، فهو يعلم ذلك ويدركه ويفهمه (لقوله تعالى): "**لينذر من كان حيا**"(٢). وكل من هو ميت بهذا النور، فلو تنادي عليه آلاف المرات، فلن يستطيع أن يسمع حرفاً (لقوله تعالى): "**إنك لا تسمع الموتى**"(٣).

ومن ثم، فاعلم أنه بسبب هذه المعاني، كان سبب تعلق الروح بالقالب. وإذا لم يكن هذا التعلق، فما حصل للروح مدركات الغيب والشهادة حتى تقبل بها تجلي صفات الألوهية، وتدرك ذوق المصباح في معرفة الذات والصفات الإلهية

---

(١) سورة الأنعام: آية ١٢٢.
(٢) سورة يس: آية ٧٠.
(٣) سورة النمل: آية ٨٠.

حتى لو يراد مائة ألف عاقل من نورانية المصباح وناريته، إذ يقال أن كل ما يقال مجازى، والخبر الحقيقي لذلك أن يعطي الفتيلة والزيت، لأن كلا الاثنين يبذلان وجودهما حتى يدركا ذوق معرفة شهود النورانية والنارية. شعر ترجمته:

أيتها الشمعة فلتضحكين كثيراً على نفسك في حيرة ولجاجة
فأين لك المُماثلة معي في حرقة قلبي؟
فهناك فرق بين الحرقة التي تنبعث من الروح
وبين الحرقة التي توجد في حبل على الرأس

والسر العجيب أنه يجب أن تحمل كل هذه الوساطات المختلفة حتى تبذل زيت روح وجودها، والفتيلة أيضاً هي الباعث لهذا المعنى، حتى تبذل روح الوجود المجازى بالوجود الحقيقي وتحول وجود النارية الحقيقية ـ المخفية وغير الظاهرة ـ إلى نور حقيقي ظاهري ومرئي. وهكذا فمثلما يكون الزيت في الحقيقة عاشقاً للنار التي تغير الوجود المجازى إلى حقيقي، فالنار أيضاً هي عاشق الزيت حتى تظهر الكنز الخفي، وهذا هو سر (قوله تعالى): "**يحبهم ويحبونه**"[1]، وحقيقة "**كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف**". وهذه الفوائد كانت تحصل بسبب تعلق الروح بالقالب حتى تدرك ذات الحق المنزهة بالوحدانية، وتدرك صفات الألوهية بالجملة. فما يُعرف يُرى، وما يُرى يُبلغ، وما يُبلغ يوجد، وما يوجد يُعدم، وما يُعدم يوجد[2]. شعر:

---

(١) سورة المائدة: آية ٥٤.

(٢) أي أن المعرفة إدراك والإدراك وصول والوصول وجود والوجود فناء والفناء وجود. (المترجم)

ما دمت لم تر سليمان ذات ليلة

فكيف تعرف لغة الطيور؟[1]

وبعد.. فإذا لم تدرك الروح هذه المدركات بتعلقها بالقالب، ولم تحصل على المعرفة بهذه الآلات والأدوات والاستعدادات، فلن تصل مطلقاً إلى توحيد معرفة ذات وصفات وأفعال: "**عالم الغيب والشهادة**". وحين لم تتخلق الملائكة بهذه الأخلاق، ولم تتصف بهذه الصفات، فما استحقت نيابة الحضرة وخلافتها، وما تحملت أعباء حمل الأمانة، وما وجدت مرآة جمال الحق وجلاله، وما وصلت إلى سر كنز: "**كنت كنز مخفيا**". شعر ترجمته:

لم يكن إلى محلتك طريق، فاتخذنا إليها طريقا

واتجه نظرنا إلى مرآة البلاء

وإننا أفسدنا عيشنا الهانئ

وليس لشخص ذنب ، فنحن الذين اقترفنا الجُرم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين،

(١) سنائي الغزنوي: سير العباد إلى المعاد: ص٢٢٩.

الفصل الثالث

في الاحتياج للأنبياء عليهم الصلاة والسلام في تربية الإنسان

الفصل الثالث

في الاحتياج إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في تربية الإنسان

قال الله تعالى: "أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده"(١).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "الأنبياء قادة والأولياء سادة" وفي رواية سادة.

اعلم أنه حين ربط الحق تعالى طلسم عالم الملك والملكوت بعضه ببعض بواسطة ازدواج روح الإنسان وقالبه، فأحكم هذا الطلسم وشدد القيود من كل نوع حتى لا يستطيع أن يفتحه أي آدمي وملك يحاول ذلك بتصرفه لأنه قد أحكمه بسبعين ألف قيد من الحجب النورانية والظلمانية. ولو يجوز فتحها فما سكنت الروح مطلقاً في سجن الدار الدنيا كما يقال: "الدنيا سجن المؤمن". وحين يدع الملك شخصاً في السجن فإنه يحكم إغلاق باب السجن حتى لا يستطيع سجين أن يفتحه فهو قد وضع ذلك الطلسم الأعظم بألوهيته، ولم يطلع شخصاً عليه لقوله تعالى: "ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم"(٢). فهو الفتاح الحقيقي والمفتاح أيضاً بحكمه لقوله تعالى: "له مقاليد السموات والأرض"(٣)، وهو يستطيع أن يفك قيود هذا الطلسم، أو يرسل الشخص الذي بيده المفتاح.

---

(١) سورة الأنعام: آية ٩٠.

(٢) سورة الكهف: آية ٥١.

(٣) سورة الزمر: آية ٦٣، وسورة الشورى: آية ١٢.

وبعد ذلك فحين أراد الله تعالى أن يكون نسل آدم في الدنيا، خلق آدم في البدء من التراب بلا أم ولا أب، ثم خلق حواء من أب دون أم. وعند خلق نسل آدم، خلق آدم وحواء لخلافته حتى يتزوجا، ثم ينجبا الأولاد بعد ذلك. وهكذا حين أراد أن يفتح الطلسم الأعظم للموجودات، ويخلص الروح الإنساني من قيد حبس القالب ويعيدها إلى عالم القرب بالفوائد الكثيرة التي حصلت عليها في هذا السفر، فاختار بعد ذلك واحداً من جملة الخلق في كل قرن وعصر وفضله على جميع الخلق واختصه بنظر العناية. شعر:

لقد أخذ ينظر إلـيّ ذات يوم أنا المسكين
وكل ما وجدته، فكان جميعه من تلك (النظرة)

وقد نشرت بذرة هذه السعادة في عالم الأرواح في مقام اللا واسطة للروح حتى أن وجدت هنا ثمرة القبول والقرب بلا وساطة كما قال الرسول عليه السلام: **"الأرواح جنود مجندة"**. وفي العهد الأول للأرواح انتظمت في أربعة صفوف مثلما تصطف الجنود.

الصف الأول: في مقام اللا واسطة لأرواح الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.
والصف الثاني: أرواح الأولياء.
والصف الثالث: أرواح المؤمنين.
والصف الرابع: أرواح الكافرين.

وبعد ذلك فإن تلك الأرواح التي كانت في الصف الأول في مقام اللا واسطة، وجدت تربيتها واستعدادها من النظرات الخاصة للحق تعالى حتى تقف على فتح طلسم عالم صورة آدم. وعندئذ يتعلم الخلق فتح الطلسم بواسطة

هدايتهم لقوله تعالى: "أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده"[١]، أي أنني علمت الأنبياء بذاتي علم فتح الطلسم دون واسطة لأنهم أدركوا ـ لسنوات طوال ـ قبس أنوار عنايتنا في مقام اللا واسطة. وهم كانوا متقبلين ذلك حتى نفتح أبواب قلوبهم عن طريق الغيب بتصرفات (بتأثير) جذبات الألوهية، ونلقي في قلوبهم أسرار فتح الطلسم في مدرسة (قوله تعالى): "الرحمن علم القرآن"[٢]، وقوله تعالى: "أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحُكم والنبوة"[٣].

أما أولئك الأشخاص الذين نالوا فيض فضلنا في بداية عالم الأرواح من خلف حجب أرواح الأنبياء، فهم اليوم لا يستطيعون الوصول إلى طريق حضرتنا دون واسطة، ولا يستطيعون فتح طلسم خلقنا "سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا"[٤]، إلا حين يقومون بمريدية دُكان الأنبياء، ويأخذون بشرط الحق: "وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله"[٥]. شعر ترجمته:

إذا أردت وصل العروس[٦]، فعليك بخدمة الحضرة
وإلا فامض واجعل وجهك من الحزن والألم كالقش (أصفر)

(١) سورة الأنعام: آية ٩٠.
(٢) سورة الرحمن: آية ١-٢.
(٣) سورة الأنعام: آية ٨٩.
(٤) سورة الفتح: آية ٢٣.
(٥) سورة الأنعام: آية ١٥٣.
(٦) العروس: يعني بها الروح.

وفي مدرسة شرائع الأنبياء يجب أولاً تعلم أبجدية الشريعة، لأن كل أمر من أوامر الشرع هو مفتاح قيد من قيود ذلك الطلسم الأعظم. وحين أُديت كل واحدة في مقامها بالحق فينفتح قيد من الطلسم ويصل إلى مشام روحك ــ من ذلك الطريق ــ نسيم من نفحات الألطاف الألوهية كما يقال: "**إن لله في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها**". والتعرض لتلك النفحات هو أداء أوامر الشرع ونواهيه. وكل قدم تسير في الشرع على قانون المتابعة فإنها تنال القرب من الحق تعالى، أي تقطع منزلاً من منازل ذلك العالم الذي نزل من هناك كما يقال: "**لم يتقرب إلى المتقربون بمثل أداء ما افترضت عليهم**".

وحين تسير بصدق على هذه الجادة، فتقوم ألطاف الربوبية بصورة الاستقبال للإرشاد إلى الحقيقة: "**من تقرب إليّ شبرا تقربت إليه ذراعا، ومن تقرب إليّ ذراعا تقربت إليه باعا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة**". شعر:

لو تسير بقدم الصدق في طريق العشق
فسيظهر لك المعشوق في أول طريقك

وهكذا عرف أنه لا يمكن أن يفتح قيد طلسم الوجود الإنساني بغير مفتاح الشرع، ويلزم للشريعة صاحب شرع، وأولئك هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين،

الفصل الرابع

في بيان نسخ الأديان

وختم النبوة بمحمد عليه الصلاة والسلام

الفصل الرابع

في بيان نسخ الأديان وختم النبوة بمحمد عليه الصلاة والسلام

قال الله تعالى: "ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين"[١].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "**فُضلت على الأنبياء بست: جُعلت لي الأرض مسجدا ، وترابها طهورا ، وأحلت لي الغنائم ، ونُصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأعطيت الشفاعة ، وبعثت إلى الخلق كافة وخُتم بي النبيون**".

اعلم أن حضرة الجليل يستخلص ــ بعنايته الأبدية ــ نسب الرسول عليه السلام من آدم والآدميين، ويؤكد نسبه بعالم النبوة والرسالة لقوله تعالى: "ما كان محمد أبا أحد من رجالكم". فمحمد لم يكن منكم ولا من عالمكم، ولكن كان رسول الله وخاتم النبيين، والعالم كله مشرق بنوره، فأي معرفة له بالماء والطين[٢]، وكان آدم طفيلي محمد، فلا تعتقد أن محمداً كان طفيلي آدم. شعر ترجمته:

حتى لا تظن أننا كنا من نسل آدم
لأننا كنا موجودين في اللحظة التي لم يكن فيها آدم
ودون تعب العين والشين والقاف (العشق) والطين والقلب[٣]
فالمعشوق، ونحن والعشق كنا قرناء

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٤٠.

(٢) الماء والطين: كناية عن العالم الجسماني والعالم المادي.

(٣) أي دون تعب ومشقة لعشق الجسد الآدمي والقلب. (المترجم).

ولو يخفق صقر ملكي[1] بجناحيه على كف ملك، ويطير طلباً لصيد، وأثناء ذلك يحط ساعة طلباً للراحة بجوار حائط امرأة عجوز. لذلك السبب فإن صقر الملك لا يُصبح ملكاً لتلك المرأة العجوز. وكلما يتأخر، فعندما يسمع صوت طبل صفير "ارجعي"، يطير مسرعاً بمفرده للعودة إلى كف الملك. شعر:

لو آنسُ بشمع وجهك لحظة واحدة
فأني استرد روحي كالفراشة المسكينة
ذلك اليوم الذي يجب أن يخلى فيه هذا القفص
فإني أرجع مثل الصقر الملكي إلى كف الملك

وكان الرسول عليه السلام يقول: "**مالي وللدنيا إنما مثلي كمثل راكب في يوم صائف فنزل واستراح في ظل شجرة ثم ركب وراح**" . فشتان ما بيني وبين الدنيا؟. أنا الذي كنت في مقام السدرة[2] حيث عُرض عليّ كل ما كان في خزانة الغيب من جواهر الملك والملكوت، ولكن ما نظرت إليها جميعاً بطَرفة عين الهمة (لقوله تعالى): "**إذ يغشى السّدرة ما يغشى، ما زاغ البصر وما طغى**"[3]، ولكن رفضت أيضاً لذة الوجود في منزل القمار ذاك، وعدت طائراً من بوابة العدم إلى عشى الأصلي، " **أو أدنى**" لأنه كان (يقول): "**حسب من حسبي الله ونسبٌ من ربي الله**"، وقال حضرة الشيخ مجد الدين شعرًا ترجمته:

---

(١) الصقر الملكي: طائر يسمى عند البعض شاهين، ويُطلق عليه أيضاً العقاب، ويسمى بالفارسية شاهباز.

(٢) مقام السدرة: هو سدرة المنتهى كما يسميه القرآن: وهو مقام القرب من الله بالنسبة للصوفية. (المترجم).

(٣) سورة النجم: آية ١٦-١٧.

ذلك اليوم الذي يُهيأ فيه أمر الوصال
ويطير فيه هذا الطائر من هذا القفص
وحين سمعت الروح صفير "ارجعي" من الملك
تعود طائراً مرة أخرى إلى كف الملك

وأنا قد قطعت نسبي من الآخرة والجنان الثماني لذلك اليوم الذي حققت فيه نسب: "أنا من الله". ولا جرم أن كل نسب يرتبط بالحدوث فيقطع ويبقى نسبي كقوله عليه السلام: **كل حسب ونسب ينقطع إلى حسبي ونسبي**". شعر:

كنت صقراً طائراً من عالم الكبرياء
ربما أحمل صيداً من أسفل إلى العلا
وحينما لم أجد أحداً هنا مسموحاً له بالسر
خرجت ثانية من ذلك الباب الذي دخلت منه

وقال أيضاً للآخرين (قوله تعالى): "**فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون**"(1). وقيل أني حُزت الأوّلية والسباق في كل ميدان. ولو كان ذلك في الفطرة الأولى، فإني كنت أول قطاف ظهر على شجرة الفكرة (كقوله عليه السلام): "**أول ما خلق الله نوري**"، ولو يكون في صحراء القيامة فسأكون أول جوهرة ظهرت من صدف التراب (لقوله عليه السلام): "**أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة**". ولو تبحث في مقام الشفاعة، فأنا أول شخص يتشفع لغرقى

---

(1) سورة المؤمنون: آية ١٠١.

بحر المعاصي (لقوله عليه السلام): "**أنا أول شافع ومشفع**"، ولو تتحدث عن الإمامة والاقتداء على الصراط، فأنا أول شخص يضع قدمه على الصراط المستقيم (لقوله عليه السلام): "**أنا أول من يحوز على الصراط**"، ولو تريد صدر الجنة لصاحب منصب، فأنا أول شخص تُفتح له أبواب الجنة بمشاهدته (لقوله عليه السلام): "**أنا أول من تُفتح له أبواب الجنة**"، ولو تنظر إلى زعيم العشاق وقائد أصحاب الأشواق فأنا أول عاشق صادق ينال سعادة وصال المعشوق (لقوله عليه السلام): "**أنا أول من تجلى له الرب**"، وهذه طرفة حيث أكون هذا كله، ولكنها ليست لذاتي أنا: "**أما أنا فلا أقول أنا**". شعر ترجمته:

عندما أطّل حبيبي بوجهه القمري، فمن أكون؟
فإني أسعد معه عندما أكون غائباً عن نفسي
فإن كنت ترى لي قدراً، فاعلم أن ذلك القدر له
ولو ترى عليه ظلاً، فاعلم أنه ظلي أنا[(١)]

وما سمعته أن الرسول ليس له ظل حقيقي، لأنه من ناحية، فإن الرسول كان شمساً (لقوله تعالى): "**وداعيا إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا**"[(٢)]، وليس للشمس ظل؛ ومن ناحية أخرى فليس للرسول ظل لأن الرسول ذاته ظل الحق (كالقول) "**السلطان ظل الله في الأرض**"، وليس للظل ظل. وحين كان تعامله مع الخلق فكان الشمس النورانية، وخلق الخلق الأولين والآخرين من شعاع النور المحمدي. وحين كان يتلاقى مع حضرة العزة، فكان ظل تلك الحضرة، حتى أن

---

(١) سنائي الغزنوي: ديوان السنائي: ص٦٧٨.
(٢) سورة الأحزاب: آية ٤٦.

كل من كان يريد أن يهرب إلى الحق فكان يهرب إلى أحضان سعادته (الرسول) لقوله تعالى: "ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريــدون وجهــه"(١) وكلما كان يختلي مع نفسه كان يهرب إلى الحق حيث كان يهرب من نفسه: "لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل". شعر ترجمته:

اقتفيت أثره كظله كثيراً من الأيــام
وقنعــت بظلــي عــن ظلــه
واليوم صــار معلومــاً لــي أنــه كالشمس
التي لن تلقــي بظلــها علــى هــذا النحــو(٢)

ومع أن الرسول كان شمس عالم نور العالمين، ولكنه كان ظــل تربيــة القول: "أبيت عند ربي"، وكان يتزع الشراب من كأس: "يسقيني"، ويأكل القديـد من خوان: "يطعمني". شعر ترجمته:

إن مــائدتك: "أبيــت عنــد ربــي"
ونومــك: "ولا ينـــام قلبـــي"
وتــراب قدمــك هــو أهــل العــالم
وتحــت رايتــك نســل آدم
وطــاووس الملائكــة بَريــدُك
وقــائد خيــل المقربيـــن مُريــدك
وحيــن لا توجــد بضاعــة مــن الطاعــة
فمنــا الذنــب ومنــك الشــفاعة

(١) سورة الأنعام: آية ٥٢.

(٢) أنوري الخاوراني: الديوان: تحقيق سعيد نفيسي: ص٦٠١.

ورغم أن كل واحد من قافلة الأنبياء عليهم السلام كان قائد أمة لقوله تعالى: "تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض"[1]، وحتى يتقدموا أممهم وينقذونها من العرصات، ولكن الرسول كان قائد القافلة حيث أخرجها أولاً من كتم العدم، وقاد قافلة الموجودات وأخرجها إلى صحراء الوجود: "**نحن الآخرون السابقون**" وحين يحل موعد عودة القافلة، فإن ما كان في الطليعة يأتي في النهاية: "**خُتم بي النبيون**". وقد قال (عليه السلام) "**فُضلت على الأنبياء بست**" أي أني فضلت على الأنبياء بستة أشياء:

الأولى: كان لكل نبي مسجد معين، وكان يؤدي الصلاة في هذا المسجد، ولا يجوز له الصلاة في موضع آخر، وحين حل دوري، جعل لي كل بساط الأرض مسجداً حتى نصلى أنا وأمتي في أي مكان نريده. وهذه إشارة إلى أن المسجد هو موضع السجدة ولا يمكن للأنبياء الآخرين أن يعرفوا ذلك القدر طولاً وعرضاً لأن كل واحد معين لنفس ومنزل وطائفة وقوم ومدينة وأمة مبعوث لها، وكان يربي كل شخص تحت جناح نبوته وقوادمها لأن كل نبي مبعوث روضة الآخرة لأرض الدنيا لأجل أمر وعمل من كيمياء نور النبوة المقدسة. وغير ذلك فإن التصرف الكيميائي للنبوة لم يكن لأي شخص بذاك الكمال لأنه (الرسول) حين اغتنم مال الكفار النجس، كان قد حلله وطهره. وغير ذلك فإنه لم يعط لأي رسول الخلاص من حجاب النفس كلية ولم يحصلوا عليه، ولكن تأتيهم بشفاعة آخر غيرهم، ولكن الجميع يقولون "**نفسي، نفسي**". وغير ذلك فكان لكل نبي قوة وشوكة كبيرة يهزمون بها الخصم حين يلاقونه، ولكن حين كانوا يلتقون بخصم أبعد، فما استطاعوا هزيمته.

---

(١) سورة البقرة: آية ٥٣.

وأمر آخر، فإن قوة النبوة كانت كبيرة حتى أن كلا منهم كان يقود أمة أثناء حياته، وبعد الوفاة كانت الأمة تحتاج إلى نبي آخر كي يقودها . ولكن حين وصل دور النبوة إلى الرسول عليه السلام ـ الذي كان محبوب الأزل والأبد ـ كانت كيمياء نبوته في كمال قوتها، حتى أنه نفذ تصرف تأثيره، هكذا، حيث جعل كل أرض الدنيا ـ التي كانت إقطاعية للشيطان وبغض الرحمن: **"ما نظر الله إلى الدنيا منذ خلقها بُغضاً لها"** ـ جعلها بيت الله ومساجد عباد الرحمن كما قيل: "جُعلت لي الأرض مسجداً"، ورفع التراب الحالك إلى مرتبة الماء الطهور: **"وترابها طهوراً"**، وجعل الغنيمة الدنسة للكفار، مالا حلالاً وطاهراً: **"وأحلت لي الغنائم"**، وأعطي راية الشفاعة بيد الكفاية: **"وأعطيت الشفاعة"**، وأرسل إلى كافة الخلق من أمته حتى ما سيكون وما كان من العالم: **"وبُعثت إلى الخلق كافة"**، وهزم الخصم مسيرة شهر بصدمات الخوف وسطوات الرعب: **"ونُصرت بالرعب مسيرة شهر"**.

وهكذا ففي البدء كانت خطبة النبوة في السموات باسمه كما قيل: **"كنت نبياً وآدم بين الماء والطين"**، وفي النهاية ضُرب باسمه صك ختم النبوة في كل الأرض: **"وختم بي النبيون"**. حقاً فأي عجب أن يكون ختم النبوة باسمه، وقد شرحنا قبل هذا الفصل أن الرسول كان بذرة شجرة الخلق، وأيضاً ثمرة تلك الشجرة، وكان الأنبياء غصن تلك الشجرة وورقتها، وينبت الكثير من الورق الذي لم يأت بثمرة، ولم يصل إلى كمال الثمرة مثلما وصلت إلى كمالها، ولن يثمر أي غصن وورقة أخرى، فيكون هو **(الرسول)** ثمرة خاتم الجميع ويكون الختم به.

ولكن لو يقول لنا اليهود والمسيحيون بأي دليل يكون محمد نبياً، ولو تكون نبوته مؤكدة فلماذا يكون دينه ناسخ الأديان؟ وما ضرورة أن كل قوم

يتركون دين أنبيائهم ويتبعونه؟، ولكل رسول كتاب، وجميعه كلام الله، فلم يلزم نسخها جميعاً وتسقط جميع الأديان حتى يكون هذا الدين الوحيد؟ ولم لا يجوز ـ مثل عهد الأنبياء الآخرين ـ أن يتبع كل قوم دينهم حتى تثبت كل الأديان والكتب؟ وجواب ذلك على وجهين: عقلي وتحقيقي:

<u>أما العقلي:</u>

هو أن نقول لهم بأي دليل عرفتم أن موسى وعيسى عليهما السلام كانا من الأنبياء، واعتقدتم فيهما وأقررتم بهما في حين لم تروهما ولم تروا معجزاتهما. وجواب ذلك لن يخرج عن وجهين: فإما أن يُقال أنه وصل إلينا بتواتر خبر النبوة ومعجزاتهم، والتواتر موجب العلم، والمعجزة دليل صحة النبوة. أو يُقال إنه حصل تصديق القلب نتيجة نور الإيمان فلم نتطلب أي دليل آخر، ونقول إننا عرفنا أيضاً خبرة النبوة ومعجزات محمد عليه السلام بالتواتر، وأيضاً القرآن الذي هو معجزته. وفي هذه الآونة نرى أن فصحاء العرب والعجم عجزوا منذ عهده حتى اليوم على أن يأتوا بمثله لأنه كانت حجته: "قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا"(١). ولا يمكن لأي شخص الإتيان بمثله. وأيضاً حصل لنا تصديق القلب نتيجة نور الإيمان لأننا نؤمن بجميع الأنبياء وكتبهم، ولسنا كاليهود الذين يؤمنون بموسى ولا يؤمنون بعيسى ومحمد عليهما السلام، ولا كالمسيحيين الذين يؤمنون بعيسى ولا يؤمنون بغيره من الأنبياء، ويقولون إن عيسى بن الله ـ عز وجل ـ ثالث ثلاثة،، وقائل بالأقانيم الثلاثة: تعالى الله

---

(١) سورة الإسراء: آية ٨٨.

عما يقول الظالمون علوا". وعلى هذا فكما عرف اليهود والمسيحيون نبوة موسى وعيسى ومعجزاتهما بالتواتر، فبالتالي ترون أن محمداً (عليه السلام) عُرف أيضاً بالتواتر ومعجزة القرى، وكما أنهم (اليهود والمسيحيون) يؤمنون بهما، فكان يجب أن يؤمنوا به، ولكن إيمانهم بأنبيائهم تقليد عن الأب وليس نتيجة نظر العقل ونور الإيمان كما قال تعالى: "**إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون**"[1]، وقال الرسول عليه السلام: "**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه**". والدين الذي يؤخذ بالتقليد عن الوالدين ــ بدون نور الإيمان ونظر العقل ــ فلا اعتبار له وهو كفر.

ولكن حين نتأكد نبوة محمد عليه السلام ونسلم به، نتساءل **لماذا كان دينه ناسخاً للأديان الأخرى**؟. نقول حين آمنتم بنبوته يجب معرفة أنه صادق القول ويجب تقبل كل الكتاب الذي جاء به، وفي القرآن المجيد، كتابه، هكذا يورد قوله تعالى: "**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون**"[2]، يعني أنه بدينه ينسخ جميع الأديان، لأن ما كان في كل كتب الأنبياء فهو في كتابه، وكل ما كان في جملة الشرائع فهو داخل في شريعته، ولكن ما جاء في كتابه وشريعته من كمالات الدين ومعارف اليقين، لم يأت في كتبهم وشرائعهم، ونسخ الأديان وكتب الأديان الأخرى ليست بذلك المعنى الذي يبطلها كلية وأنها ليست حق، ولكن بمعنى أن كل ما كان في الكتب المتفرقة والشرائع المختلفة، قد جمع كله في هذا الكتاب وهذه الشريعة، وضمنه ما هو

---

(١) سورة الزخرف: آية ٢٢.

(٢) سورة الصف: آية ٩ ، وسورة التوبة: آية ٣٣.

كمال الدين، وبلغ بالدين إلى الكمال (لقوله تعالى): "اليوم أكملت لكم دينكم"[1]، حتى بعد هذا فإذا اقتدت أي أمة برسول واحد واتبعوا نبياً واحداً، فهذه الأمة تقتدي بجملة الأنبياء وتتبعهم جميعاً (لقوله تعالى): "أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده"[2].

ومثال ذلك كملك يريد أن يحكم، وينزل آثار عدله وأحكام سلطانه على جميع بلاد العالم وعباد الممالك، وتحظى وتتمتع كافة الرعايا بإنعام وإكرام وإعزاز وإجلال الملك، فيرسل رسولاً إلى كل ديار وكل قوم، ويكتب رسالة لائقة لهم فينذر بالتهديد والوعيد، ويمني بالوعد والطمع، ويسوق لكل طائفة كلاماً موافقاً لعقلهم واستعدادهم، فيدعو البعض إلى حضرته بالاستمالة واللطف، والبعض بالإكراه والعنف لأن الأمزجة مختلفة. فالذي يستحق العنف والإكراه، إذا دعي باللطف، فلن يعرف قدره، أما إذا دعي، من يستحق اللطف، بالعنف فإنه سيحرم من تلك السعادة (لقوله تعالى): "ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك"[3]، وقال في طائفة: "وأغلظ عليهم"[4].

ومن ثم فإن كل رسول كان يذهب إلى جهة، ويتحدث إلى من يُرسل إليهم بلسان حالهم ويورد أمامهم أحكام السلطنة تدريجياً حتى اطمأن الخلق للانقياد لخدمة الملك، وامتثلوا للأمر واشتاقوا لجمال الملك.

---

(١) سورة المائدة: آية ٣.

(٢) سورة الأنعام: آية ٩٠.

(٣) سورة آل عمران: آية ١٥٩.

(٤) سورة لتوبة: آية ٧٣ ، وسورة التحريم: آية ٩.

وأراد الملك، بكمال عاطفته الملكية، أن يتمتع الخلق بكمال إنعامه وإحسانه، وذلك بأن نالت كل طائفة نصيباً من إنعامه في البدء، فعرفوا نوع طاعته. والآن ينالون نصيباً من كل شيء ويقومون بأنواع العبودية، ويتجهون إلى الحضرة ويتشرفون بشرف قرب الملك. ولذا يرسل رسولاً آخر إلى كل الدنيا، ويكتب رسالة ويجمع فيها كل الأحكام التي كانت في الرسالات الأخرى، ويدعو الجميع إلى الحضرة بواسطة ذلك الرسول وتلك الرسالة، ويقرر لهم من كمالات العبودية ما لم يكن قدّره عليهم حتى الآن، ويرسل لهم ما لم يرسل إليهم بواسطة الرسل الأخرى. وهكذا ففي البداية كان يلزم عدة رسل حتى يكونوا مستعدين لقبول هذه الكمالات، وإلا فما استطاعوا في البدء أن يقوموا بكمال العبودية، وما قبلوا جميع أحكام السلطنة، وما وصلوا إلى درجة قرب الملك، وما استحقوا ملازمة الخدمة ومنادمة الحضرة، وما استحقوا لطف الخلافة والنيابة.

وهكذا أراد الله تعالى أن يجعل لقبضة التراب نشر فضل الألوهية ويتشرف كل واحد بشرف خلافته: "**وجعلكم خلائف الأرض**"(١)، فأرسل إلى كل قوم رسولاً في كل عصر، وبيّن لهؤلاء القوم أحكام الشريعة المناسبة في كتابه لهم، وشرح بعض كمالات الدين حتى قام كل قوم بنوع من العبودية وتمتعوا بمرتبة من مراتب الدين، وانتقلوا من فرقة الكفر وفساد الأحوال إلى معرفة الدين، وتحولوا من ظلمة الطبع إلى نور الشرع.

وعندئذ اختار ـــ الله ـــ محمداً عليه السلام من جملة الأنبياء وفضلّه على الجميع، وأنزل عليه القرآن المجيد، وجمع فيه كل الأحكام التي كانت في الكتب

---

(١) سورة الأنعام: آية ١٦٥.

المتفرقة: "ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين"(١)، وأرسله بالرسالة إلى كافة الخلق: "وما أرسلناك إلا كافة للناس"(٢)، حتى إذا كان الأنبياء الآخرون قد دعوا الخلق إلى الجنة، فهو يدعو الخلق إلى الله: "**وداعياً إلى الله بإذنه**"(٣)، وهو مرشد ومصباح ودليل الجميع إلى الحضرة: "**وسراجاً منيرا**"(٤)، وأراد أن يكمل بواسطته المراتب الدينية الأخرى حتى يمكن أن يبلّغها إلى الخلق: "**اليوم أكملت لكم دينكم**"(٥)، ويتم عليه نعمة الدين: "**وأتممت عليكم نعمتي**"(٦)، ويرشدهم إلى أعلى درجة في الإسلام وهي رضا الحق: "**ورضيت لكم الإسلام دينا**"(٧)، لأن الدين الكامل ـ في الحقيقة ـ لدى حضرة العزة هو الإسلام كما قال تعالى: "**إن الدين عند الله الإسلام**"(٨)، وكل ما عدا دين الإسلام فهو مرفوض: "**ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**"(٩).

<u>وأما من الوجه التحقيقي:</u>

فاعلم أن وجود الإنسان كان هو المقصود من خلق الموجودات، وكانت المعرفة هي المقصود من وجود الإنسان، وما سمّاه الحق تعالى الأمانة، فهو

(١) سورة الأنعام: آية ٦٠.
(٢) سورة سبأ: آية ٢٨.
(٣) سورة الأحزاب: آية ٤٦.
(٤) سورة الأحزاب: آية ٤٦.
(٥) سورة المائدة: آية ٣.
(٦) سورة المائدة: آية ٣.
(٧) سورة المائدة: آية ٣.
(٨) سورة آل عمران: آية ١٩.
(٩) سورة آل عمران: آية ٨٥.

المعرفة، وقَبِل الإنسانُ تحمل تلك الأمانة، وقد مر ذكر بعضها في أول الكتاب. والمعرفة في الدين هي الإيجاد. فكلما يكرن للإنسان نصيب كبير لأي قدر من الدين، يكون له معرفة كثيرة، ومن لا نصيب له من الدين، فلا نصيب له من المعرفة. وما هو أمانة كمال الدين، فالإنسان المطلق يستطيع تحمله، ولا يستطيعه شخص معين محدد، كما أن الشجرة تستطيع تحمل الثمرة وليس غصن معين محدد. ففي البدء حين ينبت الغصن من الأرض لا يثمر حتى يصبح شجرة، فتظهر الثمرة على الشجرة وعلى كل غصن.

ومن ثم فإن الشخص الإنساني المطلق في هذا العالم واحد، وأي شخص محدد يعتبر عضواً لذلك الشخص الإنساني المطلق. والأعضاء الرئيسية لذلك الشخص الإنساني المطلق هم الأنبياء عليهم السلام، لأنه بدون تلك الأعضاء فإن حياة الشخص مستحيلة، لأنها مثل القلب والرأس والكبد والطحال والرئة والكلية وغيرها.

وكان محمد عليه السلام من الأنبياء بمثابة القلب للشخص الإنساني المطلق، والقلب خلاصته وجود الإنسان، لأن فيه الموضع المظهر لأنوار الروح والجسد، والجسم له قلب.

ومع أنه لا يمكن أن يتحمل القلب وحده الدين، الذي هو ثمرة المعرفة، فهو في حاجة إلى مدد جملة الأعضاء ، ولكن يظهر في القلب ما هو ثمرة الدين من المعرفة، ويكون للقلب التمتع بكمالها إذا كان للأعضاء الرئيسية أيضاً نصيب الاستفادة من ذلك.

وللقلب خاصية أخرى ليست لأي عضو؛ فحين خلقت صورة القلب من خلاصة الماء والطين، فقد خُلقت روح القلب من خلاصة عالم الأرواح مثلما

أخذ كل ما كان لطافة الأجسام المفردة والمركبة وخلق منها الغذاء النباتي. وكما أخذ كل ما كان لطافة الغذاء النباتي، وجعله غذاءً للحيوانات، وأخذ كل ما كان لطافة غذاء الحيوانات، وجعله لغذاء الآدمي، وأخذ ما كان لطافة غذاء الجسد وجعل منه صورة القلب.

وهكذا كان عالم الأرواح الإنسانية من لطافة الأرواح الملكية، وكانت الأرواح الملكية من لطافة الملكوتيات المختلفة، وجعل منها ما كان لطافة الروح، وخلق منها روح القلب، وبعد هذا جاء القلب خلاصة كلا العالمين الروحاني والجسماني للإنسان، ولا جرم أن نزل القلب مظهر المعرفة، ومن هنا قال تعالى: "**كتب في قلوبهم الإيمان**"(١)، ولم ينزل للإنسان أي موضع قابل لكتابة الحق إلا القلب، ولم يأت أي موضع لائق ليكون "**مقر بين الإصبعين**" سوى القلب.

وحين كان الرسول عليه السلام بمثابة القلب للشخص الإنساني المطلق، والأنبياء الآخرون أعضاء، فإنه استحق: "**فأوحى إلى عبده ما أوحى**"(٢)، لأنه كان بمثابة القلب (لقوله تعالى): "**كتب في قلوبهم الإيمان**"(٣)، وحصل له تشريف قرب: "**أو أدنى**"(٤) لأنه بمثابة: "**مقر الإصبعين**"، ولكن حصل له اختصاص القبول لأنه كان ملكوت الأشياء (لقوله تعالى): "**فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء**"(٥).

---

(١) سورة المجادلة: آية ٢٢.
(٢) سورة النجم: آية ١٠.
(٣) سورة المجادلة: آية ٢٢.
(٤) سورة النجم: آية ٩.
(٥) سورة يس: آية ٨٣.

وكما أنه معروف أن جملة الأعضاء تابعة للقلب، فهكذا أيضاً في النبوة، إذ أن جميع الأنبياء تابعون لمحمد، ومن هنا قال: "لو كان موسى وعيسى حيا لما وسعهما إلا اتباعي". ومع أن جميع الأنبياء كانوا يعملون على رعاية الدين، ولكن كان المظهر لكمال الدين هو عهد نبوة الرسول عليه السلام، وأنزل الحق تعالى، بكمال حكمته الإلهية، ما هو دين، ليكون تحت تصرف رعاية الأنبياء مثل القمح الذي يمر بيد العديد من الخلق حتى يصير خبزاً. وكل شخص يبدع فيه صنعته: فشخص ينظف القمح، وآخر يطحنه، وثالث يعجنه، ورابع يقطع الخبز، وشخص يُعده، وغيره يضع الخبز في تنور الفرن حتى ينضج في يده، ولكن لزم كل أولئك في العمل.

ومنذ عهد آدم حتى عصر عيسى عليه السلام، كان كل من الأنبياء يعمل عملاً آخر في تخمير بذرة الدين، ولكن التنور المتقد المفعم بنار محبة محمد عليه السلام حين أُعطي له خميرة مائة وعشرين نيف ألف نقطة نبوة لقوله تعالى: "أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده"[1]، فنزلت في تنور حقيقة المحبة ووصل خبز الدين إلى الكمال في مدة ثلاثة وعشرين عاماً من النبوة: "اليوم أكملت لكم دينكم"، وأخرجه من تنور حقيقة المحبة ووضعه على باب دِكان: "بعثت إلى الأحمر والأسود"، حتى أن الجوعى القحطى (لقوله تعالى): "على فترة من الرسل"[2]، يبذلون الروح والمال ثمناً لذلك الخبز، وكانوا يعملون بقوله تعالى: "وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله"[3] وذلك الخبز المطبوخ بالدين

---

(١) سورة الأنعام: آية ٩٠.

(٢) سورة المائدة: آية ١٩.

(٣) سورة التوبة: آية ٤١.

قدمته آلاف الأمم أملاً في تلك الروح، ويحظى به أصحاب السعادة: "كنتم خير أمة"[1]، وموسى، الجائع لقوله تعالى: "رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير"[2]، كان يقول مؤملاً في ذلك الخبز: "**اللهم اجعلني من أمة محمد**".

ومع أن الأنبياء عليهم السلام كانوا يعملون في هذا الخبز منذ أن كان قمحاً، حتى أن كل واحد منهم كان يؤدي فيه نصيبه ويعطي قومه منه لاستمرار الحياة، ولكن كل طائفة كانت تأكل مما كانت تعمل فيه، فمنذ ابتداء آدم في ذلك العهد، الذي كان لا يزال هذا الخبز قمحاً، فأكل حبة قمح، فنزل عليه ـ بين الخلق ـ تشنيع: "**وعصى آدم ربه فغوى**"[3].

ماذا كان هذا السر؟ إن ذلك القمح كان، حتى ذاك اليوم، لا يزال في يد الدهاقنة والمزارعين من الملائكة، وكانوا يزرعونه ويربونه في أرض الجنة، حتى أنها كانت في التربية في عصر آدم، إذ أن الحق تعالى كان يربي ماء وطين آدم بين مكة والطائف لأن الملائكة كانوا يزرعون ذلك القمح ويربونه في الجنة لغذائه (آدم).

وحين اكتمل آدم، نضج غذاؤه أيضاً ، فامتُحن **هل سيعرف غذاءه؟**، فقيل: يا آدم ادخل الجنة لتأكل ما تريد، ولا تطف حول تلك الشجرة، فلم يطف حولها امتثالاً للأمر، ولم تأنس نفسه لأي طعام، وكان لديه رغبة جامحة لذلك القمح،

(1) سورة آل عمران: آية ١١٠.
(2) سورة القصص: آية ٢٤.
(3) سورة طه: آية ١٢٥.

وكان يرعى تماماً قوله تعالى: "ولا تقربا هذه الشجرة"[1]، حتى جاء إبليس اللعين وقال: "هل أدلك على شجرة الخلد ومُلك لا يبلى"[2]، فقال آدم: إني أعرفها ولست بحاجة إلى تعليمك لأني لست روح الملائكة ولا يلزمني معلم مثلك لأني تعلمت في مكتب: "وعلم آدم الأسماء كلها"[3]، فما هي تلك الشجرة؟ وما اسمها؟: أتقول الحق إنها شجرة الخلد وواسطة الملك الأبدي !. ولكنك تتحدث عن سر العداوة حتى أخالف الأمر، وعندي مانع مقيد بالأمر. فأقسم إبليس له بأغلظ الأيمان ونصحه بأنه سيخلص آدم من قيد الأمر: "**وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين**"[4]، فنظر آدم إليه بنية صادقة، ولم يعتقد أن شخصاً سيحنث بعظمة وكبرياء الحق. وحين سمع اسم الله انخدع بالله: "**من خدعنا بالله انخدعنا**".

ومن ثم فلم تكن إرادة الحق لآدم من أجل القمح الذي أكل والذي كان مخلوقاً له ـ مع أن الملائكة كانوا يُربونه ولكن لم يكونوا يأكلونه وكان ذلك غذاء مأكول آدم ـ ولكنه أراد بذلك أن يتبع أمر إبليس فأنزل في الدنيا قوله تعالى: "وعصى آدم"[5]، وكان للحق في ذلك ترتيبات أخرى مثل هذا السر الذي لا يزال مكنون الغيب حتى هذه اللحظة، ولكن الملائكة لم يعرفوا ذلك، وكان لهم رأي فيه يقولون إننا نربى مثل هذه الشجرة آلاف السنين حتى تكون شجرة بهذا اللطف، فتكون زينة الجنات الثمانية بجمالها، فدخل هذا الطفل الحدث

(١) سورة البقرة: آية ٣٥ ، وسورة الأعراف: آية ١٩.
(٢) سورة طه: آية ١٢٠.
(٣) سورة البقرة: آية ٣١.
(٤) سورة الأعراف: آية ٢١.
(٥) سورة طه: آية ١٢٥.

وعصى الأمر وكسر غصنها الصغير، وأكل منها وحطمها، وكان لنا بصيرة بالقول: "أتجعل فيها من يفسد فيها"[1]. وهنا ظهر أثر الفساد لأنه إذا لم يكن قد أكل ذلك القمح، فإن أية بذرة لديها الاستعداد ـ حين تُزرع ـ لأن ينبت منها شجرة أخرى. ولم يعلموا كما أنه بالزراعة تنبت شجرة، فبالأكل ينمو رجل، وهذا سر كبير لا يدركه فهم أي شخص.

وسبب ذلك، كان التشنيع على آدم من أجل هذا، لأن حبة قمح الدين كانت في التربية حتى عهده، وما نال منها شخص قط، وهكذا كان يلزم لآدم الظهور بتلك القدرة، حتى يظهر كل شخص من الأنبياء الآخرين قدرته. وحين يأتي وقت الطبخ يسلمون أيديهم إلى أستاذية محمد. ويجب على كل شخص أيضاً أن يستمد قوته من ذلك. ويقال في المثل: **"كل من يعمل في الطين، يأكل الطين"**. وآدم الذي عمل في القمح أكل من القمح، والآخرون الذين صنعوا الطحين أكلوا الطحين، والذين صنعوا الخمير أكلوا الخمير، وأكل محمد والمحمديون الخبز الناضج لأنه قد نضج في تنور حقيقة المحبة المحمدية.

ومن ثم فإن خبز الدين الذي كان مطبوخاً في نار المحبة وُضع على باب دكان الدعوة المحمدية ونُودي أنه على كل فرد يلزمه خبز الدين المطبوخ بنار المحبة ليأكله ويصير محبوب الحضرة، فليحضر إلى باب دكان محمد ويجلس على مائدة دعوته: "قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله"[2]. وحتى الأنبياء لو يريدون أن يطبخوا خبزهم فليأتوا إلى باب هذا الدكان يوم القيامة حيث: **"الناس يحتاجون إلى شفاعتي يوم القيامة حتى إبراهيم"**.

---

(١) سورة البقرة: آية ٣٠.

(٢) سورة آل عمران: آية ٣١.

وحينما تحدث تربية الدين بمطلق الإنسان، فإن كل واحد من الأنبياء ـ كان عضواً للشخص الإنساني المطلق ـ كان يظهر قدرته بالكمال في خمير بذرة الدين حين بلغ الأمر إلى حقيقة محمد عليه السلام، الذي كان قلب الشخص الإنساني، فأظهر قدرته في ذلك، فوصل الدين إلى كماله، ولم يحتج إلى تصرف وتأثير أي مرب، لأن الكمال في قوله تعالى: "**اليوم أكملت لكم دينكم**"(١). وما اكتمل الدين في أي عهد إلا في عهد الرسول عليه السلام ويُقال: "**الزيادة على الكمال نقصان**"، ومن هنا قال الرسول عليه السلام: "**من أحدث في ديننا ما ليس فيه فهو رد**"، وكان يقول: "**إياكم والمحدثات فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة**".

وللدين صفات كثيرة، وكان يلزم أن يكون لكل صفة نبياً حتى تبلغ الكمال مثل آدم الذي أبلغ صفة الصفوة إلى الكمال، ونوح صفة الدعوة، وإبراهيم صفة الخليلية، وموسى صفة المكالمة، وأيوب صفة الصبر، ويعقوب صفة الحزن، ويوسف صفة الصدق، وداود صفة التلاوة، وسليمان صفة الشكر، ويحيى صفة الخوف، وعيسى صفة الانقطاع والتجرد.

وأما درة التاج وواسطة العقد ـ الذي كان كل ذلك ـ فكان صفة المحبة، وقد أبلغ محمد (صلى الله عليه وسلم) صفة الدين إلى الكمال لأنه كان قلب الشخص الإنساني، وتربية المحبة ليست سوى عمل القلب.

---

(١) سورة المائدة: آية ٣.

وكمال الدين في كمال المحبة وتشريف: "**فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه**"[١]، وهو رداءٌ حيكَ على قدّ هذه الأمة، وكرامة: "**وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة**"[٢]، كانت شمعة احترقت في سبيل بيدر الولهي كالفراشة، ولو أعطي لقوم موسى "المن والسلوى"، ولو أنزل لقوم عيسى "**مائدة من السماء**"، لقوله: "**ذرهم يأكلوا ويتمتعوا**"[٣]، ومنح لهؤلاء المتألمين مرتدي الأسمال تجرع شراب الشهود كثيراً: "**وسقاهم ربهم شراباً طهوراً**"[٤]، التي تصب في حلق أرواحهم من كأس الجمال، فدائماً يأتي نتيجة ذلك الشراب عربدة: "**أنا الحق**"، وثورة: "**سبحاني**" ولكن رداء الوجود هو ثوب على جسدهم لا يصلح إلا على قد هؤلاء المقامرين المضطربي الحال، وهذه الفراشات مهيضة الجناح لا تصدق سوى على شمع شهود الروح المقامرة، ولا جرم أن تقام خيمة العزة في بلاط سعادة هؤلاء المساكين: "**أنا عند المنكسرة قلوبهم**"، وينزل. شعر:

قال: إن عشقنا ليس ناظراً لكل قلب،
وليست كل روح صدفاً لجوهر عشقنا
والرغبة في وصالنا ليست لديك وحدك
لكن حجم هذا القباء لا يليق بكل قوام

---

(١) سورة المائدة: آية ٥٤.

(٢) سورة القيامة: آية ٢٢-٢٣.

(٣) سورة الحجر: آية ٣.

(٤) سورة الإنسان: آية ٢١.

وعندما كان كمال الدين موقوفاً على صفة كمال المحبة، واكتمل ذلك بواسطة الرسول عليه السلام، والذي كان قلب الشخص الإنساني، والأعضاء الآخرون كل منهم في أمر آخر في العبودية ورعاية الدين، وعمل القلب رعاية المحبة. فلا جرم أن جاء الرسول حبيب الله وخاتم الأنبياء. وكل من يريد أن يصل بالدين إلى الكمال ومرتبة المحبة، فيسير على نهج شريعته لقوله تعالى: **"قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله"**[1].

وحين بلغ هذا الدين الكمال، نسخ الأديان الأخرى: **(وإذا وُجد الماء بطل التيمم)**. وقد شرحنا أنه في عهد الأنبياء الآخرين كان يجب أكل القمح والطحين والخمير، والآن حيث نضج الخبز فنسخ أكلها جميعها. أما في يوم القيامة فسيولي جميع الأنبياء وجوههم شطر باب هذا الدكان ويتناولون الخبز أيضاً من خبازنا: "**آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة ولا فخر**" ولن يشبع مطلقاً بهذا الخبز من نجابة الرسول عليه السلام كما سيقول: "**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**".

ما هذه الإشارة؟ إنها إشارة لطيفة جداً وظريفة جداً أن يكون كل الخبز والسيادة والإمامة والريادة نصيب الخلق من: "**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**"[2]. وعلى ذلك، فهذه كلها محل فخرهم حين يتخذوني الريادة والقدوة وقيادة القافلة والدليل والشفيع.

---

(١) سورة آل عمران: آية ٣١.

(٢) سورة الأنبياء: آية ١٠٧.

وأما نصيبي ففي الفقر، وأملي في الحرمان، ومرادي في البؤس، ووجودي في العدم، وثروتي وفخري في الفقر كما يقول: "الفقر فخري". شعر:

ليس لنا مراد في خراسان ولا في العراق،
وليس لنا مراد في وصل الحبيب ولا الفراق
ولا يمكن أن أقترن مطلقاً بأي مراد
إنني فرد في المراد كما أن المراد واحد

يا محمد ما هو السر في أنك لا تتفاخر بإمامة الأنبياء وريادتهم، وتفخر بالفقر. ذلك لأن الطريق في العشق والمحبة، ويجب نهج هذا الطريق بالفناء. والإمامة والنبوة والريادة هي كل الوجود. شعر ترجمته:

هذا هو الطريق الذي لا يُطرق إلى بالفقر
وما لم تَفْنَ، فلا يمكنك السير فيه
وكل يوم يُفتح لك مائة طريق في هذا السبيل
فعند طلب القصاص لا يمكن الاعتراض

وقد شج جماعة الكفار شفة الرسول وسنّه بحجر الابتلاء، فأراد أن يدعو عليهم، ولكن ما تحركت شفته قط حتى جاءه خطاب قوله تعالى: "ليس لك من الأمر شيء"[1]. إنه لأمر عجب، لأنه ما كان يسلك هذه المعاملة مع نوح (عليه

(١) سورة آل عمران: آية ١٢٨.

السلام) قط حين كان يقول: "ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّارا"[1]، ففي الحال نزل الطوفان بجميع الدنيا، وأهلك الجميع.

حقاً، كان نوح (عليه السلام) مظهر صفة القهر، وكان ينهج سبيله بقوله تعالى: "**قل كُل يعمل على شاكلته**"[2]، وكان محمد عليه السلام مظهر اللطف والمحبة، وكان منهجه رعاية الحق الذي هو نصيب الآخرين. وبعد ذلك كان يضرب بالحجر، فكان الرسول يقول: "**اللهم أهد قومي فإنهم لا يعلمون**".

ماذا كان هذا السلوك؟. لقد وضع الرسول طريق الفقر والعدم، حتى يفنى الوجود في العدم. شعر:

ما لم تصبح قليلاً، وتصير أقل من القليل
فإنه لا يسمح لك أن (تسلك) في صف العشاق

ولا يمكن التمتع بالكمال من الوجود الكوني الحقيقي مع الوجود الكوني المجازى إلا بذلك المقدار الذي تبذله للوجود المجازى في سبيل الوجود الحقيقي. ويمكن أن يستفيد الحطب من النار بالوجود الحقيقي للحطب، ولكن بالقدر الذي يجعل وجود الحطب فداءاً لوجود النار ويجب التمتع بكل الوقت حتى يجعل كل وجود الحطب فداء وجود النار حتى يتحول الحطب الكثيف الظلماني السفلي إلى نار لطيفة علوية نورانية، وحتى يتحول ما بقى من وجود الحطب أيضاً إلى

(١) سورة نوح: آية ٢٦.
(٢) سورة الإسراء: آية ٨٤.

دخان. وما ذلك الدخان؟ إنه يطلب النار، لأن الحطب قد أدرك ذوق النار، ولن يقتنع بوجوده الحطبي ويريد أن يصير كل وجوده ناراً. شعر:

يا رب: ما هو حد اشتياق هذه المرتبة؟!
لأنه اليوم هو المنافس وهو أيضاً الساقي
هيا أيها الساقي وزدني من الخمر
فوجودنا ما زال به بعض البقاء

وعلى هذا، ففي هذه الحال التي تجد النار الحطب فإنها تجد لنفسها شيئاً، ولا يمكن أن تعطي منه للآخرين. شعر ترجمته:

ماذا يعرف هؤلاء البضعة من السذج عن قدر عشقك؟!
احرقني فقد احترقت مائة مرة أخرى

وكما أن الحطب يجعل كل وجوده فداء النار، فبعد هذا يطلب وجوده وكل نار يجدها من أجل وجود الأحطاب الأخرى، وهذا سر كبير. وقد جعلت مائة وعشرون ونيف ألف نقطة نبوة لحطب الوجود البشري فداء نار المحبة وتجلي صفات الحق، ولكن بقي كل شخص شبه محترق حتى يصدر منهم يوم القيامة دخان: "**نفسي، نفسي**".

أما محمد عليه السلام، فقد أفنى كل وجوده كالفراشة لأجل شمع جلال الأحدية، وجعل جملة وجوده الأحمدي فداء شعلة محبة شمع جلال الأحدية، ولا جرم حين يقول: "**أمتي، أمتي**"، وصار لسانه شعلة شمع الجلال، وكان يقول لأولاد آدم عن انقطاع النسب: "ما كان محمد أبا أحد من رجالكم". شعر:

إننا نحن المدمرون للوجود من أنفسنا
ونحن مشعلوا النار في وجودنا
إن طلعتك كالشمع في ليالي الوصال
ونحن المقامرون بوجودنا مثل الفراشة

وما سمعته، أن محمداً ليس له ظل، لأنه قد صار كله نوراً، وليس للنور ظل. وحين كان الرسول قد تخلص من ظله (لقوله تعالى): **"قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين"**[1]، ولجأ كل العالم إلى أحضان ظله لقوله: **"آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة"**. وفي البداية اتخذ النور المحمدي ذاته سر حد الوجود: **"أول ما خلق الله نوري"**، والآن اتخذ سر حد الأبد بالقول: **"لا نبي بعدي"**.

وبعد هذا أشرقت شمس الدولة المحمدية، فأُسدل ستار نجوم الأنبياء، ونسخ راية فروع الأديان، حيث نزلت آية: **"مالك يوم الدين"**[2]، فلا يلزم ظهور مصباح قط حيث **"إذا طلع الصباح استغنى عن المصباح"**.

ولو تغرب شمس صورتي مع مغرب: **"كل نفس ذائقة الموت"**[3]، ولكن شمس دولة ديني تبقى حتى نهاية العالم بواسطة العلماء الراعين للدين الناشرين للحق: **"ولا يزال طائفة من أمتي قائمين على الحق"**. وبعد هذا فما هي

---

(١) سورة المائدة: آية ١٥.

(٢) سورة الفاتحة: آية ٤.

(٣) سورة العنكبوت: آية ٥٧ ، وسورة آل عمران: آية ١٨٥.

الحاجة إلى الأنبياء ما دام كل واحد من العلماء بمثابة رسول: "**علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل**".

وللدين ظاهر وباطن، وظاهر الدين يُحفظ بواسطة علم العلماء المتقين، وباطن الدين يُسلك بواسطة مشايخ الطريق السالكين (كما يقال): "**الشيخ في قومه كالنبي في أمته**". وقد التزم الحق تعالى في ذمة كرمه بالمحافظة على الدين بواسطة هاتين الطائفتين: "**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**"[1].

وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين،

(١) سورة الحجر: آية ٩.

الفصل الخامس

في بيان تربية قالب الإنسان
على قانون الشريعة

الفصل الخامس

في بيان تربية قالب الإنسان على قانون الشريعة

قال الله تعالى: "قد أفلح من تزكي، وذكر اسم ربّه فصلى"[1]

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: **"لا يستقيم إيمان أحدكم حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ولا يستقيم لسانه حتى يستقيم عمله".**

اعلم أن الحق تعالى فتح طريقاً من ملكوت الأرواح إلى قلب العبد، ومن القلب فتح طريقاً إلى نفسه، ومن النفس أوجد طريقاً إلى صورة القالب حتى يصل كل مدد الفيض الذي يحل من عالم الغيب وينزل إلى الروح، فيصل من الروح إلى القلب، ويصل إلى النفس نصيب عن طريق القلب، وينزل أثره من النفس إلى القالب، فيظهر عمله المناسب على القالب.

ولو يظهر على صورة القالب عمل ظلماني ونفساني، فحينئذ يصل أثر تلك الظلمة إلى النفس، وتنتقل الكدورة من النفس إلى القلب ، وتنتقل الغشاوة من القلب إلى الروح، ويظهر الحجاب لنورانية الروح مثل الهالة التي تظهر حول القمر. وبقدر ذلك الحجاب يغلق طريق الروح إلى الغيب حتى يحول دون مشاهدة ذلك العالم ويقل عنه مدد الفيض.

وكلما ازداد هذا العمل الظلماني على صورة القالب، ازداد أثر الظلمة على الروح، ويزداد حجاب الطريق. وبمقدار الحجاب يقل الإبصار والسماع

(١) سورة الأعلى: آية ١٤-١٥.

والكلام ومعرفة الروح، حتى إذا لم يصلها المعالجة طبقاً لقانون الشريعة ــ والعياذ بالله ــ فيكون الخوف أن يلحقها: "**ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة**"[١]، وتتصف بصفة: "**صم بكم عمي فهم لا يرجعون**"[٢].

شعر:

أنفض الغبار دائماً من حول المرآة

لأنها لن تُصقل عندما يعلوها الصدأ

وهذه جميعها من الروحانية والجسمانية كطلسم ربطه الحق تعالى بعضه ببعض، وجعل الشريعة مفتاحاً لفتح طلسمها . وللشريعة ظاهر وباطن: فظاهرها الأعمال البدنية لأنها مفتاح صورة القالب، ولذلك المفتاح خمسة أسنان هي الصلاة والصوم والزكاة والحج وكلمة الشهادة، لأن طلسم صورة القالب مغلق بخمسة قيود من الحواس الظاهرة والباطنة ويمكن فتحه بمفتاح الأسنان الخمسة: "**بُني الإسلام على خمس**". وباطن الشريعة في الأعمال القلبية والسرية والروحية والخفى والإخفاء[٣] حيث يطلق عليها الطريقة، وسيأتي شرحها في فصول تربية النفس والقلب والروح إن شاء الله. والطريقة هي مفتاح طلسم فتح الباطن، وكما أن الشريعة مفتاح الوصول للطريقة، فالطريقة طلسم الوصول للحقيقة.

---

(١) سورة البقرة: آية ٧.

(٢) سورة البقرة: آية ١٨.

(٣) الخفى والإخفاء: هي الغيبيات واللا مرئيات. (المترجم).

وجعلت الخلائق نوعين: الأنبياء وأمة الأنبياء. فالأولى فتح لهم باب الطلسمات الباطنية بمفتاح الطريقة، ووصل إلى روحهم بلا واسطة عن طريق عالم الغيب وإمداد فيضان الفضل الإلهي لأنهم كانوا قابلين لذلك، ففتحت تلك الطلسمات ووصل أثر ذلك الفيض إلى قلوبهم، ثم ظهرت الشريعة على صورة قالب الأنبياء، كما قال تعالى: **"ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا"**(١).

وجعل للأمة صورة الشريعة هي طلسم الوصول للقالب، فسلكوا الطريق من هذا الباب إلى عالم الغيب. وبالتدريج حين يفتحون طلسم الصورة بمفتاح الشريعة، فعندئذ يمسكون بمفتاح الطريقة حتى يفتحوا الطلسمات الباطنية. وفي البداية فإنهم لن يتخلصوا من طلسم الصورة ما لم يتبعوا ويأتمروا بعقل مفتاح الشريعة طبقاً للقانون، ولن يستطيعوا السير على جادة أهل الطريق، وقطعاً لن تفتح لهم نوافذ الحقيقة مطلقاً.

وهكذا يمكن اتباع قانون الشريعة بأن تشغل كل عضو في ذلك العمل المأمور به، وتتجنب العمل الذي نُهي عنه حتى تستقيم أسنان المفتاح طبقاً لقيد الطلسم ويفتح في الحال، ويحل نور الإيمان في القلب من الغيب. وكلما يستقيم تكثر الأسنان ويستقر ظاهر القلب بواسطة أعمال الشرع، وتزداد أنوار الإيمان في القلب من الغيب: **"ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم"**(٢)، حتى تصل تربية صورة القلب إلى الكمال وفقاً لقانون الشريعة، كما قال في الحديث: **"لا يستقيم إيمان أحدكم حتى يستقيم قلبه"**.

---

(١) سورة الشورى: آية ٥٢.

(٢) سورة الفتح: آية ٤.

أما أركان الشريعة الخمس الموافقة تماماً لأسنان مفتاح طلسم الوصـــول لقيود الحواس الخمسة، حيث ظهرت لها الآفات والحجب بواسطة تلك الحـواس، التي أنزلتها إلى مقام البهائم والأنعام، ولكنها نزلت إلى مقام سفلي. وطالما أنـهم ساروا على نهج هذه المرتبة ولم يفكوا هذا القيد، فلن يتخلصوا من هذه الصفات الذميمة، وفي حقهم (يقول الحق): "**أولئك كالأنعام بل هم أضل**"[1]، لأن البـهائم والأنعام يتمتعون بالعالم السفلي، وبواسطة الحواس الخمسة الظاهرة التي يكـون أحدها حاسة البصر التي تختص بالعين، فالجميع يُريدها أن تبصر شيئاً جميلاً.

والثانية حاسة السمــع التي ترتبط بالأذن والجميع يريدها أن تسمع صوتاً رخيماً.

والثالثة حاسة الشم التي ترتبط بالأنف والجميع يريدها أن تشـم رائحـة زكية. وغيرها حاسة الذوق التي تختص بالحلق، والجميع يريده أن يأكل ويتذوق بها شيئاً طيباً.

والأخرى حاسة اللمس وهي تتعلق بالجسد كليـة، ولكنـهم يريـدون أن يتمتعوا باستيفاء اللذات والشهوات البهيمية والحيوانية في الجسد كلـه، وليـس لديهم علم بعالم آخر، كما أنه ليست لديهم وسيلة يستفيدون بها من العالم العلـوي والآخرة الباقية.

ثم أعطى لآدم هذه الحواس الخمسة، ومنح اللذة والمتعـة مـن العوالـم الأخرى بواسطة الوسائل الأخرى التي ليست للبهائم. ولو انشغل بالتمتع بعـالم

(١) سورة الأعراف: آية ١٧٩.

البهيمية ، لانصرف كلية عن العوالم الأخرى والمتع الأخرى ويكون كالبهائم بل هم أضل. ولأنه حين تكون البهائم محرومة من العوالم الأخرى، فليس لها إدراك وعلم بذلك الحرمان، ولا جرم أنها لن تعذب بعذاب إدراك الحرمان والخسران وفقد تلك السعادة (كقوله تعالى): "وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً"[1]. وسيتحمل عذاب حرمان هذه السعادة ومخالفتها لأنها ليست للبهائم مطلقاً، حيث قيل عنهم (قوله تعالى): "بل هم أضل". ولو يترك الإنسان المتع الحيوانية والبهيمية كلية، ولا يتبع الشرع، بل يسير بالطبع، فإنه ينصرف عن تربية القالب ويحرم من فوائده.

ومن ثم أُنزلت عليه الشريعة، حتى أن كل تصرف يسلكه في المراتع البهيمية والمتع الحيوانية، فيسلكه بالشرع وليس بالطبع، لأن الظلمة كلها تأتي من الطبع، ويأتي النور كله من الشرع؛ لأنه حين يسير بالطبع، فيرى ذاته كلية ولا يرى الحق، وهذه هي الظلمة والحجاب. وحين ينهج طريق الشرع يرى كل الحق، ولا يرى ذاته؛ وهذا هو النور ورفع الحجب. وغير ذلك فإن كل ظلمة وكدورة تظهر في القالب بواسطة الحركات الطبيعية حيث سارت وفق مراد النفس وجاءت لتعبدات الشرع، فلن تبلغ مرادها مطلقاً. وغير ذلك فكل ركن من الأركان الشرعية يُذكره بوطنه الأصلي ونزوله من عالم الآخرة، ويرشده بالعودة إلى مقامه بجوار رب العالمين.

فكما تأتيه كلمة لا إله إلا الله، من عالم الآخرة، أنه ليس هناك أية واسطة بينه وبين حضرة الحق، فيظهر في قلبه الشوق، إلى ذلك العالم، وذوق تلك

---

(١) سورة الإنسان: آية ٢٠.

الحالة ويتمنى العودة، فيجنب القلب عن الدنيا، وتصبح اللذات البهيمية مُرة في حلق روحه، وبالتدريج يتحطم القيد.

فمثلاً حين يحدثه عن حالتين للصلاة: إحداها عن صورة حركات الصلاة، والأخرى عن صفات مناجاتها. فإنه يحدثه عن صورة الصلاة عند النزول إلى الدنيا وفي العودة إلى الآخرة. وكما أن صورة الصلاة هي القيام والركوع والسجود والتشهد التي هي الأركان الأربعة للصلاة: فإنه يقول أن الركوع من مقام الحيوانية لأن جميع الحيوانات أحنت ظهرها في الركوع. ويقول إن التشهد والسجود من عالم الجمادية والنباتية لأن كل الجمادات نكست رأسها على الأرض على هيئة السجدة، وجميع النباتات مشتركة في الشهود والقعود. ويرشد عن القيام أنه مقام إنساني، وبَني الإنسان مشتركون جميعهم في القيام.

وبعد ذلك، انظر إلى هذه الإشارة ذات البشارة في الصلاة، ففي الأول: كبّر، أي كبّر على عالم الحيوانية والبهيمية ولا تتحسر على القيد. وفي القيام أعرض بتكبيرة الإحرام عن جميع الأغراض والأعراض الدنيوية، وارفع كلا اليدين، أي انظر للدنيا والآخرة بنظر الهمة ثم اركع، وقل "الله أكبر"، أي لا تعظم أي شيء مع عظمة الحق، وابعد النظر عن كل ما هو مثير للنفس والهوى، واربط القلب بعظمة الله: قال الرسول: "**تكبيرة الأولى خير من الدنيا وما فيها**". وارحل عن النفس، وأقبل من القيام الإنساني ــ الذي هو هيئة التجبر والتكبر ــ إلى الركوع الحيواني الذي هو على شاكلة التواضع والخضوع والانكسار، ومنها أقبِل إلى سجود المذلة والخضوع الجمادي، وبعدها تحول إلى حال القعود والحضور والشهود والنباتي التشهدي. شعر:

أيـها القلـب لعلـك تدخـل مـن بـاب الانكسـار
وإلا فمتى تنتصر على العشق بالخروج عن طـور الحيـاء

وكلما تدخل في هذا الطريق، وكنت تسمو بنفس الحارس الذي نزلت بـه (كما يقال): "الصلاة معراج المؤمن". شعر ترجمته:

ما هو الطريق الذي جئت أنا منه أيها القلـب
حتى أعود منه فهذا عمل فج بسيط أيها القلب
وفي كل خطـوة ألـف شـبكة أيـها القلـب
والعشق حرام على غير الرجال أيـها القلـب

وصفات مناجاة الصلاة تحوله من المقام الحيواني وتمتعاته النفسانية وقيل وقال الخلق، إلى مقام الملكية والمناجاة ومكالمة الحق. وعن ذوق المناجاة فـي مكالمة عهد "ألست بربكم"، تقول له: "**المصلي يناجي ربه**". ولو أُريد بيان أسرار فوائد الصلاة الأخرى وكل واحدة من الأركان فلن تتحملها دور الكتب، ولكن قد شُرح مختصر عن كل واحدة حتى لا يخلو فوائد هذا المختصر من هذا القدر.

والصوم يخبره عن العهد الذي كان بصفة الملائكة، ولم يحجب بحجـب صفات الحيوانية لأن الأكل خاصية الحيوان، وعدم الأكل من صفات الملائكـة وصفة الحق تعالى، حتى أنه بهذه الإشارة يترك الأخـلاق الحيوانيـة ويتخلـق بأخلاق الحق (فيقول): "**الصوم لي وأنا أجزي به**"، أي أن الصوم خاص بي أنا، لأن حقيقة الحضرة الإلهية منزهة عن الغذاء، والباقي، من كل ما هـو كـائن، محتاج للغذاء. والملائكة إن لم تأكل الغذاء الحيواني، لكن غذاءهم هو ما يسـمى

بالتسبيح والتقديس، ولكُلّ ما يناسبه من الغذاء: "**وأنا أجزي به**"، أي أن جزاء كل طاعة الجنة، وجزاء الصوم التخلق بأخلاقي أنا، ونزل الوحي على عيسى عليه السلام: "**تجوع ترَني، تجرد تصل إليّ**".

وبعد ذلك، ففي الزكاة تزكية النفس عن صفة الحيوانية، لأن صفة الحيوانية ما يُجمع لنفسه ولا يُعطي لشخص، ولا مناص للإنسان من الجمع. وإذا لم يعط منها شيئاً، فإنه يبقى في دنس صفات الحيوانية. ويُقال أخرج الزكاة حتى تتطهر من ذلك الدنس (لقوله تعالى): "**خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلّ عليهم**"(١)، ولتتصف بصفات الحق لأن الجود والعطاء صفة الحق تعالى لقوله تعالى: "**فأما من أعطى واتقى، وصدق بالحسنى، فسنيسره لليسرى**"(٢).

والأمر الآخر هو الحج الذي يشير إلى العودة إلى حضرة العزة ويبشر بالوصول: "**وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالا**"(٣). شعر:

أيها الساقي: اسقني الشراب الصافي الزلال
إننا قد ثملنا فاسقني هذا الشراب

أيها المستقر في مدينة الإنسانية، والمقيم في الطبيعة الحيوانية والغافل عن كعبة وصالنا، فإلى متى تقيم في هذا المنزل البهيمي، وتظل قيد: "إن من

---

(١) سورة التوبة: آية ١٠٣.
(٢) سورة الليل: آيات ٥-٧.
(٣) سورة الحج: آية ٢٧.

أزواجكم وأولادكم عدواً لكم".[1] فتحرك وحطّم هذه القيود مجتمعة، واترك الولد والأزواج، واقرأ على الجميع: "فإنهم عدو لي إلا رب العالمين"،[2] وأعرض عن الجميع، وأسلك السبيل بصدق: "وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض"،[3] وافن عن المال الدنيوي، واتل: "إني ذاهب إلى ربي سيهدين"،[4] وطهر القلب ـ الذي هو موضع نظرة خاصة ـ من دنس تعلقاتهم ، وارحل من هذه المنازل والمراحل الدنيوية الجميلة، واقطع بادية النفس الأمارة وتخلص من الهوى والطبع.

وحين تصل إلى ميقات الإحرام القلبي اغتسل بماء الإنابة، وتجرد من لباس الكسوة البشرية، وتقيد بإحرام العبودية، وردد نداء العشق: "لبيك"، وانزل بعرفات المعرفة، وأقبل إلى جبل رحمة العناية، وأقدم إلى حرمة حريم قربنا، واثن بثناء شعار العبودية في المشعر الحرام،[5] وارجع من هناك إلى منى المنية،[6] وتقرب بالنفس البهيمية في ذلك المنحر، وعندئذ توجه إلى كعبة وصالنا (كما يقال): "دع نفسك وتعال".

فإذا وصلت إلينا، فَطُف، أي طف حولنا بعد هذا، ولا تطف حول وجودك، وجدد عهدنا مع الحجر الأسود لأنه قلبك، وهو يمين الله، وصلّ ركعتين في مقام

---

(١) سورة التغابن: آية ١٤.
(٢) سورة الشعراء: آية ٧٧.
(٣) سورة الأنعام: آية ٧٩.
(٤) سورة الصافات: آية ٩٩.
(٥) المشعر الحرام: جبل بآخر المزدلفة. (الناشر).
(٦) المنية: على وزن فعيلة بمعنى الموت. (الناشر).

إبراهيم، أي في مقام خليلنا، ولا تجعل عبوديتك لأجل الجنة والنار كالمأجورين، ولكن اجعل عبوديتنا بسبب الحاجة للعشق مثل العشاق، ثم أدخل كعبة الوصال، واترك وجودك كالحلقة بالباب وادخل بلا وجود، لأن الخوف والحجاب يأتي من الوجود، والأمان والوصول تأتي من فناء الوجود: **"ومن دخله كان آمنا"**.[1]

شعر:

أيها القلب العاشق، إتجه لجوار ذلك المحبوب.
واتجه إلى حضرة وصاله وأنت موله مغيب.
وحين اتجهت إلى بابه، إعرض عن الخلق كافة.
واترك وجودك عند بابه، ثم عليك بالدخول.

وبناء على هذا، ففي الحقيقة، قد استقامت أسنان مفتاح أركان الشريعة الخمس على قيود الحواس الخمسة، وفتحت الطلسمات الجسمانية والروحانية ونيلت المقاصد بالحصول. وقد شرح مختصر عن بعض تعبدات صورة الشرع، وتلك هي حقائقها التي لا تتسع لها أطباق السماء والأرض.

وصلى الله على خير خلقه محمد وآله أجمعين.

(١) سورة آل عمران: آية ٩٧.

الفصل السادس

في بيان تزكية نفس الإنسان ومعرفتها

الفصل السادس

في بيان تزكية نفس الإنسان ومعرفتها

قال الله تعالى: "ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها".[1]

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "**أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك**".

أعلم أن النفس عدو قوي، ولا نهاية لحيلها ومكرها، وأعظم عمل هو دفع شرها وقهرها لأنها ألد الأعداء من الشياطين والكفار والدنيا.

وعلى هذا فإن تربية النفس وإصلاحها وتحولها من صفة الأمارة إلى المطمئنة لهو أمر معظم وفيه كمال السعادة الإنسانية لأنها تزكي وتزيل السهوى والغضب، ولأن معرفة النفس تأتي من تربية النفس، ويحصل معرفة الحق من معرفة النفس: "**من عرف نفسه فقد عرف ربه**"، فإن معرفة السر هو كل السعادة. ولكن هنا طرفة لطيفة، وهي إنك إذا لم تعرف النفس فلن تستطيع تزكيتها. وإذا لم ترب النفس بالكمال فلن يحصل معرفتها الموجبة لمعرفة الحق، وذلك يجب أن يدون فيه كتب كثيرة حتى يتم المقصود كلية.

أما في بيان معرفة النفس فاعلم أن النفس، في اصطلاح أرباب الطريقة عبارة عن بخار لطيف منشؤه القلب، ويسميها الحكماء "الروح الحيوانية"، وذلك

(١) سورة الشمس: آية ٧-٩.

المنشأ هو الصفات الذميمة كما قال الحق تعالى: "**إن النفس لأمارة بالســـوء**".(١)
أما موضعها في القالب الآدمي، فاعلم أنها محيطة بجميع أجزاء وأعضاء القالب حيث أنه ليس هناك أي موضع من أعضاء الإنسان خال منها مثل الزيت فـــي أجزاء لب اللوز، وذلك ما قاله الرسول عليه السلام: "**بين جنبيـــك**"،(٢) أي بيـــن ضلعيك إشارة إلى ذلك، ومعظم أثر الصفات يظهر من بين الضلعيـــن كالشـــر والشهوة والفرح والقبض وغيرها، ونفوس الحيوانات الأخرى على هذه النسبة.

ولكن وُجد لنفس الإنسان ذوق من عالم البقاء لتبقى خالدة بعـــد مفارقـــة القالب، إما في الجنة، أو تخلد في النار كقوله تعالى: "**خالدين فيها أبداً**"(٣) خلافاً لنفوس الحيوانات التي ليس لها ذوق من عالم البقاء وتفنى بعد مفارقة القـــالب. واعلم أن البقاء نوعان:

أحدهما: هو الأبدي الأزلي، وهو بقاء الحق تبارك وتعالى.

والثاني: هو اللا أزلي الأبدي، وهو بقاء الأرواح والملكـــوت وعـــالم الآخـــرة وسائر العوالم الغيبية.

وعلى هذا وجدت النفس الإنسانية مذاقاً لنوعين من البقاء: أحدهمـــا أنـــه حصل لها أثر من ذوق بقاء الحق، حين تخمير طينة آدم التي شرفت باختصاص "بيدي"، في القالب المستعد للبقاء، وأيضاً وجدت أثراً من ذوق بقاء الأرواح حين

---

(١) سورة يوسف: آية ٥٣.

(٢) هذا متخذ من قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك".

(٣) سورة التوبة: آية ١٠٠، وسورة البينة: آية ٨.

ازدواج الروح والقالب (لقوله تعالى): "**ونفخت فيه من روحي**".[1] ومثال ذلك حين يتزاوج رجل وامرأة، فينجبان نسلين: أحدهما ذكر يبقى مثل الوالد، والآخر أنثى تظل على صفة الأم. ومن ازدواج الروح والقالب ظهر الولدان وهما النفس والقلب. أما القلب فتظل روحه مثل الأب، والنفس بنتاً تظل قالباً طينياً مثل الأم. وفي القلب توجد كل الصفات الحميدة الروحانية العلوية، وفي النفس توجد جميع الصفات الذميمة الترابية السفلية، ولكن حين تكون النفس وليدة الروح والقالب، يكون لها ذلك البقاء الذي تتسم به الروح ويكون فيها أيضاً سائر الصفات الحميدة الأخرى التي تتعلق بالروحانية.

ومن ثم وُجدت النفس الإنسانية البقاء على هذه الصورة الروحانية خلافاً لنفوس الحيوانات التي هي وليدة العناصر وليس لها أي مذاق من الروحانية. ولا جرم أنها تقبل الفناء، وقد ظهرت النفس من ازدواج روح وقالب آدم.

أما ذرات نفوس أولاد آدم، فكانت توجد في نفس آدم، كما كانت توجد ذرات وجود قالب الأولاد في تراب قالب آدم، حتى في عهد: "**وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم**"[2]، فذرة كل ذرية خلقت، كانت ذرة تراب قالب ولد، وذرة النفس التي خلقت، كانت توجد فيها ذرة من نفس آدم، فاصطفت في صفوف مختلفة في مواجهة عالم الأرواح كاختلاف صفوف الأرواح، حتى أن كل روح تناسبت مع تلك الذرة، فقد توجهت إلى الذرة التي تعلقت بها وظهر في تلك الذرة أهلية استماع خطاب: "**ألست بربكم**"[3] وظهر استحقاق جواب "**بلى**"،

---

(١) سورة ص: آية ٧٢.
(٢) سورة الأعراف: آية ١٧٢.
(٣) سورة الأعراف: آية ١٧٢.

وكان لاستخراج الذرات من صلب آدم فائدة حتى تنزل من نور الأرواح، إلا أن الحق تعالى قادر أيضاً على أن يخاطبها في صلب آدم. ولكن حين لم يكن لها نظرة من الأرواح، فما كانت تستطيع الجواب.

وبعد ذلك أرسل تلك الذرات إلى صلب آدم كي يحفظها بفضل ألوهيته حتى نهاية العالم، فيحفظها في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات لينتقل من صلب إلى صلب ومن رحم إلى رحم حتى موعد خلقها فيمزج كل ذرة بماء الأب والأم ويرسلها إلى صلب الأب ومشيمة الأم كقوله تعالى: **"من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب"**،[1] وحتى يأتي وقت الصحبة، فيرتبط الاثنان ببعضهما في الرحم ويمتزجان ببعضهما (لقوله تعالى): **"إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه"**،[2] وتصبح النطفة علقة، وتصبح العلقة مضغة في الأربعينات. وبعد أن مر عليها الأربعينيات الثلاثة، فإنها تستحق أن يتعلق بها الروح الذي كان ينظر إلى تلك الذرة من عالم الأرواح (كقوله تعالى): **"ثم أنشأناه خلقاً آخر"**.[3] وهكذا تُربى تلك الذرة في الرحم الذي هو منشأ قالب الطفل، فتربى ذرة النفس تلك، الموجودة فيه، تربية مناسبة حتى يولد الطفل ويصل سن الرشد، وتبلغ النفس كمالها النفسي، ويصير بعد ذلك قابلاً لتحمل تكاليف الشرع.

ولو جاءه خطاب الشريعة والطريقة قبل هذا، فما حصل على التربية بالكمال، وما قَبِل تحمل تكاليفها سواء عن طريق الصورة أو بطريق المعنى. فعن طريق الصورة فلا يمكنه القيام بشروط الصلاة والصوم والحج والزكاة

---

(١) سورة الطارق: آية ٦-٧.

(٢) سورة الإنسان: آية ٢.

(٣) سورة المؤمنون: آية ١٤.

لأنها كمال الأعمال البدنية، وليس للنفس قوة جسمانية. وأما عن طريق المعنى فلن تصل النفس إلى كمالها، لأن القلب الذي هو محل العقل ومعدن الإيمان ومنظور الحق، لا يستحق ذلك حتى يصير مظهر نور العقل والإيمان ونظر الحق لأنه لم تكتمل خلقته. ولو يظهر فيه شيء من هذه الأنوار، كل وقت بالتدريج، فإنه حينئذ يصير قابلاً تماماً لأن يصل إلى سن الرشد ويظهر بالعقل كما سيأتي شرح ذلك في فصل تربية القلب إن شاء الله.

والآن وقد عرفت هذا المختصر عن معرفة النفس المعتدلة، **فما هي ماهية النفس؟**: فلتسمع ولتعلم **مم تتكون تربيتها وتزكيتها**؟. اعلم أن للنفس صفتين ذاتيتين أتت بهما من الأم وباقي الصفات الذميمة تتولد من هذين الأصلين. أما هاتان الصفتان الذاتيتان فهما الهوى والغضب، وكلاهما خاصية العناصر الأربعة التي كانت وليدة النفس. والهوى هو الاتجاه والقصد ناحية السفلية كما قال تعالى: "والنجم إذا هوى"[1] وحين كان الرسول عائداً من المعراج ونازلاً إلى أسفل قيل إن هذا الاتجاه والقصد إلى أسفل هو خاصية الماء والتراب، والغضب هو الترفع والتكبر والغلبة وتلك صفة الرياح والنار. وعلى هذا، فهاتان الصفتان أصليتان لنفس آدم، وقد أتى بهما آدم مع النفس. وهاتان الصفتان هما خمير بذرة جهنم، وتنتج عنهما درجات جهنم الأخرى. كما أن هاتين الصفتين ــ الهوى والغضب ، لازمتان للنفس بالضرورة حتى تجذب منافعها بصفة الهوى وتدفع المضرات بصفة الغضب ويبقى وجودها ويتربى في عالمي الكون والفساد.

---

(١) سورة النجم: آية ١.

ولكن يجب أن ينظر لهاتين الصفتين بميزان العدل لأن نقصانهما هو سبب نقصان النفس والقلب، وزيادة هاتين الصفتين هو سبب نقصان العقل والإيمان. وتزكية وتربية النفس في اعتدال هاتين الصفتين ـ صفتي الهوى والغضب ـ وميزانهما القانوني هو الشريعة والطريقة في كل حال حتى تسلم النفس والقلب ويرقى العقل والإيمان، ويبقى الجميع في عمله ويعملون على رعاية حقوق التقوى، ولا يسعون في طلب الرخصة لأن الشرع والتقوى ميزان يرعى جميع الصفات بحد الاعتدال حتى لا يتغلب بعضها على بعض لأن هذه صفات البهائم والسباع ولأن صفة الهوى غالبة على البهائم وصفة الغضب مغلوبة، والعكس في السباع. ولا جرم أن وقعت البهائم في الحرص والشره والقهر والقتل، ووقعت السباع والوحوش في الاستيلاء والقهر والقتل والقنص.

ويجب أن تؤخذ هاتان الصفتان بميزان العدل حتى لا تقع (النفس) في مقام البهيمية والسبعية، ويتولد عنها الصفات الذميمة الأخرى، ولو يتجاوز الهوى حد الاعتدال فسيظهر الشره والحرص والأمل والخسة والدناءة والشهوة والبخل.

واعتدال الهوى هو أن يجذب المنافع ـ وهي من خاصيته ـ وقت الحاجة وبقدر الحاجة الضرورية، ولو تتجاوز الزيادة عن الاحتياج يظهر الشره، فإذا تجاوزت الزيادة أكثر من الاحتياج ظهر الحرص، وإذا مال إلى طول العمر، ظهر الأمل، وإذا مال إلى شيء وضيع وركيك ظهرت الدناءة والخسة، وإذا مال إلى شيء رفيع ولذيذ زادت الشهوة، وإذا مال إلى الحرص ظهر البخل. وهذا جميعه من الإسراف لقوله تعالى: "إنه لا يحب المسرفين"،(1) وإذا خاف من الإنفاق وقع في الفقر والجبن، وإذا قلت صفة الهوى ونقصت في أصله، ظهرت الأنوثة

---

(1) سورة الأعراف: آية ٣١ ، وسورة الأنعام: آية ١٤١.

والخنوثة والمذلة. وإذا تجاوز الغضب حد الاعتدال ظهر سوء الخلق والتكبر والعداوة والحدة والترفع والزهو والاستبداد والغرور والكذب والعجب والتفاخر والترفع والخيلاء. وإذا لم يمكن السيطرة على الغضب ظهر الحقد في الباطن. وإذا قلت أو نقصت صفة الهوى عن حدها، ظهرت قلة النخوة وعدم الغيرة والضعف والكسل والذلة والعجز، وإذا تغلبت صفتا الهوى والغضب ظهر الحسد لأنه بغلبة الهوى، فكل ما تراه مع شخص وتستحسنه تتجه إليه، وبغلبة الغضب لا تريد أن يكون لذلك الشخص شيء، وكل واحدة من الصفات الذميمة منشأ درجة في جهنم. ولو تستولي هذه الصفات على النفس، لمال طبعها إلى الفسق والفجور والقتل والإيذاء وأنواع الفساد.

وقد نظر الملائكة في ملكوت قالب آدم بنظرة ملكية فشاهدوا هذه الصفات فقالوا: "**أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء**".(١) ولم يعرفوا أنه حين يوضع إكسير الشريعة على هذه الصفات الذميمة البهيمية والسبعية والشيطانية، تصبح كلها صفات حميدة وروحانية، وفي هذا قال الحق تعالى: "**إني أعلم ما لا تعلمون**".(٢) وكيمياء الشرع لا يمحو هذه الصفات كلية لأن ذلك هو النقصان.

وعلى هذا فقد أخطأ الفلاسفة إذ اعتقدوا أنه يمكن أن تُمحى صفة الهوى والغضب والشهوة والشّره والصفات الأخرى الذميمة كلية، فتحملوا المشاق سنوات طوال ولم يمكنهم محق ذلك بالكلية، ولكن ظهر النقصان، وظهرت صفات أخرى ذميمة من ذلك النقصان، كما يظهر من نفي الهوى الأنوثة

---

(١) سورة البقرة: آية ٣٠.

(٢) سورة البقرة: آية ٣٠.

والخنوثة والمذلة ودناءة الهمة، ويظهر من نقصان الغضب قلة النخوة والضعف في الدين.

وخاصية الشرع وكيمياء الدين هو أن تبلغ كل من هذه الصفات درجة الاعتدال وتتدرج وتتصرف في مقامها، كما يفعل كل من يتغلب على هذه الصفة وتكون له هذه الصفات، مثل الحصان الهادئ يقوده إلى حيث يريد وليس كالذي تغلب عليه هذه الصفات فيذهب إلى أي مكان تحبه النفس مثل الحصان الجامح الذي يجنح برأسه ويلقي بنفسه وراكبه في بئر ويهلك الإثنان.

ومن ثم فإن أي وقت تستوي فيه صفة الهوى والغضب في النفس بإكسير الشرع، فإنها لا تتصرف بنفسها في هذه الصفات إلا بالشرع، ويظهر فيها الصفات الحميدة مثل الحياء والجود والسخاء والشجاعة والحلم والتواضع والمروءة والقناعة والصبر والشكر وغيرها من الأخلاق الحميدة، وتنتقل النفس من مقام الأمارة إلى مقام المطمئنة وتتطهر الروح. وحين قطع المنازل والمراحل السفلية والعلوية ، تصل ببراق صفة الروح إلى معارج "أعلى عليين"، ومدارج "قاب قوسين" وتستحق خطاب: "إرجعي إلى ربك راضية مرضية".[1]
شعر:

لو تخرج الطبيعة السبعية من نفسك
فإن طائر روحك يعود إلى العش
ثم يتجه نسر النفس إلى العلو
ويجلس على كف الملك ويصير بازيًا (صقراً)

(١) سورة الفجر: آية ٢٨.

ويجب أن يكون للروح براق النفس في هذا العالم لحين عودتها إلى عالمها لأنها لا تستطيع المسير، ولأنها حين نزلت إلى هذا العالم كانت راكبة على براق نفخة قوله تعالى: "**ونفخت فيه من روحي**"،[1] وفي الوقت الذي ترحل فيه إلى ذلك العالم، فإنها تحتاج إلى براق النفس، حتى ذلك المكان الذي هو سِوَ حدود النفس.

وللنفس حاجة إلى صفتي الهوى والغضب، في طريقها، ولا يمكن أن تسير بدونهما، سواء عندما تصعد إلى أعلى أو تهبط إلى أسفل. ومن هنا قال المشايخ قدس الله أرواحهم "**لولا الهوى ما سلك طريق إلى الله**". أي أنه لما كان الهوى بالنسبة للنفس كالنسر، والغضب كنسر آخر، فالغضب للصعود والهوى للهبوط لأن لكل شخص وجهة إلى مقامه من أسفل وأعلى. وحين يمتطي نمرود النفس على هذين النسرين ويطعم حسب هواها دون تبعية الشرع، فإنه بلاشك سيقع في المهالك.

ولكن إذا تغلبت طريقة الشرع على نمرود النفس فقد تحررت من مقام اللوّامة، وصارت صاحب النفس الملهمة والمطمئنة، فتتغلب على صفتي الهوى والغضب وتدرك ذوق خطاب الحق في قوله تعالى: "**إرجعي**" وتخالف الهوى والغضب من أسفل وأعلى، وتتجه نحو المطلوب الحقيقي، وتطلب قرب حضرة العزة، ولا تتجه إلى تمتعات عالم الحيوانية والوحشية، ولا تولي وجهها نحو عالم ملذات الرفعة والعزة والغلبة، ولا تتوقف في أي مرتبة ومقام، ولا تتجه لشيء قط سوى حضرة الحق.

---

(١) سورة ص: آية ٧٢.

وهاتان الآلتان هما أكمل وسيلة للروح للوصول إلى الحضرة، إذ لم يكن لنا قبل ذلك هاتان الآلتان في عالم الأرواح، مثل الملائكة الذين قنعوا بمقامهم كما قنعوا بمشاهدة النور والضوء من شمع جلال الأحدية لقولهم: "**وما منا إلا له مقام معلوم**"،[1] وليس لديهم الجسارة على أن يتقدموا أكثر من مقامهم مثل جبريل الذي كان يقول: "**لو دنوت أنملة لاحترقت**".

ولكن حين تعارفت الروح مع التراب، ومن ازدواجها مع العناصر ظهر الولدان ــ الابن والبنت ــ وهما القلب والنفس، وظهر من النفس وليدان هما الهوى والغضب. فكان الهوى هو الظلومي والغضب هو الجهولي. وحين كان اتجاه النفس إلى السفلية، أوقعها هذان، الظلومي والجهولي، في المهالك ، وكانت الروح أيضاً أسيرتهم، فهلك الجميع. وحين حالفها التوفيق، دعيت النفس الحرون إلى عالم العلو وحضرة العزة بجذبة: "**إرجعي إلى ربك**"، وحين وصلت الروح ــ التي كانت مركباً للعاقل ــ إلى مقامها المعروف، أرادت أن تركب العنان مثل جبريل، وألقت النفس الحرون بوجودها ــ كالفراشة المبثوثة بظلمة الهوى والغضب وجهلهما ــ في شمع جلال الأحدية، ونادت بترك وجودها المجازي، وأطبقت يدها في جيد وصال الشمع، وبدلت الوجود المجازي الفراشي بالوجود الحقيقي للشمع الجلالي: رباعي شعر:

يا من جلستم حول الشمع
وقنعتم بعنقود واحد من بيدر الشمع
إتصفوا بصفات الفراش وخاطروا بأرواحكم
فربما تعانقون الشمع

---

(١) سورة الصافات: آية ١٦٤.

وإذا لم توصل النفس قُدرتها الظلمية والجهلية إلى الكمال، فلا يمكن للنفس، في هذا المقام، أن تعرف بالكمال ما ماهيتها؟ ولماذا خُلقت؟ وإلى أي مقام وصلت؟.

وحين بلغ منها هذا القدر في الكمال، ووصلت بالفراشة والحب إلى نور الشمعية كما قال: "له سمعاً وبصراً ولساناً فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق"، فقد تحققت حقيقة: "**من عرف نفسه فقد عرف ربه**" أي أن كل من عرف النفس بالفراشية فإنه يدرك الحضرة بالشمعية:

فلولاكم ما عرفنا الهوى ولولا الهوى ما عرفناكم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين،

الفصل السابع

في بيان تصفية القلب على
قانون الطريقة ومعرفته

الفصل السابع

في بيان تصفية القلب على قانون الطريقة ومعرفته

قال الله تعالى: "إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد".(١)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: **"إن في جسد بن آدم لمضغة إذا صلحت صلح بها سائر الجسد وإذا فسدت فسد بها سائر الجسد ألا وهي القلب".**

اعلم أن القلب في جسم الإنسان بمثابة العرش للدنيا، وكما أن العرش محل ظهور استواء صفة الرحمانية في العالم الأكبر، فإن القلب محل ظهور استواء الروحانية في العالم الأصغر. وأما الفرق: فإن العرش ليس له شعور على استواء صفة الروحانية، وغيرها قابل للترقي حتى يصبح محل ظهور استواء الصفات الأخرى. والقلب يظهر له هذا الشعور، ولديه قابلية الترقي.

واختصاص العرش بظهور استواء الرحمانية لأنه جاء نهاية عالم الأجسام، وهو بسيط لأن إحدى وجهيه في عالم الملكوت ووجهه الآخر في عالم الأجسام. وحين يصل مدد فيض الحق تعالى إلى عالم الأجسام فهو من صفة فعل الرحمانية، ومن هنا يقال: **"يا رحمن الدنيا والآخرة"**، أي أنه من صفة الرحمانية تكون المتعة لجميع الخلق من القريب والغريب ومن الحيوانات والنباتات والجمادات.

---

(١) سورة ق: آية ٣٧.

وقيل إن الرحمن اسم خاص وصفة عامة، والرحيم اسم عام وصفة خاصة. وهكذا فلا يمكن أن يقال اسم الرحمن لأي شخص إلا الحق. ولجميع الموجودات تمتع بصفة الرحمانية لقوله تعالى: **"إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا"**.(١) **"ورحمن"** على صيغة فعلان لأنها للمبالغة، ويمكن أن ينادي شخص باسم **"رحيم"** لأنه اسم عام، ولكن صفة الرحيمية لا يستفيد بها إلا أهل الرحمة كقوله تعالى: **"إن رحمة الله قريب من المحسنين"**.(٢)

وحين يريد أن يصل أثر من فيض صفة الفعل الرحماني إلى عالم الأجسام، فإن أول جسم يكون قابلاً لذلك الفيض هو العرش لأنه أقرب الأجسام إلى الملكوت، ولأن له وجه في عالم الملكوت يقبل فيض الحق بذلك الوجه، ويقسم ذلك الفيض على جملة العرش، لأنه يوجد مجاري دائمة لجميع الجسمانيات من العرش ، إذ يصل مدد الفيض من تلك الروافد إلى كل جنس من الأجناس وكل نوع من الأنواع وكل صنف من الأصناف وكل قسم من الأقسام وكل شخص من الأشخاص وكل جوهر من الجواهر وكل عرض من الأعراض وكل جسم من الجسمانيات بقدر استعداد ذلك الشيء. وذلك الفيضان مستمر لأنه من الممكن أن يظل وجود الكائنات قائماً وباقياً بذلك المدد، وإذا انقطع ذلك المدد طرفة عين، فلن يبقى وجود لأي شيء قط، وهذا سر: **"كل شيء هالك إلى وجهه"**.(٣) وحين استعد العرش لقبول مدد الفيض الرحماني وجد هذا التشريف

(١) سورة مريم: آية ٩٣.

(٢) سورة الأعراف: آية ٥٦.

(٣) سورة القصص: آية ٨٨.

بقوله تعالى: "الرحمن على العرش استوى"،[1] والعرش غافل وجاهل عن دولة هذه السعادة.

وهكذا أيضاً، فلقلب الإنسان وجه إلى عالم الروحانية ووجه إلى عالم القالب، ويسمى القلب قلباً على هذا النحو، لأن في القلب عالمي الروحانية والجسمانية، ومن ثم فكل مدد فيض يستمده من الأرواح، فإن القلب يقسم ذلك الفيض، ولكل عضو من القلب عرق دقيق ممتد لأن تلك العروق هي مجاري فيض الروح لكل عضو، وكل فيض يصل إلى القلب، يقسمه، ويعطي كل عضو نصيباً مناسباً لذلك العضو. ولو انقطع مدد الفيض لحظة عن القلب، فإنه يتوقف عن العمل وتنقطع حياة العروق، ولو انقطع مدد إحدى الأعضاء بسبب انسداد في العروق، التي هي مجاري الفيض، لتوقف ذلك العضو عن الحركة وأُصيب بالفلج.

ومن المعروف أن القلب في العالم الأصغر بمثابة العرش في العالم الأكبر، ولكن للقلب خاصية وشرف ليست للعرش. ذلك، أن للقلب شعوراً حين قبول فيضان فيض الروح، وليس للعرش ذلك الشعور، لأن الروح تتصف بصفة الفيض للقلب، وصفة الروح توهب القلب الحياة والعلم والعقل حتى يدركها، مثلما تشع الشمس النور الذي هو صفتها، وتصبح نوراً ظاهراً في كل منزل، ويتصف المنزل بصفة الشمس في النورانية، ولكن فيض الرحمانية يصل إلى العرش بالفعل والقوة والقدرة، وليس بالصفة. ولا جرم أن يبقى العرش ويصل منه أثر الفعل والقوة والقدرة إلى الموجودات، فيبقى الجميع، ولكن لا يظهر فيها صفة الحياة والعلم والمعرفة التي هي صفة الحق، كما أن الشمس تفيض بصفة

(١) سورة طه: آية ٥.

النورانية على الجبل والصحراء وغيرها، فيتصف الجبل والصحراء وغيرها بصفة نورانية الشمس، ولكن يفيض بفعل التأثير على الياقوت والعقيق التي في باطن معادن الجبل والصحراء، ولا يتصف الياقوت والعقيق الذي في باطن المعدن بصفة نورانية الشمس، ولكن يتفاعل بأثر فعل الشمس بصفة الياقوتية والعقيقية.

وغير ذلك فإن للقلب استعداداً بأنه حين يجد التصفية طبقاً لقانون الطريقة، فكما يكون محل استواء صفة الروحانية، فيصبح محل استواء صفة الرحمانية. وعندما يصل بالتربية والتصفية والتوجيه إلى الكمال. فيصير محل تجلي جملة صفات الألوهية، مع أن جملة كائنات العرش وغيرها لا يمكنها مواجهة فيض تجلي نور من أنوار وصفة من صفات الحق، لأن التجلي وصل إلى جبل الطور فدك الجبل.

ونقلاً عن الرسول عليه السلام أنه أخرج طرف إصبعه الخنصر، ووضع طرف السبابة على منتصف رأسه وقال: "بهذا القدر الذي تجلى من النور الإلهي فإن الجبل تفتت"، أي بقدر منتصف طرف قمة الخنصر.

وهناك بعض العبيد للحق تعالى الذين يدرك قلبهم التصفية والتربية بمتابعة سيد الأولين والآخرين، فيصل إلى الكمال القلبي، ويتجلى على قلوبهم ـ ليلاً ونهاراً ـ بحار أنوار صفات جمال وجلال الحق عز وعلا مرات عديدة، ويتحملونها بالتوفيق الإلهي.

ولكن ما هو القلب؟ وفيم تكون تصفية القلب؟ وفيم تكون تربيته؟ وكيف يصل القلب إلى الكمال القلبي؟.

اعلم أن للقلب صورة قد سماها الرسول عليه السلام: المضغة، أي قطعة لحم موجودة لدى جميع الخلق والحيوانات، وهي قطعة لحم صنوبرية بجانب الكتف الأيسر من تحت الصدر. ولقطعة اللحم تلك روح روحانية ليست لقلب الحيوانات، وهي لقلب الإنسان. ولكن للقلب روحاً وحقيقة ومعرفة في مقام الصفاء من نور محبة الله ليست عند كل إنسان كما قال تعلى: **"إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب"**،[1] أي فمن كان له هذا القلب فله أُنسٌ مع الله، ولم يثبت ذلك لأي شخص، أي القلب الحقيقي الذي يريد، والذي نسميه روح القلب.

شعر:

من ندى العشق صار تراب آدم طيناً
فحدثت في العالم مائة فتنة واضطراب
ووصل طرف مبضع العشق إلى عرق الروح
وتقطرت قطرة صار اسمها القلب

وللقلب صلاح وفساد، فصلاح القلب في صفائه، وفساد القلب في كدورته، وصفاء القلب في سلامة حواسه، وكدورة القلب في مرضه وخلل حواسه، لأن للقلب خمس حواس مثل القالب، وصلاح القالب في سلامة حواسه، إذ أنه يدرك جملة عالم الشهادة بتلك الحواس الخمسة. وهكذا فإن للقلب خمسة حواس، حين تكون سليمة، فإنه يدرك بها جملة عالم الغيب من الملكوتيات والروحانيات، وللقلب عين يرى بها المشاهدات الغيبية وأذن يسمع بها كلام أهل الغيب وكلام الحق، وله أنف يشم بها الروائح الغيبية، وله حلق يدرك به ذوق محبته وحلاوة الإيمان وطعم العرفان.

(١) سورة ق: آية ٣٧.

وكما أن للقالب حاسة اللمس في جميع أعضائه، ينتفع بها الجسد كله من الملموسات، فللقلب عقل بنفس المثابة كي ينتفع جملة القلب بواسطة العقل من جملة المعقولات.

وكل من يثبت لديه عدم صلاحية هذه الحواس القلبية، ففي ذلك فساد قلبه وهلاك جملة جسده. وكل من كان قلبه سليماً، فمحصوله صلاح القلب ونجاته، كما قال الرسول عليه السلام: "**إن في جسد بن آدم لمضغة إذا صلحت، صلحت الأعضاء كلها، وإذا فسدت، فسدت الأعضاء كلها ألا وهي القلب**". ونفس المعنى يقوله الحق تعالى في القرآن بأن كل من كانت حواسه سليمة، فالنجاة والدرجات حاصلة له: "**إلا من أتى الله بقلب سليم**"،[1] ومن كان لديه خلل في حواس القلب، فقد خُلق لجهنم: "**ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس، لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها**".[2] ويقول في موضع آخر: "**صم بكم عمى فهم لا يعقلون**"،[3] ويقول في موضع آخر: "**فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**".[4] وفي القرآن كثير من هذه المعاني.

ثم تكون تصفية القلب في سلامة حواسه، وتربية القلب في توجهه إلى حضرة الألوهية، وتبرئه مما سوى الحق.

(1) سورة الشعراء: آية ٨٩.
(2) سورة الأعراف: آية ١٧٩.
(3) سورة البقرة: آية ١٧١.
(4) سورة الحج: آية ٤٦.

وهكذا حين اتجه إبراهيم لغير الحق، وقال إنه مريض لقوله تعالى: "فنظر نظرة في النجوم، فقال إني سقيم".[1] وحين أدركه الحق بالشفاء من هذا المرض لقوله تعالى: "وإذا مرضت فهو يشفين".[2] واتجه إلى الحضرة، وتبرأ مما سوى الحق، وقال: "إني برئ ما تشركون، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً".[3]

وغير ذلك فاعلم أن للقلب أطواراً مختلفة، وفي كل طور يوجد عجائب كثيرة ومعاني عديدة، لا تفي بشرحها كتب كثيرة. وقد ألف الشيخ الإمام محمد الغزالي جزءاً من كتاب في عجائب القلب،[4] ولم يُذكر منه الآن عشر من أعشاره، ولكن سيذكر هنا مختصر عن كل شيء إن شاء الله.

اعلم أن القلب بمثابة السماء، وفي السماء سبعة كواكب سيارة، ولكل كوكب نور وطبيعة وضوء وإضاءة وخاصية ليست في غيره.وكما أن للأرض سبعة أقاليم أيضاً ، وكل إقليم من الأرض له خاصية وفعل وطبيعة وعنصر لا ترد لإقليم غيره. وعلى هذا فالقلب مقسم إلى سبعة أطوار وسبعة أودية لقوله تعالى: "وقد خلقكم أطوارا".[5] وكما أن لكل نجم سيار محل معين ومركز محدد وطبيعة وخاصية معينة، فأيضاً أطوار القلب ــ وهي الأطوار السبعة ــ لها

---

(١) سورة الصافات: آية ٨٨-٨٩.

(٢) سورة الشعراء: آية ٨٠.

(٣) سورة الأنعام: آية ٧٨-٧٩.

(٤) هذا الجزء في كتاب الإمام محمد الغزالي: إحياء علوم الدين: الجزء الثامن: ص١٣٤٢ــ١٤٢٤: ط: دار الشعب بالقاهرة، ويوجد في ص١ــ٣٦ بالجزء الثالث: طبعة مصر بالمطبعة الشرفية عام ١٣٢٦هـ

(٥) سورة نوح: آية ١٤.

طور وسير معلوم حيث يقول (صلى الله عليه وسلم) "**الناس معادن كمعادن الذهب والفضة**".

ويُقال إن الطور الأول للقلب هو الصدر، وذاك هو معدن جوهر الإسلام كقوله تعالى: "**أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه**".[١] وحين ينقطع عنه نور الإسلام فهذا هو معدن الظلمة والكفر: "**من شرح بالكفر صدرا**"،[٢] فالصدر محل وساوس الشيطان وإغوائه لقوله تعالى: "**يوسوس في صدور الناس**".[٣] وليس هناك طريق في القلب للوساوس والتسويلات لأن القلب خزانة الحق والسماء صفة، وليس له فيها طريق: "**وحفظاً من كل شيطان مارد**".[٤] فالصدر هو قشرة القلب وصورة المضغة الصنوبرية.

ويسمى الطور الثاني بالقلب وهو معدن الإيمان: "**كتب في قلوبهم الإيمان**"،[٥] كما أنه محل نور العقل لقوله تعالى: "**فتكون لهم قلوب يعقلون بها**".[٦]

والطور الثالث هو الشغاف: وهو معدن المحبة والشفقة على الخلق: "**قد شغفها حبا**"،[٧] ومحبة الخلق لا تتعدى الشغاف.

---

(١) سورة الزمر: آية ٢٢.

(٢) سورة النحل: آية ١٠٦.

(٣) سورة الناس: آية ٥.

(٤) سورة الصافات: آية ٧.

(٥) سورة المجادلة: آية ٢٢.

(٦) سورة الحج: آية ٤٦.

(٧) سورة يوسف: آية ٣٠.

ويسمى الفؤاد الطور الرابع لأنه معدن المشاهدة ومحل الرؤيـــة كقولـه تعالى: "ما كذب الفؤاد ما رأى".[1]

ويسمى الطور الخامس محبة القلب: وهو معدن محبة حضرة الألوهيـــة، وخاصيتها أنها لا تستوعب فيها محبة المخلوق:

لا يســـتوعب هـــوى آخـــر فينـــا
ولا تسع الرأس رغبة أكثر من هـــذه الرغبـــة

ويُقال للطور السادس السويداء: وهي معدن المكاشفات الغيبيـــة والعلم اللدني ومنبع الحكمة وخزانة بيت الأسرار الإلهية ومحل علم الأسماء: "وعلم آدم الأسماء كلها"،[2] وتلك هي التي تحوي أنواع علوم الكشـــف المحـــروم منـــها الملائكة: شعر:

يا من ســـلب عشـــقك منـــا العقـــل والقلـــب
وصـــار ألمـــك ســـبب بيـــع دار قلوبنـــا[3]
إن الســـر الـــذي حـــرم منـــه القديســـون
أسَـــرهُ عشـــقك وألقـــاه فـــي أذن القلـــب.

(١) سورة النجم: آية ١١.
(٢) سورة البقرة: آية ٣١.
(٣) بيع الدار: هنا كناية عن ترك الدنيا والزهد فيها. (المترجم).

* ويُسمى الطور السابع مهجة القلب: وهي معدن ظهور أنوار تجليات الصفات الإلهية وظهور غيب الغيوب وهي سر: "**ولقد كرمنا بني آدم**".[1] ذلك أن هذه الكرامة لم ترد لأي نوع من أنواع الموجودات. واكتمال صفاء القلب في أن ينال الصحة والسلامة كلية ويشفى تماماً من آفة مرض: "**في قلوبهم مرض**".[2] ودليل سلامته أن يقوم كل من هذه الأطوار التي ذكرناها بحق عبوديته، ويختص بخاصية المعاني المودعة فيها طبقاً للشرع ومنهج المتابعة. ويجب أن يرعى رعاية تامة ـ في كل طور من أطوار القلب ـ للأذكار الخفية والجلية والخمولية والحمايلية والحلقية والاجتماعية المسموعة. وعادة ينبغي أن يراعى شرط الأدب والعبودية وإطاعة الأمر لكل من المراتب والأطوار السبعة في مقامها.

وكما أمر القالب بالسجود على سبعة أعضاء حيث قال (صلى الله عليه وسلم): "**أمرت أن أسجد على سبعة آراب**"[3] فواجب القلب أيضاً السجود على سبعة أطوار.

وسجدة المقام الأول لطور القلب هي التوبة عن الأنجاس الظاهرية والأرجاس الباطنية. وقطعاً يجب أن تكون هذه التوبة بيدٍ (بقدرة) كاملة حتى يصدق عليه قوله (صلى الله عليه وسلم): "**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**".

---

(١) سورة الإسراء: آية ٧٠.

(٢) سورة البقرة: آية ١٠.

(٣) آراب: جمع إرب وهو العضو. (الناشر).

والطور الثاني للسجدة: هو تزكية النفس من الذمائم والتسويلات الشيطانية والهواجس النفسانية.

والطور الثالث: هو تصفية القلب بالصفات الحميدة والأوصاف المحبوبة.

والطور الرابع: هو تحلية القلب بالحلل وزينات المعاني والحقائق الغيبية.

والطور الخامس: هو تجلية القلب بالتجليات الإلهية والحقائق اللاريبية.

والطور السادس: هو تخلية القلب من غير الحق ورعاية الأدب رعاية كاملة ومراقبة الصورة والمعنى ومرافقة وإطاعة الأنبياء والأولياء.

والطور السابع: هو سجود القلب والوصول إلى الدرجة القلبية وظهور غيب الغيب بما ليس للقلم حد التسطير ولا للبيان قدرة التعبير ولا للإشارة مجال "وصل القلم إلى هنا وتحطم سنّه".

وعلى ذلك فمعنى سجود القلب هو أن يعرض الوجه عن جميع المخلوقات ويعرض عن التمتعات الدنيوية والأخروية ويتجه بكل وجوده إلى حضرة العزة ولا يطلب من الحق سوى الحق ويتجه بجميع الأطوار السبعة إلى عتبة العبودية. شعر:

أيها القلب إنك ألف سجدة على مفرق جبينه
لأن السجود الذي يؤديه الجسد ليس صلاة.

ولكن القلب في ابتدائه كالطفل ثم يستولي عليه المرض حتى لا يوصف بهذه الصفات السبعة ولا يصل بالتربية الكاملة حد البلوغ ولا يحصل له الشفاء والصحة بالكلية. ويمكن الوصول بتربية القلب إلى سر الشريعة ويسمى ذلك بالطريقة ويمكن مداواة القلب بالعلاج الناجع واستعمال الأدوية، كما أن قانون القرآن مشحون بشرح طرق المعالجة وبيان أدويتها: "**وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين**".(١)

وهناك اختلاف بين الأطباء الحاذقين في علاج القلب، فقد اجتهد كل منهم بنوع من المعالجة ولكنهم لم يخرجوا مطلقاً عن قانون القرآن. فبعضهم اجتهد في تهذيب الأخلاق وتبديلها وعالجوا كل صفة من الصفات النفسانية ــ وهي الصفات الذميمة ــ بضدها حتى يحولوا تلك الصفة إلى صفة حميدة، كما قيل: "**العلاج بأضدادها**". فمثلاً حين أرادوا أن يعالجوا صفة البخل، وهو نوع من المرض، عالجوه بالبذل والإيثار ليبدلوه بصفة السخاء، وعالجوا صفة الغضب بالتحمل والحلم وكظم الغيظ، وغيروا صفة الحرص بالزهد وترك الدنيا والتجريد والعزلة، وصفة الشره بتقليل الطعام والجوع، وصفة الشهوة بترك اللذات والشهوات وكثرة الرياضة والمجاهدة. وهكذا عالجوا كل صفة بضدها كما يفعل طبيب الصورة حين يزيل الحرارة بالمشروبات الباردة، وعلى هذا فدفع البرودة بالمقومات الحرارية.

وهذه طريقة معقولة ومناسبة، ولكن يصرف فيها الأعمار حتى تبدل صفة واحدة ولا يملك تغييرها كلية لأن هذه الصفة ذاتية وجبلية للإنسان:

(١) سورة الإسراء: آية ٨٢.

"لا تبديل لخلق الله".[1] وينبغي أن تبقى أي من هذه الصفات في مقاميا كي لا يكون المقصود إزالتها بالكلية.

وهنا وقع الفلاسفة في الخطأ إذ صرفوا عمرهم في معالجة هذه الصفات ولم يتبعوا الأنبياء، واعتقدوا أنه من الممكن أن تتم هذه المعالجة بمجرد النظر العقلي، ولم يعرفوا ما هي الآلة الأخرى التي كانت للقلب خارج العقل كما ذكرنا، فاعتقدوا أن كل الذات هي العقل وآفة العقل من هذه الصفات الحيوانية والذميمة. وحين تتغير فإنها تصل بالكمال إلى صفات حميدة ملكية، وأرادوا التبديل بطريق العقل الذي يعملون به، وقالوا إن لنا العلم والعقل فما حاجتنا إلى اتباع الأنبياء؟. والشخص محتاج لأنه جاهل وناقص العقل، ولم يعرفوا أن وراء العقل آلات أخرى للإنسان أشرف ألف مرة من العقل كالقلب والسر والروح والخفى والإخفاء ، ولا يمكن إدراك هذه المراتب بالعقل ولا يمكن تربيتها بالعقل لأن العقل منذ البداية عاجز عن إدراك ذاته ومعلول ومريض في ذاته وقيل: "رأى العليل عليل" وكما يقال: "**طبيبٌ يداوي والطبيب مريض**". وهذا بالجملة محتاج للطبيب الشارع حتى يأمر بمعالجة كل شخص على صواب بقانون الشريعة. وحين أغمض جمع من أهل الضلالة عين البصيرة بعصابة شقاوة الغرور فقد حرموا من نظر خاصية الشرع وشريعة الأنبياء وطريقة الأولياء، ونظروا إليها باستهزاء واستخفاف واغتروا باستحسان النظر والقول. ولا جرم أن يقول الحق تعالى في عقلهم ونظرهم: "**الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون**".[2]

---

(١) سورة الروم: آية ٣٠.

(٢) سورة البقرة: آية ١٥.

ولو تصرف هذه الطـــائفة عمرها في تبديل الأخلاق وتجاهد طبقاً لقانون الشرع والطريقة، فحين تكف لحظة عن المحافظة على النفس فتتوحش النفـــس مرة أخرى وتنطلق من القيد وتتجه إلى مراتعها، ولكن كلما يحكم القيـــد أكـــثر لنفس الكلب فيظل أكثر جُوعاً، وحين يتخلص من قيد الرياضة يـــزداد شـــرهه وحرصه.

وجميع الصفات لها نفس النسبة، حيث أن جميع المقامات والصفات علـــى هذا النسق لا يمكنها ــ منذ عهد المصالحة ــ أن تخرج طيلة عمرها عـــن أي مقام وأي صفة، وحين يبدأون في تربية صفة أخرى، فتفنى تلك الصفة الأولـــى مرة أخرى ولن يتأتى هذا الأمر بالمجاهدة الشاقة والتعب والمشقات دون اتبـــاع وإطاعة الأنبياء والأولياء.

وعندما رأى الحسيـــن بن منصور، إبراهيم الخواص ــ رحمة الله عليهما ــ قال له: "**في أي مقام أنت**"، فقال له: "**أروض نفس في مقـــام التوكـــل منـــذ ثلاثين سنة**"، فقال حسين: "**إذن أفنيت عمرك في عمارة الباطن، فأين أنت مـــن الفناء في الله؟**"، وطريقة العاشقين غير هذا وطريقة الزهـــاد أخـــرى غيرهـــا. شعر:

لنـــا لســـان آخـــر غـــير هـــذا اللســـان
ومكـــان آخـــر غـــير السعير والفـــردوس
إن الفسق والعربـــدة همـــا رأسمال العشـــق
والقـــراءة والزهـــد عـــالم آخـــر.(١)

(١) محمد بن المنور: أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد: باهتمام ذبيح الله صفا: ص٣٢٩.

ومن ثم فطريقة المشايخ قدس الله أرواحهم ورضي الله عنهم ــ في ذلك كله ــ هو أن يجتهدوا أولاً، بهذا الأمر، في تصفية القلب وليس في تبديل الأخلاق، لأنه إذا حدثت تصفية القلب وحصل التوجه بالشرط فإنها تقبل إمداد فيض الحق ويحصل في لحظة واحدة الكثير من تبديل الأخلاق وصفات النفس من أثر فيض الحق التي لم تحصل لآجال طويلة بالمجاهدات والرياضات.

وشرط تصفية القلب هو أن يتبع ــ أولاً ــ تجريد[١] الظاهر بترك الدنيا والعزلة والانقطاع عن الخلق ومألوفات الطبع والاستغناء عن الجاه والمال حتى يصل إلى مقام التفريد أي تفرد الباطن عن كل محبوب ومطلوب سوى الحق. وعندئذ تظهر حقيقة التوحيد وهي سر قوله: "فاعلم أنه لا إله إلا الله"،[٢] لأن للتوحيد مقامات ودرجات:

أولاً: توحيد العامة وهو التوحيد الموحد بشواهد المصنوعات.
ثانياً: توحيد الخاصة وهو ما يثبت الحقائق والحِكم علماً أو كشفاً.
ثالثاً: توحيد خاصة الخاصة وهو التوحيد القائم بالقِدم.

وأيضاً فتحت هذه التوحيدات: التوحيد الإيماني والتوحيد اليقيني والتوحيد العياني، وما لم يُعرف حق هذا جميعه فلن تبلغ الوحدانية الحقيقية ، وما لم يُوف حق الوحدانية فلن تصل إلى حقيقة الوحدة وهي ساحل بحر الأحدية، وهذه المقامات يطول شرحها.

---

(١) التجريد: هو قطع التعلق عما سوى الله.
(٢) سورة محمد: آية ١٩.

أما هذا جميعه فلن يغير الأخلاق إلا بتصفية القلب والتوجه إلى الحق. وإذا اجتهد المريد في الخروج من ربقة تجريد الظاهر وتفريد الباطن واتجه لتصفية القلب فعليه أن يلزم الخلوة ومداومة الذكر حتى تُعزل الحواس الظاهرة بالخلوة عن العمل وينقطع عن القلب مدد آفات المحسوسات، حيث ازدادت كدورة القلب وحجابه من سيطرة الحواس في المحسوسات. شعر:

إن كل أذى يحيق بالقلب هو من النظر
وحينما تُبصر العين (شيئاً)، يتعلق بها القلب.

وحين انقطعت آفة الحواس لم تظهر آفة الوساوس الشيطانية والهواجس النفسانية لأن القلب يتكدر ويشوش بها، وسبيل هذا ــ ليخلص القلب من وساوس النفس والشيطان ــ هو ملازمة الذكر ونفي الخاطر ومراقبة الصورة الفكرية لقوله: "هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين".[1] وتكتمل أحواله ويدرك ذوق الذكر ويأخذ الذكر من اللسان والحلق وينشغل القلب بالذكر.

وخاصية الذكر أن يمحو من القلب كل كدورة وحجاب جاءت من تصرف الشيطان والنفس ورسخت في القلب. وحين تقل تلك الكدورة والحجاب يشرق نور الذكر على جوهر القلب ويظهر في القلب الوجل والخوف: "إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم".[2] وبعد ذلك فحين استقى القلب من الذكر تزول عنه القساوة ويظهر اللين والرقة في القلب لقوله تعالى: "ثم تلين جلودهم

---

(١) سورة الفتح: آية ٤.
(٢) سورة الأنفال: آية ٢.

وقلوبهم إلى ذكر الله".[1] وحين يداوم على الذكر يستولي سلطان الذكر على ولاية القلب ويخرج من القلب كل أساس غير الحق ومحبة الحق ويتجه إلى المراقبة. شعر:

جلس السر على باب القلب قائماً بالحجابة

حتى لا يسمح بالدخول لمن لا يذكره.

وحينما يسكن سلطان الذكر ولاية القلب فإن القلب يطمئن به ويأنس إليه ويستوحش كل ما سواه: **"الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب"**.[2] ولو زالت محبة الخلق من القلب بمحبة الذكر وعناية الحق فمن المعلوم أنه قد زال المرض وبلغ القلب مرتبة الاطمئنان، ولو تزال كدورة ومرض القلب باقية فيجب إزالتها طبقاً للطريقة والإجازة والعزلة والخلوة، وأيضاً بصيقل "لا إله إلا الله" وشربة نفي ما سوى الحق حتى يقبل القلب صورة الكلمة ويتجوهر بجوهر الذكر، ولا يظهر هناك أي تفكير غير الحق ويفنى الجميع، ويصير نور الذكر وجوهر كلمة "إلا الله" قائمين مقام جميع الصور. شعر:

ما كان القلب عارفاً بشرّ الدنيا وخيرها

ويده قاصرة عن شر الدنيا وخيرها

قبل الآن كان هناك القلب وآلاف من الفكر

والآن فإن جميعه لا إله إلا الله.

(١) سورة الزمر: آية ٢٣.

(٢) سورة الرعد: آية ٢٨.

وفي هذه الآونة يُنزل سلطان العشق راية السلطنة على مدينة القلب ليرتفع فوق عالم[1] القلب والروح والنفس والجسد ويأمر شحنة الشوق لتربط النفس الأمارة بحبل اللصوصية، ويضع في عنقها جذبة الطلب ويجرها إلى مقصلة القلب ليقطع رأس هواها بسيف الذكر تحت لواء علم سلطان العشق ويعلقها في شجرة الإخلاص ويستمع لصوص الشياطين الذين كانوا مرافقين للنفس ويروا القهر السلطاني فيخلون مدينة الجسد ويرحلون عن ولاية الصدر. شعر:

إنك لن ترى كثيراً من جلبة الغوغاء[2] في المدينة
حين يرتفع علم الملك في المدينة.

ويمسك جميع الفسقة والرعاع سكين العجز وكفنه للصفات الذميمة النفسانية، ويدخلون إلى باب التسليم والعبودية ويقولون: "ربنا ظلمنا أنفسنا".[3] إذا كنت قصّاباً فاقتل، وإذا كنت سلطاناً فاعف. شعر:

فقلت راجعاً إلى بابك مثل السفاكين
فهاك الرأس والسيف ولتفعل ما تريد.

ويستتيب سلطان العشق عن جميع فسقة الصفات الذميمة النفسانية من الفسق والرجس ويلقى في جيدهم رسن العبدية ويلبسهم خلعة العبودية ويمنحهم

---

(١) أصل الكلمة: چهار سوى: أي مفترق الطرق أو الأطراف الأربعة، وقد اتخذناها هنا كناية بمعنى الدنيا أو العالم. (المترجم).

(٢) الغوغاء: نعتقد أنهم عامة الخلق وبالأخص العيارين والأوباش والرنود (الفسقة).

(٣) سورة الأعراف: آية ٢٣.

قيادة بلاط القلب حتى يعودوا إلى المنطقة الأولى التي كـانت مطلوبـة منـهم. شعر:

بلـغ المعشـوق مـراده وليكـن مـا يكـون
وصار كفره كله إيماناً وليكـن مـا يكـون[1]

وبعد أن تطهرت مدينة الجسد من غوغاء فساق الشياطين ووساوس رعاع الصفات الذميمة النفسانية وخلت مرآة القلب من صدأ الطبيعة فإنها تصلح بعـد هذا لإيوان جلال الصمدية بل تليق لشروق شمس جمال الأحدية.

والآن ينزلون سلطان العشق للحراسة ويجلسون وزير العقل على بوابـة لإيوان القلب ويزينون مدينة القلب بالزينة واللآلئ وجواهر اليقين والإخـلاص والتوكل والصدق والكرم والفتوة والجود والسخاء والحياء والحلـم والشـجاعة والفراسة وأنواع الصفات الحميدة والخصال الكريمة. فما حدث هو إن السـلطان الحقيقي يدخل خلوة سراى القلب الآدمي ليظهر المعشوق الأصلي مـن حجـب جلال الجمال، ومرة أخرى يخلى حارس "لا إله إلا الله" الإيوان مـن خـواص الصفات الحميدة لأن غيرته تنفي الغير، فالقلب هو العاشق الولهان منـذ الأبـد ومثل يعقوب ساكن بيت أحزان الصدر، ستتفتح عيناه بجمال يوسف، وسيشـرق ويزدهر بيت الأحزان بجمال يوسف وسيتحول من ترح إلى فرح ومن محنة إلى سعادة، وسينتقل من كرب الفرقة إلى عزة الوصال. شعر:

---

(١) سنائي الغزنوي: ديوان السنائي، ص٦١٢.

رأيت وجهك ولم تبقِ مني شعرة من الحزن
ولم يبق وجه لي سوى العبودية لوجهك
فقلت لقلبي تمن أمنية ما
فقال القلب لم تبق لدي رغبة.

وفي هذا المقام وصل القلب إلى الحقيقة القلبية وعاد إلى السلامة والصفاء الأصلي، وبدل الصفات النفسانية ـ التي لم يبدلها طوال سنوات بالمجاهدة الشاقة والعبادة الظاهرة ـ بكيمياء الذكر ومراقبة القلب وتوجيهه، وسارت جميعها على منهج العبودية. وهنا فالحاكم ليس القلب والروح حتى تنقاد بعض صفات النفس ولا ينقاد بعضها، ولكن السلطان الحاكم هو الذي أخلى إيوان القلب من زحمة الأغيار لقوله تعالى: "وعنت الوجوه للحي القيوم"،[1] وجعل عرشه الخاص: "**لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن**". بعد هذا يغلب أمر الحق على جميع الأعضاء والصفات لقوله: "والله غالب على أمره"،[2] ولا يستطيع أي عضو أو صفة أن يتصرف بطبعه إلا بأمر وإشارة الحق: "**كنت له سمعاً وبصراً ولساناً ويداً فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق وبي يبطش**".

وبعد ذلك يصير القلب في هذا المقام محلاً لظهور جملة صفات الحق. وبما أن الصفات نوعان: صفة اللطف وصفة القهر، وصار القلب مظهر هاتين الصفتين، فإن حضرة العزة أحياناً يتجلى على القالب بصفة اللطف، وحيناً بصفة

---

(١) سورة طه: آية ١١١.

(٢) سورة يوسف: آية ٢١.

القهر، والقلب دائم التصرف والتقلب حسب ظهور هاتين الصفتين. وقد أشار الرسول عليه السلام إلى هذا فقال: "**قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء**"، فأشار إلى الرحمانية ولم يشر إلى الألوهية، لأن القلب صار محل استواء صفة الرحمانية كما قلنا في البداية.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين،

الفصل الثامن

في بيان تجلية الروح حسب قانون الحقيقة

الفصل الثامن

في بيان تجلية الروح حسب قانون الحقيقة

قال الله تعالى: "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي".(١)

وقال النبي عليه السلام: **"الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف".**

اعلم أن الروح الإنساني من عالم الأمر، ولها اختصاص القرب من الحضرة بما ليس لأيٍ من الموجودات كما شُرح ذلك في الفصول السابقة. وعالم الأمر عبارة عن العالم الذي لا يقبل المقدار والكمية والكيفية والأينية (المكانية) والمساحة. ويقع اسم الأمر بهذا المعنى على عالم الأرواح لأن وجوده ظهر بإشارة "كن"، دون مهلة زمانية وبلا واسطة المادة والمدة والعدة، والضعف والشدة. ورغم أن عالم الخلق يظهر أحياناً بإشارة "كن"، ولكن بواسطة المواد وامتداد الأيام مصداقاً لقوله تعالى: "خلق السموات والأرض في ستة أيام".(٢) وهذه الإشارة التي تقول: "قل الروح من أمر ربي".(٣) أي جاء خطاب "كن" من منشأ كاف ونون ببديع الفطرة بغير المادة والهيولى، ووجدت الحياة من صفة هو "الحي"، وصارت قائمة بصفة "القيوم" ثم صارت مادة عالم الأرواح، ومن ثم صار عالم جبروت الأرواح هو منشأ عالم الملكوت، وأصبح عالم الملكوت

---

(١) سورة الإسراء: آية ٨٥.

(٢) سورة هود: آية ٧ ، وسورة يونس: آية ٣.

(٣) سورة الإسراء: آية ٨٥.

مصدر عالم الملك وجميع عالم المُلك قائم بالملكوت، والملكوت قائم بـــالأرواح وعالم الجبروت، وعالم الأرواح قائم بعالم العقول واللاهوت. والروح الإنســانية قائمة "**بصفة القيومية**": "**فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون**".(١) وكل ما في عالم الملك والملكوت يظهر جميعه بواسطة عالم الجبروت، ويــأتي عالم الجبروت من عالم اللاهوت عدا الوجود الإنساني الذي ظهرت روحه فــي البداية بإشارة "كن" بلا واسطة، وتخمرت صورة قالبه أيضاً بلا واسطة (لقولــه عليه السلام): "**خمرت طينة آدم بيدي أربعين صباحاً**". وحيــن ازدواج الــروح والقالب تشرف دون واسطة بتشريف "**ونفخــت فيــه مــن روحــي**"، وكُــرم باختصاص إضافة: "**من روحي**"، أي "**الروح حي بحياتي**".

وهكذا كان إيجاد الروح بأمره تعالى، وأضاف وجودها بأمره لقوله تعالى: "**من أمر ربي**". وحين كان إيجاد الروح من صفة الحق، فقد تشــرفت بــالحضرة بقوله: "**من روحي**"، وهذه طرفة عظيمة.

ومن ثم فكمال مرتبة الروح جاء في تزكيتها وتصفيتها وتخليتها وتحليتــها وتجليتها بصفات الربوبية حتى تليق لخلافة تلك الحضرة. وفــي هــذا المعنــى مذاهب مختلفة. وترى طائفة السالكين أنه ما لم يحصل تزكية النفس وتصفيتــها، فلا يتيسر تجلية الروح وتحليتها وتخليتها. وقالت طائفة إنه بدون تجلية الــروح وتخليتها، فإنه تتيسر تزكية النفس أيضاً على نفس المنوال الذي شُرح في فصــل التصفية.

(١) سورة يس: آية ٨٣.

ويرى المشايخ قدس الله أرواحهم أنه ما لم تقض مدة في تزكية النفس، فلن تزكى تلك النفس ولن تصفى تماماً، ولن يتصف أي شخص بتحلية الروح وتجليتها ولن يتخلق بذلك. ولكن حين أحكموا النفس في البداية بقيد الشرع، فإنهم يتجهون إلى تصفية القلب وتزكيته، وتجلية الروح وتحليتها طبقاً لقضية: **"من تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً"**، وتظهر الألطاف الألوهية لاستقبال الكرم، وتتوالى تصرفات جذبات العناية وفضل فيض الألوهية: **"من أتاني يمشي أتيته هرولة"**، وفي لحظة يحصل للنفس الكثير من التزكية والتصفية التي لن تحصل بمجاهدة العمر: **"جذبة من جذبات الحق توازي عمل الثقلين"**.

ولكن في بداية الحال فإن الروح طفل يلزم لها التربية حتى تستحق التحلية والتجلية، لأن الروح طالما كانت في الأماكن الروحانية، ولم تتعلق بالجسم الإنساني بعد، فهي على مثال طفل كان في رحم أمه، ويلزم له غذاء مناسب لحاله ذاك، ويستحق العلم والمعرفة اللائقة لذلك المقام، ولكنه كان محروماً وجاهلاً بالأغذية المتنوعة والعلوم والمعارف المختلفة التي يستطيع إيجادها بعد الولادة.

وكذلك كان للروح في عالم الأرواح ـــ من الحضرة جلت ذاتها ـــ غذاء يمدها بالحياة، ومناسب لحوصلة الروح وهمتها في هذا المقام، وكان لها اطلاع على كليات العلوم والمعارف الروحانية، ولكنها كانت محرومة من ألوان أغذية **"أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني"**، وكانت غافلة عن معارف جزئيات عالم الشهادة وعلومها التي يمكن تحصيلها بواسطة آلات الحواس الإنسانية والقوى البشرية والصفات النفسانية. وحين ارتبطت بالقالب كانت كالطفل الذي يخرج من رحم أمه إلى المهد، فإذا لم يجد العناية على حقيقتها فإنه يهلك بسرعة. ولكن الأم الرؤم تضعه في المهد وتربط يديه ورجليه حتى لا يفعل الحركات الطبيعية

التي تكسرهما أو تلويهما. ومن ثم تحافظ عليه من أطعمة هذا العالم لأنها لا تزال غريبة عليه، ولأن معدته ما زالت لا تقوى على هضم غذاء هذا العالم، وتربيه تدريجياً على هذا الغذاء ـ ولكن ليس في الشهر الذي وُلد فيه ـ وبالأغذية التي تعود عليها وهو اللبن.

وبعد أن تمر فترة ويتعود على هواء هذا العالم، تغذية بالتدريج بالأغذية اللطيفة لهذا العالم حتى تتقوى معدته بها، ثم يستعد للأطعمة الثقيلة حيث يكوّن منها المدد للحركة والقوة في الأعمال العنيفة.

وهكذا طفل الروح، حين يرتبط كلية بمهد القالب، فيجب أن تقيد أيدي تصرفاته وأرجلها برباط أوامر الشرع ونواهيه، حتى لا يفعل حركاته بمقتضى طبع الحيوانية لأنها تهلكه، وحتى لا تتعوج أيدي صفاته الروحانية وأرجلها، أي تتبدل بالصفات النفسانية. وهو كان يغذى بلبن التصفية والتحلية من ثدي الشريعة والطريقة، لأنه أيضاً من غذائه من ذلك العالم الذي كان مقيماً فيه عدة آلاف سنة وتربى بذلك الغذاء، حتى أن قلبه ـ والذي هو بمثابة المعدة ـ يقوى طفل الروح بتلك الأغذية، ويستعد لتناول ما يكون في عالم الشهادة من الأغذية المتنوعة: "**وجعلكم خلائف الأرض**"،[1] ليمكنه أن يتحمل بها قوة أعباء حمل الأمانة، ولا تضره، بل تقويه وتغذيه.

وكما أن الطفل يتجرع اللبن من ثدي الأم أو ثدي المرضعة، ويُربّى بواسطتهما، وإلا هلك، فإن طفل الروح يستطيع تناول اللبن من ثدي شريعة أبوة

(1) سورة الأنعام: آية ١٦٥.

النبوة، ومن ثدي طريقة داية (مرضعة) الولاية، ويستطيع أن يجد التربية عن النبي أو الولي أو الشيخ أو القائم مقام الولي وإلا هلك.

وقد قلنا إنه حين يرتبط طفل الروح بمهد القالب كلية، فهذا الارتباط يأتيه وقت البلوغ ـ لأنه موعد ظهور آثار العقل ـ وتنزل الروح إلى بطن الأم منذ عهدها بتصرف نفخة الحق حتى موعد سنّ البلوغ. وبنفس النسبة فإنه حين ولادة الطفل تخرج بعض الأعضاء، ولا يخرج بعضها الآخر. كذلك تخرج أعضاء الطفل كاملة من مشيمة الأم، وتستقبله القابلة، لأنه يظهر تعلق الروح بالقالب بالتدريج، وحتى يكون القالب في الرحم، تأتيه الروح بالحياة، لأنه لم تظهر نتيجة حركتها وتعلقها بالحواس جميعها، ولا ترى بالعين ولا تسمع بالأذن. وحين تنزل من الرحم يظهر تعلقها تدريجياً بجميع الحواس والقوى البشرية.

وهكذا لا يكتمل ظهور تعلقها بأي موضع من القالب ـ لأنه محل صفة من الصفات الإنسانية ـ إلا بعد ظهور تلك الصفة في ذلك الموضع، مثل الحرص والغضب والشهوة وغيرها من الصفات. فلكل منها موضع ومحل معين حتى تظهر تلك الصفة في ذلك المحل، ولن يكتمل ظهور الروح في هذا الموضع.

وآخر صفة تظهر للإنسان هي الشهوة، حتى يكون إنساناً مكلفاً ومخاطباً. وحين تظهر تلك الصفة تتعلق الروح بها وبهذا المحل أيضاً، وتخرج كلية من مشيمة الغيب إلى عالم الشهادة. وإذا وصل صاحب السعادة على الفور إلى يد داية النبوة، فإنه يقيد يديه ورجليه بالأوامر والنواهي في مهد الشريعة، ويتربى بثدي الطريقة والشريعة. وتربيتها في أن يفسد ويبطل بالتدريج كل تعلق قبلته الروح من الازدواج بواسطة ما أدركها من الحواس والقوى البشرية وغيرها من

الصفات، التى بسببها حصل لها البعد والحجاب عن حضرة العزة، وكل شـــيء تتآنس إليه يستحسنه الطبع، وصار هذا الشيء قيداً لقدمها، واصبح غُلاً لعنقـــها وغضب الحق عليها، وتوقفت عن ذوق شهود ذلك الجمال والجلال. وحين تفسد جميع التعلقات، ويرتفع عنها الحجاب والقيد والغل وتدرك القرب، ويصل إلـــى مشام روحها نسيم صبا سعادة رائحة أنس الحضرة، فتصرخ. شعر:

نسيم الصبا أهـــدى إلـــى نسـيما   من بلــدة فيـها الحبيـب مقيـم

هبت الريح وجاءت برائحـــة ذؤابـــة الأحبـة
وجدّد عشـــقنا هـذا الـذي لــم يقـدم بعـد
أيتها الريـــح إنــك تحمليـن رائحــة الحبيـب
فــاحذري ولا تطوفـي قــط حــول غريـــب.

وهنا يتربى طفل الروح بوالديه: فمن ناحية يشرب اللبن من ثدي الشريعة لقطع تعلق مألوفات الطبع، ومن ناحية أخرى يشرب اللبن من ثـــدي الطريقـــة لظهور الواردات الغيبية ولوامح أنوار الحضرة ولوامعها، ويكون بين روضــــة وغدير، وحتى تتحرر الروح من قيد التعلقات الجسمانية بتأثير واردات الأنـــوار الروحانية وتجلياتها، وتتخلص من قيد الصفات البشرية، وتبلـــغ قمـــة الفطـــرة الأولى، وتستحق استماع خطاب: "ألست بربكم"، وترد الجواب: "بلى".

وهنا حين تخلصت الروح من لباس البشرية، وانقطع عنها آفـــة الوهـــم والخيال، يُعرض عليها كل ما في الملك والملكوت، حتى تشاهد كل آيات الحـــق وبيناته في ذرات الآفاق ومرآة الأنفس. وفي هذا الوقت حين تنظر مـــن كـــوة

الحواس، فإنها ترى أثر آية الحق في كل ما تطلّع عليه، ومن هنا قال ذلك العظيم "ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله فيه". وهنا يصفو العشق ويخرج من حجاب العين والشين والقاف، فترتبط الروح بالعشق، ويمتزج العشق بالروح، وترتفع الإثنينية من خلال العشق والروح وتظهر الوحدانية، وكلما يطلب روحه يجد العشق. شعر:

من شدة ما تجرعت الأحزان من عشقي لذات الوجه القمري
فقدت ذاتي من خلال عشقها.

وحتى ذلك الوقت، كانت حياة القالب بالروح، ولكن حياة الروح الآن بالعشق. شعر:

إذا كنت تراني حيّاً يا عابد العشق
حتى لا تعتقد أن في جسدي روحاً
إني حيٌ بعشقي وليس بالروح، لأن الروح
قد وضعتُها على كف اليد، طلباً لك.

وفي هذا المقام يحل العشق محل الروح، وينوب عنها في القالب، وتصير الروح فراشة شمع جمال الصمدية، وتطير بها في مدينة الظلم والجهل التي حصلت عليها من تعلقها بالعناصر ــ وهذه فائدة تعلقها بالعناصر ــ فتطير حول سرادقات عرش جلال الأحدية، وأيضاً يتيسر هذا الأمر للعاشق الولهان. شعر:

إنـي فراشـة لشـمع وجـهك الجميـل
وقلبـي فـي الحـزن عليـك، وأنـا غريـب
وقيـد ذُؤابـة الـرأس التـي فـوق جيـدك
إلقـه فـوق عنقـي لأنـي مجنـون[1]

وفي هذا المقام تستقبلها ألطاف الربوبية طبقاً لسنة: "**من تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعًا**". وتفتح للروح سبيل الانبساط، وتمنحها ملاطفة ومعاشقة "**يحبهم ويحبونه**"،[2] وتبدأ المخاطبات والمكالمات بعشق. شعر:

أيها العاشق لو تخطو خطوة واحدة فـي محلتنـا
لوجب عليك كل لحظة أن تُغَلب العار على الشوف
ويسـلم إليـك زمـام النـور
لـو تضـرم النـار، كالشـمع، فـي شـهواتك.

وعندما تسقى الروح بكئوس شراب معاتبات: "إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً"،[3] فيسرى تأثيرها في أجزاء وجود الروح، فيولي وجود الروح وجهه إلى

(1) هذه الرباعية لمجد الدين البغدادي: رضا قلى خان هدايت: رياض العارفين: ص٢١٩ ، ولنفس المؤلف الأخير: مجمع الفصحاء: ص٥٤٢ ومنوچهر مصنى: تحقيق در أحوال وآثار نجم الدين كبرى أويسي: ص ٨٤-٨٥

(2) سورة المائدة: آية ٥٤.

(3) سورة المزمل: آية ٥.

العدم من سطوات ذلك الشراب، ويتّجه من عمارة الوجود إلى خرابات الفنـــاء.
شعر:

بـــالأمس قيـــل أن شـــيخنا حـــل بالخرابـــات
وأخـذ ينـاجي بدمـع عينيـــه كـــأس الشـــراب
فمن يده يتحول الخمر عسلاً، ويصير المعبـــد مســـجدا
فانظر للشيخ العاشق حيـــن صـــار صـــاحب كرامـــات.

ويحتفظ بالروح فترة في هذا المنزل الذي يشبه الأعراف، فهو بين جنـــة عالم صفات الحق وجحيم عالم الوجود، ويمحي عنها بقـــاء صفـــات الوجـــود بشراب الشهود. وقد سمعت في هذا المعنى أنه سيترك يوســـف عليـــه الســـلام خمسمائة عام على باب الجنة حتى يمحي عنه رجس مُلك الدنيا كلية، وهو نفس إشارة: **"ونزعنا ما في صدورهم من غل".**[1] وفي الحال يتجلـــى علـــى ظـــاهره وباطنه أنواع الكرامات والنعم للروح السجينة وغلبات شـــوقها إلـــى الحضـــرة وتصرف واردات الغيب: **"وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة".**[2]

ولو ينظر السالك، في هذا المقام، لهذه النعم لراقت لناظره، وحُـــرم مـــن حضرة المنعم. وما أكثر المغرورين الذين نكصوا من هذا المقام: **"ناكصاً علـــى عقبيه"**. ولو تكتمل بصيرة روحه بتراب المتابعة وتتحلى بزينة: **"ما زاغ البصـــر**

---

(1) سورة الأعراف: آية ٤٣ ، وسورة الحجر: آية ٤٧.

(2) سورة لقمان: آية ١٠.

وما طغى".[1] فإنها تستحق مطالعة الآيات الكبرى،: "وها هنا تسكب العبرات". وهذه هي العتبة التي أراقت دم ألف صديق على تراب الامتحان دون أن يطرأ عليها أي تغيير.

وما أكثر السالكين الصادقين والطلاب العاشقين الذين ثملوا في خرابات الأرواح بكأس الكرامات، ولم يتذوقوا كأس الشراب الإلهي الأبدي، فسقطوا في سكرة العجب والغرور، ولم يفيقوا لأنفسهم مطلقاً. شعر:

لا شَرب خمراً، ولا ذهب إلى حان
لقد قرأ ما كُتب عن الكرم فأُخذ مبهوتا.

"**أصحاب الكرامات كلهم محجوبون**"، فجعلوا من تلك الكرامات أصناماً لهم، وتمنطقوا بزِنّار العجب بها، وأعرضوا عن الحق واتجهوا إلى الخلق: "**نعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر**".[2] شعر:

يا من أنت قبلة كل من اتجه إلى محلتك
إن قلب عشاق العالم متجه نحوك
واليوم كل من يشيح بوجهه عنك
فبأي عين يشاهد غداً طلعتك

(1) سورة النجم: آية ١٧.

(2) الحَوْر بفتح الحاء المهملة وسكون الواو، والكَوْر هكذا: أي نعوذ بالله من النقصان بعد الزيادة أو من القلة بعد الكثرة (الناشر).

أما أصحاب السعادة، فهم ينظرون للمنعم بنعمة الكرامـــات: "إن الذيــن سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون"،[1] ويشكرون النعمة، حتى يسـتحقوا نعمة المنعم وجوده طبقاً لقضية: "لئن شكرتم لأزيدنكم".[2] شعر:

حاشـــا أن يعـرف قلبــي الانفصــال عنــك
أو يسـتطيع أن يعــــرف أحــــداً ســـواك
فلو يتخلى عــن حبــك، فمــن يحــب ســواك
ولو يترك محلتك، فأي مصير يعرف بدونــك[3].

ووظيفة عبودية الروح في هذا المقام أن تلازم هذه العتبة وتجر أذيالـــها بعيداً عن كل الأغيار، وتعزم على طلاق وجود الدنيا والآخرة كلية، ولا تلتفـت إلى الدرجات العلا ونعيم الجنة. شعر:

مــا دام علــــى رأســنا ظــل مليكنـــا
فإن الكونيــن غلامـــان لنـــا وخادمـــاً عتبتنـــا
ورضـــوان الجنـــة والحـــور شـــوك طريقنـــا
لأن الخـــارج عـــن الكـــون منزلنـــا.

---

(1) سورة الأنبياء: آية ١٠١.

(2) سورة إبراهيم: آية ٧.

(3) هذه الرباعية لنجم الدين الكبرى: (منوچهر محسنى: تحقيق در أحوال وآثار نجم الدين كبرى أويسى: ص١٥٥-١٥٦، ورضا قلى خان هدايت: رياض العارفين: ص٢٤١).

وإذا عرضت عليه مقامات مركز النبوة التي تبلغ نيفاً ومائة وعشرين ألف مركز، فلا يلتفت إليها قط، ويحتقرها، ويلزم جادة الفقر كمحمد صلى الله عليه وسلم. ولو يسأله ألف مرة: يا عبدي ماذا تريد؟ يقول: ليس للعبد إرادة، لأن الإرادة تتجه إلى البقاء، ونحن نطلب الفناء. ولو يمكث طيلة ألف عام مُهملاً على هذه العتبة، فيجب ألا يمل، ولا يعرض عن هذه الدرجة. شعر:

أيها القلب المليء بالألم، لا تمنع قدمك عن محلته
وبالرغم من أني أعلم أن هذه البادية ليست في مقدرتك
فداوم دق رأسك، المتألمة، أرضاً على عتبته
لأن رواق سراى الجلال ليس مكانك.

وتحير جميع الأنبياء، وعجزوا في هذا المقام لأنه لا يجوز سلوك الطريق بقدم الإنسانية، ولا يمكن المرافعة فيه بساعد الرجولية. شعر:

إن وصالك كنز ينتظره جميع الخلق
وهذا الأمر هو السعادة، فلمن يصل الآن؟.

وفي هذا المقام، حينما يلقى كل سهم من الجهد من جعبة الجد، ولا يصيب هدف القبول قط، فيجب إلقاء درع التجلد، والتسليم بالعجز. شعر:

أيها القلب ربما تدخل من باب العجز
وإلا فمتى تنتصر على العشق بتوقحك.

وكان أن أعطى للمقبل ذاك الطريق لهذا البلاط، قائلين: "اعلم أنك عبد واسترح"، وحتى هذا المقام فإن الروح تقامر في رقعة نرد العشق هذه بكل ما تعلقت به، ولما صارت مفلسة وضعيفة، فيلزم الآن المراهنة على الروح. شعر:

قامر بالروح فإن وصاله لا يمنح بالأقاويل
ولا يُعطى اللبن للسكارى من قدح الشرع
ومن تلك الخمر التي يترعها المجردون معاً
فلا يعطى منها جرعة واحدة للعابدين أنفسهم.

وحين يهب نسيم نفحات ألطاف الحق من مهب العناية إلى مشام الروح، فإنها تقول مثل يعقوب بقلب حار وأنفاس باردة: "إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون"[١] شعر:

إن الرياح تهب في الخميلة وكأنها يوسف
فتهب ناحيتي رائحة من زليخا
وها هو يعقوب قلبي[٢] يهتف قائلاً:
وا حسرتاه إذ تهب رائحة القميص

(١) سورة يوسف: آية ٩٤.

(٢) يعقوب دلم: يعقوب قلبي: أي قلبي الذي كيعقوب، وهذا كناية عن شدة الألم الذي يعتصر القلب حُزناً، مثل يعقوب الذي ابيضت عيناه من الحزن كمداً ولوعة. (المترجم).

ويلوح للروح للكثير من غلبات الشوق وقلق العشق لأنها تمل من ذاتيتها، وتزهد في الوجود، وتجد في فنائها، وتستغيث كالمنصور. شعر:

اقتلوني يا ثقاتي	إن في قتلي حياتي
وحياتي في مماتي	ومماتي في حياتي

****

أيها الحبيب كم أنا سعيد بموتي

وأني لأهب مائة هدية لو أقتل الآن.

وفي هذا الوقت الذي سمح للروح بدخول بلاط العزة، وتمتحن بعذاب فراق ألم الاشتياق فيظهر عليها الجنون وتقول: شعر:

لقد فعلنا كل ما جاء في نطاق العقل وإطاره

وحلت الآن نوبة الجنون

وبهذا الاضطرار والعجز والانكسار تقنط الروح من ذاتها ومن معاملتها، وتدرك الحقيقة أن "الطلب رد والسبيل سد"، فتلقى بذاتها وتئن من أجلها وتقول: شعر:

قد تحيرت فيك خذ بيدي	يا دليلاً لمن تحير فيكا

ليلة الأمس كانت روحي حزينـــة مــن ألمـك
وكانت الثريا أنيستي ليلة الأمس حتى الصبــاح
وكــانت ضراعتـــي حتـــى تنفس الصبـــح
ليلـــة الأمـــس: "يـــا غيـــاث المســـــتغيثين".

وحين يبلغ ألم تلك الحرقة وأنينها في مقام الاضطرار إلى حضرة الرحيم، تكشف حجب العزة من أمام جمال الصمدية بناء على قضية: " أمن يجيب المضطر إذا دعاه"،[1] ويكرم عاشقه المحترق بآلاف الألطاف فيقول: شعر:

انهض وأقبل فقـــد أعــددت المـــنزل وهيأتـــه
وألقيت بعيـــداً بـــهذا الحجـــاب مـــن أجلـــك.

وهنا يتّجلى جمال الصمدية، وتفتح الروح ريشها وجناحـــــها كالفراشـــة، وتخطف أشعة شمع الوجود فراشتها، ويزدان فيض تجلي وجود الفراشة بتحليـة صفات الشمعية، وحين تتأجج ألسنة النيران من شمع جلال الأحدية، لا تــــترك قشة واحدة في بيدر فراشة الروح. شعر:

لم يبق لي أي سرور وألم قـــط فـــي عشـــقك
ولم يعد لي محفل عرس ولا مأتم قط بوصـــالك
شعاع واحد من نـــور تجليـك جعلنـــي كذلـــك
إذ لم يبق لي شيء حسن أو قبيح قليل أو كثير.

---

(1) سورة النمل: آية ٦٢.

وهنا يصير نور الجمال الصمدي هو روح الروح: "أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه"،[1] فإذا كانت هذه الروح قد قُومر بها، فهذه هي الروح التي لا يقامر بها. شعر:

جـاء العشـق وسـلم روحـي للأحبـة
ومنحنـا المعشـوق الـروح مـن روحـه.

هذه هي عتبة عالم الفناء وبداية عالم البقاء. وبعد هذا الأمر تتأتى تربيـة الروح بتحلية الجذبات: "**جذبة من جذبات الحق توازي عمل الثقلين**". شعر:

مـن أصنـاف تلـك الرسـائل التـي خبأهـا
يمكن إعطاء طرفة واحدة بمائـة ألـف روح.

"ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى.. ما زاغ البصر وما طغى".[2]

وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين،

(1) سورة المجادلة: آية ٢٢.
(2) سورة النجم: آيات ٨-١٧.

الفصل التاسع

في بيان الاحتياج للشيخ في تربية الإنسان وسلوك الطريق

الفصل التاسع

في بيان الاحتياج للشيخ في تربية الإنسان وسلوك الطريق

قال الله تعالى: "**قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما عُلمت رشدا**".[1]

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "**الشيخ في قومه كالنبي في أمته**"، كما قال ذلك الرسول العظيم: "**وفقني لطاعة من سددني ومتابعة من أرشدني**". ومن كلمات علي كرم الله وجهه: "**رحم الله أمرءاً سمع حكماً فوعى ودعى إلى رشاد فدني وأخذ بحُجزَةِ هادٍ فَنَجَا**".

اعلم أنه لسلوك طريق الدين والوصول إلى عالم اليقين، فلا مناص من شيخ كامل مرشد عارف بالطريق وصاحب ولاية وصاحب سطوة. شعر:

إن الإقلال حسن في كل شيء، ما عدا الخمر
وحينئذ تكون الخيمة أفضل من أكف الحسان.

"**أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري**". وقد ألزم موسى عليه السلام نفسه طيلة عشر سنوات في بدايته بخدمة شعيب مع كمال مرتبة النبوة ودرجة الرسالة وأولي العزم حتى ينال استحقاق شرف مكالمة الحق، وقد وصل بعد ذلك إلى سعادة الحديث الإلهي وسعادة: "**وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة**

(١) سورة الكهف: آية ٦٦.

وتفصيلا لكل شيء"،[1] وصار إمامًا لاثنى عشر سبطًا من بني إسرائيل، وتلقى جملة التوراة من تلقين الحضرة. ومرة ثانية فكان يلتزم متلمساً أبجدية المتابعة من معلمه الخضر في مدرسة تعلم العلم اللدني لقوله تعالى: "هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رُشدًا"،[2] وعندئذ يكتب له معلمه في البداية على لوحة الألف والباء قوله تعالى: "إنك لن تستطيع معي صبرا".[3] شعر:

إن العيد الذي يضحى فيه بألف روح
أي مكان فيه لقارعي الطبول المشردين.

وإنه لمفتون ومغرور هذا السالك للطريق الذي يعتقد أنه من الممكن أن يقطع البادية الشاسعة لكعبة الوصال بالقدم البشري بلا دليل ومرشد: "هيهات هيهات لما توعدون".[4] وبالرغم من أن الهداية في البداية لا حاجة بها للرسول أو الشيخ، بل إلى بذرة الطلب والتوفيق التي لا تنزل في أرض القلوب إلا بتأثير نظر العناية، فهكذا بذل الرسول جهده ليبذر هذه البذرة في قلب أبي جهل، ولكنه لم يستطع دون الحق، وقيل له: "إنك لا تهدي من أحببت، ولكن الله يهدي من يشاء".[5] شعر:

---

(1) سورة الأعراف: آية ١٤٥.
(2) سورة الكهف: آية ٦٦.
(3) سورة الكهف: آية ٦٧ ، ٧٢ ، ٧٥ (مكررة).
(4) سورة المؤمنون: آية ٣٦.
(5) سورة القصص: آية ٥٦.

بــــالله هــــل يســــتطيع امــــرؤ

أن يرضــــى بــــالله دون الله[١].

ولكن حينما وُضعت هذه البذرة فإنها تحتاج إلى رسول وشيخ لتنمية وتربية غصنها: **"وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم".**[٢]

اعلم أن احتياج المريد السالك للشيخ الواصل يرجع إلى أسباب كثيرة هي:

أولاً: أنه لا يمكن سلوك الطريق الظاهري إلى الكعبة الصورية دون دليل، مع أن سالك ذلك الطريق ذو عين وذو ثبات قدم، والطريق أيضاً واضح والمسافة محددة، في حين أن طريق الحقيقة يطرق بنيف ومائة وعشرين ألف من مراكز النبوة وعنصر الرسالة. شعر:

إن رجــال الطريــق يســيرون بهمــة وبصــيرة

ذلك أنه في طريق العشق، لا يظهر أثر خطوة واحدة.

والمبتدئ السالك في هذا الطريق، ليس له نظر ولا أثر، مع أن الجميع قد خرجوا في البداية من بداية الظلم والجهالة، حتى لا يثرثر أي شخص من تلقاء نفسه بحديث البصيرة (العلم) والمعرفة بهذا الطريق. وقد قيل لرسول الكائنات: **"ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من**

---

(١) ديوان السنائي، سنائي الغزنوي: ص١٨٧.

(٢) سورة الشورى: آية ٥٢.

نشاء من عبادنا".[1] وهكذا يؤكد أنها صحراء لا نهاية لها ولا يمكن السير فيها دون دليل محنك خبير.

الوجه الثاني: كما أنه في طريق الصورة لصوصاً وقطاع طرق كثيرين، فلا يمكن السير دون مرشد، وفي طريق الحقيقة زخارف دنيوية كثيرة كقوله تعالى: **"زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب"**.[2] وكذلك النفس والهوى وإخوان السوء والشياطين، وجميعهم قطاع الطرق، ولا يمكن السير دون مرشد صاحب ولاية.

الوجه الثالث: في هذا الطريق الكثير من مزالق الآفات والشبهات والعقبات العديدة. والفلاسفة وحدهم وقعوا في ورطة هائلة من الشبهات، وأهلكوا دينهم وإيمانهم. وأيضاً فإن الدهريين والطبيعيين والبراهمة وأهل التشبيه (المشبهة) والمعطلة (المعتزلة) والإباحية والحلولية والتناسخية وأهل الهوى والبدع، جميع أولئك شرعوا في سلوك هذا الطريق بدون شيخ ومرشد، ولم يستطيعوا سبر عقبات المزالق وتخطيها، فانحرفوا جميعاً عن الطريق في وادي آفة وشبهة أخرى منها وهلكوا. شعر:

إنك مثل نملة وهذا الطريق مثل شعر الحسان (دقيق)
فاحذر أن تسير فيه على التقليد والتخمين وخبط عشواء[3]

---

(١) سورة الشورى: آية ٥٢.
(٢) سورة آل عمران: آية ١٤.
(٣) سنائي الغزنوي: ديوان السنائي: ص٥٢.

إن المقبلين السعداء هم الذين سلكوا طريقهم في كنف المشايخ الكاملين، وعبروا كل الآفات والمزالق، واطلعوا على جملة الشبهات والآفات، وأدركوا وعرفوا من أي مزلق زج بسببه إلى جهنم كل طائفة من أهل الهوى والبدع والدهرية والطبائعية والحلولية والتناسخية والاتحادية والفلسفية، ولكن أصحاب السعادة الذين هم في ملجأ سعادة.أصحاب الولاية، فقد عبروا مزالقهم في سلام.

الوجه الرابع: وهو ما يقع للسالكين من الابتلاءات والامتحانات المتنوعة والاختبارات التي تحدث لهم طوال الطريق بالكثير من الوقفات والعثرات، فيجب أن يكون شيخاً صاحب سلطة حتى يحول دون العثرة والفترة في تصرف وتأثير ولاية المريد، ويعيد إليه حرارة الطلب والصدق والإرادة، ويخرج من طبعه، بلطائف الحيل، القبض والملل والفتور، ويبث في باطنه داعية الشوق وموجباته بالعبارات والإشارات اللطيفة: **"وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين"**.[1]

الوجه الخامس: تظهر العلل والأمراض في باطن السالك لهذا الطريق، وتغلب عليه بعض المفسدات، وينحرف مزاجه عن الطلب والإرادة لأنه يحتاج للطبيب الحاذق كي يعالجه على صواب، ويبذل وسعه لإزالة المرض وتسكين المراد، وإلا توقف (السالك) عن متابعة الطريق.

وعلى كل فإن هذه الآفات تحصل لكل مريد في البداية، فلا يتمكن طبيب القلوب من إزالتها بالأدوية الصالحة، ولا يستطيع ممارسة سلوك الطريق. وحين يبتلى في أثناء الطريق بهذه الآفات والعلل أو ببعض منها، فإنه يحتاج إلى الشيخ، وهو الطبيب الحاذق، فلا يتوقف في مقام من المقامات كغيره من

---

(١) سورة الذاريات: آية ٥٥.

السالكين، ويعتل بآفة الخوف وخلل الإيمان، كما قطع مئات الآلاف، من الصادقين والصديقين، الكثير في كل منزل ومقام لهذا الطريق، ولكنهم أصيبوا بالعلل وأفنوا إيمانهم.

الوجه السادس: إن السالك في هذا الطريق يصل إلى بعض المقامات الروحانية لأن روحه تتجرد من كسوة البشرية ولباس الماء والطين (الجسد)، ويتعلق بها فيض من ظهور آثار صفات الحق. وفي الجملة تتجلى على السالك الأنوار والصفات الروحانية اللا متناهية، ثم تزهق رسوم باطن البشرية ومظاهرها وأطلالها، ويتحقق قوله تعالى: **"جاء الحق وزهق الباطل".**[1] وفي هذا المقام لما كانت مرآة القلب قد وجدت الصفاء، فيقبل صورة تجلي الروح ويظهر فيها ذوق: "**أنا الحق**" و "**سبحاني**"، فيظهر عليه الغرور والعجب ببلوغ الكمال والوصول إلى المقصود الحقيقي بما لا يدركه نظر العقل والفهم والخيال، وما لم ترشده تصرفات ولاية الشيخ، وهي صورة لطف الحق، فيكون الخوف من زوال الإيمان. ومن الممكن حدوث آفة الحلول والاتحاد في هذا المقام؛ ولذا يلزم شيخ كامل محنك حتى يخرجه بتصرف الولاية وتأثيرها من مقام غرور الفكر ويبين له مقامه ويبصره بما هو أسمى من مقامه ويشوقه إليه، حتى يتخلص المريد من هذه المذلة، ويسير في الطريق مرة أخرى، وإلا سيظل مقيداً على هذه العتبة ولن يتخلص منها بأي صورة، والله أعلم.

الوجع السابع: وهو ما يظهر للسالك من مظاهر الغيب في سلوك الطريق، وتظهر له الوقائع، وكانت كل منها إشارة من الغيب بالنقصان والزيادة للمريد، وعلامة سيره وتوقفه، ومظهر صفاء القلب وكدورته (ظلمته)، ومعرفة الصفات

(١) سورة الإسراء: آية ٨١.

الذميمة والحميدة للنفس، ودليل الحجب الدنيوية والأخروية والأحوال الشيطانية والنفسانية والرحمانية وغيرها من معاني الوقائع التي لا تدخل في العد والحصر. والمبتدئ لا يدرك هذا مطلقاً ولا يعرفه، لأن هذا جميعه لسان الغيب، ولسان الغيب يعرفه أيضاً أهل الغيب.

ويجب أن يكون الشيخ مؤيداً بالتأييدات الإلهية وعارفاً لعلم التأويلات الغيبية، كما قال يوسف عليه السلام: **"رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث"**،[1] وحتى يعرف الوقائع وكشف أحوال المريد، ويعلمه بالتدريج لسان الغيب، ويصير معلمه وترجمانه، وإلا يحرم من هذه الإشارة والمعارف الغيبية، ولن يترقى ولن يحصل على معرفة المقامات.

الوجه الثامن: إن كل سالك يسير الطريق بقدرة قوته الذاتية، فإنه يستطيع أن يبلغ مقاماً من المقامات في أعوام طوال لأن طريق المبتدئ أضعف من سير النمل. شعر:

أنى لكل نملة أن تقطع هذا الطريق
لأن هذا الطريق لم يخلق لقدم كل إنسان وسيره

وبعض المقامات في هذا الطريق يمكن العبور عليها بالطيران، ولا يتيسر الطيران للمبتدئ لأنه مثال البيضة التي لم تصل إلى مقام الطيرية ، ولكن يجب على الشيخ ــ وهو طائر الصفة ــ أن يشد مريده على جناح ولايته وقوادمها،

(١) سورة يوسف: آية ١٠١.

حتى يقطع المسافات البعيدة ـ التي لم يستطع سيرها طيلة عمره ـ على جناح همة الشيخ، ويطير بتبعية الشيخ إلى عالم لم يستطع الوصول إليه.

وقد رأى هذا الضعيف[1] سالكاً في خوارزم يقال له الشيخ أبو بكر، وكان من خراسان من ولاية جام، وكان من جملة المنجذبين للحق، ولم يكن له شيخ معين، ولكنه وصل إلى المقامات العالية بتأثير جذبات الحق، وتخطى جسام العقبات، وقطع المسافات الطويلة، وكان يتحدث مع هذا الضعيف في بيان مقام من المقامات فقال: بعد أن قطعت خمسة وأربعين سنة وصلت إلى هذا المقام. ومن صعوبة أحوال هذا المقام أنه أدمى بطنى عامين، وتجشمت كثيراً من الصعاب، وبذلت الروح معنى ومجازاً، حتى عبر بي الحق تعالى لهذا المقام.

وقد تحدث هذا الضعيف مع شيخه سلطان الطريقة ومقتدى الحقيقة مجدالدين البغدادي رضى الله عنه، فذهب بقوله المبارك إلى أنه: "لا يعرف شخص قدر المشايخ أبداً، ولا يستطيع أن يوفيهم حقهم، ولنا مريدون أعطوا في عامين حق سلوك هذا الطريق من بداية الطريق حتى النهاية. وحين بلغوا هذا المقام عرجنا بهم منه في يوم أو يومين، مع أن مثل هذا العزيز كان يتوقف في هذا المقام بعد مجاهدة خمسة وأربعين عاماً ـ وجذبة الحق في عامين ـ ويلاقى كل تلك المشقة".

الوجه التاسع: هو أنه يمكن للمريد اجتياز هذا الطريق بالذكر، والذكر الذي تقوله من نفسك ليس مفيداً حتى تتلقنه عن شيخ كامل، كما سيأتي شرحه في فصل الاحتياج للشيخ في تلقين الذكر إن شاء الله.

(١) هذا الضعيف: اصطلاح يكنى به الكاتب نجم داية عن نفسه ـ كغيره من الشيوخ والعلماء ـ تعبيرا عن تواضعه الجمّ. (المترجم)

الوجه العاشر: في حضرة ملوك الصورة (الدنيا)، لو يريد شخص أن يحظى بدرجة أو مرتبة، أو يتولى منصباً أو ولاية ــ بالرغم من أنه لا يستحقها، أو لا يتأتى منه خدمة لائقة لهذا المنصب ــ فحين يدخل في حماية أحد المقربين لحضرة الملك ــ والذي يكون مقبول القول ومنظوراً للنظر لدى الملك ــ ويعرض على حضرته هذا الالتماس، فلن ينظر الملك إلى عدم أحقيته وقلة خدمته، ولكن ينظر إلى الحقوق السابقة ومكانة وقربة ذلك المقرب، ويجيز رغبته. ولكن لو كان يطلب ذلك بنفسه، فما كان يجد الإجابة مطلقاً.

وفي حضرة الملك الحقيقي، لو يطلب العبيد المقربون، حتى قلب العالم رأساً على عقب، فسيمنحهم ذلك : **"رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يُؤبه به لو أقسم على الله لأبر قسمه"**. وهذا مقام كل المجردين في هذا البلاط حيث أنهم ملوك الدين وسلاطينه، وقادة عالم اليقين، ولهم في الحضرة من الدلائل والأماني ما لا يحصيه البيان والبنان: **أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر"**.

وهناك أسباب أخرى كثيرة، ولكن اكتفى بهذا الاختصار، حتى لا ينتهي الأمر بالإطناب والإطالة.

وصلى الله على النبي محمد وآله أجمعين.

الفصل العاشر

في بيان مقام الشيخ وشروطه وصفاته

الفصل العاشر

في بيان مقام الشيخ وشروطه وصفاته

قال الله تعالى: "**فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمةً من عندنا وعلمناه من لدنا علما**".(1)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "**لا يزال طائفة من أمتي قائمين على الحق**".

اعلم أن الله تعالى كرم الخضر عليه السلام إثباتاً وتأكيدًا للمشيخة والإمامة، وأرسل إليه موسى عليه السلام للمريدية وتعلم العلم اللدني، ويورد هذا الخبر عن أحقية الخضر للولاية فيقول: "**عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما**"، ويثبت للخضر خمس مراتب:

الأولى: اختصاص العبدية للحضرة: **من عبادنا**.

الثانية: أحقية قبول الحقائق الواردة من الحضرة بلا واسطة: "**آتيناه رحمة**".

الثالثة: الاختصاص بالرحمة الخاصة من مقام العندية (كقوله): "**رحمة من عندنا**".

الرابعة: شرف تعلم العلم من الحضرة لقوله: "**وعلمناه**".

الخامسة: السعادة بتحصيل العلوم اللدنية بلا واسطة. كقوله: "**من لدنا علماً**".

---

(1) سورة الكهف: آية ٦٥.

وهذه الأركان الخمسة هي التي تقوم عليها أهلية المشيخة والولاية والإمامة. والشيخ والولي يجب أن يختصا بهذه الصفات الخمس، ويتصفا بخصال أخرى سيأتي شرحها إن شاء الله، حتى يكونا لائقين للمشيخة والإمامة.

الأول: مقام العبدية: فما لم يتحرر (السالك) من رق ما سوى الحق، لا يجد اختصاص عبدية: "**من عبادنا**"، وطالما تعلق السالك بذاته وبسعادته وبشقائه، فهو ليس حراً، وقد قال العظماء: "**كل ما أنت في قيده، فأنت عبد له**"،[1] "**والمكاتب عبد ما بقي عليه درهم**".

الثاني: مقام قبول الحقائق الواردة من الحضرة دون واسطة، وذلك لا يتيسر لمن لا يتخلص كلية من حجب الصفات البشرية والروحانية، لأن كل ما يأتي من وراء الحجاب يأتي بالواسطة مع ما يبدو أن بعض الأمور تأتي بدونها، كما كان موسى يسمع الكلام بلا واسطة. وفي الحقيقة فإنه لم يكن بلا واسطة لأن الشجرة كانت هي الواسطة لقوله تعالى: "**من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله**".[2] وأحياناً يكون الكلام بالنداء والصوت لقوله تعالى: "**نودي من شاطئ الوادي الأيمن**"[3] وتفصيل هذا لا يدركه أي شخص، فلا يعلم أن كلام الحق ليس بالحرف والصوت والنداء، ولكن موسى عليه السلام استطاع أن يسمعه بواسطة الحرف والصوت والنداء، ولو كان في إمكانه أن يسمع بلا واسطة فما الذي

---

(١) هذا مثل فارسي في الأصل، وقد جاء عند محمد بن المنور في كتابه أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد: باهتمام ذبيح الله صفا: ص٣٢٦.

(٢) سورة القصص: آية ٣٠.

(٣) سورة القصص: آية ٣٠.

حوله لصحبة الخضر حتى يمحو من مرآة قلب موسى بقايا آثار الصفات البشرية بمصقل "إنك لن تستطيع معي صبرا".(١)

وحين لم يكن يبلغ رفع الحجب إلى الكمال في بداية نبوة حضرة الرسول عليه السلام، فكان يتلقى الوحي بواسطة قوله تعالى: "نزل به الروح الأمين، على قلبك"،(٢) وفي ليلة المعراج، حين كانَ كشف الغطاء حقيقة، زالت الواسطة بينهما لقوله تعالى: "فأوحى إلى عبده ما أوحى".(٣)

الثالث: بلوغه رحمة خاصة من مقام العندية وهي لخاصة الخاصة لأن المتمتعين بصفة الرحمة ثلاث طوائف: العامة ، والخاصة ، وخاصة الخاصة. فالعوام والخواص يدركون بالواسطة وخاصة الخاصة بدون الواسطة.

وتتمتع العوام بالرحمانية، وهذا يجده المردود والمقبول، لأن الرزق، والصحة والشفقة للكافر والمسلم على السواء، وذلك من خاصية صفة الرحمانية. ولو لم يكن لتلك الرحمة أثر لما سقى جرعة ماء لكافر قط،(٤) حيث قال في هذا المعنى: "سبقت رحمتي غضبي"، وقيل أيضاً: "يا رحمن الدنيا".

---

(١) سورة الكهف: آية مكررة في ٦٧ ، ٧٢ ، ٧٥.

(٢) سورة الشعراء: آية ١٩٣ ــ ١٩٤.

(٣) سورة النجم: آية ١٠.

(٤) هذا متخذ من قول الرسول عليه الصلاة والسلام: "لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة لما سقى الكافر منها جرعة ماء".

وتمتع الخاصة بصفة "الرحيم" لأنهم ينعمون في الآخرة بالجنان الثمانية عن طريق إيمانهم بالأنبياء وأتباعهم لقوله تعالى: "نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم"،[1] ومن هنا قيل: "رحيم الآخرة".

وتمتع خاصة الخاصة دون واسطة من صفة أرحم الراحمين، كما كان يقول أيوب عليه السلام: "مسني الضر وأنت أرحم الراحمين"،[2] وكان موسى عليه السلام يقول: "رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين"،[3] وهو إشارة إلى الرحمة المباشرة من مقام العندية: "رحمة من عندنا"، وهذا نتيجة لتجلي صفات الألوهية ومحو آثار البشرية والتخلق بأخلاق الربوبية.

الرابع: تعلم العلوم من الحضرة دون واسطة، ويتيسر ذلك عندما يتطهر ويصفو لوح القلب بالكلية من صورة العلوم الروحانية والعقلية والسمعية والحسية لأن هذه العلوم المختلفة مثبتة على لوح القلب، وتشغله عن الاستعداد لقبول العلوم اللدنية من الحضرة دون واسطة.

وكان موسى عليه السلام يحصل علم التوراة من الحضرة ولكن بواسطة الألواح: "وكتبنا له في الألواح".[4] وكان لصحبه الخضر فائدة أخرى حتى يتهيأ قلبه لكتابة الحق فيستغني عن إرهاق الألواح، وهذه كانت مرتبة خاصة للرسول عليه السلام، فلم يكن كاتباً ولا قارئاً بل كان نبياً أمياً، ولا غرو إذ قال: "أوتيت

(١) سورة الحجر: آية ٤٩.
(٢) سورة الأنبياء: آية ٨٣.
(٣) سورة الأعراف: آية ١٥١.
(٤) سورة الأعراف: آية ١٤٥.

جوامع الكلم"، وقد تعلم القرآن عن طريق القلب لا الصورة لقوله تعالى: "الرحمن، علم القرآن".(١)

الخامس: تعلم العلم اللدني دون واسطة، وإن كان يمكن تعلم العلوم من الحضرة دون واسطة لأنه جائز، أما العلوم اللدنية فلا يجوز، كما قال في شأن داود عليه السلام: "وعلمناه صنعة لبوس"،(٢) ولم يكن علم صناعة الدرع من العلم اللدني. والعلم اللدني يختص بمعرفة ذات وصفات الحق، والذي ينزل دون واسطة لتعليم وتعريف معرفة الحق كما قال الرسول عليه السلام: "**عرفت ربي بربي**".

ويحصل إدراك هذا العلم بأن يخرج عن وجوده حتى يصل إلى لدن الحق، بالخروج من لدن نفسه، حيث يتلقى هذا العلم كما قال في شأن الرسول عليه السلام: "وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم"،(٣) ويقول عيسى عليه السلام: "لن يلج ملكوت السموات والأرض من لم يولد مرتين".(٤) وهذا المولد يكون عندما يضع المريد الصادق قدمه في بداية الحال عن طريق: "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا"،(٥) ويحول قلبه عن مألوفات الطبع ومستلذات النفس بدافع من جذبات العناية، ويتوجه إلى حضرة العزة، فيعرض حضرتها لمرآة قلبه جمال الشيخ الواصل الكامل السالك طبقاً لسنة: "**لنهدينهم سبلنا**"، ولا

---

(١) سورة الرحمن: آية ١ـ٢.

(٢) سورة الأنبياء: آية ٨٠.

(٣) سورة النمل: آية ٦.

(٤) وجاء أيضاً في الإنجيل: الحق الحق أقول لك إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله. (يوحنا اصحاح ٣ عدد ٣).

(٥) سورة العنكبوت: آية ٦٩.

يكون مجذوباً لأن المجذوبين المطلقين لا يليقون للمشيخة، ولا يكون سالكاً لأن السالكين المطلقين لا يليقون أيضاً بالمشيخة إذ أن السالك المطلق شيء، والمجذوب المطلق شيء آخر.

فلما شاهد المريد الصادق جمال المشيخة على مرآة قلبه، عشق جمالها في الحال واختل هدوءه واضطرب سكونه.

وهذا العشق هو منشأ جملة السعادة له. وما دام المريد لم يعشق جمال ولاية الشيخ، فلا يمكنه التسليم بتصرف إرادة الشيخ ولن يدخل في نطاق تصرف إرادته. والمريد يكون مريداً لمراد الشيخ وليس مريداً لمراده هو. شعر:

أيها القلب: إذا كنت تريد رضاء المحبوب
فيجب العمل والقول بما يأمر به
ولو يقول: إبكِ دماً، فلا تسأل عن السبب؟
ولو يقول: هب الروح، فلا تقل كيف يجوز؟

وعندما يصبح المريد الصادق عاشقاً لجمال ولاية الشيخ والولي، فيظهر عليه أحقية قبول ولايتهما . وعندئذ يكون المريد بمثابة بيضة في بيض الإنسانية والبشرية. وعندما يكرم بتوفيق التسليم لتصرف ولاية شيخه، فإن صفة الشيخ تحتضنه في حمى وظل ريش ولايته وجناحها ويُوليه اهتمامه الزائد ويراقب حاله، كما يظهر أيضاً بالتدريج تصرف الطائر في البيضة، ويغير البيضة من وجودها البيضاوي ويُبدّ لها بوجود الطير. كذلك فإن تصرف كيمياء همة الشيخ يبدل وجود المريد البشري الصفة إلى وجود العبدية الخاصة.

ولكن طائر الصورة يخرج عن طريق قشر البيضة إلى ظاهر عالم الملك لأنه خلق لعالم الدنيا، أما الطائر المعنوي فإنه يخرج عن طريق الباطن إلى نافذة الملكوت، لأنه خلق للعالم الآخر. ولما كان طائر الصورة في عالم الدنيا، وذلك الطائر ــ الذي كان معبأ في البيضة ــ كان مستوراً في ملكوت البيضة، فبالتصرف جاء طائر الصورة ذلك من ملكوت البيضة إلى صورة ملك الدنيا، حيث لا يوجد طائر ولاية الشيخ في عالم الدنيا. لأن الشيخ ليس العمامة واللحية، كما يرى الخلق، ولكن الشيخ الحقيقي، بذلك المعنى، هو الذي في مقام العندية: "**في مقعد صدق عن مليك مقتدر**"،[1] تحت قبة الحق كما يقال في الحديث القدسي: "**أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري**" ولا يقع نظر الأغيار عليه. شعر:

إن رجال طريقته أحياء بروح أخرى
وطيور فضائه من أوكار أخرى
لا تنظر إليهم بهذه العين لأنهم
خارجون عن الكونين وفي عالم آخر

وبعد ذلك أخرج تصرف همة الشيخ وجود المريد ــ المستور والمودع في ملكوت بيضة الإنسانية ــ من عالم ملكوت الدنيا إلى فضاء الملكوت وهويته لينزله من صلب الولاية ورحم الإرادة في مقام العندية. "**في مقعد صدق عند**

(١) سورة القمر: آية ٥٥.

مليك مقتدر".[١] ولو كانت البيضة الإنسانية حتى الآن دنيوية لصار طائر العندية الآن خاصاً بالحضرة.

وكان الرسول عليه السلام يدعى أحمداً عندما لم تكن بيضة الإنسانية قد نزلت إلى الوجود من طائر عبد الله لقوله تعالى: **"يأتي من بعدي اسمه أحمد"**.[٢] وعندما جاءت البيضة إلى الوجود وربيت تحت تصرف جناح جبريل وقوادمه بتربية النبوة والرسالة سمي محمداً (لقوله تعالى): **"وما محمد إلا رسول قد خلت"**،[٣] وحين بلغت التربية إلى الكمال، وتحولت تماماً من البيضاوية إلى الطير، وأخذ يحلق في مقام "قاب قوسين"، كان يسمى عبداً لقوله تعالى: **"سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً"**،[٤] حتى تعلم أن الطير هو مقام عبدية خاصة الخاصة، ومع هذا فلا يجوز أي طائر، في هذا المقام، للمشيخة، حتى لو وصل إلى مقام الطير. كما أنه لا يمكن لأي طائر من طيور الصورة أن يفقس البيض، إذ يلزم الطائر، حين بلغ الكمال في تصرفه وتربيته، أن يمكث مرة أخرى مدة تحت تصرف الديك ويسلم له حتى يصل إلى الكمال بتصرف الديك فيه، ويضع بيضة ثم يوضع البيض تحته. وحينئذ فإن التصرف مسلم به في ذلك، ويتم المقصود بالحصول.

وهكذا فحين أسلم المريد الصادق أمره لولاية الشيخ، وتخلص من بيضة وجود البشرية، فيجب عليه مرة أخرى ــ في مقام الطير ــ التسليم بتصرفات

---

(١) سورة القمر: آية ٥٥.
(٢) سورة الصف: آية ٦.
(٣) سورة آل عمران: آية ١٤٤.
(٤) سورة الإسراء: آية ١.

اندبك لأحكام قضاء الحق وقدره ويتحمل، لفترة، تحكمات أحكام القضاء والقدر، ويبذل الطير وجوده لتصرفات الحكمة القديمة، ويجعل حياته قرباناً للأحكام الأزلية حتى ما طُلب من وجوده منذ الأزل.

وعندما يبقى على هذا المنوال مدة مستسلماً للتصرفات غير المباشرة، فإن بيض أسرار معاني حقائق العلوم اللدنية، يأخذ في الظهور فيه. فمثلماً تحمل عليه أصداف الدرر واللآلئ، فإن أنوار الحقائق تشع من نوافذ نطقة ونظره، وتصبح صفة البيضة لوجود المريدين الصادقين الحقيقية قابلة لتصرف هذا الحديث. وحينما تنتهي المدة تماماً وتحين فترة قوة التصرف في البيض، فتكون الإشارة ببشارة الحق بإجازة الشيخ ــ الذي هو صورة الحق ــ والتي تنصبه في مقام المشيخة والولاية، وتجيزه ترتيب بيض وجود المريدين.

ولكن يجب، بجانب هذه الأركان المبينة، أن تتوفر فيه عشرون صفة بالكمال، بحيث لو تنقص صفة واحدة منها، فبقدرها يكون خلل مرتبة المشيخة ونقصانها، وتلك الصفات العشرون هي:

الأولى: العلم: وهو ضروري بقدر الحاجة على أن يكون ملماً بعلم الشريعة، حتى لو يحتاج المريد إلى مسألة ضرورية فإنه يستطيع تفسيرها.

الثانية: العقيدة: فيجب أن يكون على عقيدة أهل السنة والجماعة ولا يتلوث بالبدعة حتى لا يقع المريد فيها، لأن معاملة أهل البدعة ليست منجية.

الثالثة: العقل: إذ ينال كمال معاش الدنيا بعقل الدنيا، حتى يستطيع أن يقوم بتربية المريد وشروط المشيخة.

الرابعة: السخاء: فيجب أن يكون الشيخ جواداً سخياً حتى يستطيع القيام بما يحتاجه المريد، وحتى يغني المريد من المأكل والمشرب والملبس الضروري، حتى ينشغل المريد كلية بأمر الدين.

الخامسة: الشجاعة، فيجب أن يكون شجاعاً جسوراً حتى لا يفكر في ملامة الخلق وتطاول ألسنتهم، ولا يَردُ المريد لِوِشَاية أي شخص، ويحفظه من الحساد والأشرار.

السادسة: العفة: يجب عليه أن يكون عفيف النفس، فلا يلتفت إلى الهزل والنساء والغلمان حتى لا ينفر منه المريد، ولا يقع في فساد الإرادة، لأن المبتدئ يكون ضعيفاً بلا حول.

السابعة: علو الهمة: فيجب ألا يلتفت إلى الدنيا وأهلها إلا بقدر الضرورة، حتى إذا كانت لديه القوة لذلك، وحتى لا يلحقه ضرر، ولا يسعى لجمع المال، ولا يطمع في مال المريد حتى لا يعترض المريد، ولا تفسد إرادته، مع أنه ليس للمريد اعتراض على أية آفة وفتنة ورأي في أحوال الشيخ.

الثامنة: الشفقة: يجب أن يكون شفوقاً بالمريد ويعوده على العمل تدريجياً فلا يحمله مسئولية لا يقدر على تحملها، ويعامله برفق وكياسة. وحين يقع المريد في القبض فيزيل عنه عبء القبض بتصرف الولاية، ويمنحه البسط، ولو يزيد عن قدره فيهبه قدراً من القبض، ولا يغفل أحوال المريد باستمرار.

التاسعة: الحلم: يجب أن يكون حليماً صبوراً، ولا يغضب من كل شيء، ولا يؤلم المريد إلا أن يؤدبه بقدر الضرورة حتى لا ينفر المريد ولا يفر من فخ الإرادة.

العاشرة: العفو: يجب أن يتعامل بالعفو حتى إذا بدر من المريد حركة بمقتضى الطبيعة البشرية فإنه يتجاوز عنها.

الحادية عشرة: حسن الخلق: يجب أن يكون حسن الخلق ولا يسيء للمريد بغلظة الخلق، فيكتسب المريد الأخلاق الطيبة، لأن باطن المريد مرآة لأفعال الشيخ وأحواله وأخلاقه، وقد قيل: "**يمكن مشاهدة جمال ولاية المشايخ في مرآة أحوال المريدين**".

الثانية عشرة: الإيثار: يجب أن يكون فيه الإيثار حتى يفضل مصالح المريد على مصالحه، ويؤثره على حظه: "**ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**".(١)

الثالثة عشر: الكرم: يجب أن يتحلى بكرم الولاية حتى يمكن أن يهب المريد من كرمها.

الرابعة عشرة: التوكل: يجب أن تتوفر لديه قوة التوكل، ولا يحزن لأجل رزق المريد، ولا يرد المريد مخافة أسباب المعيشة.

الخامسة عشرة: التسليم: يجب أن يسلم بالغيب ـ فإن الحق تعالى يأتي بما يريد، ويأخذ ما يريد ـ ولا يفرح لمجيء المريد ولا يجزع برحيله، ويقول إني أضيع جهدي هباءً، ويتمنى أن يعتزل وينشغل بأموره الخاصة ويترك حقوقهم جانباً. بل يجب أن يستسلم في جميع الأحوال ويؤدي واجب العبدية كما

(١) سورة الحشر: آية ٩.

ينبغي، ويعرف أن كل شخص ينضم إليه إنما يكون من عند الحق ويدرك أن خدمته هي خدمة الحق، وكل شخص يرحل فهو قضاء الحق.

السادسة عشرة: الرضا بالقضاء: يجب عليه أن يرضى بقضاء الحق تعالى، ويقوم على تربية المريدين وشروط المشيخة وجهد العبدية ويرضى بالباقي وبما يقدره الحق تعالى على المريدين من الإقبال والإدبار والقبول والرفض، ولا يعترض على الأحكام الأزلية.

السابعة عشرة: الوقار: يجب أن يعيش مع المريد في وقار واحترام، حتى لا يتجاسر المريد، ولا تذهب عظمة الشيخ ومكانته من قلب المريد لأن هذا يوجب خلل الإرادة. وقد قال العظماء: "يجب أن يكون تعظيم الشيخ أجل من تعظيم الوالد".

الثامنة عشرة: السكينة: يجب أن يكون لديه سكينة تامة ولا يتعجل الأمور، ويتصرف بهدوء مع المريد حتى لا يخطئ المريد في أمر نتيجة لعدم نضجه.

التاسعة عشرة: الثبات: يجب أن يكون ثابت القدم وصادق العزيمة في الأمور، وصادق العهد مع المريد حتى لا يضيع حقوق المريد لعدم ثباته ونقض العهد، ولا يؤاخذه على كل حركة في الهمة.

العشرون: الهيبة: يجب أن يكون ذا هيبة ، ويكون للمريد منه جلال وعظمة وهيبة في القلب حتى يكون مؤدباً في غيبته وحضوره، ويكون لنفس المريد الانكسار والسكون من هيبة ولاية الشيخ، ولا يكون للشيطان سلطان على المريد نتيجة ظل وهيبة ولاية الشيخ.

وعندما يكون الشيخ متصفاً ومتحلياً ومتخلقاً بهذه الكمالات والمقامات والكرامات والصفات والأخلاق، فيجب على المريد الصادق أن يقضي عمره في أحضان ولاية الشيخ حتى يصل إلى هدفه ومقصوده.

وأما المريد فيجب عليه أيضاً أن يتحلى بأوصاف المريدية ويقوم بشروط الولاية وآدابها، كما سيأتي شرحه إن شاء الله حتى يكون: "نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء"(١) ويقترن فضل الحق بجهده لأن ذلك هو الأصل: "ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء".(٢)

وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين،

(١) سورة النور: آية ٣٥

(٢) سورة الحديد: آية ٢١ . وسورة الجمعة: آية ٤.

الفصل الحادي عشر

في بيان شروط وصفات المريدية وآدابها

الفصل الحادي عشر

في بيان شروط وصفات المريدية وآدابها

قال الله تعالى: "فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا".[1]

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "**عليكم بالسمع والطاعة وإن كان عبداً حبشياً**".

اعلم أن الإرادة سعادة عظيمة، وهي بذرة كل السعادات. والإرادة ليست من صفات الإنسانية ولكنها من فيض أنوار صفة مريدية الحق، كما يقول الشيخ أبو الحسن الخرقاني: "**أراده من أرادنا**". والمريدية صفة ذات الحق، التي ما لم يتجل الحق تعالى بها على روح العبد، فلن تظهر صورة الإرادة على قلب العبد، ولن يصير مريداً.

وحين رسخت بذرة السعادة هذه بالموهبة الإلهية في أرض القلب، فيجب ألا يتركها للضياع، لأن ذلك النور يكون في البداية مثل شرر النار التي تحرق، وإذا لم تُمد بالأعشاب الجافة تخمد مرة ثانية وترحل إلى مكمن الغيب.

والمدد لهذا، بأن يسلم نفسه لتصرف وتربية شيخ كامل صاحب ولاية فيكون مثل البيضة تحت جناح الطائر وقوادمه كما ورد شرحه في الفصل السابق، حتى يقوم الشيخ بشروط تربيته ويصل المريد بسرعة إلى المقصود.

---

(١) سورة الكهف: آية ٧٠.

ولو يريد شخص أن يربي نفسه بنظر العقل والعلم، فلن يصل إلى مقام مطلقاً، والخوف أن يقع في ورطة الهلاك، وأن يزيل الإيمان لأنه يوقع النفس، بالغرور والوهم ووسوسة النفس وتسويل الشيطان، في وادي مهالك هذا الطريق الشاسع.

ولو يحل بشخص غرور النفس والشيطان بأن دليل هذا الطريق هو الرسول عليه السلام ولطف الله تعالى الغزير، والقرآن وعلم الشريعة جميعها بيان لطريق الله، فما الحاجة إلى الشيخ؟ شعر:

لا يتأتى نفع للقافلة من المصباح والشمع
فيكفي لألف قافلة وجهك دليلا فحسب

وجواب ذلك هو لا ريب أن دليل هذا الطريق هو الرسول ولطف الحق والقرآن وعلم الشريعة، ولكن مثال هذا مثلما جاء الأطباء الحذق، الذين أمدهم الحق بالإلهام حتى لاقوا المتاعب طيلة حياتهم وبذلوا المساعي وعرفوا أنواع الأمراض والعلل واطلعوا على خواص الأدوية وصنعوا المعاجين والأشربة وشرحوها جميعاً في الكتب ووضعوا المصنفات في علوم الطب العلمية والعملية؛ وبعد ذلك تعلم جمع من التلاميذ، هذه العلوم عن هؤلاء الأطباء الحذق، وقاموا بخدمتهم بالممارسة والعلاج وباشروا ذلك العمل واستنتجوا التجارب وشغلوا بالطب على شريعة الأساتذة، وعملوا على تربية جمع آخر لديه الاستعداد لتحصيل هذه العلوم وبلغوا بهم الكمال في هذا الأمر والعلم.

وهكذا كان يظهر تلاميذ لكل طائفة قرناً بعد قرن، وحتى الآن فحين يحل مرض بشخص في هذا العصر ويلوح أمل الشفاء وداعية المعالجة، فإنه لو رجع

إلى كتب الأطباء، وتصرف بنظر عقله بالمعاجين المصنوعة والموضوعة في الصيدليات، ولم يرجع إلى الأطباء ويعالج ذاته من كتاب الطب بالنظر العقلي دون تجربة ودون معرفة بالطب، فإنه يلقى كل مرآة لذاته في ورطة الهلاك، ولكن يجب أن يرجع لخدمة الأطباء ويخدم أصحاب تجارب ذلك العلم ويسلم ذاته لهم ، ويشرب أي معجون يمزجونه وأي شراب يعطونه له سواء يكون مراً أو حلواً، ولا يتصرف في ذاته بهوى نفسه فيهلك الروح.

وأيضاً فالقرآن فيه حاصل جملة علوم الطب الديني ومعالجات المرضى التي تتعلق بقوله تعالى: "**في قلوبهم مرض**"،[١] وكقوله: "**وننزل من القرآن ما هو شفاء للناس ورحمة للمؤمنين**"[٢] ولكنه الصيدلية التي تجمع كل المعاجين والأشربة كقوله تعالى: "**ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين**"،[٣] والرسول عليه السلام طبيب حاذق للدين يعرف كل مرض ويعالجه على الصواب كقوله: "**وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم**"[٤] والصحابة تلاميذ أكفاء حصلوا علم الطب عن تلك الحضرة وبلغوا الكمال في معالجة كل شخص كقوله: "**أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم**".

وبهذا كان التابعون قرناً بعد قرن يحصلون هذه العلوم عن التابعين، وتبعهم تابعي التابعين عن التابعين إلى يومنا هذا. وكان الحق تعالى يهب الحقائق لكل شخص في هذا العلم، حتى يدرك في كل قوم مزاج أولئك القوم،

---

(١) سورة البقرة: آية ١٠.
(٢) سورة الإسراء: آية ٨٢.
(٣) سورة الأنعام: آية ٦٠.
(٤) سورة الشورى: آية ٥٢.

ويعالجونهم باستخراج المعالجات من شريعة القرآن واستنباطها لأن: "**كل مجتهد مُصيب**"، وألفوا الكتب الكثيرة العلمية والعملية لأنواع علوم الطب الديني، وهو الشريعة.

ولكن حين يظهر مريض صاحب واقعة فلا يمكن علاجه بالكتاب بتصرف النظر العقلي، ولو بلغ الكمال في هذا العلم، كما قيل: "**رأى العليل عليل**"، ولكن يلزم له طبيب حاذق صاحب تجربة له معرفة بالأمزجة المختلفة، ومطلع اطلاعاً كاملاً على قانون الطب العلمي والعملي حتى يستطيع أن يعالج كل مريض بعلاجه الخاص.

وما أكثر أنواع المرض للمرضى: فللكهل نوع من العلاج، وغيره للشباب، وآخر للطفل، ويكثر التفاوت بين مزاج الطفل والمراهق والشباب والكهل والشيخ، وتتفاوت أيضاً بين أشخاص محددة مثلما يكون عشرة أطفال، فلكل واحد اختلافات في النبض والمزاج والقوة والضعف وهناك تفاوت في كل مدينة وكل طقس وكل موسم، والطبيب الحاذق يجب أن يعرف كل ذلك ويرعى تلك الدقائق حتى يزول المرض وتأتي الصحة طبقاً لسنة: "**تداووا فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء**".

ومع هذا فلو حل بالطبيب الحاذق مرض، فلا يحق له أن يعالج نفسه لأن نظرته تختلف في الأمراض ويلزم له طبيب سليم النظر صحيح البدن حتى يفيد العلاج، وإلا فلن يعالج الطبيب المريض على صواب: "طبيب يداوي والطبيب مريض" شعر ترجمته:

إن عالمك نائم وأنت في غفلة
فمتى يوقظ الغافل النائم؟.[1]

---

(١) سنائي الغزنوي: ديوان السنائي، ص١٨٧.

وحين تحقق هذا المعنى، فيجب ألا يغتر شخص قط بغـــرور الشـيطان وهوى النفس ولا يعتمد على نفسه وعلمه. وحين تأصلت بذرة الإرادة في قـوار القلب يعتبر ذلك غنماً كبيراً، ويكرم ذاك الضيف الغيبي ويهبه الغذاء المناســب لحوصلته، ولن يجد ذلك الغذاء، في الحقيقة، إلا في ثدي ولاية المشايخ العرفاء، لأن بذرة الإرادة مثال طفل وليد الغيب، ويمكنه أن يحصل على غذائه أيضاً من ثدي أهل الغيب.

ولكن عليه (المريد) أن يسعى في طلب الشيخ الكامل، فإذا لم يظهر فـــي المشرق فيذهب إلى المغرب ويتمسك بخدمته، ويجب عليه تُجاه كل ما هو غُـل قيد له وما يحوله دون خدمة المشايخ، أن يقطعه كلية ويقضـــى علـــى إحداهـا بالأخرى بقوة ساعد الإرادة، ولا يقيد نفسه بأي عذر حتى لا يُحرم مـــن هـذه السعادة وتسلم تصرفاته. ولو يعظم في الخدمة، وتغتر النفس وتتعلل بالتســاؤل: أهذا شيخ كامل أم لا؟، "وعليه أن يأتمر بإشارة": **"عليكـم بالسـمع والطاعـة"** ويتأكد أنه لو كان تحت تصرف عبد حبشي فإنه أفضل من تصرف ذاته كما قال الرسول: **"وإن كان عبداً حبشياً"**، وعلى هذا قال المشايخ: **"ولتكن تحت سـيطرة قطة أفضل من سيطرة ذاتك"**. شعر:

كل ما يمنعك عن الطريق من كلام: سواءٌ فيه الكفـر والإيمـان
وكل ما يحولُ بينك وبين الحبيب: سواءٌ فيه الحسن والقبيـح.[1]

---

(١) المصدر السابق: ص٤٨.

وفي الحقيقة ما لم يمل المريد من وجوده، فلا يكون رجل هذا الحديث.
شعر:

ينبغي عليه أن يكون شيئا ضائقاً من نفسه
وينبغي عليه أن يكون فارغاً من الروح والبدن
وفي كل خطوة أكثر من ألف قيد
فينبغي أن يكون ـ من الجد في السير ـ محطماً للقيود

وكل شيء يتخلى عنه المريد الصادق ويحطمه في هذا الطريق، فإن الحق تعالى يعوض أضراره بالآلاف الكثيرة من الجزاء في الدنيا والآخرة طبقاً لسنة: "ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون"،[1] ولذلك الجمع من الأهل والأقارب الذين تركهم وجرحت قلوبهم بمفارقته، فيكرم الحق تعالى كل شخص بالدرجة والمنزلة والثواب، حتى يعوض خسارتهم. وإحدى صفات الحق هي الجبارية، وللجبار معنى واحد هو جبر المكسور، يقول: أيها المسكين: كل ما تحطمه طلباً لألوهيتي، فأنا أجبره بكرم ربوبيتي، وكل قلب تؤلمه أُعطي ديته.
شعر:

لو يتألم جبريل هناك فارق دمه
ورُدَّ دية جبريل من كنز الرحمة.[2]

(١) سورة النحل: آية ٩٧.
(٢) سنائي الغزنوي: ديوان السنائي ص٤٥١.

ولكن لو تبتعد عني وتكون لك كل الموجودات، فلن يعوض هذا الحرمان.
شعر:

لـو أن الجميـع معـك ـ عـداي ـ فـلا أحـد معـك
وأنت مع الجميع، عندما تكون معي، ولو لم يكن معك أحد قط.

ونزل خطاب حضرة صاحب العزة إلى أحد العظماء والمكاشـفين: "**أنـا بُدك اللازم فالزم بُدك**". وعندما التحق المريد بخدمته وأزال العلائق والعوائـق، فيجب دائماً أن يتصف بعشرين صفة حتى يستطيع أن ينال أحقية صحبة الشيخ الذي يبلغه الكمال بسلوك هذا الطريق.

الأولى: مقام التوبة: فيجب أن يتوب توبة نصوحاً عن كل مخالفـات الشـرع، ويحكم هذا الأساس لأن جملة الأعمال ستقوم على هذا الأصل، ولو اختل هذا الأساس فيظهر خلله في نهاية الأمر ويفسد الجميع. ويقوم بالتوبة فـي جميع المقامات لأن في كل مقام من المقامات ذنب مناسب لذلك المقـام، فيتوب عن ذلك النوع من الذنب في ذاك المقام، كما كان الرسول عليـه السلام يتوب توبة مطلقة لكمال المحبة والسعادة: "**ليغفر لك الله ما تقـدم من ذنبك وما تأخر**"،[1] وكان يقول: "**إنه ليغان على قلبي وإني لاسـتغفر الله في كل يوم سبعين مرة**".

الثانية: الزهد: يجب أن يعرض عن الدنيا كلية، فلا يترك قليلاً ولا كثيراً، ولـو كان له أهل وأقارب يقسم ماله جميعه عليهم حسب فرائض الله؛ وإذا لـم

---

(١) سورة الفتح: آية ٢.

يكن له أقارب فيترك كل المال للشيخ لينفقه على مصالح المريدين، ويقتنع من القوت واللباس بهذا القدر الذي يعطيه الشيخ إياه.

الثالثة: التجريد: يجب أن يكون مجرداً ويقطع جميع التعلقات السببية والنسبية مع حسان الوجوه حتى لا يتعلق بها خاطره: **"إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم"**.(١)

الرابعة: العقيدة: يجب أن يعتقد في أهل السنة والجماعة، ويتجنب البدع، وينتهج مذاهب أئمة السلف، ويبرئ نفسه من التشبيه والتعطيل والحلول والاتحاد، ولا يتلوث بالتعصب ولا يكفر أي طائفة من أهل القبلة ولا يلعن أحداً.

الخامسة: التقوى: يجب أن يكون متعففاً وجلاً، ويحتاط في عيشه ولباسه، ولكن لا يبالغ فيها حتى لا يقع في الوسوسة لأنها مذمومة، وحتى يستطيع أن يقوم بالعزائم(٢) ويقلل دائرة الرخص، ويجد في الطهارة والنظافة قدر وسعه ولا يغالي فيها حتى لا تتملكه الوسوسة؛ وفي جميع الأحوال يرعي إشارة القول: **"دع ما يُريبك إلى ما لا يُريبك"**.

السادسة: الصبر: لابد أن يكون صابراً تحت تصرفات أوامر ونواهي الشرع وإشارة الشيخ طبقاً لقانون الشرع ويتحمل مآسي الشدائد ولا يفسح لنفسه مجالاً للسأم والملل. ولو يبدو له شيء من هذا المعنى فيبعده بتكلف من

(١) سورة التغابن: آية ١٤.

(٢) إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه، والعزائم بمعنى كبار الأعمال، ويوصي هنا بعدم التوسع في الرخص. (المترجم).

نفسه ويتجلد ويتصبر كما قال الرسول عليه السلام: "من تصبر صبره الله".

السابعة: المجاهدة: يلزمه دائماً أن يلجم وحش النفس بلجام المجاهدة، ولا يترفق بها قط إلا بقدر الضرورة وحتى يمكنه أن يسعد فلا يسلم لها مراده ويبدو قوي الشكيمة في هذا الباب، لأن النفس مثل الأسد الضاري إذا أشبعته مؤنته قَوِيَ وفتك بك.

الثامنة: الشجاعة: يجب أن يكون شجاعاً وجسوراً، حتى يمكن أن يكابر النفس ويفكر في مكر الشياطين وحيلهم لأن شياطين الإنس والجن كثيرون في هذا السبيل ويمكنه أن يدفعهم بشجاعة.

التاسعة: البذل: يجب أن يكون عنده بذل وإيثار لأن البخل قيد عظيم وحجاب كبير، وفي بعض المقامات يلزمه أن يفدي بالدنيا والآخرة، وأحياناً يلزمه أيضاً بذل الروح والفناء عنها.

العاشرة: الفتوة: يجب أن يكون ذا همة حتى يُقَدِّر كل شخص حق قدره ولا يتوقع أن يُقدره أحد.

الحادية عشرة: الصدق: يجب أن يضع أساس أمره ومعاملته على الصدق، ويفعل ما يفعله من أجل الحق عز وجل، ويصرف النظر عن الخلق كلية.

الثانية عشرة: العلم: يجب أن يتعلم العلم بذلك القدر الواجب عليه من شروط الفرائض من الصلاة والصوم وغيرها من الأركان التي يمكنه تأديتها، ولا يهم بطلب المزيد حتى لا يسأم من الطريق إلا حينما

يبلغ الكمال المنشود، حتى ولو كان يريد الإمامة، وكان قد بلغ مرتبة الإرشاد، فالتعلم مفيد غير مضر، ولا ينشغل بأية حال في علم لا ينفع، وينهل من علوم الكتاب والسنة.

الثالثة عشرة: الضراعة: يجب ألا ينسى الضراعة في أي مقام، ولو يصل إلى مقام الدلال فعليه أن يتضرع بتكلف مع العالم لأن الضراعة مقام خاص بالعاشق والدلال مقام خاص بالمعشوق.

الرابعة عشرة: العيارية: يجب أن يجعل نفسه كاللامبالي بأي شيء. شعر:

أنظر كيف نسير كالعيارين عشقاً للمحبوب
نسير كالشُطار رؤوسنا موضوعة تحت أقدامنا
ونصل إلى نقطة المراد في دورنا هذا
لأننا دائماً نسير على رؤوسنا كالفرجار
وإننا بذلنا روحنا فداءاً لأجل المحبوب العزيز
ولو يحكم علينا أن نرتقي المشانق فإننا فاعلون
ولو يبيع شخص الموت بالروح فإننا نبتاعه
لأننا بذلك نسير إلى الحبيب كالعيارين
وأي ألم لنا من جهنم، وما شأننا بالخلد
إننا نحن العاشقون نتجه إلى المحبوب

الخامسة عشرة: الملامة: يجب أن تكون صفته الملامة وسيرته القلندرية، وليس كالذي يخالف الشرع ويعتقد أنها الملامة، فحاشا وكلا فذاك هو

طريق الشيطان حيث ولوا أصحاب هذه المنزلة من أهل الإباحة إلى جهنم. والملامتي بهذا هو الذي يستوى لديه الفخر والعار والمدح والذم ورفض الخلق أو قبولهم، ولا يقوى ولا يضعف بمحبة الخلق وعداوتهم وكلمتهم القبيحة والطيبة، ويعتبر هذه الأضداد ذات لون واحد. شعر:

لأن طريق العشق طريق ضيق
فليس لنا سلام مع أنفسنا ولا حرب مع شخص آخر
فَنَتْ أعمار الناس فى الفخر والعار
أيها الجهلاء: أي مكان للفخر والعار.

السادسة عشرة: العقل: يجب أن تكون حركاته متزنة بتصرف العقل، حتى لا يصدر منه تصرف مخالف لرضا الشيخ وأمره وسلوكه لأن ألم الدهر برمته مجاهدًا؛ ولكن باستشرافه لخاطر الشيخ وإغضابه، يجعله يرده (أي المريد) عن الولاية.

السابع عشرة: الأدب: يجب أن يكون مؤدبًا ومهذب الأخلاق ويسد أمام نفسه سبيل الانبساط، ولا يتكلم في حضرة الشيخ حتى يُسأل. وعندما يتحدث فإنما يتحدث بهدوء ويتكلم الصدق ويكون مبصرًا ومترصدًا لظاهر إشارة الشيخ وباطنها. وإذا قصر في شيء، أو يأتي منه التقصير، فيذهب إليه ويتجه مباشرة إلى ظاهر الشيخ ويستغفر في السر والعلانية ويطلب المعاذير بطريقة أفضل ويؤدي غرمه .

الثامنة عشرة: حسن الخلق: يجب أن يكون دائمًا سمح الطبع، جميل الأخلاق، ولا يتخلق بالضجر والملل مع أصحابه ويتجنب التكبر والتفاخر والعجب والدعوى وطلب الجاه ويعيش في تواضع وانكسار وخدمة مع أصدقائه العظماء، ويحيا مع الأصدقاء الصغار بالرحمة والشفقة والمحبة ويلحظهم بالرعاية واللطف، ويكون متحملاً ومحتملاً ولا يلقي الحمل على الأصدقاء، ويخدمهم بقدر ما يستطيع ولا ينتظر منهم خدمة، ويجد في موافقة الأصدقاء ويتجنب مخالفتهم، ويكون نصوحًا ومنتصحًا، ويغلق سبيل المناظرة والمجادلة والخصومات والمنازعات، وينظر إليهم بنظر الاحترام والإرادة ولا ينظر إلى الصغير والكبير بعين الحقارة ويتقرب دائمًا إلى حضرة العزة بخدمتهم وحبهم، ويؤثرهم على مائدة حظه ونصيبه ولا يطمع في نصيب الغير.

وعند السماع[1] يؤكد ذاته ولا يتحرك بدون الحالة والوجد، وفي وقت الحالة يحترز من مضايقة الأصدقاء حتى يمكنه أن يسمع لذاته، وحين يغلبه السماع يتحرك بقدر الضرورة وحين يقل الوجد فليمسك بنفسه ولا يبالغ، ويرعى الأصدقاء عند السماع، فحينا يهيج ثائرًا على شخص، وحينًا يؤثر نفسه على الآخرين، ويتجه بضراعة إلى أصحاب الحالات والمواجيد ويتقرب لهم ويتواضع، ويسير في إثر الشيخ ويتبعه. وحين يولي رأسه، في مجال الذكر

(١) أما السماع : فهو سماع الأشعار وغيرها وتأويلها بما يلهمه الله للسامع لها من معان ترد على قلبه وهو في حالة الوجد، أو محاولة إيرادها على القلب في حالة التواجد، والأشعار التي تسمع وإن كان معظمها غزليًا إلا أنهم يؤولونها إلى فهم يقرب إلى الله بأنواع الوسائل . (محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار : محيي الدين بن عربي : جـ١ ص ٢٠١).
والسماع على نوعين : الأول بواسطة والثاني بلا واسطة، فما يسمعه من القارئ فهو آلة الغيبة، وما يسمعه من الباري فهو آلة الحضور. ومع ذلك قال واحد من الشيوخ : أنا لا أجعل المخلوقات في المحل الذي أسمع فيه كلامهم وأروي حديثهم والله أعلم. الهجويري: كشف المحجوب : جـ٢ ص ٦٥٤ (الترجمة العربية).

والسماع، على قدم الشيخ أو غيره فيتجه نحوه مباشرة بحيث لا يكون على هيئة السجود لأن ذلك حرام، ويضع يديه خلف ظهره ويتجه بوجهه نحو الأرض ولا يضع جبهته عليها، ويصطحبه بقدر ما يستطيع حتى يطمئن به قلبه ويبتعد عن ألم القلوب.

التاسعة عشرة: التسليم: يجب أن يكون مسلمًا لتصرفات ولاية الشيخ في الظاهر والباطن، ويمحو تصرفات نفسه عن ذاته ويعيش بتصرف أوامر المشيخة ونواهيها وآدابها. ففي الظاهر يكون مثل ميت تحت تصرف الغسّال وفي الباطن يلجأ دائمًا إلى باطن الشيخ، وفي كل حركة يفعلها، في الغيبة والحضور، تكون من ولاية هذا الشيخ، فيطلب الإجازة في الباطن، ولو حصل على الإجازة فيفعل وإذا لم يكن فيترك الأمر.

وعليه ألا يعترض قطعيًا في الظاهر والباطن على أحوال الشيخ وأفعاله، وكل شيء يبدو معوجًا في نظره فليرجع هذا الاعوجاج إلى ذاك النظر الذي منه وليس لنقصان الشيخ. وكل ما يبدو له على خلاف الشرع فيعتقد: "لو أن هذا يبدو لي خلافًا" ولكن الشيخ لا يخالف، ونظر الشيخ في هذا الباب أكمل وأتم. وما يفعله يظهر عن حدة نظره وهو يخرج عن ربقتها وحيز فهمها مثلما كانت واقعة موسى والخضر من تحطيم السفينة وقتل الطفل، ولاح له أن هذا كله مخالف للشرع، ولكن لم يحدث وكان هذا شرطه: **"فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرًا"**،[1] أي أن كل ما أفعله لا تعترض عليّ فيه ولا تسأل لماذا فعلت؟ حتى أخبرك به لو علمت أن فيه صلاحًا .

---

(١) سورة الكهف: آية ٧٠.

وحين اعترض أمهله ثلاث مرات وبعد ذلك قال: "هذا فراق بيني وبينك".[1] حتى تعلم أن الإعتراض سبب الفراق الحقيقي، وعليه أن يسلم لطريق التسليم لأن التسليم لإرادة الشيخ هو سلم التسليم لأحكام القضاء والقدر حتى لا يخرج عن بوتقته وهناك لا يستطيع التسليم. ولو لم يكن بصورة المفارقة حتى يغلق سبيل الإعتراض في كل الوجوه ويتبع إشارة: "عليكم بالسمع والطاعة".

العشرون: التفويض: مادام المريد قد وضع قدمه على طريق الله فيجب عليه أن يسمو عن وجوده كلية ويقدم ذاته قرباناً لله عز وجل ويقول عن صدق: "وأفوض أمري إلى الله"[2]، ولا يقول الصدق لأجل الجنة والنار أو من أجل الكمال والنقصان، بل لكي يقدمه في سبيل العبدية وضرورة المحبة، ويقنع بكل ما يأتيه من حضرة العزة ولا يتجه لكل جميل وقبيح من الحضرة. شعر:

وكلت إلى المحبوب أمري كله فإن شاء أحياني وإن شاء أتلفا

لو تركت أمري كله له
وهو يعلم إما يقتلني أو يحييني
وما دام القلب يخط مُدَوّناً
فإن طوفان البلاء لا يزال يمطر على القلب
أيها الحبيب بحق رأسك لا أشيح بوجهي عنك
حتى ولو أصابني العشق بآلاف من أمثال هذا.

(1) سورة الكهف: آية ٧٨.
(2) سورة غافر: آية ٤٤.

ويجب أن يكون ثابت القدم على جادة العبودية، ويقوم بشروط صدق الطلب، ولو أتاه الخطاب ألف مرة: أنه لن يأتيك المراد لو ضعفت عن الأمر قدر ذرة واحدة، فلا يهن في الطلب لأي ابتلاء وامتحان، ويقبل على الخدمة والملازمة بأية صورة. ولو طرده شيخه ألف مرة لا يمضي عنه، ولا يكون أقل من الذبابة في الإرادة، أي كلما يُطرد يعود، وعلى هذا يسمى الذباب أي "ذُبَّ آب" أي كلما طُرد عاد ثانية. وحتى لو لم يستطع أن يكون من طواويس هذا الطريق فلن يتحمل أقل من الذبابة، **(فمثل الطاووس في هذا الطريق يكون ذبابة في العمل).**[(١)]

وحين يقوم المريد الصادق بهذه الشروط، ويتصف بها الشيخ، حيث قيل إن المقصود هو المراد الحقيقي؛ فإنه ينزل من حجب الدلال بسرعة فائقة وتكشف حجب العزة عن الجمال، وينال القاصد المقصود والطالب المطلوب والعاشق المعشوق: (ألا من طلبني وجدني).

وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين،

(١) هذه العبارة عن مصراع لبيت الشعر عند سنائي يقول:
ورچه خوبی بسوی زشت بخواری منگر
كاندرين ملك چو طاوس بكار است مگس
(سنائي الغزنوي: ديوان السنائي: ص ٢٥٤).

الفصل الثاني عشر

في بيان الاحتياج للذكر والاختصاص بذكر لا إله إلا الله

الفصل الثاني عشر

في بيان الاحتياج للذكر والاختصاص بذكر لا إله إلا الله

قال الله تعالى: "فاذكروني أذكركم"،[1] وقال أيضاً: "واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون".[2]

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "**أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله**".

اعلم أن حجب السالكين نتيجة النسيان، ولهذا السبب فقد أثبت النسيان الإثنينية بينه وبين الحضرة حين ظهر وجود الروح في بداية الفطرة، ولو أنه عرف روح الحق في ذلك المقام بالوحدانية ، ولكنه لم يعرفها، لأن المعرفة تأتي من الشهود ولا يتأتى الشهود من الوجود لأن الشهود ضد الوجود "**والضدان لا يجتمعان**".

وكان تعلق الروح بالقالب ليخلف منهما وليدان كالنفس والقلب، حتى حين تبذل الروح وجودها في مقام الشهود (كقوله تعالى:) "**جاء الحق وزهق الباطل**"،[3] فيكون لها خليفة يقوم مقامها، وهذا سر كبير لا يصل إليه فهم أي شخص.

وهكذا فحين لم تعرف الروح الحق بكمال الوحدانية في ذلك العالم، لم تستطع أن تذكره في هذا المقام دون شريك، لأنه يكون إما ذاكراً لنفسه وإما ذاكراً للحق وهذا ذكر بشريك والحق تعالى يقول: "**واذكر ربك إذا نسيت**"[4] أي اذكرني بعد نسيان ما سواي لأكون بلا شريك.

---

(١) سورة البقرة: آية ١٥٢.

(٢) سورة الجمعة: آية ١٠.

(٣) سورة الإسراء: آية ٨١.

(٤) سورة الكهف: آية ٢٤.

وهكذا فحينما عرجت الروح فوق عالم الملك والملكوت حتى ارتبطت بالقالب، حفظت من كل شيء رأته تذكاراً أنساها، بنفس القدر، ذكراً من أذكار الحق، حتى ظهر للجماعة الكثير من الحجب نتيجة ذكر الأشياء المختلفة حتى نسوا الحق كلية فنسيهم الحق من ذكرى عنايته لقوله تعالى: "نسوا الله فنسيهم".(١)

ولما ظهرت الحجب من النسيان، وكانت سبب المرض: **"في قلوبهم مرض"**،(٢) فلا جرم أن يأمر بهذا الشراب من صيدلية القرآن في مقام المعالجة بحكم ما قيل: (العلاج بأضدادها) لقوله تعالى: **"اذكروا الله ذكراً كثيراً"**.(٣) حتى يمكن أن تطهر بالذكر الكثير من حجب النسيان الكبير وآفة أمراضها **"لعلكم تفلحون"**.(٤)

أما التخصيص بذكر "لا إله إلا الله" فحكمته كما يقول تعالى: **"إليه يصعد الكلم الطيب"**،(٥) وهذه كلمة لا إله إلا الله التي يمكن بها سلوك الطريق إلى حضرة العزة. أما من ناحية الصورة فعلة ذلك أن الرسول جاء بهذه الكلمة أفضل الأذكار: (**أفضل الذكر لا إله إلا الله**)، أما من ناحية المعنى ففي هذه الكلمة نفي وإثبات: نفي لذكر الأغيار وإثبات لذكر الحق، ثم يلزم شراب السكنجبين من خل النفي وسكر الإثبات حتى يقتلع صفراء النسيان من جذورها، فينفي ما سوى الحق بـ **"لا إله"** ويثبت حضرة العزة بـ **"إلا الله"**؛ وإذا داوم المريد على هذا العلاج، فبالتدريج ينقطع مرض تعلقات الروح عما سوى الحق ويزول بمقراض **"لا إله"**، ويتجلى جمال سلطان **"إلا الله"** من خلف حجب العزة

(١) سورة التوبة: آية ٦٧.

(٢) سورة البقرة: آية ١٠.

(٣) سورة الأحزاب: آية ٤١.

(٤) سورة الجمعة: آية ١٠ ، وسورة الأنفال: آية ٤٥.

(٥) سورة فاطر: آية ١٠.

ويتجرد من لباس الكلمة والصوت بحكم وعده: "**فاذكروني أذكركم**"[1] ويظهر خاصية: "**كل شيء هالك إلا وجهه**"[2] بتجلي نور العظمة الإلهية وتفني الروح وذكر الروح في بحر "**فاذكروني**"، وتأتي من وجود الروح نيابة ذاكر الروح "**أذكركم**"، وحينئذ يصير الذكر والذاكر والمذكور سواء، ويصبح الذكر بلا شرك. شعر:

حتى يستمع لنفسه، وليس منك ولا مني

لمن الملك: للواحد القهار[3]

وهنا تظهر حقيقة "**شهد الله أنه لا إله إلا هو**"،[4] وتُفهم أيضاً إشارة يوسف بن الحسين الرازي الذي قال: (ما قال أحد الله إلا الله)، ويصير معلوماً لماذا لم يكن بناء المسلم على كلمات أخرى غير كلمة "**لا إله إلا الله**"، لأنه لا يحصل الخلاص من الشرك المعنوي بغير تصرف وتأثير معنى هذه الكلمة، كما أن شرك الصورة لا ينتفي إلا بصورتها كما يقول. شعر:

تعقب الخلق كلهم بسيف "لا إله"

حتى تصفو الدنيا لسلطان "إلا الله"

وصلى الله على محمد وآله أجمعين،

---

(١) سورة البقرة: آية ١٥٢.

(٢) سورة القصص: آية ٨٨.

(٣) سنائي الغزنوي: ديوان السنائي: ص١٨٣، والشطر الثاني من البيت مأخوذ من آية قوله تعالى: "لمن الملك اليوم لله الواحد القهار": سورة غافر: آية ١٦.

(٤) سورة آل عمران: آية ١٨.

الفصل الثالث عشر

في بيان كيفية الذكر وشروطه وآدابه

الفصل الثالث عشر

في بيان كيفية الذكر وشروطه وآدابه

قال الله تعالى: "فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا"[1]. وقال تعالى: "وأذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة".[2]

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "سيروا فقد سبق المفردون، **قيل من هم يا رسول الله، قال الذين اهتزوا بذكر الله حتى وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافاً**".

اعلم أن الذكر لا يفيد كثيراً إلا بالآداب والشروط، فبدءاً يجب اتباع النظام والآداب والشروط. وحين يظهر للمريد الصادق عشق الطلب وداعية سلوك هذا الطريق فدليله في هذا أن يأنس بالذكر ويستوحش الخلق ويعرض عن الجميع، ويلوذ بملجأ الذكر: "**قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون**"[3]. وإذا ما رغب في المواظبة على الذكر وجب عليه أن يقوم على التوبة النصوح عن جملة المعاصي.

وفي وقت الذكر يغتسل كلما أمكن وإلا فليتوضأ وضوءاً تاماً، إذ أن الذكر يمكن الاستعانة به في محاربة العدو دون سلاح قوي حيث أن (**الوضوء سلاح المؤمن**)، ويرتدي ثوباً طاهراً طبقاً للسنة. ولطهارة الثوب أربعة شروط:

(١) سورة البقرة: آية ٢٠٠.

(٢) سورة الأعراف: آية ٢٠٥.

(٣) سورة الأنعام: آية ٩١.

الأول:الطهارة من النجاسة.

الثاني: الطهارة من المظلمة.

الثالث: الطهارة من الحرمة أي لا يرتدي الحرير.

الرابع: الطهارة من الرعونة أي يكون متواضعاً غير متطاول طبقاً للسنة "**وثيابك فطهر**"،[1] أي فقصر، ويُعد منزلاً خالياً ومظلماً ونظيفاً. ومن الأفضل أن يحرق بعضاً من الطيب الجيد، ويتجه إلى القبلة ويجلس متربعاً، ولو أن التربع منهي عنه إلا وقت الذكر، لأن الرسول عليه السلام حين كان يصلي الفجر، كان يجلس متربعاً في مكانه للذكر حتى تشرق الشمس.

وعند الذكر يضع يديه على فخذيه ويحضر قلبه ويغمض عينيه ويبدأ في تعظيم تام بقول كلمة: "**لا إله إلا الله**" وبقوة كاملة: "**أشد ذكرا**"، فتصعد "**لا إله**" من قاع سُرته، وتنزل "**إلا الله**" إلى قلبه، بالصورة التي تصل بالذكر وقوته إلى جملة الأعضاء، ولكن عليه ألا يجهر بصوته ويجدّ في إخفاء الصوت وخفضه قدر إمكانه، كما قال تعالى: "**واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول**".[2]

وعلى هذا النحو يقوى ويداوم على الذكر، ويستحضر معناه في قلبه، ويبعد الخواطر (عنه) بحيث ينفي كل خاطر يرد على القلب في معنى: "لا إله" أي أنني لا أبغي شيئاً قط ولا هدف لي ولا محبوب إلا الله. وينفي كافة الخواطر بلا إله ويثبت حضرة العزة بالقصد والمحبة والطلب بإلا الله.

---

(١) سورة المدثر: آية ٤.

(٢) سورة الأعراف: آية ٢٠٥.

ويجب أن يكون في البداية والنهاية حاضر القلب في كل ذكر بالنفي والإثبات، وينظر كل حين إلى قرار قلبه ليرى كل شيء يعلق به، فلا يأبه به، ويسلم القلب إلى حضرة العزة ويطلب المدد بهمةٍ من ولاية الشيخ ويبطل ما يتعلق به بنفي "**لا إله**" ويقتلع من قلبه محبة ذلك الشيء من جذوره، ويثبت محبة الحق مقام تلك المحبة بتصرف "**إلا الله**".

ويداوم على هذا النظام حتى يفرغ القلب تدريجياً من جملة المحبوبات والمألوفات، لأن الاهتزاز في الذكر يأتي من المداومة، والاهتزاز هو أن يضمحل وجود الذاكر في نور الذكر بغلبات الذكر، ويتفرد الذاكر بالذكر، ويزيل العلائق والعوائق عن وجوده وتحل عليه السعادة من دنيا الجسمانيات وآخرة الروحانيات، كما قال الرسول: "**سيروا فقد سبق المفرودون. . . إلخ**".

ولتعلم أن القلب خلوة خاصة للحق حيث "**لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن**" وإذا وجدت زحمة الأغيار في إيوان القلب، فإن غيرة العزة تقتضي التعزز عن الغير، ولكن إذا ما أخلى حارس "**لا إله**" إيوان القلب من زحمة الأغيار، فيجب انتظار قدوم تجلي سلطان "**إلا الله**"، كقوله تعالى: "**فإذا فرغت فانصب، وإلى ربك فارغب**".[1] شعر:

أخل المكان لأن الملك يأتي فجأة
فإذا ما خلى، نزل الملك إلى الخيمة

(١) سورة الشرح: آية ٧-٨

ويتأكد حينئذ أن تحصل له الفائدة الكلية، ما دام يُلقن الذكر عن شيخ كامل صاحب تصرف، لأن السهم يحمي حين يؤخذ من كنانة السلطان ولا يحمي (السهم) حين يؤخذ من دكان صانع السهام، ولكنه يصلح لدفع الخصوم. كما سيرد شرحه إن شاء الله تعالى.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين،

الفصل الرابع عشر

في بيان احتياج المريد لتلقين الذكر عن الشيخ وخاصيته

الفصل الرابع عشر

في بيان احتياج المريد لتلقين الذكر عن الشيخ وخاصيته

قال الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديدا"[1] أي قولوا "**لا إله إلا الله**".

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "**قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**".

اعلم أن الذكر التقليدي أمر، والذكر التحقيقي أمر آخر، فالذكر التقليدي هو ما يخرج عن طريق الفم إلى باب السمع ـ ولو أنه لا يؤثر كثيراً ـ مثلما تلقي بذرة غير ناضجة في الأرض فلا تنبت. والذكر التحقيقي هو ما يقع لقلب المريد بتصرف وتلقين صاحب الولاية على أرض الاستعداد.

والذكر الذي يلقنه صاحب الولاية هو ثمرة شجرة ولايته، لأنه تلقى الذكر أيضاً بتلقين صاحب ولاية أخرى، وتربت في أرض القلب بماء مدد الولاية وشمس همة الشيخ، حتى نبتت تلك البذرة ووصلت بالتدريج إلى مقام شجرة الولاية وظهرت ثمرة الذكر من باكورة أكمام "**أذكركم**"، ثم يلقي بذرة في أرض قلب المريد بكمال نضج مقام المشيخة.

وحين تكون بذرة الذكر تحت تربية الولاية، وأرض القلب محروثة بالإرادة، مطهرة من حشائش الطبيعة بمنجل الطريقة، مستمدة المدد من شمس همة الشيخ، فإن مروج الإيمان الحقيقي تنبت بسرعة: "**لا إله إلا الله تنبت**

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٧٠.

الإيمان في القلب كما ينبت الماء البقلة"، ويتزايد يوماً بعد يوم حتى يصير الغرس أغصاناً وتصير تربية شجرة العرفان.

وشرط التلقين هو أن يصوم المريد ثلاثة أيام بوصية الشيخ، ويجتهد في هذه الأيام الثلاثة بمداومته على الوضوء، ويكون ذاكراً على الدوام حتى إذا كان الذكر في نفسه في ذهابه وإيابه ويقلل من الاختلاط بالناس، ويتحدث بقدر الضرورة، ولا يأكل كثيراً وقت الإفطار، ويقوم الليالي للذكر. وبعد اليوم الثالث يغتسل بأمر الشيخ، وينوي بنية غُسل الإسلام، مثلما كان يفعل كل شخص، في البداية، يريد أن يدخل في الدين، إذ كان يغتسل أولاً باغتسال الإسلام ثم يتلقن الكلمة عن الرسول عليه السلام: فعندئذ يتأكد أنه على سنة غسل الإسلام الحقيقي. وحين صب الماء يقول: "**اللهم إني طهرت بمائك ما بيدي، فطهر القلب، وهو منظور أمرك بنظر عنايتك**".

وبعد أن يقوم بالاغتسال الكامل يذهب إلى خدمة الشيخ، بعد صلاة العشاء، فيجلسه الشيخ تجاه القبلة، ويجلس الشيخ أمام المريد مولياً ظهره للقبلة، ويجلس المريد على ركبتيه في خدمة الشيخ، ويضع يديه فوق بعضها ويستحضر قلبه، ويوصيه الشيخ بالوصية وهي الشرط، ويلقن المريد بضع كلمات من أسرار التلقين وخواص الذكر بحيث تكون موافقة لفهم المريد ونظره حتى يستجمع المريد قواه ويخلي المريد القلب من جميع الأشياء، ويجعله تجاه قلب الشيخ، ويراقب في ضراعة تامة عندما يقول الشيخ "**لا إله إلا الله**" بصوت عالٍ وقوة تامة.

وبعد قول الشيخ يعيد المريد قول الشيخ بنفس الصوت ويقول في قوة: "**لا إله إلا الله**"، ويردد الشيخ مرة أخرى ويكرر المريد مثله، ثم يقول الشيخ مرة ثالثة ويكرر المريد، وفي النهاية يدعو الشيخ ويرد المريد بالقول "**آمين**".

وبعد أن ينتهي ينهض ويذهب إلى خلوة المنزل ويتجه إلى القبلة ويتربع، ويشغل نفسه بتربية بذرة الذكر كما سيرد شرحه في فصل شروط الخلوة إن شاء الله العزيز.

وابتداء الذكر في قلب المريد كمثال الشجرة التي تزرع كما قال تعالى: **"ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء"**(١) وباتفاق المفسرين فقد فُسرت كلمة **"طيبة"** بكلمة **"لا إله إلا الله"**. وحين يلزم تربية شجرة هذه الكلمة تتفرع جذورها من القلب إلى جميع الأعضاء والجوارح، حتى لا يبقى أية ذرة من مفرق الرأس حتى أخمص القدم لا تمتد فيها جذور شجرة الذكر.

وحينما يرسخ جذر الذكر في أرض القالب تتجه شجرة الذكر نحو سماء القلب: **"أصلها ثابت وفرعها في السماء"**.(٢) وفي هذا المقام يأخذ القلب الذكر عن اللسان ويفصح بكلمة **"لا إله إلا الله"**: ففي أي وقت يشتغل القلب بالذكر يجب أن يتوقف عنه اللسان، حتى يتم القلب الذكر، وحين يتوقف القلب عن الذكر يجب أن يداوم اللسان على الذكر، ويطلب أيضاً المدد حتى تنمو شجرة الذكر وتمتد بفروعها وتصل إلى كمال نهايتها ونهايتها مع حضرة العزة: **"إليه يصعد الكلم الطيب"**،(٣) وحين تبلغ الشجرة الطيبة كمالها، تظهر براعم المشاهدات فوق

---

(١) سورة إبراهيم: آية ٢٤.

(٢) سورة إبراهيم: آية ٢٤.

(٣) سورة فاطر: آية ١٠.

رؤوس أغصان الشجرة، وتظهر ثمرات المكاشفات والعلوم اللدنية من برعم المشاهدات تدريجياً لقوله تعالى: "**تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها**".[1]

وأول ثمرة من تلك الثمار هو مقام الوحدة: ففي البداية يتم إلقاء بذرة التوحيد لتنمو، فتثمر ثمرة الوحدة، وهذا سر كبير. والمقصود من خلقه هذه الطرفة، وهي خلاصة أسرار مكنونات الغيب وجوهر الأسرار الدفينة في خزائن الغيب وجملة صدف هذا الجوهر وإشارة لهذه الصلاحية: "**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديدا، يصلح لكم أعمالكم**"[2] ورمز لهذا النجاح: (**يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**). ولكل شخص صلاح وفلاح من تربية هذه الشجرة حسب همته وقدرته، ولكن أي صاحب سعادة ينال سلطنة الصلاح والفلاح الحقيقي: "**واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون**"،[3] ولكن بلوغ هذا الصلاح والفلاح، أينما يكون، فهو بالملازمة والمداومة على تربية بذرة الذكر. ولكن لو لم تحصل في البداية على بذرة الذكر من ثمرة ولاية الشيخ الناضجة، فلن تصل الشجرة على هذا النحو، حتى تأتي ثمرة الصلاح والفلاح الحقيقي.

ويروي عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: إنني كنت قائماً بخدمة الرسول عليه السلام فقال لجمع الصحابة: (**إن من الشجر شجرة مثلها مثل المؤمن لا يجف ورقها فأخبروني ما هي**). فأخذ الصحابة يفكرون في كل شجرة من أشجار البادية. وأخذ فلان يقول: شجرة كذا ويقول فلان: شجرة كيت، وكان الرسول عليه السلام يقول: ليست هي التي أقصد لأنها شجرة خضراء رطبة،

---

(١) سورة إبراهيم: آية ٢٥.

(٢) سورة الأحزاب: آية ٧٠-٧١

(٣) سورة الأنفال: آية ٤٥.

ولكن لما كان أبو بكر وعمر بين القوم لم أُرِد أن أتحدث عما قالا في حضورهما ثم قال الرسول عليه السلام: (هي النخلة).

وفي الحقيقة فإن ارتباط المؤمن بشجرة النخيل كان على تلك الصورة: حيث ما لم تلقح شجرة النخيل من شجرة نخيل أخرى، وتعطى التلقيح والتأبير فلن تؤتى بثمار طيبة. وهذا معروف أنه في كل عام يؤخذ قدر من طلع شجرة نخيل ذكر، ويوضع في طلع النخلة حتى تؤتى النخلة ثماراً طيبة وإلا فلن يظهر عليها أية ثمرة قط.

وهكذا فحين يراد للمؤمن أن يبلغ الكمال بثمرة ولاية فمن الممكن تلقيحه وتأبيره بتلقين الشيخ صاحب الولاية. وحين حصل التلقين فيجب أن يستمر في المداومة والملازمة للخلوة والعزلة بتصرف أمر الشيخ، حتى ينال الثمرة الحقيقية إن شاء الله.

وإذا كانت ورقة النخلة خضراء دائماً ولا تسقط فهذا دليل على أن شجرة وجود المؤمن تكون خضراء دائماً بالذكر والطاعة.

ونقلاً عن الرسول عليه السلام أنه ذات مرة جمع جماعة من خواص الصحابة في منزل وأمر بإغلاق الباب وقال كلمة: **"لا إله إلا الله"** ثلاث مرات، وأمر الصحابة فكرروا مثله، وعندئذ رفع يده وقال (اللهم هل بلغت).وبعد ذلك قال أبشروا فإن الله تعالى غفر لكم. وعلى هذا أخذ مشايخ الطريقة تلقين الذكر طبقاً لهذه السنة.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين.

الفصل الخامس عشر

في بيان الاحتياج للخلوة وشروطها وآدابها

الفصل الخامس عشر

في بيان الاحتياج للخلوة وشروطها وآدابها

قال الله تعالى: "وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة"[١].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: **"من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه"**.

اعلم أنه أقيم بناء سلوك طريق الدين والوصول إلى مقام اليقين، على الخلوة والانقطاع عن الخلق، وجميع الأنبياء والأولياء اتبعوا الخلوة في بداية حالهم حتى بلغوا المقصود. كما تروي عائشة في شأن الرسول عليه الصلاة والسلام (كان قد حبب إليه الخلاء)، أي حببت الخلوة والعزلة لقلب الرسول عليه السلام في البداية. ويذكر في رواية أنه قبل الوحي (كان يتحبب إلى حراء أسبوعاً وأسبوعين)، وجاء في رواية شهر أيضاً. وقد رأيت خلوة منزل الرسول عليه الصلاة والسلام وزرته على جبل حراء بمكة، وهو غار جاذب للروح على ذاك الجبل.

وحين كرّم موسى عليه السلام باستحقاق استماع الكلام دون واسطة أمر بالخلوة أربعين ليلة لقوله تعالى: **"وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة"**.[٢]

---

(١) سورة البقرة: آية ٥١.

(٢) سورة البقرة: آية ٥١.

وللعدد أربعين خاصية في استكمال الأشياء التي ليست للأعداد الأخرى كما ورد في الحديث: (**إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك.. إلخ**). وقال الرسول عليه السلام بظهور ينابيع الحكمة من القلب على اللسان بخاصية الإخلاص "**أربعين صباحاً**"، **وجعل كمال تخمير طينة آدم عليه السلام أيضاً "في أربعين صباحاً"**: (خمرت طينة آدم بيدي أربعين صباحاً) وجعل لذاك الطلسم أربعين قيداً. ولا غرو أنه لا يمكن فتح ذاك الطلسم سوى بمفتاح طلسم الأربعين سنة بالإخلاص "**لعبودية أربعين صباحاً**": ولا يمكن الوصول لماء الحكمة من بحر الروحانية ــ الذي في أرض البشرية ــ ولينبوع البيان والبنان بغير يُمن الإخلاص، وهناك الكثير من هذا النوع.

وللخلوة الأربعينية شروط وآداب كثيرة، ولكن أهمها ثمانية شروط للحصول عليها، لو اختل شرط منها لصعب الحصول على المقصود الكلي:

الأول: الجلوس منفرداً في حجرة مظلمة خالية والجلوس متربعاً تجاه القبلة واضعاً الأيدي على الفخذ ومغتسلاً بنية غسل الميت، ومعتبراً الخلوة لحده، ولا يخرج منها إلا للوضوء والحاجة. والمنزل يجب أن يكون مظلماً وصغيراً، وتوضع ستارة بالباب، لئلا يدخله أي ضوء وصوت حتى تتوقف الحواس عن أي أمر من الرؤية والسمع والكلام والحركة، حتى تتجه الروح ــ حين لا تنشغل بالحواس والمحسوسات ــ إلى عالم الغيب، وتنزل حجب وآفات الروح من نوافذ الحواس الخمس عندما تتوقف الحواس وتفنى بتصرف الذكر ومحو الخاطر، ويتوقف أي نوع للحجاب، وتتآنس الروح مع الغيب، وينتفي أنسها مع الخلق وتستوحشه وتتجه بكليتها إلى الحق تعالى لقوله: "**وتبتل إليه تبتيلا**".

الثاني: أن يداوم على الوضوء حتى يكون متسلحاً ولا يظفر به الشيطان لأن الوضوء للمؤمن سد في طريق الشيطان حتى لا ينتصر عليه، إذ أن للوضوء نوراً، لأن أي موضع يصله ماء الوضوء يصير ذلك النور محرقاً للشيطان ولهذا يقول: (الوضوء سلاح المؤمن).

الثالث: المداومة على كلمة "لا إله إلا الله" كما قال تعالى: **"الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم"**[1] وهو إشارة إلى دوام الذكر.

الرابع: الالتزام بنفي الخاطر: فيجب أن ينفي (المريد) كل ما يحل بالخاطر من خير وشر بكلمة "لا إله إلا الله"، أي أنه يقول: إني لا أريد شيئاً قط إلا الله عز وجل، وإشارة أيضاً لنفي الخاطر لقوله تعالى: **"وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله"**.[2] وفي الحقيقة يجب أن يدرك أن كل خاطر مظلم يظهر على صحيفة القلب، وهذه جميعها شاغلة للقلب عن قبول النقوش الغيبية والعلوم اللدنية. وطالما لا تخلو وتصفو مرآة القلب من جميع النقوش فلن تقبل النقوش الغيبية والعلوم اللدنية، ولن تقبل أنوار المشاهدات والمكاشفات الروحانية ولن تقبل تجليات الصفات الربانية.

الخامس: دوام الصوم: فيجب أن يداوم على الصوم لأن للصوم خاصية عظيمة في قطع التعلقات البشرية وخمود الصفات الحيوانية والبهيمية: **"الصوم لي وأنا أجزي به"**.

السادس: دوام الصمت: فيجب ألا يتكلم من شخص إلا الشيخ ليعرض عليه الوقائع بقدر الضرورة ويقرأ الباقي (من صمت نجا) ولا يحرك لسانه بغير الذكر.

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٩١.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٨٤.

السابع: مراقبة قلب الشيخ: فيجب أن يتعلق القلب دائماً بقلب الشيخ ويطلب المدد من قلبه لأن الفتوحات الغيبية ونسيم نفحات الألطاف الربانية تصل بدءاً من نافذة قلب الشيخ إلى قلب المريد حيث (ومن القلب إلى القلب روزنة)(١)، لأن المريد تأتيه في البداية حجب كثيرة، ويمكن التوجه لحضرة العزة بشرط ألا يتذكر مع الغيب تعوده في عالم الشهادة، وصورة الشيخ من عالم الشهادة. وحين يتمسك بإرادة محكمة يسهل توجهه لقلب الشيخ. وقلب الشيخ متجه للحضرة وتربية عالم الغيب. وكل لحظة ينزل فيضان الفضل الرباني من الغيب إلى قلب الشيخ، وينزل مدد الغيب من قلب الشيخ إلى قلب المريد حسب توجه قلب المريد إلى قلب الشيخ وفضاء حوصلته، حتى يتعود ويتربى قلب المريد أولاً على المدد بواسطة من الغيب، وعندئذ يصل بالتدريج إلى أن يقبل فيضان الفضل دون واسطة لقوله تعالى: "وسقاهم ربهم شراباً طهورا".(٢)

وفي البداية رغم أنه نفس الشراب لكنه يسقى له في كأس ولاية المشيخة لقوله تعالى: "ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا"،(٣) ثم يسقى في كأس نبوة محمد عليه السلام ـ ساقي الحق ـ الشراب الطهور الشهود دون واسطة: "وسقاهم ربهم شراباً طهورا".

---

(١) روزنة: كوة: مأخوذة من الكلمة الفارسية روزن وقد عرّبها المؤلف هنا ولعلها من استعماله الخاص (المترجم).

(٢) سورة الإنسان: آية ٢١.

(٣) سورة الإنسان: آية ١٧.

شربت من تلــــك الخمر والروح كأسهــــا
وقد سكرت منها حيث أن العقل مجنــون بـــها
فهبّ عليّ دخـــان أشعل فــيّ نـــــاراً
من ذلك الشمع الذي تكون الشمس فراشة لـــه

وعليه أن يدرك دائماً أن همة الشيخ فقط هي دليله ومرشده، وحين تصيبه آفة أو يظهر له خوف، أو يلوح له خيال هائل فيلجأ في الحال إلى ولاية الشــيخ ويطلب المدد من باطن قلب الشيخ، حتى تدفع مدد الهمة ونظر ولاية الشيخ أيـة آفة سواء شيطانية أو نفسانية.

الثامن: ترك الاعتراض، سواء على الله أو على الشيخ: فترك الاعتراض علـى الله، بمعنى أن يرضى ويسلم بكل ما يأتيه من الغيب من قبض وبسط وصحــة وسقم وألم وراحة وفتح وقيد ولا يُدبر عن الحق ويظل ثابتاً جامدًا.

حيــن تسكب في القلــب شـــــراب وصلنـــا
فيجب ألا تفـــر حين يصيبــــــك الخمـــار
إذا كنت تريد أن تجلس معي فـــي وصــــال
فينبغي عليك أن تتخلص من كل مـــا جالســته

ولا يعترض على الشيخ في كل ما يراه منه من قول وفعل وحال وصفـه، ويسلم بتصرفاته الظاهرة والباطنة وينظر إلى معاملات الشيخ وأحوالــه بنظــر الإرادة، ولا يتصــرف بنظر العقل القصير النظر، لأنه الشرط الأعظــم لتسـليم الولاية كما ظهر في صورة البيضة والطائر.

ولو أُخرجت البيضة، قدراً من الوقت، عن سيطرة الطائر وتصرفه، وانقطع عنها المدد لفسدت في الحال خاصية تربية الطائر الموجودة في البيضة فلا يكون بيضة ولا يكون طيراً. وكل بيضة تفسد تحت سيطرة طائر ما، فإنه لا يمكن إصلاحها حتى لو اجتمعت كل طيور العالم.

وإذا صار مريد ما مردوداً من ولاية الشيخ، فلن يستطيع أي واحد من مشايخه أن يبلغه الكمال، ومن ثم فيرفضه الجميع إلا إذا ترك المريد خدمة الشيخ بعذر ما دون أن ترفضه الولاية: فإما أن يعتذر عن خدمة الشيخ والاستفادة منه، وإما أن يكون عذره وفاة شيخه أو السفر البعيد إذ لا يستطيع المريد أن يصله. ويعذر المريد حين يلتحق بخدمة شيخ آخر لهذا العذر، ومن الممكن بتصرف وهمة ذلك الشيخ، أن يصل بالمريد إلى مقام الطائر لأن بيضة وجود المريد لا تفسد استعداد الطائر. وهناك آداب كثيرة للخلوة، ولكن أهم شروطها هي الثمانية التي وضحت من قبل. ومن آداب الخلوة:

أولاً: تقليل الطعام بلا إسراف لئلا يضعف ويهزل، فيجب أن يستمر على قدر قوة المواظبة على الذكر الصعب ومداومة العبادة، فمثلاً يأكل مقدار مائة درهم حتى مائة وخمسين درهماً ويزيد وينقص كل شخص حسب قوة مزاجه وشهوته. وفي الجملة يجب أن يكون له نظام في الليل حتى لا يغلبه النوم ويتوقف عن الذكر من قلة الطعام أو كثرته. ويأكل ذلك القدر من الطعام بحضور القلب والذكر ويصغّر اللقمة ولا يأكلها بشره النفس ويلوكها مع الذكر الذي يردده في القلب حتى تزول ظلمة شهوة الطعام بنور الذكر، ويكف عن الطعام عند نصف الشبع تحت لا يسرف. وعليه ألا يتكلف في الطعام حتى يكون لذيذاً، ويحترز من اللحم الكثير ويأكل في الأسبوع مرة أو مرتين ويتناول كل مرة خمسين درهماً.

ثانياً: يجد في الإقلال من النوم، ولا يضطجع على الأرض قدر استطاعته ما لم يقع من سلطان النوم دون وعي أو يغلبه النوم، وحين يفيق لنفسه ينهض ويجدد الوضوء ويصلي ركعتين ويشتغل بالذكر، ولو غلبه التعب ولم يستطع الجلوس فليرقد ساعة مضطجعاً على الأرض أو يضع رأسه على ركبته وينام ليزيل الملالة من طبعه والكلالة من حواسه فيفيق بعد ذلك.

وكلما توقف لسانه عن ملازمة الذكر ساعة واحدة فيشغل قلبه بالذكر، ويراقب القلب وينتظر ماذا يأتي إلى ناظريه؟، ولا يرتاع من أي خيال مخيف أو دويّ هائل يراه أو يسمعه ويقوي قلبه، ويلجأ في الحال إلى ولاية الشيخ، ويورد اسم الشيخ على لسانه ويطلب المدد من همته ليدفع، عنه، الحق تعالى ذلك بلطفه.

وكلما يخرج (المريد) للوضوء أو لصلاة الجماعة والجمعة يجب أن يوجه نظره إلى الأمام ولا يلتفت يمنة ويسرةً ويشغل قلبه ولسانه بالذكر لئلا يتفرق ويتشتت.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين،

الفصل السادس عشر

في بيان بعض الوقائع الغيبية والفرق بين الرؤيا والواقعة

الفصل السادس عشر

في بيان بعض الوقائع الغيبية والفرق بين الرؤيا والواقعة

قال الله تعالى: "إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين"(١).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: **"الرؤيا الصالح جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة".**

اعلم أنه حين يبدأ السالك في المجاهدة ورياضة النفس وتصفية القلب، يبدو له العبور بين الملك والملكوت، وحينذاك يلوح له، من الغيب، الوقائع المناسبة له، ويرى هذه الوقائع والمشاهدات أحياناً في النوم وأحياناً في الواقع.

أما الفرق بين الرؤيا والواقعة لدى هذه الطائفة، قدس الله أرواحهم، فعلى وجهين: إما بالصورة أو بالمعنى، أي الرؤيا الصورية أو الرؤيا المعنوية أو الواقعة الصورية أو الواقعة المعنوية.

أما الرؤيا الصورية فهي ما تعجز فيها الحواس الظاهرة عن عملها، ويغلب عليها الخيال، وتتخيل أشياء كثيرة في غلبات النوم، وتدرك النفس – بغلبة الخيال – الوساوس الشيطانية والهواجس النفسانية، أو توحي لها بالخيال وتدركها النفس، وليس لها تعبير غير أنها رؤيا وساوس وهواجس، ويجب

(١) سورة يوسف: آية ٤.

الاستعاذة منها، ويقال لنوعية هذه الرؤيا أضغاث أحلام: "**قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين**".(١)

أما الرؤيا المعنوية فهي قسمان: الصالح والصادق. والصالح من دلائل وعلامات الحق. والرؤيا الطيبة هي ما تسمى بالرؤيا الصالحة، وهذه الرؤيا التي قال عنها الرسول عليه السلام أنها جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة. وهذه الرؤيا الصالحة للنفس حين تتغلب عليها الروح، ويتغلب الحق على الخيال، فقد عجزت الحواس عن عملها بالنسبة لهذا المقام.

والرؤيا الصالحة نوعان:

النوع الأول: هو ما يُرى في النوم ولا يمكن تأويله، ويظهر أيضاً بعينه، كما قال إبراهيم عليه السلام: "**إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى**"،(٢) وكان الوحي دليلاً على ذلك حيث قال له ابنه: "**يا أبت أفعل ما تؤمر**".(٣)

النوع الثاني: هو ما يُرى فيُأول بعضه، ويبدو بعضه ظاهراً بعينه مثل رؤيا يوسف عليه السلام: "**إني رأيت أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين**"(٤) أما الأحد عشر كوكبا والشمس والقمر فاحتاجت إلى تأويل بالأحد عشر أخ والأب والأم، وأما السجدة فظهرت بعينها: "**وخروا له سجدا**"،(٥) وهكذا

(١) سورة يوسف: آية ٤٤.
(٢) سورة الصافات: آية ١٠٢.
(٣) سورة الصافات: آية ١٠٢.
(٤) سورة يوسف: آية ٤.
(٥) سورة يوسف: آية ١٠٠.

فالرؤيا الصالحة يراها النبي والولي والعارف والمؤمن فتُحقق صدقاً، أو يصدق تأويلها. وقال الرسول عليه السلام: "نوم الأنبياء وحي" وقال أيضاً: (لم يبق من النبوة إلا المبشرات يراها المؤمن أو يرى له).

أما الرؤيا الصادقة فهي ما يراها المؤمنون والكافرون والبراهمة والمرتاضون، وما أكثرها لأنها تظهر بعينها أو يصدق تأويلها، ولكنها مظهر الروح كما كانت رؤيا ملك مصر: "**إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف**"[1] وكما رأى المسجونون: "**يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه**".[2]

وأما الواقعة فهي ما تحدث بين النوم واليقظة، بمعنى أن الحواس الظاهرة لا تغلبها النفس، وأكثرها ما يظهر في المراقبة. والواقعة الصورية تكشف بعض الغيبيات للمؤمنين والكافرين والرهبان والفلاسفة والبراهمة والهنود بكثرة الرياضة وتصفية قلوبهم، وتظهر الوقائع للروح في اليقظة أو بين النوم واليقظة، ويظهر هذا من غلبات الروحانية، فتمحو صفات الحيوانية والبهيمية وتخلص روحهم من حجب الخيال، وتتجلى الروح وتظهر الأنوار والمكاشفات والمشاهدات الغيبية، ولكن لا يحق لبعضها قرب الحق وقبوله(رضاه)، ولكنها تصير لهم بسبب الغلو والمبالغة والحجاب ويحصل الكفر والضلالة، ويصل إلى مقام الاستدراج كما قال تعالى: "**سنستدرجهم من حيث لا يعلمون**".[3] ويطلق على نوع هذه الواقعة: (الواقعة الصورية).

---

(١) سورة يوسف: آية ٤٣.

(٢) سورة يوسف: آية ٤١.

(٣) سورة الأعراف: آية ١٨٢.

وأما الواقعة المعنوية: فهي ما يراه الموحدون في مرآة الآفاق والأنفس من جمال الآيات البينات وجلالها: "**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**"،[1] ويظهر للموحدين سبب ظهور الحق ويصل بالإلهام الرباني إلى معرفة الفجور والتقوى التي في قلب السالك، والحواس مغلوبة على أمرها بنظر القلب، وتطلع الروح بتلك الإلهامات، دون واسطة تصرف الخيال وتأثيره، على حقيقة تلك الإلهامات والوقائع، ويطلع السالك كلية على صلاح النفس وفسادها وترقيها وانحطاطها كما قال تعالى: "**ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها**".[2] وكما تأتي الواقعة الصورية للبعض سبب استدراج وزيادة الكفر، فإن الواقعة المعنوية تأتي للموحد سبب القرب وزيادة الإيمان: "**هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم**".[3]

والفرق بين الواقعة الصورية التي يعتقدها المشركون والبراهمة والفلاسفة والهنود والمرتاضون، والواقعة المعنوية التي يعتنقها الموحدون حسب مراتب إيمانهم، هو أن المشرك وقع في حجب الشرك والأثنينية، ولا يعلم شيئاً عن مشاهدات أنوار صفات الأحدية، ولا يخرج عن وجوده، ولكن الموحد تخلص من ظلمة الحجب، ومحى وجود الإنسانية في تجلي أنوار صفات الأحدية، ليتمتع بمقام الواحدية من ظهور عالم الربانية لقوله: "**الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور**".[4] شعر ترجمته:

---

(١) سورة فصلت: آية ٥٣.

(٢) سورة الشمس: آية ٧-٨.

(٣) سورة الفتح: آية ٤.

(٤) سورة البقرة: آية ٢٥٧.

متـى يمكـن انفصـال "تحـن" عـن "تحـن"
فأنـا وأنـت ذاهبـان والله هـو البـاقي
واللسـان الـذي نطـق بالسـر المطلـق
قد تحرك صادقـاً لـو قـال "أنـا الحـق"[1]

اعلم أن كشف الرؤيا الصالح والوقائع المعنوية لها ثلاث فوائد في نظر السالك:

الأولى: أن يطلع على أحواله من زيادة ونقصان وستر وتوقف وفتور ووجد وشوق وحزن وانفصال واتصال وفجور وتقوى، ويعرف منازل الطريق ومقاماته والدرجات والدركات والعلو والسفل (الانحطاط) والحق والباطل، إذ يظهر لكل منها صورة مناسبة لها حتى يقف السالك على جملة الوقائع النفسانية والحيوانية والشيطانية والسبعية والبهيمية والملكية والقلبية والروحية من الأوصاف الذميمة والحسنة.

فمثلاً لو غلبت عليه الصفات الذميمة النفسانية مثل الحرص والحسد والشره والبخل والحقد والكبر والغضب والشهوة، وغيرها، فستنقش نفس كل شخص وتظهر في صورة الحيوانية التي غلبت عليها بتلك الصفة، مثلما تظهر صفة الحرص في صورة الفأر والنملة، وإذا غلبت صفة الشره فإنها تظهر في صورة الدب والضفدع، وإذا غلبت صفة البخل والغضب، فإنها تظهر في صورة

(١) انظر البيت الأول عند: سنائي الغزنوي: حديقة الحقيقة: ص١١٤، والبيت الثاني في نفس المصدر ص١١٣ مع بعض التحريف؟

الكلب والقرد، وإذا غلبت صفة الحقد فإنها تظهر في صورة الفهد، وإذا غلبت صفة البهيمية فإنها تظهر في صورة الأغنام، وإذا غلبت صفة السبعية فإنها تظهر كلها في صورة السباع، وإذا غلبت صفة الكبر فإنها تظهر في صورة النمر، وإذا غلبت صفة الشيطنة فإنها تظهر في صورة الشياطين والمردة والغيلان، وإذا تغلبت صفة الغدر والمكر والحيلة فإنها تظهر في صورة الثعلب والأرنب.

وإذا رآها مستولية عليه جميعها فهو يعرف أن هذه الصفات غالبة، وحتى إذا رآها مسخرة له فإنه يعرف أنه قد تخلص من هذه الصفات، وإذا رأى أنه يقتلها ويقهرها فإنه يعرف أنه قد سما وتخلص من هذه الصفات، وإذا رأى أنه في نزاع معها فإنه يعرف أنه في المعاندة والمكايدة فلا يغفل عنها ولا يأمن لها، وإذا رأى صورها التي تتغير وتتبدل بصور أخرى فإنه يعرف أنه يسهل تبديل هذه الصفات.

وإذا رأى المياه الجارية والصافية والبحار والأحواض النقية والبساتين والقصور والمرايا الصافية والقمر والنجوم والسماء الصافية، فهذه جميعها صورة الصفات الملكية والروحية والقلبية. وإذا رأى الأنوار السرمدية والعوالم الأبدية وطلب المعاريج وطي الأرض والسماء والطيران في الهواء وكشف المعاني وإدراك الحقائق والتجرد عن الجسم والجسد، فهذه جميعها مقامات الروحانية والربانية وسير عالم القلب والروح والخفى. وإذا رأى مطالعة الملكوت ومشاهدة الملائكة والأفلاك والأنجم والنفوس وملكوت السماء والعرش والكرسي، فهي جميعها في سلوك الصفات الملكية وحصول الصفات الحميدة. وإذا ظهرت له مشاهدات الأنوار الغيبية ومكاشفات صفات الألوهية والإلهامات

الغيبية والإشارات وتجليات صفات الربوبية، فإنه يعرف أنه في مقام التخلق بأخلاق الله والسير في الفناء ومقام الوصول إلى البقاء بعون الله.

الفائدة الثانية: تلك هي الوقائع القلبية والروحية والملكية التي تطيب مع ذوق السالك ويبدو له منها مشرب وقوة وذوق وشوق، إذ أنها بذلك الذوق والمشرب، تقطع الأنس بالخلق ومألوفات الطبع وملذات الشهادة والشهوات الجسمانية، وتتآنس مع غيبيات عالم الروحانية واللطائف والمعاني والأسرار والحقائق، وتتجه بالكلية إلى عالم الطلب، ويصير مشربه عالم الغيب: **"قد علم كل أناس مشربهم"**.[1]

وفي الحقيقة فإنه لا يمكن تربية أطفال الطريقة في البداية إلا بلبن الوقائع الغيبية.

وكما كان يحكي شخص في خدمة الشيخ الإمام يوسف الهمداني متعجباً إذ قال كنت في خدمة الشيخ أحمد الغزالي، وكنا نتناول الطعام مع الأصحاب على سفرة الخانقاه، وفي وسط الأكل غاب شخص عن نفسه، وظل ساعة، وحين عاد لوعيه قال إني رأيت الرسول هذه الساعة وأنه جاء ووضع لقمة في فمي. فقال الشيخ الإمام يوسف **(تلك واقعات تُربى بها أطفال الطريقة)**.

الفائدة الثالثة: هو أنه لا يمكن عبور بعض مقامات هذا الطريق إلا بتصرف الوقائع الغيبية وبهمة الشيخ الكامل، والركن الأعظم هو الاحتياج

---

(١) سورة البقرة: آية ٦٠ ، وسورة الأعراف: آية ١٦٠.

إلى الرسول والشيخ لكي يسبر السالك وجوده ويتيسر سلوكه في صفات النفس والروح والقلب. فمن الممكن ألا يحتاج للغير، ولكن إذا بلغ مقام الروحانية ووصل إلى أول وادي الألوهية والخفى والإخفاء والسر والسلطان، فلا يمكنه العبور من تلك المقامات بمفرده، لأن ما يأتي من تصرف السالك يظهر له وجود آخر، وله بعد هذا مقام الفناء ويمكن الحصول على الفناء بتصرف الغير.

والوقائع التي تأتي من فيض ولاية الشيخ أو من حضرة النبوة من تجليات الصفات الإلهية، توهب الفناء. وما لم يحصل الفناء الحقيقي فلن يصل إلى البقاء الحقيقي الذي هو المقصود والمطلوب من السلوك والله أعلم.

أما بعد، فهذه طرفة من الوقائع التي تتعلق بالكشف والمشاهدة والتجلي والوصول وستذكر كل منها في موضعها في الفصل الخاص بها إن شاء الله تعالى.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين.

الفصل السابع عشر

في بيان مشاهدات الأنوار ومراتبها

الفصل السابع عشر

في بيان مشاهدات الأنوار ومراتبها

قال الله تعالى: "ما كذب الفؤاد ما رأى، أفتمارونه على ما يرى، ولقد رآه نزلة أخرى".[1]

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه**".

اعلم أن ظهور الأنوار الإلهية إما جلالية أو جمالية: أما الجلالية فهي محرقة وليست مشرقة، والجمالية مشرقة وليست محرقة. وما هو جلالي فهو مفني ومميت، ومحرق وقهار، وما هو جمالي فمبقي ومحيي ومشرق ومعطي. وحينما صقلت مرآة القلب الصادق الصافي بالتدرج ـ بهمة الأبدال ـ بسيطرة مصقل كلمة التوحيد، ومحي عنها صدأ الطبيعة وظلمة صفات البشرية حيث (إن لكل شيء صقالة وصقالة القلب ذكر لا إله إلا الله)، فتقبل الأنوار الغيبية، ويشاهد السالك تلك الأنوار حسب صقالة القلب. وما أكثر الأنوار التي تظهر في بداية الحال على شاكلة البروق واللوامع واللوامح.

يا أيها البرق الذي تلمع — من أي أكناف الحمى تسطع

وكلما تزداد الصقالة تقوى الأنوار وتزداد، فأحياناً يشاهدها (السالك) على شاكلة القنديل والمشكاة والمصابيح الملونة والشموع المختلفة والنيران

(١) سورة النجم: آية ١١-١٣

الموقدة المتنوعة، وأحياناً تظهر الأنوار العلوية في صورة كواكب صغيرة وكبيرة، وأحياناً يشاهدها على مثال القمر والأقمار، وبعد ذلك تظهر كمثال الشمس والشموس. ثم تظهر الأنوار المجردة، وهذا كله يطول شرحه، ولكنا سنشرح بعضًا منه.

اعلم أن منشأ الأنوار متنوع حسب روحانية السالك ، مثل روحانية السالك وولاية الشيخ ونبوة الرسول عليه السلام وأرواح الأولياء والأنبياء والمشايخ العرفاء وحضرة العزة وذكر "**لا إله إلا الله**" والأذكار المختلفة والقرآن والإسلام والإيمان والإحسان وأنواع العبادات والطاعات، فلكل منها نور غير الآخر. وفي هذا المختصر يتعذر الشرح بالتفصيل لأي من هذه الأنوار المختلفة حتى ترى **من أي منشأ تكون؟**. ولكن على سبيل الإجمال اعلم أن كل ما يأتي بصورة البروق واللوامع فمعظمه يأتي من منشأ الوضوء والصلاة. وذات مرة توضأ أحد مريدي الشيخ أبي سعيد رحمه الله ودخل الخلوة فظهر له برق وشعاع نوري فصرخ وأسرع بالخروج وقال إني رأيت الله عز وجل. فعرف الشيخ الأحوال وقال أيها الغافل إن هذا نور وضوئك، **وأين أنت الآن وأين الحضوة؟**. وأما لوامح نور القرآن والذكر التي تظهر للنظر فتسرع البروق واللوامع وتقطعها، ولكن اللوامح تتوقف قليلاً.

ولكن ما يرد في صورة القنديل والمصباح والمشكاة والزجاجة فهو نور مقتبس من ولاية الشيخ أو نور حضرة النبوة: "**وسراجًا منيرا**"[١] وقد ضرب الحق تعالى مثلاً لهذا: "**مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة**".[٢]

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٤٦.

(٢) سورة النور: آية ٣٥.

وإذا ظهر ذلك النور في صورة الشمع والمصابيح المختلفة والنيران المتقدة، فإنه قد ظهر من آثار الأذكار المختلفة والقرآن والسحر والصمت والأوراد والبكاء، وذلك نور العرفان الذي ظهر في القلب.

ولكن إذا نظر في صورة العلويات كالكواكب والأقمار والشموس فهي تكون من الأنوار الروحانية التي تظهر على سماء القلب بقدر صقالتها. وحين تصفو مرآة القلب قدر كوكب فإن نور الروح يظهر قدر كوكب أيضاً. وأحياناً يرى الكواكب في السماء وأحياناً يراها بلا سماء. وحين يشاهدها فإن السماء تكون جرم القلب، والكواكب نور الروح بقدر صفاء القلب . وأما ما يراه السالك من الأنوار في صورة الكواكب القليلة والكثيرة والصغيرة والكبيرة ــ والتي هي صورة العلويات ــ فإنها تكون من آثار الإحسان والإيمان. وما يراه من القمر أو الأقمار أو الشمس أو السماء في سماء القلب أو سماء الفلك، سواء بجرم أو بدون جرم، فقد جعلت السالك مضاء بنور العقل والعلم والإحسان والإيمان، وأضاءت القلب بصفاء الصدر بقدر تحصيله لهذه الأنوار، وصار صاحب النفس الملهمة. وإذا شاهد القمر كاملاً فقد ظهرت آثار الولاية القمرية.

إما إذا شاهد (المريد) النقصان فإن الكدورة والظلمة هي الباقية بقدر النقصان، وإذا ظهرت الشمس في القلب ومرآة القلب، فإن هذا يكون من آثار ظهور الولاية بالكلية الإلهية، وإذا تجلت الشموس في قلب السالك، فإن هذا يكون من آثار ظهور الأولياء بالكلية، وكذا إذا شوهدت صورة القمر والشمس فإن هذا يعد دليلاً على ظهور صورة الشيخ والولي المطلق. وبقدر ما تصفو مرآة القلب، فإنه سيجد الإشعاعات النورية إما من خلف حجاب الروح أو ستظهر له أكثر بدون حجاب الروح، ولكنها جميعاً موقوفة على معرفة السالك الواقع تحت تربية الشيخ وإلا صعب فهم المشكلة والأمر . وأحياناً يرى الشمس

والقمر والنجوم في الحوض أو البحر أو النهر أو البئر أو المياه الجارية أو الراكدة فيعرف السالك أنها من أنوار الروحانية، وأحياناً يجد القلب صافياً، فلو تظهر له صورة ألف شمس مشرقة فسيكون القلب أكثر إشراقاً منها ويصير صاحب النفس المطمئنة. وأحياناً يظهر شعاع الأنوار الإلهية التي تخرج من حجب الظلمة والنور واستقبلها على نهج "**من تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً**". وبقدر ما يظهر صفاء القلب، فإنه يضيء مرآة القلب مثل قلب (فؤاد) القلب الذي لم يكذب قط: "**ما كذب الفؤاد ما رأى**"،[١] ولهذا يقول الرسول "**رأى قلبي ربي**"، ومثل قصة إبراهيم عليه السلام في رؤيته للكوكب والقمر والشمس حسب التجليات الإلهية من خلف حجاب الروحية أو في القلب، والقلب بدون حجاب، ومثل محادثة الشجرة لموسى "**إني أنا الله**"،[٢] من خلف الحجاب ومحادثة الحق لموسى بدون حجاب لقوله: "**وكلم الله موسى تكليماً**"،[٣] فهي مشهورة ومعروفة.

وإذا سأل شخص عما رآه إبراهيم عليه السلام في تلكم الشمس والقمر والنجوم، وما كان لموسى من محادثة الشجرة ومحادثة الحق، أهي كانت في عالم الباطن أم في عالم الظاهر، فإننا نجيب: لا تختلف، فحين صفت مرآة القلب فأحياناً يرى هذه المشاهدات في عالم القلب والغيب والباطن وأحياناً يراها في عالم الشهادة والظاهر والحس، وكل شيء رآه سيكون بالقطع مناسباً له، وهو مظهر أنوار الحق ومحل ظهور أنوار الحق لقوله تعالى: "الله نور السموات

(١) سورة النجم: آية ١١.

(٢) سورة القصص: آية ٣٠.

(٣) سورة النساء: آية ١٦٤.

والأرض"[١]. وفي الحقيقة فإن المشاهد والناظر للحضرة حين وجد ذوق "هذا ربي" فيستوي لديه الغيب والشهادة والظاهر والباطن، وأحياناً يظهر صفاء القلب ورفع الحجب حسب الظاهر والباطن حيث تظهر رؤية: "**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد**".[٢] وحين تزول الحجب كلية فيتيسر مقام الشهود بلا واسطة كما قال ذلك الرسول العظيم "**ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله**". ولو ينظر في ذاته فإنه يرى الحق كل شيء ويظهر منه القول: "**أنا الحق**"، وإذا نظر في الموجودات فإنه يرى كل الحق ويرى الحق في الموجودات، كما قال فيها ذلك الرسول العظيم: "**ما نظرت في شيء إلا ورأيت الله فيه**" وإذا غرق في البحر الأبدي للشهود وأفنى وجود المشاهدة فإنه يبقى وجود الشاهد فقط كما كان يقول الجنيد قدس الله روحه العزيز "**ما في الوجود سوى الله**". وفي هذا المقام الشهودي يكون جمال الشاهد أيضاً لنظر الشاهد في مرآة إنسان العين شعر ترجمته.

انقضى عُمر ورأسي قدم في طريقك
وأنا أكتحل بتراب قدمك في عيني
ومن ثم فأنا الآن مرآة لوجهك
وأنظر إلى وجهك بعينيك

وحين عبرت النفس (**مقام**) الأمارية، وقطع اللوامة بالمتابعة ومصقل الذكر والرياضة والخلوة والعزلة، واتجهت إلى وادي "**الملهمة**"، وظهرت

(١) سورة النور: آية ٣٥.
(٢) سورة فصلت: آية ٥٣.

مشاهدة الأنوار، وهي الأنوار المتعددة الألوان، ــ وما أكثرها ــ حيث يشاهد أولاً مرتبة النور الأبيض، وهي علامة الإسلام، وثانياً يرى النور الأصفر وهو علامة الإيمان، وثالثاً يكون النور الأزرق وهو علامة الإحسان، ورابعاً النور الأخضر وهو علامة الاطمئنان (الاعتقاد)، وخامساً النور السماوي الصافي وهو علامة الإيقان، وسادساً النور الأحمر وهو علامة العرفان، وسابعاً النور الأسود وهو علامة الهيام ونور الذات. وما أكثر ما تظهر مشاهدة هذه الأنوار مجتمعة أو منفردة أو حسب الأوقات المختلفة. وهذه المعرفة شاملة لحال السالك مع المعرفة برؤية الشيخ المرشد الهادي:

إن البصر لا يقوى عليك من نورك
ولا تدركك العين كما أنت
فكيف أخبر القلب بك، ومن لطفك
لا تجد زينة الثوب خبراً عنك

نور يبدو، إذا بدا استمكن | **شمس طلعت ومن رآها آمن**
والقوم رضوا بظلمةِ ذات حزن | **كم قلت وكم أقول لكن مع من**

وحين تتجلى أنوار الجمال من فيض لطف الألوهية في مقام الشهود ومشاهدة الظواهر المختلفة لأحوال الموجودات حسب نشأة الغيب والشهادة صورة ومعنى، ومع هذا تظهر الأنوار الجلالية والتي خاصيتها الإحراق في

أول ظهورها: "لا تبقى ولا تذر"،[1] إذ أن النيران السبعة تكون من فيض ذلك النور في الحقيقة، ولا يدرك هذه المعاني أي فهم وعقل. وأحياناً يكون نور الجلال ظلمانياً صرفاً، فيكف يفهم العقل النور الظلماني، إذ من المحال أن يجمع العقل بين الضدين.

ولو أمكنه فهم تلك الإشارة التي يقولها الرسول عليه السلام حيث أشعلت جهنم واتقدت عدة آلاف سنة حتى صارت حمراء، وأشعلت عدة آلاف سنة أخرى حتى صارت بيضاء وأشعلت عدة آلاف سنة كذلك حتى صارت سوداء، وهي الآن سوداء. وهكذا كلما تنظر ففي كلا العالمين نور وظلمة من شعاع لطفه وقهره، ولهذا ذكر النور والظلمة بلفظ الجعلية وليس بلفظ الخلقية حيث: "خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور"،[2] فجعل الخلقية أمراً والجعلية أمراً آخر. وضمن هذه الإشارة معاني كثير فياضة لا تليق بأي حوصلة وفهم. وتظهر أنوار الجلال والإفناء والسطوة والصولة والهيبة والعظمة والألوهية والديمومية والقهارية وفناء الفناء والإعدام والإماتة وبظهورها يتجلى تحطيم الطلسم الأعظم ورفع الرسوم المبهمة شعر ترجمته:

يمزق اليقين حجب الخيال
فلا يبقى إيوان إلا الجلال

---

(١) سورة المدثر: آية ٢٨.
(٢) سورة الأنعام: آية ١.

ويقول حضرة الشيخ أحمد الغزالي:

عرفنا خبايا الدنيا وأصل العالم
وعبرنا بسهولة فوق العلة والعار
اعلم أن ذلك النور الأسود أسمى من "لا"
وقد تجاوزناه أيضاً، فلم يبق هذا ولا ذاك.[1]

وكان الرسول عليه السلام في رجائه يقول: "**أرنا الأشياء كما هي**" أى يطلب ظهور أنوار اللطف والقهر، لأن لكل شيء في كلا العالمين وجوداً ما من فيض أنوار لطفه أو من فيض أنوار قهره، وإلا لما كان لأي شيء وجود حقيقي قائم بذاته. فالوجود الحقيقي للحضرة الأزلية كما قال: "**هو الأول والآخر والظاهر والباطن**".[2] شعر ترجمته:

أنظر فإن القلب لب الحقيقة والجسد قشرها
وتأمل ففي كسوة الروح صورة الحبيب
وكل شيء له ذلك الدليل على وجوده
فانظر إما ظل نوره هو أو هو ذاته.

اعلم أن أول نور يظهر في قلب السالك الخبير والناهج والبصير والمطيع لأمر البير (الشيخ). والسالك السعيد بالحي القدير، يكون في صورة البروق أو

(١) أحمد الغزالي: السوانح في العشق: ص١٣.
(٢) سورة الحديد: آية ٣.

اللوامع أو النوامح أو القنديل والمشكاة والمصباح والزجاجة، أو المصباح والشمع والنيران المتقدة المتلونة التي قد تكون لأي شخص، فإن أثرها هو الدنيا التي يَفتُر اهتمامه بها في قلبه رويداً رويداً ويترك الدنيا بالتدريج حتى أنه ما أكثر أن يحصل انقطاعه عن الدنيا ولذاتها. ولو وصلته هذه الأنوار بمثابة النجوم فإنه يصرف النظر عن جميع شهوات الدنيا، ولو فاض عليه النور لظهر على شكل القمر أو الأقمار فيغمض عينيه عن الدنيا والآخرة. ولو فاض ذلك النور على القلب والباطن الصافي، لبلغ مرتبة الشمس أو الشموس فلا ينظر إلى الدنيا ولا الآخرة. ولا يعرف ولا يرى سوى ربه دون حجاب الروح "**فيكون قلبه نوراً وجسده نوراً وجسمه نوراً وسمعه نوراً وبصره نوراً ويده نوراً وظاهره نوراً وباطنه نوراً وفمه ولسانه نوراً**".

وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين،

الفصل الثامن عشر

في بيان المكاشفات وأنواعها

الفصل الثامن عشر

في بيان المكاشفات وأنواعها

قاله الله تعالى: "فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد".(١)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "**إن لله سبعين ألف حجاب من نور وظلمة لو كشفها لاحترقت سبحات وجهه وما انتهى إليه بصره**".

اعلم أن حقيقة الكشف عن الحجاب هو ظهور الشيء على نحو يدرك به صاحب الكشف، ذلك الشيء الذي لم يدركه قبل ذلك كما قال: "فكشفنا عنك غطاءك" أي أننا رفعنا ذلك الحجاب عن ناظريك حتى صار مكشوفاً لنظرك ما لم تره من قبل.

والحجاب عبارة عن الموانع التي يحجب ويمنع بها نظر العبد عن جمال الحضرة وجلالها، وتلك هي جملة العوالم المختلفة في الدنيا والآخرة، والتي وردت في إحدى الروايات ثمانية عشر ألف عالم وفي رواية أخرى سبعون ألف عالم وفي رواية ثالثة ثلاثمائة وستون ألف عالم. ولكن الأرجح هو سبعون ألف عالم لأن الحديث الصحيح ناطق بذلك: "**إن لله سبعين ألف حجاب من نور وظلمة**". وهذه السبعون ألف عالم موجودة في طبيعة الإنسان، وحسب كل عالم فللإنسان نظر يمكنه به مطالعة ذلك العالم في حالة كشف ذاك العالم.

---

(١) سورة ق: آية ٢٢.

وهذه السبعون ألف عالم مندرجة في العالمين التي ظهر منها النور والظلمة، أي الملك والملكوت ويقال أيضاً الغيب والشهادة، كما تُسمى الجسماني والروحاني، وتسمى كذلك الدنيا والآخرة: وهي جميعها واحدة ترد في عبارات مختلفة.

والإنسان عبارة عن مجموع هذين العالمين حيث أن القدرة الأزلية جمعت بين الضدين، والسبعون ألف نظر التي يدرك بها السبعون ألف حجاب مندرجة في مدركات العالمين، مثلاً كالحواس الخمس الظاهرة التي تتعلق بالجسمانيات، وجملة عوالم الجسمانيات الملكية التي تدرك بتلك الحواس الخمسة، وكالحواس الخمس الباطنية التي تتعلق بتلك القوى الباطنية وتدرك العوالم الباطنية بتلك الحواس الخمسة، وكالقوى البشرية التي تدرك تلك العوالم البشرية بالنسبة لكل قوة وفعل.

والمكاشفات في اصطلاح أهل السلوك تطلق على المعاني وليس على ما يدرك الحواس الخمس الظاهرة ولا على ما يدرك الحواس الخمس الباطنة ولا على ما يدرك القوى البشرية التابعة للحواس.

وعندما يتجه السالك الصادق بجذبة الإرادة من أسفل سافلين الطبيعة إلى أعلى عليين الشريعة، ويسلك بقدم الصدق جادة الطريق على قانون المجاهدة والرياضة في أحضان هداية متابعة الولي والشيخ، وفي كل حجاب يبلغه من تلك السبعين ألف حجاب، يكشف له نظر مناسب لذلك المقام، وتصير أحوال ذلك الحجاب منظور نظره، والقوى المعنوية ــ المخصصة لطائفة الإنسان ــ والتي يطلق عليها العقل والقلب والروح والسر والخفى ــ فيدرك لكل منها عوالمها الخاصة بها ويعرفها.

فبدءاً ينفتح نظر العقل، وتظهر معاني المعقولات قدر رفع الحجاب وصفاء العقل وتنكشف للمعقولات، وتسمى الكشف النظري والعقلي، ولا اعتماد عليها، لأن ما يلوح للبصر لا يدركه القدم[١] أي "**ليس كل ما ندركه يوهب لك أيها القلب**": فمعظم الحكماء والفلاسفة توقفوا في هذا المقام، وصرفوا همتهم على العقل وإدراك المعقولات، واعتقدوا أن ذلك هو الوصول إلى المقصد الحقيقي، وحرموا من فوائد المدركات الأخرى، واستمروا على هذا المنوال، وضلوا في غيابات الضلالة وأضلوا الخلق أيضاً: "**قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل**".[٢]

وبعدما تم السمو على كشف المعقولات، تظهر أول المكاشفات الفؤادية والقلبية، ويسمى الكشف الشهودي، إذ تظهر الأنوار المختلفة بألوانها العديدة المتنوعة، كما سبق شرحها في فصل مشاهدات الأنوار.

وبعد ذلك تظهر المكاشفات الروحية والخفية وتسمى الكشف الروحاني والإلهامي، ويظهر لهم في هذا المقام الكشف والمعاريج ورؤية الملائكة. وحين تتصف الروح بالكلية، ينكشف عرض الجنات والجحيم والعوالم الأبدية، ويرتفع حجاب الزمان والمكان، أي أن ما مضى من الزمان الغابر يدركه في هذه الحال، ويُكشف ما سيكون في زمن المستقبل. وكما يقول حارثة: "**كأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون وإلى أهل النار يتعاوون**". وقال الرسول عليه السلام: "**عرضت عليّ الجنة فرأيت أكثر أهلها المساكين وعرضت عليّ النار فرأيت أكثر أهلها النساء**". وقال الله تعالى في الكشف الروحي والإلهامي: "كتب في

---

(١) هذا مقابل للمفهوم العربي: ليس كل ما يتمنى المرء يدركه (المترجم).

(٢) سورة المائدة: آية ٧٧.

قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها".[1] وقال في موضع آخر: "يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده".[2] وقال في حق الرسول عليه السلام: "**وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا**".[3] وبعد المكاشفات الروحية والقلبية ستظهر المكاشفات السرية والإلهامية، ويصير سر الأزل والأبد نصب العين في تلك المكاشفات، وإذا ارتفع له حجاب الزمان والمكان الدنيوي انكشف له الزمان والمكان الأخروي.

وفي هذا المقام إذا تكشف له حجاب الجهات، فإنه سيرى أيضاً ما كان قبله، كما كان الرسول عليه السلام يقول "**يا أيها الناس إني إمامكم فلا تسبقوني بركوع ولا بسجود ولا ترفعوا رؤوسكم قبلي فإني أراكم من أمامي ومن خلفي**".

وسيتجلى في هذا المورد أكثر خوارق العادات كاستشراف الخواطر والإطلاع على الغيبيات والمعميات والعبور على الماء والنار والهواء وطي الأرض والزمان وغيرها. وإذا لم يكن لهذا النوع من الكرامات أهمية كبيرة فإن الأكثرية هي ما يشاهده كلا من أهل الدين وغير أهل الدين. كما سأل الرسول عليه السلام ابن صائد: "**ما ترى؟**" قال: "**أرى عرشا على الماء**" قال النبي: "**ذاك عرش إبليس**".

---

(١) سورة المجادلة: آية ٢٢.

(٢) سورة غافر: آية ١٥.

(٣) سورة الشورى: آية ٥٢.

وبعد ذلك ستظهر مكاشفات الإلهام، وفي مكاشـــفات الإلــهام عبـارات وإشارات يقصر ويعجز عن بيانها في هذا المقام علم العلمـــاء وفــهم الحكمـاء وعقل العقلاء شعر ترجمته:

ما دام منـــــزلنا علـــى رأس محلـــة عشــقك
فإن سر العـــالمين جميعـــاً مكشـــوف قلوبنـــا
وهناك حيث موضع قـــدم قلبنـــا المقبل السعيد
ومطلـــوب كـــــلا العـــالمين محصـــــــولنا

وكما أن الفؤاد والقلب صارا واسطة العالمين الجسماني والملكوتي: وجـه في عالم الملك ووجه في عالم الملكوت، حتى قبل الفيض بذلك الوجه الذي فـي الملكوت ليصل به إلى عالم الملك، ويصل النفس والجسد بأنوار الملكوتيات التي في عالم الملك.

وهكذا فإن الروح والخفى هي الواسطة بين عالم السر والإخفاء وبين عالم الفؤاد والقلب على النحو الذي يجذب به الفيض من عالم السر والإخفاء ويعطيـه على هذه الصورة إلى عالم الفؤاد والقلب.

وكلما بلغ السالك مقاماً في المراتب القلبية السبعة، بمسعاه البليغ وشـــيخه الخليق حسب استعداده الذاتي والعناية الأزلية، فقد اكتسب أكـــثر أنــواع هــذه المكاشفات في التخلق بأخلاق الله والاتصاف بأوصاف الله:

يا من ســـلب عشـــقك منـــا العقـــل والقلـــب
وصــــــار ألمــك سبـــب بيـــع دار قلوبنـــــا
أن الســر الـــذي حـــرم منـــه المقدســـون
تمتم عشقـــك به وهمس في أسمـــاع قلوبنـــا.

والكشف في اصطلاح هذه الطائفة ـ قدس الله أرواحهم ـ هو الإطلاع على ما وراء الحجب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقية، لأنه حسبما يكون العقل والنظر، وذلك لم يؤبه به كثيراً وليس له اعتبار، أو حسبما يكون الوجود والشهود. وهذا الكشف المطلق إما صوري أو معنوي:

فالصورى ـ هو ما يحصل في عالم المثال والصورة عن طريق الحواس الظاهرية بعون ومدد القوى الباطنية مثل رؤية المكاشف لصور الأرواح المتجسدة أو سماع الكلام المنظور عن طريق دوى النحل أو استنشاق نفحات الربوبية أو الملامسة بين جسدين نوريين أو تذوق طعم الأطعمة والأشربة الغيبية.

وغير ذلك من الكشف الصوري أو التعلق بالأمور الدنيوية مثل عودة زيد فلان نهارا أو رحيل عمرو بن فلان ليلاً أو العودة من السفر، من مثل هذه الأمور والاطلاع على الخبايا والخفايا. ويشترك في هذا الكشف أيضاً المرتاضون وأهل المجاهدة والبراهمة، ويتصورون أن هذا سبب جاههم وعظمتهم. ولكن أهل الله لا يبالون بهذا الكشف، ويسمونه بالاستدراج والمكر، ويهتمون بالأمور والحوادث الأخرى مثل اكتشاف الجنة وأهلها والنار وأهلها وما يظهر بعد الموت في القبر وأحواله حيث يقول الرسول عليه السلام: "**القبر إما حفرة من حفر النيران أو روضة من رياض الجنة**". وأهل السلوك والنظر في هذا الكشف لا يعرفون ولا يتجهون لغير الحق في أمور الصراط والميزان والكتاب وحشر الأجساد والأجسام بعد النشور بصورة مجتمعة أو المكاشفات المعنوية الحقيقية.

وأعلى مرتبة للكشف هي ارتفاع الحجب ومكاشفة الأعيان الثابتة ومكاشفة اللوح المحفوظ ولوح المحو والإثبات ومكاشفة القضاء والقدر والإطلاع على

الأقانيم الثلاثة والاطلاع على الأرواح العليا والكتب الإلهية وحقيقة العرش والكرسي والسموات السبع والنفوس الفلكية النورانية والظلمانية والإطلاع على العناصر والقوى البشرية وأرواح الجن والشياطين والأبالسة، والتي ستظهر جميعاً بالكشف المعنوي في هذا المقام، وقد أسمى أهل السلوك والعرفان هذا الكشف بالكشف المعنوي.

وما أكثر السالكين إلى الله في السفر الثاني، إذ أن السالك من الحق إلى الحق في المكاشفات الجمالية يصير ــ بواسطة الاستعداد والرياضيات ــ تحت تربية اسم من الأسماء الإلهية والاتصاف بذلك الاسم والدخول في مظهريته والاتحاد المُظْهِر والمُظْهَر لحقيقة السالك المتصف بتلك الصفة وذلك الاسم، أو سيتصف بجميع الأسماء. وعلى هذا قيل: "تخلقوا بأخلاق الله واتصفوا بصفات الله".

وفي كشف الأسماء الجلالية لا يبقى اسم ولا رسم ولا وحدة ولا كثرة ولا شاهد ولا مشهود ولا كاشف ولا مكشوف ولا رائي (ناظر) ولا مرئي (منظور)، ويبقى الحق ويبقى الحق ويبقى الحق والحق، والسلام على من أتبع الهدى.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين.

الفصل التاسع عشر

في بيان تجلى الذات والصفات والأفعال الإلهية

الفصل التاسع عشر

في بيان تجلي الذات والصفات والأفعال الإلهية

قاله الله تعالى: "فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقا".(١)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "**إن الله تعالى حلق آدم فتجلى فيه**". وقال: "**إذا تجلى الله لشيء خضع له**".

اعلم أن التجلي عبارة عن ظهور الذات والصفات والنعوت والأسماء الجلالية والجمالية للحق جل وعلا كما سيأتي شرح ذلك إن شاء الله.

وللروح تجلي أيضاً، إذ يخطئ السالكون كثيراً في هذا المعنى، فأحياناً تتجلى الروح، فيبدو للسالك ذوق تجلي الحق. وكثير من السالكين يغترون في هذا المقام ويعتقدون أنهم وجدوا تجلي الحق، إذ لم يكن هناك شيخ كامل صاحب تصرف كي يتخلصوا من هذه الورطة الصعبة.

وبالرغم من أن مشايخنا السابقين ، قدس الله أرواحهم ـ قللوا من كشف هذه الحقائق فدثروها بالحجاب قدر ما استطاعوا بعيداً عن نظر الأغيار. ولكن حين نظر هذا الضعيف في هذا الزمان، وجد أنه ظهر كثير من المدعين، دون معنى، في هذه الطائفة، فاغتروا بغرور الشيطان ومكر النفس، وتحدثوا بكلام كثير هراء ظانين أنهم قد وصلوا إلى كمال مقصد هذا الطريق ومقصوده،

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٤٣.

ووجدوا ذوق مشارب الرجال، واعتقدوا أن لهم جواز التصرف في المملكة، ووقعوا في الإباحة والزندقة والحلول والتناسخ والاتحاد كما يقول العزيز:

إن الكثير من هؤلاء السذج يلبسون المرقعات
دون أن يسيروا بضع خطوات في طريق الصدق والصفاء
وأخذوا كثيراً من ألف ولام الطامات (الشطحات)
فأساءوا إلى الكثير من الأخيار[1]

فأراد أن يبين نتفة من مقامات السلوك وأحواله لتكون محكاً لهؤلاء المدعين، حتى يمتحن كل شخص نفسه على هذا المحك، وإذا لم يروا في أنفسهم شيئاً من هذه الأحوال فإنهم يخرجون من جوال غرور الشيطان ومكمن مكر النفس، ويسيرون على الصراط المستقيم الذي هو جادة المتابعة. ولو كان فيهم ألم الطلب، لأمسكوا بتلابيب صاحب سعادة ليصلوا إلى مقصدهم ومقصودهم على أهداب سعادته، كما يقول تعالى: **"وأتوا البيوت من أبوابها"**:[2]

ما دمت تلوث غراب الصفة كثيراً بالجيفة
فمتى تليق بالملوك مثل الصقر؟
وإذا كان غذاء البازي الأشهب مثل الصعوة
فمتى يليق البازي الأشهب ليد الملك

(١) سنائي الغزنوي: ديوان السنائي: ص٨٣٠.
(٢) سورة البقرة: آية ١٨٩.

وأيضاً هناك دليل للطالبين المحققين والمريدين الصادقين لجادة الصواب، والمشوقين للمرجع والمآب.

والآن نبدأ بالتأييد الرباني والتوفيق الرحماني في شرح التجلي الروحاني والتجلي الرباني والفرق بين التجليين:

اعلم أنه حين تصقل مرآة القلب من كدورة وظلمة وجود ما سوى الحضرة وتبلغ الكمال، تصير موضع إشراق شمس جمال الحضرة، وتصير كأس مرآة العالم للذات المتعالي الصفات. ولكن ليس كل شخص ينال سعادة الصقل والصفاء توافقه سعادة التجلي لأن: **"ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء"**،[1] ولكن القلوب تصير أيضاً مستعدة للصفاء بهذه السعادات، كما يقول الشيخ عبدالله الأنصاري رحمة الله عليه **"ينزل تجلي الحق فجأة ولكنه يأتي للقلب بالمعرفة"**. وسمعت عن الشيخ علي البونياقي[2] قدس الله روحه أنه روي عن شيخه الشيخ أبي بكر شانيان القزويني رحمة الله عليه: **"ليس كل من عدا أمسك حمار الوحش، ولكن من أمسك بحمار الوحشي هو من سعى"**. وفي البداية حين تصفو مرآة القلب من صفات البشرية وصدأ الطبيعة، يتجلى عليها بعض الصفات الروحانية، وتكون هي من غلبات أنوار الروحانية ويمكن أن يغلب تجلي نور الذكر وتجلي نور الطاعة على تجلي الروح ويتموج بحر الروحانية، وتُغير موجة على ساحل القلب ويتجلى عن صفاء مرآة القلب.

---

(١) سورة الحديد: آية ٢١ ، وسورة الجمعة: آية ٤.

(٢) البونياقي: نسبة إلى بونياق: وهي من مدن داغستان (الناشر).

وأحياناً يختلط على الذاكر تجلي نور المذكور مع نور ذكر الذاكر، فيتذوق ذوق تجلي المذكور ولم يكن ذلك. وأحياناً تتجلى ذات الروح ــ وهــي خليفــة الحق ــ وتأخذ في خلافة الحق بدعوى: "**أنا الحــق**". وأحيانــاً تسجد جملــة الموجودات أمام عرش خلافة الروح، فتقع في خطأ لأنه لغير حضــرة الحــق قياساً على هذا الحديث: "**إذا تجلي الله لشيء خضع له**"، وتقع في أخطاء كثـيرة من هذا النوع، وتتجرع النفس ذلك الغرور من أجل شربها فلا يستطيع أي سالك أن يفرق بين الحق والباطل ويميز بينهما، سوى المنظورين بنظر العناية، فــهم المحفوظون من كيد النفس ومكر الحق.

أما الفرق بين التجلي الروحاني والتجلــي الربــاني، فــهو أن التجلــي الروحاني يوصم بالحدوث وليس له قوة الإفناء، مع أنه يزيل الصفات البشــرية وقت ظهور التجلي ولا يمكنه أن يفنيها، لأنه لو حجب التجلي، لعادت الصفــات البشرية كالقول: "**عاد الميشوم إلى طبعه**".

وحينما يحصل للنفس حالة أخرى من تجلي الروحانية، نتيجــة اكتســاب مقاصد هواها الذي لم يكن من قبل، ولا يمكن أن تحدث هذه الآفة فــي تجلــي الحق جلا وعلا، لأن من لوازم تجلي الحق التدكدك،[1] حــيث يحصــل طــور النفس وزهوق صفات الباطل: "**قل جاء الحق وزهق البــاطل إن البــاطل كــان زهوقا**".[2] وغيــر ذلك فلا تظهر طمأنينة القــلب بحصول التجلي الروحــاني، ولا يتخلص من شوائب الشك، ولا يكتمل ذوق المعرفة، وتجلــى الحــق علــى خلاف هذا وضده.

---

(١) تدكدكت الجبال: أي تهدمت (الناشر).

(٢) سورة الإسراء: آية ٨١.

وغير ذلك يظهر التفكير والغرور من تجلي الروحانية، ويزداد العجب والأنانية،[1] ويقل ألم الطلب، ويقل الخوف والضراعة، ويأتي البسط والتوقع.

وكل هذا يزول من تجلي الحق، ويتبدل الوجود بالفناء، ويزداد عشق الطلب ويزيد العطش. كما يقول ذلك "العزيزي" شعر ترجمته:

إن القلب المولة لم يكل تعباً بالبحث عن وصاله
ولم يطفئ هذا الظمأ من مائه
ولا ظهر شكل ولون الوجود وصورته فيه
ولم يهدأ عشقه للجمال هوساً

وتجلي حضرة الحق قسمان: إما جمالي أو جلالي:

أما الجمالي فيقتضي أوصافاً متعددة متنوعة حسب مراتب ظهور الذات مثل صفة الربوبية والألوهية، لأن الربوبية تجلت في موسى عليه السلام، إذ كان الجبل طفيلي له، وليس هو طفيلي الجبل: **"فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا"**،[2] فكان الدك نصيب الجبل من التجلي، ورغم أن الجبل قد تفتت وغشي على موسى، لكن الربوبية أبقت على وجودهما بالتربية والقدرة.

وكان لمحمد عليه الصلاة والسلام تجلي الألوهية إذ سلب جميع الوجود المحمدي وأبدل الوجود المحمدي بالوجود الإلهي لقوله تعالى: "إن الذين

---

(١) الكلمة في الأصل: هستي: بمعنى الوجودية وأخذناها كناية عن رؤية النفس أي الأنانية. (المترجم).
(٢) سورة الأعراف: آية ١٤٣.

يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم".[1] ولم يمنح كمال هذه السعادة قط لشخص آخر من الأنبياء، ولكن قد شُرف بهذا التشريف مقتطفوا سنابل هذا البيدر، ونالوا العنقود من هذا البيدر حيث: "**لا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ولساناً فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي ينطق**". وهذه السعادة من خاصية تجلي الألوهية.

وأيضاً فتجلي صفات الجمال قسمان: صفات نفسية وصفات معنوية:

فالصفات النفسية ما تدل على ذات الباري جل وعلا وليس بمعنى الزيادة على الذات، كالموجود والواجد والقائم بالنفس. وإذا تجلى بصفة الموجودية فإن ذلك يقتضي ما كان يقوله الجنيد: "**ما في الوجود سوى الله**". وإذا تجلى بصفة القائم بالنفس فإن ذلك يتطلب ما كان يقوله أبو يزيد (البسطامي): "**سبحاني ما أعظم شاني**".

أما الصفات المعنوية فهي ما تدل على معنى الزيادة على ذات الباري جل وعلا، كما نقول: له العلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والحياة والكلام والبقاء. فإذا تجلي بصفة العلم، كما كان للخضر عليه السلام "**وعلمناه من لدنا علما**"،[2] فإن العلوم اللدنية تظهر وتجلى حقائق العلوم دون واسطة، كما كان لآدم علي السلام: "**وعلم أدم الأسماء كلها**".[3] وإذا تجلى مثلاً بصفة القدرة كما كان لمحمد عليه السلام عندما شطر القمر نصفين بإشارة إصبعه، وهزم جيشاً

---

(١) سورة الفتح: آية ١٠.

(٢) سورة الكهف: آية ٦٥.

(٣) سورة البقرة: آية ٣١.

بقبضة تراب لقوله تعالى: "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى"[1]. وإذا تجلى بصفة الإرادة كما كان لأبي عثمان الحيرى[2] الذي كان يقول: "ثلاثون سنة حتى يريد الحق كل ما نريد"، وإذا تجلى بصفة السمع كما كان لسليمان الذي كان يسمع صوت النملة: "قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم"،[3] وإذا تجلى بصفة البصيرة كما يقول هذا الضعيف:

ومن هنا فأنا مرآة لوجهك
لأني أنظر ببصيرتك إلى وجهك

وإذا تجلى بتجلي صفة الحياة كما كان للخضر وإلياس الحياة الخالدة، وإذا تجلى بصفة الكلام كما كان لموسى عليه السلام: "وكلم الله موسى تكليما"،[4] وإذا تجلي بصفة البقاء، فإنه يقتضي محو الأنية الإنسانية وإثبات الصفات الربانية "يمحو الله ما يشاء ويثبت"،[5] وعلى هذا قال الحسين منصور (الحلاج):

بيني وبينك إني ينازعني　　　فارفع بجودك إني من البين

(١) سورة الأنفال: آية ١٧.
(٢) الحيري: نسبة إلى الحيرة، والحيرة محلة كبيرة مشهورة بنيسابور (الناشر).
(٣) سورة النمل: آية١٨.
(٤) سورة النساء: آية ١٦٤.
(٥) سورة الرعد: آية ٣٩.

وفي الحقيقة اعلم أن الإنسان هو مرآة ذات الحق وصفاته، وحين تصفو المرآة فإنها تتجلى بكل صفة تَجَلّي بها حضرة الجليل. وكل صفة تَجَلّي تظهر من المرآة، إنما تكون من تصرف صاحب التجلي وليس من المرآة، إذ لا يكثر من المرآة قبول العكس والصورة حين تصفو، وهي مَظْهَر ومُظْهِر ذات الله وصفاته. وعلى هذا فهي خليفة الحق.

وأما تجلي صفة الفعل مثل الرازق الخالق المحيي المميت وهكذا مثلاً: حين يتجلى بصفة الرازق كما كان لمريم عليها السلام: "**وهُزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا**"[1] وحين يتجلى بصفة الخالق كما كان لعيسى عليه السلام: "**إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً**"[2] وإذا تجلى بصفة المحيي كما كان لعيسى عليه السلام: "**وأحيي الموتى**"،[3] وإذا تجلى بصفة المميت كما كان لمريد أبي تراب النخشبي[4] حين نظر الشيخ إلى ذلك المريد، فأطلق صرخة وأسلم الروح. والتحذير لجميع السالكين واجب حتى لا يتصفوا بهذه الأوصاف خاصة صفة الإماتة، ولا يعيرها شخص الاهتمام وقت الرياضة والخلوة على سبيل الإفناء والإهلاك.

واعلم أنه لم يظهر على المنصة غير الأسماء المستأثرة عند الله، ولا تخرج سائر الأسماء عن هذه الأقسام الثلاثة: إما أن تكون ذاتية أو صفاتية أو أفعالية، رغم أن كلية هذه الأسماء ذاتية، وستظهر بظهور ذاته جل شأنه.

---

(١) سورة مريم: آية ٢٥.

(٢) سورة آل عمران: آية ٤٩.

(٣) سورة آل عمران: آية ٤٩.

(٤) النخشبي: نسبة إلى نخشب. ونخشب من مدن ما وراء النهر بين جيحون وسمرقند. (الناشر).

أما أسماء الذات فهي مثلاً كالله والملك والقدوس والعلي والعظيم والظاهر والباطن والأول والآخر والواجد والماجد والموجد والوجود والنـــور. وأسـماء الصفات فهي مثل الحي والقوي والقيوم والرحمن والرحيم والسـميع والبصـير والمتكلم والكريم والعليم والرؤوف والشهيد والصبــور والمحصـي. وأسـماء الأفعال مثل المبدئ والمعيد والمبدع والوكيــل والواســع والخــالق والوهـاب والرزاق والرافع والعدل والحكيم والمصور والهادي والوارث.

ولا تنقطع بعض أسماء الأفعال حسب ظهور أحكامها، وبعضــها يكـون حكمه متعلقاً ببعض الأزمنة إما من نشأة الدنيا أو من نشأة الآخرة. وذلك التجلي الذي يشاهده يظهر له في حال فناء صفات الإنسانية فيمحو آثار الوجوديـة، وإذا تقطرت قطرة شراب من الأسماء الجلالية في كأس تجلي الساقي بقوة الســالك وقدرته واستعداده لقوله تعالى: "وسقاهم ربهم شراباً طهورا"[1] لظهرت هيبة ذلك الشراب وسطوة ذلك الفناء، ويتخذ السالك كل وجوده متاعاً له، وكانت الصعقـة عبارة عن هذا الحال. كما قيل:

فلما استبان الصبح أدرج ضــوءه ... بأنواره أضــواء نــور الكواكـب
تجرعهم كــأساً لو ابتليـت لظــى ... بتجريعه طــارت كأسـرع ذاهـب

لم أشرب من تلك الخمر حتـى أكـون مدركـاً
ولست ذلك السكيـر حتى أفيـق مـرة ثانيـة
ويكفي كـأس واحـد من تجــلي جــلالك
حتى أصيـر نـافراً من العــدم والوجـود[2]

---

(١) سورة الإنسان: آية ٢١.

(٢) هذه الرباعية لنجم الدين الكبرى: منوچهر محسني: تحقيق در احوال وآثار نجم الدين كبرى أويسـى ص١٥٦، ورضا قلي خان هدايت: رياض العارفين: ص٢٤١.

ولو تجلت العظمة والجبروت واللاهوت، لظير واتضح فناء الفناء وبقاء البقاء، وحقيقة هذا النوع هو التجلي لقوله تعالى: "**يهدي الله لنوره من يشاء**"،[1] وهو ظهور لا يختفي، وطلوع آمنٌ من الغروب، ويحصل التمكين الذي يتلون بلونين، وهذا التجلي لا ينتهي، ولا يعرف شخص ولا يفهم النور واللون والصورة والكيفية والكمية إلا ما شاء الله.

واعلم أن تجلي الأسماء الجمالية أحياناً تكون مطمورة ومغمورة، وأحياناً تكون مكشوفة وظاهرة لأن هناك مقام التلوين ومقام اللونين. ويروي أن الشيخ أبا سعيد كان في حضرة مجلس الشيخ أبي علي الدقاق قدس الله روحهما، وكان الشيخ علي يتحدث في مقام التجلي، وكان الشيخ أبو سعيد في قوة الشباب وعنفوان العشق وغلبة الوجد والشوق، فنهض وقال: أيها الشيخ **هل يمكن استمرار هذا الحديث**؟ فقال: اجلس فلا يجوز. فمكث أبو سعيد ساعة ونهض مرة ثانية وقال: **هل يمكن استمرار هذا الحديث**؟ فقال: لا يمكن، اجلس. وقال في المرة الثالثة أيمكن استمرار هذا الحديث ؟ فقال لا يمكن ولا يمكن فهو نادر، فصرخ الشيخ أبو سعيد وصعد إلى السماء بالغًا الفلك، وقال: هذه من تلك النوادر!.

وفي تجلي الجلال ـ حيث التمكين المطلق ـ يرتفع الإيمان والكفر، ويذهب الوصال والفراق، ويتحول اللونان لونا واحداً وتزول الأحكام، وما هو إيمان يصير عياناً، ويختفي العيان في العين:

(١) سورة النور: آية ٣٥.

مع وجـــود وجهك زال وجـــه الكفـــر والإيمـــان
ولم يبـــق مع نـــور تجليـــك قلـــب ولا روح
وحين يسلبنـــا نـــور التجلـــي ماهيتنـــا
فلن يبقى أمل في الوصال وخوف من الـــهجران

وحين يقع تجلي خاص لولاية السالك على هذا النحو، فإنه يـــرى حقيقـــة "فاعلم أنه لا إله إلا الله"،[1] ويذهب من أمامه معبود وجود الجسد كلية، ويمســك بسلطنة ولاية الألوهية:

متى يمكن لنا أن ننفصـــل نحـــن عـــن نحـــن
فأنا وأنـــت ذاهبـــان والله هـــو البـــاقي[2]

وعندما ظهرت هذه الحقيقة على ولاية محمد وتابعيه، فكـــان أن قـــالت الحضرة هذه العبارة تعليماً له: "فاعلم أنه لا إله إلا الله"، وحين لم ير هذا المقام ولم يشهده، فإنه لن يعرف العلم بحقيقة التوحيد العياني: "واستغفر لذنبـــك"[3] أي لذنب وجودك: "وجـــودك ذنب لا يقاس به ذنب".

(١) سورة محمد: آية ١٩.
(٢) سنائي الغزنوي: حديقة الحقيقة: ص١١٤.
(٣) سورة يوسف: آية ٢٩.

وذلك ما قاله الرسول عليه السلام: "إنه ليغان على قلبي وأني لاستغفر الله في كل يوم سبعين مرة"، أي من الاختلاط بالخلق وتبليغ الرسالة والاشتغال بالمعاملات، فيأتي غبار أمام شمس الحقيقة، فأنفي بالاستغفار ذلك الوجود.

ولو تجلي تجلّي الجلال باسم القهارية والقاهرية والقادرية والقديرية: "أرعِل[1] أرعَا[2] أرعون[3] أرعي يزنون"،[4] لحط على ناصية الموجودات: "كل شيء هالك إلا وجهه".[5]

أيتها الدرة التي أمسكتك اليد عمراً طويلاً
وأخرجتك من قاع البحر إلى أعلى
فوضعها الغواص على كف يد الضراعة
ولكنها تدحرجت من اليد ونزلت إلى البحر ثانية

وفي هذا المقام كان الرسول عليه السلام يقول: "رب زدني علما"، ويقول: "يا دليل المتحيرين زدني تحيرا"، واستغرق السالك في هذا المقام كل وجوده بهذا الحديث، وبلغت روحه الشفة الظمأى[6]، وتقول:

---

(١) قدير (الناشر)

(٢) قادر (الناشر)

(٣) قاهر (الناشر)

(٤) قهر العباد بالموت (الناشر)

(٥) سورة القصص: آية ٨٨.

(٦) أي فاضت روحه على شفته ظمأ (المترجم).

إذا ذهب التعس إلى شاطئ البحر
فإنه لا يكون إلا يابس الشفة كساحل البحر

يا من شفتك الياقوتية ظمئة لدم القلوب
إن عينيك متعطشة إلى طلعتك مثلنا
وكل لحظة فإن عيني أكثر تعطشا إلى طلعتك
وما أطرف أنه قد صار بحرًا ثم صار البحر ظمآنًا

وهكذا يصطفون على ناصية الموجودات وينادون: "لمن الملك اليوم"، فيجيب خطاب العزة بلا داع ولا مجيب "لله الواحد القهار":

حتى يستمع من ذاته وليس مني ولا منك
لمن الملك، للواحد القهار(١)

واعلم أن الفرق دقيق جدًا بين المكاشفة والمشاهدة والتجلي، فلا يقف عليها أو يدركها أي شخص من السالكين. وهنا يتضح هذا القدر: فالمشاهدة تكون بغير التجلي ومع التجلي، والتجلي يكون بغير المشاهدة ومع المشاهدة. والتجلي الحقيقي هو عدم الشعور بالتجلي لأن المشاهدة من باب المفاعلة

(١) مأخوذ من آية قوله تعالى: لمن الملك اليوم لله الواحد القهار: سورة غافر: آية ١٦.

وتقتضي الاثنينية، ولكن التجلي الحقيقي يمحو الاثنينية ويثبت الوحدانية. ولكن هذا يكون في تجلي الجلال وليس في تجلي الجمال لأن المشاهدة تكون في تجلي الجمال والله أعلم.

وأما حديث الرسول عليه الصلاة والسلام الذي قال: "**إن الله خلق آدم فتجلى فيه**"، فكان ذلك التجلي بالذات وجميع الصفات، بمعنى الإظهار وليس بمعنى الظهور. ولا جرم ألا تتجلى المشاهدة والشعور، ولكن كان إظهار الذات والصفات. ويقول شيخ هراة (**الأنصاري**) رحمة الله عليه إن الحق تعالى أراد أن يظهر القدرة، فخلق السماء والأرض، وأراد أن يظهر الحق فخلق آدم، وحين نفخ الروح بقوله: "**ونفخت فيه من روحي**" كرم قالب آدم بكرامتين: بتصرف النفخة وتنفيذ وإرسال الروح المشرفة بشرف إضافة: "**من روحي**":

الأولى: سر التجلي.

الثانية: سر الأسماء: "**وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة**"[(١)] فكانت إشارة: "**ولقد كرمنا بني آدم**"[(٢)] في اختصاص سعادة هاتين البذرتين، والتي أوجدت وأودعت في طينة آدم، و"**خلقت بيدي**" إشارة إلى هذين الأصلين.

وحقيقة الخلافة من هذا المعنى أيضاً، ذلك الذي يتجلى فيها بالذات وجملة الصفات حتى تتولد فيها جملة الصفات، ومن هنا كان سر سجود الملائكة. فحين تجلى الحق فيه، لم يكن السجود لحقيقة آدم، كما أن السجود اليوم ليس للقبلة ولا للكعبة، ولكن لصاحب البيت. وكان هناك أيضاً صاحب البيت، ولكن كان لإبليس

---

(١) سورة البقرة: آية ٣١.

(٢) سورة الإسراء: آية ٧٠.

عين واحدة، فكان يرى البيت بتلك العين، وعميت بصيرته في عين رؤيته لصاحب البيت، فصار ملعوناً، لأن "كل ناقص ملعون".

ورغم أنه أضمرت بذرة التجلي في البداية ــ في طينة آدم، لكنها تجلت في ولاية موسى برعمة وخضرة "أرني"، وفي الولاية المحمدية بلغ الكمال بثمرة قوله تعالى: "ألم تر إلى ربك"، وحتى نهاية العالم بل حتى أبد الآبدين سينال قاطفو سنابل بيدر السعادة من ثمرة هذه السعادة لقوله تعالى: "وجوه يومئذ ناضرة، إلى ربها ناظرة"[1].

وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين

(١) سورة القيامة: آية ٢٢-٢٣.

الفصل العشرون

في الوصول إلى الحضرة الإلهية

بلا اتصال وانفصال

الفصل العشرون

في بيان الوصول إلى الحضرة الإلهية بلا اتّصال وانفصال

قال الله تعالى: "ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى.. وإن إلى ربك المنتهى".[١]

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "**أوحى الله تعالى إلى عيسى تجوع ترنى تجرد تصل إلى**".

اعلم أن الوصول إلى الحضرة الإلهية ليس من قبيل اتصال الجسم بالجسم أو العرض بالجسم أو العلم بالمعلوم أو العقل بالمعقول أو الشيء بالشيء تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وغير ذلك فإن الوصول إلى تلك الحضرة ليس من قبل العبد بل من العناية الأبدية وتصرف جذبات الألوهية. يقول الشيخ أبو الحسن الخرقاني رحمة الله عليه: "الطريق إلى حضرة العزة طريقان: أحدهما من الحق إلى العبد والآخر من العبد إلى الحق. والطريق الذي من الحق إلى العبد كله هداية على هداية، وذلك الطريق الذي من العبد إلى الحق كله ضلالة على ضلاله".

وسار موسى عن طريق ذاته لقوله: "**ولما جاء موسى لميقاتنا**"[٢]، ولا جرم حين قال: "**أرني أنظر إليك قال لن تراني**"[٣]، أي يا موسى ما دمت قد جئت

---

(١) سورة النجم: آيات ٨-٤٢

(٢) سورة الأعراف: آية ١٤٣.

(٣) سورة الأعراف: آية ١٤٣.

عن طريق ذاتك لن تراني. وهذا الحديث لا يُعطي لشخص يأتي عن طريق ذاته، بل يعطي لشخص يأتي عن طريقنا.

إذا كنت قريناً لعشق جمالنا
فيكفي كلمة واحدة إذ كنت أهلاً لهذا الباب
ما دامت ذاتيتك معك فلن تصل إلى بابنا
وأحياناً تصل إلينا عندما تصل إلينا بنا

ولكن حين أُسرى بالرسول عليه السلام عن طريق الحضرة لقوله: **"سبحان الذي أسرى بعبده"،**[1] وعرج به من (مقام): **"قاب قوسين"** ورُفع إلى **(مقام): "أو أدنى"** ونزع عن وجوده كل لباس الوجود المحمدي لقوله: **"ما كان محمد أبا أحد من رجالكم"،**[2] وكسى بخلعه صفة الرحمة، وأرسل إلى الخلق بصورة الرحمة. فحين ذهب كان محمد وحين آب كان رحمة: **"وما أرسلناك إلى رحمة للعالمين".**[3] ولا جرم أن أرسلت هذه البشارة إلى مساكين الأمة وضعفاء الملة بكمال الوصول ورفع الاثنينية وإثبات الوحدانية، حتى إذا لم يستطع شخص أن يصل على براق الهمة من سدرة عتبة البشرية إلى سدرة منتهى الروحانية حتى يتمتع بالوصول بحضرة ألوهيتنا ويضع رأسه على عتبة الرسول، ويمنطق الروح بكمر شريعته، حتى أن زالت الاثنينية وبقيت الوحدانية:

---

(١) سورة الإسراء: آية ١.
(٢) سورة الأحزاب: آية ٤٠.
(٣) سورة الأنبياء: آية ١٠٧.

يا من عقدت القلوب بسلسلة ذوائبك
ويا من أتعبت الأرواح بغمزتك القاتلة
يا رب أنا الذي تعلق بك هكذا
إن ظهوري من ذاتي وأنت السرمدي الباقي

ومن اتبعه وصل إلينا: "**من يطع الرسول فقد أطاع الله**"[1]. ولا غربة فأنت نحن ونحن أنت: "**إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله**"[2]. وكل صاحب دولة سيكون مرجعه ومآله في نهاية الأمر إلى حضرة الألوهية: "**وأن إلى ربك المنتهي**"،[3] وأما في المبدأ الأول وعهد: "**ألست بربكم**" فقد وضع من خمير بذرة رشاس وفيض نور الألوهية في طينة الروحانية وذروة الإنسانية: "**إن الله خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره**"، وأعطى لهم ذوق المحبة في حلق روحهم بتجرع كأس: "ألست بربكم" حتى لا يزول أثره مطلقاً من حلقهم، وتكون حياة هؤلاء القوم بذلك الذوق، ويكون قصد ذلك النور دائماً إلى مركزه، فلا يأتلفون مع هذا العالم مطلقاً ولا يتركون ذلك الشراب والمشرب لحظة واحدة: شعر ترجمته:

(١) سورة النساء: آية ٨٠.
(٢) سورة الفتح: آية ١٠.
(٣) سورة النجم: آية ٤٢.

إن عشاقك قد ثملوا منذ "ألست" (أي قبل الخلق)
والرأس أصبحت ثملة سكرى من شراب "ألست"
إنهم يشربون الخمر ولا يستمعون النصيحة
لأنهم صاروا عُبّاداً للخمر من حديث "ألست"

ومثل قطرة الزيت لو تضعها في البحر وسط الطين، فإنها تبحث عن الانفصال عن ذلك الطين تدريجياً، ولن تتآلف مع ذلك الماء كله ولن تختلط به مطلقاً حتى تجد الفرصة وتتخلص منه وتطفو فوق سطح البحر في لحظة واحدة، وسينزل كل ماء البحر تحت قدمها، ولن تلتفت لتلك الجواهر الكثيرة التي في البحر، وحين تجد قطرة زيت أخرى ففي الحال ستطبق يد الموافقة في جيد المرافقة، ولو تجد ذاتها من سعادة وصال شرر النار، فبلا توقف تبذل وجودها فيها، ولو وضعت جملة البحر أمام النار فلن تتعلق النار بالبحر ولن يمتزج البحر بالنار، وتهرب منه قدر ما تستطيع. والنفوس الإنسانية رغم أنها قطرة من بحر الدنيا، فإنها تمتزج به بسرعة. أما أرواح حضرة زيت الصفة فلن تمتزج بالدنيا مطلقاً حين تجد قطرة زيت سعادة الآخرة وتمتزج بنعيم الآخرة الذي هو الروحاني. ولو تجد سعادة شرر نار تجلي جلال الحق فإنها تعلق وجودها فيه كلية، وتهب وجودها لوجوده شعر:

كل من تعلموا هذه المزاولة للعشق في الأزل
قد أشعلوا في روحه شمعة من العشق إلى الأبد
وذلك القلب الذي أوقفوه من أجل وصاله
أغمضوا منه العينين عن كلا العالمين كأنه البازي
فكيف إذن يطيقون الهجر بعد ذلك في هذا المنزل

أولئك مسلوبوا القلب، الذين تعلموا الوصل في هذا المنزل

لا جرم أن انصهروا تارة بهجره كالشمع

وتارة احترقوا كالفراشة بشمع وصاله

وحين يسكب الساقي الكأس في خرابات الفناء

فإنهم باعوا كل ما كان في العالمين بالخمر

ولو لم يكن لنجم الرازي سر من هذا الذي ذكر

لجمعوا له كل ما في العالمين من غم.

وقد وقع هناك كل من ألقى على جيده أنشوطة العناية، وضعوا هناك كل من غل جيده بقيد القهر: "السعيد سعيد في بطن أمه والشقي شقي في بطن أمه". وكان قد كتب على ناصية إبليس قبل وجوده: "وكان من الكافرين"(١) ووصم باللعنة على جبينه قبل وجوده: "وأن عليك لعنتي إلى يوم الدين"(٢). وهذه الواقعة لا توجد اليوم: "لونوا بساطنا هذا في جيلان"،(٣) أما الطيور التي تطوف اليوم حول شبكة المحبة وتلتقط بذرتها، فقد جاءت من عالم آخر للطواف حول هذا الشرك والتقاط هذه البذرة شعر ترجمته:

---

(١) سورة البقرة: آية ٣٤ ، وسورة ص: آية ٧٤

(٢) سورة ص: آية ٧٨.

(٣) جيلان: في الأصل الفارسي گيلان: وهي اسم منطقة مشهورة بصنع الأكلمة والأبسطة السوداء اللون من صوف وشعر الماعز والخراف، والمعنى هنا يدل على تعاسة الحظ وسوء الطالع كاللون الأسود. (المترجم).

أصل جـوهر العشـق مـن منجـم آخـر
ومنـزل العشـاق عـالم آخـر
وذلك الطائر الذي يلتقط بـذرة غـم عشـقك
خـارج عن الكونيـن، ومـن عـش آخـر

وقد أخفى شرر ناء العشق ــ وقت الرش ــ في القلب الحجري للعشاق: "ثم رش عليهم من نوره، فمن أضاء به فقد اهتدى ومن أخطأه، فقد ضل"، ولكنه احتاج إلى الحديد لإظهار تلك النار من الحجر، وأرسل حديد كلمة "لا إله إلا الله" لقوله: "وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد"،(١) ويقول الرسول الأعظم: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله"، وقال إنهم حين يقدمون دائماً هذه الكلمة الحديدية كثيراً إلى القلب الحجري لقوله تعالى: "واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون"،(٢) فإنهم يظهرون شرر نار العشق الكامن فيهما.

وعندئذ فلا تنظروا بعين الحقارة إلى ظلمة النفس الأمارة كالملائكة حين قالوا: "أتجعل فيها من يفسد فيها"(٣) وكان الملائكة أطفالاً غير ناضجين لقوله تعالى: "إني أعلم ما لا تعلمون"(٤). وحين سمعوا اسم الخليفة نظروا فرأوا ظلمة النفس فخافوا من الظلام، ولم يعرفوا أن ماء حياة المعرفة كامن في تلك الظلمة،

---

(١) سورة الحديد: آية ٢٥.
(٢) سورة الجمعة: آية ١٠ ، وسورة الأنفال: آية ٤٥.
(٣) سورة البقرة: آية ٣٠.
(٤) سورة البقرة: آية ٣٠.

لأنه حين يظهر شرر نار العشق من حجر القلب وحديد كلمة لا إله إلا الله، فلن يقبل ذلك الشرر الماسي الروحاني رغم أنه قيم ولطيف.

وهنا ينبغي أن تكون تلك النفس الإنسانية المظلمة المولهة حتى تدخل بلا مهلة في الروح والقلب وتقبل: "**وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً**"،(١) وتستضيف تلك النار الغيبية حتى تقيم في عالم الشهادة، ولا تعرف الخبر عن الصفات البشرية: "**فاذكروني أذكركم**"(٢). وإذا لم تحصل على ذلك الغذاء لحظة فلن يأتيها ذلك الضيف الغيبي: "**نسوا الله فنسيهم**".(٣)

وكلما نما غصن للصفات البشرية من شجرة الإنسانية، فإن العاشق الصادق يقطعه من جذوره بيد صدق تبر "**لا إله**"، ويضرم فيه نار "**إلا الله**"، وتتعلق فيه تلك النار طبقاً لسنة "**أذكركم**". وكلما يأخذ منه الوجود الحطبي، يبدله بذلك الوجود الناري، حتى يطعم تلك النار جملة شجرة الإنسانية بأغصانها البشرية، ويشعل النار في كل أجزاء وجود تلك الشجرة، حتى يتقد وجودها كلية، وحتى الآن فلو كانت شجرة لجعلها على الفور ناراً صرفاً، وهنا يحصل الوصال الحقيقي شعر ترجمته:

عندما بلغت الروح شفتي من عشق قمري الوجه
فقلت عليك أن تداويني بوصلك
فقالت إذا كان يلزمك وصالنا
فارحل وكن لا شيء حتى أبقى أنا كلية

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٧٢.
(٢) سورة البقرة: آية ١٥٢.
(٣) سورة التوبة: آية ٦٧.

وحين صارت الشجرة الخضراء للنفس الإنسانية فداء النار الحقيقية لقوله تعالى: "الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً"[١]، حينئذ ينادي النار بلسان الشجرة: يا غافل أنا النار لا الشجرة لقوله تعالى: **"نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله"**[٢].

إنه لمسكين الحسين بن منصور (الحلاج)، فعندما أطاحت النار كل شجرة وجوده، لم تكن الشجرة قد احترقت كلية بعد، عندما تصاعدت منه زفرات شعلات: "أنا الحق"، وكان الأغيار حوله، فأرادوا الاحتراق بجذوة لهب "أنا الحق"، فأسرهم بلطف الربوبية، وقال إن خاصية هذه النار أن كل من فيها وكل من حولها تباركهما هما الاثنين لقوله تعالى: **"أن بورك من في النار ومن حولها"**[٣]. ويا حسين هذه النار مباركة عليك، وأما أولئك الذين يجتمعون حولها ولا يريدون الاحتراق، فيجب أن تباركهم أيضاً: **"نحن مباركون على الأصدقاء والأعداء أيضاً"**.

وفي النهاية لا يكون أقل من العود[٤] في هذه النار، فأنه حين تضرم النار في أجزاء وجوده يظهر ريح طيب. وتكون النار مباركة على العود لأنها تظهر رائحته الخفية:

(١) سورة يس: آية ٨٠.
(٢) سورة القصص: آية ٣٠.
(٣) سورة النمل: آية ٨.
(٤) يعني به العود ذو الرائحة الطيبة، وفي الغالب يطلق على أعواد المسك. (المترجم).

حين يبلغ كلاهما النار
فلن يكون تأثير شجرة الصفصاف مثل الصندل

ولو لم تكن النار فلا فرق بين العود والأخشاب الأخرى. وكانت عزة العود بواسطة النار، حين باركت النار العود، شكر العود وجودها، وقال إنني احترق كلية حتى تبارك النار الأهل الذين حولها، وما دمت لم أقبح صورتي (من النفخ)، فليس هذا طريق أصحاب الهمة. ولا جرم أنه كلما كانت تحرق أعواداً أكثر، كلما ازداد الناس حولها:

إني احترق بنار عشقك
ولو أنها تحرقني بسببك
قيل لي قامر بالروح مثل الرجال
فماذا يفعل العاشق الذي لا يقامر بالروح؟

ووقف حسين مستغفراً أيضاً بقدم صوفية، وأفنى وجود البشرية، وقال: "**إلهي: أفنيت ناسوتيتي في لاهوتيتك، فبحق ناسوتيتي على لاهوتيتك أن ترحم على من سعى في قتلي**". وإنا جعلنا شجرة وجود الإنسانية مثل العود فداء لنار عشقك كلية، فأنت بلطفك عطِّر بطيب الرحمة مشام الساعين لهذه السعادة، والذين حول هذه النار حتى تحل عليهم البركة أيضاً.

يا حسين: رغم أنه حلت نار عشقنا في شجرة إنسانيتك، وصعدت منها زفرات شعلات نار: "**أنا الحق**"، ولكنها حين لم تحترق كلية، فلم تخل تلك الزفرات من دخان الأنانية. وعندما جعلت جميع الشجرة قربانا للنار وأحرقت

صورة القالب التي كان يظهر منها دخان الأنانية، وأحرقتيا بنار ابتلائنا، فإننا نأمر برماد قالبك حتى يلقي في الماء، ونرفع نقاب الحجاب عن جمال كمالك، حتى يتجلى على وجه ماء نار الوجود اللا دخاني بالقول: "الله، الله"، وتصير عنايتنا الأبدية معلومة للخاصة والعامة في الدنيا: "**إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما**"[1].

وفراشات الروح التي أطبقت في جيدهم شبكة جذبة الألوهية فداءاً لعالم العشق منذ عهد ألست، فاليوم تطير كثيراً بجناح الطلب (العشق) وقوادمه حول سرادقات جمال شمع جلال الحضرة، بناءاً على قضية: "**من تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعا**" وتستقبل زفرة من شعلات ذلك الشمع: "**ونحن أقرب إليه من حبل الوريد**"،[2] وبيد: "**جذبة من جذبات الحق**" تجره إلى حافة وصال: "**يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك**"،[3] فإلى متى تحلق بطيران فراشة: "**وخلق الإنسان ضعيفا**"،[4] **حول سرادقات جمالنا؟. إنك لا تستطيع الطيران بهذا** الجناح والقوادم في فضاء هواء الهوية، فأحضر هذه القوادم والجناح وضح بها في ميدان "**والذين جاهدوا فينا**"،[5] حتى نكرمهم طبقاً لسنة: "**لنهدينهم سبلنا**"،[6]

---

(١) سورة النساء: آية ٤٠.

(٢) سورة ق: آية ١٦.

(٣) سورة الفجر: آية ٢٧-٢٨.

(٤) سورة النساء: آية ٢٨.

(٥) سورة العنكبوت: آية ٦٩.

(٦) سورة العنكبوت: آية ٦٩.

بجناح وقوادم أشعة أنوارنا لقوله تعالى: "يهدي الله لنوره من يشـــاء"[1] شـعر ترجمته:

أيها القلـب لن يفسح لك طريقـه بـالقيل والقـال
ولن يعطـي لك الوصـال إلا على بـاب العـدم
وعندئـذ ففي ذلك الهـواء الذي فيـه طيـوره
فلن يعطي جناح وقوادم، ما دام لك جناح وقـوادم

وحتى ذلك الحين الذي كنت تطيرين فيه بجناحك وقوادمك، كنت فراشـة مجنونة، والآن تطيرين بجناحنا وقوادمنا، فصرت بذرة وحيدة فريدة والآن لست غريبة عن وجودنا، ولكنك كل وجودنا والفريدة عندنا، فارفعي السبب والعلـة بيننا، فأنت الدُر وأنت حبة الدر، وأنت أيضاً الروح وأنت الحبيب.

يقول الحكيم سنائي ما ترجمته:

أنـت الـروح وقـد ظننـت أنـك شـخص
أنـت المـاء وقـد تخيلـت أنـك الوعـاء[2]

(١) سورة النور: آية ٣٥.

(٢) سنائي الغزنوي: ديوان السنائي: ص٤٦٦.

وبعد هذا فلست أنت بك، فليس عليك منك سوى الاسم: شعر ترجمته:

حل العشق وصار مثل دمي في العروق والجلد
حيث جعلني خاويـاً وملأني من الحبيب
شغل الحبيب أجزاء وجودي كلية
فبقى مني الاسم لي والباقي وجوده كلية.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين.

الباب الرابع

في معاد نفوس السعداء والأشقياء

وهو يشتمل على أربعة فصـــول، تبركاً بقوله تعالى..

"فخذ أربعة من الطير"(١)

---

(١) سورة البقرة، آية ٢٦٠.

الفصل الأول

في معاد النفس الظالمة وهي النفس اللوامة

الفصل الأول

في معاد النفس الظالمة وهي النفس اللوامة

قال الله تعالى.. "**كما بدأكم تعودون، فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة**"(١)، وقال أيضاً: "**ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا**"(٢)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "**كما تعيشون تموتون وكما تموتون تحشرون**".

اعلم أن حقيقة المعاد هو عودة النفوس الإنسانية إلى الحضرة الإلهية إما بالاختيار مثل نفوس السعداء، أو بالإجبار مثل نفوس الأشقياء. وتكون عودتها جميعاً إلى الحضرة لقوله: "**إن إلينا إيابهم**"(٣)، وقال: "**كما بدأكم تعودون**". وعلى هذا نسمي النفوس الإنسانية ذواتاً، لأنها مجموع الروح والقلب والنفس والجسد والجسم. وقد ذكرناها بلفظ النفس ها هنا لأن الحق تعالى كان يدعوها أيضاً بلفظ النفس وقت العودة: "**يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعي**"(٤). وفي الحقيقة فإن الخطاب للذات الإنسانية كلية وليس لجزء منها، وحين تعلقها بالقالب سميت بالروح لقوله: "**ونفخت فيه من روحي**"(٥)، لأنها أصل وجوده، وقد خلق النفس والقلب بعد ازدواج الروح والقالب، كما شرحنا ذلك.

---

(١) سورة الأعراف: آية ٢٩-٣٠.

(٢) سورة فاطر: آية ٣٢.

(٣) سورة الغاشية: آية ٢٥.

(٤) سورة الفجر: آية ٢٧-٢٨.

(٥) سورة الحجر: آية ٢٩ ، وسورة ص: آية ٧٢.

وعند العودة سميت كذلك بلفظ النفس؛ لأنها تسمى النفس التي يراد بها الذات: "ونفس الشيء وذاته" شيء واحد، كما سمى الحق تعالى ذاته نفسه كقوله: "**تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك**"[1] أي "**في ذاتك**"، فالبستاني يذهب إلى الحديقة حين زراعة البذرة ليغرسها، ولكن حين تبلغ الكمال يحمل الثمرة إلى المنزل وبذرتها موجودة في الثمرة. وكذلك جاءت النفس الإنسانية ثمرة بذرة الروحانية، فحين كانت تزرع البذرة سميت بلفظ "**الروح**"، وحين تجني الثمرة تسمى "**بالنفس**".

ولكن بين المحققين وأرباب السلوك خلاف: **أتستطيع كل نفس أن تعرج من مقامها في بداية استعدادها ليمكنها الوصول إلى مقام آخر أم لا؟**: فقال بعضهم إنها ترقى بالتربية لتسمو إلى المقام الأول، وقال بعض آخر إنها حين بلغت مقامها المعلوم المحدد توقفت، ولا تستطيع أن تصل إلى مقام آخر لم تستعد له. كما أن حبة القمح لا تتجاوز بالتربية مقام القمحية، ولا تصل إلى مقام نفي الذات ولا تقل عن ذلك ولا تصل إلى الشعيرية، ولا تتحول بذرة الشعير إلى قمحة أيضاً. ولكن حين يجد كل واحد التربية في مقامه فإنه يصل إلى كمال مرتبته، ولو يقصر في التربية فإنه يصير ضعيفاً وبلا لب.

وأما ما يقتضيه نظر هذا الضعيف وما يشاهده في كشف معاني الأشياء وحقائقها هو أن بعض النفوس ترقى بالتربية من مقامها الأول وتصل إلى مقام آخر، حتى لو يترقى البعض ويسمو بالعناية الإلهية، ولكن لن تصل إلى مقام آخر وسيكون هذا الترقي في حدودهم، وذلك مثلما اصطفت الأرواح أربعة صفوف في بداية الفطرة:

---

(١) سورة المائدة: آية ١١٦.

الصف الأول: أرواح خواص الأنبياء وأرواح خــواص الأوليــاء فــي مقــام اللا واسطة.

الصف الثاني: أرواح عموم الأنبياء وعموم الأولياء وخواص المؤمنين.

الصف الثالث: أرواح عموم المؤمنين والزاهدين وخواص العصاة.

الصف الرابع: أرواح عامة العصاة من المنافقين والكافرين.

وأهل الصف الرابع لن يرقوا إلى مقام الصف الثالث، كما أن أهل الصف الثالث لن يرقوا إلى مقام الصف الأول.

أما أهل الصف الأول الذين بلغوا مقام اللا واسطة، وتربوا فــي فيـض أنوار صفات حضرة الألوهية، فهم مستحقون لجذبات الألوهية حتى يترقوا فــي مقام الروحانية إلى عالم صفات الوحدانية كالمحرقة التي وجدت التربيــة مــن تصرف النار، وأنزل في طينتها قبول شرر النار، فلو تجدّ في الرقى أو تقــدح الحجر بالحديد أو توقد شعلة نار، حتى إذا وجد ألف نوع من الأمتعة والأقمشــة الفاخرة والجواهر الغالية، فلن يلحق شرر النار قط، إلا بتلك المحرقــة: شــعر (ترجمته):

إنك أضرمت النار في قلبي مرة أخرى
إذ يسهل إضرام النار في المحرقــــة.

إن روح المحرقة تقول، بلسان الشوق، بشرر نار الجذبات:

كيف يعرفون قدر حرقتك من هذه القلة من الســذّج؟
فــأحرقني أيضــاً إذا احـــترقت مائـــة مـــرة.

وحين يتخلص هؤلاء المولعون، بنار الاشتياق، من بادية فراق البشرية، ويبلغون قمة كعبة الوصال، فإنهم لن يستطيعوا أن يتجاوزوا هذا المقام بأنفسهم، ولكن يتقدمهم مستقبلو الكرم، عن طريق اللطف، في صورة الجذبات الإلهية، ويجرهم إلى أحضان السعادة بما يناسب ذلك الاستعداد الذي حدث في البداية: "**سبعة يظلهم الله في ظله**". ويقول الرسول أيضًا في هذا المعنى: "**جذبة من جذبات الحق توازي عمل الثقلين**" لأنه إذا اجتمعت معاملات جميع الملأ الأعلى والجن والإنس فلن يستطيع عبد التمتع بتجلي حضرة الألوهية، إلا بجذبة الحق التي تضع العبد على بساط قرب "أو أدنى"[1]، ولا جرم أن حل به جذبة أفضل، بمعاملة جملة الخلائق. وأولئك هم العبيد الذين تخلصوا من ذاتهم ليسيروا بتصرف الجذبات إلى عالم الألوهية، وترقى أنفسهم بمعاملة أهل كلا العالمين ورعايتها:

إن الصوفية يقيمون في كل نفس عيدين
والعناكيب تجعل الذباب قديدًا[2].

وفي كل نفس يتولد للصوفي الفاني وجود جديد وينمحي بتصرف الجذبة: "**يمحو الله ما يشاء ويثبت**"[3]. وفي كل لحظة يحدث المحو والإثبات، فيجعل الصوفي في ذلك النفس عيدين: الأول من المحو والثاني من الإثبات. وهذا هو المقام الذي يصير فيه وجود السالك هو وجود كلمة لا إله إلا الله في عين النفي

---

(١) سورة النجم: آية ٩.

(٢) سنائي الغزنوي: حديقة الحقيقة: ص٣٦٩.

(٣) سورة الرعد: آية ٣٩.

والإثبات. ولو يسمى في هذا المقام "روح الله وكلمته" فإنها تليق له ويحكم هذا الرداء على قوامه.

وأهل الصفوف الأخرى محرومون من سعادة هذا الكمال، ولكن حين يجدون التربية بالكمال في مقامهم، ويصلون إلى مقامهم المحدد لهم حسب زيادة كل طائفة ونقصانها بترقي الكمال الذي لم يكن لهم في بداية الأمر، مثل حبة القمح التي تزرع في الأول، حين تكون ضعيفة في بادئ الأمر، فحين تجد التربية كما ينبغي فإنها تتضاعف على الأقل من عشرة إلى مائة وتزداد بالقوة (الإلهية) إلى أن تصير مخزونًا كبيرًا.

وهكذا أرواح كل صف، فحين يحصل لهم حسن الاستعداد والصفاء تعرج إلى مقابلة المقام الآخر الذي يعلوها، وتصير قابلة لعكس كمالاتهم وصورتها ولو أنها ليست منهم. ولكن تكون معهم على سنة: "**المرء مع من أحب**"، كما قال تعالى: "**فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا ذلك الفضل من الله**"[1]. أي أن هذه المرتبة، التي لهم لم تكن في أصل فطرتها ولا في استعدادها، هي محض الفضل الإلهي التي كرمت بها (الأرواح).

والإشارة لهذا المعنى في قوله تعالى: "**للذين أحسنوا الحسنى وزيادة**"[2]، فالحسنى هي نعيم الجنة الذي جاء ثمرة بذرة "أحسنوا" والذي يجد من سعادة رؤية ومشاهدة الصفات الإلهية زيادة الفضل والكرم.

وذكر الله تعالى أهل الصفوف الأربعة[3] في أربعة صفوف (درجات): ثلاثة منهم من أهل الاصطفاء والقبول وصف من أهل الشقاء والرد، كما قال:

---

(١) سورة النساء: آية ٦٩.

(٢) سورة يونس: آية ٢٦.

(٣) يعني بها صفوف الأرواح ودرجاتهم كما ذكرنا آنفًا.

"ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات"(1)، وهذه الطوائف الثلاث من أهل القبول لأنه ذكرهم بلفظ الاصطفاء، يعني فضلنا هذه الثلاث طوائف من العبيد وأورثناهم الكتاب مع أن بعضهم ظالم لنفسه ومتصف بتلوث المعصية.

وأما من كانوا من أهل الصف الثاني والثالث وعملوا بالكتاب رغم أنهم آثمون ومعترفون بذنوبهم لقوله: "**وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا عسى الله أن يتوب عليهم**"(2) واجترّوا المردودين معهم في سلك واحد لقوله: "**لا يصلاها إلا الأشقى، الذي كذب وتولى**"(3)، وبين أن مرجع ومعاد هذه الثلاث طوائف هو الجنة رغم اختلاف درجاتهم لقوله: "**إن الأبرار لفي نعيم**"(4)، وقال إن مرجع المردودين من الكفار والمنافقين ومعادهم هو الجحيم: "**إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعًا**"(5)، ولما جاء الشخص الإنساني مجموعًا من عالمي الروحانية والجسمانية، لأن كل ما كان في العالمين له نموذج في الشخص الإنساني. فكما ظهر في عالم الأرواح أربعة صفوف، كذلك ظهر في عالم الشخص الإنساني أربعة صفوف للنفس: الأمارة واللوامة والملهمة والمطمئنة. حتى أن كل صف من تلك الأرواح التي كانت مصطفاة، تكون هنا في مرتبة واحدة مع النفس: فلأهل الصف الأول النفس المطمئنة، ولأهل الصف الثاني النفس الملهمة، ولأهل الصف الثالث النفس اللوامة ولأهل الصف الرابع

---

(1) سورة فاطر: آية ٣٢.

(2) سورة التوبة: آية ١٠٢.

(3) سورة الليل: آية ١٥-١٦.

(4) سورة المطففين: آية ٢٢.

(5) سورة النساء: آية ١٤٠.

النفس الأمارة. ولا يمكن لأي منها أن يتجاوز مقامها لأنه لم يوضع فيها بذرة أكثر من استعدادها، عدا أهل الصف الأول كما شرحنا.

ولو يسأل سائل كيف **يريدون العودة إلى نفس المقام الذي أتوا منه، وما سبب المجيء وفائدته؟**، فنجيب: إنهم إذا عادوا إلى نفس المقام فإنهم لن يعودوا هكذا كما جاءوا. فبعضهم عاد إلى مقام السعادة وبعضهم إلى درك الشقاوة كما قال تعالى: **"والعصر، إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات"**[١].

ومثال هذا كالبذرة التي تزرع في الأرض، ففي الأول يحل بالبذرة الفساد وتفنى، وعندما يربيها البعض بالشرط ويرعاها من الآفات فإنها تزيد من عشرة إلى مائة إلى سبعمائة ضعف، والتي لا تجد التربية تفسد بالكلية فلا تكون بذرة ولا ثمرة.

وأيضاً تتفاوت البذور: فبعضها حين تتربى البذرة، تكون ثمرتها على نفس النمط، مثل القمح والشعير وأمثالها حين تبلغ الكمال لا يكون لها قشرة ولا لب، وبعض البذور يكون لها قشرة غير نافعة، وينتفع بلبها: مثل الجوز واللوز والفستق والبندق وأشباهها، وبعضها الآخر له قشرة وثمرته هي القشوة، ولبها غير نافع: مثل البلح والنبق والزيتون وأمثالها، بعض البذور يُستفاد بقشرها وثمرها وبذورها بالكلية: مثل المشمش والخوخ والتين وما شابهها والفواكه لا تزيد عن هذه الأنواع الأربعة.

(١) سورة العصر: آية ١-٣.

وكذلك أرواح الإنسان التي اصطفت في صفوف أربعة تناسب تلك الصفوف أيضاً، فحين تلقى البذرة في أرض القالب تؤتي الثمرة على أربعة أنواع:

الأولى: بذرة أرواح الكافرين وهم أصحاب النفس الأمارة، وهو أيضاً دون قشرة ولب مثل القمح والشعير.

الثانية: بذرة أرواح المؤمنين الظالمة وهم أصحاب النفس اللوامة، ذوو القشرة اللوامة وقشرتهم غير نافعة ولبهم نافع مثل الجوز واللوز.

الثالثة: بذرة أرواح المؤمنين المقتصدة وهم أصحاب النفس الملهمة مثل البلح الرطب والنبق والزيتون إذ أن قشرها نافع ولبها غير نافع.

الرابعة: بذرة الأرواح السابقة وهم أصحاب النفس المطمئنة ولهم قشر ولب نافعان مثل المشمش والتين والخوخ، كما سيرد شرح أحوال كل منها في فصلها إن شاء الله.

وفي هذا الفصل سيشرح حال النفس اللوامة التي جاءت من عبارة: "فمنهم ظالم لنفسه"[(١)]، وسيتبين معادها، كما بدأ بها الحق تعالى:

ولتعلم أن الظالم من أهل الصف الثالث في عالم الأرواح، وقد جاء أيضاً في هذا العالم في المرتبة الثالثة من مراتب النفوس لأن صاحب النفس اللوامة، حيث ينزل من المطمئنة والملهمة، إنما يكون في الدرجة الثالثة اللوامة المذكورة في القرآن ضمن المرتبة الثالثة أيضاً، لأن الظالمة تتجاوزها السابقة والمقتصدة، وتلك نفس عامة المؤمنين والزاهدين وخواص العصاة ولذلك وقع عليها اسم

(١) سورة فاطر: آية ٣٢.

الظلم لأنها، مع نور الإيمان الذي يقع في القلب، تأتي إلى صورة معاملة أصل الكفر، وأدرك الظالم أن معنى الظلم في الحقيقة هو "وضع الشيء في غير موضعه".

وسبب آخر هو أن المعصية تكسي نور الإيمان بظلمة الظلم، ولا جرم أن الظالم أدرك قوله: **"الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون".**[1] وسبب ثالث أن الظالم أدرك بنفسه أن من يفعل المعصية أكثر من الطاعة، فإنه يستحق النار لقوله: **"وأما من خفت موازينه، فأمه هاوية".**[2]

ولتعلم حقيقة: هي أن أهل كل صف من صفوف المقبولين الأخرى تنقسم إلى ثلاثة أصناف وينقسم كل صنف أيضاً إلى صفين:

الأول: مَن كانوا في جهة اليمين.
الثاني: مَن كانوا في ناحية اليسار.
الثالث: مَن كانوا يتوسطوهما في مقدمة الصف كما يقول تعالى: **"وكنتم أزواجاً ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون أولئك المقربون".**[3] وفي كل صف يوجد ما يناسب ذلك الصف من أصحاب اليمين وأصحاب الشمال والسابقين.

---

(١) سورة الأنعام: آية ٨٢.
(٢) سورة القارعة: آية ٨-٩.
(٣) سورة الواقعة: آية ٧-١١.

ولكن ما هو معلوم ومحقق من الآيات والأخبار والكشف هو أن أصحاب اليمين على قسمين وطائفتين وأصحاب الشمال على قسمين وطائفتين، والسابقون على قسمين وطائفتين، إذ قال الحق أيضاً: "**وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال والسابقون السابقون**". وتلك هي الصفوف الثلاثة القابلة للاصطفاء، وكل صف منها ينقسم إلى ستة أقسام ويكون مجموعها ثمانية عشر قسماً.

أما الصف الأول وهو صف اللا واسطة للسابقين، وأولئك هم أنبياء الكلية الإلهية والأرواح المهيمنة وأولوا العزم وهم "**الفانون في الله والباقون بالله**"، والموحدون والمقربون. وبالرغم من أنهم يدركون المقام العلوي والسفلي فإنهم محبوبون ومحبون للحق ولا يشهدون بغير الحق، ولهذا قال: "**السابقون السابقون أولئك المقربون**".

وأما أصحاب اليمين من الصف الأول فهم أرواح الأنبياء المرسلة والأولياء المقربة والملائكة المجردة والأنوار المثلية بلا مادة أو صورة، وهم يختلفون في القرب والبعد رغم أنهم غارقون في جنات الصفات وبلغوا غاية الكمال. ولهذا قال: "**وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين**".

وأما أصحاب الشمال من الصف الأول فهم صف اللا واسطة: وهو صف الأرواح الجزئية وأرواح السعداء، وأولياء القمرية وسائر الملائكة، وأيضاً هم مختلفون في القرب والبعد حسب درجاتهم ولذا قال: "**وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة**". وأولئك هم أصحاب النفس المطمئنة لأنهم في الصف الأول دون واسطة.

وهكذا فإن الصف الثاني من الصفوف الأربعة هم الذين يقبلون الفيض من الصف الأول، وهم أصحاب النفس الملهمة ويقبلون الاصطفاء، وهم ثلاثة صفوف أيضاً: الطرف اليمين واليسار والسابقون، ومراتبهم ومقاماتهم تنقسم إلى قسمين حسب الشدة والضعف والعلوية والسفلية: **"أصحاب اليمين ما أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال والسابقون السابقون"**.

والصف الثالث من الصفوف الأربعة هم الذين يقبلون الفيض من الصف الثاني وهم أصحاب النفس اللوامة وأحياناً هم خيرون وأحياناً فهم شريرون وأحياناً سعداء وأحياناً أشقياء، وأولئك أيضاً على ثلاثة أقسام: يمين ويسار وسابقون: واليمين قسمان، واليسار قسمان والسابقون أيضاً قسمان: **"أصحاب اليمين ما أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال والسابقون السابقون"**. وهذا الصف حسب التقسيم أيضاً ينقسم كل منها قسمين حتى فيما يقبل وفيما يتجه. وأصحاب اليمين للصف الثاني ـــ وهم أرواح عموم الأنبياء وعموم الأولياء وخواص المؤمنين ـــ وهم أصحاب النفس الملهمة. والصف الثالث ـــ وهم أرواح عموم المؤمنين والزاهدين وخاصة العصاة ـــ هم أصحاب النفس اللوامة.

والأشخاص الذين وقعت بذرة روحانيتهم في أرض القالب، إذا لم يتربوا بالكمال وتزيد ثمرتها من واحدة إلى مائة إلى سبعمائة ضعف، وما تقيدت مرة في أرض القالب بتصرف الصفات البشرية، وتخلصت وعادت إلى مقام البذرة، فإذا لم تزد فلن تنقص. والطائفة التي غلبت عليها صفة الملكية هم أهل الطاعة، ويقل ميلهم إلى المعصية، وهم أرباب النجاة ويسلكون سبيل الجنة عن يمين السعادة ويصلون إلى مقام روحانيتهم دون توقف.

وأصحاب الشمال من الصنفين الثاني والثالث هم الأشخاص الذين أفسدوا بذرة الروحانية وقصروا في تربية البذرة؛ مع أن البذرة لم تفسد بالكلية، ولكن لم يظهر فيها الخلل والنقصان بتصرف معاملة الصفات البشرية وميل هذه الطائفة إلى المعصية أكثر من الطاعات والعبادات. وهم يحملون إلى جهنم عن شمال الشقاوة، ويمرون على دركاتها حتى يمحى عنهم ذلك الدنس، ثم يعودون إلى مقامهم المعلوم مع الزيادة والنقصان.

وهكذا يكون السابقون من الصنفين الثاني والثالث وهم الأفراد الذين تربوا ببذرة الروحانية، ونالوا كمال مرتبتهم حتى ضاعفوا الواحد إلى مائة. وهما صفان أيضاً:

الأول:هو من غلبت عليهم صفات الألوهية والروحانية من البداية حتى النهاية، ولم تتلوث بآفات المعاصي مطلقاً بناء على قضية: "إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون"[1] وتحاشوا أصلاً موافقة النفس ومتابعة الهوى.

الثاني: هم الطائفة الذين، رغم أنها ساروا في البداية وفقاً لمراد النفس واقتنعوا بمقتضى الطبع، لكنهم أشاحوا ثانية عن المراتع البهيمية والمراتب الحيوانية بشبكة العناية وجذبات الألوهية، وأدركوا المعاملات بإكسير الشريعة أحالوا نحاس الصفات الطبيعية إلى ذهب العبودية الخالص لقوله تعالى: "فأولئك الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات".[2]

---

(١) سورة الأنبياء: آية ١٠١.

(٢) سورة الفرقان: آية ٧٠.

وهذان هما صنفي أصحاب النفس الملهمة واللوامة الذين عادوا بأسرهم إلى مقاميهم ليسيروا على جادة السلوك، بالاختيار في حال الحياة ؛ كما يعودون إلى مقاميهم بالإجبار بعد الوفاة. وقد قال الرسول عليه السلام في حقهم: (**سيروا فقد سبق المفردون**).

أما صحاب النفوس الملهمة واللوامة وهم أصل الصف الثاني والثالث، فهم أصحاب اليمين الذي تغلب طاعتهم على معصيتهم وهم أهل النجاة لقوله: "فأما من ثقلت موازينه، فهو في عيشة راضية"،[1] أما أصحاب الشمال فهم ما تغلب معصيتهم على طاعتهم، وهم أسرى جهنم ودركاتها، إذ أنهم حين اتبعوا الهوى صار مكانهم الهاوية، لأنه حين خلق الحق تعالى القلب أوقف العقل عن يمينه والهوى عن شماله وجعل العشق سابقه. فكان أصحاب اليمين الذين اتبعوا العقل وأصحاب الشمال الذين اتبعوا الهوى والسابقون الذين اتبعوا العشق. وعلى هذا أبلغ العاقل بالعقل إلى المعقول والهاوي بالهوى إلى الهاوية والعاشق بالعشق إلى المعشوق. وكل من اتبع الهوى اليوم طبقاً لسنة (كما تعيشون تموتون وكما تموتون تحشرون)، سيكون معاده غداً إلى الهاوية لقوله: "فأمه هاوية"[2] أي ذكر بلفظ الأم بأن أمه هي الهاوية. إشارة إلى ذلك المعنى أنه مقيد في وجود النفس اللوامة، وهو في هذه الدنيا لم يتولد من ذاته مطلقاً، ولكنه كان حاملاً لطفل الإيمان، ولو كان قد تخلص من نفسه لخرج من رحم الصفات الحيوانية والسبعية، وتخلص من الهاوية: ولكن حين كان حاملاً، ولم يلد هنا، فسيمر على دركات جهنم ويتوقف فترة لتأخذ النار نصيبها منه من الصفات الحيوانية

---

(١) سورة القارعة: آية ٦-٧.

(٢) سورة القارعة: آية ٩.

والسبعية والشيطانية، حتى يلد طفل الإيمان الذي في رحم القلب من أم الهوية ويستحق الجنة: (يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان).

وهذا كان على مثال الجوز وكان فيه لب الإيمان وبذرته، ولكن القشرة فيها مرارة الأعمال الفاسدة، ويضرب عدة ضربات على القشرة ثانية حتى يخرج القشرة أولاً، ويخلص لب ذلك الطفل من رحم القشرة ويجعل القشرة غذاء النار لقوله: "كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها"[1] ويلف اللب في قشرة قطائف لطائف الحق، ويلقيها في صحن الجنة على خوان: "إخوانا على سرر متقابلين"[2] وهذه صفة تلك الطائفة التي قال في حقهم: "وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم أو يتوب عليهم".[3]

فإذا ناله الفضل الرباني والتأييد السماوي، فقبل موته ــ حتى لو كان فيه نفس واحد ــ ستبلغ نفحات الألطاف الإلهية إلى مشام روحه ويخرج هذا النفس من قلبه الكسير وروحه المحطمة ويقول هذين البيتين من حدة الألم:

هبت الريح وأتت معها برائحة ذؤابة الأحبة
فجدد عشقنا هذا الذي صار قديما
أيتها الريح إنك تحملين رائحة حبيب
فحذار ولا تأت معك بأي غريب

(١) سورة النساء: آية ٥٦.
(٢) سورة الحجر: آية ٤٧.
(٣) سورة التوبة: آية ١٠٦.

ويظهر في الحال ألم في طينته، ويضرم نار الندامة في بيدر معاملته، بحيث أن ما اشتاقه لنفسه من نار جهنم طوال سنوات ليؤجج حرقة نار الندامة بنفثه واحدة ـ فإنه يولدها من رحم أم هوى هاويته لأن "الندم توبة". والتوبة النصوح تطهره في لحظة واحدة كأن لم يلوث قط بذلك الدنس لأن: "**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**". وحين يزول عنه حظ جهنم، فإنه لا يمر بها، فينبعث صوت من جهنم يقول: "**جز يا مؤمن من فقد أطفأ نورك لهبي**".

إن أمري مع غير المؤمن، فأية إشارة هذه؟! وفي الحقيقة فإن جهنم موجودة فيك، وتلك هي الصفة الذميمة للنفس الأمارة، لأنها منشأ دركات جهنم. وحين يهب عليك نسمات صبا العناية وتخمد نار صفاتك الذميمة كالهوى والغضب والشهوة والحرص والبخل والعجب، ويسكن في قلبك نور التوبة الذي من أنوار صفة التوبة، وانبعث الصوت في دركات جهنم وجودك البشرى بالقول: "جز يا تائب" لأنك الآن محبوب الحضرة: "**إن الله يحب التوابين**"،(١) وتضيق الثماني جنات بالمحبين، فماذا تتحمل حوصلة الدرجات السبع لجهنم الضيقة؟ وقد قيل:

إن الثماني جنات تضيق بعشاقك
ويأتيهم العار من كل ما هو غيرك
وفي فوهة الجحيم يصير حجراً لأنه
يصير بلا لون من فيض نور نارك

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٢٢.

والنفس اللوامة، بالرغم من أنها كانت قد سقطت في الصف الثالث في عالم الأرواح، لكنها من آثار شراب الطهور لفيضان فضل الحق حيث الكؤوس المترعة للساقي: "وسقاهم ربهم شراباً طهورا"،[1] ولما كانوا يسقونها بمودة في مجلس الأنس لأرواح الأنبياء وخواص الأولياء، فهي في الصف الأول، إذ كانوا يتجرعونها بمشاهدة جمال الصمدية، وكانوا يريقون جرعة منها لأرواح أهل الصف الثاني والثالث:

شربنا وأهرقنا على الأرض سؤرنا

وللأرض من كأس الكرام نصيب[2]

وكانت تصل رائحة من تلك الجرعة لأهل الصفين الثاني والثالث وكانوا يثملون من سطوة رائحة ذلك الشراب:

هبت على رائحة وسكرت بالرائحة
ولو أنصت إلى ريح آخر لأفقدتني الوعي

(١) سورة الإنسان: آية ٢١.

(٢) هذا البيت جاء مع بيت آخر في كتاب: جلال لدين الرومي: فيه ما فيه: ص ٢٨٧، وكذلك يوجد عند: محمد الغزالي: إحياء علوم الدين: طبع المطبعة العامرة الشرفية بمصر جـ ٤ ص٧١ ويقال إن قائلها غير معروف والبيتان هما:

شربنا شراباً طيباً عند طيب | كذاك شراب الطيبين يطيب
شربنا وأهرقنا على الأرض فضله | وللأرض من كأس الكرام نصيب

وإننا نعتقد أن هذين البيتين هما للشاعر بديع الزمان الهمذاني. (المترجم)

وحين وصلوا بتلك الريح إلى هذا العالم، طافوا على رائحة تلك الريح حول خرابات الدنيا، وتذوقوا من حافة لذاتيا وشهواتها على أمل في تلك الرائحة من أية حانة. وحين لم يجدوا تلك الرائحة من أية دن، طافوا ثانية حول خمارة الطاعات، واستنشقوا الرائحة قائلين إذا لم يظهر لنا لون ورائحة فإنها تكون من هنا، وظهرت عبارة الإيمان من استنشاق تلك الريح.

ولم يتركهم النور الإيماني حتى يثملون ـ ولو مرة واحدة ـ من دن الدنيا، ولا يأنسون تماماً بلذاتها وشهواتها، في حين انشغل الجهلاء الآخرون بخمر خرابات الدنيا ورضوا بالحياة الدنيا القليلة، وأنسوا بنعيمها الفاني لقوله: "ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها".[1] وأحياناً كانوا يترعون كأساً من أجل الشهوات النفسانية، وأحياناً كانوا يتذوقون كأساً من حانة الطاعات الروحانية: "خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً".[2]

وكلما كان شخص يتجرع كأساً من خمارة الشهوات الدنيوية، فإنه كان يسدل الملامة بنفسه الثائرة على النفس اللوامة. ولو كان خمار ذلك الخمر يثقل رأسه بأمر الدنيا، فكان يتجه إلى أمر الآخرة حتى تدركه العناية الأبدية فوراً بكمال عطفها: "عسى الله أن يتوب عليهم"،[3] ويضع نقد كل معاملة عمره في

(١) سورة يونس: آية ٧.

(٢) سورة التوبة: آية ١٠٢.

(٣) سورة التوبة: آية ١٠٢.

بوتقة التوبة، ويصهره بنار شوقه، ويلقي عليها شعيرة كيمياء المحبة، فيصير جميعه ذهباً خالصاً مجرباً لقوله: "إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين".[1]

يصير الغم سروراً بلطفك
ويخلد العمر من نظرك
لو حمل الريح التراب إلى جهنم من محلتك
فتصير النار كلها ماء للحياة

وهنا تصير النفس اللوامة محل قسم الله: "لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة".[2]

وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

(١) سورة البقرة: آية ٢٢٢.

(٢) سورة القيامة: آية ١-٢.

الفصل الثاني

في معاد النفس المقتصدة

وهي النفس الملهمة

الفصل الثاني

في معاد النفس المقتصدة وهي النفس الملهمة

قال الله تعالى.. "كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يُميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون"(١)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "موتوا قبل أن تموتوا".

اعلم أن النفس الملهمة هي التي شرفت بشرف إلهامات الحق، والواصلة إلى رتبة مرتبة قسم الحق، كما قال تعالى: "ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها"(٢)، هي ما كانت في الصف الثاني في عالم الأرواح وذكرها في القرآن أنها في المرتبة الثانية لقوله: "فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد"(٣). ولهذا وقع عليها اسم المقتصدة لأنها متوسطة كلا العالمين. فإحدى الوجهتين إلى عالم السابقين - وهم أصحاب النفوس المطمئنة - الذين كانوا في الصف الأول، والوجهة الأخرى إلى عالم الظالمين - الذين كانوا في الصف الثالث - وهم أصحاب النفس اللوامة.

وهذه النفس المقتصدة لعوام أرواح الأنبياء وعموم الأولياء وخواص المؤمنين، حيث قد نالت بذلك شرف إلهام الحق حيث كان بينها وبين حضرة

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٨.

(٢) سورة الشمس: آية ٧-٨.

(٣) سورة فاطر: آية ٣٢.

العزة واسطة أرواح خواص الأنبياء وخواص الأولياء في عالم الأرواح. وكما كان يصل إمداد الفيض الرباني لأرواح الصف الأول، فإن فيضها يصل إلى أهل الصف الثاني. وكما كانت تجد نصيباً من تلك الألطاف فحصل لها ذوق مخاطبات الحق من وراء الحجاب. وحين وصلوا إلى هذا العالم، رغم أنهم ابتلوا بصفة الأمارية، ولكن ذوق فيض الحق لم يذهب قط من حلوق أرواحهم، وبقي في سمع قلوبهم لذة الاستماع لخطاب "ألست بربكم"(١).

ولست حديث العهد شوقاً ولوعة حديث هواكم في حشاي قديم
وما دمت حياً لست أنسى ودادكم وفي اللحد ميتاً والعظام رميم

شعر (ترجمته):

أيها المحبوب لن يذهب قطعاً باختياري
حبك من قلبي وخيالك من عيني
وإذا بحثت عني بعد الموت ستجد
إن عشقك في عظامي النخرة.

وبعد أن بقي أثر ذلك الشوق في بذرة روحانيتهم لم يتركوا القلب في الدنيا الفانية واتجهوا من أسفل سافلين الطبيعة إلى ذروة أعلى عليين العبودية،

(١) سورة الأعراف: آية ١٧٢.

واجتهدوا بتزكية النفس طبقاً للآية الكريمة: "قد أفلح من زكاها"[١]. وكانوا يربون تلك البذرة بماء أعمال الشريعة الصالحة وتقوية قوة الطريقة، حتى ظهر أثر التربية في بذرة النفس الأمارة وأزهر نور الشريعة وسراج الطريقة على ظلمة النفس.

وقد شرحنا تلك البذرة المناسبة لنواة البلح في الفصل السابق، حيث تحركت في ذاتها وأينعت خضراء.

ولكن حين تحررت (النفس) قدراً من قيد وجودها وحجابه، وحين فتحت نافذة من سجن وجود الجنة على فضاء هواء العبودية ومقام الشجرة، ولامت نفسها في سجن وجود الجنة، وقالت: ما دمت تستطيعين أن تجدي الخلاص والفلاح من هذا السجن بالتربية والتزكية، فلماذا تتوقفين، ولا تتمنطقين على وسط الروح بحزام الجد والاجتهاد؛ وكيف تقنعين مثل اللئام بهذا الحضيض والسفلية. فحينئذ يقال له إنه في مقام اللوامة لأنه لام نفسه.

ولكن تأثير العناية الأزلية في أمر العبودية كان يجعلها أكثر جدية كل لحظة، وكان الشوق والمحبة يصلانها في غايتهما القصوى. وتزداد بغلبات الشوق ورغبات الذوق إلى كثرة المجاهدة وجود المعاملة، ويتولد نور آخر من كل حركة تسير على قانون الشريعة، ويأتيها من الطريقة أمر آخر، من الشريعة والمدد، مما يزيد في قوة إيمانها لقوله: "ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم"[٢]

---

(١) سورة الشمس: آية ٩.

(٢) سورة الفتح: آية ٤.

وكل يوم تظهر طراوة شجرة العبودية وترقى من العالم السفلي إلى العالم العلوي، حتى تخرج الشجرة كاملة من البذرة لقوله: "وكنتم أمواتًا فأحياكم"[1]. فأولاً كانت البذرة ميتة: "وكنتم أمواتًا"، وحين خرج منها الخضرة ثم أحياها بحياة النبات: "فأحياكم"، و"ثم يميتكم" أي يفني الحبة كلية في الشجرة، و"ثم يحييكم" أي يخرج تلك الحبة مرة أخرى من الشجرة في كساء البرعم. ورغم أنها قد فنت في الشجرة وماتت، فإنها نبتت على غصن الشجرة مرة أخرى، وأطلت من إلتواء الغصن، وقد عقدت على كتفها بكفن البرعمة. شعر (ترجمته):

غداً حينما يسكن المقدسون التراب
ويصيرون كالروح يمتطون مركب الجسد
مثل شقائق النعمان ملوثة الكفن بدم الكبد
فإني أبعث (للنشور) بتراب محلتك.

وفي هذه الحالة عادت النفس إلى مقامها الأصلي حيث نزلت على غصن العبودية كالبرعمة، ولكن حين لم تكتمل الثمرة، وهي لها الآن قدم في مقام الشجرة وتتغذى منها لاستكمال ذاتها، ولها أيضاً قدم في مقام الثمرة. فالخطر هو أن تسقط من برد يسير وريح شديدة عاتية ويقرأون على كرمها سنوات طويلة الآية: "فجعلناه هباءً منثوراً"[2]. وهي قد وجدت استحقاقها في هذا المقام حيث يشاهد صلاحها وفسادها، وتكون خائفة وجلة، ووصلها مدد الإلهامات

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٨.

(٢) سورة الفرقان: آية ٢٣.

الربانية؛ ويلهمها فجورها وتقواها. وهي في هذه الحالة في خطر عظيم لأنـــها مخلصة، أي أنها تخلصت من سجن البذرة والشجرة وظـــهرت علـــى غصـــن الإخلاص: "والمخلصون على خطر عظيم". وقبل هذا فإنها كانت مقيدة بالشجرة أو سجينة البذرة، فلم يأتها الخطر، لأنه يفسد بالريح والبرد كما قيل:

إن ذؤابتك ليست لنا لأنه بأقل ريـاح

نبتعد عن وجهك ونبعد عن طلعتـك.

أما الآن فحين ولدت من رحم الشجر وطويت في القماط اللطيف لـــبرعم الشجر، فتكون طفلاً حديث العهد، وتفسد بقليل من الأذى. وإذا لم تخـــرج مـــن مراقبة الأحوال كما ينبغي، لوجدت النفس ذوق إلهامات الحق في هـــذا المقـــام، ولعرفت علم الغيب. وخطرها أن تهوى من شجرة العبودية كبلعام فـــي ريـــح الوسوسة الشيطانية أو في برد العجب النفساني.

وقد ذكـــر الحق تعالى في هـــذه الحالة أحد عشر قسماً للتأكيد، حتـــى لا يغفل السالك، وقال لو تربى النفس في هذا المقام، لوجدت الفلاح، أي تنتقل مـــن برعم الملهمة إلى ثمرة المطمئنة. ولو تحرم من تلك التربية فإنها تتقيد بالخسارة وتموت ذابلة في البرعمة، وتفنى، كما قال تعالى: "والشمس وضحاها" إلـــى أن

قال: "قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها"[1]. ولم يذكر في أي موضع من القرآن أقسام كثيرة في مكان واحد إلا في سورة "الشمس" هذه.

والسر في هذا أنه ليس هناك أي شيء من المخلوقات أشرف من النفس الإنسانية حين تبلغ الكمال، وليس للنفس في أي مقام ذلك الدلال وذلك الخطر الذي في مقام الملهمة، حين لم تتخلص من ذاتها تماماً ولم تدرك ذوق الإلهامات الغيبية كاملاً. وما أكثر الغرور الذي يمكن أن يلحقها إذا لم تكن في مقام الكمال ويلحقها غرور النفس وكبر الشيطان، ويأتيها العجب والاستحسان وتنظر لنفسها بالعظمة والحيرة، وحين يصير إبليس فيها، تسقطها ريح اللعنة العاتية من على غصن القبول كالبرعمة فوق تراب المذلة.

وبعد ذلك خلقت النفس في هذا المقام مثلما خلقت الشجرة في البداية من البذرة وحبست مدة في الشجرة وتولدت مرة أخرى من الشجرة كالبرعمة وخلقت على الغصن، حتى أدركها ذوق الهامات الحق ويجب أن تتولد من البرعمة مرة أخرى حتى تصبح ثمرة، وفي الثمرة يكون البلوغ إلى كمال النضج حتى تصير كاملة في هذا المقام، لأنه يكون للنفس في هذا المقام بداية ونهاية.

وفي مقام الملهمة فإن بدايتها هو أن تدرك ذوق الهامات الحق في نفسها في كل تقوى وفجور يصل إلى سرها، حتى تعرف الحق من الباطل وتعرف الباطل من الحق، وعندئذ تتبع الحق وتتجنب الباطل، وكان الرسول عليه السلام

---

(١) الآيات هي: والشمس وضحاها، والقمر إذا تلاها، والنهار إذا جلاها، والليل إذا يغشاها، والسماء وما بناها، والأرض وما طحاها، ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها. (سورة الشمس: آيات من ١-١٠).

يدعو في هذا المقام بقوله: (اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه). ففي البداية رؤية الحق والباطل ومعرفتهما وفي النهاية إدراك التوفيق والقوة على ترك الباطل واتباع الحق. وهذا المعنى يتيسر بإماتة النفس عن الصفات الذميمة وإحياء القلب بالصفات الحميدة: "**موتوا قبل أن تموتوا**".

تنبيه للسالكين: في هذا المقام يحل السماع للمريد الصادق من عدة وجوه:

الأول: حين ماتت النفس عن الصفات الذميمة، فإنهم يقيمون السماع احتفالاً بعرسها. ولهذا فحين يموت زميل في الطريقة، يقيم الصوفية احتفالاً بعرسه[1].

الثاني: من أجل تهنئة القلب الذي زوج بمعاني الغيب وتعاقد على الصفات الحميدة. وفي إعلان النكاح بالسماع سُنة: "**أعلنوا النكاح ولو بضرب دُف**".

---

(١) يقال إن جلال الدين الرومي قرر تخليداً لذكرى صديقه القتيل شمس الدين التبريزي، أن يرتدي أتباعه "الزي المولوي" المكون من القلنسوة الطويلة المصنوعة من اللباد البني ومن العباءة السوداء الفضفاضة، وهو الزي الذي ما زال دراويش المولوية يرتدونه حتى الآن ــ ويقال إن هذا الزي قد اختفى الآن بسبب إلغاء تكايا المولوية في تركيا ثم في مصر ــ كما قرر عليهم أيضاً هذه الرقصات الدائرة التي جعلتهم يعرفون لدى الأوروبيين باسم "الدراويش الراقصين"، ويذكر أن هناك أموراً أخرى عزيت إلى سبب فرض الغناء والرقص على هؤلاء الدراويش.
(إدوارد براون: تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي جـ٢: ص٦٥٧ والهامش رقم ١ (الترجمة العربية).
وقد علمنا مؤخراً أنه لا تزال طريقة المولوية موجودة في تركيا حتى وقت قريب، وهم يسمون ليلة الخامس من جمادى الآخرة "بليلة العرس"، وهي مصادفة لوفاة جلال الدين الرومي. وتقام مجالس السماع دائماً في كل تكاياهم من كل عام. وفي هذه الليلة يدعى كل المهتمين والمختصين بالمولوية ومريديها. (المترجم).

الثالث: حين ظهرت النفس بصيرة ناظرة للحق وأذن صاغية للحق، تسترد ذوق الإلهامات الغيبية، وتدرك كل ما هو مناسب من ذوق إلهامات الغيب وتكون حركتها في اتجاه الحق كما قال: "**الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه**"[1]. وكل قول تسمعه من هذا القوّال (المنشد) في كسوة (صورة) صوت رخيم ووزن موزون، تدرك فيه (معنى) قوله تعالى: "**ألست بربكم**" من ذلك القول وذوق الخطاب ويتحرك، بذلك الصوت والوزن، شوقاً تجاه الحق. وفي النهاية لست أقل من البعير الذي كان صوت الحداء الرخيم يظهر فيه حركة الشوق إلى وطنه المألوف ومَرْعاهُ المعروف كما قيل:

أحن وللأنضاء بالغور حنة إذا ذكرت أوطانها بربى نَجْد
وتصبوا إلى رند الحمى وعراره ومن أين تدري ما العرار من الرند

وبذاك الوزن الموزون يقصد طائر الروحانية مركزه الأصلي وعشه الحقيقي. وحين يريد أن يطير يزاحمه قفص القالب والمقيد فيه طائر الروح. وإذا وجد ذوق الخطاب يستقر طائر الروح، الذي سيضطرب قلقاً، ويريد أن يحطم قفص القالب ويقصد عالمه:

ذلك البلبل المحبوس المسمى الروح
لن تصل يده إلى تحطيم القفص.

---

(١) سورة الزمر: آية ١٨.

ويضطرب قفص القلب بالتبعية، ويكون رقصه وحالته عبارة عن ذلك الاضطراب: شعر (ترجمته):

ليس ذلك الرقص الذي تقوم به كل وقت
وتقوم هكذا كالغبار في الفضاء بلا ألم
والرقص هو أن تنصرف عن كلا العالمين
وتقطع القلب وتنصرف عن الروح.

وعندما يكون المريد صاحب رياضة في هذه الحالة وفي هذا المقام يجوز له أن يحضر وقت سماع الدف والناي، بشرط إما أن يكون في خدمة شيخه أو في صحبة جمع من رفاقه المرتاضين، كما يحذر صحبة الأغيار قدر ما يستطيع، ما عدا الأشخاص الحاضرين للضراعة والاعتقاد الكامل فيصحبهم في أدب واحترام.

وينبغي على المريد ألا يتكلف بالحركة في السماع، ويحضر قلبه إلى معاني البيت والإشارة ونغمات الناي. ولا يتحرك لكل وارد يأتي إلى القلب أو حالة تظير له، وقدر استطاعته يُنزل السماع في قلبه، ولو غلبه الوقت، وحركه بلا اختيار، لجاز له ذلك. كما أجيز له أيضاً التواجد لموافقة الأصحاب، حين تخلو النفس من الرعونة. وللسماع آداب كثيرة لا يتحملها هذا الموضع. ولكن عليه أن يحفظ حرمة الأصحاب قدر إمكانه حتى لا يتأثر قلب من تصرفاته، ولا يأتي السماع من الشرب، ويجد في كتمان المعاني وترك الدعاوي، وينتظر إلهامات الحق في كل الأحوال حتى يفعل ما يفعله بنور الإلهام، وليس بظلم البدعة والطبع. وفي البداية يمكن في هذا المقام معرفة صلاح أحواله من فساده بالإلهام، وتكون بإشارة الحق في وسط المقام.

والفرق بين إلهام الحق والإشارة والكلام هو أن الإلهام خطاب من الحق إلى القلب بالذوق ولكن بلا شعور، والإشارة خطاب بالذوق والشعور ولكن بالرمزمة وليست الصراحة، والكلام خطاب بالذوق والشعور وصريح أيضاً. ولكن يظهر نفس الكلام في مقام الملهمة ويأتي نفس الكلام أيضاً في مقام المطمئنة لقوله تعالى: **"يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك"**(١) وهذا خطاب صريح.

ونهاية مقام الملهمة تكون النفس واطمئنانها حيث تمكن نور الحق في القلب حتى أن كل ما ينظر إليه يراه بنور الحق: **(المؤمن ينظر بنور الله)**. فعندما يظهر الإلهام تكون مرتبة خواص المؤمنين، وحتى أن يتمكن **"نور الله"** في القلب، فعندئذ تكون مرتبة عموم الأولياء لقوله: **"الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور"**(٢).

وإذا بلغ هذا المقام يكون كمال معاد هذه الطائفة وهي المقتصدة، وكانت في الصف الثاني من عالم الأرواح، ووصل إليهم أنوار الألطاف وفيض الحق من خلف حجاب الصف الأول حيث صف أرواح خواص الأنبياء وخواص الأولياء.

وبعد هذا فكل شخص من أهل الصف الثاني يظهر له السعي والجد والطلب (الشوق) بقدر ما أصابه من نور الفيض لمتابعة الأنبياء والأولياء، وكما أنه كان في كل صف تفاوت في القرب والبعد واليمين واليسار لبعض الأرواح

---

(١) سورة الفجر: آية ٢٧-٢٨.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٥٧.

على بعضها، فإن أثر ذلك يظهر في سعي وطلب كل شخص ويؤثر أيضاً في إيجاده وفقده.

وإذا وقعت كل روح في الصف الثاني في مقابل روح أخرى من الصف الأول وهو صف خواص الأنبياء وخاصة الأولياء، فهنا تقع الإرادة مناسبة لهذا الشخص مع ذلك النبي والولي وتزداد محبته عن الآخرين كما قال الرسول عليه السلام: "الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف".

وبهذا فكل من يعرف شخصاً آخر ظهر له إما بالمقابلة أو الجوار، فتظهر هنا المعرفة والألفة والمودة بنفس النسبة. وإذا لم يعرف ذلك الشخص بالصورة فإنه يراه في النوم أو الواقعة ويستمد منه المدد، وإرادة المريدين للمشايخ تكون نتيجة لهذه المناسبة (أي تكون على هذه الشاكلة).

ولكن قد جعلنا لهذه الطائفة، من أهل الصف الثاني، ثمرة النخلة على مثال بذرة أرواحهم في الفصل السابق، إذ أن في البلح ذوقًا وحلاوة، ولكن في قشرته وجلده، وليس لبذرته ولبه نفع. وهذا إشارة لمعنى أن معاد هذه الطائفة، لو كان أعلى عليين الجنة وقرب خواص الأنبياء وجوارهم وخواص الأولياء لقوله تعالى: "**فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين**"(١)، فإنهم يكونون معهم ولكن لا يكونون منهم، ولهم في مقام العندية: "**في مقعد صدق عند مليك مقتدر**"(٢).

---

(١) سورة النساء: آية ٦٩.

(٢) سورة القمر: آية ٥٥.

وكان الرسول عليه السلام يؤكد تشريف المعية للمريدين والمحبين بالقول: (**المرء مع من أحب**)، ولكنه أكرم سلمان العاشق بسعادة اختصاص الأهلية ومنة المنية بقوله عليه السلام: (**سلمان منا أهل البيت**). وسيأتي شرح هـذا المقـام وأهل هذا المقام في فصل لاحق إن شاء الله تعالى.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين.

الفصل الثالث

في بيان معاد النفس السابقة

وهي النفس المطمئنة

الفصل الثالث

في بيان معاد النفس السابقة وهي النفس المطمئنة

قال الله تعالى.. "يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك راضية مرضية"[1] وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: **"جذبة من جذبات الحق توازي عمل الثقلين"**.

اعلم أن النفس المطمئنة هي نفس خواص الأنبياء وخواص الأولياء الذين كانوا في الصف الأول لعالم الأرواح ومقام اللا واسطة، ولو أن لكل نفس من خواص الأنبياء وخواص الأولياء درجة أخرى من الاطمئنان كما سبق شرح ذلك عن: **"أصحاب اليمين ما أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال والسابقون السابقون"**، وأهل كل صف من هذه الصفوف الثلاثة الذين كانوا موضع القبول وقد وردت في شأنهم كلمة اصطفاهم.

واعلم أنه حقاً لا يمكن الوصول من مقام النفس الأمارة إلى مقام المطمئنة إلا بتصرفات جذبات الحق وإكسير عناية الرب كما قال تعالى: **"إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي"**[2].

وفي البدء فإن جملة النفوس متصفة بصفة الأمارية، سواء أكانت نفس نبي أو نفس ولي، حتى تصل بالتربية إلى مقام الاطمئنان الذي هو نهاية استعداد الجوهر الإنساني، وعندئذ تستحق خطاب "ارجعي".

---

(١) سورة الفجر: آية ٢٧-٢٨.

(٢) سورة يوسف: آية ٥٣.

كما أن الأرواح قد نزلت في البداية من عـــالم الأرواح وتعلقت بعـالم الأجساد وعبرت على جميع ممالك الملك والملكوت، حتى مرت على الأفـــلاك والأنجم والعناصر وتجاوزت مراحل الجمادية والنباتية والحيوانية ووصلت إلـى مرتبة الإنسانية التي هي أسفل الموجودات كما سبق شرح ذلك، وإشـــارة لـــهذا المعنى جاء قوله تعالى: **"ثم رددناه أسفل سافلين"**[1] وكذلك فقد اتجهت (الأرواح) مرة أخرى إلى أعلى عليين بنور الإيمان والأعمال الصالحة لقوله تعـــالى: **"إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات"**[2].

ولكن طالما أنها لم تتذوق ذوق خطاب **"ارجعي إلى ربك"** فمن المحـــال أن يظهر فيها نور الإيمان حتى ترتبط بالعمل الصالح، ولكن لم يكن للنفس شــعور بذلك حتى تتذوق ذلك الخطاب بالحس. وهناك سر في كسوة جذبة الحق التـــي تصل إلى سر الروح حيث تحيل النفس عن صفة الأمارية، وتوجهها إلى قبـــول الإيمان والقيام بالعمل الصالح، مثلما وصل الخطاب إلى سر النار بقوله: **"يا نار كوني بردًا وسلامًا"**[3]، وأحال النار بلا شعور عن صفة الإحراق وأبلغها صفـــة (البرد والسلام).

ومنذ ذلك الحين فإن النفس، في المراجعة، تتجـــه مـــن أســـفل الطبيعـة الأمارية إلى معادها بتصرف خطاب **"ارجعي"**، حتى تبلغ كمال مرتبة معادهـــا الخاص **"فادخلي في عبادي وادخلي جنتي"**[4]. وهذه الجنة التي وجدت تشـــريف

---

(١) سورة التين: آية ٥.

(٢) سورة التين: آية ٦. ، وسورة الانشقاق: آية ٢٥.

(٣) سورة الأنبياء: آية ٦٩.

(٤) سورة الفجر: آية ٢٩-٣٠.

إضافة الحضرة في قوله: "جنتي"، لها شرف كبير على الجنات الأخرى كالكعبة التي وجدت شرف إضافة "بيتي" على المساجد الأخرى. وهذا سر عظيم لا يصل إلى معناه عقل أي شخص، ولا تحيط العبارات ببيان هذه الإشارات والرموز.

واسم الإمارة يغلب على النفس بمعنى أنها أمير قالب البدن، والأمارة لفظ مبالغة من أمير وآمر، يعني في غاية الأمر والنفاذ على جميع الجوارح والأعضاء حتى تعمل وفقاً لطبعها وأمرها. وإذا لم تخضع النفس لنهج شريعة الحق ولم تنقد للشرع ولم تتبع طريق التصفية، فلن تخلص من صفة الأمارية لأن هاتين الصفتين ضدان لا يجتمعان؛ حتى الأمارة لا يمكن أن تأتمر؛ حتى وإن صارت مأمورة لتخلصت من الأمارية.

ولهذا فقد وقع الفلاسفة في خطأ جلل، فأدركوا أن أمارة النفس من الصفات الذميمة الحيوانية، ولذا عانوا كثيراً في تهذيب الأخلاق وتبديل الصفات، على أمل أنه حين تبدل الصفات الذميمة بالصفات الحميدة فإنها تنتقل من الأمارية إلى المطمئنة. ولم يعرفوا أن الأمارية لا تزول من مجرد هذه المعاملات، حتى تصير عندئذ مأمورة بالشرع. وهم قد اعتقدوا بوجوب الشرع لتهذيب الأخلاق، وقد قالوا أنه يحصل لنا تهذيب لأخلاقنا بنظر عقلنا، **فما حاجتنا للأنبياء والشرع؟**. وعلى هذا فسيُحمل بقايا رماد أجساد هؤلاء الضالين من هذه المزبلة (**الدنيا**) إلى فم شيطانهم في جنهم، لأن نور الإيمان لم يدركهم، حتى يروا به، ولن يستطيعوا الخروج من حجاب الطبع بالطبع.

ولأنهم لو روّضوا أنفسهم بالنظر العقلي طيلة ألف عام حتى يظهر للنفس ألف نوع من الصفاء والبصيرة وتنتفي حجب الصفات البشرية، وهذه جميعها

تقوي حجاب الطبع وتزيد الكدورة (الظلمة) وحقيقة عمى البصيرة، لأنه طالما أنه لم يكن لها (النفس) قدر من هذا الصفاء والبصيرة، وكانت طالبة لها، فكان يجب أن تعلم أنها في الكدورة (الظلمة) وعمى البصيرة. وحين ظهور قدر من أثر الصفاء والبصيرة، في النفس، بواسطة تبديل الأخلاق ورياضة النفس، لاعتقدت أن الصفاء والبصيرة والحقيقة هي أن تتوقف عن طلب الشرع والشريعة، ويصبح هذا التفكير، وهو حجاب الغالبية، من جملة الحجب، ويبقى هذا المتفلسف التعس في الضلال الحقيقي. ولا يفهم هذا المعنى سوى القلب وأهل القلب، لأنهم مؤيدون بالتأييد الإلهي، وقد أدركت البصيرة عين(حقيقة) سرها من نور الله طبقًا للقول: "**المؤمن ينظر بنور الله**".

واعلم حقاً أنه يمكن التخلص من أسفل الطبيعة برباط الشريعة وجذبة الطريقة، وهذا أحد أسرار الشريعة حيث يوجد فيها جذبة الحق وطبع الظلمة وشرع النور. ويمكن التخلص من ظلمة الطبع بنور الشرع كما قيل: "**وبضدها تتبين الأشياء**"[1].

وكل من كان له نور الشرع ــ الذي هو صورة جذبة الحق وسراج الطريقة ــ الذي هو سر رحمة الحق، لا يمكن أن يخلص شيئاً قط من ورطة الأمارية لقوله "**إلا ما رحم ربي**"[2] وكان الحق يقول للرسول عليه السلام، مع

---

(١) هذا مصراع شعري جاء في قصيدة لأبي الطيب المتنبي يقول فيها:

من يظلم اللؤماء في تكليفهم   أن يصبحوا وهم له أكفاء

ونذيمهم وبهم عرفنا فضلـه   وبضدها تتبين الأشيـاء

(جلال الدين الرومي: فيه ما فيه: ص٢٩١)

(٢) سورة يوسف: آية ٥٣.

كمال مرتبة النبوة وجلال الرسالة: "إنك لا تهدي من أحببت"[١]، أي أنـك لـن تستطيع أن تخلص شيئاً قط من بئر الطبع إلى طبعه: "ولكـن الله يـهدي مـن يشاء"[٢]، فيجب أن يكون نور هدايتنا هو حقيقة الجذب، ولابد من جذبة العنايـة لأهل الطبع من أسفل الطبيعة لترفعه إلى أعلى القرب لقوله: "ارجعي إلى ربك".

وستبلغ النفس في هذه الحالة إلى مرجعها ومعادها إلـى جميـع العوالـم المختلفة بتصرف جذبة: "ارجعي" لأنها في البداية عبرت ونزلت منها، ومن ثـم يجب ثانية أن تعرج وتعود مرة أخرى.

والحكمة في هذا الذهاب والمعاد هو أن يشاهد ثلاثمائة وستين ألفاً مـن عوالم الحق، ويأخذ في كل عالم الكنز المخبأ فيه، ويعرف السر المـودع فيـه لقوله: "وعلم آدم الأسماء كلها"[٣].

وكما أن عالم الكليات لم يكن من تلك الجزئيات في بداية الروحانية، فـإن عالم الغيب لم يكن من عالم الشهادة، وحين التحق بهذا العالم وأعطـاه منـهج سلوكه وترتيبه صار عالم الكليات والجزئيات ولم يكـن هنـاك عـالم الغيـب والشهادة في خلافة الحق. لأنه لم يكن في عالم الأرواح قدرة وآلة (اسـتطاعة) على معاملات خلافة الربوبية، وهنا[٤] وجدت القدرة والآلة (الاستطاعة) وبلغت مرتبة كمال الخلافة.

---

(١) سورة القصص: آية ٥٦.

(٢) سورة القصص: آية ٥٦.

(٣) سورة البقرة: آية ٢٣١.

(٤) يقصد بها عالم الكليات والجزئيات.

وفي البداية حين كانت تعبر على هذه العوالم المختلفة، فتأتي وتُقرض شيئًا لكل عالم وترهن منها شيئاً أيضاً، حتى لا يكون عليها دين تؤديه لأي مقام وقت المراجعة والعودة ولا تسترد رهنها، فلا يُترك أثر حيث تعبر:

لو يلزمك أن تتحرر من هذا القفص
فأعد قرض (الكواكب) السبعة و(الحواس) الخمسة و(الطبائع) الأربعة[1].

وفي البداية، حين الخروج من المنزل الترابي، فإن ذلك يُعد آخر منزل لعالم ملكوت الروح، أما حين تتعلق بقالب الدنيا فذاك أول منزل من منازل الدنيا. وأما في وقت العودة فإن ذاك هو آخر منزل من منازل الدنيا وأول منزل من منازل الآخرة، وهو أول عالم الملكوت وعالم البرزخ. وكما يقال للشخص حين يودع في التراب: (**هذا آخر منزل من منازل الدنيا وأول منزلة من منازل الآخرة**).

ولكن الميت يُحمل اضطراراً، أما السالك الحي فهو الذي يعبر بقدم السلوك من الصفة الترابية وليس من الصورة الترابية. وصفة التراب الظلمة والكدورة والكثافة والثقل: فيأتي من خاصية الظلمة: الجهل وعمى البصيرة، ويأتي من خاصية الكدورة: التعلق والارتباط والتفرقة، ويظهر من خاصية الكثافة الظلم وحدة القلب، ويظهر من خاصية الثقل: خسة الطبع والركاكة والوضاعة والدناءة والخسة والضعف والكسل والعوز.

(١) سنائي الغزنوي: ديوان السنائي: ص١٨٣.

والسالك قد استعار جملة هذه الصفات الذميمة من التراب، ورهن جميع صفات الكرم والمروءة وعلو الهمة والرأفة والرحمة والشفقة والعلم واليقين والصفاء والصدق والحمية والرفعة والشرف والنورانية. ولن يستطيع العبور من مقام التراب ما لم يفعل هذه كلها، ولن يسير إلى عالمه ما لم يؤد تلك الصفات التي أخذها من هناك وما لم يسترد الرهن الذي ارتهنه هنا.

وأيضاً فإنه قد اقترض صفاتًا ذميمة أخرى من العناصر الثلاثة وهي الماء والنار والهواء، ورهن بدلا منها الصفات الحميدة، وعلى نفس القياس من الأفلاك والأنجم والعوالم الأخرى.

وحين يرد جملة القروض ويسترد الرهائن ويعود إلى مقره الأصلي، فإنه ينصب لسلطنة الخلافة ويولى على جميع ممالك الغيب والشهادة بخلعة النيابة ومنشور السيادة، ويمنح زمام المملكة بيد سلطانه لقوله تعالى: "قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء"(١).

ولما صار مالك الممالك، فكل ما قد افترضه في ذلك الحين، يجب أن يرده فيصير ملكه الآن ويتصرف فيه بملكيته، ويعمل كل شيء بالعبودية لعوالم الغيب والشهادة في نيابة الحق وخلافته ويستقر في عتبة التوحيد: شعر (ترجمته):

ضع حلقة في أذن الفلك والأنجم
حتى تعطيك إقراراً بالعبودية
إن الخلق نثار على مفرق جبينك
فلا تجمع النثار من الطريق كالأخساء.

(١) سورة آل عمران: آية ٢٦.

وعندما يصير خاصاً بالحضرة فإنه يدرك ذوق القرب، ويرى عزة الخلافة: شعر:

ويبدو لي من الصنعاء برق — يخبرني بها قرب المزار
فلا أرضى الإقامة في فلاة — وفوق الفرقدين رأيت داري
وكيف أكون للديدان عبدا — وأربعة العناصر لي جواري

والسائرون في هذا الطريق قسمان: السالكون والمجذوبون:

فالمجذوبون هم الذين يلتزمون بقوة الجذبة ويعبرون في عجلة على هذه المقامات بغلبات الشوق، ولا يطلعون كثيراً على أحوال الطريق ومعرفة المقامات وكشف الآفات، ولا يعرفون تماماً بما يكون في الطريق من خير وشر ونفع وضرر لأنه لا يصلح للمشيخة ولا الإمامة.

والسالك: مع أنه شخص يؤخذ بقبض الجذبة، إلا أنه يؤخذ بالسكينة والهدوء؛ وفي كل مقام يعرض عليه أحوال خير الطريق وشره وصلاحه وفساده. فأحياناً يدفع في الطريق السليم وأحياناً في الطريق المعوج حتى يقف تماماً على كلا الطريقين، ومن ثم يصلح دليلاً ومرشداً لجماعة أخرى.

وعلى كل فإن علم معرفة هذا الطريق لا نهاية له ولا حصر، ولكن ما يظهر من أي مقام فإننا سوف نتحدث تصريحاً وتلميحاً عن الوقائع التي تحدث في النوم والمراقبة، حتى يكون للسالك دليل ومحك ودليل لمعرفة الطريق وأماراته وعلاماته.

ففي البداية مثلاً، فإنه حين يعبر على الصفات الترابية، يرى في وقائع النوم والمراقبة أنه يخرج من المنخفضات والمضايق والآبار والمواضع

الظلمانية، كما أنه يعبر على الخرابات والكهوف والتلال والجبال ويتجنب الثقل والكثافة ويظهر فيه الخفة واللطافة.

وفي المرتبة الثانية: يعبر على الصفات المائية فيرى المروج والمراعي والأشجار والمزارع والمياه الجارية والينابيع (النافورات) والأحواض والبحار، حيث يعبر عليها جميعاً.

وفي المرتبة الثالثة: يعبر على الصفات الهوائية حتى يرى السير في الهواء والطيران والجري والسير على المرتفعات والطيران فوق الأودية وأمثال ذلك.

وفي المرتبة الرابعة: حيث يعبر على الصفات النارية فيرى المصابيح والشموع والمشاعل والبروق وبيادر النار وأودية النار والحرائق وشعلات اللهب وأمثالها.

وفي المرتبة الخامسة حين يعبر على صفات الأفلاك والأجرام السماوية فيرى بنفسه الإسراء إلى السماء والطيران والعروج من سماء إلى سماء ودوران الدنيا والفلك وما شابهها.

وفي المرتبة السادسة: حين يعبر على ملكوت الكواكب والأنجم فيرى النجم والقمر والشمس والأنوار.

وفي المرتبة السابعة: وهي مرتبة القلب السابعة والمدينة السابعة حيث عبر على جميع الصفات السبعية والبهيمية والحيوانية وسيطر عليها تماماً، وقد رأى أنها أسيرة ومنقادة له إذ عبر القلب على هذه المراتب الست الأخرى وشهد واقعات الخير والشر.

والخلاصة أنه يظهر في كل عالم ما يناسبه من مشاهدات الوقائع وأحياناً تظهر واقعة واحدة في عدة مقامات، فيشير كل موضع إلى معنى آخر مناسب لذلك المقام.

ولا يمكن لأي شخص أن يفرق بين هذه الاختلافات وهذا التفاوت، ولا يمكن أن يعرفها سوى شيخ كامل.

وحين لا يعرف السالك الوقائع تماماً فإنه يتقيد بالوقائع ولا يستطيع السير وهذه هي إحدى ضرورات الاحتياج للشيخ.

فمثلاً تظهر النار في عدة مقامات، وفي كل مقام لها معنى يختلف: فأحياناً تكون دليل العبور على الصفة النارية، وأحياناً تكون دليل حرارة الطلب، وحيناً تكون علامة غلبة صفة الغضب، وحيناً تكون علامة غلبة صفة الشيطانية وحيناً تكون نور الذكر وحيناً تكون نار القهر وحيناً تكون نار الهيبة وحيناً تكون نار الشوق، وأحياناً تكون نار البداية، كما كان لموسى عليه السلام: "آنسَ من جانب الطور ناراً"[1]، وأحياناً تكون نار المحبة لتحرق ما سوى الحق، وأحياناً تكون نار المعرفة لقوله: "...ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء"[2] وحينا تكون نار الولاية لقوله: "الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور"[3]، وحينا تكون نار المشاهدة لقوله: "أن بورك من في النار ومن حولها"[4].

(١) سورة القصص: آية ٢٩.

(٢) سورة النور: آية ٣٥.

(٣) سورة البقرة: آية ٢٥٧.

(٤) سورة النمل: آية ٨.

ما عدا ذلك تكون نيرانًا لا يمكن أن يعرف أي شخص الفرق بينها سوى شيخ صاحب تجربة. ويقيس على هذا جميعه الاختلاف بين بقية الوقائع الأخرى التي تظهر لسالك الطريق في النوم والمراقبة.

ولكن حين تعبر النفوس الإنسانية على هذه المقامات فإن كل نفس تصل إلى مقامها حسب الاستعداد والتأييد الرباني، إذ كان لها استحقاق ذلك المقام، ونالت المرتبة التي كانت أهلاً لها في عالم الأرواح مثل: اللوامة والملهمة والمطمئنة التي تتقيد في ذلك المقام وتقول: **"وما منا إلا له مقام معلوم"**[1] وتصيح: **"لو دنوت أنملة لاحترقت"**.

ولأن مقام كل طائر لا يكون جواد جبل قاف، إذ يلزم له العنقاء (السيمرغ)، ولا يمكن أن يستقر أي طائر على مفرق الشمع، ولكن يلزمه فراشة مولهة، ولا يستطيع أن يستقر أي حيوان آكل الجيفة على كف الملوك، ولكن يلزمه صقر أبيض: شعر (ترجمته):

ما دمت تلوث غراب الصفة بالجيفة
فمتى تليق كالصقر بخدمة الملوك
وما دمت كالصعوة تصير غذاءً للملوك
فمتى تكون بازيا أشهبَ تليق بأيدي الملوك.

(١) سورة الصافات: آية ١٦٤.

ولو صلح جمال الطاووس بالكمال، لصلح بلبل الألحان للبلبل الأخضر،[1] وصلح للببغاء لسان الإنسان، ولكن يلزمهم النظر أو النظارة (العرفان)، إذ يجب أن تفدي من أجل جمال شعلة شمع الأرواح لأنها لا تليق لغير فراشة مولهـــة، حيث لا يصلح العاقل بغير النظر والنظارة:

لا تقترب من الشبكة لأنك لست طائر هـــذه الجنـــة
ولا تقــترب مــن الشــمع لأنــك لســت فراشـــة
إن الموله المجنون هو الشخص الذي يطوف حولنـا
فأقلل في الطواف حولنـــا لأنــك لســت مجنونـــا.

وهم قد خلقوا لمنادمة مجلس الأنس وملازمة مقـــام القـــرب، لـــذا فـــهم أصحاب الوصول والوصال وأرباب الفضل والنوال، وهم متوارون تحت قبـــاب الغيرة: "أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري"، وهم مضطربوا الحال ومحققـــوا المقال، وبلا حول أو طول، وبلا جناح وقوادم لقوله عليه السلام: "**رب أشـــعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه به لو أقسم على الله لأبر قسمه**".: شعر (ترجمته):

إن لهم القلوب التي هي مولهة
ولهم ذؤابة مولهة مضطربـــة.

(١) هزار دستان: معناها البلبل الأخضر، وهي كناية عن طائر الجنة الـــذي يتغنـــى بالألحـــان الرخيمـــة. (المترجم).

"الفقراء الصبر جلساء الله يوم القيامة" فهذا في شأنهم لأنهم ذووا قلوب مولهة:

كان حال القلب في ذاته أكثر اضطراباً من هذا
أو أن واقعة[1] ما، أكثر وَهْنًا من هذا
ومن الذي رأى في الدنيا ممتحناً قط
متحيراً في أمره، وأكثر حيرة من هذا.

وأولئك الذين تعلقوا بسطوة جذباتهم، وبلغت إلى حلق روحهم مرارة جميع لذاتهم وشهواتهم النفسانية والميول والرغبات الإنسانية، وتذوقوا مذاق مشرب آخر:

نحن الذين نأكل القوت من يد أرواحنا
لأننا نأكل قديد العنكبوت.

وكان اطمئنان قلبهم بذكر هذا الحديث: "ألا بذكر الله تطمئن القلوب"[2]. ويعالجون السُكْر أيضاً بالسكْر،[3] ولم تطمئن قلوبهم بكل ما في الكونين

(١) واقعه*: معناها حادثة أو يوم القيامة، وقد فضلت أن استخدم نفس اللفظ. (المترجم).
(٢) سورة الرعد: آية ٢٨.
(٣) مي زده راهم بمي علاج كنند: من الأمثال السائدة وهو يقابل المثل المعروف عندنا: لا يفل الحديد إلا الحديد. (المترجم).

والخافقين وقد ظلوا سكارى بذوق شراب خطاب: "ألست بربكم"، وتلوا على كل الكائنات آية: "قل الله ثم ذرهم"[١].

إننا سكارى من خمر ألست
ولا زلنا سكارى منذ عهد ألست
وفي الصومعة مع المصحف والسجادة والورد
لا زلنا شاربين حتى الثمالة، وفسقة ومعربدين.

ومقامهم دائماً في خرابات الوجود، وكأسهم طافح بشراب الشهود، وكل نعيم الجنان الثمانية لا يصلح لنقل مجلس هذه الخرابات: "**ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم**"[٢]. وليس للنفس المطمئنة اطمئنان بذلك، لأنه كان ينزل لها من خوان: (**أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني**) صوت: "**ارجعي إلى ربك**".:

إن الصقر الذي يليق لكف الملك
متى يلوث المنقار في الجيفة الميتة؟
إنه يجلس على كف الملك متحرراً من ذاته
بقيد الإشارة التي يأمره بها.

---

(١) **سورة الأنعام: آية ٩١.**
(٢) **سورة فصلت: آية ٣١.**

لا لا! أي مكان لهذا الحديث؟: "إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون"[١]، إن طيوره لا تنزل إلى مرتبة صقر ويعدون هذا المقام صقرياً. ولو كان صقراً أبيض، فأنى يكون فدائياً مثل الفراشة؟ وهو أيضاً صائد قانص الروح[٢]. إذن فما هو أمر الفراشة مع الروح؟، مع أن الصياد لا يستطيع أن يسلب صيد الروح منه، والفراشة العاشقة لا تقدم للمعشوق تحفة سوى الروح.

وإن جبريل وميكائيل كانا فدائيين ظاهرين كمصيدة للملكوت، إذ كانوا يقدسون وينزهون صيد الطيور لقوله: "**ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك**"[٣] وحين وصل أمر الصيد إلى صفات جمال وجلال الصمدية قصّرا ريشهما وجناحيهما وتوقفا عن الصيد والقنص، طبقًا للقول: **(لو دنوت أنملة لاحترقت):**

إن الطائر الذي طار هنا وضع جناحيه
والشيطان الذي وصل هنا طأطأ رأسه.

وقيل لهم: إننا قد اقتنصنا صيداً في الأزل بفخ "**يحبهم**"، ووضعناه في هذه المصيدة "**إني جاعل في الأرض خليفة**"[٤] حتى نعرفكم كيف يفعل الصياد:

---

(١) سورة الأنبياء: آية ١٠١.
(٢) جان شكار: بمعنى صائد الروح، ويكنى به عن المعشوق أيضاً. (المترجم).
(٣) سورة البقرة: آية ٣٠.
(٤) سورة البقرة: آية ٣٠.

إني سأغوص في البحر العميق غاطساً
فإما الغرق أو إخراج الجوهر
إن أمرك مخاطرة، ولكني سأقوم بها
فإما أن يصير وجهي أحمر بسببك أو الجيد[1].

وقال الجميع: لا يسبقنا هذا الصياد في الصيد، ويلتزم في هذا الميدان بحديث الادعاء في صولجان المعنى[2]، ويفعل ما لا نستطيع عمله، ويصطاد مالا نستطيع صيده، فنعقد على أرواحنا جميعاً حزام خدمته، ونسعد قلوبنا جميعاً بالسجود له.

وينزل الخطاب من حضرة الجليل: إذا لم تروا ميثاقه في الأوراق الضعيفة لقوله: "وخلق الإنسان ضعيفا"[3]، فلا تنظروا إليه بعين الحقارة، وانظروا إلى أفعالنا، ولتغتروا بقوادمنا وجناحنا المليك، حتى حين يقترب الشيطان من هذه العتبة. وإننا في الحقيقة جناحه وقوادمه، وبغيرنا فإننا لا نستوجب له ريشه وجناحه لقوله: "وحملناهم في البر والبحر"[4] :

(١) هذه الرباعية لمجد الدين البغدادي: (عبد الرحمن الجامي): نفحات الأنس: ص٤٢٦-٤٢٧ ، ورضا قلي خان هدايت، رياض العارفين ص٢١٩، ومنوچهر محسني: تحقيق در أحوال وآثار نجم الدين كبرى أويسي: ص٨١ ، ٨٥)

(٢) ودر اين ميدان گوى دعوى بچوگان معنى بربايد: أي يلزم كرة الدعوى بعصا المعنى، وقد استخدمنا هنا المعنى الاستعارى لها. (المترجم)

(٣) سورة النساء: آية ٢٨.

(٤) سورة الإسراء: آية ٧٠.

لا تجرؤ سوى يــــدك أن تمتد إلى ذؤابتـــك
ولا تجرؤ الإســـراع نحوك إلا قدمــــــك
لقد قطعت عينـــي الطمع في رؤيـــة وجــهك
فليس سوى عينيك من يقدر النظر إلى وجـهك.

وكل من يطير بجناحنا، لا جرم أنه يطير بجوارنا:

كــل بعوضـــة تطـــير فـــي محلتـــك
فـــلا يســتطيع البـــازي صيدهـــا.

وحين كانت النفس المطمئنة من السابقين: "ومنهم ســـابق بالخـــيرات"،[1] فإنهم طاروا بصيد "ارجعي" وأرسلوا في طلب الصيد حول الكائنات، فلم تجـــد هواء في فضاء الأقاليم السبعة التي تجوز لمخلبها، ولم تر جملة في هواء الجنان الثمانية التي تليق لمنقارها:

كنت صقـــراً طار من عـــالم الأســــــرار
ربما أحمل الصيد من المنخفضات إلى المرتفعـــات
وعندما لم أجـــد هنا أحداً مسموحاً له بالســـر
خرجت ثـــانية من ذلك البـــاب الذي دخلتـه.

---

(١) سورة فاطر: آية ٣٢.

وحين عبرت الفراشة المجنونة على الجميع ، واتجهت نحو صيد وصـال شمع الجلال، فلم تصل إلى وجودها المجازى فأصابها الملل والسأم من وجودها، وضاقت بروحها:

كل لحظة يصيبني فيها الملـل مـن وجـودي
ويمحو هـوس الوصـال جمـالي ذاك
وعندما رأت فراشة القلـب شـمع وصـالك
صـارت مجنـونة واحتقـرت العـالمين

لا شك أن الفراشـة تحتقـر ذاتهـا
حيـن تحتضنهـا الشمعة بألف لطـف
وفي البداية تضع الفراشة روحها على كف يدهـا
ثم تتجـه لكي تحتضـن الشمـع.

وهكذا كانت تسير لا مبالية حتى عبرت على النيران السـبع والجنـات الثمانية، فعض جملة الملأ الأعلى بأصبع التعجب متحيرين، **ما هذا الطائر الذي بهذا الضعف وبهذا الظلم لنفسه؟: "إنه كان ظلوماً جهولا".**(١) وكان يقول لـهم بلسان حاله: أنا ذاك الطائر الذي ما زلت لم أحلق من عش النفخة، ولم أكن قـد صرت أسيراً في قفص القالب بعد، حتى أخذتم تطلقون عليّ سهام الصيد مـن

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٧٢.

قرس الملائكة (قائلين): "أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء"،[1] وكنتم ترمرتني بصيد: "ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك"،[2] ولم تكونوا تعرفون:

أنـه بـأعلى شـرفات جلالـه طيـورا
تصيد الملائكة ومتمسكة بـالتوحيد مُسبحة.

والآن إنكم تتمتعون بصيدي وتتسلون بإراقة الدماء ونشر الفساد، وإني أريق الدماء، ولكن من حلق وجودي، على أعتاب جلال العزة، وأبث الفساد ولكن بالتضحية والفداء لجمال الحضرة:

ذلك اليوم الذي كنت تحيك لي فيه خرقة الوجـود
قال لك خلـق الوجـود منكريـن:
ماذا تفعل أنت لسفـاح؟ فاعلم جيـداً
أنني سفـاح حقاً ولكن من خلـق الوجـود.

وهكذا أخذ يطير بنشاط وجد، حتى بلغ قمة اللا مكان، فقال الملأ الأعلى: إنه المكاني ولا يمكنه التحرك في اللا مكان، ومن الضروري أنه يستسلم لحائط العجز. وكان حضرة العزة "يسر إليهم": ألم أقـل لكـم: "أني أعلـم مـا لا

---

(١) سورة البقرة: آية ٣٠.
(٢) سورة البقرة: آية ٣٠.

تعلمون"[1] وما زلتم حتى الآن تشرعون سيف الإنكار، ولا تلقون بمجن العجز مستسلمين؟:

لا تتأتى رائحة الورد الأحمر لكل وضيع
ولا تكون هذه الواقعة لأي متهوس
فكيف تتنكر لأحوال المولهين؟
وليس كل شخص محروماً مما هو ليس لك

وكانت فراشة الروح تقول لصقر الوجود الصائد: لا تبالي بهم فإن "الجاهل معذور":

ليس هناك عار عليّ في ملامتي في عشقك
وليس هناك جدال مع الجهلاء في هذا الكلام
فهذا شراب العشق لكل الرجال
وليس هناك نصيب[2] في هذا القدح لغير الرجال

وهم لم يعرفوا ما هو دين فراشة القلندرية:

إن ديني القلندرية ومذهب القمار
أنا الذي قد أتيت بهما في المدينة أيها المحبوب الجميل

(١) سورة البقرة: آية ٣٠.
(٢) رنگ: بمعنى لون: وقد وجدنا أنه من الأفضل ترجمتها هنا بمعنى نصيب أو حظ. (المترجم)

وحين طافت الفراشة حول سرادقات أشعة شمع الجلال، أرسلت شعلة إلى حاجب الفراشة، وحين رأت الفراشة الحاجب لم يكن لها طاقة تحمل غيرها، فأطبقت يدها على جيد الحاجب، حتى إذا نظرت لم يكن لها قوادم ولا جناح. وحين خسرت ريشها وجناحها المجازى الفاني طبقاً لقضية: "من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها"[1]، كانت حاجب الشعلة الذي هو لسان الشمع فكرم قوادمها وجناحها الحقيقي من لسان شمعه حتى طار الشمع في فضاء هواء الهوية، وسكب دم الغربة لطائر الاثنينية على أعتاب الوحدة وهربت من وجودها إلى وجود الشمع لقوله: "ففروا إلى الله"،[2] فهربت من ذاتها وتعلقت به، وفنيت فيه ومزجت العدم في الوجود. وحين أفنت وجودها في وجوده ألقت عنها خوف جهنم وأمل الجنة:

في النهاية طوينا هذه الأفلاك السبعة
وأخيراً اجتزنا الجحيم والفردوس
ومرة واحدة صار وجودنا كلُه فداءً لك
أيها الحبيب: في النهاية أصبحنا أنت نحن ونحن أنت.

وفي هذا المعنى يكون خاصية الجذبة والإرشاد لقوله: "وادخلي جنتي"[3] والله أعلم.

---

(١) سورة الأنعام: آية ١٦٠.
(٢) سورة الذاريات: آية ٥٠.
(٣) سورة الفجر: آية ٣٠.

وهذه الطائفة، هم الذين ماتوا الموت الحقيقي قبل موت الصورة بإشارة: "موتوا قبل أن تموتوا". وحين ماتوا قبل الموت، أحياهم الحق تعالى قبل الحشر، وجعل معادهم ومرجعهم حضرة الألوهية: لقوله تعالى: "ثم يحييكم ثم إليه ترجعون"[1]:

أيها الحبيب: فلتمت قبل الموت لو تريد الحياة
فإن إدريس سبقنا إلى الجنة بهذا الموت.

وهم الذي جلسوا في عالم الصورة، وعبروا الجنان الثماني بالمعنى لقوله: "وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء"[2] وهذا هو معاد النفس المطمئنة ومعنى الإشارة: "ارجعي إلى ربك راضية مرضية"[3].

وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين.

(١) سورة البقرة: آية ٢٨.
(٢) سورة النمل: آية ٨٨.
(٣) سورة الفجر: آية ٢٨.

الفصل الرابع

في معاد النفس الشقية

وهي النفس الأمارة

الفصل الرابع

في معاد النفس الشقية وهي النفس الأمارة

قال الله تعالى: "فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا، فإن الجحيم هي المأوى"(١). وقال: "لا يصلاها إلى الأشقى، الذي كذب وتولى"(٢).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (حُفّت الجنة بالمكاره وحُفّت النار بالشهوات).

اعلم أن السالكين لطريق المعاد طائفتان: السعداء والأشقياء. ولكل طائفة قدم تسير به، وجادة تسير عليها، ولكل واحدة معاد تسير بذلك القدم على تلك الجادة نحو ذلك المعاد.

ولكن السعداء على طائفتين: الخاصة، وخاصة الخاصة. فالخواص يسيرون بقدم. "يحبونه" على نهج مخالفة النفس والهوى وترك اللذات والشهوات، ويسيرون إلى معاد الجنة ودرجاتها على جادة الطاعة ونهج الشريعة والطريقة ومتابعة السنة والحقيقة: "وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هي المأوى"(٣). ويسير خاصة الخاصة في مقام العندية بقدم

(١) سورة النازعات: آيات: ٣٧-٣٩.

(٢) سورة الليل: آية ١٥-١٦.

(٣) سورة النازعات: آية ٤٠-٤١.

"بجيبهم"[1] إلى معاد "مقعد صدق" لقوله: "إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر"[2]، وقد سبق شرح ذلك.

أما الأشقياء فهم طائفتان أيضاً: إحداهما الشقي والأخرى الأشقى.

فالأشقياء هم بعض عصاة الأمة الثابتين على موافقة هوى النفس والمُصرّين على مخالفة شريعة الحق ويسيرون إلى معاد جهنم ودركاتها بقدم سيطرة اللذات والشهوات النفسانية على جادة عصيان الحق لقوله: **"فأما من طغى، وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى"**[3] وأيضاً قال الرسول عليه السلام: **(حفت النار بالشهوات)** وقال في موضع آخر: **(أكثر ما يدخل أمتي النار الأجوفان: الفم والفرج)** أما الفم فلأنهم يأكلون به الحرام كما أنهم يسرفون في أكل الحلال وأما الفرج فإنهم ينزلقون به في الشهوة الحرام. ومن أجل بلوغ الشهوة الحلال فإنهم يقعون في الحرام، والظلم والفساد على شاكلته.

ولكن الشقي وهي صفة الكافر والمنافق، اللذين اتجها بالكلية إلى طلب الدنيا ومتّعيا وصرفا همتيما البهيمية كلية لاستيفاء اللذات والمتع النفسانية والحيوانية وأدبرا عن الدين والآخرة والانشغال بها، وأفنيا النعيم الباقي في النعيم الفاني، فلم تقبل عليهما الدنيا تماماً وحُرما من الآخرة لقوله: **"ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب"**[4].

---

(١) سورة المائدة: آية ٥٤.

(٢) سورة القمر: آية ٥٤-٥٥.

(٣) سورة النازعات: آية ٣٧-٣٩.

(٤) سورة الشورى: آية ٢٠.

والفرق بين الشقي والأشقى هو أنه إذا كانت نفس الشقي أسيرة شقاء عصيان الحق ومخالفة الشرع، فإنما يكون قلبه أحياناً مشغولاً بسعادة قبول الإيمان والتسليم لأمر الحق:

إذا كنا لم نمُرّ برأس محلتك

فإننا لم نتجاوز محلتك قط.

وفي بعض الأوقات يحصل سعادة إقرار اللسان وتصديق الجنان، وإذا لم يحقق معاملة عمل الأركان فإنه يسير إلى جهنم بوعيد الحق لقوله: **"فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق، خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك"**(١).

ولكن كلمة **"لا إله إلا الله"** وشفاعة **"محمد رسول الله"** لن تتركه في ذلك المكان، وفي النهاية تخلصه من جهنم بهذا الاستثناء الذي قال فيه: **"إلا ما شاء ربك"**، ويكون معاده الأصلي الجنة.

ويرد في الحديث الصحيح ـ فيما معناه ـ أنه يعتق من النار جمع احترقوا مثل الفحم فيندفعون إلى نهر الحياة، وينبت لهم لحم وجلد ويخرجون من هناك ووجوههم مثل القمر ليلة البدر، وكتب على جبهتهم: **(هؤلاء عتقاء الله من النار)**.

(١) سورة هود: آية ١٠٦ ، ١٠٧.

أما الأشقى فهو الذي يبقى مؤبداً ومخلداً في جهنم، ولا يكون لـــه نــور كلمة: "لا إله إلا الله" لينجو بها، ولا يستحق شفاعة محمد رسول الله. ولا يكــون الخلود الأبدي لغير هذا الشخص كما قال تعالى: "لا يصلاها[1] إلا الأشقى الــذي كذب وتولى"[2]. والمؤمن سيرد عليها لقوله: "وإن منكم إلا واردها كان علــى ربك حتماً مقضياً"[3]، ولكن لن يصلاها، ويصلاها الأشقى لقولــه تعــالى: "لا يصلاها إلا الأشقى"، ويقول في موضوع آخر: "سيصلى نارا ذات لهب"[4].

ولكل طائفة من أهل الفسق والعصيان والكفر والخذلان لأن مقام ومرجـع ومعاد مناسب لسلوكهم في جهنم ودركاتها حسب اختلافها. وقد قــال الرسـول عليه السلام إن عذاب جهنم لأقل شخص بألا يكون أكثر من باطن قدمــه فـي النار، ولكن مخ رأسه يغلي من قوة النار. وقال تعالى في حـق المنـافقين: "إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار"[5].

ويختلف الكفر عن الكفر والنفاق عن النفاق، ولكل منها طريــق معيـن ومعاد واضح. فهناك الكافرون المحققون وغيرهم الكافرون بالتقليد مثلهم كمثـل أهل الإيمان إذ أنهم مقلدون ومحققون أيضاً، وكما أنه يفضل الإيمــان المحقـق على الإيمان المقلد فإنه يزداد عذاب الكافر المحقق عن عقاب الكافر المقلد.

(١) الصلى: الاحتراق بالنار (الناشر).
(٢) سورة الليل: آية ١٥-١٦.
(٣) سورة مريم: آية ٧١.
(٤) سورة المسد: آية ٣.
(٥) سورة النساء: آية ١٤٥.

فالكفر بالتقليد هو ما نقلوه بالتقليد عن الوالدين لقوله تعالى: "إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون"(١). وهو ما رأوه وسمعوه عن أهل المدينة والولاية والوالدين وأخذوه بالتقليد عن الأديان المختلفة، فخلدوا فيه بالخذلان، فكانوا في الدرك الأول (الأسفل) من جهنم.

والكفر بالتحقيق هو ما أدركوه عن الوالدين فلم يقتنعوا به وتعبوا منه وشقوا به فيطلبون الدليل ويقضون عمرهم في تحصيل علوم الكفر ويقرأون الكتب للتفكر في الأدلة والبراهين العقلية، حتى يقعوا في الشبهات التي بها ينفون الصانع أو يثبتون الصانع ناقصاً، لأنهم يقولون إنه ليس مختاراً، وهو ليس في جزئيات العالم، وخالق العالم ليس مبدعاً وموجداً، ولكنه موجب ومؤثر، والدنيا أثره، وتقدم المؤثر على الأثر ليس تقدماً زمنياً. ويريدون بهذا أن العالم قديم ولا يقبل البقاء والفناء، كما يقولون إن الحق تعالى غير قادر على إفنائه وعاجز عن خلق عالم آخر: "تعالى الله عما يقول الظالمون". والشيطان يزين لهم مثل هذا الكفر، فيوهم أنفسهم غروراً أن في هذا المعنى كمال المعرفة والحكمة. وكل شخص ليس على هذا الاعتقاد هو من أهل التقليد والضلال، وقد وقع بالتقليد مع المربين المعلمين أي الأنبياء عليهم السلام.

ويقولون إن الأنبياء كانوا حكماء؛ وكل ما قالوه إنما قالوه بالحكمة، ولكنهم تحدثوا للجهلاء على قدر حوصلتهم وفهمهم. وهكذا قالوا لهم إننا رسل الله وجبريل ينزل علينا وأنزل علينا الكتاب من الله، وأن الكتب كانت من تأليفهم. وقد وضع الأنبياء أحكام الشرع لمصلحة معاش الخلق طبقاً لقانون الحكمة. وكل

---

(١) سورة الزخرف: آية ٢٣.

ما قالوه للخلق كان رمزاً لما فعلوه، وأرادوا بذلك معنى آخر: كان جبريل عبارة عن العقل الفعال، وميكائيل عبارة عن العقل المستفاد الذي كانوا يتخذونه من فيض العقل الكلي ويستفيدون المعاني المعقولة ويخبرون النفس المدركة والنفس الناطقة.

وهم أيضاً على هذه الشاكلة يثيرون الخيالات الفاسدة والأوهام والشبهات، ويقبلون إثارة الآخرين، لأنه موافق لهوى النفس، ونفسهم في الأصل جبلة الكافر لقوله: "**إن النفس لأمارة بالسوء**"[1]. وعندما يستمع إلى هذه الشبهات كاملة بالأدلة والبراهين غير الواقعية، فإنها تتعلق بروحه وقلبه، مثلما يظهر الإقرار بهذا الكفر ويزداد في النفس الإنكار للدين والشرع. وأن الإقرار بالكفر وإنكار الدين هما قدمان للنفس ليصل بهما إلى نهاية أسفل سافلين النار لقوله: (**خطوتان وقد وصلت إلى سقر**).

وقد انتشرت هذه الآفة اليوم بين المسلمين، وما أكثر الجهلاء الذين شغلوا أنفسهم بتحصيل أنواع هذه العلوم وسموه علم أصول الدين حتى لا يقف شخص على خبث عقيدتهم وفسق معاملتهم. وما أكثر العلماء الذين يتبعون علوم الدين أو نور الفيض من عالم اليقين، ويسعون لطلب هذا العلم ويقومون بالأسفار ويلتقون بالفلاسفة بالمصادقة السيئة وخذلان الحق، فيقدمون لهم ذلك النوع من العلوم: وبالتدريج يزينون لهم ذلك الكفر، ويزينون في قلوبهم تحصيل ذلك العلم والاعتقاد في هذا الكفر والضلال الذي يسمى الحكمة والأصول، فيتعلق به أولئك المساكين غير المحنكين والغافلين عن حقائق ومقامات أهل اليقين وتغتر به

(١) سورة يوسف: آية ٥٣.

أنفسهم قائلين إننا مخفقون، وتخلصنا من التقليد، وهؤلاء سيكونون محققين، لكن في الكفر، ويتخلصون من التقليد، لكن من تقليد الإيمان.

وكل عاصٍ مسكين يصاحب واحداً منهم، يظهر في إيمانه ألف نوع من الشك والشبهة والنقصان والخلل من نفثاتهم وأنفاسهم المؤذية، وما أكثر ما تكون أنفاسهم مستعدة لذلك، ويقبلون ذلك الكفر بالتقليد، فيخرجون من دائرة الإسلام بالكلية، وينتشر شؤم ذلك الاعتقاد السيء بين الآخرين، مثلما يظهر بعير أجرب بين الإبل، فيصاب الآخرون بالجرب. ولا يتعلق ألم الدين بتلابيب الروح لأي ملك حتى يسعى لدفع هذه الآفة أو يجبر ذلك الخلل. وانتشرت هذه الآفة واشتدت كثيراً جداً خلال العشرين سنة الحالية[1]، وإلا لما كان شخص من هذه الطائفة في عهد السلف يجرؤ أن يفشي هذا المعنى، إذ كانوا يخفون كفرهم لأن الدين كان فيه الكثير من الأئمة المتقين، وكان الملوك الراعون للدين يحفظونه من هذه الآفات.

وفي هذا العهد قل الأئمة المتقون الذين يحزنون للدين ويعرضون مثل هذه الآفات في حضرة الملوك حتى يعملوا على جبرها. ولا جرم، فالخوف أن يغرب الدين بسبب هذا القيل والقال الذي لاكته بعض الأفواه ويعم العالم الكفر بالقال والقيل، وتختفي حقيقة الإسلام في القلوب إلا ما شاء الله ويختفي أيضاً ذكرها على اللسان لأن الحق تعالى أرسل قهره وغضبه بشؤم مثل هذه الأحوال في صورة كفار التتار حتى تختفي هذه الصورة السيئة التي ظهرت في الإسلام الحقيقي. أتعتقد إلى أين سيصل هذا الأمر؟: وعلى الفور فقد زادت حيلة ومكر وسيطرة هؤلاء الملاعين كل يوم، كما زادت غفلة أهل الإسلام ومعصيتهم، إذ

(١) هذه كلمات المؤلف نجم داية في القرن السادس الهجري. (المترجم).

أن بذرة هذه المفسدة جاءت في قوله تعالى: "ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس"[1].

إن الشراب المر ما زال باقياً في الكأس
فإلى أين تصل نهاية الأمر الآن.

(الحكم لله إنا لله رضينا بقضاء الله). والنفاق متفاوت أيضاً، وهو نفاق في الإسلام، ونفاق في الكفر.

أما النفاق في الإسلام، فهو ما أخبر عنه الرسول عليه السلام: **(ثلاث من كن فيه فهو منافق ومن كانت فيه خصلة منها ففيه خصلة من النفاق حتى يدعها وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: إذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان)**، وفي رواية أخرى أنه جعل للنفاق خصلتان أخريان: **(وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر)**.

وهذه المعاملات من نفاق أهل الإسلام، وفي الحقيقة فإن في هذا الحديث تهديد ووعيد لجميع أهل الإسلام، لأن قليلاً من الناس من ينجو من هذه الخصال. وكان الرسول عليه السلام يقول في الدعاء: **(اللهم أني أعوذ بك من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق)**، والواجب علينا أن نكرر هذا الدعاء دائماً.

وأما النفاق في الكفر فهو ما ينهجه الفلاسفة والدهريون والطبيعيون والتناسخيون والحلوليون والإباحيون والإسماعيلية، فحيث يكونون بين أهل

(١) سورة الروم: آية ٤١.

الإسلام يقولون إننا مسلمون. واعتقادهم هو ذلك الكفر والشبهات التي ظهرت، فحين يلتقون بأبناء جنسهم يفصحون عن اعتقادهم ويقولون إننا نستهزئ بهؤلاء المقلدين. ويقول الحق تعالى عن أحوالهم: "**وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون**"(١). وكل كافر يخفي الكفر ويدعي الإسلام باللسان فهو من هؤلاء جميعاً. ومرجع ومعاد الكفار هو ما قاله عنهم الحق: "**إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا**"(٢):

يا من أنت قبلة كل من أقبل إلى محلتك
إن اتجاه قلوب عشاق العالم نحوك
إن الشخص الذي يشيح بوجهه اليوم عنك
فبأي عين يمكن، يوم القيامة، أن يلقاك.

فمن الذي يدرك قدر سعادة الإسلام ومن يمكنه تأدية شكر نعمة الإيمان؟:

لو تصبح جميع الشعور لساناً
ويصير كل لسان مائة ألف روح
حتى يكثر بها شكر الحق
حين يحلو شكر توفيق الله.

---

(١) سورة البقرة: آية ١٤-١٥.
(٢) سورة النساء: آية ١٤٥.

ومع الآلاف العديدة من الآفات التي وضعت في طريق آدم، فما أكثر أنواع البلاء التي ابتلي بها!. وإذا لم تنظره عناية الحق وترشده، فكيف يتخلص من شبكة الدنيا المزدانة لقوله: "زين للناس حب الشهوات من النساء"(١)، وهي مقيدة بالقيود المحكمة بقوله: "حب الشهوات"؟، خصوصاً كل هذه الشبكة المنثورة بالسبعة حبوب: "من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث"(٢)، ولو كان هناك نوع من هذه الأنواع السبعة للبذرة لصارت النفس البهيمية طائراً آكلا للحب.

وقد مُنع آدم عليه السلام كثيراً من تناول حبة واحدة رغم كل ذلك الشرف والمرتبة: "ولا تقربا هذه الشجرة"(٣)، وحين لم يحالفه التوفيق وقع في شبكة العصيان والنسيان:"وعصى آدم ربه فغوى"(٤)، وحين أفاق لنفسه كانت صفته: "وعصى آدم"، وحين كرمه بلطفه صارت سمته: "اصطفى آدم"، وكانت الجنة مرتعه: "ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم"(٥) وحين لم يحالف التوفيق آدم صار مرتعه شبكة إبليس، فكان إبليس يقتنص صيدين بحبة واحدة: "فأزلهما الشيطان"(٦) وكانت الدنيا هي الشبكة حينما حالف التوفيق آدم، إذا صارت له مرتعاً، حيث كان يصل بكلمة: "ربنا ظلمنا أنفسنا"(٧)، على أمل "ثم اجتباه"(٨). ووصل مدد اللطف قليلاً طوال ساعة إلى آدم فبقي في ذلك لحظة، وحين بلغه مدد اللطف لم يمكث في تلك الشبكة. ويقول الشيخ مجد الدين:

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٤.
(٢) سورة آل عمران: آية ١٤.
(٣) سورة البقرة: آية ٣٥ ، وسورة الأعراف: آية ١٩.
(٤) سورة طه: آية ١٢١.
(٥) سورة فصلت: آية ٣١.
(٦) سورة البقرة: آية ٣٦.
(٧) سورة الأعراف: آية ٢٣.
(٨) سورة طه: آية ١٢٢.

لم يقنط عبد قط من لطفك
ولم يصبح خائداً بقبولك سوى المقبل
فأية ذرة تعلق لطفك بها لحظة
فإنها لم تصبح أفضل من ألف شمس[1].

وفي الحقيقة فإن كل السلاسل والأغلال التي جعلت للشقي والأشقى في هذه الشبكة كانت بذرة من هذه الأمتعة السبعة: "**ذلك متاع الحياة الدنيا**"[2]، وكل درك من دركات جهنم جعل لهذه الطائفة، فكان رأسماله من دكان: "**زين للناس حب الشهوات**"[3]، وقد فتحت لهذه الشهوات السبع أبواب سبعة في جنهم لقوله: "**لها سبعة أبواب**"[4]، وقد وضع على دركاتها سبعة أنواع من أنواع الشهوات لقوله (صلى الله عليه وسلم): (**حفت النار بالشهوات**)، وزرعت بذرة هذه الشهوات السبعة في سبعة أعضاء للإنسان، وخلقت الحواس الخمس لتربيتها حتى ظهرت ثمرة الشهوة على شجرة كل بذرة في مدة خمسة عشر عاماً، وبعد ذلك أرسل لصاحب الشرع في معاملتها، وجعل الخراج في السجود لكل عضو: (**أمرت أن أسجد على سبعة آراب**)، وقال بأن يجهزوا بذرة سعادة الآخرة بأثمار تلك الأشجار، وأن يلقوا بيد الشريعة في أرض العبودية لقوله (صلى الله عليه وسلم): (**الدنيا مزرعة الآخرة**):

---

(١) هذه الرباعية لمجد الدين البغدادي: منوچهر محسني: تحقيق در أحوال وآثار نجم الدين كبرى أويسي: ص٨٥.

(٢) سورة آل عمران: آية ١٤.

(٣) سورة آل عمران: آية ١٤

(٤) سورة الحجر: آية ٤٤.

حتى يكون قصرك في حديقة الزراع
فاجتهد في العطاء والسخاء لأن هذا شأنه
فاليوم في زراعة البذرة وغداً في حصادها
لأن هذه المزرعة[1] هي محلة الزراع.

والعاطفة الجلالية والعناية الأزلية أوصلت الطائفة من بداية الفكرة صوب الدرجات بجذبة: "وسيق الذين اتقوا"[2] على جادة: "وأما من خاف مقام ربه"[3] وبقدم: "ونهى النفس عن الهوى"[4] إلى معاد: "فإن الجنة هي المأوى"[5]. أما العزة المتعالية، فقد أسرعت بالطائفة أيضاً بسطوة اللا مبالاة من مبدأ الخلق إلى ناحية الدركات بسوط قهر: "وسيق الذين كفروا"[6] على جادة: "فأما من طغى"[7] بقدم: "وآثر الحياة الدنيا"[8] إلى معاد: "فإن الجحيم هي المأوى"[9] حيث قال: (هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي).

(١) المزرعة: هنا يعني بها الدنيا. (المترجم).
(٢) سورة الزمر: آية ٧٣.
(٣) سورة النازعات: آية ٤٠.
(٤) سورة النازعات: آية ٤٠.
(٥) سورة النازعات: آية ٤١.
(٦) سورة الزمر: آية ٧١.
(٧) سورة النازعات: آية ٣٧.
(٨) سورة النازعات: آية ٣٨.
(٩) سورة النازعات: آية ٣٩.

وإذا لم تتعلق العناية الأبدية بتلابيب الروح فكيف يمكن خلاصها من جذبة القهر وسلاسل المكر، وكيف يمكنها بأية قوة وقدرة تحطيم قيد طلسماتها العظمى؟:

يجب الاستغناء عن النفس
ويجب التخلص من الروح والجسد
ففي كل خطوة آلاف القيود الكثيرة
ولذا يجب تحطيم القيد بحرارة العشق هذه.

ويلزم لتفكير الملوك سوداء وقوة تمني السلوك، ولا يخرج فتح هذا الباب الأعظم وهذا الأمر المعظم عن يد وقدم كل عاجز مسكين. ولو أمكنه التخلص من تصرف تلبيس إبليس، وإذا استطاع أن يكتسي من هذه الدنيا بلباس الإسلام وكسوة الإيمان، فهذا هو التوفيق الكامل والسعادة الدائمة: اللهم اختم لنا بخاتمة الإسلام:

إذا أنت لم تطفئ سراج حياتي في يومي الأخير
فإنني أهب الروح بسعادة وجذل
ولو لم تكشف عني رداء الإسلام
فيالها من سعادة إن كان الموت على الإسلام.

وولكنما هي الحكمة في الإماتة بعد الحياة، وفي الحياة بعد الموت؟. وحتى الجواب عليهما يقوله الموله الغافل والضال العاطل[1]:

(١) يعني به الشاعر عمر الخيام. (المترجم).

إن المليك عندما زين التركيب بالطبائع
فلأي سبب إذن أوقعها في الإقلال والنقصان؟
فإذا جاءت قبيحة، فلمن تكون هذه الصور المعيبة؟
وإذا كانت جميلة فلماذا يخربها؟.

اعلم أن للآدمي خمس حالات:

الأولى: حالة العدم: كما قال تعالى: "**هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا**"(١)، يعني أنه كان للإنسان في كتم العدم علم بوجوده في علم الحق، ولم يكن له شعور بوجوده، ولم يكن له ذاكر ولا مذكور لوجوده.

الثانية: حالة الوجود في عالم الأرواح: كما قال الرسول عليه السلام: "**الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف**". يعني حين وصلت من كتم العدم إلى عالم الأرواح، وظهر لها شعور بذاتها، صار ذلك ذاكرها ومذكورها.

الثالثة: حالة تعلق الروح بالقالب: كما قال تعالى: "**ونفخت فيه من روحي**"(٢)

الرابعة: حالة مفارقة الروح عن القالب كقوله تعالى: "**كل نفس ذائقة الموت**"(٣).

---

(١) سورة الإنسان: آية ١.

(٢) سورة ص: آية ٧٢.

(٣) سورة آل عمران: آية ١٨٥ ، وسورة الأنبياء: آية ٣٥.

الخامسة: حالة إعادة الروح إلى القالب كما قال: "سنعيدها سيرتها الأولى"[1]، وقال: "يحييها الذي أنشأها أول مرة"[2].

وهذه الحالات الخمس تلزم للإنسان بالضرورة حتى يصل بكماله لمعرفة الذات والصفات الإلهية، وتلك هي الحكمة الربانية التي تحصل في خلق الموجودات: "**كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف**".

الأولى: حالة العدم: لازمة حتى أنه حين يظهر له وجود حادث في عالم الأرواح، ويشعر بوجوده فيصير عالماً بحدوثه ويدرك بالمعرفة أزلية صانعه.

الثانية: حالة الوجود في عالم الأرواح: ضرورية حتى أنه قبل أن ينزل إلى عالم الأجساد يجد ذوق الشهود في صفاء الروحانية بلا واسطة ويصير مستفيض الفيض بلا حجاب ويستحق استماع خطاب: "ألست بربكم"، ويستعيد سعادة: "بلى". ولكن حينما أدرك سعادة المكالمة دون واسطة، فقد أدرك حضرة العزة بالربوبية، ويعرفه بصفات المريدي والمتكلم والحي والبصير والعالم والقادر والباقي، وهي صفات الذات. وإذا لم يكن له وجود في عالم الأرواح فلن يستطيع أن يحصل على المعرفة الحقيقية لتلك الصفات قبل أن يتعلق بالأجساد؛ وما كان له ذلك الاستحقاق حتى يصل مرة أخرى إلى صفاء الروحانية بالتربية لعالم الأجسام، كي يحصل على مقام مكالمة الحق.

(١) سورة طه: آية ٢١.
(٢) سورة يس: آية ٧٩.

الثالثة: حالة تعلق الروح بالقلب: وتلزم ليكتسب آلات كمالات المعرفة حتى يمكن أن يقف بها على جزئيات وكليات الغيب والشهادة ويمكنه في هذه الحالة أن يعرف الحق بصفة الرزاق والرحمن والرحيم والغفار والستار والمنعم والمحيي والوهاب والتواب، كما يمكنه الوصول إلى المقامات في تربية الروح بالمعرفة بمدد هذه الآلات التي بدونها ما كان يمكنه الحصول على المعرفة في عالم الأرواح من المشاهدات والمكاشفات والعلوم اللدنية وأنواع التجليات وتصرفات الجذبات والوصول إلى حضرة الألوهية وأصناف المعارف التي لا يحصيها بيان.

الرابعة: حالة مفارقة الروح للقالب، وهي ضرورية لسببين:

الأول: لتزيل تلوث الروح الذي حصل من صحبة الأجساد والأجسام بمفارقتها بالتدريج، وتترك الأنس والألفة اللذين حصلا للجسمانيات على مر الزمن وتعود إلى صفاء الروحانية مرة أخرى، وتتمتع بالمعرفة والقرب من حضرة العزة ـ دون شوائب البشرية وكدورة الخلقية ـ بالصفات التي حصلت لها من آلة القالب دون إرهاقه.

الثاني: لأنه يحصل له ذوق آخر من المعارف الغيبية بواسطة الآلات المكتسبة القالبية في حالة اللا قالب لأنه لا يوجد هذا الذوق في عالم الأرواح حيث أن الآلة لا تدركه، ولا يوجد في عالم الأجساد والأجسام لأن ما كان يجده كان يحصل عليه من خلف حجاب القالب، والآن يدركه دون تعب القالب.

والشخص الإنساني على مثال الشجرة، وبذرة تلك الشجرة هي الروح المحمدية المقدسة صلى الله عليه وسلم لقوله: "**أول ما خلق الله روحي**"، وكما أنه في البداية تمتد جذور الشجرة من البذرة في الأرض، فعندئذ تظهر الشجرة على سطح الأرض، ثم تظهر الثمرة على الشجرة. وهكذا ظهرت جذور أرواح الملكوت من بذرة الروح المحمدية، ثم ظهرت من هذه الجذور شجرة الجسديات والجسمانيات على سطح أرض العالم المحسوس، ونبتت أوراق الحيوانات من شجرة الجسمانيات، ثم ظهرت ثمرة الإنسانية على غصن شجرة الكائنات.

وحين تكون الثمرة على الشجرة فإنها تعطي ذوقاً آخر مثل العنب والمشمش، وحين تقطفها من الشجرة وتتركها مدة في الشمس حتى يصير العنب زبيباً بتصرف وتأثير الشمس وينضج المشمش، فإنها تعطي مذاقاً آخر، مع أنها كانت تجد تأثير الشمس وهي على الشجرة. ولكن ما دامت قد رسخت في طينة الشجرة فإن من خاصية طينة تلك الشجرة أنها كانت قد حصلت على شيء بتأثير الشمس، وبقيت رطوبة وحموضة في ذلك العنب والمشمش. والآن، وقد قطع عنها تصرف الشجرة، فإن الزبيب والمشمش يعطي حلاوة أخرى لأنها وجدت تربية الشمس بلا تعب الشجرة. وفي البدء فإن العنب محتاج إلى الشجرة في التربية، ولو لم تكن الشجرة، لم يكن ليظهر العنب بمجرد تربية الشمس. وحين نضج العنب فلن يصل إلى مقام الزبيب فوق الشجرة، وهنا يلزم جني العنب والمشمش من الشجرة وتربيتها في الشمس المجردة حتى يحلو الزبيب، وينضج المشمش.

وهكذا فالروح تحتاج في البدء إلى تربية الثمرة من شجرة القالب، وحين تصل إلى كمال الثمرة، فدائماً تكون قدمها في طينة شجرة القالب؛ مع أنها كانت تجد المدد من نظر شمس عناية الحق، ولكن في كل وقت كان يظهر غمامة سحاب من خاصية طينة شجرة القالب لقوله: "**إنه ليغان على قلبي**"، وكانت تجد ذوقاً من معارف الغيب، ولذا لم تكن دون حموضة ورطوبة صفات القالب.

وبعد هذا يجب أن تفارق ثمرةُ العمل الروحَ عن شجرة القالب حتى تجد على الفور تأثير شمس النظر الإلهي دون واسطة مزاحمة طينة القالب، ولو أنها ما وصلت في البداية إلى كمال درجة الإنسانية فما كانت قد بلغت قبول تصرف تلك النظرات في عالم الأرواح، وما عرفت الحق بصفة المميت لأنه لا يمكنه أن يصبح عارفاً حقيقياً بغير الموت الصوري. وفي هذا أسرار ودقائق كثيرة لا تفي الكتب بشرحها.

الخامسة: حالة إعادة الروح إلى القالب: واجبة، ولذلك السبب فإن كمال القالب الإنساني يتصرف بالخلافة الإلهية في جميع ممالك الغيب والشهادة في الدنيا والآخرة، ويتمتع بالكمال من أنواع النعم التي خلقت له في كلا العالمين لقوله: "**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**". وهذه التنعمات بعضها روحاني وبعضها جسماني. ذلك أنه لا يمكن التصرف والإفادة من التنعمات الجسمانية إلا بواسطة الآلات الجسمانية، ثم يحشر القالب

الجسماني الدنيوي الفاني في نوع آخر نوراني باقٍ، لقوله: "**يوم تبدل الأرض غير الأرض**"(١). ومع أن القالب يكون هكذا، إلا أنه لا يكون بالصفة الدنيوية. وقد خلق القالب الدنيوي من أربعة عناصر هي التراب والماء والرياح والنار، ولكن غلب عليه الماء والطين لقوله تعالى: "**من طين لازب**"(٢) وكلاهما محسوس كثيف وتدركها حاسة البصر. أما الرياح والنار فكلاهما لطيف وغير محسوس ولا تدركهما حاسة البصر، وهي مسيطرة ومتمكنة في القالب.

ويخلق هذا القالب في الآخرة ــ وهي عالم اللطافة ــ من هذه العناصر الأربعة، ولكن تتغلب فيه الرياح والنار وكلاهما لطيف، ويغلبا الطين والماء وكلاهما يتمكن ويتضمن حتى يكونا في غاية اللطافة لأن النور، المتمكن في قلب المؤمن اليوم، يغلب على صورته لقوله تعالى: "**يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم**"(٣)، وعلى هذا المعنى تكون إشارة: "**يوم تبيض وجوه وتسود وجوه**"(٤).

وحين يكون القالب لطيفاً ونورانيًا، فإنه لا يرهق الروح، لأن كل ما كان قد تولد من ذلك التعب والإرهاق، فقد تخلص منه بتصرف: "ونزعنا ما في صدورهم من غل"(٥). وهكذا فقد استخرج الماس من جوهر ماس التراب والكدورة، وصار شفافاً وصافياً حتى صار الظاهر والباطن لوناً واحداً ويمكن

---

(١) سورة إبراهيم: آية ٤٨.

(٢) سورة الصافات: آية ١١.

(٣) سورة الحديد: آية ١٢.

(٤) سورة آل عمران: آية ١٠٦.

(٥) سورة الأعراف: آية ٤٣ ، وسورة الحجر: آية ٤٧.

رؤية باطنه من ظاهره، كما يمكن رؤية ظاهره من باطنه. وقوله تعالى: "يوم تبلى السرائر"(١) إشارة لهذا المعنى، حتى يظهر ما في البواطن على الظاهر، حيث قد صفيت الكدورة:

رق الزجاج ورقت الخمر فتشابها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

ويرد في الحديث أنه يمكن رؤية المخ في عظام أهل الجنة لشدة اللطافة، ثم يحشر القالب، بهذه اللطافة حتى يستوفى حظه من نعيم الجنة، ولا يتولد منها أي كدورة يمكنها أن تزاحم الروح، ولا يمكن أن يصير عارفاً حقيقياً بغير إحياء صور بصفة المحيي الحق لقوله تعالى: "قل يحييها الذي أنشأها أول مرة"(٢).

وبعد ذلك لقيت الروح التربية بالكمال في صحبة القالب واكتملت آلات المعرفة وفارقت القالب، وتربت مدة في عالم الغيب بفيض نظر العناية، وانمحت عنها الآلات الجسمانية بالتدريج، ونالت الأرزاق من فيض الحق دون واسطة لقوله تعالى: "يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله"(٣)، ونالت قوة كاملة ثم أرسلت إلى عالم القالب. وما دامت تتصرف بملكيتها في كل الممالك بواسطة تلك الآلات الجسمانية، وتستوفي حظها الوافر من التنعمات الروحانية في مقام اللا واسطة دون إرهاق الآلات الجسمانية، وتدرك ذوق كمال المعرفة والقرب

(١) سورة الطارق: آية ٩.
(٢) سورة يس: آية ٧٩.
(٣) سورة آل عمران: آية ١٦٩-١٧٠.

في مقام العندية: "**في مقعد صدق عند مليك مقتدر**"[1]، فهكذا ليس لروح الجسم شاغل عن أمرها، وليس لجسم الروح شاغل عن أمره: "**لا يشغله شأن عن شأن**". ولا جرم أن كان عنوان رسالة الحق إليه هو: "**من الملك الحي الذي لا يموت إلى الملك الحي الذي لا يموت**".

والفرق بين العبودية والألوهية هو أنه سبحانه وتعالى متصرف في هذه الممالك باستقلال وأبدية، وليس في احتياج إلى الآلة، والعبد متصرف بالنيابة والخلافة بواسطة الآلات، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

وهذا قدر كاف من الإشارة، والباقي أسرار إلهيه لا يجوز إفشاؤها حسب القول: "**إفشاء سر الربوبية كفر، عرفها من عرفها وجهلها من جهلها**".

وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين.

(١) سورة القمر: آية ٥٥.

الباب الخامس

في بيان سلوك الطوائف المختلفة

وهو يشتمل على ثمانية فصول تبركا بقوله تعالى:

"ثمانية أزواج"[1]

---

(١) سورة الأنعام: آية ١٤٣ ، وسورة الزمر: آية ٦..

الفصل الأول

في بيان سلوك الملوك وأولى الأمر

الفصل الأول

في بيان سلوك الملوك وأولي الأمر

قال الله تعالى.. "يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب"(١).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم".

أعلم أن السلطنة والخلافة هي نيابة الحق تعالى في الأرض. ويقول الرسول عليه السلام إن السلطان ظل الله، وهذا يعني الخلافة، لأنه في عالم المادة حين يكون شخص في أعلى سقف المنزل يقع ظله على الأرض، وظله هذا خليفته لذاته في الأرض. وهذا الظل ينسب لهذا الشخص، فيقولون ظل فلان. وكل ما يكون في ذات ذلك الشخص وصفاته، يظهر أثره في انعكاس ظله وهذا سر كبير، وهو إشارة لهذا المعنى: "إن الله تعالى خلق آدم على صورته".

وحين أودع الحق تعالى في ظل الهُما(٢) ـ وهو طائر ـ سراً من أسرار لطفه، انظر أي أثر له؟، وأي خاصية ظهرت له بحيث إذا وقع ظله على شخص، فإن ذلك الشخص ينال عزة السلطنة وسعادة المملكة؟. وحين يخص

---

(١) سورة ص: آية ٢٦.

(٢) الهُما : طائر خرافى-غير العنقاء- يقال إنه من سقط ظله عليه صار ملكاً. ومنها اشتق كلمة همايون فى الفارسية، وهى صفة لاتزال تسبق أسماء الملوك فى إيران. (المترجم).

الحق تعالى عبداً بكمال عاطفته، ويخصه بعناية الظل الإلهي، ويسعده بسعادة القبول لصورة الذات والصفات الإلهية، فانظر. **ما هي السعادة والإقبال والعزة والكرامة التي يضعها في تلك الذات المشرفة والجوهر المكرم؟، وما هي الخاصية التي تكمن في تلك الذات الشريفة والجوهرة اللطيفة حتى ترعى كل مستحق وغير مستحق بنظر العناية، فتصير مقبلاً بالنسبة لجميع الدنيا ومقبولاتها؟ وكل ما تنظره بنظر القهر، يصيرمُدْبرا ومردوداً من جميع العالم؟.** وقد قيل إن أحد الملوك السابقين قال: "**نحن الزمان من رفعناه ارتفع، ومن وضعناه اتضع**"، وهذا كلام معنوي، ولكن رأيه لم يكن كاملاً إذ كان يعظم نفسه بالقول: "**نحن الزمان**"، بدلاً من أن يقول: "**نحن خلفاء الرحمن**".

أما الملوك فهم طائفتان: ملوك الدنيا وملوك الدين:

أما ملوك الدنيا، فهم صورة صفات اللطف والقهر الإلهي، ولكنهم مقيدون بصورتهم ومحرومون من معرفة صفاتهم، ويتضح لهم صفات اللطف والقهر الإلهي، ولكن لا تظهر عليهم، فيكونون كالحسناء غير المدركة لجمالها، ويتمتع الآخرون بحسنها:

إنه لجميل عشق الحسناء
التي ليس لديها علم بجمالها.

أما ملوك الدين، فهم الصورة والمظهر لصفات اللطف والقهر الإلهي، وقد فتحوا الطلسم الأعظم للصورة، لمفتاح الشريعة بواسطة الطريقة، وشاهدوا بعين الحقيقة خزائن الأحوال والصفات ودفائنها ـ التي كانت مكنونة في أساس حقيقتهم ومخزونة فيها ـ ووصلوا إلى سر كنز: "**من عرف نفسه فقد عرف**

ربه"، وتملكوا على عرش مملكة الخلافة الأبدية وسرير السلطنة السرمدية لقوله تعالى: "وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيرا"[1]، وكالقول: "**إن لله ملوكاً تحت أطمار**"، فما السلطان بالنسبة لهم وما البواب الحارس؟؛ وما الخاقان وما الدهقان بالنسبة لهم؟؛ فبالرغم من أنهم مُسخرون تحت الأسمال، إلا أنهم ذووا قلوب حية مشرقة:

ماذا يفعل السلطان في ملك مرتدي الأسمال؟
وماذا يعمل الخاقان في محفل أولئك الذين يشربون الثمالة؟
وأي معرفة لروح العشاق المحزونين؟
وأي نفع للسرج على رقبة المسيح؟

ويسدلون ستائر همتهم من سفر: "غدوها شهر ورواحها شهر"[2]، لأنهم يطوفون حول ممالك العالمين في لحظة واحدة:

حيث أن كل مدينة من إقطاعيتي
فحيثما أذهب سواء كانت في إيران أو في توران
فإني أملك مئات الآلاف من العبيد في ضميري
فحيثما أريد سأمضي كالسلطان

(١) سورة الإنسان: آية ٢٠.
(٢) سورة سبأ: آية ١٢.

ولكن السعادة العظمى والحظ الوافر هو أن يكرم صاحب الهمة بسلطنة مملكة الدين والدنيا حتى يصير بالخلافة متصرف كلا المملكتين لقوله تعالى: "وإن لنا للآخرة والأولى"[١]، مثلما كرم موسى عليه السلام بهذه المرتبة لقوله تعالى: "**يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب**"[٢]. وقد جعل حضرة الجليل في هذه الآية عشرة أحكام ثابتة، وأوضح أمره للملوك في قوانين الملك وإرساء الحكم وآداب السلطنة وقانون العدل:

الأول:قوله تعالى: "**يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض**". وهذا إشارة إلى أنه يجب على الملك أن يعرف أن المملكة عطاء الحق أو جعلت المملكة نصيبه لقوله تعالى: "**تؤتي الملك من تشاء**"[٣].

الثاني: هو أن يكون الملك مدركاً لهذه الإشارة: إننا أعطيناك الملك، فيعرف أنه أخذ من شخص آخر، وأعطى لك، وسيؤخذ منك يوماً ما ويعطي لآخر لقوله تعالى: "**وتنزع الملك ممن تشاء**"[٤]، فعليه أن يجتهد بأن ينال، بهذا الملك الزائف الفاني، الملك الحقيقي الباقي، ولا يحرم من الذكر الجميل والثواب الجزيل.

---

(١) سورة الليل: آية ١٣.
(٢) سورة ص: آية ٢٦.
(٣) سورة آل عمران: آية ٢٦.
(٤) سورة آلة عمران: آية ٢٦.

الثالث: هو أن يعرف أن الملك خلافة الحق، حتى يتصرف في خلق الله بالأخلاق والألطاف الإلهية.

الرابع: قوله تعالى: "فاحكم بين الناس بالحق"[١]. وهذا إشارة إلى أن الملك يجب عليه أن يرسي قواعد الحكم بين الرعايا بنفسه ولا يوكل أحكام الرعية إلى غيره قدر ما يستطيع لأن نواب الحضرة وأمراء الدولة لا يمكن أن يقدموا للرعايا هذا العطف والرأفة والرحمة التي للملك، لأن الرحمة والشفقة التي لخمسة أفراد لا تكون لمجموعة مماثلة من غيرهم، وتلك رحمة الله بالعبد وشفاعة النبي للأمة وشفقة الملك على الرعية وحب الأم للابن وغيرة الشيخ علي المريد.

الخامس: قال له أن يحكم بالحق، أي يسير بالصدق والعدل ولا يميل إلى الجور والظلم.

السادس: هو أنه حين يحكم بالحق فإنه يقيم أمر الحق، وليس بهوى النفس والدنيا والخلق. ولو يقيم العدل ولا يسير بالطبع فهو ينتهج الشرع، ويفعله من أجل الحق وليس من أجل الخلق.

السابع: قال تعالى: "**ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله**"[٢] أي لا تسير مع الهوى، لأن كل شخص يتبع الهوى، فلن يستطيع أن يسير بشريعة الله في ممالكه، ولأنه حين يغلب الهوى على الشخص، فإن الهوى يصير مسيطراً في أوامره ونواهيه، والهوى جميعه يأمر بمخالفة الحق، ولن يظهر شيء

(١) سورة ص: آية ٢٦.

(٢) سورة ص: آية ٢٦.

قط مضاد لتلك الحضرة، ولم يدّع الألوهية إلا للهوى كما قال تعالى: "أفرأيت من اتخذ إلهه هواه"[1]، وإذا كان فرعون قد ادعى الألوهية، فإنه ادعاها بهواه، وإذا كان بنو إسرائيل عبدوا العجل، فإنهم عبدوه بالهوى. ولو أن جماعة اتخذوا الأصنام بالألوهية، فإنهم اتخذوها بالهوى، وقد قال الرسول عليه السلام: "**ما عبد إله أبغض إلى الله من الهوى**"، وفي الحقيقة فإن الهوى مثير للحق:

يا من أهواؤك مثيرة للحق

ويا من آلهتك منفرة للحق[2]

الثامن: أوضح أن متابعة الهوى هو الضلال عن طريق الله لقوله تعالى: "**فيضلك عن سبيل الله**"، ومخالفة الهوى هو السير في طريق الحق لقوله تعالى: "**وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هي المأوى**"[3].

التاسع: قال تعالى: "**إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب**"[4]، وهذا إشارة إلى معنى أن من ضلوا سبيل الله باتباع الهوى وأصروا على ذلك، فإن مآلهم إلى الكفر والعذاب الشديد، لأن الكفر هو

---

(١) سورة الجاثية: آية ٢٣.

(٢) سنائي الغزنوي: ديوان السنائي: ص١٨٣.

(٣) سورة النازعات: آية ٤٠-٤١.

(٤) سورة ص: آية ٢٦.

نسيان الآخرة ونسيان الله، ونسيانه هو أشد العذاب لقوله تعالى: "**نسوا الله فنسيهم**"[1].

العاشر: أوضح الحق تعالى أنه يمكن لراعي الرعية أن يصل إلى مقام ومرتبة النبوة، إذا رعى حقوق الملك والمملكة ونشر العدل ومراعاة الرعية، وأيضاً سلك طريق الدين وحفظ معاملات الشرع، وقام بمراسم الولاية وشروط النبوة حتى لا يبقى أي علة وسبب لأصحاب الحكم وأولي الأمر بأن يقولوا بأننا حرمنا ـ بسبب مملكة الدنيا والانشغال بمصالح الخلق ـ من المنافع الدينية وفوائد السلوك، ولكن المملكة أكمل وسيلة لعبادة الحق، والسلطنة أعظم وسيلة للتقرب إلى حضرة الحق.

ولهذا السبب فإن سليمان عليه السلام طلب الملك ولم يطلب العلم والنبوة لقوله تعالى: "**رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب**"[2]، وكان لهذا حكم عديدة هي:

الأولى: مالك الملك صفة الله، وعِلْمُنا ونبوتنا دون ذلك، والصفة هي العبدية.

الثانية: حين يكتمل الملك فسيدخله العلم والنبوة، كآدم عليه السلام حين اكتمل له ملك الخلافة دخل فيه العلم والنبوة لقوله تعالى: "**إني جاعل في الأرض خليفة**"[3]، ولم يقل إني أخلق رسولاً أو عالماً أو عابداً، وقال أيضاً لداود عليه السلام: "إنا

(١) سورة التوبة: آية ٦٧.
(٢) سورة ص: آية ٣٥.
(٣) سورة البقرة: آية ٣٠.

جعلناك خليفة في الأرض"[1] ولم يقل له (جعلناك) نبياً أو رسولاً أو عالماً لأن هذا جميعه داخل في نطاق الخلافة.

الثالثة: هي أنه حين تعين قوة السلطنة وشوكة المملكة بالنبوة والعلم، فإن تأثيرها يكون واحداً في الألف وتظهر عزة الدين بالتبعية لها، ولهذا قال الرسول عليه السلام: "**اللهم أعز الإسلام بأعواني**" وكانت النبوة تصدق بسيف النسب: "**أنا نبي السيف**".

الرابعة: حين يعيش الملك بين الرعية في المملكة بنشر العدل وبسط الحق، ويمنع الظالمين عن الظلم والفاسقين عن الفسق، ويقوي الضعفاء ويرعى الأمراء، ويوقر العلماء حتى يحرصوا على تعلم علم الشريعة، ويتبرك ويتمين بالصالحين حتى يرغبهم في الصلاح والطاعة، ويأمر بإقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى ينشغل الرعية في الممالك بإقامة الشرع وتربية الدين ورعاية الحدود وحقوق الشريعة، وتأمن جيداً طرق المملكة للرائح والغادي، ويدفع شر الكفار الملاعين عن البلاد والعباد حتى تهتم جميع الرعية في الممالك بإقامة حدود الشرع ونشر الدين ورعاية الحدود وحقوق الشريعة. ولا جرم أن كل طاعة وعبادة وتعلم يقوم بها أهل مملكته، وكل راحة ورفاهية يجدونها، فسيكتبها الحق تعالى جميعها في ديوان أعماله الصالحة، ولويدفع كل فسق وفجور ونواهي وظلم وتعدي، فستصبح جميعها وسائل لتقربه إلى الحضرة الإلهية. ولكن لو أن كل واحد منهم يخطو خطوة في سلوك طريق الحق، حتى لو يتقدم غيره خطوة أخرى إلى حضرة العزة، فإن سلوك الملك يكون في

---

(١) سورة ص: آية ٢٦.

الآلاف الكثيرة من الخطوات، وهذه السعادة لا تمنح لكل شخص لقوله تعـــالى: "ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء"(١).

الخامسة: هي أن المملكة والسلطنة أكمل وسيلة لنيل الرغبات واستيفاء اللــذات والشهوات: وينبغي ألا يقودها لسيطرة هوى النفس والانقيــاد لــهواها وبعمـل الطاعة؛ ورغم أنها تكون له ثواباً ـ إلا أنها ليست لمثل هذا الشــخص المنقــاد لأسباب الهوى المتيسر له بأنواعه ـ فيطؤها جميعاً بقدمه، ويــترك الشــهوات واللذات وهوى النفس خالصاً مخلصاً للتقرب إلى الحق. ولأنه يكون له في كــل أمر وسيلة وقوة وقدرة للخضوع للهوى، ولكنه حين لا ينقاد له ولا يتقرب بــه، فسيحصل في الحضرة على القرب والدرجة والمرتبة.

وفي الحديث الصحيح أن الصحابة من الفقراء جاءوا إلى خدمة الرســول عليه السلام وقالوا: يا رسول الله: ذهب أهل الدثور والأموال بالفوز التام والنعيم الدائم في الدنيا والآخرة، فقال الرسول: كيف؟ فقالوا: إننا نصلي وهم يفعلــون، ونصوم وهم يفعلون، ولكنهم يخرجون الزكاة والصدقــة التــي لا نســتطيع أن نؤديها، ويقيمون الحج والغزو ويعتقون العبيد ونحن لا نستطيع. فقال الرســول عليه الصلاة والسلام: أعلمكم شيئاً، حين تفعلونه تكونون أفضل منهم، لأن جملة العالم من أمثالكم يتبعون طريق الحق، ولن تصل طاعة أي شخص لطـــاعتكم، عدا طاعة الشخص الذي يفعل مثلها، فقالوا: بلى يا رسول الله، فقال عليكم بعــد كل صلاة في الفريضة أن تقولوا: "الله أكبر" أربع وثلاثين مرة(٢)، و "الحمد الله"

---

(١) سورة الحديد: آية ٢١ ، وسورة الجمعة: آية ٤.

(٢) هي في الأصل ثلاث وثلاثين مرة حسب السُنّة النبوية الشريفة، وطبقا للأذكار التي تليـــها. ولكــن لا نعرف من أين جاء الكاتب بهذا الرقم ولماذا؟ (المترجم).

ثلاث وثلاثين مرة، و "سبحان الله" ثلاث وثلاثين مرة، وتقولون: "لا إله إلا الله" مئة مرة. وبعد أن كان الفقراء يقولون هذه الأذكار بعد فريضة الصلاة، سمع الأغنياء من الصحابة هذا الخبر، فأخذوا يقولون مثلهم، فحضر الفقراء إلى الرسول عليه الصلاة والسلام مرة ثانية وقالوا: يا رسول الله إن الأغنياء يقولون ما نقول أيضا، وما يفعلونه من الخيرات لا نستطيعه، فقال الرسول عليه السلام: "**ذلك فضل الله يؤتيه ما يشاء**"[1]، لأنهم يعبدون بالنفس وأيضاً بالمال.

ولكن سليمان عليه السلام طلب من الحق أن يمده بالنفس والمال والملك والرعية من الجن والإنس والوحوش والطيور والسباع والهوام وغيرها من آلات المملكة وأسباب السلطنة لعبودية حضرة العزة، ويتقرب بها جميعاً، لأنه كلما كانت أسباب التقرب كثيرة كان القرب من الحق ونيل الدرجات كثيراً أيضاً.

السادسة: إن المملكة والسلطنة هي أكمل وسيلة وأعظم عدة لتربية الصفات الذميمة والحميدة. ولو تربى النفس في الصفات الذميمة بهذه الوسيلة فإنها تصل إلى مقام تدعي فيه الألوهية، وهذه نهاية الصفات الذميمة، كما لا يمكن الوصول إلى هذه الدرجة بدون هذه الوسيلة، لأنه لا يمكن لأي عاجز أو فقير أن يدعي الألوهية لأن نفسه خالية من وسيلة تربية صفة التكبر والتجبر والأنانية. وحين بلغت هذه الوسيلة الكمال عند فرعون، فإن تربية النفس وصلت بكمالها إلى صفتي التكبر والأنانية حتى ظهرت هذه الثمرة بقوله تعالى: "فحشر فنادى فقال

---

(١) سورة المائدة: آية ٥٤.

أنا ربكم الأعلى"[١]، وتمسك بالمملكة والسلطنة كقوله تعالى: "**أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي**"[٢].

وهكذا فلو تربى في النفس الصفات الحميدة بهذه الآلة (الوسيلة) لوصلت إلى مقام تتخلق فيه بأخلاق الحق وتتصف بصفات الربوبية؛ وهذه نهاية الصفات الحميدة وكمال الدين، كما قال الرسول عليه السلام: "**بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**". ولا يمكن الوصول إلى كمال هذه الأخلاق إلا بوسيلة المملكة والسلطنة. حتى لو يريد شخص أن يربي صفة الجود والكرم التي هي من صفات الحق، ويتخلق بها بمقتضى خطاب القول: "**تخلقوا بأخلاق الله**"، لأنه أمر أوجب من جميع الأمور، ولكن شريعة الأنبياء عليهم السلام وجملة شرائع الأديان المختلفة والكتب المنزلة جاءت بهذا المعنى كما قال عليه السلام: "**بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**". ولا يمكن الوصول إلى التربية إلا بأن يبذل المال الكثير ويظهر الجاه العظيم.

وإذا أراد (**الملك**) أن ينمي صفة الحلم فيجب أن يكون ذا قوة وشوكة وسلطنة حتى يتحمل أذى وتعب الخلق، حتى يغلب عليه الحلم، لأنه إذا لم يكن لديه القوة والقدرة لكي يتحمل، فإنه يكون اضطرارياً وليس اختيارياً، وحينئذ فلا يكون بالحلم ولكنه العجز. والحلم صفة الحق والعجز صفة الخلق.

وحين يرغب في أن ينمي صفة العفو، وهي صفة الحق، يجب أن يكون لديه قوة وقدرة كاملتين لمكافحة المذنبين، وحتى أنه حين يصفح ويعفو عنهم،

(١) سورة النازعات: آية ٢٣-٢٤.

(٢) سورة الزخرف: آية ٥١.

فإنه يحب أن يتصف بصفة الحق، فيصير محبوب الحق لقوله: "**إن الله عفو يحب العفو**"، وهذه جميعها من صفات لطف الحق، ولو أراد أن يتصف بصفة القهر التي للحق، فيجب أن يكمل أسباب المملكة والسلطنة حتى يمكنه أن يصل إلى الكمال في قمع الكفار وأهل النفاق والبدعة وقهرهم وتعذيبهم لأن ذلك من صفة الحق كقوله تعالى: "**ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات**"[1]. وهذا المعنى يحصل في القيام بالغزوات والسعي لفتح ديار الكفر، وحشد الجند على الحدود ودفع أهل الظلم والفسق والفساد وإنصاف المظلوم الضعيف من الظالم القوي، ودرء اللصوص وقطاع الطريق وإقامة حدود الله على الجناة واتخاذ أمر القصاص على أهل القصاص، وتنفيذ العقوبات في الممالك دون هيبة، وما إلى ذلك.

ولو أراد أن يتصف بصفة الرحمة والرأفة والعاطفة، فعليه أن يأمر لكل طائفة بقدر استحقاقها من الرحمة والرأفة والعاطفة، حتى يصل بهذه الصفات إلى كمالها. وتلك هي أفضل وسيلة للعبد لعبودية الحق ونيل الدرجات وتحصيل القربات وسلوك المقامات والهمة الإنسانية حتى يمكنه أن يصل إلى الحضرة بواسطة تلك الصفات، ويستطيع أن يطير بهمته كما يقال: "**المرء يطير بهمته كالطير يطير بجناحيه**". كما يمكنه الوصول إلى الكمال ـ بمدد الهمة ـ بجميع الصفات والأخلاق الحميدة.

ومن ثم يمكن لهمة الملك الوصول إلى كمال التربية في السلطنة، لأنه يمكنه الحصول على المال والنعمة والثروة والظفر بالشهوات وأنواع التنعمات

(١) سورة الأحزاب: آية ٧٣.

جميعها، ولا يلتفت إليها قط ولا يأخذ أية ثمرة من أي تمتع بشري وحيواني وسبعي وبهيمي، ولا يتصرف في أي شيء بمقتضى الطبع والهوى ويعرض عنها جميعاً، وينفقها عن آخرها في سبيل الله بأمر الشرع وتبعاً للقانون، ويبرئ همته من الالتفات إليها جميعاً واستحسانها حتى يكون كإبراهيم فيخلص نفسه من آفة شرك هذا كله كقوله تعالى: "إني بريء مما تشركون"(١) وينظر إليها بعين العداء كقوله تعالى: "فإنهم عدو لي إلا رب العالمين"(٢) ويسمو بهمته، ويتجه بقلبه إلى خالق هذا جميعه لقوله تعالى: "وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين"(٣).

أريد أن أكون معتاداً على حزنه(٤)
وإذا حدث حزنه، فكم يكون طيباً
هيا أيها القلب احتضن حُزنه
حتى تدرك أن حزنك هو حزنه

وحين يصل بهمة التربية إلى الكمال، ينكشف له غنى الحق لأن هذا أسمى مقام لأرباب السلوك، حتى أن الرسول عليه الصلاة والسلام في علو همته لم يوصف بصفة: "ما زاغ البصر وما طغى"(٥)، ومن ثم لم يجد استحقاق مرتبة

(١) سورة الأنعام: آية ١٩.
(٢) سورة الشعراء: آية ٧٧.
(٣) سورة الأنعام: آية ٧٩.
(٤) المعنى بالحزن هنا هو العشق (المترجم).
(٥) سورة النجم: آية ١٧.

الغنى (كقوله تعالى): "ووجدك عائلاً فأغنى"[1]. وكان سليمان عليه السلام كذلك أيضاً حتى يربي الهمة، ورغم كل تلك السلطنة والمملكة والقدرة والنعمة، فإنه كان يجدل السلال بيده المباركة، وكان يحصل على ثمن تلك اللقمة بلا تكلف، وكان يأتيه مسكين عاجز، ويتناول معه تلك اللقمة، كما كان يقول علي كرم الله وجهه: **"أنا مسكين، أجالس المساكين، اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكين، واحشرني في زمرة المساكين"**.

وإذا سأل شخص أنه إذا كانت المملكة والسلطنة لها فوائد جمة وموجبة للتقرب والقرب، **فلماذا لم يمنح الرسول عليه السلام مملكة الدنيا بذلك الكمال، كما أعطيت لسليمان عليه السلام، حتى كان يتقرب بها ويربي الصفات والأخلاق؟** ولماذا قال: **"الفقر فخري"**؟، وإجابة ذلك على وجهين:

أولاً: أن خواص الحق طائفتان، هما المعززون والمحتاجون: فالمعززون غير محتاجين، ويهملون مقصودهم جانباً، ولا يعتمدون عليه في خدمة أسباب تحصيله:

خليلي هل أبصرتما أو سمعتما ... بأكرم من مولاي يمشي إلى عبد
أتى زائراً من غير وعد وقال له ... أصونك عن تعذيب قلبك بالوعد[2]

(1) سورة الضحى: آية ٨.
(2) هذان البيتان للشيخ أبي علي الدقاق: (عبد الرحمن الجامي: نفحات الأنس: ص ٢٩١).

والمحتاجون يطلبون الحاجة، ويعتمدون عليها في خدمة أسباب تحصيلها ومن ثم يعطون المقصود بقدر الهمة، ومثال ذلك كشخص يطلب السهم والقوس، وحين يجدها يذهب للصيد، ويصوب سهاماً كثيرة إلى الطيور حتى يصطاد طائراً ويهب شخص طائراً لشخص آخر بدون هذه الأسباب أو التعب أو المشقة.

ومن ثم فقد كان الرسول عليه السلام مدللاً لدى الحضرة، إذ أن حضرة العزة يقسم بأغلظ الإيمان بروحه ورأسه قائلاً: **"لعمرك"**، وكان ذلك هو المقصود من طلبه للمملكة والسلطنة الدنيوية دون منة، ولاقى المشقة في ظلها حتى أعطيت له لقوله تعالى: **"وكان فضل الله عليك عظيماً"**[1]. **ماذا كان المقصود حين كان يقول بفضله العظيم؟**. إنه التخلق بأخلاق الحق، وقد أعطى هذا المعنى للرسول عليه الصلاة والسلام بالكمال، وكان يُمدح بالكثير من القول: **"وإنك لعلى خلق عظيم"**[2]. وأن طائر الوصال الذي طلبه موسى عليه السلام حتى يصطاده بسهم وقوس قوله تعالى: **"أرني أنظر إليك"**[3]، فلم يستطع أن يناله لتعزز أوج كبرياء: **"لن تراني"**[4]. وكانوا يعطون الكثير من اللطف والإعزاز لسهم الرسول عليه السلام: **"ألم تر إلى ربك"**[5] وتلك هي الحقيقة. فكان الرسول صيداً وصياداً أيضاً، وكان في الحقيقة طائراً جاء من عش: **"أنا من الله"** في صورة صياد كقوله عليه السلام: **"بعثت إلى الأحمر والأسود"**، وكان يطير في الكائنات ولم يكن يحلق مثل طائر، لأنه ريشه وجناحه حيثما كان يحل في كائنات الوجود، فكان طائرًا وبيضة، وكان أيضًا شمعة وفراشة.

---

(1) سورة النسا: آية ١١٣.

(2) سورة القلم: آية ٤.

(3) سورة الأعراف: آية ١٤٣.

(4) سورة الأعراف: آية ١٤٣.

(5) سورة الفرقان: آية ٤٥.

إننـــا غـــارقون فـــي ألـــم عشـــق معشـــوقنا
وإننـــا شـــاردون ومولـــعون فـــي أمرنـــا
وإننـــا محزونـــون مـــن زماننـــا
وإننـــا صيـــادون وأيضـــاً صيـــد أنفســـنا[1]

وفي أول الأمر طلب سليمان من الحق مائة ألف منّة لقوله : "رب اغفر لي وهب لي ملكاً"[2]، فأعطى ليد ضراعته زمام ناقة المملكة، وفي تلك الأثناء قيده بألم الضراعة لقوله تعالى: "وألقينا على كرسيه جسدا"[3]، وفي النهاية ابتلي بآفة: "أني أحببت حب الخير"[4]، ما هي تلك الإشارة؟. حقاً إنه كان محتاجاً، وعندئذ وضع له عدة عقبات بباب إرادته ويجب عليه تخطيها ليصل إلى مراده. وحين كان الرسول مدللاً وجد الدلال في رأسه لقوله تعالى: "سبحان الذي أسرى بعبده".[5]

(1) أحمد الغزالي: السوانح في العشق: ص١٠.
(2) سورة ص: آية ٣٥.
(3) سورة ص: آية ٣٤.
(4) صورة ص: آية ٣٢.
(5) سورة الإسراء: آية ١.

وقد عرض عليه مملكة كلا العالمين في مقام السدرة، فلم ينظر إليها قط ــ بسبب كبريائه ــ ولو بطرف خفي من عين همته لقوله تعالى: "**ما زاغ البصر**"[1]، ولا جرم أن أعطى مقصود العالمين وبلا رجاء لقوله تعالى: "**لقد رأى من آيات ربه الكبرى**"[2].

مهما كانت المروءة في العطاء
فما أكثرها آلاف المرات في عدم الأخذ

والجواب الثاني هو أن الرسول عليه السلام كان عاشقاً نظراً لقوله: "**نحن الآخرون السابقون**"، وفي المقامات التي كان يسلكها الأنبياء عليهم السلام طيلة عمرهم ــ ومع هذا فقد توقف كل شخص في مقامه ــ كآدم في الصفوة ونوح في الدعوة وإبراهيم في الخلة وموسى في المكالمة وعيسى في الكلمة وداود في الخلافة وسليمان في المملكة، ولكن الرسول عليه السلام قد عبر جميع هذه الممالك في مدة قصيرة كقوله تعالى: "**أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده**"[3]، وسما فوق الجميع كقوله عليه السلام: "**نحن الآخرون السابقون**"، ووصل إلى مقام لم يصل إليه شخص قط، ومنح الفضائل التي لم تمنح لشخص قط كما قال: "**فضلت على الأنبياء بست**". وفي الحقيقة فإن هذا الشعر يصدق في حقه:

(1) سورة النجم: آية ١٧.
(2) سورة النجم: آية ١٨.
(3) سورة الأنعام: آية ٩٠.

أنا ذلك الذي كثير مثل أنيتي في الدنيا
فلم أكن مقيماً في مقام النفسين
لقد قطعت طريقاً لا يسلكه شخص قط
في مكان لا مكان له ولا قبل ولا بعد.

ومهما أعطى من المقامات والدرجات والكمالات لجميع الأنبياء، فقد أعطيت جميعها للرسول عليه السلام، وقد فضل على الأنبياء أيضاً بستة أشياء وهذه واحدة منها: "**بعثت إلى الخلق كافة**". فكل رسول بعث إلى قوم أما هو فقد أرسل إلى جميع الخلق، كما أن الرسول أيضاً لم يكن يتوقف ــ في العشق ــ عند أي مقام قط، وكان يعبره في الحال وأعطى له أيضاً مقام الملك كقوله عليه السلام: "**خيرت بين أن أكون نبياً ملكاً وبين أن أكون نبياً فقيراً، فاخترت أن أكون نبياً فقيراً أجوع يوماً وأشبع يوماً**"، وهذا حديث مشهور حيث قال الرسول عليه السلام: "**أوتيت بمفاتيح خزائن الأرض**"، وقيل له لو تريد أن تصير لك جبال مكة ذهباً نفعل ذلك، وحيثما تريد فإنه يجرى لك.

وحقاً فإن محمداً كان الأمين في السماء والأرض وقد أعطى مفتاح الخزائن للأمين، وأمثال هذا كثير في الحديث، كما ورد أنه قال: "**إني فضلت أن أكون نبياً فقيراً**"، وقال أيضاً عليه السلام: "**أنا سيد ولد آدم لا فخر**"، وكيف تكون المملكة أعظم من هذا؟. ولكن كان المقصود من المملكة أن يتيسر له، وعندئذ يستطيع العبور إلى قمتها، ويستطيع أن يبذل كل شيء في سبيل الله، لينال لبه وخلاصته، وينزع عنها قشرتها. وهكذا فعل الرسول عليه السلام. وهناك أجوبة أخرى كثيرة نقتصر منها بهذا القدر حتى لا نسهب بالأطناب.

وقد ثبت أن الملك والمملكة وسيلة عظيمة للتقرب إلى حضرة العزة وسلطنة خلافة الحق. ومن هنا فالسلطان ظل الله لأن ظل كل شيء هو خليفة ذلك الشيء. أما هذا الظل وهذه الخلافة فتصح أحياناً أن تظهر في الخليفة من صفة المستخلف، ومن هنا فقد قال الرسول في تفسير ظل الله إنه: "**يأوي إليه كل مظلوم**"، أي أنه ملاذ كل المظلومين حتى لا يجري عليهم الظلم والجور من أي ظالم. ولكن حين ينزل بهم هذا الحيف والظلم من السلطان، **فكيف يتصور الظل الإلهي في الأرض؟ وأين يتيسر له الخلافة؟.**

صار الدواء سبب الألم، فأي أمل يكون؟
في إزالة المرض ومعالجة المريض

والغرض من ذلك هو أن يسير الملوك إلى سعادة السلوك بقدمين: قدم من الحق: إذ يجب على الملك القيام بشريعة الحق، وتجنب متابعة الهوى، وشكر نعمة السلطنة ببذل أسبابها في إعلاء كلمة الدين وتقوية الملة والرضاء بالقضاء، وجعل السلطنة والمملكة وسيلة للدرجات والقربات، وليس اللهو بهذه الأسباب والأدوات في معشوقات الدنيا الفانية واتباع شهوات النفس الأمارة، ولكن يجب الفناء عن الدنيا والآخرة ـ كل لحظة وكل ساعة ـ بعلو الهمة والشوق إلى جلال جمال الحضرة:

إنهم قد صنعوا كيمياء عشقه من دم القلوب
ولهذا السبب فإن عشاقه قد افنوا الأرواح في سبيل الطلب
وحين حل بالرأس غيرة السلطان على عشقه
زينوا حجرة القلب بعشقه

أما ذلك القدم الذي مع الخلق من الرعايا، فيجب أن يتخذ الرعايا في حماية دولته وحصن حراسته وكنف سياسته وسلطنته، ويؤدي حق العبودية في المملكة، ومن ثم يوصل الملك الصغير للدنيا الفانية بملك الآخرة الباقية ويفتح باب الإحسان والمكرمة، بالإنصاف والعدل، لخواص المملكة من أهل العلم والمعرفة، ويقيم الحد على الفاسقين والظلمة.

وحين سار هذين القدمين بالصدق، فقد أقام حق العبودية في المملكة وفتح له حضرة الجليل من ألطاف ربوبيته طريقاً إلى صفات الألوهية وحمله إلى بلاط العزة، كما يقال: "**خطوتان قد وصلت**"، ثم يجيز له أحقية الخلافة فيصبح خلاصة المخلوقات. والمقصود من الخلق هو سر الخلافة لقوله تعالى: "**إني جاعل في الأرض خليفة**"[1]. ولو ينشغل بالظلم والجور ومتابعة الهوى ومخالفة الحق، فينزل عليه قهر وغضب الحق، ومن كان إبليس عصره، فإنه يستوجب اللعنة الأبدية لقوله تعالى: "**ألا لعنة الله على الظالمين**"[2].

وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

(١) سورة البقرة: آية ٣٠.

(٢) سورة هود: آية ١٨.

الفصل الثاني

في بيان حال الملوك والسلاطين وأولى الأمر وسيرتهم مع كل طائفة من الرعايا والجوارح والأعضاء والمراقبة والشفقة على أحوالهم

الفصل الثاني

في بيان حال الملوك والسلاطين وأولى الأمر وسيرتهم مع كل طائفة من الرعايا والجوارح والأعضاء والمراقبة والشفقة على أحوالهم

قال الله تعالى: "**إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون**"[١].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "**إن أفضل عباد الله عند الله منزلة يوم القيامة إمام عادل رفق. وإن شر عباد الله عند الله منزلة يوم القيامة إمام جائر خرق**".

إن الملك في الدنيا بمثابة القلب من الجسد لأنه السلطان عليه، فكلما يكون القلب صالحاً، فإن سائر الأعضاء وقوى البدن تكون صالحة. وكلما يكون القلب فاسداً تكون سائر أعضاء الجسد فاسدة كما يقول الرسول عليه السلام: "**إن في جسد ابن آدم مضغة إذا صلحت صلح بها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد بها سائر الجسد ألا وهي القلب**". وذلك مثل ملك المملكة الظاهر الواضح، فإذا فسد فسدت جميع مملكة الرعية وإذا صلح الملك صلح جميع الملك والرعية.

اعلم أن سلطنة القلب ومملكة الدنيا لها ــ في الأعضاء والجوارح، والقوى البشرية والحواس الظاهرة والباطنة والرعايا والخدم والحشم والأهل

---

(١) سورة النحل: آية ٩٠.

والعيال والملك ـ من اللطف والقهر ثلاث حالات مأمورة بها وثلاث حالات منهية عنها. أما الثلاث حالات المأمورة بها، وهي من فيض حضرة العزيز اسمه، وهي: "**العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى**". وأما الحالات الثلاث المنهية عنها فهي، "**الفحشاء والمنكر والبغي**". ولكل حالة من هذه الحالات معنى آخر مناسب لذلك الحال وذلك المقام.

أما أحوال سلطان مملكة البدن فهي:

الحالة الأولى: أن يكون عادلاً بمساعدة وزيره ـ وهو العقل ـ لحفظ مملكة البدن، إذ قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "**العلم علمان: علم الأبدان وعلم الأديان**"، وذلك لحفظ القوى البدنية، ليس بطريق الطبع والهوى ولكن بأمر الشرع والحق، وإرشاد كل من الجوارح الظاهرة والباطنة إلى ما خُلقت له وبُعثت لأجله، ويقيم العدل والحق متناسباً مع جميع الجوارح كما ينبغي، ويرعى أداء وظيفة كل عضو قدر المستطاع.

الحالة الثانية: الإحسان: حيث يأمر سلطان البدن بأداء الفرائض ويتعهد لكل الأعضاء والجوارح بأن يمنحها ما هو لائق لها ويحفظها من الأشرار.

الحالة الثالثة: "**إيتاء ذي القربى**": وبها يرعى حقوق الجوارح والأعضاء، ويظهر آلامها، حتى يستخدم كلا منها فيما أمرت به.

وأما الحالات الثلاث المنهية والممنوعة فهي الفحشاء والمنكر والبغي وتلك أفعال وأقوال وأحوال غير مستحبة وغير جائزة وليست لائقة لأن يظهر منها الظلمة

والحجاب والبعد، وتتولد منها الصفات الذميمة مثل الكذب والخيبة والبهتان والعداوة والزنا واللواط والفسق والفجور والغضب والحرص والحسد والكبر والعجب وسوء الأخلاق والجور والظلم وما شابه ذلك.

تنبيه: اعلم أنه في الحقيقة لا يمكن لملك الدنيا أن يقيم العدل في مملكته الخاصة لأنه مثل سلطنة القلب لا يستطيع أن يقوم بالمملكة العامة. ومثال هذا كالشخص الذي لا يمكنه السباحة في البحر حيث يريد من يخلصه من الغرق، ومن المحال أن ينقذ غيره منه:

كيف يلزم الوصول إلى نفس النبوة
في حين أنه ليس لك سلطان على جسدك

والمملكة العامة هي نيابة الحق وخلافته، وهي تتلو النبوة وليست أعظم أمراً منها. وقد جعل الله تعالى إطاعة الملك العالم العادل في طاعته ورسوله لقوله تعالى: **"وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم"**[1].

وهكذا شرحت المملكة الخاصة ـ وهي سلطنة القلب ـ مع الأعضاء والجوارح والقوى من العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى التي أمرت بها، والفحشاء والمنكر والبغي التي نهيت عنها، والآن ستبين الثلاث حالات الموضحة لملك الدنيا ونائب الحق المنان وهي المملكة العامة:

---

(١) سورة النساء: آية ٥٩.

أما الحالة الأولى، فالملك العام هو العدل، ويجب على الملك أن يخلص النفس من الأمارة ويحكمها بقيد الشرع، ويتخلى عن مألوفات الطبع ومستحسنات الهوى، ويوجه القلب إلى الحضرة الإلهية حتى يقبل فيضان فضل الحق ونيابته ويؤيد بالتأييدات الإلهية حتى يمكنه أن يتصرف في رعاياه بفضل نيابة الحق وحتى يزداد قرباً ودرجة ورفعة في حضرة العزة بسعيه وجهده وإقدامه على كل أمر من الأمور.

وأما الحالة الثانية، فهي الإحسان من الملك العام إلى الرعية وذلك ببسط العدل ومنع الظلم ومراعاة المساواة بين الرعية، فعليه بمنع ظلم القوي للضعيف، وألا ينصف الغني على الفقير، وبسط آثار الكرم والمروءة على الرعايا والمملكة ومجابهة الأقوياء وإجراء الصدقات والنفقات الجارية للفقراء والمساكين، ومراعاة الصادر والوارد للمملكة في عهده، وتوقير الزهاد والعلماء وكفايتهم المؤونة، وحث طلاب العلم على التحصيل والسؤال عن أحوالهم وإعزازهم بالعون، بما يحتاجونه من الضروريات، وإجلال الصالحين والعابدين ومجالسة الصوفية والزهاد وقضاء حاجاتهم والبحث عنهم في الملك والمملكة واحترام السادات وإيفائهم حقهم إذا لم يمكن إعطائهم الصدقات وإجراء ما يحق لهم من معاملة الصلات والهبات ومعاشرة الفقراء والعرفاء، وإمدادهم بالطريق والأسلوب الحلال وتهيئة فراغ البال لهم، حتى ينشغلوا بالحق ويهدأ فؤادهم ويستقر، لأن الدنيا قائمة ببركة أنفاسهم، ويكون لهم نصيب من بيت المال فيوجب لهم منحه إذا لم يطلبوه نظراً لعزة دينهم وعلو همتهم.

وأما الحالة الثالثة، فهي للملك نفسه وهي: "**إيتاء ذي القربى**" أي منح الحق لجميع الرعايا، لأن الرعية للملك بمثابة الأقارب، ولكنهم في مكانة الأهل

والعيال. وكانت وصية الرسول صلى الله عليه وسلم في آخر حياته وعند مماته قوله: "**الصلاة وما ملكت أيمانكم**"، أي عليكم بالصلاة وتحسنوا إلى التابعين لكم.

وكل إنعام وإحسان وإنصاف وعدل وعون ومكرمة ومواساة وسياسة ورعاية وحراسة يأمر بها الملك لحق الرعية، فهي من رحمته ومروءته ومقام سلطنته. ولهذا فستدوم له المملكة، وقد قال الرسول عليه السلام: "**العدل والملك توأمان**"، أي أن العدل والملك رفيقان نزلا من مشيمة واحدة، وقال في موضع آخر: "**الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الجور**".

وكل سُنَّة حسنة تُسن في المملكة فهي للتخفيف عن الرعايا ولراحة الخلق، وكل بدعة سيئة تنتشر فإنها تكون على هذا المنوال. وحتى نهاية العالم فكل ملك يعمل بتلك الصفة الحسنة، ويقرر تلك التخفيفات، فسيكتب ثوابها في ديوان ذلك الملك. وإذا شرع بدعة مخالفة لهذا ــ والعياذ بالله ــ وسن قانوناً لم يكن من قبل ــ أو كان موجوداً، وقضى عليه ملك آخر ــ ثم أقره هو مرة أخرى، فحتى نهاية العالم، فكل شخص يعمل بتلك البدعة ويسير على ذلك القانون، فسيكتب عقابه جميعاً في ديوان هذا الشخص المبتدع، كما يقول الرسول عليه السلام: "**من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة**".

وفي الحقيقة، فواجب على الملك العالم العادل أن كل قانون قُرر في العصور الأخرى، وسار بالظلم والجور على الرعية أو فرضت الجزية الكبيرة في مكان وغير مناسبة لعصره، فعليه برفعها وإقلالها وتخفيفها.

وعدا ذلك فالملك مثل راعي الغنم والرعية كالقطيع. فواجب على الراعي أن يرعى القطيع من الذئب، ويجد في دفع شره. وإذا كان في القطيع بعض

الكباش من ذوي القرون وبعض النعاج من غير ذوي القرون، ويريد ذو القرن أن يحيف جوراً على ما لا قرن له ويتعدى عليه، فواجب على الراعي إذن أن يدفعه. ومن ثم فإن ذئاب قطيع الإسلام هم الكفار الملاعين الذين استشروا جداً في هذا العهد، وواجب على الملوك والأمراء والجند أن يفدوا بأرواحهم دفعاً لشرورهم حتى يحل لهم الخبز والماء عند قتال الكفار ويدفعون شرهم عن المسلمين. وإذا تعرض الكفار للمسلمين بالأذى فواجب على الملك محاربتهم وفتح ديار الكفار ونشر الإسلام والاجتهاد لإعلاء كلمة الدين: "**ولتكون كلمة الله هي العليا**".

وواجب على الملك أيضاً، وعلى الأمراء والجند وأصحاب الديوان وأرباب المناصب ونواب الحضرة وأمرائها والعمال والرؤساء والقضاة والرنود والأوباش أن يغتنموا الفرصة المناسبة حتى يكونوا قوته وشوكته وآلته وعدته لحين المحاربة والاستيلاء على الآخرين. ويجب ألا يترك الرعايا كلية لهم، وألا يعتمد بالكلية على أي شخص قط كما يجب أن يكون متفحصاً ومفتشاً على أحوال كل طائفة لأن الملك سيُسأل يوم القيامة، بالنقير والقطمير، عن أحوال الرعايا وخيرهم وشرهم، كما يقول الرسول عليه السلام: "**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته والأمير راع على رعيته وهو مسئول عنهم**".

وفي الحقيقة، اعلم أن عدل الملك المأمور به هو الصدق في الظاهر والباطن مع الحق في السر والعلانية، ويعلم أنه مخلوق ويشغل النفس بعبودية الحق وإطاعة أوامره ــ وأن إرادة ذاته ومملكته ورعيته من أجل الحق، لا كمن يريد أن تكون مملكته ورعيته من أجل ذاته.

وأما إحسان الملك فهو الذي قال عنه الرسول عليه السلام: "**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**". فعبادة الملك وإحسانه ليست

لمن يشغل بالنوافل ريصرف عمره في الصلاة والصوم وتلاوة القرآن والعزلة والانقطاع والخلوة، ويهمل مصالح الخلق ويحرم أصحاب الحوائج، ويغفل صلاح وفساد الملك، ويسلم الرعايا ليد الظالمين، فهذه كلها من أكبر أنواع المعصية. وإحسان الملك هو أن يتوجه إلى مصالح الملك بعد أداء الفرائض، ويتفقد أحوال البلاد والعباد، ويقوم برعاية حقوق الإسلام والمسلمين، ويتصوف في عبيد الحق وأحكام الملك كأنه يتجه إلى الله. وإذا لم تكن لديه تلك القوة وذلك النظر، فليوقن أن الله يطلع عليه حتى يفعل كل ما يفعله بأمر الشرع، ويتطهر من دنس الهوى والطبع، ويصبح في كل فعل من أفعاله موجباً للقرب والرفعة في حضرة الربوبية. كما أنه من إحسانه ألا يعيش بالفسق والفجور والفساد حتى لا تعتاد الرعية على الفساد، ولا ينزل بأولادهم طمع الفساد، ولا تسوء سمعة العائلات، ولا يشتد عضد أهل الفساد في عصره، ولا يختل حال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يكسد سوق أهل الدين والعلم والصلاح، ولا يروج سوق أهل الطرب والهزل، ولا يعمل السوقة والأوباش والأخساء والغمازون والنمامون والجهلة والمحتالون في حضرة الملك، حتى لا يزدان الفساد والظلم في نظرة بكساء المصلحة وأغراضه الفاسدة ــ قائلين إننا محبون ومشفقون على أحول ملكنا ومن ثم لا يظهرون له خراج الديوان والخزانة.

وإحسان الملك أيضاً هو ألا يضع القوانين السيئة في المملكة ولا يزيد الخراج وينظم أعماله (الخراج)، ولا يزيد منها، ولا يقبل الأشياء غير المستحبة. كما أن إحسان الملك هو ألا يأخذ الناس بالأسباب وألا يبحث عن النقائص وألا يعمل بالمصادرة وألا يقبل الغرامات بدون جرم، وألا يلفق التهم للأبرياء، وألا ينشر الجرائم، وألا يوجب التقسيمات والفرقة. وإحسانه كذلك هو ألا ينهج تصرفات السوء في مال المواريث والأيتام وألا يفرض الضرائب والأموال على التجار، ولا يأخذ الضرائب في الطرق (بالقوة). وإحسان الملك

أيضاً أن يكون مراقباً حتى لا تنتشر المداخلات والتصرفات الفاسدة في عصره، وألا يأخذ الحق من مستحقه، وألا يطلب الرشوة والبرطلة والإتاوة وألا يوقف حقوق مصارف الأوقاف، وألا يقطع إدرارات ومعاشات الأئمة والسادات والزهاد والعباد والصالحين والعلماء والفقراء والعرفاء، وألا يسعى أحد في إبطال تلك الخيرات لدى حضرة الملك. وإحسانه كذلك هو ألا يطرد أرباب الحوائج من أعتابه، وإنما يأمر بعرض أحوالهم عليه، وألا يمنع الخيرات والمبرات والصلات والصدقات عن مستحقيها.

وإذا فعل حضرة الملك غير هذه فجميعها تسئ إلى سمعته في الدين وفي الدنيا، وسيستشري صوت الظلم والفسق والبخل عنه في أنحاء الدنيا وأرجائها، وسيعرف بين الخلق بسوء السيرة والظلم وسوء العهد، وسيبقى اسمه هذا سيئ السمعة حتى انتهاء العالم، وسينفتح عليه باب الدعوات السيئة ولعنة الخلق في حياته وبعد مماته.

وكل أولئك المفسدين والمغرضين الذين يتقربون بالحب والتقرب لحضرة الملك، ويداهنونه، ويزينون أغراضهم الفاسدة في نظره، فتروق لنظر الملك، فسيأتي يوم القيامة يوم العرض الأكبر، وسيحاسب عليها بكل نقير وقطمير، ويجازى عل كل مثقال ذرة من الخير والشر جزاء ثوابه لقوله تعالى: "**فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**"(١)، ولكل يوم غد، ولكل سفه رفعة(٢):

---

(١) سورة الزلزلة: آية ٧-٨.

(٢) أي لكل منخفض وخِسّة رفعة وعلو (المترجم).

لا تحقـــر من رفعـــــة الملـــــوك

ولا تجعل في كــــل قلــب جـــزعاً منــه

ولا تظلم الخلـــق حتى فـــي تفاحـــة واحـــدة

ففي كل تفاحة عليك حسيب، فـــلا تفعـل هـــذا

ومن إحسان الملك ألا يتجاسر المقربون له على الظلم، وألا يساعدهم على حب المال والتكالب على الدنيا، حتى لا يسعوا في جمع المـــال مـــن الحـــلال والحرام، ولا يريقوا دماء الفقراء، ولا يجمعوا الذهب والمال والبضائع والأثـــاث لأنها تفنى جميعها في كارثة أو موت، كما يقال: "**بشروا مال البخيل بحـــادث أو بوارث**"، ويبقى لهم سوء السمعة في الدين والدنيا، وتلك هي طائفة المقربيـــن إذا كانت تدعي صداقة الملك. ولكن إحسان الملك السعيد وصاحب النظـــر هـــو ألا يقرب إلى حضرته أحـــداً من المفسدين وسيئي السمعة والخُلق، وألا ينصبهم في أي عمل، ويطردهم حين يشاهد نوع هذه الأحوال في شمائلهم.

أما إذا لم يكن لهذا الشخص أي بصيرة، ولكل ملك هذا اللطف – وليـــس بهدف الحرص على الدنيا التي يسعى لها أهل العصر – فإن الأعوان وعديمـــي الأصل واللصوص سيتقربون إليه وسيحرمونه من صحبة الفضلاء والأحـــرار وأهل المعنى وأرباب الفضل والأسر العظيمة والمشيرين الناصحين، والناصحين الطيبين والأصدقاء الأعزاء. ولكن إذا وُجد بالمصادفة شخص من هذا النـــوع، وهذا أمر نادر جداً في بلاط الملك، فإنه سيكون منبوذاً ومنكوباً وغير مقبول لأن هذا الجمع من سيئي السمعة لا يريدون له هذه السيرة الحسنة وإنما يرفضونـــها، ويظهرون في حضرة الملك أن هذه السيرة العطرة ليست في بند خراج الديـــوان

والخزانة وأنها ستؤدي إلى عجز فيهما، ومن ثم لا يكون لذلك الشخص جلد ولا كفاية، حتى أن هذه الشرذمة تغتنم هذه الفرص فتسقطه من نظر الملك.

وإحسان الملك العاقل صاحب السعادة المؤيد من الحضرة عز وجل، هو الذي ينظر بنور الفراسة الملكية في أحوال الزمان، لأن هذه الدنيا الفانية، وهذه الغادرة الماكرة، لَكَم اقترنت بآلاف الشباب كالحسان وشباب مثل زهر الربيع، فكانت تقبض على كل واحد منهم بإحدى يديها بآلاف الدلال والسرور، وتقبض على خنجر القهر باليد الأخرى. **فمن الذي رقد على وسادتها ولم تفتك به؟ وأي معدة ملأتها ولم تتمزق؟ ولمن أعطت العسل، دون وخز؟ ولمن أعطت الخبز ولم يؤلم الملح قلبه؟ ولمن قدمت قطعة اللحم ولم تسلخه في النهاية؟ ولمن أعطت العظم ولم تمتص لب رأسه؟ ولمن أعطته الروح ثم أمنته من الموت؟ ولمن ألبسته التاج ولم تذهب رأسه أدراج الرياح؟ ومن علقت قلبه بها ثم لم تقصم ظهره؟ ولمن ابتسمت ثم لم تسخر منه بعد؟:**

ما أعجب كل شخص يعلق نفسه بك، ثم يضحك من نفسه
فإنها لا تقبل مثلك حبيباً دون معنى لديها
وإنك إذا حصلت على كيس (رداء) العشق الجديد فإن ذلك من الشؤم
فإنها تخيط عليك العباءات وتربط حولك الأحزمة
ولو لم يكن لك سوى الروح، فستأخذ الروح هكذا
لأن إحدى عينيك تبكي وعينك الأخرى تضحك

وأي إنسان دعته بالحبيب ثم لم تطرده بعد بعداوة؟، وأي عزيز دللته ثم لم تَذُبّه بعد ذلك بمذلة؟ ومع من لعبت نرد الوفاء ثم لم تقم بغشه في النهاية؟

وأي مسكين أمرته ثم لم تأسره في النهاية؟ وأي شخص استوزرته في المملكة ولم تخربها له هكذا في النهاية؟ ومن الذي أجلسته على عرش المملكة ولم تبعثرها له مثل لوحة الشطرنج؟:

ليس الزمـــان أمينـــاً فكيف تأمـــن منـــه
وإذا أنت دعوته بالأمين فأين دولة المأمـــون؟
أين حكمة إدريس وأين انقضت بطولة رستم؟
ولمن يكون جاه سليمان، وأين ثروة قـــارون؟

وما دام مثل ذلك المليك ينظر بعين الاعتبار إلى الدنيا الغـــادرة الفانيـــة والفلك الغادر الماكر، فلن يجره البئر برسن غـــروره، ولـــن يضـــل الطريـــق بزخارف الجاه والمال والتنعم القليل الفاني، ويوقن أنها ما دامت لم تـــوف مـــع الآخرين، فلن تصير وفيةً معه، ومن ثم لا يظلم نفسه أو أحداً من خلق الله مـــن أجل الدنيا الفانية لأن الدنيا الغادرة على اتساعها لا تساوي إيذاء نملة، فلماذا إذن يتسبب العاقل في غضب الله وخلقه من أجلها، مع أن كل ما يملكـــه لا يســـاوي شيئاً قط:

استمع يا خسرو (المليـــك) إلـــى كثـــير منـــي أنـــا الوضيـــع المسكين
وتســـتطيع فـــي النهايـــة أن تميـــز الخبيـــث مـــن الطيـــب
إنـــه لقبيـــح أذى نملـــة مـــن أجـــل الدنيـــا، ولكـــن
مـــن الجميـــل حيـــن تكـــون فـــي يـــدك أن تكـــون دائمـــة
فاخجل ولا تبحـــث آخـــر الأمـــر عـــن أذى الخلـــق أكـــثر مـــن ذلـــك
مـــن أجـــل غـــادرة خسيســـة وضيعـــة
لـــو لـــم تكـــن الدنيـــا بـــلا وفـــاء قاتلـــة للنـــاس هكـــذا

لكان حاكم العالم حتى الآن هو آدم وحواء

وحين استولى الإسكندر على الدنيا من دارا[1]، لم ينل شيئاً أيضاً

فإذا كانت لك الدنيا فقد كان دارا هو الآخر مليكاً عليها

أين ذهب كل ملوك ايران وتوران؟

الذين تمنطقت الجوزاء حزامها من هلع سيوفهم!

ولو نظرت إلى محافلهم وحروبهم لقلت إنها حقيرة

فإذا كانت الدنيا كالبحر من جيش كل ملك وكنزه

فإن التراب الكدر ليردد القول عن أحوال كل منهم ليل نهار

حتى يصير معلوماً لك إذا كان التراب محدّثاً

ذلك الذي فعل خيراً، قد بقي منه الاسم الطيب خالداً

لو كان يفعل سوءاً في الدنيا فإنه يكون ذا سمعة سيئة فيها

إنك أخذت العبرة من حال الملوك القدماء

ما دامت قد سمعت سيرهم إذا كُنت شخصاً عالماً

إن الغافل سيرى في الغد ما يراه اليوم أيضاً

ورأى العاقل ثانية صاحب العين المبصرة في القلب

وما دام كل شخص يجني يوم القيامة ما زرعه اليوم

فلتكن زراعتك اليوم أفضل إذا أردت

فأولئك الخلق الذين انشغلوا عن أمر الدنيا وليسوا وجلين هكذا

وآسفاه ليت الخلق كانت لهم عناية بأمر الدين

---

(١) دارا: هو أحد ملوك الفرس القدماء.

وأما قوله تعالى: "إيتاء ذي القربى"[1] المأمور بها الملك العام في الدنيـــا، فهي له جميعاً صلة رحم العبودية للحق والخلق وقضاء حوائج أرباب الطلــب، وإيصال الحقوق إلى المستحقين من مال الأيتام والمواريث، وإنصـــاف حقــوق وإدارات الخدم والحشم، وحفظ ثغور المسلمين والتقسيمات والتوزيعات من بيت المال إلى العلماء والصالحين والزهاد، ولا يرفع رأسه أيضاً طرفة عيــن عــن عتبة العبودية، ويراعي إخلاص النية في كل أفعاله، ويعدل في الحكم والسـلطنة بما يناسب أحوال الخلق، ويظل دائماً ملازماً لعتبة العبودية:

لا تتراجع أيهـا القلـب المتعـب عــن محلتـك
رغم أني أعـرف أن هذه البـادية ليست لقدمـك
فداوم في وضع رأسك المولهة على هذه الأعتـاب
فإن عـــرش سـراي الجـلال ليس موضعــك

ولا ينظر بنظرة العجب إلى نفسه ومملكته:

لا تضع القلب على أعتاب الفناء لأنه موضع آخـر
وقـــد شيـــدوا القصـــور لنزهتـــك[2]

---

(١) سورة النمل: آية ٩٠.

(٢) هذا البيت المترجم هو في الأصل للشاعر ظهير الدين الفاريابي.

ويجب أن يكون يقظاً واعياً حتى لا يصل ظلم إلى مظلوم في أي وقت، ولا يعتمد كلية على السلطنة المحمردية، فربما كان "إياز"[1] عصره ينظر بوداء العجز.

أما الفحشاء والمنكر والبغي المنهي عنها الملك العام، فهي ألا يغتر بالمملكة المجازية لقوله تعالى: "**فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور**"[2] لأن فرعون كان في عصره يقول قوله تعالى: "**أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون**"[3]. وفي هذه الحالة يحل الكبرياء والغرور الملكي، ورفعة السلطنة وعظمتها تلك التي تظهر في رؤوس الملوك دون إحساس منهم، وذلك نتيجة رؤية الاستغناء وكثرة احتياج الخلق له. وهذا مرض روحاني يعالجه الأطباء الربانيون لأنهم واقفون على مزاج الروح والقلب. وإذا لم يعالجوا هذه الآفة فإن الطغيان سيتولد من هذا المرض كما قال الحق تعالى: "**إن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى**"[4]، وقال في موضع آخر: "**ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض**"[5].

ويجب أن يدرك يقيناً أن العبد ينظر إلى نفسه بعين الغنى والاستغناء والعزة والسلطنة فيظهر في رأسه مرض التكبر والتجبر، وينظر إلى الخلق بعين الحقارة والمذلة. وفي الحال يسقط من نظر عناية الحق. وقد قال الرسول عليه

---

(١) إياز : في الأصل هو غلام السلطان محمود الغزنوي (المترجم).

(٢) سورة لقمان: آية ٣٣ ، وسورة فاطر: آية ٥.

(٣) سورة الزخرف: آية ٥١.

(٤) سورة العلق: آية ٦-٧.

(٥) سورة الشورى: آية ٢٧.

السلام: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من الكبر"، فسئل: ما هو الكبر يا رسول الله؟ فقال هو: "غمض العين وسفه الحق" أي قال إن الكبر هو أن ينظر إلى الناس بعين الحقارة ولا يمكنه رؤية الحق ثانية. وعلاج هذه الآفة، أنه حينما ينظر طاووس النفس طيلة الوقت إلى قوادم سلطنته ومملكته وجناحهما، ويظهر فيه الإعجاب بنفسه، فهو يريد أن يطير في عالم التكبر والتجبر، ومن ثم ينظر إلى نفسه بمقام شؤم العجز والفناء، وينظر من أين كان أصله كقوله تعالى: "**ألم نخلقكم من ماء مهين**"[1]. ففي البدء كان قطرة مهينة، وفي النهاية سيكون قبضة تراب ذليلة. وفي هذه الحالة فهو أسير لقمة خبز وقطرة ماء وعاجز عن أن يتخلى عن تلك اللقمة وتلك القطرة، لأنها إذا ارتبطت به، فإنه يكون قانعاً لو يدفع ملك العالمين ليتخلص منها كقوله تعالى: "**إنه على رجعه لقادر**"[2]. ومع هذا فهو منتظر أن يصل سيل الأجل لحظة بلحظة، وتخرب كلية رسوم منزل القمر وأطلاله ـ التي حطمها الفلك الدائر بيد الليل والنهار ـ إلى أنقاضها بالتدريج. وفي مثل هذه الحالة **لماذا يغتر بالسلطنة والمملكة الفانية؟ ولماذا يعمل حساباً لمثل هذه السعادة؟:**

أي أمل عند العاقل في هذه الدنيا التعسة
فليتجه القلب إلى سعادته لأجل الحق
وحين يريد أن يجلس مستريحاً
يأخذ الأجل بيده قائلاً: انهض

---

(1) سورة المرسلات: آية ٢٠.

(2) سورة الطارق: آية ٨.

وحين يقف على هذه الأحوال، فإن طاووس النفس يطوي قوادمه رجناحه من الخجل. وذات مرة أمر أحد الملوك وزيره بصناعة خاتم ثمين، حتى إذا غلب عليه البسط ونظر إلى ذلك الخاتم فإنه يُسكنه، ولو استولى عليه الغضب، فإنه يطفئ به نيره. فصنع الوزير خاتماً ونقش على فصه عبارة: "ثم ماذا؟"، أي ماذا سيحدث فيما بعد. وحين تحركت نخوة المُلك في دماغ الملك، وطابت في عينيه الدولة والنعمة والحكم والسلطنة، ونظر فاستولى عليه بسط الغنى ونظر التنعم، ونظر إلى نقش الخاتم وقرأ **ثم ماذا؟ أي ماذا ستكون نتيجة هذه السعادة والنعمة؟!** وكان العقل يُسرُ إليه أنه لن تكون النتيجة سوى الموت والقبر والحساب والميزان والصراط، وفي الحال كان يبدل البسط بالقبض. وحين كان يستولي عليه القبض في حادثة أو مصيبة فينظر إلى الخاتم ويقول لنفسه إنه ما دامت النهاية هي الموت فلماذا الحزن بلا طائل؟ لذا كان يَسْعد بوقته . وحين كان يستولى عليه الغضب وينظر إلى الخاتم ويقول لنفسه: **ماذا ستكون نتيجة الانقياد لهذا الغضب ما دام أمامنا الموت والحساب والصراط؟**، ولهذا كان يُسكن نير الغضب ويظهر الرحمة والمرحمة:

حين يكون التذلل في الإقبال والإدبار
فحين تفقد البصيرة فلا تدرك هذا ولا ترى ذاك(١)

وما دام من المعلوم أن القلب هو سلطان مملكة البدن، ولا مناص له عن العقل الكامل الذي هو وزيره، حتى يشاوره في تصريف ممالك البدن، ويرعى له المصالح الكلية والجزئية، فلا مخرج للملك من وزير عالم، عادل، منصف

(١) سنائي الغزنوي: ديوان السنائي: ص٥٣٠.

مميز، كاف، أمين، مجرب، مدرك، محنك، خبير، صاحب همة، ذي مروءة، صاحب رأي، طيب الخلق، متدين، طاهر السريرة، مشفق، مطلع، مصلح، وصالح حتى يشاوره في جميع أحوال الخاصة والعامة، ويقوم ـ بصلاح رأيه وبُعد نظره الملكي واستمداد فيض الحق ـ برعاية حقوق العباد والبلاد من الخاصة والعامة، ويرجع الوزير إليه، بواسطة الجلد والكفاية والمباشرة، لجميع أركان الدولة ونواب الحضرة وعامة الرعية. ولهذا السبب قيل: "**الناس على دين ملوكهم**"، حتى يتفرغ الملك للفتوحات في هدوء وسكينه. وتلك شروط وآداب وناموس السلطنة المعهودة إلى الوزير الخبير:

فلتأمر عالماً بالأعمال على الدوام
حين تريد أن يكون أمرك مثل المحبوب
لأن العالم يعرف كل أمر
هكذا قرأت في دفتر زرادشت[1]
إن العالم بلا ريب يكون في الجنة

وإذا لم يكن للملك القدرة على القيام بالوزارة، فسينزل عن الحكم وشروط السلطنة، وتختل أحوال الملك والمملكة والرعية كما يقال: "**لكل عمل رجال**". وعلى ذلك يمكنه أن يرعى المصالح مع الصديق والعدو بالمروءة والمداراة، بمعاونة الوزير ذي الرأي السديد، لأن هذا لا يتطلب الجيش الجرار أو خزائن الدنيا، ويكون الوزير أيضاً عوناً للملك في الدين والدنيا، فيحثه على فعل

---

(١) زرادشت: هو أحد الملوك القدماء الذي كان يعتقد فيه الفرس القدماء أنه نبي عظيم وحكيم نزلت عليه رسالة من السماء باسم الزند، وسُمي باسم عابد النار. (المترجم).

الخيرات، ويوفق في معاونته على الإحسان ونشر العدل وإيتاء ذي القربى. ومن هنا قال الرسول عليه السلام: "إذا أراد الله بملك خيراً جعل له وزيراً صالحاً، **فإن نسي ذكّره وإن ذكر أعانه**". وفي الجملة فإن الوزير الفاضل موجب للنظام وانتظام الدين والدنيا والمملكة والرعية الملكية، وستدوم السكينة بسببه، وستحقق كذلك الأماني الجميلة. وحين يستلزم الوزير فيجب أن يكون محترماً وموقراً وينفذ حكمه ويبجّل في الممالك لأن احترام وتبجيل الوزير قوة عضد لعظمة وسلطنة الملك، كما أن الحق تعالى كان يمن على موسى بوزارة هارون، بقوله تعالى: "**سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا**"(١). وهكذا فإن الأركان الأخرى للدولة وأعيان المملكة في الداخل والخارج تكون للملك بمثابة الأعضاء الرئيسية وغير الرئيسية للبدن، كما أن الإنسان محتاج إلى وزير ـ هو العقل ـ من أجل سلطنة القلب، فلا مناص للملك أيضاً من الوزير الكافي. وكما أن البدن يحتاج لأعضائه الرئيسية كالرأس والكبد والرئة والطحال وكيس الصفراء والكلية، فإن الملك أيضا يحتاج إلى الأمراء والأعيان حتى يقف بواسطتهم على أحوال المملكة مثل المستوفي والمشرف والناظر والمهندس والحاجب والمشرف على القصر وغيرهم . وكما أن القلب والبدن يحتاجان إلى الحواس الباطنة والظاهرة كالعين والسمع واللمس والأنف واللسان والحس المشترك والخيال والوهم والذاكرة والحافظة وغيرها من القوى، فالملك يحتاج أيضاً إلى العمال والنواب والنقباء والمراقبين والمفتشين وسائر الأشياء على حسب مراتبها. وكما أن سلطنة البدن تحتاج إلى العروق والأعصاب والأوردة والشرايين والشعر والعضلات والأصابع والعظام والأمعاء والمجاري الداخلية والخارجية وسائر الأجزاء الأخرى، فالملك ـ على نفس النمط ـ يحتاج أيضاً إلى الخدم والحشم

(١) سورة القصص: آية ٣٥.

والحراس والجند والعلماء والمربين الأقوياء والحاشية والخيل والدواب والقوم والطوائف وعموم الرعايا على اختلاف درجاتهم. وكما أن البدن يحتاج إلى اليد والساعد والعضد والفخذ والركبة والساق والقدم والظفر، فإن الملك أيضاً يحتاج إلى الخيّام والصائغ والجواهرجي والطباخ والخطيب والشاعر والحارس وحارس القلعة وحارس الليل وحارس النهار.

وما دام الإنسان في حاجة إلى هذه جميعها، فإنه لو نقص عضو منها فسيكون الإنسان ناقصاً، كذلك فإن الملك يحتاج إلى هذه الأشياء جميعها، ولو نقص أحدها فسينقص أمر المملكة بهذا المقدار، وليس في الإمكان أن يكون قوام السلطنة ونظام المملكة دون معاضدة الأمراء والأعيان وسائر الأشياء التي ذكرت من قبل. ومن ثم يجب على الملك أن يعين كلا من أركان الدولة وأصحاب المناصب، بعد الأهلية والاستعداد التام لها والأمانة والديانة والسيرة العطرة التي عرفها وتأكد منها، ويسند إليه ما يليق له في البلاد والإقطاعات والأعمال والمناصب بشروط أعمالها وما فيه مصالح الملك وحسن الخدمة التي يعرفها عن أي منهم. ويجب على حضرة الملك أن يقف على أحوال كل منهم ويعرف كيف يتصرف في المملكة مع الوضيع والشريف والأمير والفقير، حتى لا يتجاسروا ولا يجرءوا عليه، ويحول دون طمع الطامعين. ويجب كذلك أن تكمل أمور الحياة المنزلية والمعيشة اليومية لكل طائفة حتى لا يقعون في الخيانة بسبب الاحتياج للضروريات. وعلى الملك ألا يقبل كلام البعض في حق البعض دون بيّنة وشهود، ويحترز تماماً أن الناس يظهرون الأمناء ـ حسداً ـ في صورة الخيانة، وحتى لا تنسب الخيانات إلى المشفقين والمخلصين. ولو وقعت على أحد المخلصين للملك تهمة صغيرة، فإنهم يعفونهم. ولو شاهد الكثير من

الاضطرابات، فلا يفرط في العقاب. وإذا كان جرم لا يمكن التهاون فيه، فليقرأ قوله تعالى: "وجزاء سيئة سيئة مثلها"[1]. وليجعل نصب عينيه دائماً آية: "والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين". ولكن عليه ألا يكون هكذا فينسب إليه أنه متهاون وضعيف التفكير، ويتجاسر عليه أهل الفتنة والفساد، وتتمكن أعمال الفساد في رؤوسهم.

وإنما يجب أن يكون الملك معروفاً بالقصاص والانتقام والحمية والرجولية، ويتبع سياسة التخفيف والتهديد والنصيحة في الجرائم الصغيرة، ولا يتجاوز عن الجرائم الموجبة للقصاص أو المتعلقة باضطراب المُلك، ويعمل على إتباع أوامر الشرع بالسيف البتار، حتى إذا ظهر مرض الجذام في أي عضو فلا يهمله قطعياً، ويجب أن يستأصل ذلك العضو حتى لا تسري هذه الآفة في جميع الأعضاء:

إذا تصادق عضو منك مع العدو

فيصير العدو اثنين لأنه سيف ذو نصلين وذو طعنتين

وعلى الملك أن يرعى طرفي الإفراط والتفريط في الأمور كما يقال: "**خير الأمور أوسطها**"، ولا يبالغ في العقاب فيخافه الخلق وينفرون منه، ويستولي الخوف والنفور على الطباع وينتشر في النفوس، ويختلق الناس المكر والحيل فتضطرب المملكة:

---

(١) سورة الشورى: آية ٤٠.

لا تتحــــول عنــهم بضعــف كذلــــك
فإنهم يقدمــون علــى حيــاتك دفعــة واحــدة

ويجب ألا يفرط في حكمه كثيراً، فيذهب وقع الملك وهيبته من القلــوب، ويتجاسر عليه المفسدون الأذلاء وينتشر أهل الظلم، وتضيــق الأحــوال علــى المخلصين والمصلحين والضعفاء والغرباء، وتظهر الاضطرابات العظيمة فــي أرجاء الملك والمملكة. وإنه لمن أعظم الأمور في المملكة، أن يتخــذ (الملــك) شخصاً عاقلاً ذكياً موثوقاً به صادق القول صاحب علم وخبرة وصاحب أصــل ونسب وصاحب دين وديانة، حتى يكون، دائماً متفحصاً الأحــوال ومســتخبراً الأخبار عن الصديق والعدو والبعيد والقريب والشريف والوضيع في المملكــة، ويطلع الملك على جميع أحوال المملكة، ويوقفه على خيانة الخونة وأمانة الأمناء وشفقة المشفقين وإخلاص المخلصين، حتى إذا نزل الظلم علــى الرعيــة مــن الظالمين في المملكة، أو ظهرت حركة من المعادين موجبة لاضطرابها، فإنــيا تعرض على الملك كي يعمل على تداركها.

وعلى الملك ألا يسرف كثيراً في السخاء والبذل، حتى لا يقع في الإسراف والإتلاف والتبذير، إذ أن ذلك مذموم كما قال الحق تعالى: "إن المبذرين كــانوا إخوان الشياطين"(١). وقال تعالى: "إنه لا يحب المسرفين"(٢)، ويجب ألا يعمل علــى حفظ المال وجمعه حتى لا ينسب إليه البخل لأن ذلك أيضاً مذمة وخسارة للدنيــا والآخرة، وليس للملك أي آفة أو سوء سمعة أسوأ من البخل. فالبخيل مذموم في

---

(١) سورة الإسراء: آية ٢٧.
(٢) سورة الأنعام: آية ١٢١ ، وسورة الأعراف: آية ٣١.

الدنيا والآخرة وخاسر لهما كما قال تعالى: "ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتــاهم الله من فضله هو خيرًا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يــوم القيامــة"(١). وعلى كل فإن الإسراف والإمساك في جميع الأمور الدنيوية مذموم، وأما النفقات التي تصرف في أمر الدين فهي ممدوحة، وهي كمال ونعمة فضل الحق، ويجب ألا يمنع فضل الله عن خلق الله:

لا تكثـر من المـال لأنــه ليـس ملكـاً لــك
وإنه يصيـر لـــك لــو تســرع فــي إنفاقــه
ولو أردت، فــاكتنزه حتــى يجــده غـيرك
وإذا شــئت، فأنفقــه حتــى تسـترده ثانيــة

وعلى الملك أن يجتهد قدر ما يستطيع في أن ينال من ماله وملكه السـمعة الطيبة في الدنيا والثواب في الآخرة. وقد قيل: ذات مرة وقف جائع على بــاب دكان خباز فرأى خبزاً كثيراً موضوعاً، فقال للخباز: فلتأكل كل ما تريد وتنفــق قبل أن يباغتك سيف الأجل، وتنزل من على عرش مملكتـــك وتلقــى العــذاب سنوات طوال على يد الأعداء، ويشتعل في روحــك نــار حسـرتها وندامتــها وغرمها، لأنه لن يطفئ لهبها أي ماء سوى ماء الرحمة:

لو أن سعادة هـذه الدنيـــا هــــــانئة
فلا تعلق القلب بها لأنها قاتـــــلة الحبيـــب
وكل من تدللــه مثـل الملك في الشطـــــرنج

(١) سورة آل عمران: آية ١٨٠.

فإنها تُجَنِّدِ لَه على الرقعة كالجندي

فإن الحياة الدنيا مثل السراب في الفلاة

تُغرى كل شخص ولكن لا تعطى الماء

وكثيراً ما جاء الفلك بملوك ووزراء

وقد أعطاهم الملك والمال والتاج والعرش

وسيّر الأمور حسب أهوائهم

وسخر الخلق جميعاً لراحتهم

حتى صاروا كالنمرود أصحاب أموال كثيرة

وقد صاروا كل فرعون في زمانه

وكانوا يمتصون دماء الفقراء

وكانوا يسلبون المخ من رؤوس المساكين

فصرفوا عمرهم في الدنيا طوال حياتهم

واغتروا جميعاً بالجاه والمال

ولكن هبت ريح القهر العاتية فجأة

وقلبت عروشهم رأساً على عقب

وتعفنت أجسادهم في التراب

وأعطى ملكهم للأعداء

وحملوا أوزارهم معهم إلى الآخرة

ونهب غيرهم أموالهم

وذلك الذي كرمه الحق بنور اللطف

أدرك الخير والشر بنور الحق

وعرف أيضاً النـــار من النــــزر
ولم يعلق قلبــه بهذه الدنيـــا الغـرور
وأدرك الباقـــي مـــن عمــره
فأســرع إلـى صـلاح معـــاده
واهتم بأنه حين يمضي عن هذه الدار الحزينـة
لابـد أنـه سيكون سعيـداً فرحــاً
وكل مـا نـال من الملـك والمـال الملكـي
حمله معه ولم يتـــرك حبـة شعيـــر
ولا جرم أنه حين بلـــغ الأمـــر غايتــه
فإنه رحل مع مائة ألف مـــن الاستظهـــار

سبحان الله: كيف يتحمل كل هذه المحنة والألم والتعب والمشقة؟ ولمـاذا يتحمل مسئولية صلاح وفساد الدنيا في عنقه؟، ولماذا يلزم أن يلقي بنفسه في معرض الآلاف العديدة من التضرع والرجاء لكلا العالمين؟. وكل هذا إذا كـان من أجل معدة للطعام ورداء للكساء به، لكان من الغبن ألا يشترك أقل شـخص فيها مع أصحاب الثروة دون هذا الألم، فينال من تلك السعادة الأخروية اللازمـة لتكون وسيلة للتقرب وقبول رضا الحق، لأنه حين يغفل سيحرم من فوائدها.

وكل من كانت عين بصيرته ــ سواء الملك أو الشحاذ ــ مشرقة بـالنور الإلهي، فإنه يهمل الجاه والمال الدنيوي الفـاني كقولـه تعـالى: "والباقيـات

الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً"[1]. وتلك الباقيات الصالحات هي المعينة والمرشدة للمؤمنين من الأعمال البدنية الصالحة والخيرات الباقية من ماله. يقول الرسول عليه السلام: "**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له بالخير**".

فما أعظم السعادة حين يكون العبد مسجى في قبره وله أعمال خالدة. ففي كل لحظة وفي كل نفس، تنزل عليه الملائكة المقربون بأطباق الرحمة والكرامة من حضرة العزة قائلين له إن ذلك ثواب لقمة وصلت منك لفلان الفقيه والفقير في المدرسة والخانقاه (الزاوية)، أو ثواب السكينة والهدوء التي منحت من بقاع خيراتك لفلان المسكين وأعطاها لفلان المريض، أو أعطيت لفلان رباطاً جلس في ظل حائطه، أو بنيت لفلان مسجداً يصلي فيه ركعتين. ومن ثم يجب على كل شخص ألا يأسف على أن يكون له هذه السعادة في أيام الرخاء، لأن تلك الخيرات فانية لا تدوم:

لا تغل فلن تجد عمرًا أعظم رونقاً من هذا
وكن عادلاً بالحق لأنه حين ينصرم العمر فلن تجد غيره

حتى حينما يفيق من غفلة السعادة، يكون المال والثروة قد ذهبت من يده وحرم من تلك النعم. وعلى كل فإنه لو حرم من هذه السعادة فسيلقي بنفسه في معرض الشقاء:

أيها القانص ما أحسنت صيد الطلبات
فاتك السرب وما زودت غير الحسرات

(١) سورة الكهف: آية ٤٦.

أيها التراب قل لملك إيران
إنني أنا التراب المذل للجيران
إنني أنا الجائع كم أكلت كثيراً من الشبعين
إنني أنا القبر، كم أكلت كثيراً من الأسود

وإحدى سعادات الملوك هي أن يجدّ في إحياء الخيرات والمبرات والأوقاف للآخرين، وألا يسعى في تغييرها وتبديلها مثقال ذرة، وألا يقبل من المستشارين سيئي السمعة وفاسدي العقيدة تغيير هذا المعنى، لأنهم يوشون إليه – بجهلهم وغفلتهم – في دمه وروحه وإيمانه، ولا يعرفون كم من الآلاف العديدة من دعوات السوء يستحقها من هؤلاء المظلومين لأنهم جميعاً أهل خير وصلاح، ومحرومون من فوائد تلك الخيرات. فأي عاقل متدين عالي الهمة يحرم آلاف الأرواح الطاهرة من بسط الخير!.

وتظهر أرواح فاعلي الخير في حضرة العزة بذلك التقرب ووسيلة التظلم من ظلم الظالمين فتقول: يا إلهي إني قتّرت بمالي على نفسي، وحرمت العيال منه، وأوقفت الخيرات والمبرات على عبيدك من أجل رضاك، وفلان الظالم يمنع ذلك الخير وحرم عبيدك، ويتجاسر على حضرتك، **فمن الذي يمكن أن يخرج من ربقة هذه الواقعة؟**، خاصة أن الخيرات والمبرات كثيرة والمطالبين والمستحقين لا حصر لهم. نعوذ بالله من عذاب الله.

والويل لحضرة الملك، إذا داهن زاهداً أو جاهلاً أو عالماً فاسقًا وسمح له بأن ينفق مال الخيرات والأوقاف في موضع آخر، أو يمنحها للجنود أو يستغلها في بناء معبر أو رباط أو ثغر أو سد؛ فحاشا وكلا، وعليه ألا يغتر بذلك، وألا ينفق أي منها إلا في المصارف التي حددها أصحاب الخيرات والأوقاف

والمبرات، وإلا فإن من يفتي بذلك، ومن يأمر به، ومن يحمل على مباشرة هذا العمل، ومن يستطيعه ولا يقوم به، فهؤلاء جميعهم في الوزر والوبال والظلم، ويستحقون الأوقاف والمبرات من خصومهم يوم المعاد ويطلبون حقهم.

ومن ثم فواجب على الملك أن يكون لديه في ممالكه كل نوع من الوقف والخيرات، بشرط أن ينفقها على المستحقين في الأوجه التي حددها أصحاب الأوقاف الخيرية. ويجب أيضاً على الملك أن يعين على الأوقاف والمواريث والخيرات والمبرات شخصاً أميناً متديناً مشفقاً منصفاً، ويكون أهلاً لذلك العمل، حتى يعمل جاهدًا على عمارة الأوقاف، ويكف يد الظالمين والناهبين من التعدي والظلم، ويعطي لكل ذي حق حقه. ويجب أيضاً على الملك ألا يعطي أوقاف المدن إلى أرباب المناصب في تلك المدينة، لأنهم يجعلون الخيرات والأوقاف درءاً لبلائهم، ويعطونها لأتباعهم، وكأنهم قطاع الطرق، ليتمتعوا بها في مقابل قيامهم بخدمتهم، ولو طمع فيهم الرائحون والغادون فإنهم يحيلونهم إلى الأوقاف، وإذا أتى إليهم فقير أو عالم عزيز النفس، ولم يمدحهم بطول بقائهم، ولم يقدم القرابين، فلن يلتفت إليهم أحد من أصحاب المناصب، وسيحرمونهم من تلك الخيرات. ولو ولى الملك واليًا أميناً صاحب ديانة عالماً مشفقاً على الولاية، فسيؤدي هذا الوالي الحق إلى مستحقة، ولن يحرمه منه. ولن يغفل ذلك الأمين عن أحوال وأعمال تلك الولاية، وهكذا يثيب الحق تعالى أصحاب الوقف وأصحاب الخيرات والمبرات. وحين يتقدم (الوالي) للملك لإحياء تلك الخيرات فإنه يمنحه الثواب والأجر، وإذا أهمل هذه المهام الدينية وتصرف فيها الناهبون دون حق أو استحقاق وحرموا المظلومين، فحينئذ يكون وبال ذلك أيضاً في ذمة الملك.

وحين كان هذا الضعيف في الشام عام ستمائة هجرية، سمعت أن الملك صلاح الدين اعتاد، حين كان يستولي على أي مدينة، أن يقيم فيها الأبنية الخيرية. وحين استولى على ديار مصر قال للقاضي الفاضل الذي كان وزيراً: إني أريد أن أشيد الخانقات في مصر، فقال القاضي وأنا أريد أن يقيم ملك الإسلام بقاع الخير في ديار مصر، **فقال كيف يتيسر ذلك؟** فقال له إنه قد أقيم في ديار مصر الآلاف الكثيرة من بقاع الخير، فظهر فيها الخلل الكثير، ولو أمر ملك الإسلام بإصلاح تلك الخيرات والأوقاف وإعادة بنائها وتخليصها من سيطرة الناهبين وتسليمها إلى أمين عالم متدين مشفق لكي يتصرف فيها، فإن ثوابها جميعاً يأتي إلى ديوان الملك. وهكذا كان، فتلك الخيرات كان قد أقامها الملك الذي أمر ففعلوا ذلك: **"تقبل الله منه وشكر الله سعيه"**.

ويجب أن يعلم أن كل خلل يظهر في عصر الملك من الخيرات والمبرات والأوقاف، فإن الحق تعالى يقبلها جميعاً من ذلك الملك، ما دام أنه لا يستصغر هذا الأمر المعظم ولا يستحقره، ويصون نفسه من وبالها.

ويجب على الملك أيضاً أن يعيّن على البلاط حاجباً معتمداً متديناً حسن العقيدة مشفقاً رؤوفاً، ليكون رحيماً بأحوال الخلق والرعية، حتى يعرض عليه أحوال المظلومين والمحتاجين، فيستطيع الملك قضاء حوائجهم من المهام والواجبات، ويعتبر هذه الخدمة غنيمة عظيمة.

وهكذا يجب على الملك حين تكون هناك ثغور للكفار في أي مكان، أو يتعدى الكفار حدودهم، أن يولي أميراً شجاعاً، هصوراً، محنكاً، طاهر السريرة متديناً، ذا حمية، وغيوراً محباً للوطن وأبناء الوطن، ومعه الجيش الجرار ويعطيه من الخبز الكسور. وعندئذ يأمره بألا يناموا الليل، وأن يعملوا طول اليوم بالحرب والجهاد، وإذا احتاجوا إلى مدد فيمدهم به حتى يكونوا دائماً أقوياء

السلطان والشكيمة وهانئي البال. وكلما يظهر فتح جديد، ستأتي العزة والشرف والحب ـ بصورة مستمرة ـ من حضرة الملك لذلك الأمير والجنود، حتى يضحوا بأرواحهم بغية ذلك الأمل والاستظهار، ويعملوا على قهر وقمع أعداء الدين، لا أن يغفلوا ويتكاسلوا حتى يستولي الكفار على البلاد ويداهموا بلاد الإسلام وثغور المسلمين، ويقتلون، كل حين، الكثير من آلاف المسلمين ويأسرونهم، ويسلبون أهل وعيال وأطفال المسلمين، لأن هؤلاء جميعهم أمانة في ذمة ملك عصرهم، ويجب أن يجد له مخرجاً عند محاسبته عليهم.

ويجب على الملك، حين يرسل للولاية صاحب شرطة أو والياً، أن يرسل شخصاً عاقلاً متميزاً عالماً متدنياً يكون ذا سياسة وديانة ومروءة ومحبة، حتى يقوم بشروط ذلك العمل على أكمل وجه ويجب ألا يكون ظالماً يسفك دماء الرعية، ولا يعين غافلاً يهمل مصالح الرعية.

ويجب على الملك حين ينصب قاضياً على مدينة أو ولاية، أن يرسل شخصاً عالماً وعاقلاً ومتديناً وصالحاً، حتى يحول دون أموال الأيتام والمواريث والأوقاف والرشوة وما شابهها، ويقنع بمعيشته وراتبه، ويكون لذلك القاضي المعاونون والمصلحون والثقاة والمتدينون، حتى لا يميلون إلى الظلم والجور في ادعاءاتهم، ولا يطمعون في إبطال الحق أو يميلون إلى إحقاق الباطل. ولو أنه يصعب أن يتحقق هذا المعنى، في هذا العصر، لسببين:

الأول: لأن القاضي يقل اتصافه بهذه الصفات.

الثاني: حين يتصف القاضي بهذه الصفات، فإنه لن يصبح هناك شخص طالباً للقضاء، كما أنه لا يدخل إلي دائرة بلاط الملوك ونواب الحضرة.

ويجب أيضاً أن يكون الملك طيب العهد وفياً غير خائن، ويتلافى سوابق حقوق المعاونين المخلصين القدماء بلواحق الإنعامات والمكرمات، خاصة

الطائفة التي كانت تنشد حب الخير في أيام المحنة وأوقات الشدة، وكانوا ثابتي القدم على جادة العبودية:

إن الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا   من كان يألفهم بالمنزل الخشن

وفي الجملة حين يتبع الملك أحوال كل طائفة، ويكون عالماً بمعاملات كل ذي عمل ويشعر بآلام المسلمين كي لا يتفشى الظلم والجور في ممالكه، ويصلح الأحوال بأقصى سرعة، فلا يستحق غير المستحقين كما يقال: **"الناس على دين ملوكهم"**.

ولكنه إذا قضى عمره في الغفلة، وأنفقه في الهوى والشهوة واللذة، وجد في جمع الأموال، ولم يهتم بالجنود والمملكة والرعية، فإن الظلمة والكفار سيسيطرون بسرعة، ويتطاول أصحاب المناصب فيحرمون المستحقين، وبذا يستولي الكفار، ويفرقون المسلمين، ويغتنم اللصوص وقطاع الطرق والمفسدون الفرصة، فيريقون الدماء دون حق، ويتلفون أموال الغرباء والتجار، وينشرون الفساد، وتظهر أنواع البلاء والفتن، ويكون الوبال كله في عنق ملك العصر. ومن هنا قال الرسول عليه السلام: **"إن شر عباد الله منزلة يوم القيامة إمام جائر"**. وعلى هذا فإن الشحاذ يفضل على مثل هذا الملك ألف مرة، لأن الرسول عليه السلام يقول: **"ما من راع لا يحفظ رعيته بنصيحة إلا أكبه الله بمنخره في النار"**، وكذلك يقول: **"ما من أمير عشيرة إلا يؤتي به يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه أطلقه الحق أو أوبقه الجور"**. ولكل رفعة ما يناسبها من تلك المذلة، كما أنه ليس هناك مرتبة أسمى وأشرف من المرتبة الملكية حين يعمل ما يناسب السلطنة، وفائدتها هي ما يقول عنها الرسول عليه السلام: **"ما من أحد أفضل منزلة من إمام إن قال صدق وإن حكم عدل وإن استرحم رحم"**، وأن آفتها مناسبة لها.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله،

الفصل الثالث

في بيان سلوك الوزراء وأصحاب القلم والنواب

الفصل الثالث

في بيان سلوك الوزراء وأصحاب القلم والنواب

قال الله تعالى: **"واجعل لي وزيراً من أهلي، هارون أخي، أشدد به أزري"[1].**

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: **"إذا أراد الله بملك خيراً جعل له وزيراً صالحاً، فإن نسي ذكّره وإن ذكر أعانه".**

اعلم أن الوزارة تتلو السلطنة وهي الركن الأعظم في المملكة، ولا مناص لأي ملك عن وزير صالح صاحب رأي مشفق قنوع ذكي داهية عالم عامل. والملك الذي ليس في حاجة إلى وزير أو مشير، هو الله الذي ليس له شبيه ولا مثيل ولا نظير، والباقي، رغم أنهم أنبياء، إلا أنهم قد احتاجوا إلى وزير ومشير، كما يقول الحق تعالى عن حال موسى عليه السلام إذ طلب وزيراً من حضرة العزة: **"واجعل لي وزيرا"** أي كرمني بوزير يكون سنداً قوياً لي، ويقول الرسول عليه السلام: **"لي وزيران في السماء وفي الأرض: أما وزيري في السماء جبريل، ووزيري في الأرض علي".**

وحين لا يكون في المملكة وزير كامل محترم، فلن يكون لها عظمة وزينة. ومثال المملكة على مثال الخيمة، فعمود تلك الخيمة هو الوزير السديد الرأي، وحبالها الصغيرة والكبيرة هي الأمراء والأشراف والأعيان على حسب

---

(١) سورة طه: آية ٢٩-٣١.

المراتب، حيث أن بعضاً من هذه الحبال صغير وبعضها كبير. وأشراف المملكة أيضاً بعضهم صغير وبعضهم كبير. وتلك الحبال الأخرى التي في أطراف الخيمة هي بمنزلة النواب وأصحاب القلم، وتلك الحبال التي في فتحة الخيمة هي بمنزلة الجند وأمراء الجيش، ومسامير وأوتاد تلك الخيمة ـ إذا كان من الممكن أن تخلد تلك الخيمة ـ هي العدل والإنصاف والمروءة التي تظهر من الملك، رغم أن الأمراء والوزراء والحراس والنواب وأصحاب القلم كثيرون، وهم قوة وشوكة وعتاد وعدة لا حصر لها. ولكن المملكة لا تستقر ولا تثبت إلا بالعدل والإنصاف والمروءة، فمثلها كالخيمة، رغم أنها كاملة العُمد والحبال، ولكنها لا تثبت إلا بالأوتاد، ولو نقص وتد في إحدى الزوايا، لظهر خلل تلك الخيمة.

وهكذا إذا لم يكن العدل والإنصاف في المملكة، فلن يكون لها البقاء ولا الدوام، ولذا قال الرسول عليه السلام: "**المُلك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم**" (**الجور**). ومن المعلوم أن الوزير بمثابة عمود الخيمة للمملكة، فلو كان ذا رفعة وعلو قدر، لكانت خيمة المملكة ـ بسببه ـ أكثر عظمة وجلالاً. ويجب أن يكون للوزير أربعة خصال مثل عمود الخيمة: هي الاستقامة والرفعة والثبات والتحمل:

الخصلة الأولى: هي الاستقامة بينه وبين الحق تعالى، فيتمسك بالاستقامة كما يأمر بها الحق تعالى: "**فاستقم كما أمرت**"(١)، أي اتبع جادة أمور الصدق، لأن هذا هو الصراط كما قال تعالى: "**وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه**"(٢). وعليه دائماً أن يرعى جانب الله في

---

(١) سورة هود: آية ١١٢.

(٢) سورة الأنعام: آية ١٥٣.

كل أمر يتّزن، إذ يجب أن يحترس من أن يتبع الحق مع الخلق ويهمل جانب الله، لأن هذا هو رأس كل الضلال، ولكن لو اتبع الحق مع الله، حتى لو أهمل جانب الخلق، فلن يناله ألم من ذلك كما يقال: **"من كان لله كان الله له"**.

ويجب أن تكون الاستقامة بين الملك والوزير على نحو أن يستوي ظاهر الوزير وباطنه لدى الملك وأن يطهر باطنه من شوائب الخيانة والغل والغش، وألا يعيش بالنفاق في خدمة الملك كأن يمدحه في حضوره، ويعلن موافقته بالقول: **"صدق الأمير"**، عن كل حسن وقبيح يفعله ويقوله، ويرعى له مزاجه، ولكنه عندما يخرج فيعدّد مساوئه، ويعترض على أفعاله وأحواله، ويشكوه لكل شخص حتى يجعله مسبة على لسان الخلق بالسوء والجهل والظلم. وحين يريد أن يوقع ظلماً على شخص من أجل طمعه فإنه يلقى التبعة على الملك بأنه يأمر بذلك، ويبرئ نفسه، وهذا كله نفاق وانحراف وخيانة.

وأن الاستقامة والإخلاص مع الملك هي أن يكون فيه صلاح الوقت والرأي الصائب، وذلك يقتضي أن يرد بديباجة طيبة، ويعرض التعبير في كساء مناسب في الوقت المناسب عن كل ما أحسن بعد رعاية آداب السلطنة. ولو اعترض الملك أيضاً على هذا الكلام فعليه أن يستدركه، ثم يواجهه، ولا يتخطى كلام الملك، لأن للملوك قدرة المعرفة بالفراسة الملكية كما يقال: **"كلام الملوك ملوك الكلام"**، ويصغي إلى كلامه بمسمع الرضا ولا يعشق كلامه ويقدسه. ويجب أن يتحقق من ذلك الكلام جيداً، حتى لو أراده أن يزيد عليه، إنما يعرض في أناة. وفي الجملة فلا يحيد عن كلمة الحق، وليعرف الوقت المناسب للملك وأحواله، حتى لا يكون في وقت ملله، ويغرس في طبعه ــ قدر إمكانه ــ الحق والصلاح والصواب بكافة الوسائل، حتى يمهد طريق الصدق والإخلاص.

والاستقامة أيضاً هي أن يكون الوزير على هذا النمط أيضاً مع الأمراء والأعيان والرعية والجند، فيكون مشفقاً على أحوالهم، ويكون دائماً مشاطراً لأحزانهم وآلامهم، كأن يجهز العتاد والآلات والعدد للرعية ويوفر لجماعاتهم سبل العيش والراحة، ولا يثقل عليهم.

وهذا المعنى يتمشى مع حقيقة ذلك العصر حتى يجدّ الوزير في عمارة الولاية وزراعتها، ولا يظهر في طبعه آفة الحرص على جمع المال، ولا يظهر الظلم والبدعة، ولا ينقص كسوة الجنود ورواتبهم، لأنه ستخرب الرعية ويظل الجنود دون مدد، وحينئذ سيصير خراب الرعية خراباً للولاية، ويتزلزل خواب الولاية وينتظر حدوث الآفات والفتن والاضطرابات العظيمة. ثم يجب أن يسير الوزير على الاستقامة من أجل عمران الولاية والرعية والأشراف والأعيان والحراس والجيش، ويوفر لهم جميع سبل العيش الطيبة والهنيئة. وحين يستقر الملك والمملكة فستكون الدنيا جميعها خزانة للملك.

ومن استقامة الوزير ألا يخلق البدعة في المملكة للتقرب بها إلى الملك لأن ذلك ليس محبة، ولكنه عداء كامل، وسيكون له وللملك سوء السمعة في الدنيا والعذاب في الآخرة، وسيلقي غضب الله تعالى. ولكن عليه أن يجتهد في زيادة الإدارات والمعاش والنذور والصدقات والصلات على الغادي والرائح والزهاد والعباد والعلماء والمتصوفة، ويحسن على أهل الدين دائماً، لأن في ذلك أمان للمملكة ودوام للملك والسلطنة، ويصير موجباً للقربات ونيل درجات الآخرة.

ومن استقامة الوزير أن يفسح بلاطه لأصحاب الحوائج ولا يتكبر مع خلق الله ويعيش مع الخلق بالخلق الحسن والكرم والمروءة.

الخصلة الثانية: هي علو الهمة، يعني أنه لا يخدع بزخارف الدنيا، ولا يفكر في هذه الدنيا الجيفة:

ما هي الدنيا والخلق والاستظهار
أنها مزبلة مليئة بالكلاب والجيف[1]
إن الغني والفقير مغروران بها
وفَرِحان مثل خيال الذي يفكر في الكنز
إن دولة الدهر مثل الحية الرقطاء
ناعمة ملونة وداخلها ملئ بالسّم[2]
إن كل هذا الغرور لقبضة من التراب
وكل هذا العويل لشخص صامت.

وأن علو الهمة هي أن يعرف أنه قاصد بيت الله، ويدرك أن الجاه والمال الدنيوي مثل الزاد والراحلة، ويعلم أن امتداد أيام العمر على مثال أشهر الحج، ويدرك أن الأجل المحتوم مثال الموسم، ويتأكد أن الزاد والراحلة قد أعطيت له من أجل بادية النفس الأمارة، حتى يزيل الحجاب الذي بينه وبين الكعبة التي هي المقصد والمقصود.

ومن ثم فلا يهبط بطبيعة النفس على حافة شط هوى بغداد، ولا يزين بعير النفس كل يوم بالشهوات، ويجهز آلة وعدة السفر دائماً، ولا يسقى النفس من

(١) سنائي العزنوى: حديقة الحقيقة: ص٤٣٣.
(٢) المصدر السابق: ص٤٣١.

شراب الشهوات بثمالة الغفلات، لأن القوافل تمر عليه فجأة وهو أسير في غفلة ثمالة وجوده، ويحل موسم الحج فيتوجه القاصدون إلى الحج، ويبقى هو في غفلة الغرور والخيال كقوله عليه السلام: "**الناس نيام فإذا ما ماتوا انتبهوا**"، ولا يبقى سوى ريح الحرمان في الرأس، وعلى الوجه تراب الخزي، وماء الحسرة في العين، ونار الندامة في القلب. ومن ثم فإن علو الهمة هي ألا يهمل ويفقد الجاه والمال الدنيوي لأنه هو الزاد والراحلة، ولا يقنع بذلك التنعم والتجمل، ولكن يجب أن يجعل الجاه والمال والثروة الدنيوية وسيلة لنيل درجات الجنة والقربات من الحق، ولا ينفقها في الشهوات والتمتعات الحيوانية، حتى لا يضل السبيل إلى مقصد ومقصود جمال الحبيب، ولا يبقع في مرتبة قوله تعالى: "**أولئك كالأنعام بل هم أضل**"(١)، ويكون نصيبه من أولئك الذين يقول الحق تعالى فيهم: "**ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوق يعلمون**"(٢).

ومن ثم فإن على الوزير العالي الهمة ألا يغتر بزخارف الدنيا الفانية ويتجه إلى الدرجات الآخرة والمقامات العالية، وأن يجعل الجاه والمال الدنيوي وسيلة القبول والقرب من الحق. وأيضاً فإن علو الهمة هو أن يعيش بهمة عالية في حضرة الملك ولا يتجه إلى الأطماع الفاسدة بالدناءة وخسة الطبع ولا ينظر إلى كل شيء ويغلق باب الشهوات المهترئة، ويجعل نفسه عزيزة قانعة وأمينة. وحين يشاهد الملك أخلاقه بنور الفراسة، فإنه يصير محبوباً ومقبولاً لديه، ويزيد من توقيره واحترامه. والغرض من ذلك هو أن يأتيه منه المزيد على أحسن الصور، ويزيد من اعتباره ويذاع صيت الوزير العالي الهمة في العالم. وأيضاً

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٧٩.

(٢) سورة الحجر: آية ٣.

فإن علو همة الوزير هي أن يتعامل مع الأشراف والأعيان والأمراء والجند والرعية والحشم والخدم بعلو الهمة كألا ينتظر منهم خدمة أو رشوة، ودائماً يظهر لهم فضل كرمه ومروءته وهمته.

الخصلة الثالثة: الثبات: أي يكون ثابت القدم في أمر الدين، ويقوم بالعمل من أجل الحق، ولا يعمل من أجل رأي الخلق وملامتهم ومعايرتهم ولا يخاف أحداً، لأن هذه خاصية الحق كقوله تعالى: "**يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم**"(١). والثبات في خدمة الملك هو الوفاء وصدق العهد، ويكون ثابت القدم. ولو أراد المعاندون والمعارضون للملك أن يغروه بالمال الكثير والجاه ويعرضونه عليه، فلا يحيد عن سبيله لأي منها قط. وثبات الوزير مع الأعيان وأشراف المملكة والرعية والحشم والخدم يكون بنفس تلك الصورة، أي حينما ينصب أميراً على إمارة أو يولي عملاً إلى عامل، أو يفوض منصباً إلى شخص، فلا يتبع فيه التغيير والتبديل جزافاً، ولا يستمع إلى كلام أصحاب الأغراض دون بينة كما يقول الحق تعالى: "**يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأ فتبينوا أن تُصيبوا قومًا بجهالةٍ فتصبحوا على ما فعلتهم نادمين**"(٢). وحتى لا تتحقق خيانة الشخص فلا يتهاون فيها قطعياً ولا يغفل عن مجازاة الإهمال وخاصة ما يتعلق بالقصاص وحدود الحق تعالى. ومن المؤكد أنه لن يتطاول أعيان بلاط

---

(١) سورة المائدة: آية ٥٤.

(٢) سورة الحجرات: آية ٦.

الملك في الرشوة والخدمة، ولن يخفوا الحق عن أصحاب الحق، كما يجب على الوزير أن يعمل بالشفاعة ودفع الظلم ورفع التطاول عن حقوق الرعية.

وواجب على الوزير العاقل أن يحتاط حين يُنصب شخصاً لشغل أو منصب أو عمل ويعطي الأمر حقه، لأن جملة الاضطرابات في المناسب الدينية والدنيوية تظهر دون وجوب، إذ أن الأعمال والمناصب لا تعطى للمستحقين المؤهلين وتعطى للأشخاص الذين لا يؤدون الخدمات وغير مناسبين لها، ولم يدقق الملك أو الوزير في أحقيتهم لها. وأولئك الذين استحقوا الأعمال والمناصب لم يسمحوا لأنفسهم ـ لترفع النفس وعزة الدين ـ بأن يندلفوا في بلاط الملوك ويتذلفوا، ويخدمون من يستحق ومن لا يستحق فيدقون طبول الاستقرار، ويجمحون جياد الهوى، فتقل الهمة والعزم لدى الملك والوزير بالبحث عن أصحاب الأعمال المناسبين لها، ويولونهم إياها قدر استحقاقهم لها.

ولا جرم أن معظم المناصب الدينية والدنيوية تقع في أيدي غير المستحقين والجهلة. وكل شيء في هذا الجانب لا يسير على وجه حق بسبب تقصير الوزراء والأعيان والأشراف ونواب الحضرة الملكية الذين لا يتفحصون الأحوال ولا يطلبون أصحاب الفن والفضل والدين، ويُقبرون الفضلاء في الزوايا وينصبون الأعمال والمناصب إلى غير مستحقيها نظراً للأطماع الفاسدة.

الخصلة الرابعة: التحمل: وذلك يعني أن يتجلد ويصبر ويتحمل عبء حمل أمانة تكاليف الحق والشرع والشريعة التي عجز عن حملها أهل السماء والأرض كقوله تعالى: "**إنا عرضنا الأمانة على**

السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها"[1]، ولا يخون الأمانة، ويثبت قدم التحمل في السلوك إلى الحق، حتى يأتي ذلك اليوم الذي ينزل فيه خطاب الله تعالى: "**إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها**"[2]، فيدخل صاحب الأمانة على حضرة الحق وردي الوجنات بسبب رده الأمانة:

نتحمل حمل الأمانة في القلب والروح، ثم
ندخل بالحمل إلى بلاط العز
إننا ولجنا إلى ظلمة النفوس والطبائع
وإننا نسلك للروح بألف نوع من الأنوار
وإننا مكثنا كثيراً في حرمات الجهل
فانظر هذا الفضل، فإننا نسير في حرمات الأسرار
ورغم أننا قضينا العمر في ظلمات الهوى
فإننا نسير كالخضر الذي شرب ماء الحياة
ورغم أننا جئنا كالفلك الناقص والمعيب[3]، لكننا
نسير بمائة ألف عين كالفلك[4]
وإننا سنصل إلى الغرض في دورنا هذا
لأننا دائماً ندور على رؤوسنا كالفرجار

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٧٢.

(٢) سورة النساء: آية ٥٨.

(٣) إن كلمتي الناقص والمعيب هما في الأصل: الأعمى والأزرق، لكننا فضلنا المعنى الأول ليتمشى مع غرض الأبيات. (المترجم).

(٤) مائة ألف عين كالفلك: يعني بها النجوم (المترجم).

وأيضاً فإن تحمل الوزير للملك يكون بالحلم والصبر، لأن الملك حينما يصل إلى حالة الغضب والحدة والصولة يثور عليه أو على غيره، فيجب على الوزير أن يلاطفه ويهدئه، ويتحدث مع الملك بما يطفئ حدة نار غضبه ويتحاشى الكلمات المثيرة للغضب والحقد. وحين يحدث للملك واقعة أو تعترضه حادثة نتيجة للخصام والمعاندة مع غيره من السلاطين، عليه أن يتدارك ذلك الأمر بالصبر والسكون والتدبير الصالح والرأي الصائب، حتى لا يقع الملك في معرض خطر الجدال والقتال، ويتذكر قوله تعالى: "الصلح خير"، وإذا كان هناك مرض فيجب علاجه بالسيف البتّار، لأنه لا ينفعه مرهم السياسة والرفق. وإذا مال الملك إلى القتال فلا يثبطه الوزير في ذلك ـ ولا يظهر الجبن للملك ـ حتى لا يُحزن قلبه، ولاسيما إذا كان في محاربة الكفار، لأنه يجب أن يصير الوزير جسوراً وحريصاً على الملك، ويقدم المدد والمعونة له حتى لا يخيف الملك ويوجله، لأنه بالتحمل يزيل الخوف من قلبه. وعليه أن يأمل في الله ونصره لقوله تعالى: "فإن حزب الله هم الغالبون"[1]. ولو كان جنده قليلين فليتجه بقلبه إلى الله لقوله تعالى: "كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين"[2].

ومن ثم يجب أن يكون تحمل الوزير في جميع الأحوال بأن يعرض على الملك ما فيه صلاح الدين والملك والمملكة والرعية ولا يداهنه. ويُطمئن الملك على ما يتعلق بالمفاسد، ويرشده ويعينه على البر والخير كي يكون عاملاً بقضية إشارة النص: "إن نسى ذكره وإن ذكر أعانه". وحين يكون الوزير متحلياً بهذه

---

(١) سورة المائدة: آية ٥٦.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٤٩.

الآداب والأخلاق التي ذكرت، فلا شك أنه سيعضد ظهر الملك به، ومن ذلك ما امتن به الحق تعالى على موسى عليه السلام بوزارة هارون حيث قال له الحق تعالى: "**سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكلما سلطانا**"[1].

وأيضاً فإن تحمل الوزير كعمود الخيمة، إذ عليه أن يحتمل حمل الرعية والمملكة على كتف الاستقامة والرفعة والثبات والتحمل، وينظر إلى الرعية بعين الرحمة، ولا يبخل عليهم بالرأفة والشفقة، ولا يظهر في الرعية الكثير من الصغائر بل يتجاوزها ويعفو عنها، ويظهر التحمل والحلم، ما لم يؤد ذلك إلى خلل الملك لأن التدارك واجب، ويجب ألا تعرف الملالة طريقاً إلى طبعه، لأنه بذلك يخل مصالح الملك والرعية ويهملها، ولكنه يجب أن يكون متحملاً، ويجب أن يتفحص ويستطلع عن أحوال الملك والرعية والأصدقاء والأعداء والملوك والممالك الأخرى، حتى يواجه كل نوع من خلل الدين والدنيا والملك والمملكة والسياسة ويعمل على تداركه قبل حدوثه، لأنه إذا وقعت الواقعة سيصعب تداركها.

وعلى الوزير أن يتأكد ويوقن أنه سيستفيد، في جميع أحوال الدنيا والآخرة، بهذه الخصال الأربعة السابق ذكرها وهي الاستقامة والرفعة والثبات والتحمل مع الله والمَلك والمُلك والمملكة والرعية، إذا أطال الله في أجله، ويدرك في ضميره أنه يؤدي جميع الخدمات لنيل رضا الحق والتقرب إلى حضرته، وأنه يجدّ فيها حتى يوفر الراحة والسكينة للمؤمن وغير المؤمن، ويدفع الشر عن المظلوم، ويبعد الظالم عن الظلم، وبهذا يتقرب إلى الحق. يقول الرسول عليه

(١) سورة القصص: آية ٣٥.

السلام: "أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً"، قيل يا رسول الله أنصره مظلوماً فكيف أنصره ظالماً، فقال: "تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه".

وبعد، فيجب أن يكون كل حركة وسعي وتحمل وصبر واستقامة وسكون وثبات وأمر ونهي وعدل وإنصاف وخدمة وتواضع ومشقة وعطاء وأخذ ودخل وخرج وقول، يعملها ويؤديها مع الصديق والعدو والخاصة والعامة والملك والرعية، لتصبح كلها موجبة للقرب والرفعة والدرجة عند الله، حتى يصير ذلك الوزير مقرباً إلى حضرة العزة، بشرط أن يتطهر ويتخلى عن شوائب متابعة الهوى ورعونة النفس والكبر والنخوة والانشغال بالوزارة والتذلف والتكلف الإنساني، حتى يستحق رضا الحق كما يقال: "إن الله هو الطيب لا يقبل إلا الطيب".

وكذلك يجب أن يتعود سائر الأشراف والأعيان والنواب وأصحاب القلم في أعمالهم، على الاستقامة وعلو الهمة والثبات والتحمل، وأن يتمسكوا بالدين والأمانة، وأن يزينوا أنفسهم بهذه الخصال الأربعة السابقة، قدر استطاعتهم، وأن يرعوا جانب الحق وأن يتبعوا الصدق في خدمة الملك والمُلك والمملكة، وأن يجتهدوا في تخفيف أعباء الرعايا، حتى ينالوا الدرجات والقربات.

ويجب على الوزير والأعيان والأشراف في المملكة جميعها أن يواظبوا على القيام بالأوراد والأوقات الواجبة كقيام قدر من الليل، والانشغال بالذكر، وأداء فريضة الفجر، وأن يشغلوا أنفسهم بالذكر وقراءة القرآن، حتى يكونوا من جملة من يمدحهم الحق في قوله تعالى: "يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون

وجهه"(١). وإذا شغلوا أنفسهم طوال اليوم بأذكار التوحيد بالشروط المفروضة وطلب المقامات العالية، فهذه سعادة عظيمة. وإذا كانوا يذكرون الحق دائماً ذهاباً وإياباً وقياماً وقعوداً ووقت النوم، فهذا في ذاته هو السعادة القصوى، وسيكونون من أولئك: "الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم"(٢).

ومن أهم المهمات وعظائم أمور الوزراء والأمراء والأشراف والأعيان هو أن يدعوا الجنود في الليل لهم وللملك والمملكة، لأن الجيش اليوم يعضد ظهر الملك، ودعوات الجند في الليل ستمحو كل بلاء. وإن آلاف السهام من السواعد الفتية للجنود في يوم واحد لا تؤدي نفس ذلك العمل، لأنه يلقى بسهم دعاء قلب محطم في الليل:

إن ما تقوم به امرأة عجوز في السحر
لا يحققه مائة ألف من السهام والتبر(٣)

ثم يجب ـ للاستزادة من الدعاء ـ أن يعمل على تخفيف الحمل عن الرعية ويجدّ قدر وسعه في إدرارات العلماء والسادات والزهاد والمتصوفة لأنهم سند المملكة ودوام السلطنة.

وصلى الله علي سيدنا محمد وآله أجمعين.

---

(١) سورة الكهف: آية ٢٨.
(٢) سورة آل عمران: آية ١٩١.
(٣) سنائي الغزنوي: حديقة الحقيقة: ص٥٥٧.

الفصل الرابع

في بيان سلوك علماء الفتوى والفقهاء والقضاة

الفصل الرابع

في بيان سلوك علماء الفتوى والفقهاء والقضاة

قال الله تعالى: "والذين أوتوا العلم درجات"(١)، وقال: "إنما يخشى الله من عباده العلماء"(٢).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "العلماء ورثة الأنبياء" وقال: "علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل".

اعلم أن العلم أشرف وسيلة للقرب من الحق وصفة الحق، ويمكن بواسطة العلم الوصول إلى الدرجات العالية كقوله تعالى: "والذين أوتوا العلم درجات". ولكن اعلم أنه يشترط أن يقترن العلم بالخوف والخشية، لأن أساس جميع العلوم هو خشية الله. والحق تعالى يدعو الإنسان العالم أن يخشاه ويخاف الله كقوله تعالى: "إنما يخشى الله من عباده العلماء"، وكلما يزداد العلم تزداد الخشية كما قال الرسول عليه السلام: "أنا أعلمكم بالله وأخشاكم منه". ودليل الخشية أنه يعمل بهذا العلم، ويتخذه وسيلة لنيل درجات الآخرة، وليس وسيلة لجمع المال واكتساب الجاه الدنيوي والتمتعات البهيمية. وكل شخص لا يعمل بذلك العلم الحقيقي، ويتخذ من العلم وسيلة للمال والجاه الدنيوي، فهو جاهل بالحقيقة وليس عالماً. وقد ضرب الحق تعالى مثله بالحمار فيقول: "مثل الذين حملوا التوراة ثم لم

---

(١) سورة المجادلة: آية ١١.
(٢) سورة فاطر: آية ٢٨.

يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا"[١]. والعلم ميراث الأنبياء عليهم السلام كقول الرسول: "**إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما، ولكنهم يورثوا العلم فمن أخذ به فقد أخذ بحظ أوفر**".

والأنبياء عليهم السلام قد ورثوا نوعين من العلم: "**علم الظاهر، وعلم الباطن**":

أما علم الظاهر:فهو علم نافع حيث اتبع الصحابة رضي الله عنهم نهج الرسول عليه السلام قولاً وعملاً، وتبعهم من بعدهم التابعون وأئمة السلف وتعلموا وعملوا بعلمهم، ووقفوا على علم الكتاب والسنة والتفسير والأخبار والآثار والفقه وغيرها من توابعها.

وعلم الباطن: هو معرفة تلك المعاني دون واسطة جبريل من غيب الغيب في مقام "**أو أدنى**"، في حالة: "**لي مع الله وقت**"، فكان يوحي لروح الرسول عليه السلام، كقوله تعالى: "**فأوحى إلى عبده ما أوحى**"[٢]، وكانوا يصبون من ولاية النبوة في روح عشاق قلب محترقي الأكباد جرعة من الكؤوس المترعة على كتف الكرام كقوله عليه السلام: "**ما صب الله في صدري شيئاً إلا وصببته في صدر إخواني**".

وهكذا فإن للعلم الظاهر أنواعاً كثيرة تختلف عن علم الباطن كثيراً أيضاً، كعلم الإيمان وعلم الإحسان وعلم الإسلام وعلم الإيقان وعلم الإخلاص وعلم

(١) سورة الجمعة: آية ٥.
(٢) سورة النجم: آية ١٠.

معرفة النفس وعلم العيان وعلم التوبة وعلم الزهد وعلم الورع وعلم التقوى وعلم آفات النفس وعلم معرفة القلب وعلم الصفات والأطوار السبعة لأحوال القلب وعلم التزكية وتربية النفس وعلم التصفية وتربية القلب وعلم التجلية وعلم التحلية وعلم تخلية الروح وعلم الفرق بين الخواطر النفسانية والشيطانية والقلبية والعقلية والإيمانية والملكية والروحانية والرحمانية، وعلم الفرق بين الإشارة والإلهام والخطاب والنداء والهاتف والكلام، وعلم تهذيب الأخلاق، وعلم تبديل الصفات، وعلم التخلق بأخلاق الحق وعلم المشاهدات بأنواعها، وعلم المكاشفات على اختلافها، وعلم التوحيد ومقاماته، وعلم أسماء الحق، وعلم أفعال الحق، وعلم صفات الجمال وعلم صفات الجلال وعلم الصفات والمعاني، وعلم تجلي الصفات وعلم تجلي الذات، وعلم القرب وعلم البُعد وعلم الوصول وعلم الفناء وعلم البقاء وعلم السكر وعلم الصحو وعلم فناء الفناء وعلم بقاء البقاء وأنواعها من العلوم الغيبية واللدنية التي يطول حصرها ، وهذه جميعها تحصل لسالكي هذا الطريق بتعليم معلم قوله تعالى: "**وعلم آدم الأسماء كلها**"(١). ويجب الاطلاع على شرح هذه العلوم في أم الكتاب في مقام العندية في قوله تعالى: "**وعنده أم الكتاب**"(٢).

أما أولئك المحرومون من هذه السعادة، حين يسمعون هذه الأنواع من العلوم فينكرونها، يقول الرسول عليه السلام: "إن لنا من العلم كهيئة المكنون لا يعلمها إلا العلماء بالله، فإذا نطقوا بها لا ينكره إلا أهلُ العزة بالله". وهذه العلوم على اختلافها ستتشرف باستقبال الصورة من تجلي صفات رب الأرباب بواسطة مرآة الأرواح:

---

(١) سورة البقرة: آية ٣١.

(٢) سورة الرعد: آية ٣٩.

ما دمت لم تر سليمان ذات ليلة

فكيف لك أن تعرف لغة الطيور[١]

وعن أبي هريرة أنه قال: "حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاءين من العلم: أما الأول فقد ثبته وأما الآخر لو بينته لقطع هذا الحلقوم".

والعلماء ثلاث طوائف:

الأولى: هي التي تعرف علم الظاهر.

الثانية: التي تعرف علم الباطن.

الثالثة: هي التي تعرف علم الظاهر وعلم الباطن معاً، وهذه نادرة ولا يوجد في كل عصر ثلاثة أو أربعة أو خمسة أشخاص من هؤلاء، فهم كثيرون في الوجود، ولكن بركة الواحد منهم تمتد إلى شرق وغرب العالم، وهم أقطاب عصرهم، وجميع العوالم في أحضان دولتهم وظل همتهم، وأولئك هم العلماء الذين قال عنهم الرسول عليه السلام: "**علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل**"، وهؤلاء العلماء في الحقيقة هم ورثة الأنبياء، لأنهم ورثوا علوم ظاهرهم وعلوم باطنهم أيضاً كقوله عليه السلام: "**العلماء ورثة الأنبياء**".

وعلماء الظاهر ثلاث طوائف أيضاً: المُفتون والفقهاء والقضاة. أما المُفتون فهم أهل الدراسة والنظر والفتوى وهم طائفتان:

(١) سنائي الغزنوي: سير العباد إلى المعاد: ص٢٢٩.

الأولى: هم علماء القلب وعلماء اللسان، وهم الذين يكمن فيهم الخوف والخشية، ويعملون بالعلم ويتقون الله بالفتوى، ويحصلون العلم وينشرونه من أجل النجاة ونيل الدرجات، ويغضون البصر عن الجاه والمال الدنيوي، ويقبعون في كنز القناعة، ويقتفون أثر العافية، وهؤلاء هم الذين يقول عنهم الحق تعالى: "**إنما يخشى الله من عباده العلماء**"(١).

الثانية: هم علماء باللسان وقلوبهم جاهلة، وليس في قلوبهم الخوف والحياء من الله، وهذا علامة إماتة القلب، وليس في تعلمهم العلم ونشره عزيمة لتحصيل ثواب الآخرة والقرب من الحق، ولكنهم يسعون لنيل العلم بغرض تحصيل الجاه والمال ورضا الخلق وتولي المناصب. ولا جرم أن يغلب عليهم الهوى، ويعملون به، ولا يعملون بالعلم، ويحسدون العلماء المتقين وأصحاب الدين ويغتابونهم، ويفترون عليهم، ويدخلون في مقام البحث والجدل، ويؤذونهم ويوجهون إليهم الكلام، ولا يراعون الحق، ويريدون أن يبطلوا الحق ببديهتهم الحاضرة وبيانهم العذب، ويظهرون الباطل في رداء الحق، ويظهرون هذا ويفضلونه عن ذاك كقول الرسول عليه السلام: "**اتقوا كل منافق عليم اللسان يقول ما تعرفون ويفعل ما تنكرون**".

وفي الحقيقة فلم تظهر قط تلك الآفة التي انتشرت في الدين وبين الأمة، بغير واسطة مثل هذا العالم الفاجر الجاهل، كما يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: "**ما قطع ظهري في الإسلام إلا رجلان: عالم فاجر وناسك مبتدع،**

(١) سورة فاطر: آية ٢٨.

فالعالم الفاجر يزهد الناس في علمه لما يرون من فجوره والمبتدع الناسك يرغب الناس في بدعته لما يرون من نسكه".

ولا جرم أن هذا بسبب شؤم علماء السوء والزهاد والمرائين ودراويش الصورة المتسولين الذين يبيعون الدين بالدنيا لشدة حرصهم، و دائماً يتذللون على أعتاب الملوك، ويطوفون باستخفاف بأبواب الأمراء والسادة، ويخدمونهم بمذلة وهوان، ويمدحونهم نفاقاً بما هو ليس من شيمهم ويداهنون في كل باطن يقولونه: "**صدق الأمير**"، وبسبب طمعهم الفاسد يتركون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى يتحصلوا منهم على دراهم معدودة أو يعطونهم رشوة أخرى أو يتولوا إحدى الأعمال والمناصب، فتفسد بذلك عقيدة الأمراء والسادة والجنود وإرادة الملوك، فيقيسون عليهم أن جملة العلماء والمشايخ والدراويش لهم نفس هذه السيرة السيئة والخصال المذمومة، حتى أنهم نظروا بعين الاحتقار إلى خواص الحق وأولياء الحضرة، وولوا الوجه عنهم كلية وحرموهم من فوائد خدمتهم وصحبتهم، فحرموا من نور علمهم وشعاع ولايتهم.

ويرد في الحديث أن مثل هذا العالم، الذي يكون غرضه من العلم هو الدنيا، ليس له نصيب كبير من ثواب ذلك العلم لأنه يجد الجاه والمال في الدنيا، وفي الآخرة فإن أول نار تتأجج هي نار جحيمه، ويجب الاستعاذة من مثل هذا العالم الذي لا ينفع، كما كان يقول الرسول عليه السلام: "أعوذ بك من علم لا ينفع"، والعلم غير النافع نوعان:

الأول: علم الشريعة الذي لا ينفع عندما لا يعمل به، ولو أنه يكون نافعاً في حد ذاته.

الثاني: علم النجوم والكيانة وأنواع علوم الفلسفة التي يسمونها الحكمة، وقد مزجها بعضهم بالكلام وسموها باسم أصول الدين حتى ينشروا الكفر والضلالة بين الخلق باسم جميل. وهذا النوع من العلم غير نافع في ذاته، ولو عملوا به فهو مهلك ومضل ومفسد، وكثير من الحيارى انخرطوا في هذا العلم عن طريق الدين وجادة الاستقامة مغترين بأن ما نحصله هو علم المعرفة وإدراك الحقيقة ولم يعرفوا أن معرفة الحق لا تتأتى بالقراءة والرواية إلا بمتابعة طريق ظاهر وباطن محمد عليه السلام، كما يقول الحق تعالى: "**وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون**"[1].

أنت قلت إنك قابل للتألق في وقت المجلس
فهل من نكات جديرة بالقول
أيها الغافل عن لوعة الاحتراق
إن العشق كان إلهاماً وليس بالتعليم[2]

ثم يجب على المفتي التقي أن يحترس من هذه العلوم وآفاتها، ويجد في إخلاص نيته، حتى يصدر الفتوى ويلقي الدروس ويقوم بالمناظرة، ويتطلع إلى ثواب الآخرة والقرب من الحق ونشر العلم وإظهار الحق وبيان الشرع وتقوية الدين، ويطهر النفس من رعونات العلم، ويتطهر من شوائب الحرص والطمع، لأن مذلة ومذمة العلماء في الحرص والطمع:

(١) سورة الأنعام: آية ١٥٣.
(٢) سنائي الغزنوي: ديوان السنائي: ص٨٦٣.

لقد تلوثت روح العلماء بالحرص على الدراهم

وهذه المذلة لا تأتيهم جذافاً

يا للأسف والحسرة أنه قد انقضى العمر

ولم ينقض هذا الحرص علي الغثاء بحصوة رمل للميت

وحين إصدار الفتوى عليه أن يحتاط تماماً بعد الإجازة، لأنه لا يستطيع أن يفتي بهوى النفس أو لغرض أو علة في نفسه. ولو كان الوقف تحت إمرته، فلا يتصرف فيه بالفساد، ولا يأخذ المال الحرام، لأنه حين تكون اللقمة ملوثة، فإنه يعود إلى الحرص والحسد والشهوة والرياء، وعندئذ فإن ما أنفق فيه عمره يصير هباء منثورا، وعليه أن يتجنب البدع، ويكون ثابت القدم على جادة السنة والمتابعة، وينتهج السيرة والاعتقاد وسنة السلف الصالح، ويتخذ مذهب أهل السنة والجماعة ويواظب على أوقاته ومواعيده، حتى لا ينفق عمره العزيز في البطالة والهزل واللغو قط. وفي الفجر حين يؤدي صلاة الصبح يشغل نفسه بالذكر وقراءة القرآن إلى أن تشرق الشمس، حتى يكون عاملاً بإشارة قوله تعالى: "واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا"[(١)]، لأن في ذلك خيراً كثيراً. وعند بزوغ الشمس يصلي أربع ركعات ويشغل نفسه في التدريس والإفادة والاستفادة من العلم، وحين ينتهي منها يؤدي الصلاة الوسطى قرب الظهر، وبعد الصلاة يقوم من اليوم قدر ما يستطيع، فيصلي من ركعتين إلى اثنتى عشرة ركعة من الفريضة والسنة، وبعد ذلك يقوم بين الصلاتين بمصالح معاشه وأولاده وراحتهم ورعاية الحق الضروري للنفس، ثم يشغل نفسه مرة أخرى بالبحث العلمي أو

(١) سورة الإنسان: آية ٢٥.

الاطلاع أو الإفادة حتى نهاية اليوم. وحين يحل وقت العصر يؤدي فريضته مع النوافل، وينشغل بالذكر حتى يؤدي صلاة المغرب. ولو يحيي ما بين العشائين بالذكر والقراءة والأوراد فهذه سعادة عظيمة. وحين يؤدي صلاة العشاء فلا يتحدث لأن هذا من السنة، وبعد ذلك يشغل نفسه بالاطلاع أو التلاوة حتى ينصرم جزء من الليل، ثم يتوجه إلى القبلة مدة ساعة وينشغل بالذكر. وحين يغلب عليه النوم، فلينم على جانبه الأيمن ـ وهو صامت ذاكر ـ متجهاً نحو القبلة، ويقرأ هذا الدعاء بقلبه ولسانه، وهو من السنة: "اللهم إني أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وألجأت ظهري إليك، وفوضت أمري إليك رهبة منك ورغبة إليك، لا ملجأ ولا منجا ولا مفر منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت وبرسولك الذي أرسلت"، ثم يذكر بقلبه ولسانه حتى ينام وهو ذاكر.

وفي الحديث أن من ينام وهو متوضئ ذاكر، فإن روحه ترفع إلى العرش حتى تشتغل بطاعة الحق، وكل رؤية يراها تكون صدقاً وحقاً: **"نوم العالم عبادة"**، وهكذا يكون النوم. ثم فليجتهد حتى ينهض قدر ساعة وسط الليل، ويؤدي صلاة التهجد ـ وهي سنة عن الرسول عليه السلام ـ وهي ثلاث عشرة ركعة من الشفع والوتر ونافلة الصبح، ويؤدي تحية السلام بعد كل ركعتين، وركعة الوتر بسلام وحدها. وكلما يقرأ كثيراً فهذا أفضل. وإذا أراد أن ينام مرة أخرى، فلينم حتى الصبح ثم ينهض ويجدد الوضوء، وينشغل بالذكر.

ويجب ألا يقتنع أبداً بهذه التعبدات الصورية التي لا معنى لها، ولا يترك النفس أبداً دون نوع من المجاهدة، ولا يتركها على هواها بأي صورة قط، ويجدد كذلك طلب قلبه مرة ثانية، وقد شرحنا من ذلك قدر الاستطاعة، بما يحدث في باب تزكية النفس وتصفية القلب وتجلية الروح وتحلية الخفى وتخلية

الإخفاء، حتى تظهر له بعض حقائقها بالتدريج، ويكشف الأسرار حتى ينال من سعادة هذا الحديث، ولا يضيع عمره هباءاً:

إذا لم تتبع هذا في طريق الدين
فلا تضير اليد والقدم بالسعي (في هذا الطريق)[1]

أما الفقهاء فهم ثلاث طوائف:

الأولى: الفاصلون: والذين يسمون "القصاصون".
الثانية: الوعاظ.
الثالثة: المذكرون

أما طائفة الفاصلين: فهم الذين يذكرون فصولاً عدة من الكلمات المصنوعة والمسجعة التي لا معنى لها، والتي ليس فيها من علوم الدين شيء قط، ويقصون بعدها بعض قصص الأنبياء والحكايات عن المشايخ، وأحياناً يفسرون بعض سور الآيات ويلفقونها مع بعضها، ويفسدون بعض المناجاة ببعضها، ويقولون الأشعار بالألحان ويشرحون الأسئلة والأجوبة الصحيحة، ويجرون اللسان بها، ويؤلفون هذا النوع من الصناعات، ويطوفون الدنيا، طلباً لرضا الخلق وجمع المال، ويأتون بمئات الأنواع من التصنع والمداهنة والنفاق والتفاخر، حتى يعتقد عامة المساكين أن ذلك

(1) سنائي الغزنوي: حديقة الحقيقة: ص٧٣.

طبيعتهم وخصالهم. وأحياناً يستسيغون قوله، ويقعون بجهلهم في جوال غروره حتى يصلوا إلى أغراضهم الدنيوية، ويشتغلون بالخطابة على قمة المنابر بمدح ومداهنة الملوك والسلاطين والأمراء والوزراء والصدور والأكابر وأصحاب المناصب والقضاة والحكام والظلمة والفقهاء، ويمتدحون خصالهم، ويقصون الحكايات والروايات الكاذبة، حتى أنهم يستخدمون قول الرسول عليه السلام في كثير من الضلال والكذب فيما يقولون ويفعلون، ويقفون على قمة المنبر للاستجداء، ويأخذون المال من الظلّمة ويوزعونه، حتى أنهم أحياناً يأخذونه بالكثير من المذلة والاحتقار ولا يردونه. ومعظمهم يعفونهم من الزكاة ويأخذونها من الناس، ويأكلون الحرام ويلبسون الحرام ويقترفون الحكايات الكاذبة، ويروون الأحاديث الموضوعة والمطعونة، ويدعونها أحاديث صحيحة، ويشجعون الخلق عن طريق ذم المعاصي ويسوقون لهم الكلمات اللطيفة، فيقع الخلق في البدعة والضلالة، وأحياناً يثيرون العصبيات والفتن، ويثيرون العوام على التعصب، ويريقون الدماء دون وجه حق، وأولئك هم الذين يحملون شرف أهل العلم، ويفسدون إرادة الخلق، وينزعون وقار العلم من القلوب، وهم يعدون من جملة العلماء العالمين باللسان والجاهلي القلوب، وهم وقود نار جهنم.

الطائفة الثانية: طائفة الصالحين، وهم الذين يقولون الكلام من أجل الحق وثواب الآخرة، ويقولون في التفسير والآثار والأخبار وسيرة

الصالحين، ويدعون الخلق بالوعظ والنصيحة والحكمة وجادة الشريعة والتوبة والزهد والورع والتقوى، ويتجنبون البدعة والضلالة، كما يقول الحق تعالى: "**اُدعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة**"[١] ولا يشجعون الخلق، عن طريق ذم المعاصي، ولا بإقناطهم في الأمل بالمبالغة وبالتخويف من كرم الحق، لأن ذلك مذموم، ولا يلوثون أنفسهم بدنس الطمع الدنيوي حتى يمكنهم أن يقولوا كلمة الحق، ويؤثرون بالكلام دون طمع، لأنهم حين يتلوثون بحب الدنيا والطمع فسيتلوث كلامهم أيضاً، فيأتي من منشأ النفس ولا يأتي من القلب ولا يظهر عليه. ولو أن ما يقوله يكون حقاً، ولكنه لا يصدر من أجل الحق، بل يأتي من أجل الباطل والهوى ولا يظهر على القلب. وقد قال العظماء إن ما يتأتى من القلب يظهر على القلب. وأما الكلام الذي يأتي من منشأ النفس، فإنه يتلوث بالهوى ولا يؤثر على أي قلب، وحين يسمعه تستسيغه الأذن وتستلطفه الطبائع، ولكنه لا يلقى رضاء أصحاب القلوب. وقد جاء في رواية أن: "**أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام، قال يا داود: لا تسألن عن علماء قد أسكرتهم حب الدنيا فأولئك قطاع الطريق على عبادي**". ويروي عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن الرسول عليه السلام أنه قال: "**علماء هذه الأمة رجلان: رجل أتاه الله علماً فبذله للناس**

(١) سورة النحل: آية ١٢٥.

ولم يأخذ عليه طمعاً ولم يشتر به ثمناً، فذلك يصلى عليه طير السماء وحيتان الماء ودواب الأرض والكرام الكاتبون، يقدم على الله عز وجل يوم القيامة سيداً وشريفاً حتى يرافق المرسلين، ورجل أتاه الله علماً في الدنيا فضن به عن عباد الله وأخذ عليه طمعاً واشترى به ثمناً، يُعذَّب حتى يفرغ الله من حساب الخلائق".

ويروي الشيخ أبو طالب المكي صاحب قوت القلوب أنه جاء رجل ذات يوم إلى خدمة حضرة موسى عليه السلام، وفي يده خنزير مربوط في رقبته بحبل أسود، فقال موسى لذلك الرجل: ألا تعرف إلى أي حد يشبه هذا الخنزير، فقال الرجل لا يا نبي الله، فقال موسى: هذه صورة برزخية لذلك الشخص الذي طلب علم الدين للدنيا.

وما دام يعرف جملة العلماء هذا، فينبغي ألا يبيعوا الدين بالدنيا، ويتجنبوا الحرص والحسد، ويتحاشوا طلب العلم على هذا النحو، لأن في هذا الباب وعيداً كثيراً وقد اختصرناه على هذا النحو.

وحين لا يطلب الفقيه الدنيا ويقوم بتلك الشروط والآداب والأوراد التي ذكرها المفتي فإنه يكون من أولئك الذين قال الحق عنهم: **"يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات"**[(١)]. ويروي عن ابن عباس أن العلماء مفضلون على المؤمنين بسبعمائة درجة، وبين كل درجة وأخرى خمسمائة سنة سيراً، وكل نصيحة أو وعظ يقولها أي عالم، فإنه يحظى بالقرب والدرجة عن كل

(١) سورة المجادلة: آية ١١.

حرف يقرنه، وكل شخص يتوب نتيجة وعظه، ويشغل بالطاعة ويتجه إلى الحق، فسيكون هذا جميعه في كفة حسناته يوم القيامة. ومن ذلك ما قاله الرسول: "**ينام العالم في القبر وعمله لا ينقطع ببركة علمه الذي نفع الخلق به**".

أما الطائفة الثالثة: فهي طائفة المشايخ الذي تزينوا بعلم الظاهر والباطن معاً، وبلغوا سلوك طريق الدين والسير إلى عالم اليقين بجذبات عناية الحق، وأدركوا العلوم اللدنية من مكاشفات الألطاف الإلهية، وتبصروا الحقائق والمعاني والأسرار في شعاع أنوار تجلي الحق، ووقفوا على جميع أحوال المقامات وسلوك طريق الحق، وتلقوا الأمر من حضرة العزة وولاية المشايخ ببيان الأدلة وتربية الخلق والدعوة إلى الحق، بعد أن كانوا يعظون أنفسهم طيلة عمرهم كما يقال: "**عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس، ولا فاستح من الله**"، ثم قبل هؤلاء الوعاظ الوعظ، وعرفوا مكر وحيلة النفس، وأضرموا النار آلاف المرات في بيدر النفس وصفاتها، ووصلوا إلى ينبوع ماء حياة المعرفة، وتركوا ريح الهوية لتراب الإنابة في مهب العناية، وشغلوا بدعوة الخلق بحكم الشريعة حتى بلغوا الخلق، ووصلوا من خرابات الدنيا وخمر الشهوات ولذة سكر الغفلات إلى الحظائر القدسية ومجلس الأنس: "**في مقعد صدق عند مليك مقتدر**"[1]، ليسقونهم (الخلق) وليتجرعوا شراب

---

(1) سورة القمر: آية ٥٥.

الشهود الطهور في كأس تجلي الجمال من يد الساقي كقوله تعالى: "وسقاهم ربهم"، ويلبسونهم ويرتدون مثلهم لباس تشريفات الملاطفات من خزائن الكرم دون واسطة، وقلوب هؤلاء الفقهاء في لوعة من ذوق ومشارب أولياء الله وعشق وشوق ومحبة الأنبياء، ويوجهون قلوب الخلق تجاه الحق كقوله تعالى: "**وذكرهم بأيام الله**"[1]. وهذه هي الطائفة التي تبين الشريعة والطريقة والحقيقة حتى ينال كل شخص حظه ونصيبه بقدر همته وسعيه. وهؤلاء هم طائفة المولهين الذين أفنوا فراشة الصفة حول شمع جمال وجلال الأحدية، وبقوا ببقاء الحق. وأيضاً فإنها هي الطائفة التي سارت وتسير حسب العقل والمعرفة في أطوار الوجود واستعدادات الرجال، والتي أشار إليها بقوله تعالى: "**قد علم كل أناس مشربهم**"[2].

وطار طائر روح هذه الطائفة من عش "يحبهم"، وسقط في شباك بلاء العشق، وهؤلاء الفقهاء هم طيور الشاهبازي[3] البيضاء التي عانت في الغربة، وزحفوا إلى ملجأ خلوة الدنيا، وحجبوا عين هوى النفس عن شهوات العاملين وربطوا الروح والبدن على طعم ذكر الحق، ولم يعيروا التفاتاً لغير الحق ووصلوا إلى مقام الأنس، وصاروا مستعدين ومستحقين لمحلة يد الملك. وأولئك

(١) سورة إبراهيم: آية ٥.
(٢) سورة البقرة: آية ٦٠.
(٣) شاهباز: هو اسم طائر ويسمى بالعربية شاهين. (المترجم).

هم خلاصة الخلق ونواب ورثة الأنبياء والأولياء، كقول الرسول عليه السلام: "**علماء أمتي أفضل من أنبياء بني إسرائيل**"[1]، فلا تقع بصيرة كل شخص على جمال كمالهم، لأنهم متوارون تحت قباب غيرة الحق، ويجب أن تكحل العين بكحل نور الله حتى يمكن مطالعة ومشاهدة صورتهم وسيرتهم:

إن رجال طريقه أحياء بروح أخرى
وإن طيور هوائه من أركان أخرى
لا تنظر إليهم بهذه العين، لأنهم
خارجون من كلا العالمين إلى عالم آخر

ولكن الخلق لا يرون منهم سوى الرأس والجناح، لأنهم يقيسون أنفسهم على أحوالهم وأحوال غيرهم، وأولئك يُعدّون واعظاً من الوعاظ أو عالماً من العلماء، ولا يعرفون أنه: "**لا يقاس الملائكة بالحدادين**".

أما القضاة فهم ثلاث طوائف كما يقول الرسول عليه السلام: "**القضاة ثلاث: قاضيان في النار، وقاض في الجنة**"، وأولئك أصحاب النار: أحدهما الجاهل بعلم القضاء، ويحكم بالجهل والهوى وميل النفس فهو في جهنم.

والثاني: العالم بعلم القضاء، ولكنه لا يعمل بالعلم، ويعمل بالجهل والهوى، ويسير بالميل والمحاباة، ويرجح جانب الخلق على جانب الحق، ويأخذ الرشوة ويعقد المكاتبات والمساجلات والعقود وعقود الزواج بالمقابل، ويأخذ عنها المال والخدمة، ويعطي التوكيلات في الولاية بالمال والرشوة، ويسيطر على الخدم،

---

(١) وفي رواية أن علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل.

حتى يعطونه الرشاوي، ويسعى في إبطال الحقوق، ويتصرف بالفساد في أموال المواريث والأيتام، ويظهر الأباطيل بالحق، ويخفي الحق، ويعمل الباطل ويتصرف في الأوقاف دون حق. وهكذا يبنون المساجد والمدارس والخانقاهات للعلل والأغراض والرشاوي، لغير المستحقين والمرتشين، فلا يعملون على تقوية أهل الدين، ويتناسون أمر الحساب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وما يتعلق بأبواب البر، الواجبة على القاضي، فيضيعون مشاركتهم لها، وهذا جميعه يستوجب الجحيم لهم.

أما القاضي الذي في الجنة: فإذا لم تكن نفسه قاضياً متعلقاً بالجنة، وإلا فيكون قاضي الدنيا، وعندئذ **فأنى يمكن له رعاية تلك الحقوق على وجهها الصحيح؟**. ومن هنا قال الرسول عليه السلام: "**من جعل قاضياً فقد ذبح بغير سكين**". وتكون له أهلية القضاء بعد تحصيل أنواع العلوم ومرتبة الاجتهاد والعقل الصافي والهمة العالية، وله من أخلاق وصفات هاكين القاضيين الطاهرين المقبولين، حتى يقوم بمصالح القضاء طبقاً للدين والديانة الصادقة والأمانة وإخلاص النية وصفاء العقيدة دون طمع أو علة مخلصاً في التقرب إلى حضرة العزة. وكل وقت يجلس على كرسي القضاء، ويجثو أمامه المدعِي والمدَّعى عليه، ويقف الوكلاء والمحضرون على الجوانب، فيتذكر من ذلك الموقف أنه توضع عرصات الكرسي في دار القضاء، ويكون القاضي هو الله تعالى والمدعي هو المصطفى والشهود هم الكرام الكاتبون، وتقوم الدعوى على قروض الفروض، وتكون النتيجة في أداء التكاليف أو الحبس في جهنم. وهكذا تفعل الحكومة بين الخلق، فتكون دار القضاء متهللة الوجه نورا بالحجة اللائحة الظاهرة على واجهتها، ويجب أن يستغرق وقته ـ بعد الانتهاء من شغل القضاء ـ في الأوراد السالفة الذكر، وتسير الحكومة على السنة وسيرة السلف الصالح،

ويسير أمر القضاء بالرفق والسياسة، حتى يتمكن رقعه في القلوب، ولا يشغل الشخص بالتزوير والتلبيس.

وقد طاف هذا الضعيف ببلاد الإسلام شرقاً وغرباً قرابة الثلاثين عاماً ولاقى الكثير من أرباب المناصب الدينية، ومن كل نوع وجماعة، من الذين كانوا يقضون عمرهم كاملاً في ذلك المنصب بجدارة واستحقاق، على مثال الكتاب والفقهاء والمدرسين والمشايخ، ولم يلتق بأي قاض مبرأ ومصون من هذه الآفات.

وإذا كان هناك شخص يقوم بنفسه أيضاً بهذه الشروط المقررة، ولكنه لم يستطع إصلاح نوابه وخدمه. ومع هذا فإذا كان الشخص طاهراً ومبرءاً من هذه الخصال غير الفاضلة، ومتصفاً بأضدادها من الخصال الحميدة طبقاً لجادة الشريعة والسيرة والسريرة، السابقة الذكر، لصار عالماً متصفاً بالعدل، يقضي أوقاته في تلك الأوراد، ولذا يمكنه أن يحكم بين المسلمين طبقاً للسنة وسيرة السلف الصالح، ويكون ولياً من أولياء الله، ومن الخاصة والمصطفين للحق، ويسير بالحق في كل حكم، ويشفق على أحوال الخلق، ويقيم حدود الشرع؛ ومن ثم يتشرف بنيل الدرجة والقرب والرفعة، ويكون نادرة العالم، وبمثل هذا يجب على القاضي التقرب والتبرك.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين.

الفصل الخامس

في بيان سلوك أرباب النعم وأصحاب الأموال

الفصل الخامس

في بيان سلوك أرباب النعم وأصحاب الأموال

قال الله تعالى: "وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين"(١).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: **"من أصاب مالاً حلالاً فكف به وجهه ووصل به رحمه، وقضى به دينه وأقام به على جاره، لقي الله يوم القيامة ووجهه كضوء القمر ليلة البدر، ومن أصاب مالاً حراماً وكان مكاثراً ومفاخراً ومرائياً لقي الله يوم القيامة وهو عليه غضبان".**

اعلم أن مال الدنيا ونعمها وجاهها وإقبالها على مثال السلم الذي يمكن به الارتقاء إلى العلو، أو الهبوط به إلى أسفل. ومن ثم يمكن اعتبار المال والجاه وسيلة إلى درجات الجنة والتقرب من الحق، ويمكن أن يعد وسيلة إلى دركات جهنم والبعد عن الحضرة، كما أشار الحق إلى هذه السعادة بقوله تعالى: **"وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة"**(٢)، أي ابحث عن درجات الآخرة بما أعطيناك من مال الدنيا: **"ولا تنس نصيبك من الدنيا"**. وهذا إشارة إلى أن نصيبك من مال الدنيا هو ما تنفقه في سبيل الله، لا ذلك الذي تنفقه أو تخرجه في الهوى لقوله

(١) سورة القصص: آية ٧٧.

(٢) سورة القصص: آية ٧٧.

تعالى: "**ما عندكم ينفد وما عند الله باق**"(١). وتبيان ما ينفق في سبيل الله هو ما بينه الرسول عليه السلام بقوله: "**من أصاب مالاً حلالاً ذكف به وجهه**"، أي من اكتسب مالاً حلالاً ليحفظ به عزته ودينه، ويستغني عن الخلق ولا يخضع لمذلة الطمع ويعمل في عزة، وقوله عليه السلام: "**ووصل به رحمه**"، أي يقوم بصلة رحم أقاربه بهذا المال، والأقارب هنا نوعان:

الأول: الدنيويون: ويجب أن يمدهم بالمال والمدد والمعونة كما قال تعالى: "**وآتى المال على حبه ذوي القربي**"(٢)، وقال في موضع آخر: "**وإيتاء ذي القربى**"(٣).

الثاني: أقارب دينيون، كما قال تعالى: "**إنما المؤمنون إخوة**"(٤) لأن صلة الرحم الدينية بين الاخوة واجبة، وتفصيل هذه الاخوة هي ما يقول فيها الحق تعالى: "**ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب**"(٥).

وفي موضع آخر قال الرسول: "**وقضى به دينه**"، أي يقضي حقوقه وديونه بذلك المال، فإذا كان لشخص في ماله مظلمة أو حق، أو عليه دين فليؤده له، ويعطي الزكاة لمستحقيها، حتى يصونه جميعه من آفة النفاق والرياء

(١) سورة النحل: آية ٩٦.
(٢) سورة البقرة: آية ١٧٧.
(٣) سورة النحل: آية ٩٠.
(٤) سورة الحجرات: آية ١٠.
(٥) سورة البقرة: آية ١٧٧.

والتفاخر والمباهاة والتكبر والترفع والأذى والمنة وتوقع الثناء والصيت والشهرة والفخر والجبلة والمكر والخديعة، لأنها جميعها مبطلة لثواب الزكاة والصدقة كما قال تعالى: "**يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس**"[(١)]. وقال العظماء: "**وفي المال خراج زكاة الحقوق**"، كما يقول تعالى: "**والذين في أموالهم حق معلوم، للسائل والمحروم**"[(٢)]، ويروي عن الرسول عليه السلام قوله: "**في المال حق سوى الزكاة**"، وقال في موضع آخر: "**وأقام به على جاره**"، يعني أنه يقوم بأداء حقوق الجيران من ماله، فأن الجار له حقوق كثيرة. ويقول الرسول عليه السلام إن جبريل ظل يوصيني على الجار حتى ظننت أن الجار سيورث جاره، ويذكر في حديث آخر عنه عليه السلام: "**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره**".

اعلم، حقيقة، أن الجاه والدنيا بمثابة النحاس للأكسير، وحين يعرف الشخص علم الإكسير، فكلما يكثر من النحاس سيحصل على ذهب أكثر. وعلم الأكسير هو إخراج السوداء والكدورة والخفة من النحاس، حتى يظهر فيه الاحمرار والصفاء والأصالة. وحين صار بهذه الصفة، يصبح ذهباً خالصاً وترتفع قيمته من واحدة إلى سبعمائة أو أكثر.

ويوجد أيضاً في المال والجاه الدنيوي عدة صفات ذميمة وآفات، إذا استخرجت منه، ويضاف إليها عدة صفات أخرى، فإنها تصير أكسيرية، لأن النحاس مال دنيوي فاني، بناء على قضية قوله عليه السلام: "**من جاء بالحسنة**

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٦٤.

(٢) سورة المعارج: آية ٢٤-٢٥.

فله عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف"، فتصبح بعدما ذهباً خالصاً كي تحصل السعادة الأبدية والحظ السرمدي.

أما الصفات الذميمة الكامنة في المال والجاه الدنيوي الحاصل فهي عشرة:

الأولى: الطغيان: لقوله تعالى: "إن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى"[1]. والطغيان هو الغفلة والبعد عن الحق.

الثانية: البغي: لقوله تعالى: "ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض"[2]، والبغي هو الفساد والظلم بالعباد.

الثالثة: الإعراض: لقوله تعالى: "وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه"[3]، وهو إعراض الوجه عن الله تعالى، والانشغال بالهوى والكفر بالنعمة.

الرابعة: الكبرياء والنخوة والعجب: كما كان لفرعون حين كان يتحدث بعزة المال والجاه، لقوله تعالى: "أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي"[4].

الخامسة: التفاخر: لقوله تعالى: "وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال"[5]، أي البحث عن التفاخر والفخر والخيلاء على الأقران، والترفع على الإخوان ونسيان الحق.

---

(١) سورة العلق: آية ٦-٧.

(٢) سورة الشورى: آية ٢٧.

(٣) سورة فصلت: آية ٥١ ، وسورة الإسراء: آية ٨٣.

(٤) سورة الزخرف: آية ٥١.

(٥) سورة الحديد: آية ٢٠.

السادسة: التكاثر: لقوله تعالى: "ألهاكم التكاثر"[1]، فالتكاثر هو المباهاة والفخر بكثرة المال والغفلة عن الحق عز وجل.

السابعة: الانشغال: لقوله تعالى: "سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا"[2]، والانشغال هو إضاعة العمر في جمع المال واكتنازه، وصرفه وإنفاقه في تحصيل الشهوات الدنيوية والمتع النفسية والتمتعات الحيوانية.

الثامنة: البخل: لقوله تعالى: "ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة"[3]. والبخل هو منع حقوق المال من الزكاة والصدقة ومساعدة الإخوان وصلة الرحم وإجابة السائل وإكرام الجار وإعزاز الضيف وزيادة الإنفاق على العيال والخدم، ورعاية العلماء والصالحين، وتفقد الغرباء والضعفاء وأمثالهم.

التاسعة: التبذير: لقوله تعالى: "إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين"[4]. والتبذير هو الإسراف في الإنفاق خلافاً لرضاء الحق وقضائه، وإضاعة المال في طلب الجاه والمنصب، والإنفاق بسخاء في الشهوات والشهرة ومدح الخلق، والإنفاق على السفهاء والفسقة والظالمين، والغلو والمبالغة في تبذير المال على المأكل والملبس والنكاح وعمارة الدنيا والمسكن ومواطن الفساد من القصر والحديقة والإيوان والديوان، والتكلف في الأواني والمفروشات والستائر وغيرها من الأمتعة والأدوات المنزلية، وصرف

---

(١) سورة التكاثر: آية ١.

(٢) سورة الفتح: آية ١١.

(٣) سورة آل عمران: آية ١٨٠.

(٤) سورة الإسراء: آية ٢٧.

المال على الغلمان والجواري والدواب الكثيرة الزائدة عن الحاجة الضرورية والشرعية، وغيرها من النفقات.

العاشرة: الغرور: كقوله تعالى: "**فلا تغرّنكم الحياة الدنيا، ولا يغرّنكم بالله الغرور**"(١)، وهو غرور القلب بالدنيا، والانخداع بزخارفها ونسيان الآخرة ومنكر ونكير، والحساب والميزان والصراط والثواب والعقاب، والغفلة عن الهيبة والعظمة وقهر الحق تعالى وجبروته، والاغترار بكرم اللطف والرحمة الإلهية، دون أن يطيعه أو يتوب عن المعاصي.

هذه جميعها هي الآفات التي تتولد عن المال والجاه الدنيوي، وتصير فتنة لصاحب المال، كما قال الحق تعالى: "**إنما أموالكم وأولادكم فتنة**"(٢). ومن ثم فإن صاحب الحظ هو من تحالفه السعادة ويرافقه التوفيق، حتى يغلب إكسير الشريعة على صفة الجاه والمال النحاسي بعون الطريقة، ثم تنفى بعد ذلك من هذه الآفات العشرة التي ذكرت من قبل، وتتبدل هذه الخواص العشرة بأضدادها من تلك الآفات، فتصير جميعها عين القرب والقبول من الحضرة ورفيع الدرجة وسمو المرتبة وإدراك الحقيقة كما يقال: "**نعم المال الصالح للرجل الصالح**".

وتلك هي الخواص العشرة المضادة للخصائص المذكورة:

الأولى: علو الهمة: أي إذا كانت له جميع الدنيا من مال ومُلك ودانت له، فلا يرتفع بها ولا ينظر إليها، ويدرك أنها جميعاً من الله وملك الله، ولو استحسنها نظره، فلا ينظر إليها حتى لا يطغى، وحتى يتبع الرسول عليه

---

(١) سورة فاطر: آية ٥ ، وسورة لقمان: آية ٣٣.

(٢) سورة الأنفال: آية ٢٨ ، وسورة التغابن: آية ١٥.

السلام كقوله تعالى: "إذ يغشى السدرة ما يغشى، ما زاغ البصر وما طغى"[١].

الثانية: العفة: حين يكون عفيف النفس فلا يقبل الظلم والفساد على نفسه أو غيره.

الثالثة: التوجه إلى الحق: لقوله تعالى: "أني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً"[٢]، فيدرك أن نفسه وماله وملكه جميعاً لله الحق، ويعرض عن حبه بأجمعه، ويولي وجهه شطر حب الحق، ويتأكد أن ذلك جميعه عدو له، ويدرك أن العدو مختف في الصديق لقوله تعالى: "فإنهم عدو لي إلا رب العالمين"[٣].

الرابعة: الشكر: كقوله تعالى: "واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون"[٤]. وفي هذا إشارة إلى أن الشكر ليس مجرد القول: "الحمد لله"، ولكن يجب أن يكون شكر كل شيء موافقاً لذلك الشيء كشكر نعمة الجسد بالخدمة، وشكر القلب بالإيمان، وشكر الروح بالمحبة، وشكر اللسان بالحمد لله، وشكر المال بالإنفاق في سبيل الله ومن أجل الله وبأمر الله وبتوفيق الله، وإدراك عجزه عن أداء الشكر لله على نعمته الأبدية.

الخامسة: التواضع: كالقول: "من تواضع لله رفعه"، والتواضع هو إدراك قيمة النفس، إذ ينظر إلى نفسه في بادئ الأمر، حيث كان قطرة ماء مهين، وكل ما يراه زيادة على هذه الفطرة فهو من القوة والشوكة والآلة والعدة

(١) سورة النجم: آية ١٦-١٧.

(٢) سورة الأنعام: آية ٧٩.

(٣) سورة الشعراء: آية ٧٧.

(٤) سورة النحل: آية ١١٣.

والمال والنعمة والجاه والحرمة والعقل والكياسة والعلم والمعرفة ويعلم أنها جميعاً من فضل وكرم وعاطفة ورأفة ورحمة ونعمة الحق، فلا يتفاخر ولا يتكاثر ولا يتباهى ولا يتكبر ولا يترفع بها على خلق الله، حتى لا يرتد إلى الكفر بتلك العارية لقوله تعالى: "**ولئن كفرتم إن عذابي لشديد**"(١).

السادسة: السخاء: كما يقال: "**السخاء شجرة تنبت في الجنة**". فحقيقة السخاء هي ألا يبخل بماله على نفسه، لأن ماله هو ما يمنحه وليس ما ينفقه كما قيل في معاني هذين البيتين:

لا تكنز المال الكثير لأنه ليس لك وحدك
ولكنه يصير لك حين تشرع في عطائه
فإذا أردت فادخر حتى يجده غيرك، من بعدك
ولو تريد فأعط (انفق) حتى تسترده ثانية

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم ذات مرة للصحابة رضوان الله عليهم أجمعين "أيكم أحب إليه: ماله من مال وارثه" فقالوا جميعاً: إننا نفضل مالنا جميعاً على مال وارثنا، فقال الرسول إن مالكم هو ما يرسل إلى الآخرة ومال وارثكم هو ما يعود ثانية إلى هنا".

السابعة: التفرغ: لقوله تعالى: "**رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله**"(٢)، والتفرغ هو من لا يملك مالاً أو مُلكاً في يديه أو في قلبه، ويشغل القلب

---

(١) سورة إبراهيم: آية ٧.
(٢) سورة النور: آية ٣٧.

بذكر الحق خاصة، حتى لا يعرض بذلك عن الحق: "ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه"(١).

لا يمكن أن يجتمع صديقان في قلب واحد
فاتركه إذ أردت أن أكون لك

وقيل للرسول قول الحق: "فإذا فرغت فانصب"(٢)، أي حين تفرغ القلب من جميع الموجودات، فلتشغله بنا عندئذ. والحق تعالى لا يمكن أن يشغله بالخلق عن ذكر الحق بالبيع والشراء أو القيل والقال، حتى يثبت رجولته كما قيل:

حينما تصير غيرة سلطان عشقه ظاهرة من رأسه
تزين حجرة القلب الخاصة بهيام عشقه
وتتجاوز طيوره حينذاك عن الزمان والمكان
وتبني أوكارها في فضاء الاستغناء

ومن ثم فإنه بماله وجاهه يقدم المدد والعون والتربية لطائفة أهل سلوك طريق الحق، فيعدُّون لهم أسباب الطمأنينة والسكينة، حتى أن كل درجة يحصلون عليها بمدده، يكتب ثوابها في ديوانه، ويجعلونه منهم، ببركتهم ومحبتهم، ويحشر بينهم كما يقال: "المرء مع من أحب".

(١) سورة الأحزاب: آية ٤
(٢) سورة الشرح: آية ٧.

الثامنة: التقوى: كقوله تعالى: "**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**"[1]. فالتقوى هي تجنب المال الحرام والأكل المشبوه والشهوات الحرام ورعونات النفس والأخلاق السيئة ومخالفة الشرع، ويجدّ في أداء الأوامر والواجبات والفرائض، والاجتهاد في إخلاص النية، حتى يجد في التخلص من الرياء والشهرة والمكر والحيلة.

التاسعة: القوام: كقوله تعالى: "**والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما**"[2]، فالقوام أن يراعي الاعتدال ولا يسرف. والإسراف هو الإنفاق خلافاً لرضا الحق ووفقاً لهوى النفس، والتقتير هو أن يمسك ولا يسرف حيث يجب الإنفاق وفقاً للشرع ورضا الحق، والقوام والاعتدال هو أن يبالغ في الإنفاق في سبيل الله، وبما يختص بالشخص ذاته بان يترك التكلف والرعونة، ويرعى التوسط في المأكل والملبس والمسكن والمواصلات والأدوات المنزلية والأقمشة والأمتعة، حتى لا يحجب بها.

العاشرة: التسليم بالرضا: كما يقال: "**الرضاء بالقضاء باب الله الأعظم**". والتسليم هو بيع النفس والمال للحق تعالى، كما في الميثاق الالهي: "**ألست بربكم**"، وشراء الجنة هو أن يسلم الثمن اليوم، لأن اليوم موعد التسليم، حتى إذا كان يوم القيامة وهو موعد تسليم ما دفع ثمنه، فيمنح الحق تعالى الجنة كقوله تعالى: "**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة**"[3]. وتسليم النفس والمال يكون على هذا النحو، حتى لا تعرف ذاته

---

(١) سورة الحجرات: آية ١٣.

(٢) سورة الفرقان: آية ٦٧.

(٣) سورة التوبة: آية ١١١.

عنها شيئاً بل تعرف الحق بها ويرى نفسه وكيلاً لإنفاق خـراج الحـق، ويعرف أن الخلق هم عبيد الحق، حتى يمكنه أن يقوم بمصالحهم بنفسه بالقول والفعل، وينفق المـال عليهم بأمر الحق، ولا ينظر إلى شـخص بعين الحقارة، ويرى أنه تابعاً لهم، ويعرف أن النفس عبد ناقص من عبيد الحق، ولا يمتن قط على شخص. وكل شخص يقبـل الإحسان منـه، فليعرف أن عليه حقاً واجباً وأنه هو الممتن عليه. ومن هنا يقول الرسول: **"الصدقة تقع في يد الرحمن قبل أن تقع في كـف الفقـير"**، وعليـه أن يرضـى بكل حكم ينزل الله على نفسه وماله، ويصبر علـى بلائـه ولا يسلم القلب للدنيا، ولا يغتر بعشواء النفس وغرور الشيطان ويقدم الـروح إلى معرض التسليم ، حتى حين يطلبها فيسلمها في الحال سواء مختاراً أو مضطراً وعليه أن يجتهد حتى يحين وقت التسليم:

لو قـال ابكِ دمًا، فلا تسـألن عـن السـبب؟
ولو قال أسلِم الروح، فلا تقولن متـى يجـب؟

ولو ترك بعده المال والملك، فعليه أن يوقفه على أوجه الخير حيث، بعـد وفاته، فكل طاعة تسري في تلك البقاع ستكتب له في ديوانه، لأن كل من ليـس له طاعة خلال حياته فهو ميت، وكل من له طاعة بعد وفاته فهو حي.

ومن ثم فإنه حين يُطَهِّر أصحاب الأموال وأرباب النعم، المال والجاه في الدنيـا من هذه الآفات العشرة التي أوضحناها، ويخصونها بهذه الخصائص والخصـال العشرة، فإنهم قد وصلوا إلى كيمياء السعادة الأبدية، واستحقوا المـال والجـاه الدنيوي الفاني من مائة إلى سبعمائة ضعف، وأضعافاً مضاعفة من الدرجـات ومثوبات الآخرة الباقية وقرب الحق وجواره كقوله تعالى: **"مثل الذين ينفقـون**

أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل، في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم"(١).

ولو أنه وضع طوال عمره شبكة الإرادة بيد الحاجة، ونثر حبوب المال والجاه، فإنه يكون كالصقر الأبيض سوف يحمل الحبوب من هذه الشبكة، من خواص الحق ومحبيه ومحبوبيه. ولو كانت هذه الحبة لقمة واحدة، وتصير جزءاً منه. وكل عبادة يؤديها للحق، يشترك فيها ذلك الجزء، ويصل ثواب ذلك النصيب إلى صاحب اللقمة، ويمنح أولئك، أصحاب السعادة، بعض الأوقات الخاصة كقول الرسول عليه السلام: "**لي مع الله وقت**" وفي ذلك الحين يصير قابلاً لتصرف جذبات الألوهية. وفي تلك الحالة أيضاً فإن نَفَسًا من طاعتهم يعادل (أنفاس) أهل الأرض والسماء، لقوله عليه السلام: "جذبة من جذبات الحق توازي عمل الثقلين".

وهكذا يأتي نصيب ذلك الصياد من هذه الحالة التي لا يمكن لأهل الشرق والغرب أن يحصوها، لأنها تأتي من العالم الأبدي لألطاف الحق، ولا يبلغ نظر كل قصير النظر إلى جمال كمال هذا الحديث.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين.

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٦١.

الفصل السادس

في بيان سلوك الرؤساء والدهاقين والمزارعين

الفصل السادس

في بيان سلوك الرؤساء والدهاقين والمزارعين

قال الله تعالى: "من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب"[١].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"من يزرع زرعاً أو يغرس غرساً فما أكل منه الطيور والدواب إلا يكتب في ديوان حسناته"**، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: **"اطلبوا الرزق في خبايا الأرض"**.

اعلم أن الرئاسة مشتقة من الرئيس، ورئيس القوم أي رأس القوم، وعمل الرأس النظر بالعين والسماع بالأذن، والبيان عن طريق اللسان. وشروطها هي أنها تعمل على ما سنبين. فالدهقنة (الحرث) والزراعة هي تجارة مع الحق، وهي أفضل جملة الصناعات والمكاسب. وإذا قام بها الإنسان كما ينبغي، وبث فيها نظر المعرفة فإنه يدرك خلافة الحق في صفة الرزاق. وحين يشغل شخص بهذا الأمر بحدة النظر والبصيرة، فلن يكون له ثوابها في النهاية أو ينال المراتب والدرجات العالية. وهي ثلاث طوائف، لكل طائفة منها آداب وشروط وأركان، حين تقوم بها تصل إلى درجة الصديقين والشهداء والصالحين والسعداء.

(١) سورة الشورى: آية ٢٠.

الطائفة الأولى: هم الرؤساء والدهاقين الذين يمتلكون المال والملك ويحتاجون إلى المزارعين والصبية والمباشرين والأجراء، حتى يستخدموهم في الزراعة والعمارة. وشروطها وآدابها هي: ألا يغتروا في البدء بمالهم وملكهم، ولا يشغلون القلب بها، ويعرفون أن ما في أيديهم دَيْن وأمانة، ويعرفون أيضاً أن جملة الوجود من ذلك الإله تعالى لقوله تعالى: "**ولله ملك السموات والأرض**"[1] ، ولا يقيدون أنفسهم بالجمع والادخار والاستكثار ولا ينظرون بعين الحقارة إلى الخدم والحشم والأجراء، ويتجهون في رئاستهم ومزارعتهم ودهقنتهم لزراعة الآخرة، كما يقال: "**الدنيا مزرعة الآخرة**".

وحينما يخرجون البذرة من المخزن، يعتزمون بالقول إني سأزرع بذرة الآخرة وليس بذرة الدنيا. وهذا يعني أن يعتزم أنه حين ينمي الحق تعالى هذه البذرة، تحصل فائدتها، وكل شخص يأكل منها، من الآدميين وغيرهم، فقد أحللتها لهم جميعاً، لأن خلق الحق محتاجون إلى القوة من الإنسان والحيوان وكل شخص لا يمكنه القيام بهذه الدهقنة والزراعة، فأنا أقوم بخدمتهم من أجل رضا الحق، حتى أقوم بعبوديته في صورة خدمة خلقه.

ويجب ألا يظلم أي شخص من المزارعين والمباشرين والصبية والأجراء، ويوفيهم أجرهم ونصيبهم كاملاً. وفي البدء حين تثمر الزراعة والحدائق وغيرها، ويكون نصابها كاملاً، يخرج زكاتها، ويحمل هذا البيدر إلى المنزل، ويوفي مستحقي الزكاة نصيبهم بأقصى سرعة، حسب قانون الشرع،

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٨٩.

لأنه إذا خلط شخص زكاة شيء في ماله، فإنما يصير جميع ماله مشبوهاً. والباقي الذي يبقى مستفيداً منه، فلا يرتبط به، لأنه يدخر شيئاً لعام آخر، ويتوكل على الله، لأن فلاحته عين التوكل، كما يحب أن يكون لديه الأمل، عند الحصاد، في لطف الحق وكرمه، لأنه ليس لأي مخلوق دخل أو مجال في ذلك إذ أن التربية في الأرض والإنبات من أمره تعالى قوله: "**إن الله فالق الحب والنوى**". وسيول الرحمة وأشعة الشمس إنما تكون من بحار فضله الزاخرة، ويجب أن يفتح منزله دائماً للقادمين والوافدين من الدراويش الفقراء والقادرين، ويجب عليه أن يخدم خلق الله بقلب طيب واعتقاد حسن ونية صافية بقدر دخله ومكسبه، والمنة من نفسه.

ولو كان مكسبه قليلاً في عام ما، أو كان عاماً قحطاً، ولم تنزل فيه الأمطار فلا يغتم ولا يحزن من ناحية الرزق، ولا يكفر بالحق حرصاً على جمع المال واكتنازه، ولا ينكر ولا يعترض على أفاعيل الحق بقلبه ولسانه؛ وليعتقد أن لله في ذلك أحكاماً، ويرضى ويسلم بذلك، وليعلم أن الرزق من الله عز وجل، ويقرأ قوله تعالى: "وفي السماء رزقكم" ولا يتأثر من تلك الدنيا الفانية ، إذ قال:

أطل شيخ عجوز من مكمنه
ورأى زراعته يابسه فقال:
يا من أنت مالك القديم والجديد
إن الرزق عليك، فافعل كل ما تريد[1]

(١) سنائي الغزنوى: حديقة الحقيقة: ص١٠٧.

وكان شقيق البلخي يقول إنه إذا انقلبت السماء إلى حديد والأرض إلى نحاس، ولم تمطر السماء، ولم تنبت الأرض، وصار جميع الخلق عيالي، فلا أهتم مثقال حبة من شعير. وحين يقوم الرئيس والدهقان بالرئاسة والدهقنة على هذا النّسق، ويزرع البذرة على هذه النية، ولا يلقي أحماله على شركائه، ويغرس الغرس بهذا الإخلاص ولا يتعدى بفساد على ماء الآخرين وأرضهم، ويرعى أوامر الشرع ونواهيه، ويخرج العشر على هذا الاعتقاد، فإن كل لقمة وكل حبة وكل ثمرة تصل من ماله وملكه وزراعته وحدائقه لأي آدمي أو طائر أو حيوان، إلا وكتبت له جميعها في ديوان حسناته عن كل حبة عشر أمثالها حسنات، وأصبحت وسيلة للقرب ونيل الدرجات. وإن كان عزمهم أنهم يفعلون هذا العمل من أجل الخلائق وكل حبة وثمرة يعطيها للخلق من كدّه وتعبه، حتى إذا بيعت بالثمن، فسينال أيضاً الثواب على هذا كله. وقد قال العظماء: من أجل أن تنضج لقمة خبز واحدة، فإنه يعمل فيها ستون وثلاثمائة شخص منهم المزارع والحاصد والنجار والحداد وغيرهم من الحرفيين، وحين يطعم أحد أولياء الحق تعالى منها لقمة، فإن الحق تعالى يغفر لهم جميعاً ببركة هذا الولي ومن ثم يعتقهم جميعاً من نار جهنم إن شاء الله تعالى.

أما الطائفة الثانية: فهم المباشرون والحكام والنواب، إذ يجب عليهم أن ينشروا العدل بين الرعية، وألا يرجحوا الجانب القوي على الضعيف ولا يأخذون الرشوة، ويناصرون الحق، ويعضدون الدين وأهله، ويرعون الرعايا ويرفهون عنهم، ويدفعون عنهم الظلم بكل قوتهم، ويُحولون دون الطمع في مال وملك وأسباب الرعية، ويكفون اليد، ويقنعون ويعيشون بالصلاح، وينأون بأنفسهم عن أسباب الفساد، ويعاقبون المفسدين، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر؛ وإذا ما رأوا طمعًا

وفساداً في أحد من الرعيــــة، فعليــــهم بتأديبــــه واســـتتابته، ويقومون بشروطها كما ينبغي على أكمل وجه، ويدركـــــون يقيناً أن كل ما يجري عليهم وعلى الرعية اليوم، فهم جميعـــاً مسئولون عنه لقوله عليه السلام: "**كلكم راع وكلكم مســـئول عن رعيته**"، وعليهم باستمالة الرعية بطيب الكلام، وتوفيــــة الوعود الطيبة لهم والثناء على أعمالهم الحسنة، والحيلولــــة دون وقوع الشر عليهم، وأما ما يتعلــــق بأنفســـهم خاصــــة، فيصلحون شئونهم الدنيوية ويبتعدون عن الفســـاد ويرعـــون خدمة الرائحين والغادين ويتجنبون الرعونة والكبر.

وهم حين يوفون هذه الشروط حقها، فإن الحق تعـــالى ســـيكرم هـــؤلاء الرعايا، بالثواب والدرجات، في تلك البقاع عما قاموا به مـــن طاعـــة وخـــير وصلاح وسكينة إن شاء الله تعالى.

والطائفة الثالثة: هم المزارعون والأجراء الذين يعملون فـــي ملـــك غـــيرهم، وهؤلاء يجب عليهم أن يحققوا الأمانــــة والديـــن وأن يتجنبـــوا الخيانة والتصرفات الفاسدة، وألا يبخلــــوا بشـــفقة وأن يتبعـــوا الصدق والعفة في غيبة الملاك والمباشرين والحكام والدهـــاقين وفي حضورهم وأن يعملوا على حفظ مالهم وملكهم وأن يبذلـــوا ما في وسعهم في أعمال العمارة والزراعة وألا يظلموا الـــدواب بالأعمال الثقيلة، وألا يرهقوها بالعمل الكثير، وألا يؤذوها. وكل ما يجري عليهم يكون زيادة من فضلهم، وسيسألهم عنها الحـــق

تعالى يوم القيامة. وسينصف المظلوم من الظالم لقوله تعالى: "والله عزيز ذو انتقام"[1].

وحين يشتغلون بأمر الزراعة وتلقيح النبات، فيجب عليهم أن يداوموا على الذكر. وحين يحل وقت الصلاة، فلينصرف الجميع إليها. وإذا لم يستطيعوا القيام بها في جماعة، فيجب عليهم ألا يهملوها بأية صورة، وليتبعوا الشروط الأخرى التي سبق ذكرها.

وهذه الطوائف الثلاث جميعها لا تعرف حقيقة نفسها من الفاعل ومن الزارع، وهي تعرف أن ذلك مرجعه إلى حضرة الألوهية لقوله تعالى: "أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون"[2]، وهذا مثل اليد والقدم والبصر والسمع والقوة والقدرة والملك والمال والحشم والأرض والماء والبذور والحبوب، فإنها جميعاً من حضرة العزة لأن المزارع يمكنه أن يبذرها أو يغرسها، ولكنه لا يستطيع أن يفعل أي تأثير في البذرة مع حضرة الحق الذي يخرج، بكمال قدرته، تلك البذرة من الأخرى وهي في الأرض ويبدعها خضراء يانعة. وبالتدريج تفنى البذرة في الأرض، وبعد ذلك بفترة زمنية تنمو مرة أخرى وتظهر عليها الثمار، فتخرج الواحدة مائة حتى سبعمائة بذرة مثلها وأضعافها. وفي الحقيقة فإن الزارع والمالك والقادر والخالق هو الحضرة الإلهية الذي ينبت أرزاق العبيد التي أخفاها في زوايا الأرض، حتى أن الرسول عليه السلام يحث الخلق على طلبها بقوله: "اطلبوا الرزق في خبايا الأرض".

---

(١) سورة آل عمران: آية ٤ ، وسورة المائدة: آية ٩٥.

(٢) سورة الواقعة: آية ٦٤.

ومن ثم يجب على المزارع والحرفي والعامل والأجير والمباشر والحاكم والدهقان (المزارع) والمالك والرئيس أن يعرفوا أنهم ليسوا إلا واسطة، وأن الحق تعالى هو الزارع والرزاق الحقيقي، وأن الحق يبسط الرزق على العبيد، حتى يتصف خليفته بصفة الرزاق، وتستقر حياتهم بما سبق شرحه، حتى أن ما يصل من الزراعة إلى الآدميين الحيوانات والطيور سيكتب الحق تعالى بها في ديوانهم حسنة، وسيكرمهم بالدرجة والقرب، كما بشر بذلك الرسول عليه السلام في قوله: "**من يزرع زرعاً أو يغرس غرساً فما أكل منه الطيور والدواب إلا يكتب في ديوان حسناته**".

وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين.

الفصل السابع

في بيان سلوك أهل التجارة

الفصل السابع

في بيان سلوك أهل التجارة

قال الله تعالى: "رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب"(١).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "التاجر الصدوق الأمين يحشر في الجنة مع الأنبياء والمرسلين يوم القيامة".

اعلم أن التجارة نوعان: تجارة الدنيا وتجارة الآخرة: أما تجارة الدنيا فهي للنفع الدنيوي فقط. والثانية تجارة الآخرة وهي التي يتبعها نفع الدنيا لقوله تعالى: "من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه"(٢).

ولكن تلك التجارة الدنيوية مذمومة للغاية وتحصيلها بلا ثمر وكلها وزر ووبال وحساب وتعب، وربحها كله خسارة وزيادتها نقصان وفائدتها ضرر:

زيادة المرء في دنياه نقصان
وربحه غير محض الخير خسران

(١) سورة النور: آية ٣٧-٣٨.

(٢) سورة الشورى: آية ٢٠.

والحق تعالى يقرن هذه التجارة باللهو لقوله تعالى: **"قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين"**[1]، ويقول الرسول عليه السلام: **"التجار يحشرون يوم القيامة فجاراً إلا من اتقى وبر وصدق"**. وأن التجار الدنيويين الذين لا يتأتى منهم التقوى والخير والصدق فإنهم يسمون فجاراً لقوله تعالى: **"وأن الفجار لفي جحيم، يصلونها يوم الدين"**[2].

أما تجار الآخرة فالدنيا أيضاً تابعة لهم، وتلك هي التي يقول عنها الحق تعالى: **"رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله"**[3] ومن ثم فإن حقيقة معنى هذه الآية هو أن الرجال يعملون على صورتهم في تجارة البيع والشراء، ولكن قلوبهم تلهث بذكر الله.

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه
ولا قبل الدنيا من الدين غافل

وأولئك هم المشغولون بتجارة الآخرة، الذين بذلوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الحق، واعتدوا بما يقوله تعالى: **"يا أيا الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون"**[4]. وهؤلاء الرجال هم تجار الآخرة

(١) سورة الجمعة: آية ١١.
(٢) سورة الانفطار: آية ١٤-١٥.
(٣) سورة النور: آية ٣٧.
(٤) سورة الصف: آية ١٠-١١.

الذين لا يغفلون عن إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ويذكرون الحق دائماً، ويتعقبون تجارة الدنيا من أجل النفع في الآخرة، وهؤلاء هم الذين يقول عنهم الحق تعالى: **"وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين"**(١).

ومن ثم فإن شروط التجارة لنفع الآخرة وتبعية الدنيا لها، ومصاحبة الأنبياء والأولياء عليهم السلام والوصول إلى مقام الرجال وإظهار مقام الرجولية؛ هي تلك التي تتخذ التقوى شعاراً ودثاراً لها، ويعتبر أن ماله هو مال الله، ويعزم على أنه سيتصرف في مال الله لأجل عبيد الله بأمر الله ورضاه، وأن ما يأتي له من الربح، فإنه ينفقه على خلق الله، ويعتبر نفسه وعياله واحداً منهم، وينصف في البيع والشراء، ويسهل أمرهما.

يقول الرسول عليه السلام: **"رحم الله امرءاً سَهَلَ البيع وسَهَلَ الشراء"**، فيحمل ما يكون في ولايته من الملبوسات والمأكولات والمراكب والفرش والأواني والأمتعة الأخرى والأقمشة ـ لأجل التجارة ـ إلى المدن الأخرى، ويأتي بمثلها من الولايات الأخرى إلى مدينته، حتى يشغل العبادُ فراغ القلب بعبادة الحق، ولا يقسمون بالإيمان قط في البيع والشراء لا كذباً ولا صدقاً، لأن الحق تعالى يعادي البائع الحلاف ويقتنع بالربح القليل حيث أن البركة قرينة القناعة والحرمان قرين الحرص كما قيل: **"الحريص محروم"**، ويجد في الأمانة ويبتعد عن الخيانة كما يقول الرسول عليه السلام: **"الأمانة تجر الرزق والخيانة تجر الفقر"**، ولا يذم المتاع الذي يشتريه في ذلك الوقت ولا يمتدح المتاع الذي

---

(١) سورة الأنبياء: آية ٧٣.

يشتريه في ذلك الحين، ولا يخفي عيبه، ولا يشتري الغلام أو يبيعه لأن مشتري الغلام معرض للآفة، وبيع الغلام نوع من التهمة، وقد قيل: "**اتقوا مواضع التهم**".

ويجب أيضاً أن يسأل عن المزارات والأماكن المقدسة في المدن التي يزورها ويذهب إليها، فيزورها في ضراعة تامة، ويبحث عن الزهاد والعباد والأئمة والمشايخ والمتصوفة في كل مدينة وكل مكان يذهب إليه، ويجد في خدمتهم بصدق وأمانة، ويحب كل شخص سواء فيه القليل أو الكثير من البركة، ويعتبرها غنيمة إذ كيف لا يكون في سفره أي غنيمة أو رأي في نيل صحبة رجال الله وخدمتهم كما عليه أن يعين الدراويش والضعفاء في المدينة بقدر ما يستطيع.

ويجب في كل سفر يقوم به، أو كل معاملة وتجارة يحضرها في المدينة أن ينفق ما يربحه على أوجه الخير، إلا ذاك القدر الذي ينفقه على العيال، ولا يتعلق قط بجمع المال وادخاره واكتنازه لأن الله تعالى يقول: "**والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون**"[1].

ويجب أن تكون الحياة كلها على هذا المنوال، إلى أن يحل موعد السفر إلى الآخرة؛ وبذا يكون قد قدم لآخرته النفع والفائدة من قبل حتى بعد أن يدركه الفناء بعد ماله، مثلما يسافر تاجر فيرسل بضاعته قبله ولا يكون هادئاً أو

(١) سورة التوبة: آية ٣٤-٣٥.

مستقراً إلا بعد أن يرحل في إثر تلك البضاعة في موعد رحيل القافلة، ولن يسعد بذلك حتى يقوم بالعمل هكذا، فيعطي منه ما يكفي أولاده قدر الكفاف مما بقي منه، والباقي يوقفه لله أو ينفقه على أوجه الخير حتى تصير بعده صدقة جارية، وإلا سيتحسر على أنه تعب، ثم أكله آخر غيره.

ويروي الحديث أن الرسول عليه السلام قال إنه في يوم القيامة تكون تلك الحسرة لأربعة أشخاص في العرصات، وهي حسرة ليست لأهل الأولين ولا للآخرين:

الأول: عالم أخذ يدعو الجمع إلى علمه، ويذهبهم إلى الجنة بعلمه، ويذهب هو إلى الجحيم بعلمه الذي لا يعمل به

الثاني: سيد عنده عبد، فبينما يشتغل السيد بالفساد يشتغل العبد بالصالحات، فيرى، في العرصات، العبد يؤخذ إلى الجنة، بينما يؤخذ السيد إلى النار.

الثالث: شخص يعمل كثيراً من الطاعة في كل نوع، ولكنه يظلم شخصاً، ويعادي شخصًا، ويغتاب غيره، ويسب هذا، ويؤذي هذا، ويؤلم هذا. وحين يأتي هذان الخصمان إلى العرصات، يأخذ أحدهم صلاته، والآخر حجّه، وغيره زكاته ويبقى هو مفلساً، وتعلق ذنوب الخصوم في عنقه، ويُحمل إلى جهنم، بينما يذهب الخصوم إلى الجنة. ولكنه يندم قائلاً إني فعلت الطاعات الكثيرة ولكني ذهبت إلى جهنم بذنوبهم، وهم قد ذهبوا إلى الجنة بطاعتي.

من هذا العمر الذي تحصل منه الملالة

وانقضى ولم يحل منه غير الوبال

إن الموت الكامل ليس إلا أن يموت الإنسان

دون أن يكون قد حصل من الدنيا على الكمال

الرابع: صاحب مال جمع مالاً كثيراً ولم يستفد منه، فأنفق ورثته هذا المال في الخيرات وأعطوا الصدقات فأنفقوه جميعه في سبيل الله عز وعلا. ولكن حين يؤتى بهم يوم القيامة إلى العرصات، فسيؤخذ صاحب المال إلى جهنم بالذنوب والوبال والحساب، وسيحمل أولئك الورثة إلى الجنة بخيراتهم، ولن يكون لأي قوم هذه الحسرة التي لهؤلاء القوم الأربعة. ثم عليه أن يجد في السعي (إلى الخير) حتى يحفظه الحق تعالى من هذه الآفات.

وعليه كذلك أن يكون تاجراً مراعياً الأمانة ومتبعاً الحق في القول؛ مثلما قال الرسول عليه السلام: "**التاجر الصدوق الأمين في الجنة مع الأنبياء**". والأمانة هي أن يصدق القلب والنية مع الحق تعالى، ويفعل ما يفعله من أجل الله تعالى، وقول الصدق هو ما يصدقه مع الخلق، ويتبع الطريق القويم، ويبتعد عن المكر والخديعة، واتباع الصدق هو ما يكون على جادة مصالح الشريعة، ولا يغفل نهج الطريقة.

كما يجب عليه التأكد مما يستمع إليه جيداً حتى لا يرجح جانب مصالح الدنيا على جانب مصالح الدين في أي وقت، ولا ينصرف بالإشتغال بالدنيا عن أمر الدين بأية حال، ويكون ذاكراً الحق في كل الأحوال ويطلب الآخرة حتى يكون من تلك الزمرة الذين يقول الحق فيهم: "**رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله**"(١)، ويسميهم الحق تعالى الرجال، أي أن كل من لم يكن على هذه

---

(١) سورة النور: آية ٣٧.

الوتيرة، فليس رجلاً. وكل من جمع بين العقل والدين فلن يرفع الرأس إلا بمقام الرجولية؛ ومن ثم فلا يغتر بزينة الدنيا الفانية:

حين ينظر العاقل في سيرة الدنيا
لا يشترى إقبال الزمان بحبة شعير واحدة[1]
ويكون مشغولاً طوال عمره بشيء واحد:
هو كيف يخرج من شبكة البلاء هذي؟!.

وحين يقوم بهذه الشروط والآداب ويحترس من تلك الآفات في كل خطوة يسيرها في الرحيل والإقامة، وفي كل بيع وشراء يقوم به، وفي كل تعب ومشقة يراها، وفي كل راحة ودعة يحققه ماله لأي شخص، فكل خطوة منها تصير موجبة للقربة والدرجة من الحق.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين.

(١) أنوري الخاوراني: الديوان: تحقيق سعيد نفيسي: ص٥٩٦.

الفصل الثامن

في بيان سلوك المحترفة وأرباب الصناعات

الفصل الثامن

في بيان سلوك المحترفة وأرباب الصناعات

قال الله تعالى: "**يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم**"(١).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "**إن أطيب ما يأكل الرجل من كسب يده**".

اعلم أن الحرفة والصناعة تأتي نتيجة العلم والقدرة، والعلم والقدرة نتيجة لمعرفة الروح بقدر القوة والصبر، والآن ستستخدم هذه الحرف والصناعات بالقوة نتيجة استخدام الآلات والأدوات الجسمانية بأمر العقل الذي هو وزير الروح ونائبها، وينزل بها من عالم الغيب إلى عالم الشهادة.

ومن ثم، فمن خواص العاقل صاحب البصيرة أن ينظر إلى صناعة وصنع الحق من هذه الكوة الروحية، حتى يعرف أن ذات روحه موصوفة بهذه الصفات، ويعرف أنه الروح الحي. وإذا لم يكن حياً، فما صدر عنه أي فعل، ويعرف أنه عالم، وإذا لم يكن عالماً، فما كان ليصدر عنه هذه الصناعات اللطيفة المناسبة للوجود، ويعرف أنه القادر، لأنه بدون القدرة فإن الفعل محال، ويعرف أنه المريد لأنه بدون الإرادة لن يظهر فعله في الوجود خاصة في زمن دون زمن. وتخصيص الزمن لإيجاد الفعل عن الفاعل ليثبت اختياره وإرادته، وليس كما يقول الفلاسفة الحيارى إن "**الصانع العالم ليس له إرادة واختيار في**

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٦٧.

إيجاد الفعل"، إذ أن هذا كفر إلى هذه الدرجة من الصراحة وجهل مطبق، وجرأة وجسارة بمنتهى الفداحة: "**عليهم لعاين الله تترى وعلى محبيهم ومتبعيهم إلى يوم الدين**". ويجب أن يعلم أن الروح سميعة وبصيرة ومتكلمة، وإلا لما كان يظهر أثر هذه الصفات في القالب الجسماني، ومن المعلوم أن الباقي هو بقاء القالب قدر الإمكان نتيجة لإبقاء الروح.

وحين عرف ــ العاقل ذو البصيرة ــ ذات الروح بهذه الثماني صفات، وشاهد أثرها في ذاته، ورأى أن قالبه متحرك ومتصرف نتيجة لهذه الصفات، لكي يصدر عنه الكثير من الأعمال اللطيفة والصناعات الظريفة، وتزداد الروح علماً كل يوم، ويعرف أن للروح موجداً وخالقاً وصانعاً، وأن وجوده ليس بذاته، وليس بوجود الروح، وإنما كان صادراً عن الحق.

وهو سبحانه وتعالى يتصف بهذه الثماني صفات التي ذكرت من قبل وسائر الأوصاف الأخرى، حتى يمكنه أن يوجد الموجودات، ويكون ذات الموجد قائماً بذاته، وإلاّ صارَ في احتياج ويظهر التسلسل اللازم. ويجب أن تكون هذه الصفات قائمة بذاته أي تكون عين ذاته، وليست زائدة على الذات. وهكذا يجب أن تكون هذه الذات أزلية وأبدية. فإذا لم تكن أزلية فستصير محلاً للحدوث، وستصبح من قبيل الأعراض. ويجب أن تكون أبدية، لأنها إذا لم تكن كذلك فإن التناهي اللازم سيظهر عليها وهذا لا يجوز.

ولكن عليه أن يدرك أن لحضرة الألوهية صفات الفاعل والموجد والقادر والصانع على الإطلاق؛ وليعلم أن الروح نزلت فيما يسمى بالقالب في عالم الصغرى نيابة وخلافة عن الحق تعالى. وليعلم أن أفعال الحق نوعان: أحدهما بواسطة الشخص الإنساني، والأخرى بلا واسطة.

فأما ما هو بالواسطة في العالم الأصغر، فهو ذلك القالب الإنساني بواسطة الروح والآلات والأدوات النفسانية كالنفس النامية والنفس الحيوانية، والنفس الطبيعية كالحواس الظاهرة والباطنة والجوارح والأعضاء. وهذه جميعها هي الحرف والصناعات التي تظهر نتيجة لتلك الأفاعيل.

وأما ما ليس بواسطة الشخص الإنساني، فهو من أفعال الحق، وذلك ما ظهرت نتيجته في آفاق العالم الكبير وأنفس العالم الصغير، أما ما ظهر في آفاق السماء بهذه الرفعة، واستضاء بتلك الكواكب المتلألئة نتيجة لانعكاساتها كقوله تعالى: "وزيناها للناظرين"[1]، وما ظهر في الأرض القاحلة الحالكة اليباب من الورود والشقائق الكثيرة والمياه الفياضة الجارية وأنواع الأشجار والأزهار والثمار والنبات والحيوان والعناصر المفردة والمركبة والمعادن وغيرها كقوله تعالى: "إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون"[2]. أما ما في الأنفس من قطرات الماء، فقد خُلِقَت شخصاً ظريفاً له حواس السمع والبصر والكلام والجوارح والأعضاء على هذه الصورة اللطيفة كقوله تعالى: "إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيرا"[3].

(١) سورة الحجر: آية ١٦.

(٢) سورة البقرة: آية ١٦٤.

(٣) سورة الإنسان: آية ٢.

وحين يشاهد صاحب السعادة وصاحب البصيرة ـ بنور رؤية الحق ـ آيات الحق، وهي نتيجة لأفعاله، في مرآة نفسه كقوله تعالى: "**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم**"[1]، ويعرف كمال الحق بهذا القالب الذي هو عالم صغير ولم يخلق بعده غيره، ويعرف أيضاً أن الروح قائمة فيه بالخلافة منذ الأزل الإلهي، فيدرك أنه عندما ينقطع عنه تصرف الروح، فلن يبقى هذا القالب وسيفنى ويزول، ثم يتأكد أنه يستلزم أن يكون هناك في العالم الكبير ـ وهو الدنيا ـ صانع وفاعل ليدبر أمرها، حتى تظهر الألوف المؤلفة من الآثار والأحوال نتيجة لأفعاله؛ كما أن الصناعات تظهر في عالم الكبرى بهذه اللطافة، لأنه إذا لم يكن يعمل فيها بأمر المتصرف القادر والكامل والموجد والحكيم، فلن تقوم له قائمة. وحين ينقطع عنه تصرف قدرة القادر، فإنه يسقط في الحال ويفنى، ولن يبقى له أثر لقوله تعالى: "**كل شيء هالك إلى وجهه**"[2] ويظهر في هذا المقام حقيقة القول "**من عرف نفسه فقد عرف ربه**"، وينكشف سر قوله تعالى: "**وفي أنفسكم أفلا تبصرون**"[3].

ومن ثم فالمؤكد أنه حين تتفتح عين البصيرة لأرباب الحرف وأهل الصناعات وينظرون من كوة خلقهم وخالقهم، فيتجلى لهم جمال صُنع الصانع الحق كما قال ذلك الرسول العظيم: "**ما نظرت في شيء إلا ورأيت الله فيه**"، وعندئذ تتفتح عين البصيرة التي تحجب عين هوى النفس عن مشاهدة زخارف الدنيا والمستلذات النفسية والشيطانية والشهوات الحيوانية، ويعلمون حقيقة أن

---

(۱) سورة فصلت: آية ٥٣.

(۲) سورة القصص: آية ۸۸.

(۳) سورة الذاريات: آية ۲۱.

الدنيا على مثال الخانقاه، وحضرة الالوهية فيها بمثابة الشيخ، والرسول عليه السلام هو الخادم. وعلى هذا قال (عليه السلام): "**سيد القوم خادمهم**"، والخلائق على نوعين: إما خادمون أو مخدومون، وكل من في الخاقناه لن يخرج عن هذين النوعين: فإما أن يكونوا عمالاً وخدماً للخانقاه حيث ينصب الشيخ كلا منهم في خدمة ويعهد إليه بذلك العمل أمانة في عنقه، وإما إن يكونوا جميعاً من الطلاب والمخدومين الذين لا يقومون بأي عمل أو أي كسب بسبب غلبات الشوق ودواعي المحبة وألم الطلب فأعرضوا عن هوى النفس والخلق، وولوا وجوههم ناحية جدار الرياضة والمجاهدة:

حين تحطمت أسرار حُبه في القلب
فإنني لا أعطى أشواك عشقه بكل زهور العالم
إننا قد ولينا ظهورنا لدنيا السرور
ومن ثم لم يبق لنا إلا الوجوه الصفراء وجدار حبه

وقد خصص الشيخ خادماً لهاتين الطائفتين، لكي يزاول كل منهم عمله في مقامه ويقدم لهم المدد والعون، ويقدم لهم الدليل والهداية والإرشاد حتى يقوم العمال والخدم بخدمة الطلاب والسالكين، وحتى يشتغل الطلاب والسالكون ـ في هدوء خاطر وسكينة ـ بالطاعة والعبودية، لأنه إذا كان جميع من في الخانقاه من الطلاب والسالكين، أو كانوا جميعاً من العمال والخدم لاختلفت الأوضاع وفسدت الأمور وما استقر لها قرار. ومن ثم يجب أن تتفرغ كل طائفة

لعملها لقوله تعالى: "فإذا فرغت فانصب"[1]، وتقوم طائفة بالعمل لقوله تعالى: "ليس للإنسان إلا ما سعى"[2].

لقد انشغلت بعشقك عن كل عمل
فإن هذا العمل ليس لمن لديه عمل

وعلى هذا فالخلق في خانقاه الدنيا طائفتان:

الأولى: هم المخدومون الذين اتجهوا إلى عالم الآخرة وخدمة الحق. والحق تعالى ــ وهو الخالق وشيخ الخانقاه ــ قد أمر الدنيا بخدمة كل من فيها بالقول: **"يا دنيا اخدمي من خدمني واستخدمي من خدمك"**.

الثانية: فهم طلاب الدنيا من العمال والخدم، وكل منهم معين لخدمة ما في هذه الخانقاة من الملوك التجار أصحاب الحرف وأرباب الصناعات الموجودين بها، ولكن أعضاء تلك الطائفة مشغولون بالعبودية الخاصة للحق، وهم خلاصة الموجودات لقوله تعالى: **"وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون"**[3]. ومعنى الآية هو أن كلا من الجن والإنس مشغول في عمله من أجل الله، حتى أن أولئك المخلصين الذين تخلصوا من محبة الدنيا وهوى النفس وتصرف الشيطان، يتفرغون لعبودية الحق ورعاية

---

(١) سورة الشرح: آية ٧.
(٢) سورة النجم: آية ٣٩.
(٣) سورة الذاريات: آية ٥٦.

الدين لقوله تعالى: "وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين"[1]. ولكن الأنبياء عليهم السلام اختصوا بخدمتهم كما في الحديث "**أوحى الله تعالى إلى داود، فقال يا داود: إذا رأيت لي طالباً فكن له خادماً**"؛ ومن ثم فكل من يكونون في الخانقاه من الخدم والعمال مشغولون بخدمة السالكين والطلاب، ويجعلون الخدمة وسيلة للتقرب إلى الحق. وحين يصل الخواص بذلك إلى الحق تعالى، فإنما يصل إلى العمال والخدم ـ وهم الخادمون ـ نصيبهم من الألطاف الألوهية.

ذات مرة كان هذا الضعيف في خراسان مجالساً لجمع من الدراويش في خلوة، وكان هناك درويش قائم بخدمتهم، فكان يرى في بعض المكاشفات أن إمداد فيض اللطيف كان ينزل من الحضرة الإلهية إلى كل أصحاب الخلوة، ويأتي لذلك الخادم نصيبه الخاص من كل خلوة.

وهكذا فأهل الدنيا من خدم وعمال خانقاه الدنيا، إذا قام كل شخص بصناعته حسب ما يريد ـ مثلما أقوم أنا بهذا العمل من أجل عبيد الحق ـ لأنهم محتاجون إلى هذا العمل، حتى تنقضي حاجة المسلمين، وحتي يشغل الخلق بالحق تعالى في سكينة. وإذا شغل كل شخص بما يحتاجه من الأعمال، لانصرف عن أمر الدين والدنيا، وخرب العالم، وما بقى لشخص فراغ للطاعة وسكينة للإخلاص في العمل.

ولكن حضرة الحق تعالى قد خصص لكل شخص ـ بكمال حكمته وعظيم قدرته ـ خدمة وصنعة يمكنه أن يعمل في تلك الخدمة والحرفة مدة خمسين

(١) سورة البينة: آية ٥.

عاماً أو مائة عام دون أن يغير هذا العمل في يوم ما. وحين يقوم أرباب الصناعة ـ الذين في هذه الخانقاه وخرابات الدنيا ـ بتلك الخدمة، ويؤدون ما يفعلونه وفقاً لأمر الشيخ، الذي هو حضرة الجليل، وبدلالة وإرشاد الخادم الفعلي والسيد الحقيقي "محمد رسول الله" ويراعون الشفقة والأمانة، فسيكونون ثابتي القدم على جادة الشريعة في كل الأحوال، ويحفظون كسبهم من المال الحرام والشبهة فلا يأخذون الزيادة ولا ينقصون، ولا يتعاملون مع الشخص الذي ماله حرام طالما أنهم لم يعرفوا ذلك، ولا يتجهون في صنعته للأمر المعيب قط، ويقيمون حد الإنصاف. وحينما يوجد شخص لا يعرف قيمة تلك الحرفة، فلا يبيع له بالزيادة ولكن بنفس الثمن الذي يعرفه، ويحترس جيداً من الخيانة والغش. وقد ذهب الرسول عليه السلام ذات يوم إلى السوق فرأى قِدْراً من القمح مكتالة ومباعة فوضع يده المباركة في وسط القمح فتبللت يده فقال: ما هذا؟ فقال صاحب الطعام: يا رسول الله: إنها تبللت بالمطر، فقال الرسول عليه السلام: لماذا لم يظهر البلل على وجه القمح حتى يراه كل شخص. وعندئذ قال الرسول: **"من غش فليس من أمتي"**.

وعليه أن يبذل وسعه في أن يعطي الفقراء نصيباً من كد يده وكسبه عن عزة نفس وطيب خاطر، لأنه ورد في رواية، أن داود عليه السلام ناجى ربه قائلاً: يا الهي إني أحب أن أرى رفيقي في الجنة، فقال الحق تعالى: أخرج غداً من المدينة، وأول شخص تقابله سيكون هو. وخرج داود عليه السلام فرأى شخصاً معه حمل من الحطب، فحياه وسأله: **ما هي معاملتك مع حضرة الحق حتى نلت بتلك الوسيلة مرتبة رفقة الأنبياء في الجنة؟** فقال: كل يوم أجمع حزمة من هذا الحطب وأتجه إلى المدينة وأبيعها بدرهم واحد. ولي أم أنفق عليها دانقين، وأنفق على العيال دانقين، وأنفق دانقين على الفقراء، فقال داود عليه السلام: اذهب فإن الحق تعالى قد جعلك رفيقاً للأنبياء، ثم قال له داود عليه

السلام: فلتأت إليّ كل يوم حتى أعطيك هذا الدرهم وتكون رفيقي في الجنة إذا أردت ذلك، ولتكن رفيقي في الدنيا أيضاً، فقال الفقير: إذا كنت بهذه المرتبة رفيقاً لك في الجنة، فإنما قد نلتها بكسب يدي والتحمل لأن اليد حينما تنال من هذا، فلن تصل إلى هذه المرتبة وإني سأجدّ في العمل على هذا المنوال وسأقوم بخدمة الحق والخلق حتى يبلغ الأجل.

والحق تعالى يكرم عبيده بلطفه أيضاً بهذه المرتبة، ويقدم لهم الواجب بقوله تعالى: **"يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم"**(١)، أي أنفقوا ذلك المال الحلال الذي كسبتموه. والنفقة هنا بمعنى الصدقة، أي فلتنفقوا على أنفسكم ولتتصدقوا على الفقراء. وتأكيدا لهذا المعنى يقول تعالى في موضع آخر: **"فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير"**(٢)، وقد وضح الرسول عليه السلام أن الكسب هو أحل الأموال بقوله: **"أن أطيب ما يأكل الرجل من كسب يده"**. وحين يجتهد أرباب الحرف والصناعات من عمال خانقاه الدنيا في القيام بهذه الشروط التي ذكرناها، فإن الحق تعالى يمنحهم كل ثواب الأنبياء والأولياء ومقاماتهم، ويعطي نصيباً لهذه الجماعة لأنهم كانوا خدماً ومحبين لهم، ولذا فإنهم سيحشرون يوم القيامة مع هؤلاء العبيد كما يقول تعالى: **"فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً"**(٣).

أما ما سبق أن قدمناه عن هذه الجماعات والطوائف المختلفة في فصول هذا الباب الثمانية لشرح سلوكهم وأحوالهم، فإذا أرادوا أن يكونوا أكثر نصيباً

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٦٧.

(٢) سورة الحج: آية ٢٨.

(٣) سورة النساء: آية ٦٩.

من ذوق مشارب الرجال ومقامات المقربين في الأوراد، فعليهم أن يقوموا قدر وسعهم بالطاعة وواجبات الذكر وسهر الليل وتجرد الباطن عن محبة الدنيا والإقلال من الطعام وإذلال النفس والتصفية والتزكية والتجلية والتخلية والتحلية، والتي أوضحناها في تلك الفصول. ومن المؤكد أن كل من يتعب أكثر سيجد ثمرة أكثر حيث قال الرسول: "**أجرك على قدر سعيك وتعبك**".

أيها العاقل إن الكنوز في التعب
ولا يستحق شخص الكنوز ما لم يلق التعب

رغم أنه من المصادفات الحسنة والعناية الإلهية أن من يحظى بذلك الإقبال إنما هو الذي يتشرف بخدمة شيخ من المشايخ ويعالج المعالجة الدينية بنظره وبصيرته، ويكسر وعاء سفاك الدماء للنفس الأمارة على جناح همته وكنف سعادته لأنه حين وصلت الآلاف المؤلفة من الصادقين والصديقين إلى كل درجة وكل مقام دون دليل إنما أفنوا الروح اللطيفة ولم يدركوا جمال كعبة المقصود. وهكذا يلزم للمشايخ الطيبين الحاذقين دليل ومرشد، رغم أنهم كانوا في كل قرن عزيزي الوجود وعديمي النظر، ولكنهم في هذا العصر صاروا مرة واحدة كالكبريت الأحمر وعنقاء المغرب. ومن الأعجب أنه لو ندر وجود هذا الكبريت في ذلك الموضع الترابي الحالك غير المعروف، وعنقاء المغرب ذاك أكثر حرماناً من الغراب الغريب بسبب عدم البصيرة المدقع وجهل أهل العصر واستغراق الخلق في الدنيا وغفلة الموت وأمر الآخرة والحساب والصراط والثواب والعقاب والمرجع والمعاد كقوله تعالى: "**يعلمون ظاهراً من**

الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون"[1]، فما قيمة الكحل الأغبر في نظر الأعمى، وما قيمة جمال الشمس؟. ومع هذا فإن تلك الغيرة الربانية لخواص الحق في حجب الغيرة تكون بواسطة المدعين الكاذبين في عصرهم. وحين عرفوا الكامل المكمل والطبيب الحاذق، فقد أسدل الحجب على وجههم وأخفاها تحت قبة غيرة عدم معرفتهم لغير ذاته لقوله عليه السلام: "**أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري**".

خليلي ما لي لا أرى غير شاعر — فكم منكم الدعوى ومني القصائد
أجل فاعلما أن السيوف كثيرة — ولكن سيف الدولة اليوم واحد

ما أكثر المدعين في هذه الصنعة ولكن
الأذكياء يعرفون الفرق بين الثوم والسوسن والفرق بين الشوك والياسمين
بدون جمال يوسف وبلا عشق يعقوب، فمن الهراء
فإنه لن تأتي التوتياء من كل ريح ومن كل قميص[2]

ولكن كل صاحب سعادة يريد أن يكتحل بإرادة العناية من مكحلة الهداية بكحل ألم الطلب في عين روحه، فلابد أن تحجب ريح العاطفة من مهب الرأفة، حتى يزاح نقاب الغيرة من على باب خيمة العزة، ويعرض جمال كمال ذلك الطبيب الحاذق للدين والدليل والمرشد لعالم اليقين، على نظر ذلك الطالب صاحب

---

(١) سورة الروم: آية ٧.
(٢) سنائي الغزنوي: ديوان السنائي: ص٤٠٥ ، ٤٠٦.

السعادة. وإذا كان الطالب الصادق في المشرق والطبيب الحاذق في المغـــرب، فإما أن يصل الطالب إلى غرض المطلوب، أو يقدم المطلوب إلى باب الطـالب، كما يرد في هذا المعنى:

لـــو تعطـــي السعــــادة والديـــن
أو يغلـب عليـك ريـح الإرادة والطلـــب
فإما أن تحملك شـعرة جاذبـة إلـى الشـيخ
وإمـا أن يتجـه هـو نحـوك مســـرعاً

(اللهم اجعلنا من عبادك الصالحين وخواصك المقربين الهادين المهديين، وأنزلنا حظيرة قدسك مع أهل أنسك من الأنبياء والمرسلين، واختم لنا ولأمـة محمد عليه السلام بخاتمة الفائزين، وصلى الله على محمد وآلـه وأصحابـه وعترته أجمعين: آمين يا رب العالمين).

اكتمل هذا الكتاب المشحون بحقائق العلوم، المكنون بـــالتوفيق والتـأييد الإلهي اللا نهائي، وفيض فضل القادر بأمر "**كن فيكون**"، والدولـــة الميمونـة، ويُمن الهمة الهمايونية للملك ناشر الدين والسلطان باسـط العـدل كيخسـروى السيادة والنهج، كيقبادى الأصل، أعلى الله في الدارين أعلام دولته، ونشر فـي الخافقين جناح سلطنته، على يد مسطر هذه المعاني ومشيد هذه المباني الفقـير إلى الله تعالى أبو بكر عبدالله بن محمد بن شاهاور الأسدي الرازي فـي يـوم الاثنين غرة الشهر المبارك رجب، أعظم الله قدره وبارك علينا هلاله، في عـام عشرين وستمائة من الهجرة في سيواس المحروسة حرسها الله.

والأمل في العناية الأبدية والعاطفة اللا نهائية لحضرة الجليل أن يكون مأجوراً بهذا التوسل والتقرب، وليس معرضًا للجور، وأن ينظر لهذا الكتاب في حضرة السلطنة ولا يهجر، إذ لا يمكنه أن يحتوي على السطحيات من كنوز الحقائق، ولم يطلع طيلة عمره على رموزها ودقائقها. ومهما تكن هذه المعاني أكثر وضوحاً وبرهاناً من هذا، فلا يمكن بيانها هكذا في سلك العبارة، ولكنها تبقى حلاً لبعض المشكلات من الرموز والإشارات للغة الطيور، وبذا يمكنها أن تصير مثلما يكون لسليمان:

كل قلب لا يحتمل حمل بيان كلامي
ولا تتذوق كل روح ذوقاً من روح كلامي
فهذا النوع المعمي هو لسان الكلام
وأنا اعرف أيضاً أنه ترجمان لكلامي

وولكن ملتمس هذا الضعيف في إتمام هذه الخدمة، من تلك الحضرة السماوية الرفعة، ليس المال والجاه الدنيوي، رغم ما حدث في مثل هذه الواقعة الهائلة والمصيبة العامة، حاشا لله، عن حضرة السلطان، من الوطن إلى الغربة، ومن السرور إلى الكربة، ومن الكثرة إلى القلة، ومن الاتحاد إلى الفرقة؛ ولا أقول من العزة إلى الذلة لأن عزة الفقر لا ترى وجه الذلة مطلقاً، والفقر والفخر رفيقان لقوله عليه السلام: **"الفقر فخري"**.

الله يعلم والأيام تعرفنا أنا كرام ولكنا مفاليس

ولكن الرجاء والأمل هو أن يفتح باب هذه الخزانة ـ خزانة الأسرار الإلهية بنقود المواهب الأبية ـ في أوقات الخلوات وساعات الفراغ بيد

الضراعة ومفتاح الإخلاص وينكشف سر أدراج أبوابها وفصولها المليئة بالجواهر الثمينة للحقائق والأصول، وتطالع دررها وغررها بعين البصيرة، بحق الإخلاص للعقيدة، وتصل زكاتها إلى عامل الأعمال ووكيل الاستعمال، حتى تنفق نفقات أصناف الزكاة والصدقة على المستحقين من الروحانيين والجسمانيين، وحتى يخط هذا المسكين بقلمه في كل موضع ما يحققه الملك ناشر الدين والسلطان باسط العدل على العالم والعالمين، وحتى تصل فوائدها إلى جميع العالم والعالمين. وهذا المعنى مدعاة للفخر والعجب. وإن شاء الله تعالى لن يؤاخذ ولن يعاقب هذا الضعيف في حضرة السلطان الحقيقي لا بالغرامة ولا بالندم ولا بالخجل:

أيها الملك إن انتظاري من خدمة كهذه
ليس جبة ولا عمامة ولا طيلساناً ولا رداء
وليس الجاه أو المنصب أو التأدب في الرفض والقبول
وليس المال والنعمة والثروة أو حب الدنيا
وليس أيضاً اللبن والخمر والعسل وليست الفاكهة أو الطيور
وليس الخلد والحور والقصور ولا ظل شجرة طوبى
ولكن أمل الداعية في شيئين فقط
والنتيجة منهما أيضاً واحدة:
الأولى متعة ملك العالم أدامه الله
والثانية بيان المقامات وكشف دين الهدى
لأنه بهاتين الوسيلتين يكون الثبات في مقعد صدق
وهذا هو المقصد والمقصود من حضرة المولى
ولو أعطى الملك الزكاة لعامل الأعمال
من هذه الخزانة لصار وردي الوجنات في الآخرة

وإنـــــي لا أخشـر شيئـــــأ ممـا سطـــــرت
ولا أخجــــل مــن فطــــــي إيــــــاها
إن أديب صابر أيها الملــــــك العـــادل في هـــذا البـاب
ينشد بيتـاً واحـــداً وهــو جميـــل جـــــداً
إنــي قـد دعوتــــك فــي مائــة قصيــدة بالكريم الحليـم
فــلا تفعـل ما يصيبني بالخجـل من هـــذه الدعـــوى[1]
أيهـــا الملك فليكـن لـك ألـف مجلد كتاب من هذا النــوع
قـد خصصـــت لحضـــرتكِ بهـذا المعنـــــــى

وإنه لجدير بالعاطفة الملكية أن ينظر ويطلع بعين الرضا لــــهذه التحفــة الدرويشية، وأن يعفو، بعفو الملوك، زلات قدم المخلصين وهفوات قلم الداعيـن، ويعرف أن ذلك من جملة: "كلام العشاق يطوى ولا يروى". وفي النهاية يختتـم الكتاب بالدعاء المنظوم حتى تناله البركات، وحتى يكون "ختامه مسك"[2]

يـــا رب فلتنـــزل هـذا الظـل الإلــهي
إلــى سلطنــة هـــذا المليــك للدنيـــا
ولتجعـل فــي كنفـه عــاطفتك ورحمتـــك
لـــهذا الحامـــي لبيضـــة الإســلام

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه محمـــد وآلـــه وأولاده الطاهرين أجمعين.

---

(١) هذا البيت لأديب صابر الترمذي: انظر أديب صابر: الديوان: چاپ خاور: ص٢٤٦.

(٢) سورة المطففين: آية ٢٦.

مصادر البحث

(مصادر البحث)

لكتاب مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: المخطوطات:

أ - عربية:

دايه (نجم الدين):

- منارات السائرين إلى الله ومقامات الطائرين بالله: نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية (رقم ١٩١٥/١٣٦٦ تصوف طلعت) ونسخة أخرى مخطوطة بمكتبة الجامع الأزهر (رقم ٩٣٣/٣٤٧٧٦حليم). الدراسة القاهرة.

ب - أجنبية:

آذر (لطفي علي بك):

- آتشكده* آذر / باللغة الفارسية. بومباي عام ١٢٧٧ ش. الهند، مخطوط رقم ٥٩ فا، بقاعة الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة. مصر.

قاسم قرة الحصاري:

- إرشاد المريد إلى المراد في ترجمة مرصاد العباد: باللغة التركية. مخطوط رقم ٢٣٥٨ بمكتبة قاعة الدراسات الشرقية. جامعة القاهرة. مصر.

- المؤلف السابق: سلاجقة إيران والعراق، سلسلة المكتبة التاريخيــة، العدد ٧، عام ١٩٥٩م، القاهرة.
- بن عربي (محيي الدين)، محاضرة الأبرار ومســـامرة الأخيــار، الجزء الأول، عام ١٩٧٢، القاهرة.
- العطار (فريد الدين العطار النيسابوري): منطق الطـــير: ترجمـــة ودراسة الدكتور/ بديع محمد جمعة: مراجعة وتقديم الدكتور/ عبــد النعيم محمد حسنين: طبع القاهرة: عام ١٩٧٥م.
- على صافي حسين: الأدب الصوفي في مصر في القـــرن الســابع الهجري، دار المعارف، عام ١٩٦٤، مصر.
- عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، الجزء السادس، عام ١٣٧٨هــ (١٩٥٨م)، القاهرة.
- الغزالي (أبو حامد محمد): إحياء علوم الديــن، الجُــزءان الثــالث والرابع، عام ١٣٢٦هــ، مصر.
- فؤاد عبد المعطي الصياد:
- مؤرخ المغول الكبير، رشيد الديـــن فضـــل الله الــهمداني، عـــام ١٣٨٦هــ، (١٩٦٧م)، القاهرة.
- المغول في التاريخ، الجزء الأول، عام ١٩٧٠م، بيروت.
- قاسم غنى: تاريخ التصوف في الإسلام، ترجمة صـــادق نشــأت، مراجعة أحمد ناجي القيسي، ومحمد مصطفى حلمي، عـــام ١٩٧٢، القاهرة.
- القشيري (أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن)، الرسالة القشيرية، عام ١٣٨٦هــ (١٩٦٦م)، القاهرة.

- محمد محمدي: الأدب الفارسي في أهم أدواره وأشهر أعلامه، ١٩٦٧م، بيروت.
- محمد بن المنور بن أبي سعيد الميهني: أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد، ترجمة إسعاد عبد الهادي قنديل، ومراجعة يحيى الخشاب، عام ١٩٦٦م، القاهرة.
- النسوي (نور الدين محمد بن أحمد بن علي بن محمد المنشي): سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، نشر وتحقيق حافظ حمدي، دار الفكر العربي، عام ١٩٥٣، القاهرة.
- الهجويري (أبو عثمان): كشف المحجوب، الجزءان الأول والثاني، ترجمة إسعاد عبد الهادي قنديل، مراجعة أمين عبد المجيد بدوي، عام ١٩٧٦، القاهرة.
- ب – <u>المراجع الفارسية</u>:
- أديب صابر: ديوان أديب صابر ترمذي، بامقدمهٔ على قويم: كلالهٔ خاور تهران: سال ١٣٣٤ ش: تهران.
- آذر (لطف علي بك): آتشكدهٔ آذر، بكوشش حسن سادات ناصري، بخش سوم، ١٣٤٠ش، تهران.
- أنوري الخاوراني: ديوان أنوري، بكوشش سعيد نفيسي، ١٣٣٧ش، تهران.
- جامي (عبد الرحمن بن أحمد): نفحات الأنس في حضرات القدس، بتصحيح ومقدمهٔ وپيوست: مهدي توحيدي پور، ١٣٦٥ ش (١٣٣٧هـ)، تهران.
- حسين فريور: تاريخ أدبيات إيران وتاريخ شعرا ، چاب پانزدهم – ١٣٥٢ ش (١٣٨٣هـ) تهران.

- حمد الله مستوفي القزويني: تاريخ گزيده، بسعي واهتمـــام إدوارد براون، ١٣٢٨هـ (١٩١٠م)، لندن.
- داية (نجم الدين): مرصاد العباد من المبدأ إلـى المعـاد، باهتمـام شمس العرفاء، ١٣٣٦ش (١٣٧٧هـ)، تهران. وطبعة أخرى عـن كتاب مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد، باهتمام دكتر محمد أميـن رياحي، تهران، سال ١٣٥٢ ش (١٩٧٣م)
- دولتشاه السمرقندي: تذكرة الشعراء، مراجعه وتقديم محمد إقبـال، ١٩٢٤م، لاهور.
- ذبيح الله صفا، تاريخ أدبيات درايرن، جلد دوم وسوم، قسمت أول، چاپ سوم ١٣٣٩ش، تهران، وأيضـاً جلـد سـوم، بخـش دوم ١٣٥٢ش (١٩٧٣)،تهران.
- الرومي (جلال الدين محمد مشـهور بمولـوي): فيـه مـا فيـه، باتصحيحات وحواشي بديع الزمان فروزا نفر ، ١٣٣٠ش، تهران.
- سعدي الشيرازي: بوستان، باهتمام محمد علي فروغي، چاپخانـهٔ بروخيم، تهران ١٣١٦ش.
- السمرقندي (نظامي عروضي): چهار مقاله، تحقيق محمـد عبـد الوهاب القزويني: ١٣٢٧هـ (١٩٠٩م) لندن.
- سنائي الغزنوى: حديقة الحقيقة، جمع وتصحيح محمد تقى مدرسـي رضوى، چاپخانهٔ سپهر: عام ١٣٢٩ش، تهران.
- المؤلف السابق: سير العباد إلى المعاد، بكوشش محمد تقى مدرسـي رضوى، عام ١٣٤٨ش، تهران.
- ديوان السنائي: بسعي واهتمام محمد تقى مدرسي رضـوى، عـام ١٣٢٠ش، تهران.

- عباس إقبال: تاريخ مغول، جلد أول، چاپ سوم، عـــام ١٣٤٧ش، تهران.
- العطار (فريد الدين): تذكرة الأولياء، جلديكم ودوم، نشر رنولد آلن نيكلسون، با مقدمهٔ محمد عبد الوهاب قزويني، چاپ پنجم، عـــام ١٣٣٦ش (١٣٢٢هـ) تهران، وأيضا ط.عام ١٩٠٥ لندن.
- علي دشتي: دمي باخيام، عام ١٣٣٤ش، تهران.
- الغزالي (أبو الفتوح مجد الدين أحمد)، رسالهٔ السوانح في العشـق، بكوشش مهدي بياني، عام ١٣٣٢ش، تهران.
- فروزا نفر (بديع الزمان): رساله در تحقيق أحوال وزندگاني مولانا جلال الدين محمد مشهور بمولوى: چاپ دوم، ١٣٣٣ش، تهران.
- المؤلف السابق: مـــآخذ قصـص وتمثيـلات مثنـوى، ١٣٣٢ش (١٣٧٢هـ)، تهران.
- قاسم غنى: تاريخ تصـوف دراسـلام، جلـد دوم، قسـمت أول، ١٣٢٠ش (١٣٦٠هـ) تهران.
- محمد تقى بهار (ملك الشعراء): سبك شناسي، جلـد دوم وسـوم، ١٣٣١ش. تهران.
- محمد دارا شكوه: سفينة الأولياء، ١٢٩٥هـــ (١٨٧٨م) لكـهنو، الهند.
- محمد علي تبريزي معروف بمدرسي: ريحانة الأدب فـي تراجـم المعروفين بالكنية واللقب، جلد دوم وششم: چـاپ دوم، ١٣٣١ش، تهران.
- محمد عوفى، لباب الألباب، باشراف إدوارد بـراون، جلـد يكـم، ١٩٠٦م، لندن.

- محمد بن المنور بن أبي سعيد ميهنى، أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد، باهتمام ذبيح الله صفا، (١٣٣٢ش)، تهران.
- معصوم على شاه شيرازي، طرائق الحقائق، جلد دوم: چاپ يكم: (١٣١٩ش) تهران.
- منوچهر محسني: تحقيق در أحوال وآثار نجم الدين كبرى أويسي، (١٣٤٦ش)، (١٩٦٧م) تهران.
- هدايت (رضا قلى خان):
- رياض العارفين، ١٣١٦ش، تهران.
- مجمع الفصحاء، ١٣٣٦ش، تهران.

جـ- المرجع الأجنبية:

Arberry (A.J.) Classical Persian Literature: 1958. London.

Ethee (Herman):

Catalogue of Persian Manuscripts in the Liberary of the Indian office: Revised and Completed by: Edward Edwards. M.A.: V. II. 1903-1937 Oxford.

فهرس الكتاب

ثالثاً: المبحث الثالث: فكر الشيخ داية ومعتقداته

ويحتوي على الموضوعات التالية:

الجزء الثاني

ترجمة كتاب مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد

ويحتوي على مقدمة الناشر مع خمسة أبواب هي:

الباب الأول
في ديباجة الكتاب

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الباب الثاني
في مبدأ الموجودات

ويشتمل على خمسة فصول:

الباب الثالث
في معاش الخلق

ويشتمل على عشرين فصلا:

الباب الرابع

في معاد نفوس السعداء والأشقياء

ويشتمل على أربعة فصول:

الباب الخامس

في بيان سلوك الطوائف المختلفة

ويشتمل على ثمانية فصول: